الحياة السياسية في العراق

في عهد السيطرة المغولية

الدكتور

محمد صالح داود القزاز

مدرس التأريخ الاسلامي

كلية الآداب / جامعة بغداد

ساعدت جامعة بغداد على طبعه

مطبعة القضاء في النجف ـ تلفون ٣٧٤٨

١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

الحياة السياسية في العراق

في عهد السيطرة المغولية

الدكتور

محمد صالح داود القزاز

مدرس التأريخ الاسلامي

كلية الآداب / جامعة بغداد

ساعدت جامعة بغداد على طبعه

مطبعة القضاء في النجف الأشرف تلفون 3748

١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

بسم الله الرحمن الرحیم

الإهداء

أبي . لم يكن يدور في خلدي انني سأحرم من لقياك الى الأبد في وقت كان أعز ما أتمناه وقد حقق الله لي أمنيتك هو لقياك .

لقد فجعت وأنا في غربتي بفقدك ، وكان علي أن أكتم ذلك عن شركائي في الغربة ، أهل بيتي ، وان أداري أمري مع الكثير من أصحابي وزملائي لئلا يبين علي ما أخفيه من حزن ، فكنت أستعين على مقاساة ذلك بظلام الليل أخلو الى نفسي وأفرغ ما في عيني لكي أستعد ليوم جديد .

أي أبتاه . لقد كانت تعزيتك لي قبل ثلاث سنوات في ولدي ماجد خير عون لي على تحمل المصيبة بصبر واجتياز المحنة بعزم ، فمن يعزيني فيك الآن ؟ .

غفر الله لك حياً ، ورحمك ميتاً ، فقد كنت لي مثالاً المؤمن الصابر الزاهد فمن صمتك تعلمت الصبر على مكاره الحياة ، ومن قناعتك وزهدك تعلمت عزة النفس وعفة اللسان ، ومن تقواك تعلمت الايمان بالله والرضى بحكمه . فالحمد لله على قضائه . وإنا لله وإنا اليه راجعون .

ولدك

المقدمة

كتبها الأستاذ الدكتور حسن حبشي

المشرف على إعداد هذه الرسالة

حين طلب إلي الصديق الدكتور محمد صالح القزاز أن اكتب مقدمـة لمؤلفه (الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية) تنازعني عاملان متناقضان هما الاحجام والاقدام ، أما الاحجام فمبعثه أني ـ وقد سعدت بالاشراف على موضوعه إبان عمله للدكتوراه ـ كنت أختلف معه أحياناً من مواضع معينة حسب استقراء كل منا للنصوص المطروحة أمامنا ، ولكن تحركنا لا شعورياً فكرة استكمال الموضوع من شتى جوانبه ، وتدفعني أنا ـ على الخصوص ـ في أن يخرج البحث بالصورة التي تتكافأ وبراعة الصديق القزاز ومقدرته الايجابية التي تجلت لي فيما قام به من بحوث تأريخية جانبية في الموضوع ذاته أريد بها تأييـــد رأي ما او دحضه ، واذا كانت وجهات نظر كلينا قد أثارت مناقشات وجدلا عنيفين في بعض الأحيان بيني وبينه في مجالس طالت بالقاهرة ، فانها كانت في اعتقادي كوى ونوافذ نطل منها على هذا الموضوع الدقيق من زوايا مختلفة ونلقي عليه أضواء تنير بعض ما فيه من غموض .

أما الاقدام على تلبية طلب الدكتور القزاز فكانت تدفعني اليه عوامل مختلفة منها ما أحسه من الاعتزاز باشرافي على هذا الموضوع وإعجابي بجهد المؤلف وصبره وعمله المتواصل المثمر خـلال سنوات اضطلاعه به في صمت المؤمن بواجبه المستشعر بمسؤوليته أمام ضميره وقرائه ، الراغب في أن يخرجه في غير ذي عوج متجنباً ماوسعه الجهد مزالق الخطأ وإن لم يضره ما يوجه اليه من نقد بناء هادف .

ولست أستعرض في هذه الكلمات فصول البحث ومواضيعها فما كان ذلك في اعتقادي قط هدف المقدمات وإلا كانت بديلا عن الكتاب ذاته ومحاولة - وإن تكن عفوية غير مقصودة لصرف القارئ عن مطالعته ، ثم انها لا ينبغي أن تكون دراسة وبحثاً إلا إذا أحس مقدم الكتاب نقصاً ينبغي تداركه ومن ثم فلا داعي لهذا الأمر ذلك لأن الكتاب يحدث عن نفسه وما تضمنه سواء أكان ذلك من الناحية الموضوعية او المنهجية ، وقد يختلف قراؤه - حسب ميولهم - حتى لو كانوا من اهل فن واحد من حيث طريقة العرض والتناول بالبسط والايجاز وتبويب فصوله وتقديم بعضها على البعض الآخر ، ثم اسلوب الكاتب من معالجة الآراء من حيث النقد او الاستصواب او الحيرة من جانبه ، على انني أحسب انهم سيتفقون معي على ان هذا الكتاب الذي بين ايديهم الساعة قد تضمن دراسة عميقة لموضوع شائك شائق ذي مزالق قل أن يتجنب معظمها إلا من توفرت لهم خلفية تاريخية وإصالة قوم عودها اطلاع عميق ، وكذلك كان دأب صديقنا الدكتور القزاز على مداومة النظر في كتب التأريخ والرحلات والمذكرات واطلاع مشكور على الوثائق مابين عربية وغير عربية استوعبها ثم استلهمها خفاياها فآتت أكلها هذه الثمرة الفكرية الشهية .

ولا يسعني في ختام هـذه الكلمات إلا أن أرجو لمدرسة التأريخ الاسلامي الكثيرين من امثال الدكتور القزاز الدؤوبين على العمل ، البارعين في استكناه الأحداث لاخراج دراسات جديدة ، العاملين في تؤدة وصبر وصمت .

القاهرة

حسن حبشي

استاذ التأريخ الاسلامي في كلية الآداب

جامعة عين شمس

مقدمة المؤلف

كان سقوط بغداد على يد المغول في منتصف القرن السابع الهجري حداً فاصلا بين عهدين حضاريين عهد سابق وصلت فيه الحضارة العربية الاسلامية درجة متقدمة من النضوج الفكري والرقي العلمي ، وعهد لاحق زالت فيه الخلافة العباسية منها بما تمثله من قيم دينية التف حولها الناس وخضعوا لسلطانها الروحي ، وتعرضت فيه الحضارة الى الضياع بسبب ما رافق عملية الاستيلاء المغولي من نهب وحرق وتخريب ، وما اصاب سكان البلاد من قتل وتشريد .

ونشأ عن الاحتلال المغولي للبلاد الاسلامية عامة ، وللعراق مركز الخلافة خاصة جمود هذه الحضارة على الصورة التي قد بلغتها من قبل ، وتوقف الحركة الفكرية ، او ضعفها كثيراً واقتصارها على التكرار والهوامش فقط ، وخلوها من عنصر الابداع والابتكار الذي كان مميزاً لها ، والذي لا ينمو ويزدهر إلا في ظلال حرية الفكر ، حتى اصبحت الفترة التي أعقبت السقوط تعرف بالفترة المظلمة كناية عن توقف الفكر طيلة الفترة التي استغرقها الاحتلال الأجنبي لبلادنا العربية والاسلامية ، والتي لا زلنا حتى الآن نعاني الكثير من آثارها المتمثل في تخلفنا الحضاري وتأخرنا العلمي بالنسبة لما وصلت اليه الحضارة العالمية .

ولم يقتصر تأثير هذا الغزو على الفترة التي أعقبت وقوعه ، وانما كان أثره رجعياً لعدة عقود من السنين قبل حدوثه ، يدل على ذلك فقداننا لأكثر تراثنا العلمي

الذي ألف خلال العصر العباسي الأخير والذي أتلف او أحرق خلال حركة الغزو ، ولولا أن بعض هـذا التراث كان قد انتشر في ارجاء العالم الاسلامي ، فحفظته لنا خزائن دمشق والقاهرة خاصة التي نجت من البطش المغولي لكنا فقدنا كل أثر له . شأنه في هذا شأن الكثير من المؤلفات التي نقرأ عنها ولا نجد أثراً لها .

لقد تحسست بهذا الضياع منذ أن كنت احضر لموضوعي السابق عن الحياة السياسية للعراق في العصر العباسي الأخير الذي كنت تقدمت به لنيل درجة الماجستير فراعني هذا النقص الذي أفقد المكتبة العربية الكثير من جواهرها الفكرية ، وأوجد حلقة ناقصة في دراسة التأريخ العربي الأمر الذي أثار فيّ العزم على محاولة دراسة هذا النقص وسد بعض فراغه قدر الامكان .

واستأنست بآراء أساتذتي ، فكانوا جميعاً بين مشجع ومشفق ، شجعني جميعهم على ارتياد عملية البحث في هذه الفترة واكدوا حاجتنا الى كشفها وإبراز معالمها ، ولكنهم لم ينسوا أن ينبهوني الى الصعاب والمشاق التي ستواجهني والتي قد يغلب اليأس خلالها على النفس فيؤدي بي الى الفشل . واستخرت الله واستعنت برحمته وعزمت على العمل مشجعاً بتشجيع اساتذتي الذين ساعدوني على تذليل الكثير من صعابه وتحديد ملامحه .

وقضيت اكثر من شهرين اتنقل خلالها بين فهارس الكتب ودورها ، قديمها وحديثها ، مطبوعها ومخطوطها ، ظاهرها ومدفونها . حتى امتلأت رئتايا من عبير ترابها وغاصت عينايا من نقيع غبارها .

وتفتحت أمامي آفاق البحث وتعددت سبله ، ووجـدت ان ما بقي من تراثنا الحضاري على قيد الحياة بعد النكبة ، قد سطت عليه ايدي الجهلاء وباعوه بثمن بخس فاذا هو موزع بين متاحف ومكتبات لندن وباريس وبرلين وفينا . والقليل منه بقي في بعض مكتباتنا الاسلامية في القسطنطينية خاصة . وأقل منه الذي بقي في بعض الخزائن

الخاصة التي يضن اصحابها بها ان ترى النور . ووجـــدت ان دار الكتب والوثائق القومية في ج ع م . وقسم المخطوطات وإحياء التراث في الجامعة العربية قد بذلا اوفر الجهد في ملاحقة وتصوير ما تيسر لهم العثور عليه من هـذا التراث المبعثر ، ويسروه لطلاب البحث بأسهل السبل وأقل التكاليف ، وسعيت بدوري لملاحقة بقيتى من هذا التراث ، واستعنت بالكثير من الاخوة والاصدقاء الذين يسروا لي بعض حاجتى وخاصة من مكتبات بغداد والشام وبيروت .

لقد رجعت في إعداد هذا البحث الى اقدم المراجع التى تيسر لي العثور عليها ، من ذلك المراجع الفارسية التى عاصر مؤلفوها احداث الغزو المغولي والذي ساهم بعضهم في تثبيت اركانه .

وفي هذا المجال يأتي مؤلف الجويني المسمى جهانكشاي في مقدمتها جميعاً ، ذلك ان مؤلفه عطا ملك كان قد نشأ في قدوم المغول ورافق حملاتهم على الخلافة خاصة ثم تولى مسؤولية الحكم في بغداد لأكثر من عشرين سنة بعـد سقوطها . لذلك جاء مؤلفه الذي تنتهي احداثه قبيل سقوط بغداد شاملا لأحداث الغزو مفصلا لأحوال الامارات الاسلامية التي تعرضت لهم ويمكن القول انه اصبح مرجعاً لكل بحث عن المغول ، وان اغلب الذين كتبوا عنهم كانوا عالة عليه .

ويأتي الجوزجاني بالدرجة الثانية في مؤلفيه طبقات ناصري ، وتاريخ آل جنكيز.

ويمتاز مؤلف رشيد الدين . جامع التواريخ بقسميه المخطوط والمطبوع بأهمية خاصة في التأريخ المغولي . فانه بالرغم من تأخره الزمني عن سـابقيه فقد تيسرت له كل عوامل المساعدة التي جعلت من مؤلفه اوثق مرجع عنهم .

ويأتي تأريخ وصاف . لعبدالله فضل الشيرازي تالياً لهم في الاهمية بالرغم من غلبة السجع والصناعة على اسلوبه ، وقد قدمه مؤلفه لاولجايتو .

وكذلك مؤلفا حمد الله مستوفي القزويني تاريخ كزيدة ، ونزهة القلوب ، لهما

اهمية في هذا المجال . اذ ان المؤلف عاصر ايام ابي سعيد واشغل بعض الوظائف المالية في ايامه الاخيرة .

وهناك مؤلفات فارسية اخرى اقل اهمية مما سبق ؛ منها مؤلفات ميرخوند روضة الصفا ، وخواندمير . حبيب السير وذيل جامع التواريخ لابرو ، اما المراجع التركية فقد استعنت ببعض اخواني الذين يحسنون لغتها ؛ فترجموا لي منها صحائف الاخبار لمنجم باشي ، وتأريخ شجرة تورك لابي الغازي بهادور .

واعتمدت في المدونات الصينية على ترجمات بريتشنايدر الى الانكليزية في مؤلفه بحوث عن العصور الوسطى مستمدة من المراجع الشرقية . وقد وجدت انها بالرغم من احتوائها على بعض التفصيلات عن زحف جنكيز إلا انها لا تخرج في معانيها عما اوردته المراجع الفارسية المعاصرة .

اما المراجع الاورنجية فيأتي في مقدمتها مؤلفا دوسون وهورث عن تأريخ المغول . وقد رأيت انهما اعتمدا كلياً على المراجع الفارسية وبعض العربية المعاصرة ولاحظت ان دوسون خاصة استفاد من المدونات الصينية ، بينما استفاد هورث بالرغم من اعتماده كثيراً على دوسون ، فانه استفاد ايضاً من الاصل السرياني لتأريخ ابن العبري (تأريخ مختصر الدول) بالاضافة إلى استعانته بمؤلفات مؤرخي جورجيا وارمينيا المعاصرين لقيام الايلخانية المغولية .

واستفدت كذلك من بارثولد في مؤلفيه تركستان حتى الغزو المغولي ، ومحاضراته عن الترك في آسيا الوسطى - بالاضافة الى عشرات المقالات الاخرى التي تفرقت في بطون الكتب .

ولم اغفل دوائر المعارف الاسلامية ، والبريطانية ، وتأريخ كمبرج للعصور الوسطى والمجلات الاخرى . وأعتقد أنني لم أترك مقالة لها علاقة بموضوع البحث إلا واطلعت عليها .

اما كتب النقود فيأتي في مقدمتها كتاب ليذبول عن النقود الموجودة فى المتحف البريطاني بجزأيه السادس والعاشر .

وكذلك مؤلفات احمد ضيا ومحمد مبارك عن المسكوكات الاسلامية ، بالاضافة الى ما ورد عن المسكوكات فيالمتحف الاسلامي بالقاهرة ، والعراقي ببغداد مما اشارت اليه مجلة سومر العراقية .

اما المراجع العربية . فقسمان : الاول منها ، المؤلفات التي عاش اصحابها في العراق تحت ظلال الاحتلال المغولي ، وهنا تظهر بشاعة الاحتلال وتأثيره على الحركة العلمية ، إذ ليس لدينا سوى مؤرخ عربي واحد وصلتنا بعض اجزاء مؤلفاته ، ذلك هو ابن الفوطي الذي وصلنا من مؤلفه القيم تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب جزءه الرابع فقط ، بالاضافة الى كتاب ينسب اليه هو الحوادث الجامعة الذي يمتاز ببعض التفصيل عن احداث العراق الادارية خاصة .

بينما ضاعت مؤلفات ابن الساعي والكازروني التي ألفاها خلال الاحتلال والتي فقدنا بفقدانها الكثير من تفصيلات الحياة العامة في العراق .

وهناك مؤلف عراقي آخر هو ابن العبري في تأريخه (مختصر الدول) الذي يمتاز بأهمية خاصة في التأريخ للمغول فهو يمثل وجهة نظر المسيحية نحوالمغول وتعاطفهم معهم ، كما يشير الى الرعاية الخاصة التي لقيها المسيحيون لدى الا يلخانيين .

ويبدو ان الاصل السرياني لهذا التاريخ يضم معلومات مفصلة عن الاحتلال المغولي للعراق اكثر مما عرضها المؤلف في ترجمته العربية لمؤلفه وقد اشرت الى ان هورث اعتمد على الاصل السرياني في تأريخـه للمغول ، كما اعتمد عليه ايضاً القس سليمان الصائغ فى تأريخه للموصل .

اما القسم الثاني من المراجع العربية فهي التيعاصر مؤلفوها الاحداث المغولية من موطنهم في الشام ومصر ، وهؤلاء اعتمدوا في بحوثهم على ما نقله اليهم اللاجئون

والتجار والحجاج ، بالاضافة الى المراسلات الرسمية المتبادلة بين الايلخانية والمماليك وبالرغم من افتقار هذه المعلومات الى الدقة ، إلا انها رغم المبالغة كانت لا تخلو من تفصيلات مفيدة في كثير من الأحيان .

ومن هذه المراجع ذيل الروضتين لأبي شامة ، وذيل المرآة لليونيني ومؤلفات ابن عبد الظاهر في سيرته للمنصور قلاون وابنه الاشرف ، والاعلاق الخطيرة لابن شداد ، ومفرج الكروب لابن واصل ، والنهج السديد لابن ابي الفضائل ونهاية الارب للنويري ، وتأريخ ابن الجزري الدمشقي ، وتأريخ ابي الفداء ، وذيله لابن الوردي وغيرهم كثيرون .

وغطى موضوع البحث فترة لا تقل عن قرن ونصف من الزمان بدأته مع بداية القرن السابع الهجري ، ولكن التفصيل فيه جاء بعد سقوط بغداد ، ويعتبر هذا الموضوع جديداً بحد ذاته في ميدان البحث العلمي ، اذ قلما تصدى احد من الباحثين لمعالجته تفصيلا ، على انني ارى بالرغم من ذلك تثبيت الملاحظات التالية كظاهرة مميزة للحكم المغولي . وهي :

١ ـ تردد القول عن تعاليم الياسا كقوانين متقدمة نسبت لجنكيز خان ، والذي اراه انها مجموعة من العادات والتقاليد التي سادت المجتمع القبلي قبل ظهوره ، وفضل جنكيز في ذلك انه نظمها واعطاها قوة التنفيذ لحماية مجتمعه الجديد من الفوضى التي كانت قبل ذلك .

٢ ـ لم يكن الحكم المغولي الايلخاني الذي خضع العراق له مستقلا بحد ذاته وانما كان تابعاً للدولة المغولية الأم التي كان مركزها في قراقورم ثم في خان بالق على حدود الصين . ويعتبر الايلخان غازان اول من اعلن انفصاله عن طاعتها .

٣ ـ اعتنق غازان الاسلام وجعله الديانة الرسمية لحكمه . ويبدو لي ان المصالح السياسية كان لها دخل كبير في اسلامه وأخيه اولجايتو . اذ ان الاسلام ليس قولا فقط دون العمل . وبعض اعمالهما لم تكن تتفق ومصلحة المسلمين .

٤ ـ لم يتخل المغول بعد اسلامهم عن التمسك بأحكام الياسا كلما وجدوا فيها مصلحة لهم .

٥ ـ احتفظ المغول بشخصيتهم المغولية وانعزالهم عن المجتمع الاسلامي ولم يذوبوا فيه إلا بعد أن اكلتهم المنازعات فيما بينهم وفقدوا سلطانهم السياسي .

٦ ـ لم يحاولوا ممارسة العمل الفكري واقتصروا على مهنة الحرب فقط ، لذلك لم ينبغ من بينهم عالم واحد في اي مجال علمي طيلة تسلطهم على البلاد .

وختاماً ، فانني ارجو ان اكون قد ساهمت ببحثي هذا في ازالة بعض الغموض الذي لا زال يحيط بتاريخنا العربي في هذه الفترة .

وبالرغم من انني بذلت كل ما استطعت من جهد ووقت قارب الثلاث سنوات فانني لا زلت اشعر بأن البحث في هذا الميدان يحتاج الى مزيد من جهد الباحثين ، وحسبي انني وضعت فيه لبنة ، ارجو أن تكون اساساً صحيحاً لغيري ممن يقتفون هذا الدرب من البحث .

واذا كان لي ان اختم حديثي فانني احس بأنني غريق احسان عدد كبير من الجنود المجهولين الذين وقفوا من خلفي وأمدوني بما استطاعوا من تشجيع وتوجيه وذللوا أمامي الكثير من الصعاب التي لولا عونهم لكنت لا زلت في الدرب اتخبط في ظلماته .

واذا كان لي أن أذكر بعضهم فان اخواني الكبار وأساتذتي الثلاثة الاستاذ الدكتور حسن حبشي ، والأستاذ الدكتور عبدالنعيم حسنين ، والاستاذ الدكتور حسن احمد محمود هم خير من أتوجه اليهم بهذا الشكر والتقدير ، واني لأشهد انهم أعطوني ما عندهم ، أعطوني قلبهم ولسانهم .

ويقودني الوفاء والعرفان بالجميل ايضاً الى الاشادة بأخي واستاذي الدكتور فؤاد الصياد الذي لم يبخل علي بمكتبته وبترجماته عن الفارسية وبالكثير من وقته .

والله اسأل ان يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه انه سميع مجيب .

الأحد ٩ يونيو/حزيران ١٩٦٨ القزاز

الباب الاول

ظهور المغول وسقوط بغداد :

١ ـ ظهور جنكيز وتوحيده القبائل المغولية

٢ ـ تعرضه للبلاد الاسلامية .

٣ ـ مواصلة أبنائه لسياسته .

٤ ـ موقف العالم الاسلامي من الغزو المغولي .

٥ ـ موقف الخلافة من الغزو المغولي .

٦ ـ زحف هولاكو وسقوط بغداد وتأثير ذلك على العالم الاسلامي .

الباب الاول :

ظهور المغول وسقوط بغداد

لم يكد العالم الاسلامي يستعيد شيئاً من وحدته وقوته في اواخر القرن السادس الهجري ويسترجع بعضاً من اراضيه السليبة (١) التي كانت لازالت جاثمة فوق شواطئه الغربية بالشام ، حتى تعرض مع مطلع القرن السابع الهجري من جهاته الشرقية لسلسلة هجمات وحشية مخربة قامت بها اقوام شبه بدائية ما لبثت ان سيطرت في مدى نصف قرن من الزمان على معظم اقسامه الشرقية ، وحطت رحالها حول بغداد التي استسلمت لهذا الخطر الداهم عجزاً منها عن صده فسقطت ، وسقطت معها الخلافة العباسية ، وكان هذا ايذاناً بخضوع الحضارة العربية الاسلامية الى ولاء جديد ، وثني المعتقد ، ولم يسلم الاسلام نفسه من ضغط واكراه حتى اوشك ان يكون غريباً

(١) اقصد بذلك قيام صلاح الدين الايوبي بتوحيد مصر والشام وبسط نفوذه على امارات الاتابكة بالموصل وسلاجقة الروم ، وتوجيه جيوشهم نحو الصليبيين وانتصاره عليهم بموقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م واسترجاع القدس ومعظم البلاد الداخلية من فلسطين .

في بلاده ، مما نجم عنه تبدل في النظم وتغير في الاحكام والموازين التي كانت تسوس الناس وتنظم امر دينهم ودنياهم .

وكان العراق اشد الاقطار تأثراً بهؤلاء الغزاة الذين عرفوا باسم المغول والذين هم قبائل غامضة الاصول ، وان كان أغلب المؤرخين قد أشاروا الى انهم شعب من الاجناس التركية (١) .

وانتشرت هذه الاقوام في وسط آسيا بين نهري سيحون وجيحون من الغرب حتى حدود الصين الجبلية من جهة الشرق ممتدة حتى اقصى الشمال الشرقي لاسيا (٢) .

---

(١) يتفق في ذلك ابن الاثير في الكامل ٩/ ٣٣٠ ، والقرماني . اخبار الدول ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ، ورشيد الدين ـ التاريخ الغازاني ، ورقة ٢٣ ، وجامع التواريخ م٢ ح١/ ٣١٢ ، ويشير الى ذلك ايضا *Loewe:TheMongol' C • M . H • Vol 1v P 31-32* وان اشار الى الغموض الشديد حول اصلهم وينسبهم *Conder • Latin Kingdom of jerusalem . P.376 - 26* الى نفس العرق الذي خرج منه الترك مدللا على ذلك بما هناك من ارتباط ظاهر بين لغة الجماعتين ، ولكن فاميري ـ تاريخ بخارى . الترجمة العربية ، ص ١٦١ حاشية (٢) يذكر الشبه بينهما ويرجح وجود قرابة تربطهما ، ولم يصل بارتولد ـ تاريخ الترك في اسيا الوسطى ، ص ١٨ ـ ٣٦ الى رأي قاطع رغم محاولته استقراء الحفريات وتطور اللهجات والمعاجم القديمة ، وينفرد الصياد ـ المغول في التاريخ ٦ ـ ٧ بارجاعهما الى الجنس الالثاني .

(٢) وتوسع بعضهم في حدودها حتى امتد بها غربا نحو البحر الادرياتيكي . انظر التاريخ الغازاني الورقة ٢٣ ، جامع التواريخ م٢ ح١ ص ٢١٢ فاميري تاريخ بخاري ص ١٦١ . سليمان خليل التحفة السنية ص١٣ ،

ويمكن اعتبار هضبة منغوليا بقسميها الجبلي والصحراوي الموطن الرئيسي لهذه القبائل (١) التي كانت تستقر في الشتاء في سهولها ومناطقها الدافئة حيث يتوفر المرعى لحيواناتهم ، وفي الصيف يستقرون في المرتفعات واعالي الجبال لمدة شهرين او ثلاثة حيث تكون المنطقة باردة وتتوفر فيها المياه والمراعي (٢) ، ومناخ هذه الهضبة قاري مما يؤدي الى تجمد انهارها وبحيراتها فترة طويلة من أشهر السنة ، بالاضافة الى الرياح الشديدة التي تهب من المنطقة الجليدية في سيبريا الواقعة في شمالها ، وتنعكس هذه في فصل الصيف حيث ترتفع الحرارة وتهب الاعاصير المحملة (٣) بالرمال .

في مثل هذه البيئة القاسية كانت القبائل تجري وراء المياه القليلة في الصحراء التي يعني اسمها الجدب والفقر (٤) ، وتعتلي المرتفعات وراء العشب والمرعى ، فلا غرابة اذا انعكست هذه القسوة على سلوك هؤلاء الناس سواء في معاملة بعضهم لبعض او في

(١) هوتسما ـ ترجمة دائرة المعارف الاسلامية م ٤ ـ التتر ـ ص ٥٧٦ . الصياد ص ١٠ . بارتولد ـ ترجمة دائرة المعارف الاسلامية م٧ ـ جنكيز . ص ١٢٧ منقريوس الصدفي ـ دول الاسلام ج٢ مصطفى بدر ـ محنة الاسلام الكبرى ص٤٨ـ٤٩ حافظ حمدي ـ الدولة الخوارزمية ص ١٠٨ .

(٢) *Marco . Polo . P. 84 - 85*

(٣) الصياد ص ١١ . ص ٣٦٧ . *Conder p. 367*

(٤) صحراء جوبي او شامو . وذكر فامبري ص ١٦١ ، ان لفظ جوبي ، لفظ مغولي معناه الصحراء الجدباء الخاوية .

علاقاتهم مع الآخرين (١) ، وظهروا على العالم بهذه الصورة البشعة التى عرفوا بها مع مرور الزمن .

وبالرغم من وحدة اصول هذه الاقوام ، الا انهم كانوا ينقسمون الي قبائل عديدة تتزايد اعدادها يوما بعد يوم بحكم انقسامها على نفسها وانفصالها عن بعضها حاملة اسماء جديدة لزعمائها المنشقين (٢) . ويقدم لنا رشيد الدين سجلا كبيراً لهذه الاسماء التى تفرعت اليها القبائل وعرفت بها (٣) .

---

(١) بل وحتى حيواناتهم لم تخلص من قسوتهم . يحدثنا رشيد الدين في تاريخه الغازاني الورقة ٨٧ ـ ٨٨ عن معاملتهم لبعضهم انهم اذا تخاصموا جذبوا السكاكين وتجارحوا . وان الغالب على طباعهم الحسد والغضب ويحدثنا ايضاً عن قسوتهم على الاخرين . ان جنكيز لما انتصر على اعدائه التتار امر ان يقتلوا كافة ولا يبقى منهم احد ، ولم يقبل شفاعة فيهم حتى نساءه الاثنتين من التتار . الورقة ٩٤ ـ ٩٥ .

انظر ايضا ابن فضل الله ج٢ ق٢ مسالك الابصار الورقه ٢٢٠ وابن فضلان ص ٩٥ في طريقة ذبحهم الحيوانات « ان تكتف قوائمه ويشق جوفه ويدخل احدهم يده الى قلبه ويمرسه فركا حتى يموت او يخرج قلبه . انظر كذلك اشارة الصياد ص ٩٢ في حديثه عن تأثير البيئة في قسوتهم وتوحشهم .

(٢) *Malcolm - Hist . of Persia - Vol . 1 p : 204*

(٣) التاريخ الغازاني الورقة ٢٧ وما بعدها تاريخ كزيدة ص ٥٦٠ ـ ٥٦٤ ومن هذه الاسماء التتار . الايغور . القبجاق ، الاويرات ، النايمان

H . Leowe . . oPcit . p : 631 - 286

ولكن الملاحظ ان اسم التتر هو الذي غلب على هذه الاسماء جميعا ، فاصبحت هذه الاقوام تعرف به امام العالم الخارجي آنذاك بالاضافة الى اسمائها الخاصة ، وانعكس ذلك منذ النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) اسم التتر فى جميع المصادر المعاصرة ، صينية كانت او اسلامية او روسية او بلغات اوربا الغربية (١) .

ويعلل رشيد الدين غلبة هذه التسمية على القبائل جميعاً في حديثه عن قوم التتر (٢) « الذين كانوا مشهورين من عهد قديم بهذا الاسم ، انهم كانوا اصحاب شوكة وجاه ، فمن عزتهم وجسمتهم كانت اصناف الاتراك على اختلاف طبقاتهم ، وكانوا يتسمون باسمهم ويطلقون على الجميع اسم التتار » على ان اشتهار اسم التتر كعلم مميز لهذه الاقوام امام العالم الخارجي حتى القرن الثالث عشر الميلادي لم يكن يعنى بالضرورة ذوبان الاسماء الاخرى للقبائل فيه ، او زوال شخصيتها ، بل على العكس من ذلك بقيت هذه القبائل تمارس نشاطها المعهود ، حربا او سلماً ، محتفظة بكيانها فخورة باسمها الخاص بها . ومن هذه القبائل التي قدر لها ان تتزعم هذه الاقوام ويحتل اسمها مكان الصدارة بينها هي قبائل المغول التي خرج منها جنكيز خان .

ويؤكد هربرت لوى (٣) « ان المغول والتتار اسمان لقبيلتين كانتا تعيشان في

---

(١) بارتولد ترجمة جنكيز ص ١٢٦ انظر كذلك
Ency BR - Vol - 10 - p : 101.

(٢) التاريخ الغازاني الورقة ٨٦- ٨٨ ثم يعقد مقارنة بعد ذلك بغلبة اسم المغول عليهم بسبب ظهور جنكيز وتوليه زعامتهم .

(٣) *H - Leowe . C. M - H . vol -Iv p: 630, 632.*

الاقسام الشرقية من وسط آسيا الى الشمال الغربي من الصين » ثم يحدد اول اشارة لذكر المغول جاءت في المدونات الصينية في تاريخ اسرة تانك (*Tang*) ٦١٨ ـ ٦٩٠م ثم بعض الاشارات المتفرقة لهم في سنوات ٩٨٤ ، ١١٨٠ م » .

ويرى لين پول *Lane - Poole* (١) ان اسم المغول لم يظهر في عالم الوجود حتى القرن العاشر الميلادي . ويرجح انه اطلق على بعض القبائل التي انضوت تحت قيادة زعيم كان يحمل هذا الاسم ثم استطاع بعد ذلك فرض سيادته على قبائل اخرى دخلت في تحالف معه ومن ثم حملت اسمه ولكن بارتولد (٢) يرى رأيا اخر « هو ان اسم المغول استعمل باديء الامر علما على اسرة ومملكة يحكمها جنكيز خان » ثم صار بعدئذ علماً على شعب من الشعوب ألحق فيما يظهر بامارة صغيرة من امارات القرن الثاني عشر الميلادي انتفض أميرها على اسرة كن (*Kin*) التي كانت تحكم شمال الصين . ويمضي فيورد بعض الروايات التي نسجت لاضفاء صفة البطولة على امراء هذه الامارة الصغيرة الذين كان من ذريتهم جنكيز خان ، ولكنها على كل حال روايات يتضح فيها عنصر الشك » .

ولعل رشيد الدين هو المرجع الذي اعتمده بارتولد في هذا الرأي (٣) اذ انه

(١) حسن ابراهيم ، الفرق بين كلمة تتر والمغول ص ١٣ ـ ١٤

Muh . Dynasty , p : 200

انظر كذلك الدعوه الى الاسلام حاشية ص ٢٤٨ .

(٢) بارتولد ترجمة دائرة المعارف الاسلامية م ٧ جنكيز ص ١٢٧ .

(٣) لا غرابة في اعتماد المؤرخين على رشيد الدين واعتبار مؤلفه المرجع الاول

يوضح بداية المغول بقوله « كما انه في هذا الزمان بواسطة دولة جنكيزخان واولاده الذين هم المغول الصرف ، يتشبهون كثير من الترك الذين ليسوا من المغول كقوم جلاير و . . . وغيرهم ممن يفتخرون ان يقال لهم انهم من المغول مع انهم يستنكفون من هذا الاسم في قديم العهد ، واولاد هولاء الجماعة المذكورين الآن يتصورون انهم كانوا موسومين بهذا الاسم في الزمان الاول ، وليس كذلك . وكان في الزمان السابق قوم واحد من الاتراك الذين كانوا يسكنون الصحارى يسمون بالمغول » (١) .

وخلاصة القول ان المغول ـ قبيلة او شعباً ـ كانوا جزءاً من هذه الاقوام التى عاشت في هضبة منغوليا وساهمت بنصيبها في صنع الحياة فوقها ، ولكنهم لم يلعبوا دورهم القيادي الا بعد ظهور جنكيز خان وتوليه زعامتهم ، يؤكد هذا ما أشار اليه بارتولد (٢) من ان المصادر الاسلامية لا تذكر شيئاً عن سكان بلاد المغول ولا عن أحداث هذه البلاد قبل ظهور جنكيز خان ، على حين اننا نعلم من المصادر الصينية ان التجار المسلمين كانوا منذ سنة ٩٢٤ م ٣١٢ هـ يترددون على بلاد المغول » .

ومن ثم يرى البعض(٣)ان تاريخ المغول السياسي بدأ تقريباً بجنكيزخان الذي استطاع

ـ في هذه الوقائع ، اذ انه ذكر عند تأليفه انه قد فتحت له المخازن السرية التي تضم وثائق تاريخ المغول التي تحتوي على هذه الروايات جميعا .

(١) التاريخ الغازاني ـ الورقه ٨٨ ـ ٨٩ .

(٢) الترك في اسيا الوسطى المحاضرة الثالثة ص ٤٣ .

3) Ency . BR . vol . Mongolia p : 709 . H . Leowe . C . M H lov 1v p :632 - 633 :

ان يربطهم بتنظيمات سياسية قدر لها ان تستمر بفضل مهارته وعبقريته حتى بعد وفاته.

وليس يعنينا هنا ان نتعرض للروايات الاسطورية التي اختلقت فيما بعد لاحاطة جنكيز واسرته وشعبه بهالة من التقديس والتعظيم (١) .

فالارجح انه ولد سنة ٥٤٩ هـ - ١١٥٥ م (٢) . وقد سمي تموجين ، وهو

(١) من الاساطير التي قيلت في نسبه ان شعاعا سماويا حل في احدى النساء التي ولدت ثلاثة اولاد كان من احفادهم جنكيز خان فلقب المغول لهذا السبب بالجنس السمائي . وبعض هذه الاساطير تقول انه ولد وفي كفه قطعة من دم . ففسر ذلك بانه يملك ويبطش ، التاريخ الغازاني - الورقه ١٩٦ - ٢٠٢ ابن تاويت - التعريف بابن خلدون ص ٣٦٠ . *Conder p : 367 Osborn - Islam under the Calipwol Baghdad . p. p : 370 - 372 :*

(٢) وهو تموجين بن يسوكاي بن برتان بن قبل خان بن تومنيد خان بن باى سنكقور بن قيدو خان بن دوتوم منن بن بودنجر من امه الان قوت .

واشارت المراجع الاسلامية الرئيسية الى هذا التاريخ وحدد بعضهم ولادته بيوم ٢٠ ذي القعدة ، انظر التاريخ الغازاني م ٢ الورقة ٢٧٠ - ٢٧١ ، ٢٧٩ ، تاريخ كزيده ص ٥٧٢ ، ترجمته الانكليزية ص ١٤٠ ، تاريخ بخارى ص ١٦٢ موسوعة تاريخ العالم ج ٣ ، ترجمة يوسف مجلى ص ٩٢٥ ، الرمزي م ١ تلفيق الاخبار ص ٣٤٥ . الصياد . ص ١٥ .

Price -11 - Mahommedan Hist : p : 479 .

ورجح بعض المؤرخين الاجانب ان تكون ولادته في التواريخ التالية :

اسم العدو الذي كان والده يسوكاي بن برتان قد خرج لقتاله وانتصر عليه ، ثم توفي الاب تاركا تموجين وعمره ثلاثة عشر عاما ينتظر مصيره الغامض ويصنع مستقبله بنفسه . وقست الايام على الطفل القاصر واثقلت الاحداث مسؤلياته عندما انفض التحالف القبلي المغولي(١) الذي كان يأتمر بأمر ابيه استنكاراً منهم لزعامة الطفل واستخفافا به . ثم لحق بهم افراد قبيلته النيرون ٢) (Niroun) الذين تخلوا عنه بعد وفاة خليفة ابيه عليهم ومدبر امره المدعو سوغوتشجين Soughutchein لكي يتحدوا مع

١١٥٥ م ، ١١٦٢ م ، ١١٦٧ م . انظر

O - Luttimore - Ency - BR . vol - 10 Genghis - p : 101 -

Baxton - Mongolia (E - Br) - Sykes - 11 - Hist - of persia - p:73.

(١) الروايات مختلفة في هذا التحالف ولكنها لا تنفي وجوده ، وان يسوكاي كان رئيساً له ، او احد زعمائه ، وان هذه القبائل المتحالفة كانت تدفع الضريبة لاسرة كن Kin الصينية . انظر الصدفي ج٢ - دول الاسلام ص ٢٦٧ بارتولد ترجمة دائرة المعارف الاسلامية م٧ - جنكيز ص ١٢٧ - ١٢٨ .

sykes - II . p . 72 - 73 .

(٢) وهذا الاسم اشارة الى نقاوة اصلهم باعتبارهم من الجنس السمائي . بينما تشير حوليات اسرة كن . ان اسم القبيلة هو « قيات » وقد اخذ بهذا الاسم الدكتور الصياد ص ١٥ ، انظر ايضا

Osborn . p :370-372 :

بارتولد ترجمة دائرة المعارف الاسلامية م٧ جنكيز ص ١٢٧ - ١٢٨

PRice (1) II . p : 479 .

قبائل التائجوت (١) ، وتركوه وامه واخوته يواجهون وحدهم مشقة الحياة .

لكن الام استطاعت ان تحفظ حياة صبيها وحقه في قطعة الارض الصغيرة التي تركها لهم الاب الراحل وعاشوا عيشة شظف على النباتات البرية وصيد الحيوانات الصغيرة والطيور والاسماك حتى اشتد عود الصبي وبلغ مبلغ الرجال (٢) فاحتمى باحد اصحاب ابيه وحلفائه المدعو اونك خان رئيس قبيلة الكرايت ، فوفرت له هذه الحماية ابراز مواهبه في قتال الاعداء والانتصار عليهم وكسب ود الاصدقاء وجذبهم الى جانبه وخاصة من أبناء قبيلته الذين تسامعوا بمكانته الكبيرة في مجتمعه الجديد فسارعوا للالتفاف حوله وشد ازره (٣) .

واثارت هذه المكانة التي حصل عليها تموجين حسد الحاسدين من رجالات الكرايت الذين أحسوا بتأخرهم أمام تقدمه فوشوا به لدى الخان واشاعوا في نفسه

---

(١) التاريخ الغازاني م٢ الورقة ٢٧٣ ، الرمزي م١ تلفيق الاخبار ص ٣٤٥ .

PRice .11 p : 480 - 481 .

(٢) وكانت اسرته مكونة من أمه أولون ـ ايكي ـ واخوته الثلاثة ، واخوين اخرين من زوجة اخرى لابيه . حيث يشير الى ان هذا مدون في التاريخ السري للمغول وانه كتب سنة ١٢٤١ م عندما كان بعض اصحاب جنكيز على قيد الحياة .

انظر ايضاً من *Powe : of cit.*

(٣) تاريخ كزيدة ص ٥٧٢ ، مسالك الابصار جـ٢ ق٣ الورقة ٢١٧ - ٢١٨ .
الصدفي جـ٢ ص ٢٦٧ .

price . 2 . P, 481 - 482 .

الخوف على عرشه من الزوال ، واشركوا في التهمة ابن الخان نفسه مدعين تآمره عليه مع تموجين ، فاسرع الخان للقضاء على تموجين الذي خدمته الاقدار بغلامين (١) من اصحاب الخان اطلعا على المكيدة فاطلعاه عليها ، فكانت المعركة وبالا على اونك خان الذي فر باصحابه من الميدان وذلك في شهور سنة ٥٩٩ هـ ـ ١٢٠٢ م ملتجئاً الى بلاط تايانك خان (*Tayang*) رئيس قبائل النايمان ، لكن مالبث ان اغتيل بيد بعض اصحابه (٢) .

وكان هذا الانتصار مستهل عهد جديد اعتبره البعض مبدأ استقلال تموجين ، والحكم المغولي (٣) فقد تسامعت القبائل بابنائه فسارع بعضها للانضواء تحت زعامته

---

(١) كافأ تموجين هذين الغلامين بعد انتصاره واستقرار امره بان منحهما لقب الطرخان وهو الذي يعفى من تقديم المؤنة او الضرائب . وعرف ستنكاس (*steingass*) الطرخان بانه الرجل الحر المعفو من الضرائب او العوائد والذي لايخضع للعقاب حتى يذنب تسع مرات : انظر القاموس الانكليزي ـ الفارسي ج١ ص ٢٩٣ : الجويني ج١ جهانكشاي ص ٢٧ . جامع التواريخ م٢ ج١ ص ١٧ حاشية (١) داود الجلبي : الفاظ مغولية في اللغة العربية . مجلة المجمع العلمي العراقي ج١ . ايلول ـ سبتمبر ـ ٩٥٠ ص ٣٧٦ .

(٢) الجويني ج ١ ص ٢٦ ـ ٢٨ . ابن الطفطقى ـ الفخري ص ١٩ . الرمزي م١ ص ٣٤٦ . تاريخ بخارى ص ١٦٣ . ص ٨١ ـ ٨٢ . الصياد ص ١٨ .

price - 2 . p . 482 - 484 .

(٣) الرمزي م ١ ص ٣٤٦ .

بينما ترددت الاخرى في خوف وفزع ثم لم تلبث ان استسلمت أمام ضرباته المباغتة ، ولم تمض فترة طويلة الا ودانت له قبائل الكرايت والاويرات وقنقورات وسالجيوت وغيرهم طوعا او كرها (١) .

واستغل تموجين قوته المتزايدة للتخلص من أعداء قبيلته التقليديين الذين هم قبائل التتار والقضاء عليهم نهائياً . يقول في ذلك رشيد الدين (٢) : «وطائفة التتار لما رأوا استيلاء جنكيز على باقي الاقوام ، عجزوا عن دفعه ، وكانوا أعداءه وأعداء أبيه . أمر جنكيز خان ان يقتلوا كافة ولا يبقى منهم احد ، ولم يقبل شفاعة نساء التتار اللواتي تزوج منهن المغول ، مثل جنكيز الذي كان متزوجا من اثنتين ، وكذلك اخوه» .

واحس تموجين وهو في نشوة انتصاره بضرورة تنظيم العلاقة بينه وبين هذه القبائل التي دانت له بالطاعة والولاء ، فدعا رؤساءها الى اجتماع سنة ٥٩٩ هـ - ١٢٠٣ م تقرر فيه ان يحمل لقب الخان الى جانب اسمه (٣) .

وافزعت هذه الاحداث تايانك خان زعيم قبائل النايمان الذي كان يستعد لحمل

---

(١) الجويني جا ص ٢٨ ، التاريخ الغازاني م١ الورقة ٩٢ - ٩٣ .

(٢) التاريخ الغازاني م ١ الورقة ٩٣ - ٩٤ .

Osborn . P : 372

(٣) ليست لدينا معلومات واضحة عن مقررات هذا الاجتماع او ما دار فيه . ولكنه خرج بلا شك بقرارات منها ما ذكرناه . انظر لوى ص ٦٣٢ من *C . M . H , 5* *Price* ج٢ص٤٨٤ . *Malcolm* جا ص ٢٥٣ حاشية رقم ١

لقب التايبكو من خان الختاي او سيد الصين الذي قلق بدوره لذلك توقف عن منح اللقب ، وكأنه اوعز بضرورة التخلص من هذا العدو الجديد (١) .

واستعد تايانك خان ، واستدعى انصاره وحلفاءه لمساعدته في القضاء على تموجين قبل ان يعجزوا عنه ، لكن احد هؤلاء الانصار (٢) رفض المساهمة في ذلك واعلم تموجين بما يدبر له : فاسرع هذا بدوره وباغث تايانك خان في عقر داره في منتصف جمادى الاخرة ٦٠٠ هـ والحق به الهزيمة جريحاً الى بعض الجبال المجاورة ، ثم لم تطل به الحياة بعد ذلك ، في الوقت الذي كان ابنه كشلو قد هرب ملتجئاً الى بلاد عمه بويرق .

ولم يلق تموجين السلاح حتى اخضع قبائل الكرايت والتانجوت لزعامته بينما هرب ملوكها للاحتماء ببلاط بويرق (٣) .

عاد تموجين بعدهذه الانتصارات وقد عبد الطريق أمامه لزعامةهذه الاقوام جميعاً فدعا الى اجتماع الزعماء ثانية في مجلس اوقوريلتاي عقد على ضفاف نهر اونون في ربيع سنة ٦٠٣ هـ ـ ١٢٠٦ ، تقرر فيه الاعتراف بسيادته على الجميع ومنحه لقب

---

(١) وفي هذا اشارة الى تبعية تايانك الى خان الختاي *Khatay* شأنه في ذلك شأن من سبقه من الزعماء .

(٢) وهو رئيس قبائل الاونكوت (*Onguts*) او التتار البيض .

(٣) *Price* ج٢ ص ٤٨٤ ـ ٤٨٦ .

Sykes - 2 - P : 74

جنكيز خان أو ما معناه (١) .

ويذكر برايس (Price) (٢) ان الذين حضروا اجتماع القوريلتاي هذا هم « أبناؤه ، قواده ، واكثرية الطبقة العليا مع قلة من الطبقة السفلى من جميع مقاطعات المغول » .

ويشرح لنا مالكولم (Malcolm) (٣) الطريقة التي نظم فيها الاجتماع والتي اصبحت تقليداً سارت على نهجه الاجتماعات اللاحقة التي عقدها أبناء جنكيز واحفاده فيما بعد فيذكر : « انه بعد ان تكلم تموجين في الاجتماع ، قام سبعة من هؤلاء الخانات ورفعوا تموجين الى عرش عال في وسط الاجتماع . وفي اللحظة التي اجلس فيها على هذا العرش تقدمت له التحية او الطاعة باعتباره خاقان ، وانحنى جميع الحاضرين على ركبهم تسع مرات » .

ويروي بارتولد (Barthold) (٤) جانباً من مناقشات هذا المؤتمر مبيناً الطاعة التي عرضها اعضاؤه لجنكيز بقولهم « اذا اصبحت حاكما علينا ، فانا سنتقدم الصفوف في كل قتال تشنه على اعداء لا حصر لهم ، وانا سنقدم اليك ما نغنمه من نساء

«١» الجويني ج١ ص ٢٨ ، موسوعة تاريخ العالم ج٣ ترجمة يوسف مجلي ص٩٢٥

Osborn - p : 373

ص ٦٣٢ من C-M-H-V الصياد ص ١٩ .

2) Mahommedan . Hist . 11 - p : 486-487 .

3) The Hist of Persia _1_ p:253-254 :

«٤» بارتولد ترجمة المعارف الاسلامية م٧ - جنكيز ص١٢٨ . الصياد ص١٩ .

جميلات وفتيات وجياد كريمة وسوف نبز الاقران جميعاً في ميدان الصيد ، ونسلم اليك كل ما نصيده من حيوان » .

ويعطينا ابو الغازي (١) جانباً آخر لما دار في هذا الاجتماع فيذكر « انه في هذا الاجتماع تكلم أحد الحاضرين وهو كوكجه ، واشار الى ان تموجين من الآن فصاعداً اعطي اللقب البادشاهي « جنكيز » وسيبقى هذا اللقب شهرة له ولاولاده من بعده » .

ويذكر دوسون *(D'ohsson)* « انه وضعت في هذا الاجتماع البنود او المقررات التى تضمنتها الوصايا التسع البيضاء في تنظيم الاجتماع واداب الديوان وتقديم التحية ـ الجوك ـ ومخاطبة جنكيز بوقار واحترام عندما يتقدمون لرؤيته » وكان من المقترحات ان يحمل لقب كورخان اي الخان الكبير ، لكنه رفض ذلك وقال بان السماء أمرته ان يتلقب بجنكيز خان » (٢) .

وكان من مستلزمات الزعامة الجديدة ان يكون لجنكيز وجميع القبائل الموالية له شعار واحد يستظلون به ورسوم جديدة يعملون بها ، فكان الشعار لذلك ، العلم او

(١) شجرة تورك ص ١١٠ – ١١١ .

(٢) ويشرح لنا الدكتور زياده

D, ohsson Hist_des Mong To m1 p:98-99 .

معنى لقب الخان واختلافه عن لقب الخاقان اللذين استعملا عند المغول، انظر المقريزي جـ١ ق٢ السلوك ص ٣١٧ حاشية ٤ . حسن الباشا الالقاب الاسلامية ص ٢٧١ – ٢٧٤ الصياد ص ١٩ .

اللواء الابيض الكبير ذو التسع ريشات - او ذيول - الذي امر به جنكيز بالاضافة الى عرش فخم وضع تحت اللواء ليجلس عليه في القوريلتاي (١) .

ومن الرسوم التى اختطها جمله مدينة قراقورم عاصمة قبائل النايمان كرسي مملكته واتخاذه تايانك الايغوري الذي كان قد سقط في المعركة أسيراً وزيراً له ومعلما لابنائه اللسان الايغوري (٢) .

وكانت خلاصة تشريعاته التنظيمية ما عرفت باسم قوانين جنكيز او « الياسا » التي كانت من اهم مقررات هذا القوريلتاي .

والياسا كما يصفها الجويني (٣) «بانها اعادة تنظيم عادات وتقاليد القبائل المغولية بعد سيطرته عليها ، فرفع العوائد الذميمة منها ، بينما أبقى على التقاليد المستحسنة».

ومما يؤيد ذلك اننا نجد جذور كثيرة من تعليمات الياسا موجودة في عادات

«١» الجويني ج١ ص ٢٨ . برايس ج٢ ص ٤٨٦ - ٤٨٧ .

«٢» وكان اسم الوزير الايغوري تاتا تونكو ، الجويني ج١ ص ٢٨ ، موسوعة تاريخ العالم ج٣ ص ٩٢٥ ، وفيها اشارة الى ان هذا الوزير اخذ الكتابة الايغورية المشتقة من الفينيقية عن طريق الارامية والصغدية القديمة والحديثة واستعملها في اللغة المغولية ، انظر ايضا تاريخ بخارى ص ١٦٣ . لوى ص ٦٣٤ من *C.M.H.V1* تقويم ابو الفداء ص ٥٠٥ في الحديث عن قراقوم .

Sykes - 11 - P : 74 .

سليمان خليل - التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية ص ١٥ .

«٣» تاريخ جهانكشاي ج١ ص ١٧ - ١٩ .

وتقاليد المجتمع التركى القديم الذي عاش فى هذه البلاد وما جاورها . لذلك اقتصر دور جنكيز على تطوير هذه العادات واختيار الصالح منها بشكل يلائم تطور المجتمع المغولي الجديد وليس وضعها .

ويشير ابن فضلان (١) في سفارته التي قام بها في اول القرن الرابع الهجري الى كثير من العادات التى وجدها بين الاتراك الغزية والتى نجد لها شبها في تعليمات الياسا. مثال ذلك ما ورد في عقائدهم الدينية ، ووراثة زوجة الأب ، وعدم الاغتسال بمياه النهر ، وطريقة ذبح الحيوانات وغيرها .

وقد اصبحت قوانين الياسا هذه مناراً اهتدى بها ابناء جنكيز واحفاده من بعده ، وكان تنفيذ تعليماتها والخضوع لأحكامها واجباً مقدسا فى اغلب الأحيان ، كما ان التمسك بها والاحتجاج بتعليماتها اصبح حجة يلجأ اليها الضعيف من ابناء اسرة جنكيز لاسترداد حقه . اذ كثيراً ما كانت احكامها تخرق لمصلحة القوي منهم .

واشاد مالـكولم (٢) بهذه القوانين التي وصفها « بانها غير عادية » وبانها تمثل نموذجا عاليا في التنظيم الاداري ، كما تمتاز بتأكيدها على التسامح الدينى

---

(١) بدأ ابن فضلان رحلته من بغداد يوم الخميس ١١ صفر ٣٠٩ هـ . الموافق ٢١ حزيران - يونيو - ٩٢١ م بامر من الخليفة العباسي المقتدر بامر الله الذي تولى الخلافة بين سنة ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ .

انظر من الرحلة ص ٩١ ، ١٠٨ - ١٠٩ ، في الحديث عن الديانة ص ٩٤ في الحديث عن الوراثة ص ٩٥ - الذبح .

2) *Hist of Persia -1- p: 254 :*

الذي ظهر به المغول ، وتأكيدهم على مبدأ المساواة بين رعايا الاديان المختلفة وعدم التعصب .

ولمعرفة مبعث هذا التسامح لا بد لنا ان نعرف شيئاً عن معتقدات المغول قبل ذلك .

فمن المعروف انهم لم يكونوا يعتقدون بدين ، كما ان الفزع الذي القوه في قلوب الناس ، منع ذوي الرأي والمؤرخين منهم من التحقيق ومعرفة طبيعة معتقداتهم لذلك جاءت تفسيراتهم صورة باهتة لدياناتهم مكتفين بالقول بانهم كانوا كفاراً لا يعبدون الله .

فابن الاثير يكتفي بالقول (١) « اما دياناتهم فانهم يسجدون للشمس » .

وكان المؤمل من الجويني (٢) ان يشرح لنا ذلك بحكم صلته بهم ، ولكنه لم يفعل واكتفى من القول بعمومياته ، فذكر ان جنكيز لم يكن متمسكاً بدين معين ، وان اولاده مالوا مع رغباتهم ، فمنهم من مال الى الاسلام ، ومنهم من مال الى المسيحية ، واخرون الى عبادة الاصنام ، وغيرهم حسب قاعدة الآباء والاجداد » .

ونقل عنه ابن فضل الله العمري قوله (٣) « الظاهر من عموم مذاهبهم الادانة بواحدانية الله تعالى ، وانه خلق السموات والارض » .

---

(١) الكامل في التاريخ ج ٩ ص ٣٢٩ .

(٢) جهانكشاي ج١ ص ١٨ تاريخ كزيده ص ٥٥٩ ، الصياد - ٩٤ ، ٩٨ ، بارتولد ترجمة المعارف الاسلامية م٣ - باتو - .

(٣) مسالك الابصار ج٢ ق ٢ الورقة ٢١٩ .

ولم يقتصر العجز على المؤرخين المسلمين بل تعداه ايضا الي الرحالة المسيحيين فماركو بولو (١) الذي عاش بين ظهرانيهم اكثر من عشرين سنة ، لم يخرج بصورة عن عقائدهم اكثر من انهم يعتقدون باله في السماء واله في الارض » .

ولا شك ان المغول تأثروا كثيراً بديانات الاقوام التي اجتاحوا ديارهم وخاصة المسيحية والاسلام (٢) ، فخففوا الكثير من غلوائهم وقسوتهم ، وأحسوا بشيء من احاسيسهم لكي يظهروا بالصورة التي رسمها لهم الجويني بعد اكثر من اربعين سنة من احتكاكهم بالمجتمعات الموحدة ، والتي وصفهم فيها « بانهم يحترمون رجال الدين ويعفونهم من الضرائب » (٣) .

ولعل منكوخان سنة (١٢٥١ ـ ١٢٦٠) خير من عبر عن حقيقة معتقدات

«١» وهذه الصورة ينقلها لنا ابن فضلان قبل اربعة قرون في حديثه عن اقوام الباشفرد من الترك ، وبانهم يعتقدون باثني عشر إلهاً منهم رب الارض ، الشتاء ، الصيف ، الناس ، الحيوانات ، والذي في السماء اكبرهم ص ١٠٨ .

«٢» كانت المسيحية قد انتشرت بين القبائل المغولية ، اذ من المعروف ان قبائل الكرايت والنايمان كانت قد اعتنقت المسيحية ، كما ان بعض افراد حاشية جنكيز كانوا من المسلمين ، وابن العبري يشير الى الحلم الذي رآه جنكيز والذي استعان لتفسيره ببعض رجال الدين المسيحي .

«٣» الف الجويني كتابه بعد سنة ٦٥٠ هـ وهذه الصورة التي رسمها لا تتفق مع اعمال المغول في زحفهم على بخارى وسمرقند وغيرها وذبحهم حتي رجال الدين وتحويلهم المساجد الى اسطبلات لخيولهم .

المغول في لقائه وحديثه الى بعض القسس والذي يتمثل فيه هذا التأثير بقوله « نحن المغول نعتقد بان هناك إلهاً واحداً له نحيا وله نموت وعندنا قلب يخفق بحبه ، لكن الله الذي اعطى اليد اصابع مختلفة ، كذلك اعطى الناس طرقا مختلفة ، فقد اعطاكم الكتاب المقدس ، لكن المسيحيين لم يحافظوا عليه وقد اعطانا الشماناس (*Shamanas*) ونحن نفعل ما يأمروننا به ونعيش بسلام » (١) .

لقد مكنت مقررات هذا القوريلتاي ، والطاعة التي ظهر بها اعضاؤه ، جنكيز خان من العمل بسرعة لفرض سلطانه على القبائل الاخرى وتحقيق وحدة هذه الاقوام في هضبة منغوليا ، فاسرع لمهاجمة بويرق والذين احتموا به من زعماء النايمان والكرايت فقضى عليهم في معركة نجا منها كشلو بن تايانك وواصل هربه للاحتماء بكورخان (*GURKHAN*) امير القرهخطاى الذي اكرمه وزوجه من ابنته (٢) .

بينما تسامع امراء اخرون بما وصل اليه جنكيز من قوة وسلطان ، فاسرعوا يعلنون طاعتهم له وينضمون الى صفوفه ، ومنهم امير الايغور الملقب بالايدي قوت (*Eidy Kout*) الذي خلع طاعة كورخان والتحق بخدمة جنكيز الذي اصهره

«١» يقصد بالشاماناس رجال الدين المغولي .

Conder - p : 374 .

Douglas Whymant , Ency - BR . 15Mongols , p : 717 .

«٢» مالكولم ج١ ص ٢٥٨ ، برايس ج٢ ص ٤٨٨ .

- Sykes -11- p : 74 .

على احدى بناته (١) .

ومن المرجح انه في هذه الفترة امر جنكيز باطلاق اسم المغول رسميا على جميع الاقوام التى دانت له . والتى كانت في السابق تسمى نفسها باسم التتر ، وذلك تحقيقاً للوحدة السياسية للدولة التى رسخت جذورها بعد هذه الانتصارات (٢) .

ولكن استقلال جنكيز خان لم يتم رسميا الا بعد ان حدد علاقته وموقفه من امبراطور الصين (٣) .

اذ من المعروف ان جنكيز كان خلال الفترة السابقة تابعاً من الناحية النظرية على الاقل الى امبراطور اسرة كن الصيني ، وانه قد تعاون في بعض عملياته العسكرية ضد التتار مع جيوشه ، وقبل منه اللقب الذي منحه اياه الامبراطور المذكور (٤) .

«١» ابن العبري - تاريخ مختصر الدول ط ١٩٥٨ ص ٢٢٩ الصياد ص ٢١ . برايس جـ٢ ص ٤٨٨ . بارتولد - ترجمة المعارف الاسلامية م٤ - بيش بالق ص ٤١١ .

«٢» هوتسما . ترجمة المعارف الاسلامية م٤ - التتر - ص ٥٧٧ . حسن ابراهيم الفرق بين كلمة تتر والمغول . حاشية ص ١٣-١٤ . علي ابراهيم - دراسات في تاريخ المماليك البحرية ، حاشية ص ١٤٣ .

«٣» كانت بلاد الصين موزعة بين اسرتين ، فالقسم الجنوبي تحكمه اسرة سنك (*Sung*) والشمالي تحكمه اسرة (كن) التي كانت اراضيها مجاورة لدولة جنكيز الجديدة .

«٤» المعاوف البريطانية م ١٠ - جنكيز - ص ١٠٢ ، وهو يعلل ذلك بان

يؤكد ذلك ما ورد في التاريخ الصيني (١) من ان جنكيز كان احد اتباع امبراطور (كن) ويدفع له الضريبة .

ومن المرجح ان جاهر بعدائه للامبراطور الصيني سنة ١٢١١ م ـ ٦٠٨ هـ ، وقاد الجيوش لغزو بلاده بنفسه ، الا انه جرياً على سياسته في استغلال الفرص وجس النبض لمعرفة قوة اعدائه ، قد تحرش قبل ذلك بثلاث سنوات ١٢٠٨م ببعض مقاطعات الامبراطور المذكور ، وانتصر على بعض جيوشه وتوغل في زحفه الى داخـل الجدار الصيني العظيم .

وعاد جنكيز الى حاضرته قراقورم مظفراً سنة ١٢١٤ م ـ ٦١١ هـ ، بعد ان احتل معظم بلاد الامبراطور الصيني الذي هرب الى الجنوب تاركا ابنه ليدافع عن العاصمة بكين (*Chunq-Tu*) التي حاصرها القائد مكولي الذي خلف جنكيز في قيادة الجيش ، فاستسلمت له سنة ١٢١٥ م ، واستمر هو في تقدمه يخرب ويدمر ، مما دفع بالامبراطور الى التماس الصلح من جنكيز وارسال سفيره اليه سنة ١٢٢٠م (٢).

سياسة جنكيز كانت تقوم على انتهاز الفرص واستغلال المحالفات ونقضها عند الحاجة الصياد ص ٢٢ .

1) *BRetschninder vol - 1 – Mediaeval Researches in the Eastern Asiatic Sources p . 26 .*

(٢) الصياد ص ٢١ ـ ٢٣ .

L . Hart . Ency – BR *-15- Mongols . p : 707 .*

المعارف البريطانية م ١٠ جنكيز ص ١٠٢ ، لوي ص ٣٣٣ من

C- M - H - IV

ولم يستقر جنكيز بعد عودته طويلا اذ كان عليه ان يتخلص من بقية اعدائه في الغرب ، فاستغل حالة الضعف التي اصابت عدوه كشلوخان الامير النايماني الذي كان قد استولى غدراً على عرش القره خطاى (١) فوجه قائده النويان شيبي (Chebe) سنة ١٢١٨م نحوه ، وكان كشلو مشغولا بالقضاء على تمرد كاشغر فلم يستطع التصدي لهذا الجيش وفضل الهروب الى رؤوس الجبال ، وسرعان ما سقط اسيراً بيد مطارديه الذين أرسلوا رأسه الى جنكيز (٢) .

«١» كان كشلو قد لجأ الى حماية القره خطاى الذي اكرمه وزوجه من ابنته لكنه بعد ان استقر قليلا طمع في عرشه فدبر عليه مع اعدائه خوارزمشاه وصاحب سمرقند ، وقام هو بجمع ابناء عشيرته فكون منهم جيشا ، ثم طعن عمه وولي نعمته من خلفه فسقط اسيراً بيده ، واعتلى عرشه ، على ان سلوكه لم يكن مرضيا ، فانفصل عنه حليفه امير المكرايت ، وثار عليه المسلمون في كاشغر وخوتان لاضطهاده لهم ، انظر ابن الاثير ج٩ ص ٩٥ ؛ التاريخ الغازاني م٢ الورقة ٣٥٣ – ٣٦٠ تاريخ بخارى ص ١٥٥ الصياد ص ٣١-٣٢ .

BRetschnider -1- p : 230-231. *Sykes 11 .p:74-75 .*

برايس ج٢ ص ٤٩٢ – ٤٩٥ .

«٢» لاتيار - المعارف البريطانية م ١٠ - جنكيز - ص ١٠٢ .

Bretschnider -1 p : 233 .

برايس ج٢ ص ٤٩٥ – ٤٩٧ . النسوي - سيرة جلال الدين منكبرتي ص ٤٦-٤٨.

تعرض جنكيز خان للبلاد الاسلامية

جاورت املاك جنكيز حدود الدولة الخوارزمية بعد ان ارتفع كشلو خان والقره خطائية من بينهم وبدأت مناوشات بين الطرفين تثير القلق في نفس خوارزمشاه علاء الدين محمد الذي اصبح مضطراً لقضاء فترة طويلة من السنة وخاصة اشهر الصيف على الحدود الشرقية لدفع خطرهم (١) .

وكان الاصطدام متوقعا بين الطرفين في كل لحظة مادامت اسبابه ودوافعه متوفرة عندهما والمتمثلة في مطامح جنكيز ورغبته في التوسع (٢) .

---

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٣٠٨ .

Barthold · Turkestan Down to the Mongol Invatian .
p : 372 ' 375 .

ويعلل بارتولد ان سبب عودة خوارزمشاه عن عن بغداد كانت بسبب تعرض بلاده لهجماتهم .

(٢) لوي ص ٦٢٣ – ٦٣٤ من

C · M · H · IV

L . Hart , Ency , BR , 15]· Mongol , p : 707 ·

براون *Browne* ج ٢ تاريخ الادب في ايران – ترجمة الشواربي ص ٥٥٧ .

واختلفت الاراء في عوامل هذه الحرب (١) ولكنها جميعاً تؤكد ان سببها المباشر هو مذبحة اترار التي راح ضحيتها جميع التجار الذين وردوا من بلاد جنكيز خان (٢).

فوزير جنكيز خان الصيني الذي رافق الحملة يتحدث عن وصوله اترار بقوله ان حاكم هذا المكان امر بقتل رسل جنكيز وبضع مئات من التجار واستولى على اموالهم، وكان هذا هو السبب في سير هذه الحملة ضد سكان الغرب «٣».

ويؤكد هذا المؤرخون المسلمون الذين كانوا على قرب من الاحداث كالجويني والجوزجاني وابن الاثير والنسوي (٤)، حتى ان بعض المؤرخين من الاجانب

«١» وصف ابن الاثير ج٩ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠، هذه الحرب بالكارثة التي لم يصب العالم الاسلامي بمثلها، حتى انه تردد في ذكرها لانه كما يقول كان ينعى الاسلام والمسلمين بها، انظر كذلك ما نقله السيوطي عن الموفق عبد اللطيف البغدادي صاحب الاعتبار من وصف لهذه الحادثة ـ تاريخ الخلفاء ص ٤٦٧ وكذلك وصفها براون ج٢ تاريخ الادب في ايران، ص ٥٤٥، بمثل هذا المعنى.

«٢» ويسمى النسوي حاكم اترار ينال خان، بينما سماه الجويني غاير خان مع العلم ان هؤلاء التجار قدموا البلاد وفقاً لاتفاقية تجارية كان خوارزمشاه قد عقدها مع جنكيز خان، النسوي ص ٨٢ ـ ٨٥.

3) BRetschnider -1- p 20 ,276-277.

«٤» ابن الاثير ج٩ ص ٣٣١، الجويني ج٢ ص ١٠٠، النسوي ص ٨٥ وهو يشير الى مراسلة جنكيز لخوارزمشاه بعد مقتل التجار ويطالبه بالتعويض بشخص اينال

استعاروا عبارة الجويني في ذلك عندما قال « ان مذبحة اترار جرت على المسلمين المصائب وان كل قطرة من دماء هؤلاء التجار قد كفر عنها المسلمون بسيل من الدماء » (١) .

اما ما اشار ابن الاثير من لمز وغمز في قوله : وقيل في سبب خروجهم الي بلاد الاسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر ثم انشاده بيت الشعر التالي :

فكان ما كان مما لست اذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

فانني لا اتفق مع الذين ذهبوا في تفسيره الى اتهام الخليفة الناصر لدين الله باتصاله بالمغول ودعوته لهم بمهاجمة الخوارزميين ، وقد ناقشت ذلك في بحث سابق(٢)

خان الذي اعتدى على التجار او يستعد للحرب . الجوزجاني ـ سياسة الامصار في تجربة الاعصار ـ المسمى ايضاً در تاريخ ال جنكيز ص ١٢ ـ ١٣ . اما ابن العبري ص ٢٣١ فانه يحدثنا عن غضب جنكيز وتفكيره في الانتقام ثم ظهور احد القسس له في النوم يشجعه على ذلك بقوله (لاتخف افعل ما شئت فانك مؤيد) .

(١) تاريخ بخارى ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ، ونقله عنه حافظ حمدي في الدولة الخوارزمية ص ٧٤ .

براون ـ تاريخ الادب في ايران ج ٢ ص ٧ - ٥ ، الصياد ص ٥٢ ـ ٥٤ ، وعلق كذلك على الحادثة السيوطي تاريخ الخلفاء ـ تحقيق محيي الدين ـ ص ٤٦٩ ، والنسوي ص ٨٨ .

(٢) انظر البحث الذي تقدمت به لنيل درجة الماجستير بعنوان (الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير) ص ١٧٧ ـ ١٧٨ ، مكتبة جامعة القاهرة قسم الرسائل .

وخرجت منه بان هذا الاتهام ينصرف « الى تقصير الخليفة الواضح وعدم تقديره لمسؤلياته كخليفة للمسلمين وتقاعده المتعمد عن الخطر الذى هدد البلاد بعد ان اعماه الحقد على خوارزمشاه فسهل بذلك على المغول القضاء على هذه الامارة الاسلامية ، وبينت استحالة اتصاله بالمغول في ذلك الوقت .

وقد رأيت ان السبب الحقيقي لهذه الحروب يكمن في الحياة القاسية التي يعيشها هؤلاء في صحرائهم ، وعجز البيئة الفقيرة عن امداد ابنائها الذين كانوا يتكاثرون بسرعة ، بحاجتهم الطبيعية الى الغذاء والكساء ، فكانوا مضطرين دائماً اما الى الهجرة الى البلاد المجاورة لهم او السطو على خيراتها ونهب ثمارها .

هذا بالاضافة الى عامل مهم جديد طرأ على حياتهم وهو التكوين السياسي القوي الذي جمع شملهم ووحد كلمتهم ، وما عرف به قائدهم جنكيز من طموح ورغبة في التوسع (١) .

— ومن المؤرخين المسلمين الذين فسروا القول باتهام الخليفة الناصر ، ابن الفرات المتوفي ٨٠٧ في تاريخ الدول والملوك م٩ الورقة ٩٨ ، ونسج ميرخوند المؤرخ الفارسي الذي عاش بعد ابن الفرات بقرن من الزمن، نسج على هذا الاتهام ورتب طريقة اتصال الخليفة بالمغول بواسطة رسول حلق رأسه وكتبت عليه الرسالة ثم ارسل بعد نمو شعره، ونقل هذا التلفيق الرمزي في تلفيقه الاخبار م ١ ص ٣٤٦ — ٣٥٠ ، وكذلك بنى تشنر *Taeschner* مقالة عن الخليفة الناصر في دائرة المعارف الاسلامية ص ٨٦١ على هذا الاساس .

(١) كان جنكيز محتاجا الى هذا التوسع ، ان لم يكن رغبة فيه ، فرغبة في تصريف الطاقات المخزونة في نفوس القبائل التابعة له ، لئلا تنفجر على بعضها في حروب داخلية كما كانوا متعودين .

واشار ابن الاثير صراحة الى مضايقتهم الاقتصادية على يد خوارزمشاه اثر سلبهم بلاد ما وراء النهر من الخطأ واملاكهم ومحاربتهم الخوارزميين ، فلذلك منع عنهم الميرة والكسوات وغيرها (١) .

ويؤكد هذا الدافع ايضاً ديورانت في حديثه عن سبب غزوات المغول قوله: « ان ما اصاب الاقاليم المتمدة بازاء حدود الصين الشمالية الغربية من جفاف قد احالها الى صحراء جدباء عاجزة عن الوفاء بحاجة اهلها الأقوياء ، فاندفع المغول الى شن الغارات لامتلاك بلاد اخصب من بلاد واوفر منها رزقاً » (٢) .

وتوقع اغلب الدارسين للتطور السريع للدولة المغولية الجديدة ، ان الحرب آتية لا شك فيها نتيجة للسلوك السياسي الذي اتصف به جنكيز والمتمثل في الطمع الشديد وانتهاز الفرص فضلا عن ضغط العوامل السابقة ، هذا بالاضافة الى (٣) «ان كل غاز لاقليم تركستان كان لابد وان يغير عاجلا او آجلا على الهضبة الايرانية ، اذ لا يعقل ان المغول كانوا يكتفون بمركزهم في اسيا الوسطى ولا يندفعون نحو الجنوب الغربي » .

---

(١) ابن الاثير جـ٢ ص ٣٣١ . القزاز - الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير ص ١٧٩ .

(٢) ديورانت قصة الحضارة ترجمة محمد بدران ٤/٢٢٢-٢٢٣ .

(٣) الصياد ص ٥٤ . انظر ايضا لوي ص ٦٣٤ من

C- M - H - IV

L. Hart. Ency - BR *-15- Mongols . p : 707* ,

وكانت مذبحة التجار فى اترار هى الفتيل الذي فجر طموح جنكيز وجعله يسرع للتنفيس عن غريزته الطبيعية فى الذبح والحرق والتدمير ، فزحف بجيوشه الجرارة يساعده في قيادتها ابناؤه الاربعة وبعض حلفائه واعوانه من زعماء القبائل مثل امير الايغور ، وامير المالق ، وامير الكارلوك ، وبقدر ما كان جنكيز في زحفه متحفزاً قوي العزيمة شديد الرغبة في الانتقام (١)، بقدر ما كان خوارزمشاه علاء الدين محمد متردداً لا يدرك ما يعمل بعد مذبحة التجار ووصفه لنا ابن الاثير وهو في هذه الحالة بقوله (٢) « فندم خوارزمشاه على قتل اصحابهم واخذ يفكر في خطرهم ، فاستدعى الشهاب الحيوقى وهو فقيه فاضل واستشاره بالامر الذي وقع والخطر الذي يتهددهم ، فاشار عليه بخطة ، فلما استشار امراءه اشاروا عليه برأي آخر ، فبينما هو في الاستشارة اذ وردهم رسول جنكيز خان يتهددهم فردوا عليه بجواب الاستعداد للحرب » .

وأدى به هذا الارتباك والانهيار الى إساءة التدبير فى رفع الخطر ، فلم يعد قادراً على وضع الخطط لملافاته ودفع شروره ، بل وسهل على العدو النجاح في مهمته عندما لم يجرؤ على التصدي له والدخول معه في معركة واحدة بل عمد الى قواته فوزعها على المدن لتحميها ونكص على عقبيه هاربا الى داخل البلاد يحمل اليها الهلع

«١» جهانكشاي ج١ ص ٦٢ ، الصياد ص ٥٥ .

«٢» الكامل ج٩ ص ٣٣١ ، وهو لا يشير الى قتل المرسل . ويشرح النسوي ص ٨٧ - ٨٨ هذا الفزع بوضوح حتى انه يكاد يقول بان خوارزمشاه اوشك ان يدفع بالقاتل الى رسل جنكيز « لولا ان امسك عن تسييره اليه على رعب خامر قلبه وخوف

والتخاذل ، معلنا عزمه على جمع الجيوش والعودة لانجادها (١) .

واستغرقت حملة جنكيز هذه قريباً من خمس سنوات بدأها في خريف سنة ٦١٦ هـ - ١٢١٩ م متوجها نحو اترار وفق خطة عسكرية دقيقة اشاد بها المؤرخون وحقق بفضل تطبيقها انتصارات ساحقة في فترة قصيرة من الزمن (٢) . وقبيل وصوله اترار ، وزع قواته حسب خطته على ابنائه .

وقاومت اترار جيش جغتاي واوكتاي اكثر من خمسة اشهر استبسل فيها اينال خان الذي كان يحس ان سلامته في استمرار مقاومته ، حتى سقط جميع ابطاله من حوله وبقي وحيداً يصارع الغزاة بالحجر ، ولولا خيانة بعض قواده لطالت مقاومته ثم اقتيد حياً الى معسكر جنكيز الذي اناله من العذاب ابشع الوانه تشفياً لقتله التجار (٣) .

سلب لبه ، اذ كان لا يمكنه تسييره واكثر العساكر ورتوت الامراء من اقاربه والمتحكمين في دولته ، واعتقد انه لو لاطف جنكيز في الجواب لم يزده ذلك الا طمعا فيه ، فتماسك وتجلد وابى » الدولة الخوارزمية ص ٧٣ - ٧٤ .

(١) ابن الاثير ج٩ ص ٤٣٣ ووصف لنا ياقوت تخاذل السلطان وهروبه وانه قد هان عليه ترك الممالك وانتقد النسوي ص٨٩- ٩١ ، جلال الدين ص ٨٩ - ٩١ كذلك خوارزمشاه في توزيعه الجيوش على المدن في هربه . تاريخ بخارى ص ١٧٧ القزاز الحياة السياسية في العراق ص ١٧٩ .

(٢) ابن الاثير ج٩ ص ٣٣٦ .

(٣) النسوي ص ٩١ ، تاريخ بخارى ص ١٦٥ - ١٦٦ . الصيادص٥٧ - ٥٨ .

BRetschnider - 1 - p . 278 .

وتولى ابنه جوجي تنفيذ الشطر الثاني من الخطة بزحفه نحو جند واستيلائه عليها وبذلك سيطر عـــلى القسم الغربى من بلاد ما وراء النهر ، وقطع اتصال الخوارزميين به .

وقام بعض قواد جنكيز بتنفيذ جزء اخر من الخطة بالزحف نحو بنا كت وخجندة ، ونجحوا في ذلك بالرغم من البطولة التي أبداها تيمور ملك حاكم خجندة والذي اصبح مضرب المثل » (١) .

أما جنكيز فقد زحف بالجيش الرئيسى نحو بخارى يرافقه ابنه تولى ، ونجح في الوصول اليها في غرة ذي الحجة ٦١٦هـ ـ ١٢٢٠م فلم تصمد امامه الا اياماً قليلة خرج بعدها اعيانها يلتمسون منه الامن والسلام ولكنها لم تنج من المجزرة فتحولت بعد ايام الى حطام ورماد (٢) .

ثم جاء الدور على سمرقند ، وهى اكبر مدن بلاد ما وراء النهر واكثرها اهمية

«١» تاريخ بخارى ص ١٦٦ ـ ١٦٨ ، الصياد ص ٥٨ ـ ٦١ .

BRetschnider - 1 - p . 278 .

«٢» ابن الاثير جـ٩ ص ٣٣٢-٣٣٣ . النسوي ص ١٠٠ الجوزجاني ـ تاريخ ال جنكيز ص ١٤. تاريخ بخارى ص ١٧٠ ـ ١٧٣ .

الصياد ص ٦١ ـ ٦٤ وهو ينقل عن الجويني جـ ١ ص ٨٣ قول احد الذين نجوا من مذبحتها ووصل الى خراسان وسئل عما فعله المغول فقال : لقد اتوا فخربوا واحرقوا وقتلوا ونهبوا ثم ذهبوا) . بارتولد ترجمـــة المعارف الاسلامية م ٣ ـ بخارى ـ ٤١٢ .

وكان جنكيز قد حسب حسابا في خطته فرتب ان تلتقي جميع قواته الزاحفة حول اسوارها ، وكان على علم تام بتفصيلات واسرار القوة الكبيرة الموضوعة (١) فيها وربما كان مرد ذلك الى انهيار معنويات الامراء الخوارزميين وخيانة بعضهم والتحاقهم بصفوف المغول بدعوى انهم من جنسهم ، وكشفهم ما وجب ستره من الاسرار ، والادلة على ذلك كثيرة (٢) .

على ان النسوى (٣) يكشف لنا عن رأس الخيانة بذلك عند ذكره حضور بدر الدين العميد نائب وزير السلطان في اترار عند جنكيز وأشار اليه ببعض المعلومات ودبر معه بعض التدابير التي ساعدت على نجاح حيلة جنكيز في التفريق بين خوارزمشاه وامه وقواده ، كل ذلك تشفياً من السلطان .

«١» تاريخ بخارى ص ١٧٣ . بارتولد - الترك في وسط اسيا ص ١٦٢ ، وكانت حاميتها تتألف من ٦٠ الف من الترك ، ٥٠ الف من التاجيك .

«٢» كانت الدولة الخوارزمية تضم اقواماً غير متجانسين في كثير من الاحيان وكان الجيش نموذجاً لهذا التباين • ففيه من الترك ، ومن التاجيك ، وكان جنكيز يدعو الترك منـــه الى الالتحاق بصفوفه بدعوى القرابة ، وكثيراً ما يستجيب هؤلاء لمغرياته .

وينقل بارتولد : الترك في وسط اسيا ص ١٦٢ - ١٦٣ عن احد مؤرخي القرن الثالث عشر الميلادي قوله ان الصداقة الحقة لا يمكن ان تتوثق عراها بين الترك والتاجيك .

ويشير النسوي في سيرة جلال الدين ص ١٠١ الى انضمام اخوال السلطان نفسه الى جنكيز .

«٣» سيرة جلال الدين منكبرتي ص ٩٢ - ٩٣ .

وبالرغم من القوة الكبيرة التي تجمعت حول اسوار سمرقند ، فان جنكيز لجأ الى اساليب اخرى لاحكام الحصار عليها ، والقاء الرعب في قلوب حاميتها وسكانها ، من ذلك استخدامه ما تعود المغول على استخدامه من جمع الاسرى وسكان المدن المفتوحة ، ووضعهم في مقدمة الجيش الزاحف عند الحصار لايهام المحاصرين بقوة المحاصرين وكثرة عددهم ، ونجح جنكيز في حيلته ، فلم تمكث اسوار المدينة وحصونها امامه غير ثلاثة ايام استسلمت بعدها في يوم عاشوراء ٦١٧هـ / ١٢٢٠ م ، بسبب الخوف والاغراء ، ولكنها شاركت بخارى مصيرها ، ولم يسلم من الذبح حتى الذين وعدوا بالعفو من الجند باعتبارهم من بنى جلدتهم (١) .

وبسقوط سمرقند ، تمت لجنكيز السيطرة على معظم بلاد ما وراء النهر الا بعض مناطق داخلية لم تطل مقاومتها ، وانفتحت امامه ابواب خراسان وبقية الولايات الغربية التي لم تكن مستعدة للقتال .

وكان جنكيز يدرك أن بقاء خوارزمشاه سيحول بينه وبين السيطرة على البلاد والخلود الى الراحة ، لذلك انتدب قائديه شيبي وسبوتاي *Chebe , Subutai* لملاحقة خوارزمشاه وجهزهما بفرق من جيشه سماها ابن الاثير بالفرق المغربة (٢) .

---

(١) ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٣٣ - ٣٣٤ ، الجوزجاني تاريخ ال جنكيز ص ١٤ تاريخ بخارى ص ١٧٣ - ١٧٥ الترك فى وسط اسيا ص ١٦٣ ، الصياد ص ٦٤ - ٦٦ وهو يشير الى ان من بين الذين احجموا عن قتال المغول كان طغاي خان خال السلطان وقائد جيشه .

(٢) ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٣٤ . الجويني جـ١ ص ١١٢ ، ابوالفداء جـ١ ص١٣٣ .

اما خوارزمشاه فكان كما ذكرنا قد غلب عليه الخور والهلع ، وهام على وجهه لا يلوى على شيء ، وزاد من رعبه ما بلغه من سقوط بخارى وما اصابها من ضيم ، وما اصابه من تخاذل الناس عنه والتحاقهم بالمغول ، حتى كان منهم اخواله ، حينئذ انقطع امله من البلاد واصبح كما يقول النسوي (١) « ومن هناك وهى الامر وانبثق السكر وانفصمت العرى ، وانتقضت المراير والقوى ، ولكل مرير انتقاض ، ولكل امر انقراض كذلك يؤتى الله الملك من يشاء وينزعه عمن يشاء ، وهو الفعال لما يريد » (٢) .

وتنقل السلطان في هربه من جيحون الى نيسابور الى بسطام الى الري ، الى مازندران ولم يفكر خلال ذلك بالوقوف قليلا والتصدي لهذه الفرق المغربة بالرغم من انه ملك اسباب القوة في بعض هذا الطريق » (٣) .

وقيل انه فكر في اللجوء الى بغداد ، ولكنه لم ينفذ ذلك خوفا من السقوط بايدي مطارديه ، ومن خلال متاهات مازندران وشعابها استقر خوارزمشاه في قرية

«١» النسوي ص ١٠١ وهو يعتبر خير من رسم لنا خط سير السلطان في هربه وما اصابه من صعاب وما نسب اليه من احاديث انظر ص ١٠٠ - ١٠٨ .

«٢» القرآن الكريم - سورة البقرة ٢ الآية ٢٤٧ ، ملاحظة استشهد النسوي هنا بالمعنى وليس بالنص . سورة آل عمران ٣ الآية ٢٦ .

«٣» كان ذلك عندما نزل في مرج دولت اباد من اعمال همدان فاجتمع به ابن غياث الدين ومعه جيش كبير .

ابسكون على بحر الخزر القريبة من استراباد (١) . ثم لجأ الى احدى الجزر القريبة منها عندما داهمه مطاردوه يقودهم كبودخانه احد اعدائه ، حيث قضى فيها بقية ايامه ومات غريباً طريداً فقيراً (٢) .

اما جنكيز ، فانه بعد ان ودع الفرق المغربة وزودها بتوصياته ، تفرغ ثانية لتأمين سيطرته على البلاد واكمال اخضاعها ، فاعاد توزيع جيوشه مرة اخرى ، واذا استثنينا المقاومة التي ابدتها عاصمة الخوارزميين اوكنج - جرجانية باعتبارها آخر القلاع الخوارزمية المحصنة ، مستغلة الى حد ما النزاع الذي قام بين ولدي جنكيز (٣)، فضلا عن حصانة موقعها الجغرافي بفضل نهر جيحون ، فاننا لا نلمس شيئاً من المقاومة

«١» ذكرها النسوي - الاستنداد ، واحتمل محقق النسوي ان تكون استناباذ او استناوند معتمداً على ياقوت . وارى مع القائلين بانها استراباد القريبة من ابسكون معتمداً في ذلك على الاصطخري - المسالك والممالك - تحقيق ومراجعة الحسيني وغربال ص ١٢٥ . اما الجزيرة التي لجأ اليها فهي جزيرة اغورد جالي ، او كيرجن ،تاريخ بخارى ص١٧٧ حاشية (٣) .

«٢» وكانت وفاته في اواخر سنة ٦١٧ هـ - ١٢٢٠ م ، الجويني جـ٢ ص ١١٤- ١١٧ ، السمرقندي - تذكرة الشعراء ص ٨٤-٨٧ ويجعل وفاته في ٢٢ ذي الحجة . تاريخ بخارى ص ١٧٦ - ١٧٨ يجعلها في ذي العقدة الصياد ص ٦٨ - ٧٠ ، ويجعلها في شوال ، الدولة الخوارزمية ص ١٢٧ - ١٣٠ .

«٣» وهما جوجي وجغتاي الامر الذي دفع جنكيز الى اعطاء القيادة لاخيهم الثالث اوكتاي .

امام تولي الابن الرابع لجنكيز الذي يخترق خراسان ،اوامام جنكيز نفسه الذي توجه نحو ترمذ حتى الطالقان .

وكأن ابن الاثير (١) عنى هذه الولايات بقوله « فان هولا والتتر ، انما استقام لهم هذا الامر لعدم المانع ، وسبب عدمه ان خوارزمشاه محمد كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وافناهم وبقي وحده سلطان البلاد جميعها ، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها » .

وكان جنكيز في زحفه كأنه ذاهب الى نزهة وليس الى حرب ، فكان يشتي في سهول منطقة ، ويصطاف في مرتفعات اخرى ، حتى استقر بالطالقان حيث التحق به ابنه تولى » (٢) . ورغم انهما لم يلقيا مقاومة تذكر في زحفهما ، الا ان مصير المدن التي استسلمت لعهودها مثل بلخ ، ونسا ، ومرو ، ونيسابور ، لم يكن باحسن من نهاية بخارى وسمرقند واوركنج حتى ان الحيوانات في نيسابور لم تخلص من وحشيتهم (٣) .

---

(١) الكامل ج ٩ ص ٣٣٠ .

2) *BRetschnider -1- p 281.*

(٣) ابن الاثير ج ٩ ص ٣٤١ - ٣٤٣ ، الصياد ص ٧٧ - ٨٢ .

BRetschnider - 1 - p. 280 281 .

النسوي ص ١١٣ - ١١٥ ، ١١٧ - ١١٩ .

Osborn : p. 383 387.

هارتمان (*Hartman*) ترجمة المعارف الاسلامية م ٤ - بلخ - ص ٨٠ .

ويرى براون (١) ان المغول ازدادت قسوتهم وغلظتهم بازدياد نجاحهم ونفوذهم فلم نعد بعد الآن نسمع بحادثة واحدة اظهروا فيها قليلا من الرحمة والشفقة حيال سكان المدن البائسة التي وقعت تحت ايديهم ، بل اخذوا يبيدونهم عن آخرهم في غلاظة وفظاعة » .

أما المرة الوحيدة التى احس فيها المغول بوجود جيش خوارزمي يتصدى لهم في ميدان مكشوف ويشتبك معهم في معركة ، فكانت في منطقة غزنة ، ذلك بفضل جلال الدين الذي كان قد انسحب اليها مع بعض اصحابه فتجمع حوله الجند (٢) وانتصر في معركتين على المغول الذين بعثهم جنكيز لمطاردته ، واستنقذ من ايديهم عدداً كبيراً من اسرى المسلمين ، فكان لانتصاره هذا رنة فرح بين المسلمين واثر عظيم في رفع معنوياتهم (٣) وكان ذلك تحديا لجنكيز خان واثار حدة غضبه فاقسم

«١» تاريخ الادب في ايران ج٢ ص ٥٥٩ . وهو ينقل عن ابن الاثير والجويني تقديراتهم لعدد القتلى .

«٢» كان جلال الدين بعد ان اوصى له ابوه بالعهد من بعده بدلا من اخيه قطب الدين ازلاغ شاه لما توسمه فيه من الشجاعة والرجولة ، قد توجه بعد وفاة والده بالجزيرة الى العاصمة اوركانج . ومعه اخوته ، لكنه احس بانكار اخوال اخيه لسلطنته وتآمرهم عليه فنجا ببعض اصحابه نحو خراسان ثم استقر بغزنة ، وقد فصل النسوي ذلك ص ١٢٠ وما بعدها حتى ١٣٤ .

«٣» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٤٣-٣٤٤ ، الجويني ج ٢ ص ١٣٤ - ١٣٩ ، النسوي ص ١٥٤ - ١٥٥ ، الجوزجاني - تاريخ ال جنكيز ص ٢٠ ، التاريخ الغازاني -

ان يقود الجيش بنفسه ، وكان من سوء حظ جلال الدين سوء طالع المسلمين معه ان لا يقدر هذا الجيش المسلم المنتصر مسؤليته في هذا الظرف العصيب ، فينقسم على نفسه ويختلف قادته بسبب غنائم تافهة ويعجز جلال الدين عن رأب الصدع ولم الشمل فيتفرق الجند من حوله بالرغم من توسلاته بقادتهم (١) ، ويحس انه لا قبل له بالجموع الزاحفة فيقرر التراجع الى حوض السند ليحتمي بعبوره لكن جنكيز يعاجله قبل ذلك ويكرهه على معركة غير متكافئة يبدي فيها جلال الدين من ضروب البطولة ما ينصدع له قلب جنكيز فيقف مشدوهاً ويمنع اصحابه من ملاحقته وهو يعبر السند، ثم يقول لابنائه « ينبغي ان يكون للاب ابن مثل جلال الدين ، وحيث انه قد نجا من الغرق والنار ووصل الى الساحل سالماً ، فسوف تتولد عنه اعمال كثيرة ومتاعب لا حصر لها بالنسبة الينا ، واذن فكيف يستطيع الرجل العاقل ان يغفل عنه » (٢) .

وبعد ان استراح جنكيز في هذه المنطقة اكثر من سنة ، امر خلالها بمطاردة

-م٣ الورقة ٤١٥-٤٢٤.

وكان من تأثير هذه الانتصارات ثورة اهل هرات على الجيش المغولي وقتلهم الشحنة.

BRetschnider -1- p. 282.

«١» شرح لنا النسوي اسباب الخلاف ، وهاجم في كلامه الترك . وانكر الاعتماد عليهم ، وبين محاولات جلال الدين لارضائهم وتسوية الخلاف بينهم ص ١٥٦ .

«٢» ابن الاثير ج ٩ ص ٢٤٤ ، الجويني ج٢ ص ١٤٠ - ١٤٢ ، تاريخ ال جنكيز ص ٢٠ - ٢١ ، النسوي ص ١٥٦ - ١٥٩ ، براون ج٢ ص ٥٧٠ وهو يقدم لنا وصفا لبطولة جلال الدين في معركة السند ، الصياد ص٨٥ - ٨٦ . القزاز ص ١٨٠ وكانت المعركة يوم الاربعاء ٢٢ شوال ٦١٨ / ١٢٢١ م . تاريخ بخارى ص ١٧٨ .

جلال الدين واتباعه وتأديب المدن الثائرة كهرات وغزنة ، عزم على العودة الى بلاده خاصة وقد وصله بعض الرسل كما يقول الجوزجاني (١) يخبرونه بتمرد بعض خانات التنكوت وطغماج بسبب طوله غيابه ، ومن ثم تحرك للعودة في ربيع ١٢٢٣ م سالكاً الطرق السهلة ، وكان يمكث في الشتاء للراحة في مكان ثم يقضي الصيف في مكان اخر واستغرقت عودته قريباً من سنتين حيث وصل بلاطه في منغوليا في شباط ١٢٢٥ م ـ ٦٢٢ هـ (٢) .

ولم يمكث جنكيز طويلا في حاضرته قراقورم ، اذ كان الغضب قد غلب عليه للانتقام من المتمردين ، فقاد بنفسه الجيش الى بلاد التانجوت (الكاشين) التي تصدى له اميرها بجيش ضخم لم يلبث ان تمزق وتشرد امام هجمات جنكيز ، وفر الامير المتمرد الى احد الحصون المنيعة تاركا الجيش المغولي يدمغ البلاد بطابعه من التخريب

---

(١) تاريخ ال جنكيز ص ٢٤-٢٥ .

BRetschnider - 1- p 282 .

الدولة الخوارزمية ص ١٦١ ـ ١٦٢ ، وقد استغرقت حملته ست سنوات .

(٢) الجويني ج ١ ص ١١٠-١١٣ ،

BRetschnider -1- p 282 - 283 .

برايس ج٢ ص ٥٣٤-٥٣٦ .

D'ohsson -1- p : 318 .

الصياد ص ٨٧ ـ ٨٨ .

Osborn . p : 387-388 .

والسلب (١) .

وبينما كان جنكيز يقوم باعادة فرض سلطانه على البلاد المجاورة التي كان امراؤها يسارعون لتقديم الطاعة والهداية اذ وصله رسول من امير الكاشين المتمرد يلتمس عفوه وقبول طاعته واستعداده للمثول بين يديه خلال شهر ، فاجاب جنكيز الى ذلك لكنه اوصى اولاده بنقض عهده هذا عند وصول الامير وقتله (٢) .

وكان التعب ومشاق السفر وكبر السن قد وضحت آثارها على صحة جنكيز بالاضافة الى عفونة الجو ورداءة المناخ في المنطقة التي كان يعسكر فيها على نهر سال Sale وهو يستعد لحملة جديدة على اسرة سنك Sung التي تسيطر على جنوب الصين .

فغلبه الضعف والانهيار وأحس بدنو أجله ؛ فدعا اولاده وحاشيته الى اجتماع يقرر فيه مستقبل البلاد (٣) ؛ ويرى أحد المؤرخين(٤) أن جنكيزخان أحس بالندم لما ارتكبه من المآسي فاعتزم تعمير بعض المدن ، لكنه حال بينه وبين ذلك طبيعة الحياة وكبر سنه ، وقرب نهايته ، وعقد الاجتماع وتعاهد الجميع على الاخلاص

---

(١) التاريخ الغازاني م ٣ الورقة ٤٤٣ - ٤٤٦ . برايس جـ٢ ص ٥٣٥ - ٣٥٦.

Sykes -11- p : 84.

(٢) برايس جـ٢ ص ٥٣٦ .

(٣) برايس جـ٢ ص ٥٣٦ - ٥٣٧ . لوي ص ٦٣٤ من

C. M. H. IV

4) *Malcolm The Hist of Pirsia -1- p: 260* .

والطاعة، وبعد ان ابدى كل ما يدور في ذهنه من اسئلة حول مستقبل البلاد، ثم سألهم ان يخلفه في الخانين من بعده ابنه اوكتاي (٥)، ووزع البلاد بين اخيه وابنائه (١) .

وكان التوزيع قائما على اساس الاقوام والافخاذ وليس على اساس المقاطعات المحددة (١) .

---

(١) ويشير لاتيمور في المعارف البريطانية م ١٦ - مادة (*ogadai*) ص ٧٢٦، الى ان جنكيز اختار ثالث ابنائه للخانين منه بعده، بسبب شعور العداء الذي قام بين الاخوين الاكبر منه جوجي وجغتاي، وقد توفي جوجي سنة ١٢٢٧ م اي قبل ابيه بحوالي ستة اشهر .

(٢) يذكر برايس ج٢ ص ٥٣٦ - ٥٣٨ ان اولاده الثلاثة جغتاي، اوكتاي تولى كانوا حاضرين الاجتماع، بينما لا يشير الجويني ج١ ص ١٤٢ - ١٤٣ الى وجود تولى.

(٣) وهو ينقل التقسيم التالي عن :

Hist of persia _11 p : 86 .

Lane - pool : Muh . Dynasty : p 205 .

فيقول

١ - حكمت اسرة اوكتاي قبائل الزنكاريا ومنصب الخاقانية حتى انقرضت بواسطة اسرة تولى .

٢ - حكمت اسرة تولى الاقوام المغولية الرئيسية *TheHome clans* وتولت منصب الخانية بعد اسرة اوكتاي.

وتوجه جنكيز بعد ذلك بوصية لاولاده نقلها لنا رشيد الدين (١) ، وضع فيها خلاصة تجاربه ، مبيناً ضرورة التعاون فيما بينهم والعمل يداً واحدة .

ثم اكد عليهم بان يبقى موته سراً اطول فترة ممكنة ، وبعد ان اوضح لهم طريقة ادارة البلاد بعد وفاته وحتى تولى اوكتاي السلطة ، قرر ان يكون مستشاره وصديقه قراتجو المشرف على الاموال والمرجع في الامور (٢) .

— ٣ ـ اما الفرع الفارسي منها فهو هولاكو واحفاده الذين يمثلون الايلخانية في فارس .

٤ ـ حكمت اسرة جوجي القبـــائل التركية لخانات القبجاق .

٥ ـ حكمت اسرة جغتاي بلاد ما وراء النهر . وارى ان هذا التقسيم يمثل الصورة الاخيرة التي اصبح عليها المغول بعد استقرار امورهم في عهد منكو وقبلاي ، وليس في عهد جنكيز الذي قد يكون وضع بعض خطوطه . انظر ايضا في تقسيم البلاد الجويني جا ص ٣١ .

(١) التاريخ الغازاني م٣ الورقة ٤٤٦ ـ ٤٤٨ . انظر ايضا العزاوي ج١ تاريخ العراق بين احتلالين ص ١٢٧-١٢٨ ، الصياد ص ٨٨ ـ ٨٩ .

(٢) برايس ج٢ ص ٥٣٧ ـ ٥٣٨ ، ويشير :

الى ان تولى كان يقوم بالاشراف على الامور مدة مرض جنكيز . بينما يشير فصيحي خوافي في المجمل في حوادث سنة ٦٢٤هـ الى ان جنكيز اوصى ان تقوم زوجته سورقتاي بيكي بتولي الوصاية على الحكم بعد وفاته وان يطيعها افراد الاسرة حتى ينعقد المجلس ويتولى اوكتاي السلطة .

وبلغ جنكيز ارذل العمر قبل ان يدركه الموت في الرابع من رمضان ٦٢٤هـ / ١٦ اغسطس ١٢٢٧ م (١) .

— وبالرجوع الى التاريخ الغازاني م٢ الورقة ٢٧٣ - ٢٧٧ لم اجد اشارة الى وجود اسم هذه الزوجة بين نسائه وخاصة الخمسة المفضلات لديه .

بينما يشير الصياد ص ١٠٩ الى ان الزوجة المفضلة عند جنكيز كانت تسونجين وهي ام اولاده الكبار .

(١) وتوفي جنكيز وقد جاوز السبعين من العمر . ونقل جثمانه بموجب التقاليد الى الاردو ، وقامت الحامية المرافقة بقتل جميع من صادفوه في طريقهم من الناس لكي لا يشيع الخبر .

مواصلة الابناء سياسة ابيهم

وخلا العرش بوفاة جنكيز الذي كان قد تجرأ وكسر العرف المغولي المألوف في الوراثة بعدم اختياره الاكبر ، الا ان الأبناء تمسكوا برغبة أبيهم طاعة له بعد وفاته ، او تخلصاً من الانقسام على بعضهم .

ويرى لوي (١) ان ذلك نتيجة لقوة سلطانه التي بقيت تسود عليهم حتى بعد وفاته .

وبعد سنتين من اقامة مراسم العزاء وتفرق الابناء كل الى بيوته ، كانت شؤون الحكم تدار خلالها من قبل تولى الابن الاصغر تطبيقاً لتقليد مغولي (٢) ، دعي ابناء الاسرة ومن لهم حق الحضور الى اجتماع القوريلتاي في ربيع ٦٢٦ هـ ـ ١٢٢٩ م .

«١» انظر ص ٦٣٥ من

C . M . H . IV

«٢» التاريخ الغازاني م ٣ الورقة ٥٢٠

L'ohsson -II- p : 9 .

R - Coke : Baghdad The ci y of peace p : 134 .

لتقرير امر العرش الشاغر وتنفيذ وصية الاب الراحل (١) .

وعقد الاجتماع فى موضع كلزار ، ونوقش فيه كسر جنكيز وتخطيه العرف المغولي في الوراثة ، واعلن المرشح عن تنازله لمصلحة أخيه الاكبر او لاحد اعمامه ، ولكن الجميع رفضوا مخالفة الخطأ ، واصروا على احترام رغبة جنكيز ، بالرغم من اعلان تولى الذي كان اليه الاشراف على الاجتماع ، عن فتح باب الترشيح كل يوم من ايام الاجتماع الاربعين .

وكان التقليد ان يظهر الاعضاء كل يوم بلباس جديد ، وكأس جديد ، واختير اليوم الواحد والاربعون ليكون يوم التتويج حيث قام جغتاي واوتكين يرفع اوكتاي حسب العادة الى سرير الملك ، ورفع تولى كأسه ثلاث مرات امام الخان ، ودعى له بدوامها وسمى بالقاآن .

وكان من التقاليد ايضاً ، ان يتقدم ابناء الاسرة امام الخان وينحنوا امامه ثلاث مرات على ركبهم .

وبانتهاء هذه التقاليد اقيمت الاحتفالات لمدة ثلاثة ايام ، ووزعت الاموال

---

(١) وحضر هذا القوريلتاي اولاد جوجي وهم باتو واخوته . وحضر باتكين شقيق جنكيز وبقية الامراء الآخرين . الجويني ج ١ ص ١٤٥ ، التاريخ الغازاني م ٤ الورقة ٧٠٢ .

برايس ج٢ ص ٥٤٠ - ٥٤١ ، وهو يشير الى غياب جغتاي وحضور قراتجور نيابة عنه. بارتولد - ترجمة المعارف الاسلامية م٣ - باتو - ص ٢٥٥ .

على الجميع (١) .

ويقال(٢) ان اوكتاي بعد ان انتهى من مراسيم التتويج امر بارسال اربعين بنتاً عذراء لتخدم جنكيز في عالمه الاخر ، كما ضحى بعدد من الخيول .

ودخلت الدولة المغولية بتولي اوكتاي الخانين عهداً جديداً من الاستقرار والتنظيم ، ويظهر ان الخان الجديد أراد ان يستغل القوريلتاي قبل انفضاضه ، فيحصل على تفويض بالسياسة الجديدة التي ينتويها ، ويشرك اعضاءه في تنفيذها ، وقد تحقق له ذلك .

واهم ما يهمنا من سياسة الخان الجديد هو موقفه من العالم الاسلامي وشعوره بعودة الخطر الخوارزمي من جديد متمثلا في شخص جلال الدين والحلول التي وضعها للتخلص منه .

وقرر القوريلتاي مواصلة سياسة جنكيز في الفتح والتوسع شرقا وغربا ، والقضاء على الدول والامارات الباقية بجوارهم ، كما تقرر إرسال جورماغون نويان على رأس

«١» الجويني جـ١ ص ١٤٥ – ١٤٨ . التاريخ الغازاني م ٤ الورقة ٧٠٢ – ٧٠٣ وهو يذكر ان رسم المغول تعين الخان الجديد يكون بالانحناء امامه تسع مرات ، وعليه اعتمد السمرقندي – تذكرة الشعراء ص ٩٨ .

D'ohsson op cit 11 9-12 .

«٢» وقد يفسر هذا العمل بان المغول على وثنيتهم كانوا يعتقدون بيوم البعث على غرار قدماء المصريين .

Hist of persia : II : p 86 -

جيش مؤلف من ثلاثة توامين لمطاردة جلال الدين والقضاء عليه (١) .

وكان جلال الدين قد خرج من الهند سنه ٦٢٢ هـ ـ ١٢٢٥ م بعد تعذر مقامه بها كما يقول ابن الاثير (٢) واستغل عودة جنكيز الى بلاده وانشغاله ثم وفاته

«١» كان القرار استمراراً لتطبيق سياسة جنكيز في التوسع شرقا للقضاء على بقايا اسرة كن في شمال الصين ومهاجمة امبراطورية اسرة سنك فى جنوبها ، والتوسع غربا نحو بلاد العراق ، ثم امتد هذا التوسع شمالا فوصل شره اوربا بعد ذلك ، انظر: الجويني ج ١ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ . تاريخ ال جنكيز ص ٤٧ ، برايس ج٢ ص ٥٤١ اوي ص ٦٣٥ من

C- M - H - IV

الصدفي ج٢ ص ٢٧٥ .

وتعنى كلمة النويان ـ القائد العسكري لفرقة تعدادها عشرة الاف جندي ، انظر في ذلك ستينجاس *Steingass* ، في القاموس الفارسي ـ الانكليزي ج ٢ ص ١٤٣٦ ـ ١٤٣٧ . اما التومان : فمعناها فرقة من الجيش عددها عشرة الاف جندي . انظر المرجع السابق ج١ ص ٣٣٧ انظر ايضا ، القلقشندى ج ٦ ـ صبح الاعشى ص ٣٣ .

داود الجلبي ـ الفاظ مغولية في اللغة العربية ، مجلة المجمع العلمي العراقي ج ١ سنة ١٩٥٠ ص ٣٧٦ .

«٢» الكامل ج٩ ص ٣٥٥ ، النسوي ص١٧٤ ، الذهبي دول الاسلام ج٢ص٩٣ الدولة الخوارزمية .ص ١٧١ .

وخلود ابنائه الى الراحة ، فأستعاد سلطانه على معظم البلاد مثل كرمان ، وأصفهان وفارس واذربيجان ، وانساه حقده على الخلافة العباسية الاهتمام بالخطر المغولي ، واخذ العبرة من النكبات السابقة التي اصابت اسرته والمسلمين ، فيتلافى النقص ويعمل لجمع الشمل ، بل عمد الى مهاجمة بعض بلادها ودعا امراء المسلمين (١) للتحالف عليها وشجعه انتصاره على بعض الكتائب المغولية في رمضان ٦٢٥ هـ ـ ١٢٢٨م في منطقة اصفهان (٢)، لكي يحاول فرض سلطانه على جميع امراء المسلمين (٣) . الامر الذي

«١» كان جلال الدين يعتقد ان الخليفة الناصر هو السبب فيما لحقهم من ضيم ، لذلك كتب الى المعظم عيسى الدين الايوبي يدعوه للتعاون معه ضد الخلافة لانه كان السبب في هلاك ابيه ومجيء الكفار .

انظر سبط ابن الجوزي جـ ٨ ق٢ - مرآة الزمان ص ٦٣٤ ، ابو المحاسن النجوم الزاهرة ٦/ص ٢٦٠ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٤٤ ، الذهبي ـ دول الاسلام جـ ٢ ص ٩٤ .

«٢» ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ ، النسوي ص ٢٣٢ ـ ٢٣٨ ، ابن خلدون جـ ٥ العبر ص ١٣٢ .

«٣» حاول الخليفة العباسي المستنصر بالله كما حاول ابوه الظاهر بالله من قبل ، كبح جماح جلال الدين وارضاء نزعته للسيطرة والاستعلاء على الامراء الاخرين ، فوافق اخيراً على تميزه عن بقية الامراء ومنحه بعض الالقاب الدالة على ذلك لكي يأتي الى حظيرة الطاعة ويخلد الى الاستقرار والتعاون مع الامراء المسلمين للوقوف في وجه الخطر المغولي . وقد شرح ذلك النسوي ص ٣٠٤ ـ ٣١٠ ، الدولة الخوارزمية ص ١٨٥-١٨٨ ، القزاز ص ١٨١ - ١٨٢ .

جره الى منازعة الامراء الايوبيين وسلاجقة الروم والكرج ، وفشله امامهم بل وهروبه منهم (١) .

وأطمعت هذه الهزيمة ، وما لحقه من ضعف لتفرق انصاره عنه ، اعداءه ، فتكالبوا عليه وتآمروا على التخلص منه ، وكان الاسماعيلية على رأس هؤلاء ، حيث وشوا بحاله الى المغول واطمعوهم به (٢) .

وأحس جلال الدين بالخطر يتهدده عندما سمع بتوجه جورماغون نحوه ، كما احس بعزلته وعجزه أمامه ، فسعى للاستعانة بالخلافة ، وبالأشرف الأيوبي ، وبقية امراء المسلمين الذين لم يترك في قلوبهم بقية من رحمة تنفعه في هذه الايام العصيبة (٣) ولكن المغول لم يمهلوه ليستعد لهم ، فهاجموه ولاحقوه ، حتى اختفى عنهم ببعض الشعاب وساقته الجفلة الى احدى قرى ميافارقين ، بعد ان أغاق اهل

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٨١ . سبط ابن الجوزي ج ٨ ق ٢ ص ٦٦٠ - ٦٦٢ . النسوي ص ٣٢٩ - ٣٣٢ ، وهو يشير الى ان الاشرف الايوبي بالرغم من انتصاره وافق على عقد الصلح مع جلال الدين عندما قدمت رسله لذلك .

«٢» يشير ابن الاثير ج ٩ ص ٣٨٣ الى ذلك بقوله : « وارسل مقدم الاسماعيلية الملاحدة الى التتر يعرفهم ضعف جلال الدين بعد هزيمته ، ويحثهم على قصده ويضمن لهم الفوز للوهن الذي اصابه » .

انظر ايضا النسوي ص ٣٤٤ ، ابن واصل م ٢ تاريخ الواصلين - او مفرج الكروب - الورقة ٢٧١ - ٢٧٢ .

«٣» يعلق النسوي على استنجاده بالخلافة والايوبيين بقوله « ومن العجائب -

آمد ابواب مدينتهم في وجهه بالرغم من وعد صاحبها له بذلك فيما مضى . وسقط جلال الدين قتيلا بيد بعض اكراد المنطقة طمعاً بمـا عليه من لباس وعدة ، او طلباً لثأر قديم (١) .

وأحس المسلمون بعد اختفاء جلال الدين بزوال السد الذي كانوا يحتمون خلفه . فندموا حيث لا ينفع الندم (٢) ، وانفتح الطريق امام المغول الذين كانوا قد جعلوا دأبهم الوصول الى جلال الدين ، فتوغلوا في البلاد وراءه من دون مانع يمنعهم ،

ـ انتصاره بقلب جرحه بصوارمه ، واستظهاره بجناح بت بيده وصفوف قوادمه » . ص ٣٥٥ .

ووصفه ابن الاثير ج ٩ ص ٣٨٣ : « بقبح السيرة وسوء التدبير ، لم يترك احداً من الملوك المجاورين له الا عاداه ونازعه الملك واساء مجاورته . . فكل الملوك تخلى عنه ولم يأخذ بيده » ، انظر ايضا ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٦ .

«١» سبط ابن الجوزي ج ٨ ق ٢ ص ٦٦٦ ، ٦٦٩ وهو يسمي القرية مين دار ، النسوي ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ ، ابن العـبري ص ٢٤٧ ، القزاز ص ١٨٣ ، ٢٣٤ ، السمرقندي ـ تذكرة الشعراء ص ٩٢ـ٩٥ ، الدولة الخوارزمية ص ١٩٤ـ١٩٥ .

«٢» يحدثنا في ذلك سبط ابن الجوزي ج ٨ ق ٢ ص ٦٧٠ ، نقلا عن احد الامراء الايوبيين قال حدثني عماد الدين موسك ، قال لما كسر الخوارزمي ودخل عثمان وغازي وجماعة على الاشرف فهنأوه بالكسرة ، فقال تهنؤنني بهذا ؟ سوف ترون غب هذا والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتر بلاد المسلمين ، وما كان الخوارزمي الا مثل السد الذي بيننا وبين ياجوج وماجوج ، فكان كما قال) .

فوصلوا ديار بكر وآمد ، وميافارقين حتى الجزيرة وحران ولم تسلم الموصل واربل ودقوق من شرورهم .

وكان جورماغون قد اقام في حدود قم وكاشان فخضعت له اطراف البلاد ، ودان له امراؤها بالطاعة (٤) .

وتوالت هجمات المغول على البلاد، وتعبد الطريق امامهم نحو بغداد ، ولكنهم لم يجرؤا على مهاجمتها او الاستقرار في اطرافها ؛ بل كانوا يتركون وراءهم الخراب والفزع ، ويعودون محملين بالاسلاب والغنائم ، ولعلهم كانوا يقصدون من وراء ذلك اختبار قوة الخلافة ومدى استعدادها وقدرتها على المقاومة ، كما قد يكشف ذلك ايضاً عن عدم وجود خطة واضحة لديهم بشأن التوسع بسبب اضطراب امورهم الداخلية .

وبلغت هجماتهم على العراق خلال هذه الفترة حتى سقوط بغداد ثلاث عشرة حملة(١) ، ومن ناحية اخرى فقد تفرغ اوكتاي خان للاعمار الداخلي ، وخاصة بعد عودته من الحملة على بلاد الصين ، واصرار الامراء عليه للبقاء في العاصمة ونيابتهم

---

(٤) ابن الاثير ج ٩ ص ٣٨٤ - ٣٨٦ ، سبط ابن الجوزي ج ٨ ق ٢ ص ٦٧٣ ، تاريخ آل جنكيز ص ٤٧ لوي، ص ٦٣٦ من

C. M. H. IV

ابن واصل م ٢ الورقة ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٣٨٦ .

انظر القزاز ص ٢٣٤ في احصائية عدد الحملات على بلاد العراق .

عنه لقيادة الحملة على القبجاق (١) .

فقد امر على إعادة تخطيط العاصمة قراقورم على نسق جديد ، قيل انه على غرار مدينة بغداد وخطط على مسافة يوم منها مكانا لبناء دور العمال المهرة واصحاب الحرف من المسلمين الذين كان المغول يهجرونهم الى العاصمة عند استيلائهم على بلادهم في زمن جنكيز (٢) ، ونظم طرقا جديدة للبريد غير القديمة وجعلها خاصة بالخانين وسميت نارين يام (٣) اي « اليام الخاص » . وبالرغم من اعتماده في ادارة البلاد على ابناء الاسرة من الامراء الذين وزعهم عليها ، فانه جعل الشؤون المالية منفصلة عن سلطانهم ، ويشير رشيد الدين (٤) الى ذلك في قوله « من انه قسم ممالكه على ثلاثة انفس ، فما كان من ممالك خطاي فانه سلم امرها الى الصاحب محمود يلواج ، وسلم الى مسعود بيك بن يلواج من حد بيش بالق وقراخوجو من بلاد الايغور الى ساحل جيحون ، وسلم امر بلاد خراسان الى حد الروم وديار بكر الى الامير كوركز ، فكانت الاموال تجمع من هذه الممالك ، وتحمل الى خزانة القان من غير

«١» التاريخ الغازاني م٣ الورقة ٥٧٤ - ٥٨٧ ، ٥٩٠ - ٥٩٥ ، وقد قاد حملة القبجاق باتو بن جوجي .

«٢» نفس المرجع الورقة ٥٩٠ - ٥٩٥ ، برايس ج٢ ص ٥٤٤ - ٥٤٥ .

«٣» نفس المرجع الورقة ٥٧٨ - ٥٧٩ .

«٤» نفس المرجع م ٤ الورقة ٦٤٤ ، ٧٥٩ . ولم يطل المقام كثيراً بالامير كوركوز في ولاية خراسان ، اذ انه عين في سنة ٦٣٣ هـ الامير ارغون اغا الذي اشتهر بقابلياته المالية حاكما على خراسان ، انظر برايس ج٢ ص ٥٤٤ ٥٤٥ .

تقصير وفتور » .

ونظم شؤون الضرائب فوضعها عـــلى الحيوانات « بان يؤخذ رأس من كل مائة » .

وعرف عنه حبه للعدالة وعمله على نشرها واشغال الناس بذلك بما اصدره من اليرليغ (١) الى سائر الممالك يطيب قلوب الرعية ويؤكد على العدالة » (٢) .

ويذكر لاتيمور *Lattimore* (٣) بان اوكتاي كان اول من لقب نفسه

«١» اليرليغ : وهو الامر السلطاني الذي يصدر عن الخاقان الذي يمنح فيه الامان للخائف او السلطة المطلقة لمن يكلف بعمل ، وفي رأي كاترمير انه لا يعطى للكتبة العرب انظر :

Dozy Supp - Dict Arabe vol 11 - p :851

ستنكاس *Steingass* - القاموس الفارسي- الانكليزي ج٢ ص ١٥٣٠ .

داود الجلبي ـ الفاظ مغولية في اللغة العربية . مجلة المجمع العلمي العراقي ج ١ سنة ١٩٥٠ ص ٣٧٦ .

«٢» التاريخ الغازاني م٢ الورقة ٥٧٨ ـ ٥٧٩ . برايس ج٢ ص ٥٤٥ ـ ٥٤٧ .

وامر الخان ايضا بان يؤخذ من كل عشرة أنفرة ـ جمع نفر ـ تغار واحد ، ويصرف ذلك على المساكين ، والتغار كما اعتقد هو اداة وزن لا يزال يستعمل في الموصل ويعادل ربع طن .

«٣» المعارف البريطانية م ١٦ ـ اوكتاي ـ ص ٧٢٦ . ويشير حسن الباشا في الإلقاب الاسلامية ص ٢٧٢ ، الى ان لقب الخاقان اصبح يطلق على رئيس الاسرة

بالخاقان، أي رئيس الخان ، بينما كان جنكيز قد اكتفى باستعمال لقب الخان فقط .

وكانت وفاة اوكتاي في جمادي ٦٣٩ هـ - ديسمبر ١٢٤١ م محكاً لتطبيق تعاليم الياسا في وراثة العرش ، ودور القوة في حرفها عن وجهها الشرعي مما اصبح سابقة عرفية لجأ اليها كثير من ابناء الاسرة فيما بعد .

واضطربت الاراء في العهد الذي خلفه اوكتاي من بعده ، ولكني ارجح ما اشار اليه رشيدالدين من انه كان قد عهد من بعده لابنه الثالث كوتشو الذي توفي في حياة فعين على ابنه الطفل شيرامون ليخلف اباه المتوفى في ولاية العهد ، وقد اوصى اوكتاي بالاشراف والعناية بتربيته (١) .

ومن المحتمل انه أمر قبيل وفاته ٦٣٩ هـ - ١٢٤١ م وكان صريع الخمرة قعيد المرض (٢) باستدعاء ابنه كيوك الذي كان في جبهة روسيا لكي يقوم بالوصاية على العرش او يتولاه ، لكن الأجل وافى الخاقان قبل موافاة امره الى ابنه ، فتولت زوجته توراكينا امر الحكم بعهد منه ، حتى ينعقد القوريلتاي الجديد ، واستطاعت كما يقول برايس *Price* بمهارتها وذكائها وهداياها للامراء في المناسبات من ضمان

المغولية وصاحب السيادة العليا على كافة ولاة المغول في انحاء العالم ، ويشير الى تلقيب مانكوبه في سكة ضرب استراباد .

«١» التاريخ الغازاني م ٣ الورقة ٥٢٤ ، م٤ الورقة ٧٦٢ - ٧٦٣ ، ٨١٣ .
برايس ج ٢ ص ٥٤٨ .

«٢» التاريخ الغازاني م ٣ الورقة ٥٩٥ - ٥٩٨ ، تاريخ كزيدة ص ٥٧٥ .
برايس ج ٢ ص ٥٤٧ - ٥٤٨ .

طاعتها الموقتة على البلاد وتوجيه الامر نحو ابنها كيوك حتى ضمنته له » (١) .

وتجلى هذا الخداع في القوريلتاي الذي انعقد فى ربيع ٦٤٣ هـ الذي حضره بالاضافة الى اعضائه من المغول ، عدد من ممثلي الامارات الاسلامية التي دخلت في منطقة نفوذهم ، بل لقد كان للخليفة العباسي ممثل فيه هو قاضي القضاة فخر الدين الدامغانى » (٢) .

ودار الصراع في هذا الاجتماع بين تنفيذ وصية الخان المتوفى طبقاً لاحكام الياسا

«١» الجوينى جـ١ ص ٢٠٣-٢٠٤ ، تاريخ ال جنكيز ص ٥٣ ، التاريخ الغازاني م ٤ الورقة ٧٥٦ . برايس جـ ٢ ص ٥٤٨ . لاتيمور : المعارف البريطانية م ١٦ اوكتاي - ص ٧٢٦ ، الصياد ص ١٢٥ - ١٢٦ .

وينفرد الرمزي في تلفيق الاخبار م ١ ص ٣٨٩ ، في الحديث عن الشروط التي كان قد قدمها اوكتاي عند توليه الخانية والتي اشترط فيها ان تبقى في ذريته ، وموافقة القوريلتاي على ذلك ، وانه اختار من بعده ابنه كيوك . بينما يشير رشيد الدين م ٤ الورقة ٧٦٥ الى هذه الشروط وينسبها الى كيوك وليس الى ابيه .

ويشير كذلك رشيد الدين م٤ الورقة ٧٦٠ عن محاولة اوتجكين نويان اخو جنكيز اغتصاب الخانية بالقوة عندما قدم بجيشه وكيف خدعته توراكينا حتى قدم ابنها كيوك فاسقط في يده .

«٢» كان من الحاضرين ايضا مندوبون عن سلاجقة الروم، امير حلب ، الموصل اذربيجان ، فارس ، كرمان ، اللور ، بالاضافة الى ممثل الاسماعيلية ، وبعض الامراء المسيحيين .

وبين الرغبات الشخصية للوصية على العرش ومن وأفقها على ذلك من المتواطئين ، والتي انتهت بضرب التعاليم وتنصيب كيوك في الخانية بالرغم من ابتلائه بالامراض المزمنة وما عرف عنه من تهور وتسلط (١) .

ولكن الخانية لم تطل بكيوك اكثر من سنة قضاها وهو يقضم الغيظ على باتو ابن جوجي الذي لم يحضر حفل تتويجه ، ويتحرق شوقا للانتقام منه ، ثم انتهى به الغضب الى الزحف على رأس الجيش لتأديبه ، ففاجأه الموت في ربيع سنة ٦٤٤ هـ اغسطس ١٢٤٦ م قبل ان يحقق غرضه (٢) .

وبوفاته تجدد الصراع على العرش ووضعت تعاليم الياسا ثانية في المحك ، ولعب باتو بن جوجي دوراً كبيراً في توجيه الخانية الى منكو بن تولى .

فقد كان من تعاليم الياسا في وراثة العرش تفضيل الاكبر من ابناء الاسرة الحاكمة ، إلا اذا كانت هناك وصية خاصة للمتوفى ، تجلى ذلك مثـــلا في تنصيب اوكتاي الذي حاول ان يتنازل لأخيه الاكبر او لاحد اعمامه بالرغم من وصية ابيه التي تمسك المجتمعون بتنفيذها .

---

(١) الجويني ج ١ ص ٢٠١ - ٢٠٧ ، التاريخ الغازاني م ٤ الورقة ٧٦٥ ، برايس ج٢ ص ٥٤٩ .

(٢) تاريخ كزيدة ص ٥٧٨ ، برايس ج ٢ ص ٥٥٢ ، تلفيق الاخبار ج ١ ص ٣٩٠ - ٣٩١ وتعود اسباب الخلاف بين كيوك وباتو الى سنة ٦٣٣ هـ عندما كان يقود حملة روسيا ومعه كيوك وغيره من الشهزادكية ، حيث تمرد كيوك على قيادة باتو ووقع بينهم خلاف . انظر ترجمة المعارف الاسلامية م٣ - باتو - ص ٢٥٦ .

اما الآن فقد كان طريق اجلاس الخانية كما يقول رشيد الدين (١) الى باتو الذي كان شيخاً كبيراً واكبر ابناء الاسرة ، كما ان منقورتقاي نويان الذي يتولى امارة قراقورم بالنيابة عن كيوك ارسل بخطه رسالة الى باتو يخوله الحكم والتدبير وان امره نافذ (٢) .

وكان قرار المجتمعين عند باتو من الامراء والشهزادكية والنويان الممثلين لجميع بيوت جنكيز وجوب تولية باتو لما يمتاز به عمن سواه من أنه اكبر الابناء سناً واكفأهم فهو لذلك يجب ان يتولى الخانية (٣) .

وحاول ابناء اوكتاي ومن احاط بهم العودة الى تنفيذ وصية ابيهم في اجلاس شيرامون التي لم يعملوا بها في اجتماعهم السابق ، لكنهم فشلوا في اعادة الشرعية اليها الآن (٤) .

وبالرغم من ان الياسا كانت بجانب باتو الذي رشح للخانية منكو بن تولى ووافقه المجتمعون على ذلك ، الا ان القوة كانت هى السبيل لفرض احكامها امام تمرد اسرتي اوكتاي وجغتاي عليها (٥) .

وعاد الاستقرار والتنظيم الى الدولة المغولية بتولي منكو خانيتها ، الذي اقتفى

---

(١) التاريخ الغازاني م٤ الورقة ٨١٣ – ٨١٤ .

(٢) الجويني جـ ٣ ص ٧ .

(٣) الجويني جـ ٣ ص ٧–٨ .

(٤) التاريخ الغازانى م٤ الورقة ٨١٤ .

(٥) الجويني جـ ٣ ص ٨ – ٩ ، التاريخ الغازاني م ٤ الورقة ٨١٤ – ٨١٩ ؛ –

سياسة عمه اوكتاي في نشر العدل والتوفير على الناس ، فابقى العمال الذين كان قد عينهم في مناصبهم المالية ، وواصل في سياسته الخارجية التوسع في الجبهتين الشرقية والغربية (١) .

ويشرح رشيد الدين سياسة منكو الجديدة في التوسع بقوله : « كان منكوقان قد تفكر فرأى ان بعض ممالك العالم قد دخل فعلا في حوزة جنكيزخان ، وبعضها لم يستخلص بعد ، وان رقعة العالم فسيحة لا حد لها . فاستقر رأيه على ان يعهد بكل طرف من المملكة الى واحد من اخوته ليخضعها تماماً لارادته وليقوم بالمحافظة عليها بينما جلس هو هادئاً مظفراً وسط دولته حيث المقر القديم للمغول » (٢) .

ـ الشبنكارى مجمع الانساب الورقة ٣٠٢ ـ ٣٠٤ ؛ لوي ص ٦٤١ من

C. M. H. IV

وكان الاعتراض اولا على وجوب بقاء الخانية في بيت اوكتاي ، فلما فشلوا ، اعترضوا على شرعية عقد القوريلتاي في غير قراقورم ، فقرر باتو عقده ثانية فيها ليقطع الطريق على المحتجين ، وجهز اخاه بركة بجيش الى قراقورم حيث عقد فيها في ربيع ٦٤٩ هـ ـ ١٢٥١ م بسبب مماطلة ابناء الاسرتين ، فلما اضطروا الى الحضور فكروا في الغدر بالمجتمعين فانكشفت مؤامرتهم فحوكموا واعـــدموا ، انظر الجويني ج ٣ ص ٩ ـ ٢٢ ، تاريخ ال جنكيز ص ٦٣ ـ ٦٥ ، برايس ج ٢ ص ٥٥٣ انظر ايضا في الحديث عن اهمية القوريلتاى للمجتمع المغولي

Howorth -11- p : 112.

(١) الجويني ج ٣ ص ٢٩ ، برايس ج٢ ص ٥٥٦ .

(٢) جامع التواريخ م٢ ج١ ص ٢٢٣ .

ولكني ارى ان منكو في هذه الخطة السياسية لم يكن مبتكراً كما يحاول رشيد الدين ان يصفه بل كان منفذاً لسياسة مرسومة ترجع خطوطها الاولى الى جده جنكيز خان .

وبقدر ما يتعلق الامر بالتوسع في الجبهة الغربية(١) للوصول الى بغداد وهو موضوع البحث الذي يهمنى من هذه السياسة ، فان محاولات المغول للوصول اليها ليست جديدة فقد تحسس بها ابن الاثير واشار اليها عندما نقل رسالة التاجر من اهل الري الذي استقر بالموصل وكتب يقول (٢) : «ان الكافر لعنه الله ما نقدر نصفه ولا كثرة جموعه حتى لا تنقطع قلوب المسلمين ، ولا تحسبوا هذه الطائفة التي قصدت نصيبين والخابور ، والاخرى التي قصدت اربل ، قد جاءت للنهب ، وانما ارادوا ان يعلموا هل في البلاد من يردهم ام لا . . . وان عزمهم على قصد البلاد جميعاً فانظروا لانفسكم » .

وحاول المغول فعلا تحقيق هذا العزم ، فهاجموا العراق بعد هذا التنبيه ثلاثة عشر مرة ووصلوا مرتين منها او ثلاثة حتى اطراف بغداد ، لكنهم كانوا يعودون

---

(١) اما الجبهة الشرقية فقد عهد بقيادتها الى اخيه قوبيلاي الذي لعب دوراً كبيراً في التاريخ المغولي .

الجويني ج٢ ص ٢٩ ، برايس ج٢ ص ٥٥٦ - ٥٥٨ .

Ency - BR - 15_ Mongols . p : 717-718 .

Ency , BR , 15 Kublai, p :509 _510 .

(٢) ابن الاثير ج٩ ص ٣٨٦ .

ادراجهم محملين بالغنائم ، اما لقلة عددهم ، او لشدة مقاومة الخلافة لهم (١) .

وينقل لنا الدكتور سعيد عاشور (٢) « محاولة اخرى للمغول لغزو بغداد تمت قبل عشر سنوات من سقوطها ، ذلك بمحاولة التحالف مع لويس التاسع ملك فرنسا الذي كان قد وصل قبرص في طريقة الى دمياط ، حيث وفدت عليه فيها في ديسمبر ١٢٤٨ م - ٦٤٥ هـ سفارة تألفت من اثنين من نساطرة الموصل كان اسمهما داود ومرقص . قالا انهما موفدان من قبل جغطاي خان نائب الخاقان الاعظم في القوقاز وفارس . وكان الغرض من تلك السفارة عقد تحالف عسكري بين الصليبيين والمغول ضد الايوبيين في الشام من ناحية ، والخلافة العباسية في بغداد من ناحية اخرى » .

«١» ابن العبري ص ٢٥١ - ٢٥٥ ، ابن الفوطي - الحوادث الجامعة ص ١٠٩ ١٩٩ - ٢٠٠ ابن واصل الورقة ٣٤٥ ، الصدفي جـ ٢ ص ٢٧٧ ، القزاز ص ٢٣٤ حاشية ٢ .

(٢) الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠٩٩ نقلا عن جونفيل ، على ان هناك بعض الغموض في هذا الخبر فيما يتعلق بنائب الخاقان الاعظم جغطاي خان ، فالمعروف ان القوقاز كانت تحكم من قبل اسرة باتو الذي لازال على قيد الحياة وهو على اتصال باوربا.

اما فارس فقد كانت تحكم من قبل جورماغون حتى وفاته سنة ١٢٤١ م حيث خلفه مساعده بايجو *Baidju* الذي كان على اتصال بالغرب ايضا ، وكانت اخر سفارات البابا انوسنت الرابع اليه سنة ١٢٤٦ م ، ومن المحتمل ان يكون هو المقصود بهذا الخبر ، انظر

BRetschnider -1_p. 113.

ولم تنجح هذه السفارة في تحقيق غرضها ، كما لم تنجح المحاولات الفردية السابقة عليها وذلك بسبب فقدانها التنظيم والتخطيط في العمل ، وهو الذي امتازت به سياسة منكوقاآن فيما بعد والتي سار على هداها اخوه هولاكو فنجح في تحقيق اهدافها .

وتتمثل في حملة هولاكو نحو الغرب صورة للتعاون الجماعي لابناء اسرة جنكيز فبالرغم من انتقال السلطة الى يد ابناء تولى ، فان جميع الشهزادكية ساهموا فيها ، يشير الى ذلك رشيد الدين في حديثه عن اجتماع القوريلتاي الذي قرر إرسال الحملة حيث يقول (١) « كذلك صحب هولاكو ابناؤه واقاربه وعبيده ، ولهذا كان يوجد في هذا الاقليم امراء منحدرون من نسل كل امير من ابناء جنكيز ، وكان ينصب كل منهم في المنصب الذي آل اليه بالوراثة » .

ويعطي الجويني صورة اوضح لهذا التعاون في قوله (٢) : «واخذ له من امراء

(١) جامع التواريخ م ٢ ج١ص٢٣٥ ، الشبنكاري ـ مجمع الانساب الورقة٣٠٦ .

(٢) الجويني ج ٢ ص ٢٧ ، ومما يلاحظ ان هذا التعاون الجماعي في تجهيز الحملات ليس جديداً ، اذ انه استمرار لسياسة اوكتاي ، فان الحملة التي اوفدها الى روسيا سنة ٦٣٣ هـ كانت بقيادة باتو ، وتضم كيوك بن اوكتاي ، ومنكو بن تولى وبوري بن جغتاي وغيرهم من ابناء الاسرة ؛ والى هذا المعنى اشار الدكتور مصطفى طه بدر في رسالته (ايران في عهد غازان) ص ٣٢ في قوله : « ويلاحظ انه بعد موت جنكيز خان اعتبرت الفتوحات المغولية الواقعة غربي نهر جيحون ملكاً عاماً لفروع اسرته الاربعة ، ويدلل على ذلك بالادلة » .

الأسرة امير من كل بيت ، فمن بيت باتو عين بلغاي ، وتوتاراغول وتولى مع جيشهما ومن بيت جغتاي عين تكوداراغول . . . »

وحتى جيش جنكيز او بقاياه على الاصح الذي كان قد وزع بعد وفاته على ابناء الاسرة ، كان لهم نصيب في هذه الحملة حيث امر منكوقان باختيار خمسهم ليكونوا حرساً خاصاً لهولاكو (١) ، وعلى الرغم مما كانت تمثله حملة هولاكو نحو الغرب من استمرار لسياسة المغول في التوسع لفتح العالم ، الا ان فئة من المؤرخين (٢) حاولت ان تربط بينها وبين شكاوى الناس من طائفة الاسماعيلية ، وما نجم عنها من اعتداءات واضطرابات .

ومما يلاحظ في سياسة المغول حتى هذه الفترة انهم لا يقبلون حليفاً لهم ، فالناس في نظرهم اما عبيد خاضعون لسلطانهم منفذون لاوامرهم ، او اعداء يجب القضاء عليهم والتخلص منهم ، يتمثل ذلك مثلا في موقفهم من الاسماعيلية الذين كانوا الحلفاء الطبيعيين لهم في صراعهم مع الخوارزميين ، وكانوا عيوناً لهم يترصدون حركات جلال الدين ويوشون باحواله وتنقلاته ، حتى اعتبرهم ابن الاثير السبب في ضياع

---

(١) الجويني ج٣ ص ٣٧ ، جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٣٥ .
ابن العبري ص ٢٦٣ .
BRetschnider - 1 - p. 113 .

(٢) تاريخ ال جنكيز ص ٦٥ - ٦٦ ، ابن الطقطقي - الفخري ص ٢٧ ، براين ج ٢ ص ٥٥٦ - ٥٥٨ ، جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٣٣ ، الصياد ص ١٤٤ .

جلال الدين » (١) .

وسوف نرى كذلك موقفهم من الامارات المسيحية والبابا فانهم اشترطوا على سفرائهم الاعتراف بسيادتهم واعلان تبعيتهم ليتعاونوا معهم في تحالف ضد المسلمين (٢) .

واستعد هولاكو للحركة ، وتحركت طليعته يقودها كيتوبوقا في جمادى ٦٥٠ هـ (٣) .

وبعد ان وفر الخان لاخيه جميع لوازم السفر ، ومعدات الحرب حتى جاب له المهندسين والمنجنيقين من الصين ، وارسل الى امراء الاطراف يأمرهم بتعبيد الطرق واقامة الجسور والقناطر ، وتجهيز المؤن والمراعي (٤) . غادر هولاكو معسكره في غنجة في يوم السبت ١٢ ربيع الاول ٦٥١ هـ ـ ٢ مايو ١٢٥٣ م بعد ان قضى فيه الشتاء برفقة اخيه الخان الذي وزع عليهم الهدايا ، وقبل ان يفارقهم ليعود الى مقره

«١» ابن الاثير ج٩ ص ٣٨٣ حيث يقول : «فلما وصلت كتب مقدم الاسماعيلية الى التتر يستدعيهم لقصد جلال الدين بادرت طائفة منهم ودخلوا البلاد . . وجلال الدين لا يقدم ان يلقاهم ولا ان يمنعهم قد ملىء رعباً وخوفاً » انظر ايضا الصياد ص ١٤٢ ، القزاز ص ١٨٨ .

2) Sykes _11 p · 39 . Conder.p : 376-377 .

سعيد عاشور ج ٢ الحركة الصليبية ص ١٠٩٩ - ١١٠١ .

«٣» الجويني ج٣ ص ٢٩ ، جامع التواريخ م٢ ج١ ص ٢٤٣ .

«٤» انظر تفصيل تموين الجيش ولوازمه في جامع التواريخ م٢ ج١ ص ٢٣٥-٢٣٦ .

في قراقورم منح اخاه هولاكو وصيته الاخيرة (١) .

وكان الجيش مشيه وئيداً ، فقد استغرق اكثر من سنتين حتى وصل معسكره في كش على ضفاف نهر جيحون ، حيث توافد كثير من امراء الاطراف للترحيب بهولاكو ، وتقديم الهدايا له واعلان طاعتهم واستعدادهم لمرافقته (٢) .

وفي خلال هاتين السنتين كانت طليعة هولاكو قد هاجت كثيراً من قلاع الاسماعيلية واستولت عليها ، فضلا عن وقوع انقلاب داخلي في قيادة الاسماعيلية انتهى بمقتل حاكمها علاء الدين محمد لمصلحة ابنه ركن الدين خورشاه الذي تولى زعامتها (٣) .

وبعد عبور هولاكو نهر جيحون في ذي الحجة ٦٥٣ هـ تنقل بين طوس وبسطام يلاحق هجمات كتائبه على قلاع الاسماعيلية ، ويستقبل الامراء المستسلمين منهم ، ونجحت سياسة الاغراء والشدة التي اتبعها في اقناع خورشاه زعيم الاسماعيلية

«١» اعتمدت في تحديد حركته على الجويني ج٣ ص ٣٨ باعتباره مرافقاً للحملة اما رشيد الدين م٢ ج١ ص ٢٣٨ فيذكر ان الحركة في ذي الحجة ٦٥١ هـ ، انظر ايضا

BRetschnider -1- p 114 .

اما الوصية فانظر القزاز ص ٣٣٠ ملاحق الباب الخامس ـ الرسالة الاولى ـ نقلا عن جامع التواريخ .

«٢» من هؤلاء الامراء شمس الدين صاحب هرات ، وصاحب فارس ، وسلاجقة الروم ، وكان قدومهم استجابة لرسالة هولاكو ، جامع التواريخ م ٢ ج١ ص ٢٤٠ ، القزاز ، ملاحق الباب الخامس ص ٢٣٠ .

«٣» جامع التواريخ م٢ ج ١ ص ٢٤٥ .

على الأستسلام والنزول الى معسكره في غرة ذي القعده ٦٥٤ هـ وتسليم قلعة ميمون دز المنيعة التي كانت مركزاً للاسماعيلية » (١) .

ولم يفد الابقاء على حياة خورشاه واكرامه في استسلام قلعة الموت التي تمرد قائدها على اوامر سيده ، واستبسل في الدفاع عنها اياماً اخرى على التسليم امام هجمات المغول وفتكهم (٢) ، ولم تطل الحياة كثيراً بخور شاه ، فان هولاكو بعد

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٥٤ . براون ج ٢ ص ٥٨١ ، الصياد ص ١٥٠ . وكان المعروف ان قاعدة الاسماعيلية هي قلعة الموت ، ولا تشير المراجع التي بين ايدينا الى زمن انتقالهم الى قلعة ميمون دز . وأرجح ان يكون ذلك بعد تخلصهم من زعيمهم السادس جلال الدين بن محمد بن حسن الذي اطلق عليه المسلم الجديد لعودته الى حظيرة الاسلام وذلك سنة ٦١٨ هـ ، على يد ابن علاء الدين محمد الذي اغتاله خورشاه ابنه . انظر القزاز ص ١٨٨ .

وكان للاسماعيلية قلعة ثالثة لا تقل حصانة ومناعة عن السابقتين ، وهي قلعة لبنة سر فهذه القلاع الثلاثة هي امنع قلاع الاسماعيلية الكثيرة انظر ـ حمدالله قزويني ـ نزهة القلوب ص ٦١ .

(٢) وينقل الدكتور الصياد ص ١٥١ ـ ١٥٢ ، عن الجويني الذي كان يرافق الحملة استئذانه لهولاكو للاطلاع على مكتبتها القيمة واستخلاصه منها كثيراً من الكتب البي حفظت تاريخ الاسماعيلية من الضياع .

انظر ايضاً ـ الشواربي ـ ترجمته لآل الجويني في مجلة الآداب ـ جامعة فؤاد م ٧ ١٩٤٤ في مقالة مصادر فارسية في التاريخ الاسلامي .

ان استغله فى ايفاد الرسل الى قلاع الاسماعيلية المختلفة في ايران والشام ، تخلص منه بايفاده الى حاضرة المغول ، لكنه قتل كما قيل قبل ان يصل قراقورم بامر من الخان ، الذى اشفق على الدواب من حمله. وبذلك انطوت صفحة الاسماعيلية في ايران (١).

وتفرغ هولاكو للخلافة العباسية ، واخذ يعد العدة للزحف عليها ، لكنه قبل ذلك واصل ايفاد الرسل وتبادل الرسائل معها لكي يعرف حقيقة موقفها منه ومدي استعداداتها له.

(٣) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ . الصياد ص ١٥٣ .

موقف العالم الاسلامي من الغزو المغولي

وقبل ان نواصل السير مع هولاكو في زحفه نحو بغداد ، لابد لنا ان نعرف حقيقة موقف المسلمين ، او بتعبير ادق موقف الامارات الاسلامية والخلافة من هذا الخطر الذي بدأ يهدد كياناتهم بالهدم والزوال .

كان العالم الاسلامي في مطلع القرن السابع الهجري يتمثل بالاضافة الى الخلافة فى مجموعتين من الامارات شرقي الخلافة وغربيها .

ففي الشرق كانت الامارات الخوارزمية والغورية وفارس واذربيجان بالاضافة الى الاسماعيلية ، التي كان موقفها من الخلافة وارتباطها بالاسلام غير مستقر (١) .

ومن بين هذه جميعاً كانت الخوارزمية قـــد اصبحت اكبرها قوة واكثرها سعة .

---

(١) لم يكن المجتمع الاسلامي يتقبل مبادي الاسماعيلية ودعواتها ، بل يعتبرها كفراً وخروجاً على الاسلام ، لذلك غلب عليهم اسم الملاحدة . وكانت فرحة المسلمين عظيمة عندما هدى الله زعيمهم جلال الدين حسن الثالث الى الاسلام وعاد الى حظيرة الخلافة سنة ٦٠٨ هـ ، لكن ذلك لم يطل . القزاز ص ١٨٣ - ١٨٨ .

وكانت هذه الامارات نظريا تستمد شرعية بقائها من رضى الخلافة وتأييدها لها باعتبار الخليفة العباسى امام المسلمين ، وصاحب السيادة الروحية والزمنية على جميع البلاد الاسلامية (١) .

وقد شرحت في بحث سابق حالة القلق السياسي الذي ساد البلاد في هذه الفترة ، ودور الخليفة العباسى الناصر لدين الله في اذكاء هذا الصراع واغراء الامارة بالاخرى والذي كان من نتيجته ان استولت الخوارزمية على هذه الامارات ، فذاب بعضها فيها ودان البعض الاخر بالطاعة لها (٢) . كما تجرأت على الخلافة نفسها عندما زحف خوارزمشاه علاء الدين محمد نحو بغداد لغرض رغباته عليها (٣) .

وعندما تعرض المغول للبلاد الاسلامية ، كانت الخوارزمية هي الدولة الوحيدة الباقية في هذه الجبهة ، التي يجب ان تتصدى لهم .

---

(١) انظر الراوندي - راحة الصدور - ترجمة الدكتور عبدالنعيم حسنين وجماعته - ص ٥٣٤ . رسالة الخليفة الناصر الى خوارزمشاه عندما كان في همدان .
وانظر كذلك جواب المعظم عيسى على طلب جلال الدين الذي دعاه للتحالف على الخلافة .

(٢) لتفصيل موقف هذه الامارات من الخلافة انظر بحثنا عبر الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير - ص ١٦٤ - ١٦٦ موقف بقايا السلاجقة من الخلافة التي استعانت عليهم بالخوارزمية ص ١٦٦ - ١٦٨ موقف الغورية وتصديها للخوارزمية بايعاز من الخلافة .

(٣) القزاز ص ١٦٨ - ١٨٣ في شرح علاقة الخلافة بالخوارزمية وأساليب الخلافة لاضعافها وإخضاعها .

وقد مر علينا انها كانت اعجز عن ذلك مما جعل ابن الاثير ينتقدهم مرتين بشدة ويحملهم مسؤولية انهيار البلاد عندما قال (١) : « فان هؤلاء التتر ، إنما استقام لهم هذا الامر لعدم المانع ، وسبب عدمه ، ان خوارزمشاه محمد كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وافناهم وبقي وحده سلطان البلاد جميعها ، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها » .

لذلك كان اختفاء الخوارزميين من الميدان اختفاءاً لكل مقاومة حقيقة للزحف المغولي تعوقهم عن بغداد (٢) ، اذ سرعان ما تقدم الامراء المحليون بالطاعة والولاء للمغول الذين وزعوا الشحن على بلادهم وتقبلوا هداياهم واموالهم (٣) .

وقد مر علينا كيف انه عند اختفاء جلال الدين الاخير ، توغلت الفرق المغولية التي ارسلت لملاحقته ، حتى وصلت حران والرقة ونصيبين والخابور والموصل

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٣٠ . والمرة الثانية التي انتقدهم فيها في ص ٣٨٣ ، حيث وصف جلال الدين بسوء السيرة وقبح التدبير ، لم يترك أحداً من المجاورين إلا عاداه ... » .

انظر ايضاً الصفدي جـ٢ ـ الوافي بالوفيات ص ٢٧٥-٢٧٧ في ترجمته لخوارزمشاه محمد بقوله : اباد ملوك العالم ودانت له الممالك واستولى على الأقاليم ، وافنى ملوك خراسان وما وراء النهر وقتل صاحب سمرقند .

(٢) وقد شبه براون *BRowne* . الخوارزمية بالقنطرة التي يجب ان يعبرها المغول لكي يصلوا الى بغداد ، حافظ حمدي ـ الشرق الاسلامي ص ١٤٧ .

(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٨٦ . التاريخ الغازاني م ٣ الورقة ٥٦٩ - ٥٧٣ .

واربل وداقوق لا يمنعهم مانع ، وقد اوقع الله الذل على المسلمين » (١) .

ولم يكتف هؤلاء الامراء بالخنوع للذل المغولي ، بل سارعوا عند وصول هولاكو في طريقه نحو بغداد الى تجديد طاعتهم واستعدادهم لمرافقته نحو بغداد ، وسوف ترى كيف ساهم بعضهم في حصارها وذبح ابنائها (٢) .

اما في الغرب فقد كانت الامارات الايوبية وسلاجقة الروم واتابكة الموصل واربل . وكان موقف هـــذه الامارات وعلاقتها بالخلافة يختلف عن ذلك بالنسبة للامارات الشرقية .

وبقدر ما كانت الخلافة تجد صعوبة في فرض ولائها الاسمى على الشرقية منها حتى اضطرت في بعض الاحيان الى استخدام جيوشها ، او اللجوء الى اساليب غير طبيعية معها كان عملها مع الامارات الغربية سهلا ، لانه كان يقوم على الاعتراف الطبيعي لهذه الامارات بشرعية حقوق الخلافة وسلطانها عليها (٣) .

ومما يلاحظ في هذه الامارات كلها ، انها تفرعت من بعضها في فترات مختلفة

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٨٤ - ٣٨٦ ، مرآة الزمان جـ ٨ ق ٢ ص ٦٧٣ .

(٢) جامع التواريخ م ٢ جـ ١ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ في وصول شمس الدين كرت ، واتابك فارس وصدور خراسان والعراق واذربيجان . انظر ايضا الجوزجاني - طبقات ناصري . الورقة ٣٢٢ - ٣٢٣ حيث يشير الى طاعة الاتابك ابو بكر صاحب فارس وانجاده هولاكو عند زحفه نحو بغداد .

(٣) القزاز - ص ٢٢٩ .

وان كانت ترجع جميعها الى دولة السلاجقة التي سيطرت على الخلافة العباسية طيلة قرن من الزمن (٤٤٧ ـ ٥٤٧) .

فامارة اربل :

ترجع في الاصل الى اقطاع منحه الاتابك عماد الدين زنكي بن اقسنقر الى قائده زين الدين علي بن بكتكين المتوفى سنة ٥٦٣ هـ . فتوارثه ابناؤه من بعده (١) .

وفي مطلع القرن السابع الهجري كان يتولى أمرها ابنه مظفر الدين كوكبري(٢) الذي لم يحمه ارتباطه العائلي بالاسرة الايوبية ، وجهاده معهم ضد الصليبيين ، من ضغطهم عليه ومنازعتهم له ، فاضطر الى الارتماء في احضان الخلافة والتعلق بموالاتها حتى عد من اوليائها (٣) .

وتعرضت اربل للغزو المغولي اول مرة سنة ٦١٨ هـ بعد اختفاء خوارزمشاه

---

(٢) الاتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر مؤسس الاسرة الاتابكية بالموصل سنة ٥٢١ هـ والتي امتد سلطانها حتى الشام ثم مصر ، وكانت اول امارة اسلامية تتصدى بشكل منظم للغزو الصليبي ، انظر ابن الأثير ج ٩ ص ٩٧ ، ابو شامة الروضتين ج ١ ص ١٥٢ .

(٣) تولى مظفر الدين حكم اربل مرتين الاولى بعد وفاة ابيه سنة ٥٦٣ هـ ، لكنه اختلف مع خادم ابيه مجاهد الدين قايماز الذي كان يتولى أمرها ، ففارقها . والمرة الثانية كانت بعد وفاة اخيه زين الدين يوسف المتوفى سنة ٥٨٦ هـ . انظر ابن الاثير ج ٩ ص ٢١٠ ، ابن شداد ـ المحاسن اليوسفية ص ١٢٩ .

(٤) النسوي ص ٣٠٤ .

علاء الدين محمد امام الفرق المغربة التي توغلت حتى اربل ودقوق .

وقام مظفر الدين بواجبه في الاستعداد والاستنجاد بامارة الموصل والخلافة ، فتجمعت لديه بعض الجيوش ، ووصلت نجدة الخلافة ، لكن مظفر الدين « لم ير أن يخاطر بأرواح المسلمين ، وجيشه بهذه القلة » . وكان من حسن حظه أن عاد التتر قبل اللقاء ، نظراً لبعدهم ، او خوفاً من تجمع الجيوش عليهم .

ويروي مظفرالدين انه تعهد للخليفة ان امده بعشرة آلاف مقاتل ، ان يستنقذ من العدو ما احتله من بلاد المسلمين ، فوعده الخليفة بذلك ، ثم امده بنجدة لم تزد على ثمانمائة جندي (١) .

وتعرضت اربل ثانية سنة ٦٢٩ هـ عندما اختفى جلال الدين من أمامهم ايضاً ، فتوغلت جيوش چورماغون نويان الى داخل البلاد ووصلت الموصل واربل ودقوقا ، واستعد مظفر الدين ايضاً ووصلته النجدات ، وخرج بالجيوش الى أطراف اربل حتى وصلوا شهرزور ، فلم يلقوا من العدو إلا من تاه من رجاله بين الجبال ، ثم عادت بعد أن يئست من لقائه (٢) .

وختم مظفر الدين حياته التي قضاها يجاهد العدوين : الصلبي والمغولي ، بان توجه سنة ٦٢٨ هـ لزيارة دار الخلافة لأول مرة ، اذ كان يعتقد ان زيارتها فرض مقدس عليه ، وقد تلا عند مثوله بين يدي الخليفة المستنصر بالله قوله تعالى : « اليوم

---

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٣٣٧ - ٣٣٨ . القزاز ص ٢٤٢ .

(٢) ابن الاثير ج ٩ ص ٣٨٥ - ٥٨٦ . ابن الفوطي - الحوادث الجامعة ص ٢٧ - ٣١ .

اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي .. » (١) .

ثم تمهد للخلافة في هذه الزيارة بتسليم بلاده لها بعد وفاته (٢) فلما مات بعد عودته من جهاد المغل سنة ٦٣٠ هـ ألحقت اربل بالخلافة (٣) .

* * *

اما امارة الموصل :

فقد أسسها كما ذكرنا عماد الدين زنكي في رمضان ٥٢١ هـ بمنشور من السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه (٤) ، وكان عند حسن الظن به في مقارعة الصليبيين ومضايقتهم حيث استطاع بعد فترة قصيرة من توليه ، أن يمد سلطانه الى حلب وينظم مقاومة الغزو الصليبي فكان اول أمير مسلم ينجح في ذلك .

وانقسمت امارته بعد مقتله عام ٥٤١ هـ (٥) بين ولديه سيف الدين غازي الذي

---

(١) القرآن الكريم : سورة المائدة رقم (٥) الآية (٣) .

(٢) الحوادث الجامعة ص ١٩ - ٢٣ .

(٣) نفس المرجع ص ٤٤ . مرآة الزمان جـ ٨ ق ٢ ص ٦٨٠ .

(٤) كان السلاجقة في هذه الفترة يسيطرون على الخلافة العباسية ، وحكم السلطان محمود من سنة ٥١٢ - ٥٢٥ هـ وكان اختياره لعماد الدين مكافأة له على نشاطه في دعم سلطانه على الخلافة ، وشعوراً بقدرته على دفع الاعتداء الصليبي على البلاد ، وكان عماد الدين في نفس الوقت يشرف على تربية ولد السلطان . انظر - ابن الاثير - الباهر في الدولة الاتابكية ص ٣٤ - ٣٥ . ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٥ من المنتظم .

(٥) الباهر في الدولة الاتابكية ص ٧٤ ، القزاز ص ١٩٠ .

تولى الموصل ، ونور الدين محمود الذي تولى حلب وواصل سياسة ابيه في جهاد الفرنج (١) .

وفي مطلع القرن السابع الهجري كان يتولى أمرها نور الدين ارسلانشاه بن عز الدين الاتابكي الذي توفى في رجب ٦٠٧ هـ ، والذي كان آخر أمراء الاتابكة الذين مارسوا السلطان فيها .

لقد ارتبط تاريخ الموصل في هذه الفترة بشخص بدر الدين لولو الذي اختاره السلطان نور الدين ارسلانشاه للوصاية على ابنه القاهر عز الدين مسعود وتدبير امور ولايته ، فأصبح الحاكم الحقيقي منذ هذا التاريخ حتى جاءه تقليد الخلافة بالولاية في محرم ٦٣١ هـ (٢) ، وحافظ بدر الدين على ولائه الظاهري للخلافة ، لكنه كان يضطر عند ضغط الاحداث الى ممالأة المغول ومسايرتهم .

---

(١) (الباهر) ص ١٩٧ . ابن العبري ص ٢٢٩ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٢ . وكان بدر الدين خلال وصايته على الامارة قد قرض ثلاثة من أبناء الاسرة الاتابكية ، فقد توفي القاهر مسعود عام ٦١٥ هـ . فخلفه ابنه نور الدين ارسلانشاه الذي لم يمكث فيه اكثر من سنة ، ثم خلفه اخاه ناصر الدين محمود وعمره ثلاث سنوات . انظر ايضاً ابن العبري ص ٢٤٩ . تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ص ٤ ق ١ ص ٣٥٨ - ٣٥٩ في الحديث عن عز الدين مسعود . ابو المحاسن م ٣ المنهل الصافي ـ الورقة ٧٠ في ترجمة بدر الدين ، انظر انظر ايضاً هونكمان .

Honigmann : Emcyafgclam Vol 3 - 2 . Mosul . p . 610.

فقد تعرضت الموصل - كما تعرضت اربل - الى هجماتهم فى عامي ٦١٨هـ ، ٦٢٩هـ وقام بدر الدين بواجبه في تلبية نداء الخلافة وانجاد صاحب اربل والتعاون معه في دفعهم .

وتوالت هجمات المغول على المنطقة في سنتي ٦٣٣ هـ ، ٦٣٤ هـ حيث كانوا يتنقلون بين دقوق ، واربل والموصل وسنجار وحران وماردين : وكانت الخلافة عاجزة عن القيام بعمل ايجابي موحد لدفعهم ، كما ان انشغال أمراء البلاد بمنازعاتهم المحلية صرفهم عن الاستعداد للمغول او الاستماع لتنبيهاته لخطورهم ، فاضطر بدر الدين حينئذ الى الانفراد عنهم بمصالحة التتر وشراء سلامهم بالمال والتظاهر بالطاعة لهم ، ويشير ابن الفوطي الى ذلك فى حديثه سنة ٦٣٤ هـ بقوله (١) : « وامد المغول ، بدر الدين صاحب الموصل بما يحتاجون اليه من ميرة وآلة وغيرها » .

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٨٤ ، ٩٩ . ابن العبري ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ . ابوالمحاسن جـ ٦ ص ٢٨٧ ، ٢٩٣ . المقري الفيومي الورقة ٧٤ ، ابن قماق - نزهة الانام - الورقة ٢٠ ، ٢١ .

ويؤكد محمد باقر الحسيني في رسالته - العملة الاسلامية في العهد الاتابكي - التي نال بها درجة الماجستير من آداب القاهرة ١٩٦٥ م . دخول بدرالدين في طاعة المغول وضربه ألقابهم على عملته النحاسية وحذفه اسم الخليفة . ويشير الى القطعة النحاسية التي ضربت في الموصل بعد سنة ٦٣٣ هـ وقبل سنة ٦٤٠ هـ والمدون عليها اسم : القاآن الأعظم . لولو المعظم . اتابك . وهي اول قطعة نحاسية تحمل اسم القاآن الذي هو او كتاي . انظر ص ١٢١ حيث يشير الى وجود هذه القطعة في متحف همايون برقم ١٥٠ -

واستمرأ المغول هذه الطاعة من بدر الدين ، فجعلوا منه عميلا رسمياً لهم ، يوجه باسمهم الرسائل الى اهل البلاد ويجمع لهم الضرائب (١) . لكن ذلك لم يؤد به الى قطع صلته بالخلافة ، فكان يتصل بها سراً ، ويخبرها بما يستجد من أمر المغول ، وان كان النويني يتهم ابن العلقمي الوزير بانه لم يكن يوصل مطالعاته الى الخليفة ، فاضطر الى الاتصال بنائبه ابن الصلايا باربل لكي يتصل بدوره ويحذر الخليفة من أمر المغول (٢) .

ـ انظر ايضاً لوح رقم ـ ٤ ـ الملحق برسالته قطعة رقم ـ ٤٩ أ ـ .

اما ما يؤخذ على الحسيني فهو خطأه في تسلسل احداث الغزو المغولي سنة ٦٣٣ واشارته الى ان الخان المغولي هو الذي تقدم على رأس الجيش الى اربل ونينوى . والصحيح ان او كتاي لم يتوجه نحو الغرب . والذي قام بهذه الهجمات هو القائد چورماغون نويان الذي مر ذكره .

(١) يشير المقريزي في السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣١٥ ، ٣٢٠ . في حوادث سنة ٦٤٢ هـ بقوله : « وفيها ورد الى دمشق كتاب بدر الدين لولو صاحب الموصل يقول فيه : إنني قررت على اهل الشام قطيعة للتتر في كل سنة من الغني عشرة دراهم ومن المتوسط خمسة ، ومن الفقير درهم ، فقرأ القاضي محي الدين بن الزكي الكتاب على الناس ووقع الشروع بالجمع » ، انظر ايضاً : خصباك ـ الادارة الايلخانية في العراق مجلة كلية الآداب ـ بغداد ـ العدد الأول ١٩٥٩ م ص ٢ .

Honig mann . Mosul Fn . gsl .

(٢) اليونيني ـ ذيل المرآة ـ ص٨٧ . العيني ـ عقد الجمان احداث سنة ٦٣٥ هـ الورقة ٢١٠ يشير فيها الى مكاتبة صاحب اربل ومواطأته للتتر . الحوادث الجامعة ص ١٣١ في القبض على حاكم اربل .

وجرّت هذه الطاعة بدر الدين الى استمرار التظاهر بها حتى أصبحت حقيقة لا يستطيع التراجع عنها ، فضلا عن ان الخلافة لم تقم بعمل ضد المغول يثبت وجودها أمامه ويشجعه على التمرد عليها .

واضطره ذلك الى تلبية أوامر استدعائهم له ومشاركته إياهم في مجالسهم ، وبمدهم بالمساعدات من المال والسلاح وقبول شحنهم (١) وإعادة ضرب ألقابهم على عملته بعد حذف اسم الخليفة منها كما يشير ذلك الحسيني في سنة ٦٥٢ هـ (٢) .

وكان آخر المطاف ببدر الدين انه ارغم على المساهمة في حصار بغداد حيث ارسل جيشه اليها يقوده ابنه الصالح اسماعيل (٣) .

---

(١) الجويني ج ١ ص ٢٠٥ ، التاريخ الغازاني م ٤ الورقة ٧٦٤ فى حضور ممثله في اجتماع القوريلتاي ، ابن الطقطقي ص ٤٢ في امداداتهم بآلات الحصار والمنجنيقات. الجوزجاني ـ طبقات ناصري ص ٣٢٣ في قبول الشحنة وامدادهم بالجيش .

(٢) يشير الحسيني ثانية الى ان بدر الدين انقطع عن كتابه القاب المغول واعاد شعار الخلافة على عملته مستغلًا في ذلك ظروف المغول السياسية من ناحية ، ولكي يعيد الصفة الشرعية لنقوده فيقبل الناس التعامل بها من ناحية اخرى . لكنه اضطر سنة ٦٥٢ هـ الى اعادة كتابة الشعار المغولي على عملته الذهبية والنحاسية . ويشير الى الدينار الذي ضرب في الموصل سنة ٦٥٢ هـ والذي يحمل على وجهه عبارة « منكو قاآن الأعظم ... وفي ظهره اسم بدر الدين لولو . انظر ص ٦٠ وهو موجود في المتحف الاسلامي بالقاهرة برقم ١ / ٧٧١٤ . انظر لوح رقم ١ صورة رقم ٢١ . انظر ايضاً ص ١٢٣ العملة النحاسية ضرب الموصل سنة ٦٥٢ تحمل نفس الشعار .

(٣) اليونيني ص ٨٨ ، ابن كثير ج ١٣ البداية والنهاية ص ٢٠٠ .

اما سلاجقة الروم :

فقد كانوا يمثلون امتداد النفوذ السلجوقي في آسيا الصغرى خاصة بعد انتصارهم على البيزنطيين في واقعة ملاز كرد سنة ٤٦٣هـ/(١٠٧٢م) حيث اختار السلطان السلجوقي ملكشاه عام ٤٧٠ هـ ابن عمه سليمان بن قتلمش بن اسرائيل ليكون والياً عليها ويدعم نفوذهم فيها ، فاستولى سليمان على ولايتي قونية واق سرا ، وأصبح المؤسس الحقيقي لهذه الامارة التي امتد عمرها حتى نهاية القرن السابع الهجري (١) . ولكن سليمان راح ضحية اطماعه التوسعية على حساب الامارات المجاورة ، إذ انه بعد ان انتزع انطاكيا من البيزنطيين ، اصطدمت مصالحه مع مصالح ابن عمه تتش بن الب ارسلان الذي كان بدوره يمثل الوجود السلجوقي في الشام فاشتبكا على اسوار حلب وسقط سليمان في المعركة في صفر ٤٧٩ هـ . فتوارث ابناؤه الحكم من بعده باقرار من السلطان السلجوقي ملكشاه (٢) .

وفي مطلع القرن السابع الهجري كان يتولى أمر السلاجقة السلطان ركن الدين سليمان (٣) الذي كان قد نازع اخوته اقطاعاتهم واستصفى البلاد لسلطانه ، لكن الاجل لم يطل به إذ توفي في ذي القعدة ٦٠٠ هـ / (١٢٠٣م) فاستولى اخوه غياث الدين

---

(١) عبد النعيم حسنين ـ سلاجقة ايران والعراق ص ٦٦ .

(٢) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٤٢٤ . عبد النعيم حسنين ص ٦٦ – ٦٧ .

(٣) ركن الدين سليمان بن قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان بن سليمان ابن قتلمش . انظر

4) lane pode . Muhammdan DynasTies p . 155

كيخسرو على السلطة التي كانت قد سلبت منه فيما مضى ، خاصة وأن طفل ركن الدين كان صغيراً (١) .

ومثلما كان دور سلاجقة الروم ضعيفاً في صد الخطر الصليبي بالرغم من اشرافهم على طرق مواصلاته البرية ، كذلك كان موقفهم ضعيفاً في مواجهة الخطر المغولي ، وذلك بسبب انغماسهم في منازعـــة بعضهم البعض الآخر ، ومساهمتهم في الصراع الاقليمي مع الامراء المجاورين لهم (٢) .

فقد تعرض المغول لبلادهم عندما توغلوا وراء جلال الدين في هزيمته الاخيرة عام ٦٢٨ هـ . فوصلوا حتى آمد ونصيبين وارزروم وغيرها من البلاد .

وبدلا من قيام سلطانهم علاء الدين كيقباذ بالاستعداد لهذا الخطر وتقوية تحالفه مع الايوبيين خاصة للوقوف في وجه المغول ، نجده يستسلم لهم ويدخل في طاعتهم ، حيث أرسل كما يقول ابن العبري(٣) في سنة ٦٣ هـ » رسولا الى قا آن وبذل

(١) ابن العبري ص ٢٢٨ . وقلما يتولى أحدهم السلطنة إلا بعد قتل او سجن بعض اخوته او بني عمه .

(٢) نفس المرجع ص ٢٤٦ . النسوي ص ٢٦١ ، ٢٧٨ ، ٣١٧ - ٣١٨ ، ٣٢٩ . ابن الأثير ج ٩ ص ٣٨١ .

(٣) تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٩ : وقد قال القان للرسول : « اننا قد سمعنا برزانة عقل علاء الدين وإصابة رأيه ، فاذا حضر بنفسه عندنا يرى منا القبول والاكرام وتكون بلاده جارية عليه » . انظر كذلك مرآة الزمان جـ ٨ ص ٦٨٤ ، ٦٩٥ . ابو المحاسن جـ ٦ ص ٢٨٧ ، ٢٩٣ . السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٤٧ . المقري الفيومي نثر الجمان الورقة ٧٤ .

الطاعة ، لكي يتفرغ بعد ذلك لمخاصمة الأيوبيين ومحاصرة بلادهم .

ولكن خضوع السلاجقة لم يدم طويلا ، اذ توفي علاء الدين كيقباذ عام ٦٣٤ هـ . فخلفه ابنه غياث الدين كيخسرو الذي تصدى للمغول في ارمينيا عام ٦٣٧ هـ فامتنعوا عن الدخول الى بلاده » (١) .

وتشجع كيخسرو بهذا النصر ، فجمع الجيوش عام ٦٤١ هـ من اليونانيين والفرنج والارمن والعرب وتصدى للمغول في منطقة ارزنكان ، لكن جيشه تفرق عنه قبل ان يلتقي بهم العدو ، فاضطر الى الهرب وراءهم ملتجئاً الى مدينة انقرا ، فاستولى المغول على سيواس وقيسارية وخلاط وآمد ، ثم أرسل بعد ذلك يطلب أمانهم والدخول في طاعتهم وتعهد بتقديم مال وخيل وثياب كل عام (٢) .

ولم يتحمل كيخسرو هذه الصدمة ، فتوفي سريعاً عام ٦٤٣ هـ تاركاً ابناءه الثلاثة يتصارعون على السلطة من بعده ، ويسارعون الى تجديد الطاعة للمغول ، فقدتوجه الابن الثاني ركن الدين للمشاركة في اجتماع القوريلتاي الذي عقد لتنصيب

(١) ابن العبري ص ٢٥٠ ، ٢٥١ . الحوادث الجامعة ص ٩٧ .

(٢) ابن العبري ٢٥٢ - ٢٥٣ ، ابوالفداء ج ٣ المختصر في اخبار البشر ص ١٧٩ السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣١٣ ، ابو العباس القرماني ص ١٨٢ وهو يذكر انه تعهد بدفع اربعمائة الف دينار سنوياً . ابو محمد الطيب ج ٣ قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر الورقة ٨٩٩ « وهو يشير الى تعهده بحمل الف دينار ومملوك وجاريد وفرس وكلب صيد يومياً » . موسوعة تاريخ العالم ج ٣ ترجمة زيادة ص ٨٦٨ . الصدفي ج ٢ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

كيوك ممثلا لأسرته (١) .

ومن المحتمل ان ركن الدين استغل وجوده في حاضرة المغول فوثق صلاته بزعمائهم حتى حصل على تأييدهم له في تولي السلطنة بدلا من اخيه الكبير عز الدين ، اذ ان التنظيمات التي أصدرها كيوك خان عام ٦٤٥ هـ كانت تقضي بتعيين إلجكتاي نوين ممثلا لهم او مشرفاً على بلاد الروم والموصل والشام والكرج (٢) .

وكانت تقضي ايضاً بعزل عز الدين وتنصيب اخيه ركن الدين (٣) .

وعاد ركن الدين من قراقورم تحميه حراب المغول للاستيلاء على السلطنة ، وتنفيذ أمر القان في اخيه الكبير . ولكن تدخل زعماء الروم في الأمر حال دون وقوع الدماء وتقرر توزيع البلاد بين الاخوة ، فكانت الولايات الغربية من الامارة من نصيب عز الدين ، بينما امتلك ركن الدين الشرقية منها ، وأرضى الثالث علاء الدين ببعض الاقطاعات الخاصة ، واشترك الاخوة الثلاثة في ضرب أسمائهم على السكة (٤) .

على ان فترة الاستقرار هذه لم تدم طويلا ، اذ ان عز الدين استدعي من قبل منكوقان (الذي تولى أمر المغول بعد وفاة ابن عمه كيوك) ، ليكون في خدمته

(١) الجويني ج ١ ص ٢٠٥ ، التاريخ الغازاني م ٤ الورقة ٧٦٤ .

(٢) وهي البلاد التي دان حكامها بالطاعة لهم ، او تعهدوا بذلك كما هو الحال بالنسبة لصاحب الشام .

(٣) ابن العبري ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، العزاوي ج ١ ص ١٤١ تاريخ العراق بين احتلالين .

(٤) ابن العبري ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

شخصياً ، وفي الطريق أحس بتحالف الأمراء مع اخيه ركن الدين ، وان استدعاءه الى قراقورم قد يكون حيلة لابعاده عن البلاد ، ثم التخلص منه فيما بعد ، ومن ثم أسرع من سيواس عائداً الى العاصمة قونين ، حيث ارسل اخاه الصغير علاء الدين لخدمة الخان الجديد مع رسالة سبب فيها اعـــذار تخلفه ، ثم تفرغ لعقاب اخيه ركن الدين الذي كان قد هرب الى قيسارية ثم سقط اسيراً فسجن فى احدى القلاع(١).

وانتقل التنابذ والتخاصم من الأخوة الى حاشيتهم التى كانت سبباً في كثير من الاضطراب فقد توفي علاء الدين في الطريق قبل ان يكمل سفارته لخدمة القا آن ، وتفرق موكبه ، فأسرع بعضهم الى قراقورم ليخبروا بذلك ، ويدبروا امر مستقبل البلاد وفق ما تشتهيه مصالحهم ، بينما تأخر آخرون لمرافقة الجثمان الذي واصل السير لاكمال مهمته .

وعندما اجتمع الفريقان أمام القا آن منكو ، بانت له الخديعة التى اوشكت ان تجوز عليه ، فقرر أن يبقي البلاد لعز الدين الذي هو كبير الاخوة وأحقهم بالمملكة (٢) .

وجاء في اليرليغ الذي اصدره القا آن بتقليده السلطنة في مملكة الروم : « بان يكون هناك صلح معهم ، وان يحمل اليهم ما يقرر من المال سنوياً ، وان يمنع التتار من الغارة على بلاده والتعرض لرعيته » (٣) .

---

(١) نفس المرجع ص ٢٦٣ - ٢٦٤ ، العزاوي ج ١ ص ١٤٩ .

(٢) الدواداري م ٩ زبدة الفكرة الورقة ٢ - ٣ .

(٣) نفس المرجع السابق الورقة ٤ .

ولكن قبل ان يغادر اصحاب عز الدين قراقورم حاملين معهم البايزة (١) الذهب المنقوش التقليد والتفويض للسلطان ، جاءت الاخبار من الروم بغير ما يشتهون ذلك ان عز الدين ، بعد ان تخلص من منافسة سجينه ركن الدين عزم على استعادة كرامته ونفض يده من طاعة المغول ، فطرد رسول بايجونوين الذي قدم يسأل مكاناً يشتي فيه الجيش المغولي ، وأرسل جيشه لمهاجمة معسكرهم في صحراء قونية ؛ ولكن الدائرة دارت عليه بسبب سوء تدبيره وفساد نيته (٢) .

ووصلت هذه الاخبار الى منكوقان الذي استعاد ما سبق ان منحه بالرغم من محاولة اصحاب عز الدين تبرير عمل صاحبهم للحفاظ بحقه .

وأمام المغريات التي عرضها اصحاب ركن الدين على القان لتفضيل صاحبهم على اخيه بالسلطنة ، والتعهدات التي قطعوها نيابة عنه بالطاعة التامة الدائمة ، قرر منكوقان اعادة قسمة البلاد بين الاخوين ليجعل من ركن الدين عميلا له وعيناً على

---

(١) البايزة : عبارة عن لوح من الذهب مرسوم عليه رأس اسد وينقش فيه الامر السلطاني الذي يعطى لممثل السلطة الشرعي ، او لمن هو في منزلة عالية . انظر في ذلك القاموس الفارسي الانكليزي .

Dozy . 1 . p : 49 . steingass . p . 235 .

(٢) زبدة الفكرة م ٩ الورقة ٧ - ٨ ، ابن العبري ص ٢٦٤ ، جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٦١ . وقد أخطأ رشيد الدين عندما ذكر اسم السلطان غياث الدين كيخسرو الذي كان قد توفي قبل اكثر من عشر سنوات إذ ان السلطان المقصود هنا هو ابن عز الدين كيكاوس .

اما سبب هزيمة جيشه فيعود الى خيانة السلطان لقائد جيشه ارسلان دغمش حيث—

اخيه وصدر الامر بذلك عام ٦٥٥ هـ (١) .

ويشير ابن العبري الى ان بايجو نوين ظل يضايق عز الدين لمصلحة اخيه ركن الدين ، ويطارد نوابه الذين يرسلهم للاشراف على بلاده ، ولم يخلص عزالدين منه حتى شكاه الى هولاكو الذي استدعى بايجو ليشاركه بالزحف نحو بغداد ، حينئذ استعاد عز الدين بلاده من نواب اخيه ركن الدين (٢) .

* * *

اما الامارة الايوبية :

فقد تفرعت عن الأتابكية ، ذلك ان نور الدين ، بعد استقراره في بلاد الشام ، وجد ان استكمال اسباب الجهاد ضد الصليبيين يفرض عليه مد سلطانه الى مصر فيجمع بين البلدين ويجعل منهما قاعدة قوية يضرب منها العدو الدخيل في فلسطين.

وكانت الظروف في مصر مهيأة لذلك ، فأرسل جيشه يقوده اسد الدين شيركوه وبرفقته ابن اخيه صلاح الدين ، وقضوا على التدخل الصليبي فيها وأزالوا الحكم الفاطمي المنهار وخطبوا للخليفة العباسي فى محرم ٥٦٧ هـ (٣) .

ـ تعرض لنسائه ، فسمع القائد ذلك فتحالف مع المغول وعاد يهاجم سلطانه الذي هرب الى بعض القلاع .

(١) زبدة الفكرة م ٩ الورقة ٥ .

(٢) ابن العبري ص ٢٦٦ - ٢٦٨ .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ١١١ ، ابن شداد ص ٣٥ ، ابن واصل ج ١ مفرج الكروب ص ٢٠٠ - ٢٠١ القزاز ص ١٩٢ - ١٩٣ .

وبرز دور صلاح الدين وشخصيته في توجيه الامور بمصر بعد وفاة عمه اسد الدين في جمادي الآخرة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) حيث تولى وزارتها وأصبح الرجل الاول فيها الذي يقوم مقام نور الدين ، لكنه مع ذلك بقي محافظاً على طاعته له ، ملبياً أوامره في الخروج للغزو الصليبي ، إلا انه كان يتجنب الاجتماع به في الميدان خوفاً مما نشرته الاشاعات من عزم نور الدين على عزله (١) .

وأدى هذا الحرص من جانب صلاح الدين على المنصب والخوف من العزل الى اتخاذه مواقف معينة ، أثرت على بعض خطط نور الدين العسكرية ، وحرمته من تحقيق بعض الانتصارات على العدو الصليبي ، الأمر الذي دفع بنور الدين الى اساءة الظن به حتى اوشك ان يقرر الزحف على مصر (٢) .

على ان صلاح الدين كفر عن هذا التقاعس والحرص عندما تبوأ مكان نور الدين الذي توفي في شوال ٥٦٩ هـ . فوهب نفسه لجهاد الصليبيين وحقق رغبة نور الدين في وحدة العالم الاسلامي في هذه المنطقة ووقوفه صفاً واحداً أمام الخطر الصليبي ، وعلى الرغم من انه كان مستقلا في عمله قبل هذه الفترة ، إلا ان شرعية سلطانه لم تتم إلا بعد ان وصله تقليد الخلافة بالسلطنة ببلاد مصر والشام وجميع ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وذلك في شوال ٥٧٠ هـ (٣) .

---

(١) ابن الاثير جـ ٩ ص ١٠٢ - ١٠٣ ، ابن واصل جـ ١ ص ١٧٤ ، عاشور جـ ٢ ص ٧٢٥ - ٧٢٦ . القزاز ص ١٩٥ .

(٢) القزاز ص ١٩٦ .

(٣) ابن الاثير جـ ٩ ص١٣٣ ، ابوشامة جـ ١ ص ٢٥٠ ، القزاز ص ١٩٦-١٩٨

وحقق صلاح الدين كثيراً من الانتصارات العسكرية على الصليبيين خلال العشرين سنة التي تسلطن فيها . كان أهمها انتصاره في حطين عام ٥٨٣ هـ ، حيث انتزع منهم بيت المقدس ومعظم البلاد الداخلية والساحلية .

وتوارث ابناؤه وأخوه البلاد عند وفاته في نهاية صفر ٥٨٩ هـ ، وواصلوا سياسته في الحفاظ على البلاد ومقارعة العدو ، وان كانوا قد فقدوا روحه وعزيمته بوفاته(١) .

وفى مطلع القرن السابع الهجري كان العادل أبو بكر شقيق صلاح الدين قد انتزع زعامة البيت الايوبي من ابناء اخيه بأساليب مختلفة ، ثم وصله تقليد الخلافة بالسلطنة على مصر والشام والشرق وخلاط عام ٦٠٤ هـ (٢) .

على ان العادل لم يستطع ان يملأ مكانة اخيه في زعامة العالم الاسلامي ، اذ ان حرصه على الاستئثار بالسلطان لبنيه جعله يسيء السيرة مع بني اخيه وبقية الامراء حتى تحالفوا عليه ورشحوا للسلطنة غيره (٣) .

وانتهت زعامة العادل بوفاته عام ٦١٥هـ لتعود الفرقة بين امراء الاسرة الايوبية ثانية في الوقت الذي كانت فيه مصر تتعرض لعدوان صليبي شديد ، وكانت طلائع

---

(١) ابن شداد ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ، ابو شامة ج ٢ ص ٢١٣ .

(٢) وخوطب بلقب شاهنشاه ملك الملوك خليل اميرالمؤمنين . مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٥٣٤ ، ابو شامة - ذيل الروضتين ص ٦٠ ، ابن واصل ج ٣ ص ١٨٠ - ١٨٢ . السلوك ج ١ ق ١ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٣) انظر ايضاً السلوك ، ذيل الروضتين ص ٧٥ ، ابن واصل ج ٣ ص ٢٠١ .

الغزو المغولي تهاجم اطراف العالم الاسلامي من الشرق .

ووصلت شرارة المغول اطراف البلاد الايوبية اول مرة عام ٦١٨ هـ عند اندفاع الفرق المغربة وراء خوارزمشاه علاء الدين محمد ، حيث وصلوا اطراف سنجار وحران.

ولكن التعرض الحقيقي لبلادهم كان بعد اختفاء جلال الدين عام ٦٢٨ هـ ، حيث وصلوا في توغلهم الى أعماق البلاد الايوبية .

وبين هاتين الفترتين ، كان النفير يدق في البلاد الاسلامية ، والرسل تطوف على الامراء تدعوهم الى الاستيقاظ وجمع الشمل قبل فوات الأوان .

ولكن الامراء الايوبيين كانوا مشغولين في واد آخر ، كانوا مشغولين في خصوماتهم مع بعضهم حتى هان عليهم التحالف مع العدو الصليبي على بني ابيهم وعمهم وهان عليهم تسليم القدس عام ٦٢٦ هـ وإعادتها الى الفرنج لقاء مساعدتهم لهم ضد بني أبيهم (١) .

لم يكن الايوبيون يجهلون الخطر المغولي ، ويعلمون ان الدولة الخوارزمية مثل السد الذي يحول بينه وبين بلاد المسلمين ، وهذا الاشرف الأيوبي يخاطب وزير

(١) غرق الايوبيون في هذه الفترة في نزاع مع بعضهم حتى تحملوا سبة التاريخ واضاعوا المجد الذي بناه لهم صلاح الدين .

فقد اختلف المعظم مع اخوته الاشرف والكامل فاستنجد عليهم بجلال الدين الخوارزمي ثم بعد وفاته ، اختلفوا مع ابنه الناصر داود وسلبوه حقه ، ثم اختلف الاشرف مع اخيه الكامل ، وتحزب الامراء بعضهم لبعض حتى اضطر الكامل الى التحالف مع ملك الفرنج وسلمه القدس في الوقت الذي كانت جيوشه تحاصر ابن اخيه بدمشق . انظر ابوالمحاسن ج ٦ ص ٢٧١ - ٢٧٢ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٢٩-٢٣٦.

لجلال الدين الخوارزمي بقوله : ان سلطانك سلطان الاسلام والمسلمين وسندهم والحجاب دونهم ودون التتار وسدهم . وغير خاف علينا ما تم على حوزة الاسلام وبيضة الدين بموت والده ، ونحن نعلم ان ضعفه ضعف الاسلام وضرره عائد الى كافة الأنام ... (١) » .

ومع هذا القول فقد تحالف الاشرف مع سلاجقة الروم ضد سلطان المسلمين هـذا حتى ألحقوا به الهزيمة واضعفوا من قوته أمام المغول ، ثم أصموا آذانهم عن صوت استغاثته بهم حتى سقط ، وزال بسقوطه السد الذي كان يحول بين المغول وبين مواجهة الأيوبيين (٢) .

والذي أراه ان الايوبيين لم يجرأوا على الدخول في معركة حقيقية مع المغول ابداً حتى زالت أيامهم ، وليس هذا عن ضعف قوة او قلة عدد .

فقد ملك الكامل الايوبي عام ٦٣١ هـ من القوة (٣) ، واجتمع لديه من العساكر ما لم يجتمع لأحد من ملوك الاسلام ، حتى اعجبته نفسه بكثرتهم ونوى الشر في نفسه لبني ابيه وعمه بهم (٤) .

---

(١) النسوي ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٢) ابن العبري ص ٢٤٦ ، ابو المحاسن ج ٦ ص ٢٧٧ .

(٣) وكان الكامل في هذه الفترة قد تولى زعامة البيت الأيوبي .

(٤) السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٤٨ . وهو يقول : « وخرج الكامل من دمشق .. فقدمت عليه العساكر فسار وقد صار عنده ستة عشر دهليزاً لستة عشر ملكاً ، وقيل بل كانوا ثمانية عشر ملكاً ...

وكان قادراً بهذه القوة ان يعيد ايام عمه صلاح الدين ، ولكنه لم يفعل ، وليس من سبب لتعليل ذلك إلا انعدام شعورهم بالمسؤولية وغلبة الذل عليهم .

ويمكنني القول ايضاً ، ان المرة الوحيدة التي عفر الايوبيون وجوههم بالتراب على نية الجهاد المغولي كان في عام ٦٢٩ هـ ، عندما وصل المغول حران والجزيرة وخلاط ، وكان ذلك كما يظهر استجابة لنداء الخليفة الذي ارسله الى الاشرف .

حينئذ كما يقول سبط بن الجوزي (١) : « خرج الكامل والاشرف من مصر لدفع التتر عن البلاد ، فلما بلغهم رجوع التتر عن خلاط ، عبروا الفرات ونزلوا على آمد حتى استولوا عليها » .

وفي غير هذا الموضع لا نجد للايوبيين جهداً عسكرياً حقيقياً قاموا به حتى سقوط بغداد إذ انشغلوا بالصراع مع بعضهم ، ومع سلاجقة الروم وانتزاع ما بأيديهم من البلاد . بالرغم من تحذير بدر الدين لولو لهم « بعبور التتر دجلة عام ٦٣٣ هـ وهم في مائة طلب وكل طلب خمسمائة فارس ، وانهم نزلوا على سنجار وقتلوا متوليها » (٢) فلم يحرك أحدهم ساكناً .

ويذكر للكامل الايوبي استجابته لنداء الخليفة عام ٦٣٥ هـ الذي ارسل اليه الاموال لتجنيد الجيوش وانجاد الخلافة ، فأعاد الكامل الاموال الى الخليفة وافق

---

(١) مرآة الزمان جـ ٨ ق ٢ ص ٦٧٣ ، ابو المحاسن جـ ٦ ص ٢٧٨ وكانت آمد تعود لسلاجقة الروم .

(٢) مرآة الزمان جـ ٨ ق ٢ ص ٦٩٥ ، ابو المحاسن جـ ٦ ص ٢٩٣ المقري الفيومي الورقة ٧٤ .

من ماله على التجنيد ، ووصلت نجدته بغداد يقودها ولدا الملك الامجد صاحب بعلبك (١) .

وبلغ من تخاذلهم وضعف نفوسهم انهم اصبحوا يخضعون لطلبات المغول ، ويلتمسون رضاءهم لئلا يدخلوا معهم في مصان ، فقد وصل في عام ٦٣٨ هـ رسول ملك التتر الى شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين ومعه كتاب الى ملوك الاسلام يأمرهم بالدخول في طاعته ويطلب من الشهاب هدم اسوار بلدته ، فاعتذر الشهاب له بحقارة بلدته بالنسبة الى بلاد الشام والروم ومصر ، ووجهه نحوهم لكي يفعل ما يفعلون (٢) .

وشجع هذا التخاذل المغول على ارسال كتائبهم التي وصلت ابواب حلب عام ٦٤١ هـ يقودها يساور نوين ، ثم عادوا على ملاطية فلم يلقوا مقاومة (٣) فأوعزوا الى وكيلهم بدر الدين لولو بفرض الضرائب على اهل الشام ، ونفذ بدر الدين ذلك حيث قرىء كتابه على الناس سنة ٦٤٢ هـ ووقع الشروع في جباية الاموال (٤) .

وكان شقيق صاحب حلب الملك الظاهر احد الذين حضروا الى قراقورم محملين بالهدايا عند اختيار كيوك للخانية نيابة عن اخيه الناصر يوسف حفيد صلاح الدين

---

(١) الحوادث الجامعة ص ١١١ - ١١٢ ، السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٥٧ . المقري الفيومي الورقة ٨٦ .

(٢) مرآة الزمان جـ ٨ ق ٢ ص ٧٣٣ ، ابن دقماق نزهة الأنام الورقة ٤٧ .

(٣) ابن العبري ص ٢٥٥ .

(٤) السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣١٥ ، ٣٢٠ .

الاول (١) ، متخذين بذلك يداً تشفع لهم فى قابل الايام . وقد حصل صاحب حلب مقابل هذه الطاعة على «طمغا صورة امان ارسلها اليه القان ملك التتر عام ٦٤٨هـ فصار يحملها في حياصته ، وسيّر الى القان هدايا كثيرة » (٢) .

وفي الوقت الذي كانت رسل الخليفة المستعصم تجوب البلاد تستصرخ امراءها لنجدة بغداد ، كان صاحب حلب والشام وزعيم البيت الايوبي في هذه الفترة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد قد ارسل كما يقول اليونيني (٣) « ابنه الملك العزيز في رمضان ٦٥٥ هـ بهدية سيئة جليلة الى هولاكو يجدد طاعته له وولاءه للمغول » .

* * *

موقف الخلافة :

اما الخلافة فقد كان موقفها أقرب الى الاهمال والتهاون المعيبين ويتحمل الخليفة الناصر لدين الله سنة ٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ الذي عاصر بداية الغزو المغولي مسؤولية كبرى في التمكين لهم من السيطرة على البلاد ، لتهاونه وعدم شعوره بمسؤوليته كخليفة للمسلمين ، حتى ان كل الذي فعله عند سماعه بوصول المغول الى كرمنشاه واقترابهم من بغداد « أن أمر الناس بالقنوت في الصلاة » (٤) .

---

(١) الجويني جـ١ ص٢٠٥ ، التاريخ الغازاني م٤ الورقة ٧٦٤. برايس جـ٢ ص٥٥١.

(٢) السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣٧٩ *Howorth . 3 . p . 60 .*

والطمغاهي الختم .

(٣) اليونيني ـ ذيل مرآة الزمان ص ٤٥ .

(٤) ذيل الروضتين ص ١٢٨ . وقد أشرت فيما سبق الى ما نشأ عن هذا ـ

لقد تعرضت حدود الخلافة المباشرة للغزو المغولي عام ٦١٨ هـ ، فتسارعت رسله الى امراء اربل والموصل والايوبيين بالاجتماع لدفعهم عن البلاد ووعـــدهم بارسال النجدات ، ثم جاءت نجدته لهم فكانت لا تزيد عن ثمانمائة جندي ، « فلم أر كما يقول مظفر الدين (١) صاحب اربل المخاطرة بأرواح المسلمين » .

لقد دفع هذا الموقف المتخاذل من خليفة المسلمين المؤرخ ابن الاثير الى التلميح دون التصريح وهو يعدد مصائب المسلمين ويتحسس مصيرهم المظلم . « فسأل الله ان يتيسر للاسلام والمسلمين نصراً من عنده فان « الناصر » والمعين والذاب عن الاسلام معدوم » (٢) .

ويمكن القول ان الخلافة اشتد عودها بعض الشيء في عهد الخليفة المستنصر بالله الذي استطاع إعادة جلال الدين الى حظيرة الخلافة (٣) ، لكنه لم يستطع ان يفرض هيبتها عليه وعلى الامراء الآخرين ، فيجعل منهم قوة واحدة توقف زحف المغول ، وتسترجع منهم ما سلبوه ، فبقي الصراع سائداً بين هؤلاء الامراء ، ووجد المغول

ـ الاهمال من اتهام للخليفة بمواطأة المغول ، وناقشت ذلك في بحثي « الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير » وقلت ان هـذا الاتهام ينصرف الى اهمال الخليفة المتعمد .. وان المغول لم يكونوا بحاجة الى تحريض ، ص ١٧٦ .

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٣٧ - ٣٣٨ .

(٢) الكامل جـ ٩ ص ٣٣٠ . انظر ايضاً نقده لملوك المسلمين في قوله ص ٣٣٦ « يسر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم ، فلقد دفعوا من العدو الى عظيم ومن الملوك المسلمين الى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه » .

(٣) النسوي ص ٣١٠ ، ٣٢٨ . مرآة الزمان جـ ٨ ق ٢ ص ٦٧٠ .

من بينهم ثغرة نفذوا منها عام ٦٢٨ هـ وهددوا أملاك الخلافة ثانية .

وعاود المغول هجماتهم مراراً عديدة قدرت بثلاث عشرة حملة خلال هذه الفترة هددوا بغداد خلالها مرتين او اكثر بالهجوم المباشر ، كانت الخلافة اثناءها عاجزة عن القيام بعمل ايجابي لردعهم ، وذلك بسبب ضعف جيشها من ناحية ، وعدم وجود سياسة دفاعية لها من ناحية اخرى (١) .

وإذا كنا نلمس بعض الجدية لايقاف الخطر المغولي في عهد المستنصر بالله الذي اهتم بأنباء استيلائهم على البلاد ، فأرسل الرسل الى الامراء الايوبيين ، وسعى للتوفيق بينهم وبين سلاجقة الروم ، واستنفر العربان في البوادي ودعاهم الى الجهاد وأوقف الاموال لتجنيد الجيوش التي تجمعت في بغـداد حتى بلغ عددها كما يقول اليونيني مائة الف » (٢) ، فاننا لا نلمس شيئاً من ذلك عندتولي المستعصم بالله الخلافة الذي وصف بالغفلة وضعف الرأي وغلبة النساء ، والذي كان كما يروي عنه ابن

---

(١) القزاز ص ٢٤١ . ولمعرفة مقدار جيش الخلافة انظر ص ١٠٦ في الحديث عن النظام الحربي ، والذي رأيت فيه ان هذا الجيش كان من مماليك الخلافة الذين اشترتهم بالمال وربتهم ودربتهم وهم اشبه بحرس للخليفة ، وكان عددهم محدوداً لا يتجاوز بضعة آلاف ، وقد بينت هناك سبب ذلك .

(٢) وكانت هذه الجيوش تتفرق وتعود النجدات الى اهلها عندما يبتعد الخطر عن البلاد . اليونيني ص ٨٦ - ٨٧ . الحوادث الجامعة ص ٨٤ - ٨٥ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١١ - ١١٢ . السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٤٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ . المقري الفيومي الورقة ٨٥٠ .

rateen: Emcyofgsl. Al. Mustansir. p. 768.

العبري (١) « اذا ذكر له امر التتر وما يجب فعله كان يقول : « ان بغداد تكفيني ولا يستكثرونها علي اذا نزلت لهم عن باقي البلاد » ، ففي عهده تفرق الجند بعد أن قطعت أرزاقهم ، واسقطوا من دواوين العرض ، فلحق بعضهم بالشام وآخرون بالمغول واضطر الباقون تحت وطأة الحاجة الى ذل السؤال في الجوامع والاسواق (٢).

وضاقت حدود الخلافة على الخليفة ، فقد استولى التتر على منطقة الجبال وشهرزور ودخل في طاعتهم صاحب الموصل ، ثم لحق بهم اصحاب الشام والروم ، واشتدت هجماتهم على ما بقي من بلاد الخلافة حتى وصلوا في عهده مرتين اطراف بغداد ووصلت بعض طلائعهم سوق الخيل في ظاهرها (٣) ، كل ذلك والخليفة سادر في غفوته ، لم تؤثر في إيقاظه حتى مراسلات صاحب الموصل وابن الصلايا نائبه في اربل » (٤).

---

(١) تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٥ ، انسان العيون في سادس القرون الورقة ٢٢٤ ، ابن الطقطقي ص ٤٢ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٢٦١ ، ٣٢٠ - ٣٢١ . السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٤٦٦ .

(٣) ابن العبري ص ٢٥٥ ، الحوادث الجامعة ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، ٢٤١ ، ابن واصل م ٢ الورقة ٣٤٥ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٢٠ .

(٤) اليونيني ص ٨٧ ، الحوادث الجامعة ص ٢٦٠ ، ويتهم اليونيني وغيره من المؤرخين الوزير العلقمي بأنه كان يحجب عن الخليفة مراسلات أمراء المسلمين وانه كان يسعى لابقاء الخلافة في حالة الضعف لكي يسهل القضاء عليها من المغول الذين يتعاون معهم سراً . وورد هذا الاتهام في اغلب المراجع التي ناقشت سقوط الخلافة ، وسببت هذه المراجع عمل ابن العلقمي وعدائه للخلافة الى ميوله الشيعية ورغبته في نقل الخلافة —

ومن المحتمل انه احس بحاجته الى اليقظة في أيامه الاخيرة ، بعد ان اشتد ضغط النازحين على بغـداد وعلا صوت نكبتهم على اهالهم وتهاونه (١) ، فسعى للاستنجاد بامراء الأطراف ودعوتهم للدفاع عن بغداد فأرسل كما يقول اليونيني (٢) رسوله الشيخ نجم الدين البادرائي لكي يوفق بين صاحب الشام ومملوكه المعز ايبك الذي استقر بمصر ، ويجمع جيوشهم لقتال التتار .

ولـكن هولاكو كان اسرع الى بغـــداد من هؤلاء الامراء الذين لم يحركوا ساكناً .

* * *

ـ للعلويين ، والى اضطهاد الخلافة للشيعة .

وقد ناقشت هذا الأمر في بحثي « الحياة السياسية في العراق » عند دراسة أثر الحاشية في ضعف الخلافة وسقوطها ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧ . وقد رأيت استبعاد خيانة العلقمي ومواصلته للتتر سراً ، ولكني حملته مسؤولية الرجـل المسؤول الذي تولى الوزارة اكثر من اربعة عشر سنة ولم يتدبر الأمر .

(١) بدأت الهجرة نحو بغداد عند تعرض المغول لها سنة ٦٣٥ هـ وتوالت بعد ذلك . القزاز ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

(٢) اليونيني ص ١٢ ، ١٧٣ ؛ شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٦٥ . الصابوني ص ٢٧ ـ ٢٧ في حديثه عن الشيخ البادرائي .

زحف هولاكو وسقوط بغداد :-

ذكرت سابقاً (١) ان هولاكو بعد ان انتهى من الاسماعيلية تفرغ للخلافة ، وانه قبل ان يبدأ زحفه نحوها كان قد بدأ في مراسلتها لكي يعرف حقيقة موقفها منه ومدى استعداداتها له ، ومرت مراسلات الخلافة مع المغول في مرحلتين الاولى (٢) وكانت غير منتظمة بدأها المغول سنة ٦٣٥ هـ ، ثم توالت رسلهم بعدها سنة ٦٤٣ هـ ، وبين سنتي ٦٤٤هـ ، ٦٤٦هـ وكانت هذه الاخيرة بمساعي التجار المسلمين الذين يتنقلون بين خراسان وبغداد .

وكانت الخلافة تجيب على كل رسول بايفاد رسول من عندها ، وليست لدينا معلومات عن حقيقة ما دار في هذه المراسلات .

وانتظمت المراسلات في المرحلة الثانية وكانت باسم هولاكو الذي تولى قيادة الحملة نحو الغرب . حيث يشير رشيد الدين (٣) الى أن هولاكو بعد ان استقر في كش ، ارسل في اواخر سنة ٦٥٣ هـ رسله الى الملوك والسلاطين برسائل يدعوهم فيها الى المساهمة معه في القضاء على قلاع الملاحدة وإمداده بالرجال والسلاح ، وعلى الرغم من اغفال رشيد الدين ذكر اسماء المرسل اليهم ، إلا ان القرائن تشير الى ان الخليفة

---

(١) انظر ص ٦٨ من هذا البحث .

(٢) الحوادث الجامعة ص ١١٣ - ١١٤ ، ٢٥٩ ، ٢٩٠ القزاز ص ٢٥٥ .

(٣) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ . القزاز ص ٢٨٦ . وقد جمعت هذه الرسائل في ملحق الباب الخامس من بحثي سالف الذكر بعنوان مراسلات هولاكو مع الخلافة .

العباسي كان واحداً ممن ارسل اليه هذا الخطاب ، يؤكد هذا قول نصير الدين الطوسي في رسالته عن فتح بغداد يؤكد (١) « أنه لما عزم السلطان هولاكو خان على ان يلج بلاد الملاحدة سير من قبله مندوباً الى الخليفة يطلب منه النجدة حتى نستأصل بذلك شأفتهم ونمحوا سطوتهم » .

وأرسل هولاكو رسالته الثانية من همدان في رمضان ٦٥٥ هـ بعد انتهائه من الاسماعيليين ، يعاتب الخليفة ويتهدده ويدعوه الى الطاعة وهدم حصون بغداد .

وكانت الرسالة الثالثة بعد ذلك بفترة حيث ارسلها مع رسل الخليفة الذين كانوا قد قدموا يحملون اليه رده على رسالته السابقة ، وفيها تقريع شديد وانذار له اما بالاستسلام اوالاستعداد للحرب « فانني متوجه الى بغداد بجيش كالنمل والجراد » (٢).

---

(١) رافق الطوسي هولاكو بعد خلاصه من قلاع الملاحدة ، وأصبح مقدماً عنده ، ولعب دوراً سيئاً في القضاء على الخلافة . ولا اتفق مع الذين ينزهون موقفه من ذلك ويعتبرون وجوده سبباً في خلاص كثير من المسلمين ، فان كثيراً من المسلمين قتلوا ايضاً بسبب تشجيعه لهولاكو وإزالة مخاوفه من نبوءة المنجمين المسلمين الذين كان قصدهم إيقاف زحف هولاكو وحماية الخلافة .

وقد ترك الطوسي جملة من الرسائل ، منها رسالته في فتح بغداد ، استخرجها وحققها رسول النخشبي ونشرتها مجلة التقدم الفارسية بطهران في عددها السابع سنة ١٩٢٨ م . وقام محمد صادق الحسيني بتعريبها ونشرها في مجلة المرشد البغدادية م ٤ ج ١ سنة ١٩٢٩ م في ص ٢١ ـ ٢٨ .

انظر أيضاً ـ ملحق الباب الاول رسالة الطوسي في فتح بغداد .

(٢) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٦٧ ، ٢٧١ ، القزاز ص ٢٨٦ ملاحق الباب الخامس . رسائل هولاكو .

وكشفت أجوبة الخليفة على هذه الرسائل الغفوة التي كان غارقاً فيها ، وعجز الحاشية المحيطة به والمنقسمة على نفسها عن امداده بالرأي الصالح والعمل الايجابي (١)، فهو يهدد هولاكو بملوك الارض الذين سيهبون من الشرق والغرب للدفاع عنه عند اول اشارة منه ، وبالقدسية التي ترعى الخلافة وتلحق المكر السيء بمن يبتغي الشر لها ، ثم يهدد له مصير اولئك الذين سبقوه (٢) .

وظل المستعصم يعيش في هذا الوهم حتى أفاق على انباء هزيمة قائد جيشه الدويدار الصغير عند الدجيل أمام بعض فرق المغول . وكان جيش الخلافة كما يقول ابن الطقطقي : « في غاية القلة » (٣) .

وما لبثت جيوش هولاكو إلا قليلا حتى توزعت اسوار بغداد وأطرافها على جانبي دجلة وفق خطة عسكرية دقيقة ، فشلت أمامها جميع محاولات الهرب التي حاولها بعض قواد الخلافة (٤) . وكان هولاكو قد استكثر من الجند لحصارها حتى قيل :

---

(١) كان الصراع قائماً على اشده بين الوزير ابن العلقمي وقائد الجيش الدويدار الصغير . ومن هنا نشأت الاتهامات بالخيانة .

(٢) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٧٥ ، ٢٧٩ .

(٣) ابن الطقطقي ـ الفخري ص ٤٥٣ .

(٤) ورسم الفيل في رسالته للدكتوراه المعنونة

4) Bretschnidor_1- p 118_119 .

« الجغرافية التاريخية للعراق بين الفتح المغولي والفتح العثماني » خطه هولاكو للزحف نحو بغداد وحصارها في ص ١٨ ـ ٢٤ . ثم قام بترجمة هذه الخطة في بحثه الصغير الذي نشرته مجلة كلية الآداب جامعة بغداد في العدد (٦) سنة ١٩٦٣ م بعنوان الحالة الإقتصادية لمدينة بغداد اثناء الحكم الايلخاني ص ٢ ـ ٣ .

ان عددهم قارب مائتي الف » (١) .

ولم يكن هذا العدد الضخم مقصوراً على المغول فقط ، بل كان يضم عدداً من الأمراء المسلمين والمسيحيين الذين دخلوا فى طاعة المغول وأسرعوا لتنفيذ اوامرهم وإثبات اخلاصهم هذا بالاضافة الى عدد من المتطوعة (٢) .

ولم يطل حصار بغداد الذي بدأ اشتباكه في ٢٢ محرم ٦٥٦ هـ اكثر من اسبوع حتى انهارت معنويات الخليفة ومقاومة سكانها فأخذوا يستسلمون للمغول بعد مداولات

---

(١) ابن حبيب الشافعي ـ درة الاسلاك ـ الورقة ١٥ ، السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٤٧١ .

ويذكر ماركوبولد في رحلته ص ٢٦ ـ ٢٧ . ان عـدد فرسان المغول كانوا مائة الف غير المشاة .

(٢) فالجوزجاني طبقات ناصري ـ ص ٣٢٣ ، ٣٣٤ ـ ٣٣٥ ، يشير الى مساهمة الاتابك ابي بكر صاحب فارس ، وكان يقود جيشه أخوه محمد شـــاه ، ومساهمة بدر الدين صاحب الموصل ، وقاد جيشه ابن الصالح اسماعيل . كما يشير الى موقف الكامل صاحب ميافارقين الذي اعتذر عن امداد هولاكو بالجيش ثم سعى لانجاد الخلافة لولا مماطلة ابن عمه الناصر صاحب الشام ، ويشير البدليسي فى الشرفنامة ص ٤٧ ـ ٤٨ الى مساهمة مظفر الدين اتابك تكله صاحب لورستان في حصار بغداد ثم استنكاره مقتل الخليفة وهربه من معسكر هولاكو بأصحابه بعد ذلك . وينقل *Howorthofcit 3* عن المؤرخ الجورجي الذي اشاد بدور الجورجيين في حصار بغداد وتسلقهم الأسوار وذبحهم السكان واستيلائهم على اموال كثيرة عجزوا عن حملها . انظر تاريخ ال جنكيز ص ٨١ ـ ٨٢ . اليونيني ص ٨٧ ـ ٨٨ .

ومفاوضات قام بها الوزير وابناء الخليفة وبعض كبار الحاشية ، خرج بعدها الخليفة في الرابع من صفر الى حيث كانت نهايته .

وأباح هولاكو لجنده ما بقي من المدينة في السابع من صفر أياماً اختلف المؤرخون من حسابها ، ثم نودي بالأمان لمن بقي حياً من أهلها (١) .

وليس باستطاعتنا أن نحصي مقدار ما فقدته بغداد من سكانها ، إذ لم يبق منهم أحد إلا من رحم ربي ، فلم يكن هناك ما يمنع المغول من ذبح من يرونه أمامهم من أهلها .

وحتى الذين استسلموا ، فقد سيقوا الى الذبح كالأغنام ، يشير ابن الفوطي في حديثه عن فخر الدين ابي بكر عبدالله الطهراني ... وهو ممن كان يخرج الفقهاء الى باب السور الى مخيم السلطان هولاكو مع شهاب الدين الزنجاني « ليقتلوا » (٢) .

وتشير المراجع الصينية (٣) الى ان الجيش المغولي احتل أولا القسم الغربي من

---

(١) الطوسي - رسالة فتح بغداد - ص ٢٦ - ٢٧ من مجلة المرشد م ٤ ج ١ .
Muir thealiphate p 592
القزاز ص ٢٦٢ - ٢٦٥ . ويشير محمد حسن ال ياسين في مقالة عن المشهد الكاظمي المنشور في مجلة سومر م ١٩ ج ١ - ٢ ص ١٥٥ - ١٥٦ الى ان احتلال بغداد من قبل المغول كان يوم الاثنين ١٨ محرم ، وهو يرجع بذلك الى قول علي بن طاوس الذي كان معاصراً للاحتلال .

(٢) تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ج ٤ ق ٣ ص ١٩٥ ، انظر ابن رجب ج ٢ ذيل طبقات الحنابلة في حديثه عن ابن الجوزي محي الدين وأولاده ص ٢٥٨ - ٢٦١ . العيني - عقد الجمان الورقة ٤٠٥ .

(٣) *Bretschneider I. p. 138. Howorth 3 - p. 130 - 132*

بغداد الذي لم يكن يحميه سور فذبحوا سكانه ثم تحولوا الى الجانب الشرقي ، ومن ثم فلا عجب إذا رأينا الجويني (١) وهو المؤرخ المعاصر يعلن بأنه لم يبق في البلاد التي فتحها المغول واحد من الف من سكانها ، وان اهلها لن يبلغوا حتى يوم القيامة عشر العدد الذي كانوا عليه قبل غارة المغول .

ولم يميز المغول في ذبحهم بين السنة والشيعة من سكانها ، وانما كانوا يميزون اصحاب الفرامين (٢) الذين كانوا على اتصال بالمغول قبل دخولهم العراق ، والذين كانوا اشبه بعيون لهم على الخلافة وأحوالها .

وقد حصل هؤلاء على حراس من المغول حموا دورهم وأهليهم ومن التجأ اليهم (٣) .

---

(١) براون Browne ج ٢ ص ٥٦٠ نقلاً عن الجويني . تاريخ وصاف ج ١ ص ٢٦ وهو يقول في وصف بغداد سنة ٦٩٦ ه انها عشر معشار ما كانت عليه زمن الخلافة .

(٢) الفرامين جمع فرمان وهو الامر (البرليغ) السلطاني بالامان لاصحاب السلطة ، وفي رأي كاترجير انه لا يعطى للكتبة العرب .

Dozy . II p . 821 .

(٣) تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ق ١ ص ٩٦ - ٩٧ في الحديث عن ابن علجه . الحوادث الجامعة ص٣٢٩ في حديثه عن التجار المتنقلين بين خراسان والعراق . ويشير العيني في الورقة ٤٠٢ في حديثه عن الشيخ الصرصري انه دعي الى دار بها فرمان من هولاكو فأبى ان يجيب اليه واعد في داره حجارة ، فحين دخل عليه المغول رماهم بها فلما خلصوا اليه قتل بعكازة أحدهم فقتلوه شهيداً .

اما اهل الذمة من سكانها ، فقد حصل النصارى منهم على رعاية المغول وحمايتهم حيث عين لهم شحنة حرسوا بيوتهم وكنائسهم ، بينما شارك اليهود المسلمين في المقاومة والدفاع عن بغداد ونالوا ما كتب عليهم من القتل والاضطهاد بعد سقوطها (١) .

ونجا من الموت ايضاً بعض الاسرى الذين كتبت لهم الحياة من جديد لأسباب لا تخضع لقياس (٢) .

اما الخليفة وأسرته ، فقد اختلفت الآراء في حقيقة موقف هولاكو منهم وشعوره نحوهم ، وكيفية مقتله . وينفرد الجوزجاني (٣) بنقل بعض الآراء التي

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٢٩ . مصطفى بدر ـ محنة الاسلام الكبرى ص ١٧٦ .
Howorth . 3 - p . 126 - 127
Coke . Baghdadthecityofpeace p. 148 - 149 ' 152 .

(٢) يحدثنا عن ذلك ابن الفوطي الذي كان هو نفسه وأخوه من الأسرى ، وقد سقط بأيدي رحيمة أشفقت على طفولته بينما قتل آلاف الاطفال . ويظهر لي ان مصير الاسرى كان بيد آسريهم من المغول وليس الدولة . إذ احتفظ البعض بمن سقط في يده وعاد به الى الشرق لاستخدامه ، او باعه لآخرين وقبل الفداء فيه ، ولم نجد هنا في بغداد ما كان يفعله المغول من اخراج اصحاب المهن للاحتفاظ بهم وقتل ماعداهم ومن سلم هنا من اصحاب المهن فقد سلم صدفة وليس عن اختيار .

انظر : مجمع الآداب ج ٤ ق ١ ص ٥٤ في فداء ابن الفوطي لأخيه : ١٣٢ ، ٢٨٦ - ٢٨٧ ، انظر ايضاً ج ٤ ق ٢ ص ٧١٨ ، ٨١٣ - ٨١٤ ، ٨٣٣ ، ٩١٧ ، ابن حجر ج ٢ ص ٣٦٤ .

(٣) طبقات ناصري ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

تشير الى ان هولاكو قرر الاحتفاظ بابن الخليفة الكبير ابي بكر ، لذلك عامله معاملة حسنة ، وسيره الى اذربيجان برفقة أحد كبار السادة ، ثم خوفه بعض المرتدين من خطر بقائه حياً ، وتأثير ذلك على المسلمين الذين قد يلتفون حوله ويجتمعون عليه ، فقرر هولاكو التخلص منه وأرسل وراءه جماعة قضوا عليه .

اما بالنسبة للخليفة ، فهناك اكثر من صورة لنهايته ، على انني ارى أن هولاكو بالرغم من وثنيته فانه كان قد تحسس بقدسية الخلافة واعتقد الشائعات التي نشأت عنها ، لذلك تخوف من المساس بها ، وهنا تتحمل الحاشية المسلمة التي كانت تملك التأثير على عقليته (١) ، مسؤولية تبديد هذا الوهم وتشجيعه على الخلافة .

فرشيد الدين يشير بوضوح الى استعانة هولاكو بمنجمه المسلم حسام الدين ليكشف له طالعه مع الخلافة ، وكيف قطع المنجم الطريق عليه بتخويفه من الزحف نحو بغداد والمساس بالخليفة ، فجاء نصير الدين الطوسي وكذب ذلك بدافع من خوف او كره وجرأه عليها (٢) .

---

(١) يشير ابو المحاسن م ٣ المنهل الصافي الورقة ٢٦٥ - ٢٦٦ في ترجمته للنصير الطوسي انه كان يعمل الوزارة من غير أن يدخل يده في الاموال ، واحتوى على عقل هولاكو حتى صار لايركب ولا يسافر إلا في وقت يأمره فيه . الصفدي ج ١ الوافي بالوفيات ص ١٧٩ - ١٨٢ .

(٢) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٧٩ - ٢٨٠ خواندمير م ٣ ج ١ - حبيب السير ص ٦١ ، الحوادث الجامعة ص ٣٢٩ ، محنة الاسلام الكبرى ص ١٧٦ . براون ج ٢ ص ٥٧٩ - ٥٨٠ ، ويشير مالكولم *Malcolm* الى دور النصير -

ويظهر ان هذا الوهم بقي عالقاً في مخيلته حتى بعد سقوط بغداد وسقوط الخليفة أسيراً بيده . فان هورث (١) ينقل عن الجوزجاني بأن بدر الدين وغيره حضروا عند هولاكو واخبروه بخطر بقاء الخليفة على قيد الحياة وتأثير ذلك على المسلمين الذين قد يثورون لاطلاقه .

وقد تخلص هولاكو بعد ذلك من الخليفة وهو على بعد مرحلة من بغداد حيث استقر بعيداً عن روائحها العفنة ، ثم استدعى الخليفة وناقشه في امور كما روى ذلك المؤرخ الجورجي ، وقد أظهر الخليفة فيها شيئاً من الاباء له حين رفض الانحناء

— في التحريف على الخلافة بقوله : وكان في عزم هولاكو ان يتوجه نحو القسطنطينية بعد تخلصه من الاسماعيلية ولكنه كما علمنا قد أقنع من قبل نصير الدين لكي يحول سيره نحو بغداد وانه تنبأ له بزوال البيت العباسي على يده . انظر ص ٢٦٢ .

وأمام هذا النقد الذي لحق الطوسي حاول البعض ان يدافع عنه ويبرر موقفه ، ويعدد خـدماته للاسلام . انظر سليمان الظاهر — مجلة مجمع اللغة العربية — بدمشق م ٣٦ ج ٢ سنة ١٩٦١ .

(١) وكذلك ينقل عن وصاف قوله :

I) *Hist . ofthemongols . 3 . p . 127 .*

«ان هولاكو كان يخشى اطلاق سراح الخليفة مادام المسلمون يعتقدون فيه ...»

وأرى ان دور بدر الدين في هذا التحريض مشكوك فيه ، لانه لم يجتمع بهولاكو إلا بعد عودته من فتح بغداد ، وقد يكون الامر تداخل على المؤرخ فان بدرالدين متهم بتحريض هولاكو على قتل الشريف الصلايا نائب اربل . انظر ، ابا المحاسن المنهل الصافي ج ٣ الورقة ٣١١ في ترجمة ابن الصلايا .

أمام هولاكو حتى ارغم على ذلك ، ثم سلم لايلكا نوين الذي انفذ فيه أمر هولاكو طبقاً لاحكام الياسا (١) .

اما بغداد فقد خلت من السكان إلا قليلا ، وأصابها من الخراب شيء كثير (٢) واختلفت الآراء في حقيقة موقف هولاكو منها ، فقد كان ينوي حرقها وتدميرها ، ولكنه نصح بالابقاء عليها ، لانها ستكون مركزاً لحكمه ، لذلك أبقى على ما بقي منها

---

(١) لم يشر المؤرخون المسلمون الى الطريقة التي قتل بها الخليفة ، ولكن المؤرخ الجورجي الذي كان يرافق الحملة او كان على صله بها ، يشير الى انه قتل وفق تعاليم الياسا التي تحرم سقوط دم ابناء الاسرة المالكة على الارض ، فقد وضع في داخل شوال او سجاد وديس بالارجل او الخيل حتى قضى عليه ، انظر :

Howorth . of . cit . 3 . 128 .

ج٣ ص ١٢٨ نقلاً عن المؤرخ الجورجي . رحلة *Mai* ص ١٠٨ ، ابن شاكر ـ فوات الوفيات ج ١ ص ٤٩٦ ـ ٥٠٠ فى الحديث عن المستعصم .

جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

Avery : Ency . Br . 2 . Hulacu . p . 822

براون ج ٢ ص ٥٨٦ ، القرماني ص ١٨١ ، الصياد ص ١٧٣ ـ ١٧٦ . القزاز ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ .

(٢) أشار وصاف في تاريخه ج ١ ص ٢٦ الى ما اصابها من الخراب قوله : « انها أصبحت في سنة ٦٩٦ هـ عشر معشار ما كانت عليه أيام الخلافة ... » انظر ايضاً تاريخ ال جنكيز ص٨٣ ، ابن عبد الحق م١ مراصد الاطلاع ص١٦٣ في وصفه بغداد.

لسترنج ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشير فرنسيس ص ٢٩٤ .

من بناء ، بل وأمر باعادة ترميم بعض بنيانها » (١) .

واذا كانت الشواهد لا تساعدنا على تحـــديد مسؤولية هؤلاء في خراب بغداد (٢) فاننا نستطيع تحديد مسؤوليته في خلوها من السكان لما سفكه جنده من دمائهم ، ولعل الشيخ الكازروني (٣) خير من وصفها لنا بعد نكبتها على لسان قاضي تبريز الذي قدم لزيارتها بقوله : « وافيتها بلدة خالية وأمة جالية ، ودمنة حائلة ، ومحنة جاثمة ، وقصوراً خاوية ، وعراصاً باكية ، قد رحل عنها سكانها ، وباز عنها قطانها ، وتمزقوا في البلاد ، ونزلوا بكل واد ، وقصورها المشيدة مهدومة ، ونعماؤها مسلوبة معدومة ، موحشة لفقد قطانها ، باكية بلسان الحال على سكانها ».

* * *

(١) هيوار *Huart* . ترجمة المعارف الاسلامية م ٤ ـ بغداد ـ ص ١٤ـ١٥

حتي ـ تاريخ العرب ـ ص ٥٨٢ ـ ٥٨٣ .

ونقل هورث جـ٣ ص ١٢٨ عن المؤرخ الجورجي ، المحاورة التي دارت بين الخليفة وايلكانوين ، ويفهم منها ان اباقا بن هولاكو سيقوم بالاستقرار في بغـداد وتولي الحكم فيها .

(٢) لم يكن الخراب الذي أصبحت عليه بعد النكبة من مخلفات هولاكو فقط ، فقد كانت خربة قبل ان يفد اليها ، اذ انها كانت قد تعرضت في ايام الخلافة الأخيرة الى جملة ثورات من دجلة على تهاونها وإهمالها كان آخره فيضان ٦٥٣ هـ الذي هدم من دورها بموجب احصاء موثوق ما عـدده اثنى عشر الف وثلاثمائة ونيف وسبعين داراً وليس لدينا ما يشجع على قيام الخلافة باعمار هذا الخراب ، انظر الحوادث الجامعة ص ٣٠٤ . القزاز ص ٢٥٠ .

(٣) مقامه في قواعد بغداد ص ١٥ .

لم يكن سقوط بغداد وزوال الخلافة منها حدثاً عادياً لكي يمر بدون تأثير على الناس ، واذا كان البعض من المسلمين قد هان عليهم تحطيم أمل المسلمين في الخلافة ، بل وساهموا في تدعيم الحكم الوثني الذي أقيم بعدها (١) .

واذا كان اهل بغداد وغيرهم من المسلمين الذين استولى المغول على بلادهم قد اكرهوا على الرضوخ لهذا السلطان ؟ فان الرأي العام الاسلامي المتعلق بأهـــداب الخلافة ، والذي يعتبرها جزءاً متمماً لايمانه ، لم يهن عليه ذلك ، وبالتالي لم ينقطع أمله في محاولة اعادتها الى الحياة (٢) .

---

(١) اقصد اولئك الذين أعطوا الحكم الوثني صفة الشرعية واوجبوا طاعته على الناس وهم غيرمكرهين . وقد يدخل في باب الا كراه موقف العلماء بالمستنصرية الذين أفتوا بتفضيل السلطان الكافر العادل . انظر ابن الطقطقي ص ١٤ ـ ١٥ . اما النصير الطوسي فلم يكن مكرهاً عندما كتب خطابه الى بغـداد عام ٦٦١ هـ يزكي الدولة القاهرة الايلخانية ويشيد بفتوحاتها ويخيف الناس عن معارضتها . راجع مجمع الآداب جـ ٤ ق ٣ ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧ .

(٢) تجلى رد الفعل لسقوط الخلافة في صور مختلفة ، ففي ميدان الأدب والشعر نجد العدد من الكلمات والقصائد التي أصبحت مراثي تنشد في المناسبات . اما امراء المسلمين فلم يستطع بعضهم السكوت على ذلك وهذا البدليسي في الشرفنامة ص ٤٧-٤٨ يشير الى موقف اتابك لورستان الذي شارك في فتح بغداد ثم استنكر مقتل الخليفة وهرب من المعسكر بعد انكشاف امره فلحقت به جنود هولاكو وقتلوه .

ويشير الجوزجاني في الطبقات ص ٣٢٤ ـ ٣٣٥ . الى موقف الكامل الأيوبي صاحب ميافارقين من رفضه امداد هولاكو ومحاولته نجدة الخليفة . كما يشير ايضاً الى ـ

وتعددت تأثيرات سقوط الخلافة وتنوعت صوره بحكم عمق الخلافة في مشاعر الناس ومكانتها في نفوسهم ، ويمكن اجمال ذلك فى الملاحظات التالية .

أولا : ـ كانت الخلافة تمثل السلطان الروحي الذي يجمع ولاء المسلمين ويشد بعضهم الي بعض . وقد تطورت طاعة المسلمين للخليفة طيلة القرون الخمسة التي عاشتها الخلافة العباسية حتى أصبحت جزءاً متمماً لمعتقدهم . لذلك جاءت ضربة المغول لهذا السلطان انتقاصاً لهذه المعتقدات ، واساءة لمشاعر المسلمين الدينية .

ففي البلاد التي نكبت بالاحتلال المغولي لاسيما بغداد ، أرغم الناس على تقديم الولاء للحاكم الوثني بدلا من إمام المسلمين ، لكن الشعور الديني لم يضعف ، ان لم يكن قد اشتد الدفاع عن وجوده ، وظل يجاهد في صفوف المغول (١) حتى تحقق له بعض النصر باعتناق الايلخان المغولي الثالث احمد تكودار الاسلام بعد اقل من ثلاثين

ـ موقف بركة خان بن جوجي الذي كان قد اعتنق الاسلام وكيف انه استنكر مقتل الخليفة فقتل رسل هولاكو الذين حملوا الخبر اليه وأعلن خصومته لهولاكو . انظر ص ٣٣١ . وأخيراً يروي الصفدي في الوافي بالوفيات م ٤ ق ٢ الورقة ٢٤١ ، صورة لحنين الناس الى الخلافة في حديثه عن وفاة السيدة خديجة بنت المستعصم سنة ٦٧٦ ه وكيف تذكر الناس ايام والدها وبكوا وكثرت النوائح والنوادب ورفعت الطرحات وجلس صاحب الديوان للعزاء على الارض .

(١) شرح ارنولد *Arnold* في ترجمة كتابه الدعوة الى الاسلام صورا عديدة من المشاق التي عاناها الدعاة المسلمون لتحويل المغول عن الوثنية وما لقوه من كيد المسيحيين في ذلك . ص ٢٥٤ ـ ٢٥٨ .

سنة من سقوط بغداد (١) .

لكن النصر الحقيقي للاسلام على الوثنية كان عند اعتناق الايلخان السابع غازان محمود الاسلام بعد عشر سنوات من سابقه ، واعتباره الديانة الرسمية للدولة (٢).

اما في البلاد الاخرى التي نجت من النكبة ، فقد كان ألمها لزوال الخلافة شديداً وسعيها لاحيائها مستمراً . ومهما يقال عن الدوافع التي دفعت الظاهر بيبرس للقيام بذلك ، فان عودتها في شخص الامام ابي القاسم احمد المستنصر بالله الاسود بن الظاهر بأمر الله العباسي ، وابن عمه من بعده ابي العباس احمد بن ابي علي الحسن القبي من احفاد المسترشد بالله الذي لقب بالحاكم بأمر الله ، بعد سنتين من زوالها كان تحقيقاً لرغبات الناس وإرضاء لشعورهم الديني في وجوب وجودها .

وليس أدل على ذلك من الاحتفالات التي اقيمت عند وصولهم ، واثبات نسبهم واعلان بيعتهم على الناس (٣) .

---

(١) ارنولد ص ٢٦٠ ، مصطفى بدر مغول ايران ص ١٢ على اننا لا يجب ان ننسى ان بركه خان كان قد سبقه الى الاسلام وكان بذلك اول أمير مغولي . ودفعه اسلامه الى مخاصمة ابن عمه هولاكو . انظر في ذلك ابن فضل الله ـ مسالك الأبصار ـ ج ٢ ق ٢ الورقة ٢٢٤ ـ ٢٢٦ .

(٢) ارنولد ص ٢٦٣ ، مغول ايران ص ١٤ .

(٣) ذيل الروضتين ص ٢١٣ ـ ٢١٦ ، اليونيني ج ١ ص ٤٤١ ـ ٤٤٨ ، ابن واصل م ٢ الورقة ٤١٠ ـ ٤١١ .

ابن حجر ـ اتحاف اخوان الصفا الورقة ١٢٥ ، ابن دقماق ـ الجوهر الثمين الورقة ٧١ ـ ٧٤ ، الصياد ص ١٨٧ ـ السيوطي ـ حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٤ ، ـ

على ان الخلافة بوضعها الجديد لم تستعد قوتها الروحية بالقدر الذي كانت عليه في بغداد كما انها كانت تفقد وجودها شيئاً فشيئاً بحكم غلبة السياسة عليها حتى أصبح الناس بعد لا يحسون بوجودها .

ثانياً : — كانت خسارة الحضارة العربية الاسلامية بسقوط بغداد لا تعوض ، فقد اعتبر السقوط نهاية لعصر ازدهار التراث الحضاري الانساني الذي انتجته عقول المفكرين المسلمين في مختلف نواحي الفكر ، والذي كانت بغداد مركزاً رئيسياً له باعتبارها قاعدة الخلافة ، ومجمع العلماء ومقصد الطلاب .

ولم يقتصر ضرر هذه الخسارة على المجتمع الاسلامي الذي نكب بالحكم الأجنبي ففقد حرية التفكير وقوة الابداع ، وعجز عن الاتيان بالشيء الجديد ، فعاش في في ظلام فكري طيلة القرون اللاحقة حتى مطلع القرن الحالي .

وانما تحسس بهذه الخسارة علماء اوربا ومفكروها ايضاً ، فهذا ارنولد *Arnold* يبين ذلك بقوله (١) : « ولم تتعرض الحضارة الاسلامية الى تخريب مثل الذي وقع عليها من قبل المغول ، فقد تحولت المراكز الاسلامية العظيمة مثل بخارى وسمرقند وهرات الى مجرد اكوام من الخراب ... » .

وهذا برون *Browne* (٢) يؤكد ذلك بقوله : « اما الخسارة التي اصابت

— ٤٧ — ٤٨ ، *Muir . thecaliphate . p . 593 - 594* سرور — دولة الظاهر بيرس في مصر ص ٥٠ — ٦١ . الخربوطلي — مصر العربية الاسلامية ص ٢٩٣-٢٩٤ .

(١) *(1) MuslimCivilizationduringthe Abbasidperiod .*
C . M . H . 4 . p . 279 .
انظر ايضاً تاريخ بخارى ص ١٨٠ في حديثه عن سمرقند وبخارى .

(٢) تاريخ الأدب في ايران ج ٢ ص ٤٨٦ .

الحركة العلمية الاسلامية فلا يمكن وصفها مهما اعملنا في ذلك ضروب الفكر والخيال . ثم يعدد اوجه الخسارة في ضياع الكتب القيمة او تلفها ، وهلكه رجال العلم ، وتشرد من بقي منهم ثم يقول ان الدراسة الصحيحة والبحث العلمي الذي امتازت بهما من قبل دراسة الآداب العربية . لم تقم لهما قائمة بعد هذه الكارثة .. » .

وتجلى هذا الضياع في مختلف وسائل الثقافة والفكر . ففي خلال الفوضى التي رافقت الاحتلال المغولي ، وما نشأ عنها من حرق وتدمير ، عدمت كثير من المؤلفات العلمية التي نقرأ عن اسمائها الآن ونحس بالحاجة اليها (١) .

كما ابتلعت امواج دجلة العدد الكبير منها حتى قيل ان لون مائه (٢) قد تغير والقليل الذي حفظ بعد الوقعة ، هو ما بيع لأهل الحلة والكوفة والمسيب الذين كانوا يجلبون الأطعمة الى بغداد ويبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة بأوهى قيمة (٣) .

(١) ابن رجب ج ٢ ذيل طبقات الحنابلة ص ٢٩٠ - ٢٩٤ في الحديث عن عبد الصمد بن ابي الحبش البغدادي . ابن حجر ج ٣ الدرر الكامنة . ص ١١٩-١٢٩ . المخزومي - صحاح الاخبار ص ٩٠ - ٩١ . زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١١٠ - ١١١ ، ١١٣ .

(٢) الصدفي ج ٢ ص ٢٨٢ . المارديني - تنزه العباد في مدينة بغداد ص ٤٢ .

(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٣١ . ومن المحتمل ان هذه الكتب التي اشتراها هؤلاء قد بيعت لنصير الدين الطوسي او وكلائه في هذه المدن ، ثم نقلت الى المكتبة الكبيرة التي أنشأها في مراغه والتي ضمت زيادة على (٤٠٠ الف) مجلد ، يقول عنها ابو المحاسن م ٣ في المنهل الصافي - الورقة ٢٦٥ - ٢٦٦ ، انها نهبت من بغداد والشام والجزيرة .

وينقل جرجي زيدان (١) حكاية عن السيوطي الذي بعد ان ذكر حكاية الصاحب بن عباد وحاجته الى ستين جملا لحمل كتب اللغة عليها عند زيارته لبعض الملوك قال : وقد ذهبت الكتب في الفتنة الكائنة بين التتر وغيرهم حيث ان الكتب الموجودة الآن في اللغة من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لا تجيء حمل جمل واحد .

وبالرغم مما في هذا القول من مبالغة فانه يدل في نفس الوقت على عظم الخسارة التي فقدها العلم من مؤلفاته .

ولم تعف مجزرة بغداد عن العلماء والفقهاء بل ان الذين خرجوا ايضاً بأمان هولاكو صحبة الخليفة الى معسكره سيقوا الى الذبح كالأغنام حتى أصبحت بغداد كما يقول السخاوي (٢) ، لم يبق فيها من يعرف شيئاً من العلم .

وينقل ابن رجب (٣) في حديثه عن الجوسقي البغدادي قوله : قال عبدالرزاق ابن الفوطي : سمعت شيخنا الامام أبا حامد بن المطرزي لما قدم من بغداد الى مراغة وقد سئل عمن بقي ببغداد من الأئمة ؟ ؟ . فقال : لم أعرف بها فاضلا فقيهاً عالماً بالاصول والفروع غير تقي الدين الجوسقي .

ذلك ان الذي نجا من هذه المذابح لم يستطع البقاء بين الاطلال ، فهاجر فراراً بدينه وعلمه الى البلاد المجاورة ، فاستقر بعضهم بالشام وبعضهم بالقاهرة ، ووصلوا

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١١٤ .

(٢) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ١٣٩ في الحديث عن بغداد ، انظر ايضاً ص ١٤١ في الحديث عن همدان ونيسابور .

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ج ٢ ص ٣١١ - ٣١٢ .

بذلك ما انقطع ببغداد وحفظوا لنا بقية من علم قديم (١) .

وكادت اللغة العربية ان يصيبها من الضياع والنسيان ما أصاب مؤلفاتها ، لولا ان حفظت مدارس الشام والقاهرة بقية لسانها (٢) ، فهي لغة القرآن ولسان الايمان الذي لا يكتمل بغيره ، وقد سبقت عناية الله سبحانه وتعالى بحفظه .

ثالثاً : ـ اصيبت الحياة الاقتصادية على اختلاف فروعها بالشلل التام ، بحكم حالة القلق التي كان يعاني منها الناس طيلة فترة الغزو المغولي . الذي نجمت عنه مجاعة شملت وادي الرافدين وسورية وبلاد الروم ، ولم يصب المغول الجوع . الذين كانوا يعمدون الى احراق الحبوب والغلال التي تزيد عن حاجتهم (٣) .

وكان حدوث هذه المجاعة امراً طبيعياً في العراق ، اذا تذكرنا الظروف التي سبقت سقوط بغداد ، من هجرة الناس من قراهم ومزارعهم الواقعة شرقي بغداد قبل اكثر من عشرين سنة من سقوطها بسبب تعرضهم لهجات المغول المستمرة (٤) .

---

(١) ابن شاكر ـ عيون التواريخ ـ الورقة ١٥٨ ـ ١٥٩ في حديثه عن السامري سيف الدين ابن العباس . ابن رجب ج ٢ ص ٣٨٧ ـ ٤٠٨ في حديثه عن الشيخ احمد عبدالحليم . لوي ص ٦٤٣ من *C.M.H.4* . زيدان ج٣ ص١١١ـ١١٢ .

(٢) بالرغم من ان السلطة السياسية في هذين البلدين كانت بيد المماليك الذين هم من الترك ، إلا ان آدابهم ولغة دواوينهم كانت عربية ، على ان مدارس المستنصرية والنظامية ببغداد ومدارس الموصل والبصرة والنجف قامت بدورها في الحفاظ على لغة القرآن بالرغم من غلبة رطانة الاعاجم على اسواقها وشوارعها ودواوينها .

(٣) براون ج ٢ ص ٥٦٠ نقلاً عن دوسون ج ١ ص ٣٥٠ .

Ency Br.15.Mongols p.717.

(٤) القزاز ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

ويحدثنا ابن فضل الله ان اقواماً بأكملها هاجرت من ديارها فراراً من المغول ، ولجأت الى بلاد الشام ومصر حيث توزعت ارجاءها واستقرت فيها (١) .

لقد ترك المغول بصماتهم في كل مكان حطوا فيه ، ويروى فامبرى عن دور جنكيزخان في ذلك انه في أقل من خمس سنوات من حملته انقطعت طرق المواصلات التى كانت تنقل التجارة من الصين والهند الى غربي اسيا ، واقفرت قراها ومدنها بسبب مقتل معظم سكانها او إلحاق الماهرين بخدمة الاسرة الحاكمة (٢) .

وتنطبق هذه الملاحظات على حفيده هولاكو وحملته ايضاً ، فان الطريق الذي سلكه للوصول الى بغداد قد اقفر من ساكنيه ، وتحولت مدنه وقراه الى خراب ، يشير الى ذلك حمد الله المستوفي في حديثه عن مدن خانقين ، وحلوان والخالص والنهروان فانها بقيت خراباً بالرغم من مرور اكثر من ثمانين سنة على سقوط بغداد(٣).

---

(١) مسالك الابصار جـ ٢ ق ٢ الورقة ٣٠٠-٣١٠ في حديثه عن اكراد شهرزور الصابوني ـ تكملة اكمال الاكمال ص ١٠٤ ـ ١٠٥ في حديثه عن كلمة الجوبي .

(٢) تاريخ بخارى ص ١٨٠ . *Osborn p. 374*

(٣) نزهة القلوب ص ٤٠ ، ٤١ ، ٤٦ . الترجمة الانكليزية له . ص ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ـ ٥٣ . لسترنج . بلدان الخلافة الشرقية ص ٨٥ .

وكذلك أشار ابن عبدالحق في مراصده م ١ ص ١٦٣ الى نفس الملاحظات في حديثه عن خلو بغداد من سكانها « فلم يبق منهم غير آحاد كانوا انموذجاً حسناً . وجاءها اهل البلاد فسكنوها ، وباد اهلها ، وهي الآن غير التي كانت ، وأهلها غير من عهدناهم والحكم لله » .

انظر ايضاً لسترنج ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية ـ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

ولعل في حديث الصدر مجد الدين بن الدوري عن الوضع الزراعي في العراق خير دليل على تأثير التخريب المغولي في وضعه الاقتصادي ، يقول ابن فضل الله (١) : ولقد سألته عن السبب في قلة الغلال لبلاد العراق مع امتداد سوادها وقبول أرضها للنبات ، فقال : لهذا سببان : قلة الزرع لما استهلكه القتل زمان هولاكو ، وميرة العراق لما جاوره من البلاد .

رابعاً : ـ كانت بغداد مركزاً للنشاط السياسي للعالم الاسلامي ، فمنها تصدر التقاليد والتشاريف التي تضفي الشرعية على حكم أمراء المسلمين ، واليها يلتجيء هؤلاء الامراء عند تعرضهم لاعتداءات المجاورين لكي تأخذ بأيديهم وترد عنهم بما ترسله من رسل وأوامر .

وبسقوطها فقد العالم وحدته السياسية ، وفقدت بغداد مكانتها في التوجيه والقيادة ، وتحولت الى مدينة ثانوية بالنسبة للحكم الجديد .

ويرى البعض أن سقوطها كان (٢) سبباً في اعادة التنظيم الكامل لسياسة العالم . فقد اوجدت حدود جديدة وتحالفات جديدة ومراكز جديدة للحكم ، وأصبحت القاهرة القبلة ، او المركز الجديد للاسلام .

وعرف نظام الحكم الذي ورث الخلافة ببغداد باسم الايلخاني نسبة الى اللقب

---

(١) مسالك الابصار ج ٢ ق ٢ الورقة ٢٧٨ .

(٢) *Loewe* .

وأرى ان القاهرة لم تستطع ان تلعب نفس الدور الذي كانت تقوم به بغداد بالرغم من احتضانها الخلافة الجديدة ، وتبنيها لحركة الجهاد ضد الغزو المغولي والصليبي معاً وذلك لأسباب عديدة اهمها ان الخلافة فيما كانت اقليمية اكثر منها اسلامية اممية ،

الذي اتخذه مؤسسه هولاكو لنفسه (١) .

وكان قيامه تحقيقاً للسياسة التي وضعها جنكيز والتي تتيح للأمير المغولي ان ان يمتلك من الاراضي ما يفتحه بنفسه .

على ان الملاحظ هنا ان هولاكو امتلك بعض البلاد والتي لم يقم بالاستيلاء عليها ، حيث شملت حدوده جميع البلاد الممتدة من جيحون والمحيط الهندي ، ومن السند الى الفرات مع جزء كبير من اسيا الصغرى وبعض اقاليم القوقاز (٢) بينما فشلت محاولاته للاستيلاء على الشام ومن ثم مصر لتحقيق وصية أخيه منكوخان (٣) .

وبالرغم من تمتع هولاكو بكل مظاهر الاستقلال في البلاد التي حكمها ، إلا انه من الناحية العملية كان نائباً عن أخيه الخاقان المقيم في قراقورم .

يدل على ذلك ما نقله هورث *Howorth* (٤) ، من صدور أمر (يرليغ) من قبل أخيه قبلاي خان بعد استقرار أمره في الخانية ، باسم هولاكو يجدد فيه

---

(١) سليمان الصائغ - تاريخ الموصل ج ١ ص ٢٣٤ ، حتى ج ٢ تاريخ العرب ص ٥٨٤ ، وهو يشرح في حاشيته معنى كلمة الايلخان بأنها لفظة تركية معناها سيد القبيلة ، وهو الزعيم الاقطاعي التابع للخاقان الذي كان يقيم في قراقورم .

(٢) بار تولد - ترجمة المعارف الاسلامية م ٣ - الايلخانية ص ٢٠٣ .

Loe . ص ٦٤٤ من *C. M H. 4*

(٣) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٣٤ .

Osborn p 389 .

(٤) تاريخ المغول ج ٣ ص ١٩٩ .

Avery : Ency . Br. 2 . Hulacu . p. 822.

سيادته وسلطانه على البلاد الممتدة من وراء النهر حتى حدود سورية ومصر ويضيف الى جيشه (٣٠ الف) شاب .

ويدل على ذلك ايضاً مشاركة الخاقان لهولاكو في السكة التي ضربت للتداول في البلاد الايلخانية ، وتعطينا كتب النقود نماذج عديدة لهذه المشاركة (١) .

وبموجب التقسيمات الادارية التي قام بها هولاكو ، والتي جعل من مدينة مراغة عاصمة له ، فقد أصبحت مدينة بغداد مركزاً لاحدى هذه الوحدات الادارية التي شملت ما يسمى بالعراق العربي (٢) .

وسوف نرى في التعليمات التي أصدرها هولاكو قبيل رحيله عن بغداد صورة لتنظيم الوضع الجديد فيها .

ولكن ، قبل ملاحظة هذه التعليمات ، أرى من الواجب التعليق على ما رواه براون من تأثير الغزو المغولي ، فهو (٣) : «يرى انه مهما قيل من غارة المغول ، وانها كانت كارثة كبرى أصابت صميم الحياة ، وانها جنت على العلوم والمعارف ، وخاصة الحضارة العربية التي استطاعت ان تحتفظ بكيانها سليما في ايران طيلة القرون الستة التي

---

(١) محمد مبارك ، مسكوكات قديمة اسلامية قتالوغي قسم ٣ ص ٨ – ٩ . قطعة رقم ٧ .

احمد ضيا . مسكوكات اسلامية تقويمي ص ٨٣ قطعة رقم ١٢٤٧ .

Lane.Poole: Catalogue of oriental Coins in the Br. Museum Vol. 4 the Coins of the mongols p. 8. N. 8.

(٢) *2) Minorsky. Ency of Isl. 3. Maracha. p. 265.*

هيوار . ترجمة المعارف الاسلامية م ٤ – بغداد – ص ١٤ – ١٥ .

(٣) تاريخ الادب في ايران ج ٢ ص ٥٦٣ .

تلت الفتح العربي لهذه البلاد ، فان هـذه الغارة كانت مجلبة لبعض عناصر الخير ، برغم ما عرف عنها من شدة وغلظة ، وربما كان من بعض فضائلها انها كانت سبباً في المزج بين الشعوب المختلفة المتباعدة ، مما نتج عنه فيما بعد تجديد العقليات التي طال ركودها وخمولها » .

وأرى ان الدراسة الهادئة الواعية لا تقودنا الى هذا التجديد الحضاري ، وقد يكون رأيه هذا مستمداً من واقع اوربا التي كانت تعيش في حالة إظلام وجهل ، فبزغت حضارتها على انقاض حضارتنا ، فيكون ذلك صحيحاً .

اما بالنسبة للحضارة العربية الاسلامية ، فلا أرى رأيه في ذلك للأسباب التالية :

أولا : ان هذا التجديد المزعوم قام على إبادة اكثر من تسعة اعشار سكان البلاد ولم يبق إلا أقل من العشر « كما يقول الجويني » وأرى ان القتل لا يمكن ان يكون أساساً للاصلاح بكل انواعه ، اللهم إلا اذا قبلنا بما تراه بعض النظريات السياسية الحديثة التي ينسب الى واضعيها شرعية إبادة ثلثي الناس لكي يصلح الثلث الثالث .

ثانياً : ـ ان المغول لم يكن لديهم حضارة لتكون بديلا للحضارة العربية الاسلامية ، بل انهم اعتمدوا عليها وهبطوا بمفاهيمها وقيمها ، الأمر الذي فرض عليها حالة من الركود والجمود لم تتخلف منه حتى مطلع هذا القرن .

ثالثاً : ـ ان مراكز الحضارة العربية الاسلامية كانت في حالة حيوية ونشاط ولم تكن جامدة . وقد فقدت حيويتها بعد الغزو المغولي .

وبراون نفسه يعترف « بأن الدراسة الصحيحة والبحث العلمي اللذين امتازت بهما من قبل دراسة الآداب العربية لم تقم لهما قائمة بعد هذه الكارثة » (١) .

(١) تاريخ الادب في ايران ج ٢ ص ٥٨٦ .

رابعاً : ـ لم يكن الشعب العربي ، او شعوب العالم الاسلامي ، يعيشون في عزلة عن العالم الخارجي لكي يصبح من فضائل المغول المزج بين الشعوب المتباعدة كما يقول ، فقد كان العالم الاسلامي يضم شعوباً عديدة جمعتهم وحدة الايمان ، منهم الترك الذين يمثلون متحضروا المغول بحكم وحدة الاصل .

ولم تكن هذه الشعوب منعزلة عن بعضها ، فقد فرض عليها طلب العلم التنقل من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، كما دفعتهم التجارة الى التنقل حتى داخل الصين والأقاليم النائية الاخرى .

وامتزجت شعوب اوربا بهم عندما قدمت تحت راية الصليب فمكثت في البلاد قريباً من قرنين من الزمن ، امتصت خلالها من الحضارة العربية اهم ما في حضارتهم الآن ألا وهو العلم والعمل .

كما انتقل العرب الى اوربا ونقلوا اليها سلماً عن طريق مدارسهم في صقليا اولا والأندلس ثانياً ، ما اعانهم على وضع الأساس لحضارتهم الحالية .

خامساً : ـ لم يضف المغول الى الحضارة شيئاً ، والقول في مدرسة مراغـة للرصد ، فانها تمثل امتداداً للوعي الحضاري الاسلامي ، وفضل هولاكو انه سهل او شجع النصير الطوسي للعمل على ازدهارها لما يعتقدونه من علم النجوم .

سادساً : ـ كانت هذه الحرب سبباً لوقوع البلاد الاسلامية وخاصة العربية تحت الحكم الأجنبي مما أفقدها حيويتها وقدرتها على العمل واستمر ذلك حتى مطلع القرن العشرين حيث بدأت تتخلف من وطأته .

الباب الثانى

نظم الحكم :

١ - النظام العباسي :

الايلخانات

أعوان الايلخانات ، النائب ، الوزير أو صاحب ديوان الممالك .

٢ - النظام الاداري

٣ - النظام الحربي

٤ - النظام المالي

الباب الثانى

نظم الحكم

عرف النظام الذي حل محل الخلافة العباسية في بغداد بالايلخاني . وكان قيامه وتطوره نتيجة طبيعية لاتصال المغول واحتكاكهم بالحضارات السائدة في البلاد التي استولوا عليها ، وأعني بذلك الحضارة العربية التي كانت تسود في البلاد الاسلامية بالدرجة الاولى ، والحضارة الصينية .

فقد كان المغول في هضبتهم يعيشون في حالة من البداوة تتحكم في علاقاتهم نظم الصحراء وحياتها القاسية ، وهذه النظم هي التي تطورت فيما بعد ونسبت الى جنكيز باسم الياسا .

وحالما بدأ اتصال المغول بالشعوب الاخرى بدأ اقتباسهم منها وتعلمهم ما لديها من نظم وأساليب ، فاستعان جنكيز بالايغوريين واتخذ له وزيراً منهم هو أحد علمائهم

الذي تولى نشر الكتابة الايغورية بينهم وتعليمها لأبنائهم (١) .

كما استعان بالمسلمين فجعل من محمود يلواج الخوارزمي وزيراً ثانياً له اوكل اليه تدبير ممالك تركستان وبلاد الخطا وما وراء النهر وخوارزم (٢) .

وكان حرص جنكيز على تطبيع المغول بحضارة الشعوب الخاضعة والاستئثار بخيراتها له ولشعوبه دافعاً إياه الى القيام بتهجير أصحاب الخبرات من أبناء البلاد المفتوحة الى قاعدة بلاده في هضبة منغوليا مما أدى الى بقاء البلاد المنكوبة خاوية خالية من السكان والعمران حتى أنه عند وصول ارغون اغا الذي عين لحكم خراسان سنة ٦٣٣ هـ الى مقر عمله كتب الى اوكتاي خان يصف له الحالة السيئة التي عليها هرات من الخراب والتدمير ، فتألم اوكتاي وأمر بارسال عز الدين رئيس النساجين مع عدد من أتباعه وعدد من اهل هرات الذين كانوا قد نقلوا منها بالعودة اليها وتعميرها (٣)

وسار الأبناء على نهج أبيهم في تحضير المغول واقتباس ما عند المسلمين ، يشير الى ذلك رشيد الدين فيقول ان اوكتاي خان عندما أعاد تخطيط مدينة قراقورم ، أمر ببنائها على غرار مدينة بغداد ، كما أمر أن يبنى للمسلمين الذين كانوا يعملون الصنائع والحرف موضع على مسافة يوم منها (٤) .

---

(١) موسوعة تاريخ العالم جـ ٣ ترجمة يوسف مجلي ص ٩٢٥ ، وكان اسم الوزير تاتانونجا .

(٢) ابن الفوطي تلخيص مجمع الآداب جـ ٤ ق ٣ ص ٣٩٨ في الحديث عن فخر الدين ابي القاسم محمود يلواج .

(٣) *3) Price . 3 . P 544 _ 545 .*

(٤) التاريخ الغازاني م ٣ الورقة ٥٩٠ ـ ٥٩٥ .

واستمروا يستعينون بخبرات المسلمين فى إدارة البلاد وخاصة في شؤونها المالية بينما اقتصر المغول انفسهم على اشغال المناصب العسكرية فيها .

وأتت عملية الامتزاج والاقتباس ثمارها بعد اكثر من ثلاثين سنة عندما تولى منكو الخانية ، حيث وصف الرحالة الاوربي ربركوي بلاطه وأثنى على جهازه الاداري وذكر أن المغول بدأوا يتعلمون درس الحكم (١) .

على أن الصورة الحضارية للمغول اصبحت اكثر تكاملا عندما أقام هولاكو نظامه الايلخاني على انقاض الخلافة العباسية ، حيث كان بلاطه نموذجاً لهذا التحول في العادات والتقاليد المغولية التي ذابت أمام التأثير التدريجي للحضارة العربية (٢) .

وبالرغم من هذا التحول في السلوك المغولي فاننا سوف نجـــد عند دراستنا لمكونات نظام الحكم الايلخاني ان المغول قلما مارسوا عملا فيه غير العمل العسكري بينما تركوا الاعمال الاخرى لمعلميهم من ابناء البلاد الاسلامية وخاصة الايرانيين .

اولا ـ النظام السياسي :

أشرنا فيما سبق الى قيام هولاكو بتأسيس الحكم الايلخاني .

واختلف المؤرخون في تحديد بدء ممارسة هولاكو لسلطانه السياسي باعتباره حاكماً على البلاد التي شملها هذا النظام ، وبالرغم من التقليد المغولي الذي يعطي الحق

---

(١) L.c ص ٦٤١ من C.M.H.4

(٢) ونفس الصورة تنطبق على بلاط قبلاي خان الذي كان يمثل نموذجاً لتأثير الحضارة الصينية على العادات والتقاليد المغولية . انظر C.M.H.4 . انظر أيضاً ليونيل جايلز في تاريخ العالم م ٦ مقال ـ الصين في عهد اسرة مينيج ص ٢٥٣ .

للفاتح أن يمتلك ما يفتحه بسيفه ، فان هولاكو لم يكن إلا قائداً لحملة ارسلها الخاقان المغولي نحو الغرب ، والذي كان اوصاه كما يقول « رشيد الدين » بالعودة الى مقره الاصلي حينما يفرغ من انجاز مهمته (١) .

يؤيد هذا ما اشار اليه مالكولم *Malcolm* (٢) من رغبه هولاكو في العودة الى منغوليا لولا ان الاحداث اضطرته الى الاستقرار في اذربيجان .

ويرى براون (٣) ان هولاكو مارس سلطانه كنائب للملك «الخاقان» في ايران وآسيا الصغرى ، بعد عبوره نهر جيحون في سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م . معتمداً في ذلك على السلطة المطلقة التي خوله إياها اخوه منكوخان .

ولكنني أري بالرغم من ذلك وبالرغم من وجود قطعة نحاسية مضروبة في سنجار سنة ٦٥٤ هـ (٤) ان ممارسة هولاكو لسلطانه السياسي تمت بعد عودته من

---

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٣٨ ، هورث *Howorth* وهو ينقل في ص ١٩٤ - ١٩٥ ايضاً من مذكرات الراهب الارميني « ملقيا » بعض الاحداث المغايرة ، حيث يشيران ان قواد الحملة كانوا سبعة اكبرهم هولاكو وان هؤلاء بعد فتح بغداد اخذوا يعملون لمصلحتهم في جمع الذهب والجواهر مما ادى الى خراب البلاد ، فكتب هولاكو الى اخيه الخاقان بهذا المعنى . فأجاب الخاقان بارسال مندوب عنه مزوداً بكل الصلاحيات ليقوم بتتويج هولاكو ومعاقبة من يخرج على طاعته ، ونفذ هذا الامر بعد قتل اثنين من الامراء المعارضين وهروب اثنين آخرين الى بركة خان .

(٢) *2) The. Hist. of Persia. - 1 - P.263 264. P. W. Avery*
Enc. Br. Hulacu. p. 822.

(٣) براون تاريخ الادب في ايران ج ٢ ترجمة الشواربي - ص ٥٦٦ .

(٤) مهاب درويش لطفي الالقاب على المسكوكات الايلخانية . مجلة سومر -

بغداد واستقراره في مراغة في اغسطس ١٢٥٨ م / شعبان ٦٥٦ هـ حيث انتهى من الاعمال العسكرية تقريباً وتفرغ لاستقبال الامراء المحليين الذين توافدوا لتقديم الطاعة ، كما باشر اعمار البلاد .

وأشرت في الفصل السابق الى انه بالرغم من تمتعه بالاستقلال التام في حكمه ، إلا انه كان من الناحية النظرية تابعاً لأخيه منكوخان ، وان اخاه قبلاي خان بعد انتصاره على منافسيه واستقراره في الخانية ، جدد ثقته بسلطان هولاكو واضاف اليه بعض الامتيازات (١) .

مراسيم التولية :

على أن هولاكو لم يتبع العرف السائد من قبل من حيث عقد القوريلتاي وإقامة الاحتفالات عند تولي أحد الزعماء مسؤولية السلطة ، ولعل السبب في ذلك يرجع الى حالة الاستعداد العسكري التي كانت تسود البلاد آنذاك ، والى ان هولاكو تلقى أمر تعيينه من الخان نفسه الذي كان ينفذ قرار القوريلتاي السابق ، يضاف

– م ٢١ ج ١ ، ٢ سنة ١٩٦٥ ص ١٦١ رقم سجل المتحف العراقي ٥٨٧٣ – ع . ولم يطلع براون على هذه القطعة النحاسية التي تكاد تكون الوحيدة من نوعها واعتقد ان هناك خطأ حدث في ضرب التاريخ على هذه القطعة اذ ان اللقب الايلخاني لهولاكو لم يتقرر قبل سنة ٦٥٧ هـ كما سنرى ، وامكانية وقوع الخطاط الذي قام بالنقش على العملات في الخطأ جائز كما يقول محمدباقر الحسيني في رسالته عن العملة الاسلامية في العهد الاتابكي ص ١٠٥–١٠٦ في مناقشته لبعض هذه الاخطاء التي حصلت في تواريخ الضرب.

(١) *Bretschnider, Vol - 1 - P. - 120 - 121' Vol. 2 · P · 10.*
Sykes . 2 . P . 98 .

الى ذلك أن المغول في هذا التاريخ كانوا لا يزالون كياناً سياسياً واحداً لم تتقسمه الأهواء والمطامع ، يدين بالطاعة للخاقان الذي يقيم في قراقورم .

واتخذ هولاكو من مدينة مراغة مركزاً لحكمه الجديد حيث قضى فيها معظم اوقاته ، واجتمع حوله فيها أرباب العلم والسياسة من علماء وأمراء (١) .

واستكمل سلطانه عندما اتخذ لنفسه لقباً يميزه عن سواه من الأمراء ويعين مكانته من مقام اخيه الخاقان كما يقول زيادة (٢) .

وتعددت الألقاب التي نسبت لهولاكو ، او التي اتخذها لنفسه . والغالب عليها هو لقب الايلخان الذي أصبح علماً مميزاً لحكم أسرته التي توارثت الحكم من بعده (٣).

---

(١) *Malcolm* . جـ ١ ص ٢٦٤ ، ابو الفداء – تقويم البلدان ص ٣٩٨ – ٣٩٩م في الحديث عن مراغـة . لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية : ص ١٩٩ في الحديث عن مراغة .

Minorsky : Enc' Isl · 3 . Maragha . P . 265 · Sykes . 2 . P . 98·

(٢) محمد مصطفى زيادة . حاشية السلوك للمقريزي جـ ١ ق ٢ ص ٥٤١ .

(٣) نفس حاشية المرجع السابق حيث يشرح لنا زيادة معناه بأن الخان التابع. انظر كذلك رأي حتي في تاريخ العرب جـ ٢ ص ٥٨٤ في الحاشية (١) من انها لفظة تركية معناها سيد القبيلة وهو زعيم اقطاعي تابع للخاقان الذي كان يقيم في قراقورم ثم انتقل الى بكين . انظر ايضاً : مسكوكات قديمة اسلامية قتالوغي ق ٣ ص ١٣ رقم ٩ ،

Lane . Poole·cataeogicofoisientaecoinsintheBr · Muscom Vol . 4 . P . 10 . No . 15 . ond . P . 14 . no . 30 .

انظر ايضا : مهاب درويش لطفي . الالقاب على المسكوكات الايلخانية . مجلة سومر م ٢١ جـ ١ ، ٢ سنة ١٩٦٥ م ص ١٥٨ – ١٥٩ ، ١٦١ .

اما الاخرى فهي لقب « شاهنشاه روي زمين » أي (سلطان العالم) على وجه الارض . (سلطان العالم) ولقب « مالك رقاب الامم » .

وليس لدينا من المراجع ما يساعدنا على تحديد واضح للفترة التي استعمل فيها هولاكو هذه الألقاب ، ولكن الثابت لدينا ان هولاكو لم يكن قد اتخذ لنفسه لقب الايلخان في شعبان ٦٥٧ هـ / تموز ١٢٥٩ م عندما فوض امارة الموصل للصالح اسماعيل بعد وفاة ابيه بدر الدين لولو (١) . فان النقود التي ضربت في الموصل سنة ٦٥٧ هـ بهذه المناسبة كانت تحمل على وجهها اسم « منكوقا آن الأعظم خداوند عالم بادشاه روي زمين منبرت عظمة » (٢) .

ويظهر لي ان هولاكو كان قد استعار لنفسه بعض اجزاء لقب اخيه واستخدمها في مراسلاته ، فان حسن الباشا يشير الى استخدام هولاكو للقب « شاهنشاه روي زمين » عند مكاتبته الملك الناصر صاحب حلب سنة ٥٦٧ هـ (٣) .

اما لقب « مالك رقاب الامم » فقد ورد في مسكوكات المتحف العراقي ضمن

---

(١) توفى بدر الدين لولو في ٣ شعبان ٦٥٧ هـ / يوليو ١٢٥٩ م . وقد اعتمدت في ذلك على ما ورد في ابن العبري ص ٢٧٩ وعلى ما نقله العزاوي ـ تاريخ العراق بين احتلالين جـ ١ ص ٢٢٧ عن تاريخ وفيات الأعيان في ترجمته لابن المشطوب .

(٢) بينما كانت تحمل على الظهر « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، محمـــد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ركن الدنيا والدين الملك الصالح اسماعيل » انظر الحسيني ـ العملة الاسلامية في العهد الأتابكي ص ٦٥ . ومعنى اللقب « صاحب العالم سلطان ما على وجه الأرض » .

(٣) حسن الباشا ـ الالقاب الاسلامية ص ٣٥٤ .

مجموعة منكو ، ومن المحتمل انه ينصرف في هذه الحالة الى الخاقان نفسه بالرغم من الاشارة الواردة في البحث الى وجوده على عملات هولاكو (١) .

وبدت العلاقة روتينية بين الأخوين الخاقان والايلخان في اول الامر ، حيث اتسمت بالتعاون بينهما لادارة هذه البلاد الواسعة ، كل فيما ورث او ملكت يداه مع طاعة تقليدية من الصغير لأخيه الكبير ، واشراك له فيما غنم من مال او متاع ، ولكن تطور الاحداث السياسية في قراقورم بعد وفاة الخاقان الفجائية (٢) ، والتنازع على الخانية بين الاخوة الورثة الطامعين فيها ، وحاجة كل منهم الى جمع الانصار وكسب التأييد ، طورت من مكانة هولاكو وسلطانه وجعلته اكثر تمكناً في مملكته كما فرضت الاحداث السياسية المحلية عليه ان يلتزم جانب أخيه الكبير قبلاي الذي صفت له الخانية بعد صراع مرير مع اخيه الاصغر ومنافسه اريق بوقا ، فقام - أي قبلاي - بعد استقرار اموره بتجديد ثقته بهولاكو واضاف له امتيازات اخرى (٣).

وعندما ودع هولاكو الحياة كانت مملكته قد استقرت ووضحت معالمها ، تجلى ذلك عندما تولى ابنه اباقا السلطان من بعده ، حيث استعادت المراسيم المغولية دورها

---

(١) الالقاب على المسكوكات الايلخانية - سومر م ٢١ ج ١ ، ٢ سنة ١٩٦٥ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) توفى منكوخان سنة ٦٥٨ و/ ١٢٥٩ م عند حصاره مدينة هوشو الصينية انظر تاريخ بخارى ص ١٩٠ Loe ص ٦٤٥ من C . M . H . 4 .
واقصد بالاحداث السياسية المحلية ، الحروب التي قامت بين بركة وهولاكو حيث انحاز بركة الى جانب اريق بوقا .

(٣) Howorth . 2 . P . 112 - 113 . Vol . 3 p . 199 ' 208

في التطبيق ، يحدثنا عن ذلك رشيد الدين (١) الذي يذكر ان اباقا كان في مقره الشتوي في مازندران بحكم مسؤوليته عن خراسان في أيام أبيه . وبموجب التقاليد المتبعة في مثل هذه الحالة ، فقد قطعت طرق المواصلات المؤدية الى العاصمة ، وأوقف المسافرون فيها لئلا ينتشر خبر الوفاة ، وأسرعت الرسل لاستدعائه فلبى ذلك مسرعاً.

وتعرضت تعاليم الياسا هنا لامتحان مرير ، فقد سعى يشموت ، الابن الاصغر لهولاكو الذي وصل قبل أخيه اباقا العاصمة ، سعى لاغراء الامراء باجلاسه على العرش بعد أبيه ، لكن سعيه خاب ، فنكص على عقبيه وعاد الى الدربند حيث كانت مسؤوليته (٢) .

وعند وصول اباقا في جمادى الاولى ٦٦٣ هـ / مارس ١٢٦٥ م . أقيمت مراسيم العزاء وتقبل التعازي من أبناء الاسرة وأمراء الدولة ، ثم عقد مجلس القوريلتاي في موضع چغان ناور الذي ضم جميع الخواتين والامراء الانجال والاصهار والامراء للنظر في أمر العرش الشاغر .

وروعيت التقاليد المغولية في جلسة القوريلتاي هذه حيث عرضت وصية الايلخان السابق بشأن ولاية العهد ، وقدمت التحف والطرائف التي كان هولاكو قد أوصى بها لابنه ، وبوشر باقامة الاحتفالات التقليدية في مثل هذا الأمر ، وكان اباقا كالعادة يرفض قبول التاج ويعرضه على أحد اخوته الذين كانوا يصرون عليه

---

(١) جامع التواريخ م٢ ق ٢ ص ٩ . خواندمير م ٣ ج ١ حبيب السير ص ٦٢
D' ohsson . 3 . p . 413 – 414 .

(٢) جامع التواريخ م ٢ ق ٢ ص ٩ *Howorth . 3 . p . 218 .*

باعتباره الابن الاكبر لهولاكو والقائم مقامه فيهم .

وهنا تتضح العلاقة مع الخاقان الذي يعتبر سيد الجميع وصاحب السلطة عليهم عندما اعلن اباقا بأنه لن يستطيع قبول التاج ما لم يسمح له بذلك قبلاي خان ، وتوجت هذه الاحتفالات بقيام نصير الدين الطوسي الفلكي باستقراء طالع اباقا واختيار اليوم الصالح لاجلاسه على العرش فكان يوم الجمعة الثالث من رمضان ٦٦٣ هـ / يونيو ١٢٦٥ م حيث انحنى الجميع على ركبهم أمام الايلخان الجديد (١) .

وكانت التقاليد تقضي ايضاً بقيام الايلخان الجديد بتوزيع الأموال والهدايا على جميع الحاضرين من ابناء الاسرة وخواتينها وأمراء الدولة وقوادها بعد الانتهاء من مراسيم التتويج .

وأصبح من التقاليد ايضاً الانعام على الملوك والأمراء والولاة او ممثليهم الذين كانوا قد حضروا للمشاركة في احتفالات التتويج لتقديم التهاني ، وقبول هداياهم وتلبية مطاليبهم ، وبالاضافة الى ذلك ارسال الرسل لحمل البشرى الى اطراف البلاد (٢) كذلك أصبح من التقاليد المرعية قيام الايلخان الجديد بعد الانتهاء من الاحتفالات بارسال وفد يحمل رغبة القوريلتاي الى الخاقان للحصول على موافقته الاسمية بتولية عرش الايلخانية بعد ابيه ، وأصبحت هـذه الموافقة ضرورية لاستكمال شرعية

---

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ١٠ – ١١ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٦٢ ، براون *Browone* ج ٣ ص ١٧ .

D,ohsson.3.P.413 414. Howorth.3 P.218 .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١١ – ١٢ .

Howorth.3.P.219.

جلوسه (١) .

وينفرد بارتولد بالقول بأن موافقة الخاقان قبلاي على تولية اباقا جاءت بعد خمس سنوات ، حيث قدم الرسل من لدنه يحملون القرمان بتولية عرش الايلخانية(٢).

وكان من واجب القوريلتاي ان يختار للمتوج اللقب بعد منحه العرش ، وأصبح لقب « الايلخان » هو اللقب الرسمي المتوارث والذي حمله اباقا ايضاً . يدل على ذلك مجموعات النقود التي ضربت في الموصل سنة ٣٦٣ ﻫ والتي تدل على اقتفاء اباقا اثر والده في تأكيد الطاعة للخاقان الذي كان اسمه منقوشاً على النقد مثلما كان في زمن هولاكو (٣) .

ومع تطور سلطان اباقا ورسوخ طاعته واستقرار أمره ، شرهت نفسه لمزيد من التفخيم والتعظيم فخلع على نفسه ألقاباً اخرى تناسب ما أحس به من غرور

(١) تاريخ مصاف م ١ ص ٥٢ - ٥٣ ، حمد الله القزويني .

(٢) بارتولد ترجمة المعارف الاسلامية م ١ - اباقا - ص ١٤ - ١٥ . بينما تشير أغلب المراجع الفارسية الى وصول الموافقة ولكنها لا تذكر تاريخ وصولها . وليس هناك من سبب مبرر لهذا التأخير .

(٣) انظر في ذلك محمد مبارك . مسكوكات قديمة اسلامية قتالوغي ق ٣ ص٢٤ قطعة رقم ٢٦ .

انظر ايضاً من مجموعة المتحف العراقي - في جدول المسكوكات الايلخانية - نقود اباقا رقم القطعة (٧٣٢ مس) مجلة سومر م ٢١ ج ١ و ٢ سنة ١٩٦٥ ص ١٦١ . وكانت صيغة اللقب المنقوش عليها هو : - « قاآن الأعظم اباقا ايلخان المعظم زيد عظمتها » .

واستعلاء ، ولعله أراد بذلك أن يقلد بعض الملوك التابعين لدولته والذين كانوا كلما ازداد ضعفهم ازدادوا في اضفاء الصفات والنعوت على اشخاصهم (١) .

فقد منح نفسه لقب « پادشاه عالم ايلخان المعظم اباقا » « ولقب مالك رقاب الامم » (٢) .

وقرر اباقا عندما تفرغ لممارسة السلطة بعد الانتهاء من احتفالات الجلوس ، اتخاذ تبريز عاصمة له بدلا من مراغة التي اتخذها ابوه ، وساعده استقرار الأوضاع وتوزيع المسؤوليات ، وطول فترة الحكم على اختيار مواطن للراحة يلجأ اليها في فصول السنة المختلفة ، فاتخـذ من مناطق الاتاغ وسياه كوه مصائف ينتقل اليها الاردو ـ المعسكر السلطاني ـ صيفاً . اما في الشتاء فاتخذ لذلك اران وبغداد (٣) .

---

(١) كما فعل ذلك سلاجقة الروم في النقوش التي تركوها على واجهة مدرســة بتاريخ ٦٧٠ ﻫ والتي ورد فيها « السلطان الاعظم شاهنشاه المعظم غياث الدنيا والدين كيخسرو الثالث ... » انظر في ذلك القسم الثالث من ماكس فامبرشم

Max Van Barehem. الجزء الاول ص ١٩ – ٢٠ رقم ٩ .

(٢) ولقب پادشاه ، فارسي الاستعمال ويعني « ملك العالم »

2) Lane - poole·4.P·23·N.57.

اما لقب شاهنشاه فمعناه سلطان العالم . او ملك الملوك . انظر ايضاً

R.Burn : ·Coinsofthe Ilrhanisofperio·P.834 in J·A·R·S· of.1933

مسكوكات قديمة اسلامية قتالوغي ق ٣ ص ٢٢ رقم ٢٤ • مسكوكات اسلامية تقويمي ص ٨٤ رقم ١٢٧٢ وجاء فيها لقب « قاآن الأعظم اباقا ايلخان المعظم » ولقب القاآن يطلق عادة على الرئيس الأعلى للمغول وهو المقيم في قراقورم .

(٣) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٢ . مينورسكي . ترجمة المعارف الاسلامية م ٤ تبريز ص ٥٤٤ .

ورسخت هذه التقاليد وأصبحت صفة مميزة لرسوم تولية الايلخانية فيمابعد .

وبالرغم من ان هذه الصورة لم تبق جامدة أمام تطور الحياة العامة للمغول من حولها ، وانما تأثرت بها وتفاعلت معها ، إلا ان الخطوط الرئيسية لهذه التقاليد بقيت في نفس الوقت تلعب دورها في حياتهم السياسية .

من ذلك ما تعرضت له تعاليم الياسا مثلا من مؤثرات . فقد كانت وفاة اباقا كما اعتقد بداية لتطور نظام الحكم الايلخاني وخضوعه لعوامل جديدة ظهرت تأثيراتها من خلال تعاليم الياسا التي أصبحت تفسر بشكل من المرونة بحيث تلائم متطلبات هذا التأثير ، وتلك نتيجة طبيعية كما أرى نظراً لتغاير الظروف التي أصبحت الآن تحيط بالحكم المغولي عنها في فترة خروجهم من بلادهم وقيام حكمهم في البلاد الاسلامية .

فقد أصبح الأمن والاستقرار الصفة الغالبة للحكم الجديد في معظم مناطقه ، وأدى الاستقرار الى الاستيطان والتأثر او الخضوع للمؤثرات المادية والروحية التي تسود ذلك المكان ، ونشأت العلاقات الاجتماعية والاقتصادية الى حد ما بين الحاكمين والمحكومين ، وأصبحت هذه العلاقات وما نشأ عنها من مصالح تشغل جانباً من اهتمام وتفكير الحاكم المغولي بعد ان كان فكره خالياً إلا من سيطرة قيم البداوة التي خرج من صحرائه يفرضها على الشعوب المغلوبة .

ومن ناحية اخرى فقد بدأت مصادر القوى تتغير في اطار الحكم الجديد ، فبعد أن كانت تقاليد الصحراء قد أعطت للزعيم المغولي من السلطات المطلقة ما مكنته من استعباد حتى أتباعه ، بدأت هذه القيم تضعف وتتفتت أمام الرياح الحضارية التي تعرضت لها في موطنها الجديد .

واذا كان هولاكو وابنه اباقا وما وصفا به من شخصية قوية قد استفادا من

حداثة عهد المغول بقيم الصحراء واستمرار طغيانها عليهم ، فاحتفظا بسلطانهما المطلق خلال مرحلة التحول هذه ' فان هذه المرحلة نفسها وما تخللها من احداث سياسية وعسكرية ، كانت المدرسة التي تعلم فيها امراء المغول وقوادهم فن الحكم ولذة ممارسته وبالتالي تجرؤا على الآخرين للحفاظ على منافعه وامتيازاته ' وسوف نرى دور هؤلاء الامراء في توجيه الحكم والتلاعب بمصائره تبعاً لمصالحهم وأهوائهم .

ويجب أن لا نغفل في هذه الفترة ايضاً ' اثر الانقسامات الدامية بين أبناء أسرة جنكيز نفسها وصراعهم على السلطة ، واثر ذلك في تشجيع هؤلاء الامراء على استغلال هذه الأحداث في التمكين لأنفسهم . فقد توفى اباقا وكان على القوريلتاي أن يقرر من سيخلفه من المتنافسين على العرش وفق تعاليم الياسا . وانقسم أمراء الاسرة وزعماء المغول من ورائهم تبعاً لهذه المنافسة الى ثلاثة (١) أقسام كل يسعى لتثبيت أحقية مرشحه بما يملك من وسائل .

وبالرغم من انطباق تعاليم الياسا على شرعية تولي تكودار العرش ، بحكم كبر سنه ووقوف عدد من اخوته بجانبه ، فان رضوخ ارغون وانسحابه من منافسته لم يكن نتيجة لقناعته بهذه الشرعية بقدر ما كان نتيجة لعــــدم وجود جيش معه

---

(١) تنافس على العرش اثنان من أبنـاء هولاكو هما تكودار ومنكوتيمور وزاحمهما عليه ارغون بن اباقا وبعـــد أقل من شهر من وفاة اباقا وصل خبر وفاة منكوتيمور ، فانحاز حزبه الى جانب ارغون . انظر رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٩١ - ٩٢ ، *BR* ج ٣ ص ٢٥ - ٢٦

D,*ohsson* . *3* • *P* . *550* .

يدعم باطله (١) .

ولكن تعاليم الياسا فشلت في اثبات وجودها عندما وضعت على المحك ثانية فقد تآمر الأمراء على تكودار وتخلصوا منه ، وكانت احكام الياسا تتفق وتولى هولاجو بن هولاكو العرش ولكن تهديد هؤلاء الامراء وخاصة بوقا امير الاويرات جعل العرش ينحدر الى اضعف المرشحين الثلاثة (٢) حجة ليكون من نصيب ارغون ابن اباقا . كما جعلت القوريلتاي الذي اجتمع لهذا الغرض والذي اقتصرت عضويته عضويته على خواتين الاسرة فقط (٣) ، ومن شايع ارغون من أمراء المغول ، جعلته يفسر هذه التعاليم بما يتفق وشرعية جلوس إرغون .

وأصبحت تعاليم الياسا بعد ذلك تفسر وفق مصلحة هؤلاء الأمراء الذين أصبح أبناء الاسرة الحاكمة تحت رحمتهم .

فقد اختلفت مصالحهم في اختيار خلف لارغون عند وفاته ، وفرضت القوة اختيار كيخاتو للعرش بعد أخيه ، ثم اختيار بايدو بعد مقتل كيخاتو ، ثم اختيار غازان بعد مقتل بايدو ، وكانت تعاليم الياسا خلال ذلك تفسر بعد كل تغير بما يتفق ومصلحة القوة الجديدة ، فقد برر قتلة كيخاتو عملهم بحرصهم الشديد على تعاليم

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٩١ - ٩٢ . الدواداري م ٩ ص ٢٠٧

Howorth.3.P.286 - 289.

(٢) كان التنافس هـذه المرة بين ثلاثة آخرين من أمراء الأسرة هم هولاجو وجوشكاب وارغون .

(٣) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٢٦

Howorth P.312 .

الياسا التي أهينت بتصرفات كيخاتو الذي عاش عيشة لا تليق بمقام الجالس على العرش والذي كثيراً ما خالف تعاليمها ، لذلك استحق الحرمان من الحقوق التي كان يتمتع بها (١) .

وكذلك فعل بايدو بعد قبوله العرش ، فانه وجه نداءً حمله الرسل الى اطراف البلاد ، جاء فيه « ان كيخاتو كان يكره مشاغل الحكم ، وانه عمل ضد تعاليم الياسا لذلك تقرر خلعه بالاتفاق مع كبار أمراء الاسرة وخواتينها ، وأمراء المغول الآخرين ، ثم دعا الناس الى المحافظة على الهدوء وإطاعة النظام » (٢) .

واستعادت الياسا احترام المغول لأحكامها في اواخر أيام الايلخانية وخاصة في اختيار اولجاتيو وابنه أبي سعيد ، وليس ذلك لأن المغول أحسوا بأهمية التمسك بهذه التعاليم ، بل لأن غازان خلال حكمه لم يبق على احد من امراء الاسرة (٣) ينافس أخاه اولجاتيو على العرش الذي تعهد بعد تتويجه بالمحافظة على تعاليم الياسا (٤) .

وكذلك كان الحال بالنسبة لابي سعيد الذي لم يكن قدجاوز سن الطفولة عندما تولاه . فقد خلا عهده من المنافسة لذلك جاء توليه متفقاً مع تعاليم الياسا .

* * *

(١) بارتولد ترجمة المعارف الاسلامية م ٣ ـ بايدو ـ ص ٣٢٥ .

(٢) 2) *Howorth* ·3 P·378.

(٣) استهلك غازان معظم أقربائه من الأمراء الأنجال ، ووقعت الخانية في مشكلة العثور على مرشح لها منهم بعد وفاة أبي سعيد حتى اضطروا الى اختيار النساء مثل ساتي ميك بنت اولجايتو . انظر هورث *Howorth* جـ ٣ ص ٦٣٤ ، ٦٤٢ - ٦٤٣ .

(٤) تاريخ وصاف م ٤ ص ٤٦٧ - ٤٧٢ .

ولم يقتصر هذا التطور على تعاليم الياسا فحسب ؛ بل شمل الالقاب الايلخانية ايضاً . فقد مر علينا ان القوريلتاي منح اباقا لقب الايلخان الذي كان هولاكو قد اتخذه لنفسه ، والذي أصبح اللقب الرسمي المتوارث لمن أتى بعدهما من الايلخانات هذا بالاضافة الى ما لاحظناه من اتخاذهما ألقاباً اخرى خاصة بهما .

وتعرض اللقب الرسمي المتوارث « الايلخان » الى المزاحمة في عهد تكودار الذي تشير المراجع الى انه اعتنق الاسلام بعد توليه مباشرة ، وتلقب بالسلطان احمد (١) . على أنني أرجح الرأي القائل بأن اعتناقه كان سابقاً لتوليه ، وانه كان قد تسمى بأحمد (٢) .

اما لقب السلطان الذي أشارت اليه جميع المراجع تقريباً ، فيظهر لي انه لم يكن مما تعارف عليه المغول في هذا الوقت ، وانه خوطب به فقط من قبل السلطان المملوكي قلاون باعتباره حاكماً مسلماً وذلك في جوابه على رسالة تكودار التي كان قد أرسلها

---

(١) ابن خلدون ج ٥ - ص ٥٤٦ ، بارتولد ترجمة المعارف الاسلامية م ٥ - تكودار - ص ٤٤٣ .

D'nerbelot· Bibliothequeoriental. P.67·

(٢) انظر زيادة حاشية السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٠٧ . اما اسم احمد فينسب الى طائفة الدراويش الاحمدية التي كان قد خالطها واعتنق الاسلام على يد بعض شيوخها . الذهبي - تاريخ الاسلام الورقة ٢٤ وفيات سنة ٦٨٣ وجاءت اشارة رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٩٢ الى هذا المعنى مقتضبة حيث يقول : « ولما كان معتنقاً الاسلام فقد لقب بالسلطان احمد » .

له بتاريخ اواسط جمادى الاولى ٦٨١ هـ (١) .

يؤيد هذا ان كتب النقود لا تشير الى وجوده على السكة ، وعلى قلة ما لدينا من نقوده فانها لا تحمل سوى لقب الايلخان المتوارث (٢) .

واكتفى ارغون بلقب الايلخان الذي منحه له القوريلتاي والذي جاءت نقوده لا تحمل سواه واعتقد ان كيخاتو وبايدو توارثا اللقب ايضاً بالرغم من غلبة الكتابة الايغورية او المغولية على ما لدينا من نقودها القليلة ، وبالرغم من غلبة اللقب الذي منحه الكهنة Bakhshis وهو « ايرنجين دورجي » لكيخاتو الذي وجد على نقوده (٣) .

وجاء التحول في الالقاب بشكل واضح في عهد غازان الذي منحه القوريلتاي لقب السلطان بالاضافة الى استخدامه اللقب التقليدي الايلخان ، فجاءت نقوده تحمل لقب السلطان المعظم ايلخان الاعظم (٤) .

على أن لقب السلطان كان غالباً على اكثر نقوده ، ولما كان غازان قد اعتنق الاسلام ، فيبدو انه تشبه بأمراء المسلمين وملوكهم في كثرة اتخاذ الالقاب التي

(١) انظر صور الرسائل المتبادلة مع السلطان قلاون في تشريف الأيام والعصور ص ٦ – ١٦ . انظر ايضاً ملاحق البحث – مراسلات المغول مع المماليك .

(٢) مسكوكات اسلامية تقويمي ص ٨٥ رقم ١٣٠٥

Lane Poole - 4.P.24.N'59.

(٣) مسكوكات قتالوغي ق ٣ ص ٣٧ رقم ٣٥

Howorth.3 P 357.

(٤) *Lane - poole.X.p.101.N 120 K*

وورد من ألقابه ايضاً في قطعة اخرى لقب غازان قاآن محمود .

تشير معانيها الى التفخيم والتعظيم ، فقد ورد لقب السلطان مضافاً الى الاسلام مرة والى الپادشاه (١) اخرى .

واختفى لقب الايلخان من الاستعمال نهائياً في عهد أخيه اولجايتو الذي جمع في نقوده بين لقبيه الاسلامي خدا بنده « أي عبدالله » الذي اتخذه لنفسه بعد هدايته الى الاسلام ، والذي غلب على نقوده فى الفترة الاولى من توليه (٢) وبين لقبه الرسمي الجايتو « أي المبارك » الذي منحه له القوريلتاي كما يشير الى ذلك حديث رشيد الدين الذى كان أحد من اقترحه خلال اجتماع القوريلتاي (٣) ، بالاضافة الى لقب السلطان الذي أصبح اللقب التقليدي المميز للايلخانات المسلمين .

واقتدى اولجايتو بما تعارف عليه امراء المسلمين وملوكهم من اضفاء النعوت وآيات التعظيم على انفسهم ، وجاءت نقوده تحمل الكثير من هذه الصفات منها ما ورد

---

(١) مسكوكات قتالوغي ق ٣ ص ٥٠ رقم ٥٨ . انظر ايضاً مجلة سومر م ٢١ ج ١ ، ٢ سنة ١٩٦٥ ص ١٦١ جدول النقود الايلخانية . نقود غازان . رقم ٥٨٥٣ مس . انظر ايضاً .

Burn:Coinsoftheglkhanisofpersia·J R·As·1933 p 836·N.12 .

وجاءت نقود اخرى تحمل لقب پادشاه اسلام شاهنشاه .

Lane – poole·X·p.98·N.102 K .

(٢) وجاء لقبه فيها « السلطان الاعظم غياث الدنيا والدين خدابنده محمد » انظر في ذلك مسكوكات قتالوغي ق ٣ ص ٦٤ رقم ٨٤

Lane - poole.4·P.46.N.129.

Miles : thenumismatic Hist.ofrayy.P.218.N.353 .

(٣) مقدمة كاترمير لجامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ١٩ .

كنموذج لذلك يصوره « المولى السلطان الاعظم مالك رقاب الامم اولجايتو سلطان غياث الدنيا والدين خلد الله ملكه » (١) .

ولم يكتف اولجايتو بميدان النقود لاشباع رغبته في الالقاب والصفات ، بل لجأ الى النقود والكتابات على واجهات العمائر والربط والمدارس والمساجد وغيرها متشبهاً في ذلك بمن سبقه من أمراء المسلمين .

وينقل لنا كومبيه *Combe* نموذجاً من هذه القوائم الطويلة من الالقاب المنقوشة على واجهة عمارة في مدينة بسطام سنه ٧١٣ هـ وجاء فيها « دولة السلطان الاعظم شاهنشاه المعظم سلطان سلاطين العرب والعجم ، سلطان ارض الله ، ناصر دين الله ، حافظ بلاد الله علاء الدنيا والدين ، غياث الاسلام والمسلمين ، أعدل الملوك والسلاطين ، اسكندر الثاني ، خسرو ايران ، سلطان اولجايتو ، محمد خدا بنده خان ، خلد الله ملكه ما دامت السماوات والارضين » (٢) .

واقتفى ابو سعيد أثر والده في منح نفسه ما شاء من الالقاب التي اتخذ لها من النقود وواجهات العمائر ميداناً لابرازها . على اننا نلمس في معانيها تطوراً مع مرور الزمن بحكم نموه عمراً وعقلا وإدراكا لمعاني الاشياء . وأصبح لقب السلطان هو المعول عليه في جميع النقود ، يضاف اليه بين آونة واخرى ما يحس به ابو سعيد من

---

(١) مسكوكات قتالوغي ق ٣ ص ٦٩ - ٧٠ رقم ١٠٢

Lane - Poole.4 P.44 N.126.

سومر م ٢١ ج ١ ، ٢ سنة ١٩٦٥ نقود اولجايتو ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) *Repertoire Chronologique D'épigraphie Arabe.*

Tom 14 P.80 N.5328.

وجوب التعبير عنه بواسطة النقش على النقود وغيرها ما دام هو غير قادر على تحقيقه فعلا ، لذلك جاء تسلسل الصفات التي نسبها الى نفسه في هذه الاضافات تعبيراً عن هذه النزعات المكبوتة (١) .

وامتد التطور حتى الى بعض مراسيم التتويج التي تعارفوا عليها مثل انحنائهم أمام المرشح بعد إجلاسه على العرش تسع مرات اظهاراً لطاعتهم وخضوعهم ، ولكن « ابرو » (٢) ينقل لنا في احتفالات ابي سعيد ان الحاضرين فى اجتماع القوريلتاي ، بعد أن رفعوا قلانسهم وألقوا الاحزمة عن رقابهم ركعوا مائة مرة داخـــل الخيمة وخارجها .

التنظيمات الادارية :

وتفرغ هولاكو بعـد انتهائه من احتلال بغداد ، تفرغ لتنظيم البلاد التي أصبحت تحت سلطانه ، وبدأ ذلك وهو على مشارف بغداد في معسكره الذي اقامه في قريتي « وقف وجلابية » (٣) .

ويشير رشيد الدين الى هذه التنظيمات بقوله : « وفى نفس اليوم الذي قتلوا فيه الخليفة ارسلوا الى المدينة مؤيد الدين بن العلقمي ليقوم بالوزارة ، وفخر الدين

(١) من ذلك السلطان الاعظم ، المولى ، علاء الدنيا بأكملها والدين ، بهادرخان العادل ، العالم العادل .

(٢) ذيل جامع التواريخ ص ٧٣ .

(٣) وتقعان علي طريق خراسان شرقي بغداد وتبعدان عنها مرحلة واحدة .

الدامغاني ليكون صاحب الديوان وجعلوا على بهادر شحنة لها »(١) وسوف نرى عند دراستنا لهذه الصورة من تنظيم بغداد ، محاولة هولاكو الاستعانة بجميع من بقي على قيد الحياة من موظفي الخلافة ، للاستفادة منهم ريثما يتكون لديه من الموظفين من يسد مسدهم .

وغادر هولاكو معسكره عائداً الى ايران حيث استقر في مراغة ، ويظهر أنه لم يستطع تنظيم بقية البلاد بنفس السرعة التي انتهى فيها من ولاية العراق وذلك بسبب حالة الفوضى التي عمت البلاد فى اعقاب الحرب ، فضلا عن ان هولاكو لم يكن قد انتهى من فرض سلطانه على البلاد التى خضعت له . فبلاد الشام كانت لا تزال مترددة فى تحقيق هذه الطاعة التى سبق ان اعلنتها بالرغم من وجود عدد من الشحنة لدى أمرائها . إذ ان هؤلاء الامراء كانوا يترددون بين الخوف من التمرد والاستحياء من الناس ان بقوا على الطاعة .

وكان اهم من طاعة الشام لدى هولاكو ، الخلاف الذي نشأ بينه وبين ابن عمه بركة خان الذي كان في ظاهره بسبب اسلام بركة وتحزبه للمسلمين أمام وثنية هولاكو وبطشه بالخلافة ، اما حقيقته فكان النزاع على ملكية بعض البلاد المشتركة التى لم تتضح ملكيتها لاحد منهما . وسوف ترى ان هذا النزاع استنفد الوقت الاكثر من

---

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٩٥ ، الحوادث الجامعة ص ٣٣١ ، ابن العبري ص ٢٧٢ .

والشحنة هنا هو أشبه ما نسميه بالحاكم العسكري الذي يتولى مسؤولية حفظ الامن الداخلي في البلاد وكانت هذه الوظيفة مقصورة على المغول عادة .

حياة هولاكو ، حتى انه توفي ولم ينته . لذلك جاء تفرغه لتنظيم البلاد متأخراً ، ومن ثم يربط برايس (١) ذلك بقوله : « وقبيل وفاة هولاكو عهد بشؤون الولايات ... » بينما حدد هورث (٢) هذا التنظيم بسنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م وحتى سنة وفاته ايضاً .

ومما يلاحظ في هذا التنظيم ، تطور اسلوب الحكم بالرغم من قصر المدة التى باشرها هولاكو .

فقد اعتمد هولاكو عند تنظيمه بغداد اسلوب الحكم المركزي ، يدل على ذلك ارتباط موظفيها به شخصياً ، فقد كان الوزير ، ومن ثم صاحب الديوان يفد اليه مصطحباً معه صدور البلاد ليعرض عليه أمامهم حالة البلاد وتطورها الاقتصادي والعمراني .

اما في الصورة الثانية التى سنعرض لها ، فان اسلوب الحكم أصبح لا مركزياً ، وهذا أمر طبيعي نظراً لسعة البلاد التى أصبحت تضمها مملكته ، وصعوبة السيطرة عليها من العاصمة ، على أن هولاكو استعان ، تفادياً لتمرد بعض أجزائها وضماناً لاستمرار طاعتها ، استعان بأبنائه ، فولاهم أقسامها ، بالاضافة الى استعانته ببعض المقربين اليه في ذلك .

وقسم هولاكو البلاد الى ست وحدات إدارية ، ففوض الحكم في ممالك العراق وخراسان ومازندران حتى فرضة (٣) جيحون الى الامير اقابا ، وأسند حكم اران

---

(١) برا *PR* جـ ٢ ص ٥٧٤ .

(٢) *Howorth* P. 205 .

(٣) فرضه جيحون : الفرضة هي الثغر . وفرضة جيحون هنا يقصد بها —

واذربيجان حتى شاطئ إراس الى الأمير يشموت ، وسلم للأمير تودان ديار بكر وديار ربيعة حتى شاطئ الفرات ، وأعطى معين الدين بروانة ممالك الروم ، كما ولى صدر الدين تبريز ، وأعطيت تركان خاتون كرمان ، وجعل الامير انكيانو على فارس (١) ، وكان أمره باجراء هذه التقسيمات في اواخر أيامه ، لذلك يمكن القول ان صورتها لم تكتمل إلا في عهد اباقا الذي استقرت احوال البلاد في عهده ، واخذت هذه التقسيمات شكلها الطبيعي ، وأصبحت اساساً للتنظيمات التي اجراها الايلخانات فيما بعد والذين كانوا يهتدون بالخطوط الرئيسية فيها .

ويلاحظ في هذه التقسيمات ، ان الوحدة الادارية ضمت اكثر من ولاية من الولايات التي كانت تنقسم اليها البلاد قبل الاحتلال المغولي ، من ذلك مثلا ان امارة خراسان في هذه التقسيمات ضمت ولايات خراسان ، ومازندران والعراق العجمي ، وكذلك القول في بقية الوحدات او الاقسام الاخرى .

ـ الجزء من الحدود الايلخانية المطل على نهر جيحون والذي يمثل خط الحدود مع مغول الجغتاي . انظر الخارطة الملحقة بآخر الرسالة . انظر ايضاً . مختار الصحاح للرازي ص ٤٩٨ مادة فرضة .

(١) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٣٣٨ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٥٩ - ٦٠ . برا *PR* ج ٢ ص ٥٧٤ - ٥٧٥ وهو يشير الى ان تودان هو ابن هولاكو . وبالرجوع الى قائمة ابناء هولاكو الاربعة عشر الذين دونهم رشيد الدين لانجده بينهم ، اما هورث *Howorth* ج ٣ ص ٢٠٥-٢٠٦ فيعلق على هذه التقسيمات ويذكر خطأ اعطاء كرمان الى تركان خاتون في الوقت الذي كانت محكومة من قبل اسرة براق الحاجب الذي ينتمي الى المقرة خطاي .

اما الوزارة :

فلم يكن المغول قد اتخذوا في هذه الفترة اسم الوزير وأطلقوه على الشخص الذي يقوم بالاشراف على ديوان البلاد ، بل كانوا يسمونه صاحب ديوان الممالك او صاحب الديوان (١) . وسوف ترى ان اتخاذ اسم الوزير جاء متأخراً .

ويظهر أن هولاكو كان يستعين بأكثر من واحد من المحيطين به للقيام بأعمال الوزارة . يذكر « الصفدي » وغيره من المؤرخين العرب ان نصير الدين الطوسي كان يعمل الوزارة لهولاكو من غير أن يدخل يده في الاموال (٢) .

ولكن عمل الوزارة كان اكثر التصاقاً بسيف الدين البتيكجي الذي يسميه رشيد الدين بالوزير الخاص ، والذي أساء التصرف خلال انشغال هولاكو بحروبه مع بركة خان ، فشكا منه البعض لهولاكو الذي أحاله الى محاكمة قضت باعدامه في محرم ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م (٣) . حينئذ فوض هولاكو منصب ديوان الممالك الى الصاحب شمس الدين محمد الجويني ، وأطلق يده وقواها في حل الامور وعقدها وترتيبها وضبطها (٤) .

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٣٩ ، ٣٤٦ ، مصطفى بدر ، ايران في عهد غازان ص ١٢٠ .

(٢) الصفدي ج ١ - الوافي بالوفيات ص ١٧٩ - ١٨٣ ، ابو المحاسن م ٣ - المنهل الصافي - الورقة ٢٦٥ ، سليمان الظاهر - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق م ٣٦ ج ٢ سنة ٩٦١ ص ٢٤١ - ٢٤٧ .

(٣) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٣٣٣ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٥٩ .

(٤) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٣٣٨ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٦٠ ، الحوادث -

اما قيادة الجيش :

فقد تولاها هولاكو بنفسه نظراً لحالة الحرب التي لا زالت قائمة ، وكان يستعين بأبنائه لقيادة الحملات الفرعية ، كما يستعين ببعض كبار أمراء المغول لمساعدتهم او الانفراد بقيادة بعض الجبهات الفرعية ، وسوف نرى تفصيل ذلك عند بحثنا اعماله العسكرية ، ونخلص من ذلك الى انه بالرغم من كثرة عدد الامراء النويان الذين توفروا له ، إلا ان احداً منهم لم يتميز على الآخرين بميزة تجعل له الامارة عليهم .

على أن رشيد الدين ينفرد بالقول فى حديثه عن تولية اباقا ، ان منصب امير الجيوش كان قد عهد به الى ايلكا نويان ، وان هذه الميزة له قد جعلته يتقدم لأباقا قبيل توليه العرش ويقدم له الطعام والشراب وينفرد به لكي يطلعه على حقيقة احوال أبيه عند وفاته (١) .

ويجب أن نلاحظ هنا ان الامراء الذين وزعوا على الوحدات الادارية السالفة الذكر لتولي مسؤولياتها ، كانوا اشبه بالحكام العسكريين لها ، اذ ان واجبهم كان مقصوراً على شؤون الدفاع وتأمين حماية البلاد بالاضافة الى مراقبة الامراء المحليين فيها وضمان طاعتهم للدولة .

ـ الجامعة ص ٣٣٩. وسوف نرى عند بحث الجهاز الاداري ودور علاء الدين عطا ملك ، ان شمس الدين تسلم مسؤوليته قبل هذا التاريخ.

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ١٠ .

اما الشئون المالية فيها :

فقد عهد بها الايلخان الى موظفين ماليين هم أشبه بالوزراء لهؤلاء الحكام .

ويلاحظ هنا ايضاً تعاون اكثر من موظف مالي ضمن حدود الوحدة الادارية الواحدة ، وبعبارة اوضح ، ان هؤلاء الموظفين الماليين تولوا مسؤولية الاشراف المالي ضمن حدود الولايات القديمة التي اصبحت تضمها الوحدة الادارية في شكلها الجديد ، من ذلك ان اباقا عهد بوزارة خراسان الى الخواجة عز الدين طاهر ، بينما قسم ولاية العراق العجمي بين بهاء الدين محمد بن صاحب الديوان الجويني الذي اعطاه منها منطقة اصفهان ومعظم العراق العجمي ، وأعطى بقية العراق العجمي وقزوين الى الملك افتخار الدين القزويني ، وكذلك القول في بقية الوحـدات التنظيمية الأخرى (١) .

وكما أشرت سابقاً فان هذه التنظيمات التي استقرت معالمها في عهد اباقا ، اصبحت قاعدة اهتدى بها الايلخانات اللاحقون .

ولـكن تطور الحياة السياسية للمغول ، وما رافق ذلك من انقسامات وفوضى دفع بعض الايلخانات الى اجراء بعض التعديلات فيها على ضوء حاجته او اجتهاده .

ويمكن القول من خلال هذه التغييرات ان الولايات ذات الأهمية الاستراتيجية، بقيت بعيدة عن هذه التغييرات من ذلك مثلا ولاية خراسان التي نشأت أهميتها من

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٢ ـ ١٣ ، دولتشاه السمرقندي ـ تذكرة الشعراء ص ١٠١ ـ ١٠٣ .

Howorth . 3 . P . 219 - 220

مواجهتها لحدود مغول ما وراء النهر ، فقد ظلت مسؤوليتها بيد أمراء الاسرة ، حتى أن معظم الايلخانات كانوا قد تولوا امارتها قبل توليهم الايلخانية ، فقد تولى مسؤوليتها اباقا ، ثم ارغونا ، ثم غازان ، ثم اولجايتو ، وأخيراً ابو سعيد .

وكذلك القول في ولاية بلاد الروم التي تضم امارة سلاجقة الروم ، فان اهميتها نشأت من مواجهتها لبعض حدود الدولة المملوكية في الشام ومصر .

وبدأت هذه التغييرات في عهد ارغون الذي تخطى تعاليم الياسا عند توليه العرش كما ذكرنا ، لذلك فانه كان حذراً عند توزيعه الامراء على الولايات ، فقد عمل على منع المشتبه في ولائهم له من الامراء من الانفراد بمسؤولية الولاية لئلا تتجمع في يده اسباب القوة ويكون بعيداً عن الرقباء ، ولتحقيق غرضه ، فقد أشرك في مسؤولية الولاية ، اكثر من امير من امراء الاسرة ، الامر الذي سبب البلبلة والفوضى كما اشار الى ذلك « وصاف » (١) .

فقد جمع بين الامراء بايدو وجوشكاب في ولايتي بغداد وديار بكر ، وجعل عليهما الامير اروق شريكاً في الحكم ورقيباً .

وجعل ولاية الروم مشاركة بين أخيه كيخاتو وعمه هولاجو ، وأرسل عمه الآخر آجاي الى كرجستان «جورجيا» ، اما خراسان ومازندران وقومس والري فقد عهد بها لابنه غازان ، وعين لمساعدته كلا من الامير كنشو ونوروز (٢) .

---

(١) وصاف م ٣ ص ٢٨٤

Howorth . 3 . P . 378 .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٢٨ ميرخوند ج ٥ ص ١١٦

D'*ohsson 4 .P.4 .* *Howorth . 3 . P . 313.*

اما كيخاتو فانه تصور أن اسباب الفوضى التي تعانيها البلاد والتي قاسى هو منها خلال توليه العرش ، راجعة لمشاركة امراء المغول وتدخلهم في شؤون الحكم ، فقرر ابعاد هؤلاء الامراء عن العمل الاداري ، وقصر مسؤولياتهم على الجيش فقط (١) ، على انه لم يكن قادراً على زحزحة امراء الاسرة واستبدالهم بآخرين من ذلك ان غازان كان يتولى مسؤولية خراسان ، وان بايدو كان يتولى مسؤولية ديار بكر وديار ربيعة فاضطر الى قبول وجودهما بعدئذ .

وكان اجتهاد بايدو بعد توليه العرش مغايراً لاجتهاد سلفه ، اذ انه اعتقد ان حرمان امراء المغول من ممارسة الحكم والتضييق عليهم كان سبباً لهذه الفوضى ، لذلك فانه رأى الاستعانة بهم وتوزيعهم على البلاد .

ورأى كذلك الاقتداء بسياسة عمه اباقا الذي كان قد اناط المسؤولية الادارية بواحد من الامراء فقط ، ليتجنب الخطأ الذي وقع به ارغون عندما اشرك في المسؤولية اكثر من امير كما أسلفنا . وكانت وصية بايدو لهؤلاء الامراء بعد أن فوضهم حرية التصرف بادارتها ، اوصاهم بالاهتمام بشؤون الرعية والعمل على ترقية البلاد (٢) .

وكذلك شمل التطور منصب قيادة الجيش . فبعد أن كانت الصفات الواجبة

---

(١) وصاف م ٣ ص ٢٦٥ ، ميرخوند جـ ٥ ص ١٢٣

Howorth . 3 . P . 368 .

(٢) وصاف م ٣ ص ٢٨٤

L'ohsson 4 . P . 115 - 118 .

Howorth . 3 . P . 378 .

توفرها فيمن يتولى امارة الجيوش هي الكفاءة والاخلاص وسابق الخدمة كما هو الحال في ايلكا نويان الذي اختاره هولاكو، وسونجاق نويان الذي اختاره اباقا، أصبحت العلامة الشخصية بين امراء الاسرة الطامعين او المتنافسين على العرش، وبين امراء المغول الذين يستطيعون تحقيق هذه الرغبات، هي الكفيلة بايصال هؤلاء الامراء الى اعلى المناصب في الجيش .

كما ان عمل امير الجيوش تطور ايضاً من الاشراف على تنظيم الجيش والعناية بأسبابه الى ممارسة العمل السياسي والتدخل في شؤون الايلخانية حتى أصبح يقوم بالنيابة عن الايلخان ويحجر عليه في بعض الأحيان كما هو الحال في علاقة الامير بوقا مع ارغون ، والامير نوروز مع غازان ، والامير چوبان مع ابي سعيد .

واستقر تطور منصب امير الجيوش اخيراً عندما تحولت القيادة الى هيئة ضمت كبار امراء الجيش توزعوا سلطاتها فيما بينهم وان ظلت منزلة اعضائها متفاوتة بالنسبة لأكبر هؤلاء القواد او اكثرهم قوة ، والذي احتفظ لنفسه برئاسة هذه الهيئة ، او بعبارة اخرى اصبح يتولى قيادة الجيش من الناحية الرسمية فقط . وبدأ هذا التطور في اواخر ايام ارغون ، ولكن معالمه اتضحت في زمن كيخاتو وبايدو حيث اصبحت القيادة تضم بين ثلاثة امراء او خمسة امراء ، وكذلك في عهد اولجايتو والايام الاولى لأبي سعيد . وسوف نرى تفصيل ذلك في حديثنا عن منصب نائب الايلخان .

وكذلك تعرض منصب صاحب ديوان الممالك ، او منصب الوزارة ، الى شيء من التطوير ايضاً عندما توسعت سلطاته حتى أصبح يهيمن على شؤون الدولة ويملك تصريف الامور فيها كما هو الحال في الوزير سعد الدولة اليهودي .

وكانت المشاركة في منصب الوزارة التي أحدثها غازان بين اكثر من وزير نموذجاً آخراً لهذا التطور الذي يكشف في نفس الوقت عن توسع اعمال الديوان وتعقدها .

ثم كانت محاولة توريث المنصب الوزاري الذي فعله ابو سعيد مع ابناء الوزير المتوفى عليشاه استمراراً لذلك مما سوف نراه مفصلا في الحديث عن منصب الوزارة .

***

الاحداث العسكرية الداخلية :

استولى هولاكو على معظم البلاد الاسلامية ، وخضع اهلها لسلطانه . اما لعجز عن مواجهة القوة التي زحف بها هولاكو فاستسلم لحكمها . واما لتخاذل بعض امراء البلاد أمام التهديد بالزحف فاستسلموا له قبل مواجهته ، واما طمعاً في وعوده .

وانكشفت لهؤلاء المتخاذلين بعد استقرار البلاد حقيقة الحكم المغولي الذي تحولوا في ظله الى مجرد عبيد لا يملكون من السلطان شيئاً ، فاستكان بعضهم على ذله ولم يحركوا ساكناً ، بينما أنف آخرون من ذلك وأخذوا يتدبرون الوسيلة التي تعيد لهم ما فقدوه ، لذلك يمكن القول ان عهد هولاكو لم يخل بالرغم من قسوته في الحكم وشدته على معارضيه ، من الثورات التي قام بها امثال هؤلاء الامراء الذين صحوا بعد غفلة ، واستيقظوا بعد سبات .

ويعتبر الكامل الايوبي صاحب ميافارقين اول هؤلاء الامراء الذين رفعوا علم الثورة على هولاكو وسوف نرى فيما بعد ان تمرده هذا كان من عوامل تراخي امراء الشام في استمرار طاعة المغول ومن عوامل الزحف المغولي نحو الشام بعدئذ .

وتمردت تفليس عاصمة جورجيا على الطاعة سنة ٦٥٧ هـ . فوجه هولاكو لها قائده الأمير ارغون اغا الذي تولى اخضاعها ، ولكن صاحبها الملك داود استغل انشغال هولاكو في حروبه مع بركة خان فتمرد ثانية سنة ٦٥٩ هـ ، فتخلى عنه اصحابه وصالحوا التتر الذين هاجموا البلاد كرة اخرى ، فاضطر داود الى الهرب والاحتماء عند بعض بني عمه من امراء البلاد ، ولكن هولاكو تقديراً منه للظروف التي تحيط به ، رأى ترضية الأمير الثائر وقبول اعتذاره وإعادته الى امارته (١) .

وعصت مدينة كابل على الحكم المغولي ، وطال تمردها قريباً من سنتين ، فوجه هولاكو سنة ٦٥٨ هـ قواته نحوها بقيادة ابنه يشموت وقائده ايلكانويان فقضيا على تمردها (٢) .

وكان تمرد الصالح اسماعيل في الموصل سنة ٦٥٩ هـ نتيجة طبيعية لمعركة عين جالوت ، وسوف نبحث تفاصيلها عند حديثنا عن امارة الموصل .

وقبيل وفاة هولاكو تمرد سلجوقشاه صاحب فارس وقضى على اعوان المغول ونوابهم في شيراز ووسع سلطانه حتى امتد الى حدود الخليج العربي ، وراسل السلطان المملوكي بيبرس لتنسيق التعاون معه ، ولكنه لم يستطع الصمود أمام القوات

---

(١) الدواداري م ٩ . الورقة ٢٤ ، العيني الورقة ٤٢٠ . ويعلق زيادة في حاشية المقريزي جـ١ ق٢ ص٥٣٧ ان بلاد الكرج دخلت في طاعة المغول سنة ٦٣٤هـ ، و ان هذا الملك بقي بعد عودته الى العرش يكيد لهولاكو عند الملك بركة خان تارة وعند الظاهر بيبرس اخرى .

(٢) مجمل فصيحي ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

المغولية وحلفائها والتي لاحقته حتى قضت عليه سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م (١) .

وبالرغم من ان صفة الاستقرار كانت الصق بعهد اباقا ، إلا ان عهده لم يخل من كثير من الأحداث الداخلية والاضطرابات ، بالاضافة الى الحروب الموروثة مع بني عمه المغول والمماليك .

فقد اضطر اباقا في اعقاب الحرب مع مغول القبچاق سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م الى بناء سد على وادي كُر في منطقة الدربند ليحول دون هجوم القبائل الشمالية التي كانت تنشر الخراب في البلاد ، كما ترك حامية عسكرية للحفاظ عليه وتحقيق اغراض بنائه (٢) .

وما ان استقر اباقا في عاصمته حتى أحس برائحة الغدر تفوح من احد بني عمه المدعو تكودار اغول بن موچي بن جغتاي الذي كان قد أنزله منزلة كبيرة في دولته فقد ضبط بعض مراسلاته مع مغول ما وراء النهر للقيام عليه ، وتأكد ذلك عندما رفض الحضور الى بلاطه عندما استدعاه فاضطر حينئذ الى سوق الجيش اليه وحصره بالتعاون مع جيوش الكرج في احدى الغابات ثم استسلامه بعد ذلك ، فأحضر أمام اباقا في ربيع ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م حيث عفا عنه بعد أن أخذ عليه بعض التعهدات (٣).

---

(١) Sykes ج ٢ ص ٩٨ .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٤ . ترجمة المعارف الاسلامية م ١ – اباقا – ص ١٤ – ١٥ .

(٣) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٢٣ – ٢٥ ، الدواداري م ٩ الورقة ١١٥-١١٦ ابن الفرات م ٧ . تاريخ الدول والملوك ص ٩ . برا BR ج ٣ ص ٢٥ .

وشجعت الحروب الطويلة التي انشغل بها اباقا مع بني عمه مغول ما وراء النهر وما نشأ عنها من فوضى ، شجعت بعض سكان بخارى والمدن المجاورة لها على استغلال هذه الحروب لصالحهم فأخذوا يمدون العدو بما يحتاج اليه من قوة ، فأمر اباقا بتأديبهم وتهجيرهم .

وقاوم اهل بخارى وخوارزم وكش ونخشب جيوش اباقا مدة طويلة حتي نفدت طاقتهم فاستسلموا للقتل والحرق والتهجير حتى لم يبق في بخارى احد من سكانها (١) .

واستغلت بقايا الاسماعيلية هذه الاضطرابات فأعادت تنظيم نفسها تحت قيادة أحد أبناء رئيسها السابق خورشاه ، ونجحت في الاستيلاء على قلعة الموت وغيرها وأعادت فرض سلطانها على الأطراف المجاورة ، فحاصرتهم جيوش اباقا ، واسترجعت منهم قلعة كردكوه سنة ٦٧٠ هـ بينما تأخر احتلال قلعة الموت والقضاء عليهم حتى سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م (٢) .

وفي خلال هذه الفترة بينما كان الايلخان قد خرج للصيد في منطقة اران ، اذ تعرض لهجوم بعض الاقوام المتمردة في شتاء ٦٧٤ هـ . ولكن حرسه استطاع

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٥٨ - ٦٠ ، تاريخ كزيدة ص ٥٨٢ ، ترجمته الانكليزية ص ١٤٣ وهو يذكر أن الشخص الذي قاد الثورة في بخارى اسمه تارابي . ترجمة المعارف الاسلامية م ٣ - بخارى - ص ٤١٢ .

Howorth . 3 . P . 247.

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٥٧ ، تاريخ كزيدة ص ٥٨٣ ، براون ج ٣ ص ٢٥ .

حمايته والدفاع عنه حتى وصلت القوات الاخرى التى استقدمت على عجل من البلاد المجاورة فأحاطت بالمتمردين حتى اضطروا الى الاستسلام وطلبوا الأمان من الايلخان فعفا عنهم (١) .

وقام صاحب الديوان شمس الدين الجويني بنصيبه في نشر الأمن والاستقرار عندما توجه الى بلاد الروم فى اعقاب معركة الايلستين فى ربيع ٦٧٦ هـ . لاعادة اعمار البلاد وتنظيم ادارتها ، فقاد الجيوش وطارد قطاع الطرق المنتشرين في البلاد وقضى عليهم ، وفي خلال عودته الى العاصمة سلك الطريق الجبلي المؤدي الى جبال البرز والـكرستان فاستطاع بحسن تدبيره اخضاع سكانها وجلبهم الى حظيرة الطاعة (٢) .

ويشير هورث الى عجز قائد جيش اباقا المدعو شيرامون نويان الذي كان قد توجه لاخضاع اهل جيلان الذين تمردوا على اباقا ورفضوا الدخول فى طاعته وقد عاد عنهم فاشلا (٣) .

واستغلت فرق النكودرية انشغال اباقا بالاستعدادات العسكرية للانتقام لمعركة الابلستين ، فقامت بالهجوم على ولايات فارس و كرمان ، وقضت على الجيوش المحلية التي تصدت لها ووصلت في هجومها حتى ابواب شيراز ونهبوا ما وصلت اليه ايديهم

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٧٠ .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) *Howorth* ج ٣ ص ٢٦٩ نقلاً عن تاريخ جورجيا ولم يشر رشيد الدين الى هذا التمرد بالاسم ، ولكن من المحتمل انه يقصد اهل جيلان عندما اشار في الفقرة السابقة الى ذكر مرور صاحب الديوان على جبال البرز وإدخالها في الطاعة بحسن تصرفه إذ أن بلاد جيلان تقع فيها .

من الاموال والحيوانات ؛ ولـكن ارغون بن اباقا استطاع الوصول اليهم وملاحقتهم واسترجاع ما بيدهم من المنهوبات (١) .

وانشغل احمد تكودار بعد توليه الايلخانية ، انشغل بتمرد ابن اخيه ارغون ومنازعته له على الايلخانية ، وانحياز عدد من الامراء الى جانبه منكرين على الايلخان اعتناقه الاسلام وتقربه الى مصر الأمر الذي سيهدد ديانتهم المغولية وذوبانها في بودقة الاسلام ، وانتهى التمرد بعد ثلاث سنوات بسقوط الايلخان ومقتله (٢) .

ولـكن تولي ارغون الايلخانية لم يعد الاستقرار الى البلاد ، كما ان مقتل الايلخان كان بداية سيئة لجرأة ابناء الاسرة بعضهم على بعض واستخفاف أمراء المغول بهم .

وبدأ ارغون عهده بارسال الجيوش الى منطقة جبال هكاري في كردستان التى استغل اكرادها حالة الفوضى التى سادت البلاد خلال تمرده على عمه ، فقطعوا طرق المواصلات ونهبوا القوافل التجارية (٣) .

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٧٠ - ١٧٢ هورث *Howorth* ج ٣ ص ٢٦٥ نقلًا عن التاريخ السرياني لابن العبري . تاريخي كزيدة ص ٥٨٣ . والنكودرية فرق عسكرية مغولية غير نظامية تنسب الى نكودار اغول بن جغتاي الذي كان قد رافق هولاكو في حملته حتى استقر في سجستان قريباً من حدود الهند .

(٢) وصاف م ١ ص ١١٨ - ١٢٥ ، رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٩٦ - ١٢١ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٧٠ - ١٧٢ .
الدواداري م ٩ الورقة ٢٣٤-٢٣٦ . المقري الفيومي - نثر الجمان الورقة ٢٦١ .

(٣) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٣٥ - ١٣٦ .

وتعرضت البلاد في هذا العهد الى سلسلة من الهجمات المستمرة من قبل بعض امراء ما وراء النهر الذين لا شك اطمعتهم حالة الفوضى التى سادت البلاد ، من ذلك تعرض بعض جيوش قايدو لنواحي مرو وبلخ في محرم ٦٨٧ هـ ، ثم هجمات الامير نغاي توقتاي الذي كان يتنقل بين الحدود ويقطع طرق المواصلات فقد عبر منطقة الدربند وأفسد في البلاد فاضطر ارغون الى الخروج اليه بنفسه وملاحقته فهرب عائداً الى الدربند ، ثم عاود هجماته ثانية في ربيع ٦٨٩ هـ فتصدى له ارغون مرة اخرى وقتل من اصحابه وجماعته وهرب الباقون (١) .

وأحس الأمير بوقا - الذي جمع بين النيابة والوزارة لارغون والذي كان السبب في وصول ارغون الى العرش - أحس بضعف مكانته لدى الايلخان الذي اخذ يسمع فيه كلام أعدائه ، فأراد أن يتدارك أمره قبل أن يؤخذ بكلام حساده وتهمهم وذلك بالانقلاب على ارغون واستبداله بايلخان آخر ، خاصة وان السلطة لا زالت بيده ، وتحت أمره عدد كبير من الأمراء ، فرتب الأمر واختار المرشح للايلخانية من امراء الاسرة وهو جوشكاب الذي لم يهن عليه ان يكون ألعوبة بيد بوقا يضرب به بني عمه فضلا عن رغبته في الانتقام منه لما سبق أن تسبب في حرمانه من حقه بالعرش . فوشى به لدى ارغون بعد أن أطمعه بموافقته على ما يدبر وأخذ منه كل خططه وتدبيراته .

وأسقط في يد بوقا انكشاف خيانته فلم يجد مكاناً يحتمي به ، ثم كان عقابه بعد ذلك بيد جوشكاب نفسه زيادة في التشفي منه .

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٥٤ - ١٥٥ .

ولم يستقر ارغون إلا بعد أن ساق الى المقصلة عدداً كبيراً من الأمراء الذين اتهموا بمشاركة بوقا بالاضافة الى جميع افراد أسرته حتى الصغار منهم (١) .

ودفع حرص ارغون على العرش والخرف من ضياعه الى الشك حتى في بني عمه الذين نافسوه عليه فيما مضى فقرر التخلص منهم ، ويذكر هورث ان عـدد أمراء الاسرة الذين لقوا حتفهم نتيجة لهذا الشك بلغ ثلاثة عشر أميراً ، كان على رأسهم جوشكاب وهولاجو (٢) .

واشتد القلق بين الامراء ، وتفسخت العلاقة بينهم بسبب رواج سوق الوشاية لديهم وأخذهم بالشك والتهمة ، فخافوا على انفسهم وبادروا للهرب والتمرد كما فعل الامير نوروز الذي كان يتولى اتابكية غازان والاشراف على خراسان باسمه ، وقد كان جوابه للأمير قايدو من احفاد اوكتاي عندما التجأ اليه بعد هروبه ، وقد سأله عن السبب ، فقال : انني لكي اثبت براءتي اكون قد قتلت (٣) .

وكان تمرد نوروز من القوة بحيث عجزت عن اخضاعه جيوش الدولة التي كان يقودها الامير غازان وغيره من قواد ارغون .

وتوفى الايلخان قبل ان يصطلح نوروز مع غازان وينهي تمرده .

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٤٠ - ١٤٨ ، الحوادث الجامعة ص ٤٥٧ - ٤٥٨ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٧٥ .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٤٨ - ١٤٩

Howorth . 3 . P . 330 - 331 .

(٣) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٤٩ .

Howorth . 3 . P . 342 .

ومن اسباب الفوضى التي رافقت عهد ارغون ايضاً بعد تخلصه من بوقا ، ما نشأ من تسلط الوزير سعد الدولة عليه بحيث جعله يعتزل الامراء وينقطع عنهم . وبلغ من تأثيره عليه ما نقله براون Browne عن وصاف قوله ان ارغون عند توليه العرش لم يكن يستطيع رؤية الدماء لكنه اصبح بفضل توجيه الوزير الذي ادخل في روعه ضرورة تنقية البلاد من الشك والخيانة ، أصبح يرى الخطأ صواباً ويهتاق الى رؤية الدماء (١) .

وكان رد الفعل عنيفاً لهذا التسلط بين حاشية الايلخان في العاصمة وأمراء الأطراف ، خاصة وقد انتشر خبر مرض ارغون واليأس من شفائه والجهل بأنبائه بفضل العزلة التي احيط بها .

وتواردت على العاصمة أنباء تمرد الجيش في خراسان واضطراب امور البلاد (٢) كما تمرد اللور فى العراق العجمي واستولوا على اصفهان وقتلوا شحنتها وهزموا جيوشها وأصبحوا شبه مستقلين بها (٣) .

وخشي الامراء المحيطون بالايلخان المعزولون عنه ان يدبر لهم الوزير نهاية مثل غيرهم فقرروا التخلص منه ومن اعوانه ، ونفذوا ذلك قبل اسبوع من وفاة الايلخان الذي افتقد غيابه وضمن نهايته (٤) .

---

(١) تاريخ الادب في ايران ج ٣ ص ٣٣ - ٣٤ .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٦٤

Howorth . 3 . P . 358 - 359 .

(٤) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٦١ - ١٦٢

Howorth . 3 . P . 342 . D'ohsson 4 . P . 53 _ 57 .

وأسرع كيخاتو بعد توليه العرش الى بلاد الروم ليقضي على تمرد التركمان والقرمانيين الذين استغلوا غيابه عن البلاد فعاثوا فيها الفساد (١) .

وورث كيخاتو عن أخيه ، تمرد نوروز الذي أضعف كثيراً من هيبة الدولة وسلطانها ، ومن يلاحظ في هذا التمرد دور مغول ما وراء النهر خاصة في امداده وحمايته ، الأمر الذي اطال من مدته وقوى من ساعده .

ويظهر أن نوروز أحس بتغير الظروف في الدولة الايلخانية ، فضلا عن تغير مكانته لدى حماته الذين كان قد التجأ اليهم ، ورأى أفضلية العودة الى اهله واصحابه ما دام عفوهم متوفراً وأمانهم مضموناً (٢) .

ونلمس في عهد كيخاتو تمرداً من نوع آخر لم يقم به الجيش ، وانما يمكن اعتباره ثورة حكم بها الشعب عندما تجاوزت السلطة في بغيها عليه ، وذلك عندما حاولت الدولة فرض استخدام العملة الورقية «الجاو» فى التعامل لغرض سحب الذهب والفضة من الناس لسد العجز في الميزانية نتيجة لاسراف وتبذير الايلخان ووزيره . وكان اهل تبريز اول من ثاروا على اوامر الدولة بالرغم من شدتها وقسوتها ، واستعدوا للرحيل عنها ، وتهيأت مدن اخرى للثورة لولا ان تراجعت الحكومة عن قرارها وسحبت عملتها (٣) .

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٧٥ - ١٧٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٠

Howorth · *3* · *P* · *374*

(٣) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٨٤ ، وصاف م ٣ ص ٢٧٥ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٧٩ ، ميرخوند ج ٥ ص ١٢٤ - ١٢٥ ، الحوادث الجامعة ص ٤٧٧ .

وبالرغم من خلو عهد كيخانو كما يقول بارتولد (١) من عمليات سفك الدماء والقتل بالجملة ، وهي المظاهر التي اتصف بها عهد ارغون ، إلا ان امره لم يطل كثيراً بسبب نزواته الشخصية الشاذة وسلوكه السيء مع الأمراء الآخرين الذين تألبوا عليه لمصلحة منافسه بايدو الذي اعلن تمرده في بغداد والذي تولى السلطة بعد قيام هؤلاء الامراء بخداع كيخاتو واعتقاله ثم قتله (٢) .

على ان بايدو لم يهنأ بالحكم اكثر من ستة اشهر قضاها في محاولة استرضاء غازان الذي حاجه بأحقيته في العرش ومطالبته بدم عمه الايلخان المقتول .

ولعب نوروز دوراً كبيراً في تفتيت الامراء من حول بايدو واغرائهم لمصلحة غازان الذي كان قد اعتنق الاسلام بفضل توجيهه .

وأحس بايدو بتسرب الامراء من حوله كما فعلوا مع سلفه كيخاتو من قبل ، فلم يجد غير محاولة الهرب الى جورجيا سبيلا للنجاة بحياته ، لكن نوروز كان له بالمرصاد (٣) .

وفي عهد غازان اتصفت الاحداث العسكرية بطابع الصراع على العرش بين

---

(١) *Encofgsl.2.Kaikhatu.***P***.128.*

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٨٤-١٨٨ . الحوادث الجامعة ص ٤٨١-٤٨٢.
Howorth ج ٣ ص ٣٧٢ - ٣٧٧ نقلاً عن متمم التاريخ السرياني لابن العبري .

(٣) وصاف م ٣ ص ٣١٧ - ٣٢٣ ، الحوادث الجامعة ص ٤٨٣ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٨٤ . ابو الفداء ج ٤ ص ٣٣ - ٣٤ . ابن الوردي - تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٤٠ .

أمراء الاسرة الحاكمة الذين نافسوا غازان واتخذوا من الدعوة لحماية الديانة المغولية والحفاظ على معابدها ، ومنع انتشار الاسلام بين المغول ، اتخذوا من ذلك ستاراً لتحقيق أغراضهم .

ولقي الأمير سوكاي بن يشموت الذي تزعم هذه المحاولة نهايته بعد انكشاف أمره ، كما لقي اصحابه نهايتهم ايضاً ، اذ ان غازان لم يتردد بالبطش بهم جميعاً ، ويشير هورث الى انه خلال شهر من الزمن ، بلغ عدد الذين سفك غازان دمهم خمسة من امراء الاسرة ، وسبعة وثلاثين من امراء المغول ، وبذلك برهن على انه ليس اقل من ابيه جرأة على سفك دم بني عمه (١) .

وتجرأ غازان بعد انتصاره هذا على من بقي من امراء المغول الاقوياء الذين كان يعتقد ان العرش لن يصفو له مع وجودهم على قيد الحياة ، فتخلص من الامير طغاجار احد هؤلاء الامراء الذي كان يقيم ببلاد الروم ، بحيلة دبرها عليه (٢) .

وأوجس خيفة من بقاء الامير نوروز وهو الرجل القوي الذي كان قد أقض مضجعه فيما سلف من ايام امارته على خراسان ، فأخذ يدير عليه ويسمع فيه كلام الوشاة من اعدائه الذين اشاعوا عنه الاتصال بالمماليك فى الشام وزوروا بعض الرسائل على لسان اخوته . واضطر نوروز ـ وقد أذهله مقتل اخوته بأمر من الايلخان الذي ارسل الجيوش لمطاردته ـ الى الاحتماء بصاحب هراة اعتماداً على معروف قديم

---

(١) وصاف م ٣ ص ٢٢٧ - ٣٢٨ ، تاريخ كزيدة ص ٥٩٢ ، ميرخوند ج ٥ ص ١٣١ - ١٣٢ . برا *PR* ج ٢ ص ٦١٣ - ٦١٤

(٢) *Howorth.g.P.404 _ 405.*

له عليه ، فكان بذلك كمن ساق نفسه الى حتفه ' اذ ان فخر الدين أمسك به وسلمه الى مطارديه بوعود الايلخان له وخوفاً من محاصرة جيوشه ' فلقي حتفه في شوال ٦٩٦ هـ (١) .

ولكن اختفاء نوروز من جانب غازان ، شجع من بقي من امراء الاسرة على معاودة الكرة للاطاحة بالايلخان ، من ذلك محاولة بالتو بن تيسين الذي تمرد ببلاد الروم ، ولكنه لم يستطع الصمود أمام الجيوش التي قادها قطلوشاها ، ثم سقط بعد ذلك اسيراً بيد ابن عمه سلامش الذي خلفه على بلاد الروم وقضى عليه (٢) .

وتشجع سلامش نفسه على التمرد والانفصال ببلاد الروم مستغلا حالة الفوضى في البلاد وبعده عن الايلخان وصعوبة طرق المواصلات ، بالاضافة الى تحالفه مع المماليك الذين أمدوه بالنجدات . ولكن تدابيره لم تنجح أمام الزحف المغولي عليه فاضطر الى الهرب والاعتصام ببعض القلاع التي انهارت عليه وسقط قتيلا بعد ذلك (٣) .

وأرسل غازان اخاه اولجايتو على رأس الجيش لمطاردة فرق النكودرية التي

---

(١) وصاف م ٣ ص ٣٤١ ـ ٣٤٣ ' تاريخ كزيدة ص ٥٩٣ الذهبي ـ تاريخ الاسلام الورقة ١٩٢ في وفيات سنة ٦٩٦ هـ . *SYK* ج ٢ ص ١١٠ ـ ١١١
Howorth.3.P.408 – 409 .

(٢) *Howorth.3.P.405.* D'*ohsson. 4.P.169.*

(٣) زيترستين ـ تاريخ سلاطين المماليك ص ٥٤ ـ ٥٦ ' ابن ابي الفضائل ج ٢ ص ٤٥٨ ' ابو الفداء ج ٤ ص ٣٩ ' ابن ايبك ـ كنز الدر ج ٩ ص ٨ ـ ١١
Howorth.3.P.427 – 428.

كانت تعبث بالأمن والتي كان صاحب هراة يستغلها في فرض سلطانه على المناطق المجاورة له ، مستغلا الامتيازات الكثيرة التي حصل عليها من الايلخان لقاء غدره بنوروز ، واضطر اولجايتو بعد ذلك الى محاصرة هراة نفسها طلباً للعصاة الذين احتموا بها ، ولكنه عجز عن اخضاعها وقبل اعتذار صاحبها الذي وعد بتنفيذ اوامر الايلخان وطاعته (١) .

وعندما قضى غازان شتاء ٦٩٨ هـ في بغداد استعداداً لحملة الشام ، شكا له نوايا من تمرد الاعراب في البطائح وقطعهم طرق المواصلات على القوافل التجارية ، فقاد الجيوش اليهم حتى قطع دابرهم ونظم البلاد ثم عاد الى معسكره في داموق (٢) .

وفي خلال ترقبه لنتائج حملته على الشام لم تسلم مؤخرة قواته من عوامل اضعاف انهكت قدرته على تحقيق نتائج ايجابية في صراعه مع المماليك .

فقد قامت الاضطرابات في اقليم فارس بعصيان محمود شاه متسلمها ، الامر الذي اجبر غازان على تخصيص بعض جيوشه لاخماد هذا العصيان الذي لم ينته حتى تحولت البلاد الى خراب (٣) .

---

(١) ميرخوند جـ ٥ ص ١٣٤ - ١٣٥

Howorth·3.P·414 - 416·

(٢) الحوادث الجامعة ص ٤٩٧ ، ابن ايبك جـ ٩ ص ٩ ، الذهبي - تاريخ الاسلام - الورقة ١٢٢ في حوادث سنة ٦٩٨ هـ ، ابن ابي الفضائل جـ ٢ - النهج السديد ص ٤٥٨ ، زيترستين - تاريخ سلاطين المماليك ص ٥٥ .

(٣) وصاف م ٣ ص ٣٦٧ - ٣٧١ .

واستغل مغول ما وراء هذه الفوضى فزادوا فيها عندما زحفت بعض كتائبهم حتى منطقة خوزستان وعاثوا في البلاد سلباً ونهباً حتى عجزوا عن حمل ما غنموه فتركوا بعضه عند عودتهم (١) .

وفي خلال ذلك كانت خراسان تقاسي الكثير من الاضطرابات ، اذ وصل بعض الرسل الى غازان وهو في معسكره على ضفاف الفرات يخبرونه بمقتل اكثر من ثلاثة آلاف متمرد فيها (٢) .

وانهارت صحة غازان عند سماعه انباء هزيمة قواته في سورية ، فلم يجد غير الاعتكاف والانقطاع عن الناس والتفرغ للعبادة لعله يستعيد شيئاً من معنوياته فيستعد لحملة اخرى ، ولكن الطامعين في العرش استغلوا خلوته هذه فأشاعوا خلعه وقتله وتنصيب ابن عمه الفرتك بن كيخاتو في مكانه ، وألبسوا مؤامرتهم هذه ثوباً دينياً عندما استخدموا بعض الدراويش لابلاغ الناس بأن ذلك قد تم وفقاً لأمر إلهي ، وكادت المؤامرة تتم لولا يقظة الوزير سعد الدين الذي اعتقد هؤلاء الدراويش الذين كانو يلفون على المعسكرات والمدن ، ويعتقل محرضيهم من الشيوخ ، بالاضافة الى اعتقاله رسول الخاقان قبلاي الذي كانت يد في هذا التدبير ، وعاقب غازان هؤلاء المتهمين ، واكتفى بارسال الفرتك الى خراسان ليكون تحت رقابة اخيه اولجايتو(٣).

(١) *Sykes . 2 . P . 111 - 112 .*

(٢) *Howorth . 3 . P . 465 - 467 .*

(٣) موير ـ تاريخ دولة المماليك في مصر ص٧٣ ، علي ابراهيم حسن ـ دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ١٥٩ *BR* ج ٣ ص ٤٣ ، *PR* ج ٢ ص ٦٢٩ ـ ٦٣٠
Howorth.3.P.480.
F.Macler.C.M.H.Vol.4.q.177 - 178.

وكان اول عمل قام به اولجايتو عند سماعه بخبر وفاة اخيه ، قتله لالافرتك قبل ان يجتمع حوله بعض الطامعين ويستغلونه لمنافسته على العرش ، وبذلك خلا عهده من مزاحمة بني عمه بعد ان لم يبق منهم احد ذو اهمية ، واصبحت الايلخانية اكثر استقراراً بعد ان صفت له .

وتفرغ اولجايتو بعدها لحل بعض المشاكل التي لم يستطع التفرغ لها اخوه غازان من قبل ، فقد سعى لجلب سكان جيلان الى حظيرة الطاعة وهم الذين يعيشون في جبالهم الحصينة في وسط الدولة من دون ان يعترفوا بسلطانها عليهم ، واضطر بعد أن فشلت وسائله السلمية وجيوشه التي تمزقت في جبالهم ، اضطر الى الخروج بنفسه لاخضاعهم وقدم الخسائر الكبيرة في الأرواح والاموال حتى تحقق له ذلك في سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م (١) .

وفي خلال هذه الفترة سعى اولجايتو لتأديب صاحب هراة الذي سبق ان عجز عنه في عهد اخيه ، فضلا عن انه لم يقم بواجبه نحوه عند توليه الايلخانية ، فأرسل قائده دانشمند بهادر لتحقيق ذلك وللقبض على زعماء فرق النكودرية الذين يستغلهم في احداث الفوضى ، ومطالبته بتسليم الاموال المتأخرة عليه للسنين الثلاثة وضرب اسمه على السكة .

ولكن القائد لم يحسن التصرف مع نائب صاحب هراة الذي كان يتولى حماية هراة في الوقت الذي انسحب فيه صاحب هراة نحو بعض القلاع الحصينة ، الأمر الذي

(١) ابرو ص ١٠ – ١٧ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ١١٠ – ١١١ ، العيني – الورقة ٣٨٠ – ٣٨٧ في حوادث سنة ٧١٧ هـ

Howorth 3.P.539 - 942. D'*ohsson*.4. P. 482 - 497 .

أدى الى مقتله وتمزق الجيوش التي رافقته ، وفي هذه الفترة توفي صاحب هراة نفسه فخرالدين آل كرت فاستغل نائبه في هراة وهو محمد سام الغوري وفاته للاعتصام بهراة والاستقلال بها ولكنه اضطر بعد ذلك الى الرضوخ للجيوش التي ارسلها اولجايتو التي آمنته على حياته ثم غدرت به بعد ذلك في سنة ٧٠٧ هـ (١) .

وتعاونت بعض الفتن الداخلية ، وتعرض مغول ما وراء النهر للبلاد في منع اولجايتو من مواصلة سياسة اخيه غازان بالنسبة لغزو بلاد الشام .

فقد كان أعد حملة كبيرة لذلك ، ووضع خطة سيرها بتوجيه من امراء المماليك الذين كانوا قد لجأوا اليه وشجعوه عليها ، ولكن قيام التركمان ببلاد الروم بقتل احد قواد الحملة وهو قزان جوق ادى الى تعطيل هذا الجناح من الحملة وتغير خط سيرها.

وصادف في هذه الفترة ايضاً قيام الاكراد الشهرزورية بالعصيان في جبالهم ، فاضطر الايلخان الى توجيه بعض فرق الحملة نحوهم ، الامر الذي اضعف من قوتها، فاقتصر زحفها حينئذ على الوصول الى الرحبة فقط . وبينما كان الايلخان على اسوارها وقد اوشكت على الاستسلام وصلته انباء الاضطرابات في خراسان وعصيان بعض امرائها ، فاضطر اولجايتو الى الرحيل عنها وقبول ملتمسات الصلح من اهلها وذلك في رمضان ٧١٢ هـ (٢) .

---

(١) ابو ص ١٨ - ٣٩ ، براون جـ ٣ ص ٤٩ .

Howorth . 3 . P . 544 - 555.

(٢) تاريخ كزيدة ص ٥٩٨ ، العيني - الورقة ٣٩٠ - ٤١٦ ، ٤٢٨ - ٤٢٩ في حوادث سنة ٧١٢ هـ .

وينقل لنا هورث عصياناً آخراً قام به الامير القرماني محمود بك سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٤ م في بلاد الروم بسبب سوء تصرف حاكمها الامير ايرنجين ، واعتصم الثائر في مدينة قونية عندما زحف نحوه جوبان الذي استطاع بعد مراسلات اقناعه بالاستسلام والدخول في الطاعة حتى اعاده معه الى بلاط الايلخان (١) .

ويظهر ان عصياناً آخراً في مدينة اربل ، فان ابن عنبة في حديثه عن الداقندي عماد الدين ناصر بن ابي طالب محمد الذي كان قد تقدم في عهد اولجايتو بحكم تشيعه، فتولى الامارة والقيادة وقام بحصار مدينة اربل مدة طويلة من الزمن حتى خضعت له فتولى امارتها حتى وفاته ثم توارثها ابناؤه من بعده (٢) .

وطمع الامراء ثانية في المشاركة بالعرش في عهد ابي سعيد الذي لم يكن قد شب عن الطوق عند توليه الايلخانية . فبالاضافة الى محاولات بني عمه مغول ماوراء النهر ومغول القبچاق لاقتطاع جزء من أراضيه ، فان امراء المغول الايلخانيين ، وخاصة اولئك الذين كانوا قد تزوجوا من بنات الاسرة ، حاولوا ايجاد مكان لهم في الحكم مستهينين بالايلخان الصغير الذي اثبت من الجرأة والشجاعة عند وقوفه بوجه اطماعهم ما استحق معه التقدير والاعجاب حتى قضى على فتنتهم وساقهم الى المقصلة في ربيع الآخر سنة ٧١٩ هـ (٣) .

(١) Howorth · 3 · P · 567·

(٢) ابن عنبة ـ عمدة الطالب ص ٣١٤ .

(٣) وبلغ عـدد الذين لقوا حتفهم في هذه المؤامرة (٣٧) اميراً منهم سبعة أميرات من الاسرة ، وقد اعتمدت جميع المراجع في نقل هـذا الخبر على ما نقله المؤرخ العربي المعاصر علم الدين البرزلي الذي استقاه بدوره من بعض التجار العرب ـ

وعندما بلغه نبأ تمرد الامير ارقتاي في كرجستان ، ارسل نائبه وقائد جيشه الامير چوبان الذي قضى على تمرده واعاده الى الطاعة في اواخر سنة ٧٢٠ هـ (١) .

وتذبه ابو سعيد الى خطر تحكم نائبه چوبان وابنائه على السلطة ، وخاصة بعد ان تمرد احدهم وهو تيمورتاش على طاعته واعلن استقلاله ببلاد الروم التي كان يتولى مسؤوليتها ، وبالرغم من قيام وبان باخضاع ابنه واعادته الى الطاعة ، إلا ان الايلخان صمم على التخلص منهم جميعاً ، وباشر ذلك بالقضاء على دمشق خواجة ثالث الابناء الذي كان يتولى منصب الوزارة له ، ويقوم بالحجر عليه . ثم اوعز بعد ذلك الى الامراء بالقيام على چوبان وابنائه ، فلم ير چوبان نفسه إلا وقد تخلى عنه اصحابه شيئاً فشيئاً ، وجيوش الايلخان تلاحقه فالتجأ الى هراة يلتمس فيها الحماية التي سبق ان وفرتها لنوروز من قبل ، فلاقى نهايته فيها في محرم ٧٢٨ هـ (٢) .

وبالرغم من انتصار الايلخان وتخلصه من تحكم چوبان وابنائه ، فانه ظل يحس باستصغار الامراء له واستخفافهم به ، من ذلك محاولة نارين طغاي الذي حل في مسؤولية خراسان ، والذي اراد احتلال مكان چوبان في الحكم فأحاط نفسه ببعض

ـ الذين كانوا على صلة بالسلطانية ، انظر النويري ج ٣٠ ق ٣ الورقة ٤٢٤ ـ ٤٢٩ ، ابرو ص ٩٦ ـ ١٠٤ ، تاريخ كزيدة ٦٠٤ ـ ٦ ٦ .

(١) ابرو ص ١١٣ ـ ١١٤ .

(٢) تاريخ كزيدة ص ٦٠٦ ، ٦٠٨ ـ ٦٠٩ . ابرو ص ١١٤ ـ ١١٥ . منجم باشي ـ صحائف الاخبار م ٣ ص ٥ ـ ٦ ، ابو الفداء ج ٤ ص ٩٥ ابن بطوطة ج ١ ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ابن فضل الله ـ التعريف بالمصطلح الشريف ص ٣٥ ـ ٣٦ . الشوازبي حافظ الشيرازي ص ٥١ ـ ٥٥ .

الامراء ، وسعى لفرض ارادته على الايلخان الذي تصدى له وقضى عليه في شوال سنة ٧٢٩ هـ (١) .

وجاءت المحاولة الثانية للاستهانة بأبي سعيد سنة ٧٣٤ هـ عندما اجرى بعض التنقلات الادارية فعزل محمود شاه اينجو من مسؤولية فارس وجعله مستشاراً له ، ولكن محمودشاه رفض هذا النقل الذي سيفقده الارباح الطائلة من ولايته ، وتحالف مع بعض اصحابه على قتل الحاكم الجديد مسافراينالق الذي هرب لاجئاً الى قصر الايلخان الذي حوصر من قبل الامراء المتحالفين حتى اوشك الايلخان تسليمه خوفاً على نفسه لولا وصول فرقة من الجيش استطاعت تفريق المتمردين وقبضت على زعمائهم الذين ارسلوا الى المعتقلات المختلفة (٢) .

ولم تطل الحياة بعد ذلك بالايلخان بالرغم من صغر سنه . فترك البلاد نهباً لأطماع الامراء الذين توزعوها فيما بينهم بعد حروب طويلة .

اصلاحات الايلخانات ، ولاية العهد ، نهايتهم :

حكم هولاكو الدولة الجديدة فترة لم تزد على السبع سنوات (٣) شغلت الحروب معظمها ، وفي الفترات القليلة التي سنحت له للاستقرار ، أبان عن رغباته في الاصلاح

(١) تاريخ كزيدة ص ٦١١ ، ابرو ص ١٤٠ - ١٤١ . مقدمة كاترمير لجامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٦١ - ٦٠ . الشواربي . حافظ الشيرازي ص ٦١-٦٣ .

(٢) ابرو ص ١٤٢ - ١٤٣ ، مقدمة كاترمير لجامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٦ - ٦٤ ، الشواربي - حافظ الشيرازي ص ٦٤ .

(٣) على اختلاف فى ذلك بالنسبة لتأريخ قيام الايلخانية ، وقد اشرت فيما سبق ان بداية ذلك ن عند استقرار هولاكو في مراغة بعد عودته اليها من بغداد .

والعمران ، مما دل على انه لم يكن رجل حرب فقط بقدر ما يرغب في ان يكون حاكماً مدنياً ايضاً .

وللحديث عن مدنية هولاكو ، نعود بالقول الى ما اشرنا اليه سابقاً من ان المغول كانوا طارئين على الحضارة ، وانهم خلال تجوالهم في البلاد الاسلامية تأثروا بحضارتها ، واخذوا يتطبعون بها شيئاً فشيئاً .

ولم يكن هولاكو وهو احد قادتهم ، قد تخلص من رواسب بداوته عندما تعرض للخلافة واطلع على نظمها وشاهد مخلفاتها لذلك اراد ، كما يخيل إلي ، ان يتشبه ببقايا صورتها في ذهنه فأحاط نفسه كما يقول المؤرخون بالعلماء وزين بلاطه بالحكماء ، واشغل نفسه بالعلوم العقلية من غير ان يتعقل منها شيئاً البتة (١) .

ولكنه مع ذلك ترك لنا صورة طيبة لاهتمامه بالعمران وتشجيعه للحركة العلمية. فقد أمر باعادة اعمار بغداد عند رحيله عنها ، كما أعاد اعمار البلاد الاخرى التي خربتها الحرب . وشيد بعض القصور في الاتاغ وعدداً من المعابد البوذية في خوى (٢) .

وكانت اكثر مخلفاته العمرانية على ضفاف بحيرة اورمية حيث كان يميل للسكنى فيها في فترات استقراره فبنى قلعة حصينة على الجبل في شبه جزيرة شاهو الممتدة على الضفة الشرقية للبحيرة ، التي كانت سابقاً جزيرة ، واشرف على بنائها الملك صدر الدين

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٣٣٧ . اليونيني ج ٢ ص ٣٥٧ - ٣٦٠ في حديثه عن هولاكو .

(٢) النصير الطوسي - رسالته في فتح بغداد . انظر ملحق الباب الاول : رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٣٣٧

Enc . Br . 2 . Hulaku . P . 822 .

التبريزي ، وأصبحت هذه القلعة المكان الامين الذي نقل اليه هولاكو ما غنمه من كنوز الخلافة العباسية وغيرها من البلاد الاخرى . بعد ان ارسل نصيب الخاقان وغيره من امراء المغول منها ، كما اصبحت هذه القلعة مدفناً له فيما بعد (١) .

اما تشجيعه للحركة العلمية ، فكان واضحاً من محاولته احاطة نفسه بالعلماء والحكماء وتشجيعهم على الوفود اليه ، وتخصيص الاموال الطائلة لهم ، واعفائهم مما جرت به عادة الملوك من التكليفات والتوزيعات وغير ذلك (٢) . وقد هاجم رشيدالدين هؤلاء العلماء الذين استغلوا ميل هولاكو الى تعلم العلوم المختلفة فنافقوا عليه وصرفوا الاموال الطائلة فيما لا فائدة منه (٣) .

ودفع تعلق المغول بعلم النجوم وايمانهم بتقولات المنجمين ، دفعت هولاكو الى الاهتمام بعلم الفلك والبذل فى سبيل استكمال جوانبه وضبط اصوله ، لذلك اهتم كثيراً عندما عثر على النصير الطوسي في قلاع الاسماعيلية ، فلم يسمح بارسـاله الى بلاط اخيه منكو كما كان مطلوباً منه ، بل احتفظ به بعد ان تحقق من سعة اطلاعه، وحكمه فى نفسه وماله حتى قيل انه اصبح لا يركب ولا يسافر إلا في وقت يأمره به ،

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٣٠٠ . وقد حملت القلعة اسم قلعة تلا اوشاهو تلا لسترنج ـ بلدان الخلافة الشرقية ص ١٩٥

Enc·ofIsl · 2 · Hulacu·P . 332 · Enc·ofIsl · 3 . MaraGha. P . 265 ·

(٢) الحوادث الجامعة ص ٣٥٣ . العزاوي ج ١ ص ٢٥٠ نقلاً عن مخطوطـة تاريخ دول الأعيان لشهاب الدين احمد ابن ابي عذيبة .

(٣) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ .

وكان من ثمرة هذا الاحتضان بناء دار الرصد بمراغة وما ألحق به من مكتبة فخمة جمع فيها العديد من كتب بغداد والاسماعيلية ، والذي يعتبر من اهم انجازات هولاكو العلمية (١) .

وبلغ هولاكو الثامنة والاربعين من عمره عندما أدركه الأجل في ربيع ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م وكان قد اوصى لابنه الكبير اباقا من بعده باشارة من زوجته المسيحية دوقوزخاتون .

وجرت مراسيم الدفن حسب الطريقة المغولية ، فدفن في ضريح اعد له على الجبل في جزيرة شاهو التي كان قد بنى قلعتها ، ودفن معه عدد من البنات العذراوات بألبستهن الجميلة وحليهن ، ووزع اللحم عند قبره لمدة ايام (٢) .

وتولى اباقا مسؤولية الحكم ثماني عشرة سنة ، وهي اطول فترة حكمها ايلخان في هذه الدولة ، وساعدته هذه الفترة الطويلة على اضفاء صفة الاستقرار على حكمه بالرغم من ان مشاكله الداخلية والخارجية لم تدع له إلا فرصاً قليلة المراحة قضاها في الصيد متنقلا في ارجاء البلاد .

---

(٤) المرجع السابق ص ٣٠٣-٣٠٤ . تلخيص مجمع الآداب ج ٢ ق ٣ ص ٢١٥-٢١٦ ، ٢٣٩ ، الصفدي ج ١ . الوافي بالوفيات ص ١٧٩ - ١٨٠ ، في ترجمة النصير لسترنج - بلدان الخلافة ص ١٩٩ *Pr* ج ٢ ص ٥٧٣ - ٥٧٤ ، الصياد - المغول في التاريخ ص ٢١٤ - ٢١٥

Enc.ofI.l.3. MaraGha.p.265 .

(٥) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٢٤١ ، العزاوي ج ١ ص ٢٥٢

Howorth.3.P.208 - 218 .

Enc.ofIsl.2.Hulacu.p.333.

ولم يشر المؤرخون المعاصرون خاصة الى اي اثر عمراني ينسب اليه ، إلا ان العراق لقي في عهده الكثير من مختلف اوجه الاصلاح بفضل جهود حاكمه الجويني مما سوف نراه عند بحثنا لحكومة بغداد .

ورعى اباقا الحركة العلمية كما رعى رائدها النصير الطوسي الذي كان يحتل في نفسه نفس المكانة التي احتلها في نفس ابيه والذي كثيراً ما رافقه في سفراته ونزهاته .

ومن مظاهر رعايته هذه اهتمامه بدار الرصد وحرصه على استمرار ادائه لرسالته وتشجيعه للطلبة على اتقان اصوله ، يحدثنا عن ذلك أحد تلامذة النصير الطوسي وهو قطب الدين محمود الشيرازي الذي لازم الطوسي وقرأ عليه ، واجتماع اباقا به وتشجيعه له بقوله : انت افضل تلامذة النصير وقد كبر وشارف الموت فاجتهد حتى لا يفوتك شيء من علمه (١)

وبلغ اباقا من العمر ما بلغه ابوه عندما ادركه الموت في همدان في اواخر ذي الحجة ٦٨٠ هـ / ١٢٨٢ م بعد عودته فاشلا من حملة سورية .

وكان كما يقول هورث (٢) قد سمى ابنه ارغون للعرش من بعده بالرغم من مخالفة ذلك لتعاليم الياسا ، فلم يأخذ الامراء بوصيته هذه تمسكاً بالتعاليم .

وأصبحت هذه البادرة ، اي مخالفة الامراء لرغبة الايلخان المخالفة للتعاليم ، بداية نفذ منها الامراء فيما بعد للتدخل في شؤون الاسرة الحاكمة والتلاعب بالمجالس

(١) الصفدي جـ ٧ ق ١ ـ اعيان العصر الورقة ١٤١-١٤٣ ، السلامي ـ تاريخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار ص ٢١٩ - ٢٢٨ .

(٢) رشيد الدين م ٢ جـ ٢ ص ٨٥ ، ابن العبري ص ٢٨٩

Howorth . 3 . P . 285 .

على العرش منهم .

ودفن اباقا عند ابيه في جزيرة شاهو ، ولا تشير المراجع الى اجراء مراسيم دفنه على الطريقة المغولية كما رأينا ذلك لآخر مرة عند دفن هولاكو ، مما يدل على تأثر الحاكمين بالتقاليد الدينية السائدة في بلاد المحكومين لهم .

وتولى احمد تكودار العرش وكان كما يظهر اكبر ابناء هولاكو الأحياء ، ولا يشير رشيد الدين الى تقدير عمره ، ولكني لا أظنه قد جاوز الثلاثين إلا بقليل من السنين .

وشغلت الأحداث السياسية تكودار طيلة فترة حكمه القصيرة التي لم تتجاوز ثلاثة سنين عن الاهتمام بالاصلاح الداخلي ، اذ دفعه اسلامه الى محاولة ازالة روح العداء التي تميزت بها سياسة المغول مع الحكم المملوكي في الشام ومصر ، واقامة علاقات جديدة على اساس من الاخوة الاسلامية ، وجرته هذه المحاولة الى رد فعل في الداخل لدى امراء المغول الذين وجدوا في تأكيد الايلخان على الاسلام خطراً عليهم فانقلبوا عليه ، واتخذوا من مطالبة ارغون بالعرش سبيلا للتآمر عليه حتى سقط تحت ضرباتهم شهيداً فى اواخر جمادى الاولى سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م (١) . فكان اول ايلخان يذهب ضحية تدخل الامراء في شؤون الحكم الامر الذي أدى الى تحكمهم فيه فيما بعد .

ولعل الأثر العمراني الوحيد الذي يعود الى عهد تكودار والذي يرمز الى اهتمامه بالاسلام هو عمارة مشهد مسلم بن عقيل بالكوفة الذي أمر بعمارته آل الجويني في شهور سنة ٦٨١ هـ كما يشير الى ذلك النقش الموجود على واجهته (٢) .

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٢١ ، ابن العبري ص ٢٩٨

D'ohsson. 3. P. 606 - 607.

(٢) *Repertoire. Tom X3. P.2 No,4818.*

وتولى ارغون العرش بعد عمه تكودار ، بفضل مساندة القوة له متخطياً بذلك عمه هولاجو الذي كان كما يظهر أحق منه بالعرش لكبر سنه .

ولا يشير المؤرخون كذلك الى مقدار عمره ، ولكني أظنه لم يكن قد تجاوز الثلاثين اعتماداً على بعض القرائن (١) .

ويظهر لي ان ارغون تمتع بالسلطة وتحكم بها وهو أمير اكثر من تصرفه بها وهو ايلخان ، ولا يعني ذلك انه كان محجوراً عليه بعد توليه الايلخانية ، فان الطريقة التي تسلمها بها ، ودور نائبه بوقا في اجلاسه على العرش فرضت عليه طواعية ان يسلم السلطة له ليبقى هو مجرد رمز لا يملك منها سوى الاسم . وتحرر ارغون من وصاية نائبه بعد خمس سنوات من مباشرته الاسمية لكي يقضي السنتين الباقيتين من عمره تحت وصاية من نوع آخر عندما استسلم لوزيره اليهودي الذي استطاع السيطرة عليه بالأموال الكثيرة التي قدمها له .

وفي فترة وعيه ما بين الوصايتين بانت عليه بعض مظاهر الرغبة في الاصلاح ، فقد أظهر ميلا للعمران والبناء ، ووضع الأساس لبناء مدينة جديدة تكون قاعدة لملكه ، وحملت اسم الارغونية ، كما وضع الأساس لمدينة اخرى في منطقة شروباز لم تكمل ايضاً بالرغم من انفاقه عليهما الأموال الطائلة (٢) .

(١) من ذلك ان السن الطبيعي للزواج عند المغول هو الخامسة عشر من العمر كما هو الحال في مثال جنكيز نفسه حيث يكون الرجل قد تجاوز مرحلة البلوغ بسنة اوسنتين لا اكثر، واذا كان ابنه الكبير غازان قد ولد سنة ٦٧٠ هـ كان تاريخ ولادة ارغون حول سنة ٦٥٥ هـ على الأكثر .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٥٧ - ١٥٨ ، انظر ايضاً في حاشية ص ١٦٦ -

ولقيت الحركة العلمية في عهده شيئاً من العناية . فقد تفقد شؤون مرصد مراغة بحكم تعلقه بعلم الفلك والنجوم لاستطلاع مستقبله ، وكان يحسن الاستماع الى العالم قطب الدين الشيرازي الذي احتل مكانة النصير الطوسي لدى الايلخانات . والذي كان يشرح لارغون ماتوصل اليه من نظريات علمية او مصورات جغرافية (١).

وكانت رغبته الشديدة لمعرفة سر الحياة قد دفعته الى تشجيع علم الكيمياء ، والانفاق على علمائه بلا حساب وحضور جلساتهم وسماع مناقشاتهم تشجيعاً منه لهم لمواصلة البحوث في ذلك ، حتى انه في احدى هذه الجلسات تحدث الى قطب الدين الشيرازي بقوله : « لأنني رجل تركي وانت رجل عالم ، قد تظن أن هؤلاء يسخرونني ويستغفلونني ، والحقيقة اني أردت مراراً أن أصرفهم ، ولكن ما دام المؤكد ان لهذا العلم الشريف وجوداً ، وقد يكون هناك من يعرفه ، ولأنني اذا لم أرع الجهلاء ولا أجهز عليهم بالسيف فلن يثق بي عالم مطلقاً » (٢) .

وأودي به تعلقه بسر الحياة الى الوقوع في يد بعض كهنة المغول الذين اقنعوه بقدرتهم على اطالة العمر فتناول من أيديهم ما وصفوه له من مساحيق ودهون عجات

ـ وصفا لهذا العمران منقولاً عن نسخة اخرى لجامع التواريخ ترجمة المعارف الاسلامية م ١٢ السلطانية ص ٩٧ .

(١) حمد الله مستوفي القزويني نزهة القلوب ص ٥٥ . ترجمته الانكليزية ص ٦١

Howorth . *3 · P · 335 - 336*.

(٢) رشيد الدين م٢ ج٢ حاشية ص١٦٦-١٦٧ نقلاً عن نسخة ثانية لجامع التواريخ

D'ohsson·4·P·59 - 90.

بما بقي من حياته ، فودعها في ربيع الاول ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م (١) .

وليس لدينا ما يشير الى انه ترك وصية لمن بعده ، فضلاً عن ان ذلك لم يكن ممكناً بالنسبة لحالته ، اذ انه فارق الشعور بالحياة قبل رحيله عن الدنيا بأشهر عديدة بحكم الغيبوبة التي غرق فيها .

ومنذ هذا التاريخ حتى تولى غازان في ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥م كان الحكم بيد الامراء الذين مارسوه حتى قبيل وفاة ارغون ، واصبح الايلخانان اللذان توليا السلطة خلال ذلك مجرد العوبة بأيديهم ، كما أصبحت حياتهما رهناً لمشيئتهم .

فقد انصرف الاول منهما ـ كيخاتو ـ الى شهواته ونزواته تاركاً السلطة بأيديهم ، يعاونهم على التبذير والاستغلال وزير كيخاتو المدعو صدر جهان .

ولم يعرف لكيخاتو عمل اصلاحي في فترة توليه سوى ما اشار اليه رشيدالدين من قيامه بتشييد مدينة كبيرة على ضفاف نهر « كر » سماها « قنلغ باليغ » (٢) .

اما بايدو فقد ارتقى العرش على جثة ابن عمه الذي لم يجف دمه بعد حتى قام ابن اخيه غازان يطالب به ، وطيلة الاشهر القليلة التي قضاها يحمل اسم الايلخان لم يعرف عنه انه استقر في البلاط إلا ليطارِد او يطارَد ، حتى سقط بنفس الطريقة التي ارتقى بها .

واستعادت الايلخانية مكانتها التي كانت عليها في عهد هولاكو وابنه ، عندما تولاها غازان لا لانه قضى على تحكم الامراء والوزراء فيها فحسب بل لانها وضعت

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٢

Howorth.3 P.341.

(٢) جامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ١٨٠ .

تخطيطاً شاملا لمختلف نواحي الاصلاح سارت عليه الادارة تحت اشرافه حتى استحقت فعلا صفة الدولة .

يؤيد هذا ما أشار اليه المؤرخون الاجانب امثال هورث ومالكولم فانهما بعد تقديم مقارنة لما كان عليه الحال أيام الايلخانات السابقين عليه ، قالا : « واختلف هذا الوضع في عهده فقد تولى السلطة بنفسه وأصدر الاوامر لاقامة جهاز اداري سليم ، وكان يستمع الى الجميع كبيراً وصغيراً ... وكان يستقبل الرسل الاجانب بنفسه عند وصولهم بدلاً من قيام الوزير بذلك ... » (١) .

وتعددت نواحي الاصلاح التي أنجزها غازان ، ولكننا قبل أن نشرع في تعدادها لابد لنا من معرفة العوامل التي لعبت دوراً في هذه الاصلاحات ، اقصد من ذلك الاسلام الذي ملأ قلب غازان ، ونوروز مربيه .

ويمكن القول قبل ذلك ايضاً ان غازان نفسه لم يكن شخصاً عادياً بالرغم من صغر سنه عند توليه ، فقد علمته السنوات العشر التي تولى خلالها مسؤولية خراسان تحت اشراف نوروز وخـــلال مطاردته له عند تمرده ، ثم تعاونهما معاً في دفع الاعتداءات الخارجية ، والقيام على بايدو ، كل هذه الأحـداث اكسبت غازان تجارب خرج منها قوي الشخصية ، طموحاً للانفراد بالسلطة ، عليما ببواطن السياسة ، محدد الاهداف ، ولكنه مع ذلك بقي بعد توليه يمثل دور التلميذ المطيع طالما بقي نوروز على قيد الحياة يمثل دور المعلم .

---

(١) *Howorth.* ج ٣ ص ٤٨٧ وهو يعتمد على ما ورد في رشيد الدين *Malcolm.* ج ١ ص ٢٧٤ – ٢٧٥ .

وكان غازان في حالة من القلق والخوف بحكم تمرده على الايلخان عندما جاءه الاسلام يسعى الى قلبه فجلب اليه الحب والاخلاص ممثلا في شخص داعيته نوروز الذي أطمعه بالنصر على عدوه (١) ، فتعلق به ودخلت السكينة الى نفسه وتحقق النصر الذي وعد به ، فازداد اطمئناناً وازداد إيماناً ، واعتلى العرش ، ولكنه بقي طيلة السنتين الاوليتين من حكمه لايكشف عن نفسه ، اذ فرض عليه أدب التربية والوفاء أن يتوارى قليلا بجوار نوروز .

وقد تكون احداث السنتين هذه ، قد فرضت عليه أن يعطي السفينة ربانها جرياً على ما كان عليه قبل توليه ، ولكنه انطلق كالسهم يثبت وجوده ، ويسجل عهده بعد أن تحرر من حياة نوروز . وهنا نلمس محاولته لتطبيق تعاليم الاسلام ممزوجة بشيء من الدهاء السياسي كي يتفادى تأثير قتله لنوروز على الناس (٢) ، يشير الى ذلك (وصاف) بقوله : بعد قتل نوروز قام غازان بتقوية مظاهر الشريعة وتعظيمها والاهتمام بامور الدين ونشر العدل وتوحيد زي رجال الدين ، وأمر بمنع الربا ، ودعا التجار الى البيع والشراء وهدد المتلاعبين بالأسعار بالعذاب (٣) .

فكانت محاولته هذه بداية لقيامه بكثير من الاصلاحات التي تدخل في باب

---

(١) أشار خواندمير م ٣ ج ١ ص ٨٣ الى تعهد نوروز بذلك بقوله : «ان رغبتي في ان أضع اميرالعالمين على سرير السلطنة عن قريب وأرفع عنه بايدو الكافر ، وأخضع جميع الامراء والعظماء على شريطة أن ينير الأمير قلبه بنور الايمان ويسلك طريق الاسلام ويتبع ملة نبي آخر الزمان» انظر نفس المعنى عند هورث ج٢ ص٣٨٣-٣٨٤.

(٢) قتل نوروز بأمر غازان في ذي الحجة ٦٩٦ هـ / اكتوبر ١٢٩٧ م .

(٣) وصاف م ٣ ص ٣٤٤ .

تقوية الشريعة وتنفيذ تعاليم الاسلام التي أصبحت بحكم شمول تعاليم الاسلام مختلف نواحي الحياة (١) .

ففي مجال الاصلاح الديني بالاضافة الى ما سبق أكد غازان على مبدأ العدالة بين الناس ، ومنع القوي او المتنفذ من الاعتداء على الضعيف ، فأعاد تنظيم القضاء ووضع الشروط لاختيار القضاة ، وقاضي القضاة ، واستوحى رضى اهل بغداد بذلك

واهتم بآل البيت ، والمراكز الدينية المقدسة ، فأوقف الوقوف للانفاق عليها ، وإقالة فقرائها وترميم وبناء ما انهدم من بنيانها ، وبنى دوراً في المدن الكبيرة سماها دور السيادة لتكون تحت تصرف رجالات آل البيت في حلهم وترحالهم وأوقف للانفاق عليها الوقوف الكثيرة من القرى والمزارع والعقارات .

واهتم كذلك في العناية بامور الحج ، وارسال موكبه الى مكة حسب العادة ، واكساء الكعبة المشرفة وتأمين ذلك بمهاداة امراء مكة وشيوخ العشائر (٢) .

وفي مجال الاصلاح الاجتماعي ، سعى غازان لخلق المواطن الصالح ، فأصدر الأوامر بمنع الميسر وشرب الخمر والاقراض بالربا . وضغط على خواتين الأسرة وامرائها الذين كانوا يتاجرون بالربا وهددهم بحرمانهم من استعادة رؤوس اموالهم .

---

(١) قام خواندمير بتلخيص هذه الاصلاحات في عشرين حكاية . انظر حبيب السير م ٣ ج ١ ص ٩١ وما بعدها .

(٢) حمد الله مستوفي القزويني نزهة القلوب ص ٣٢ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٩١ - ٩٤ ، الشبنكاري الورقة ٣١٥ - ٣١٧ ، التاريخ الغياثي الورقة ١٤٦ ، مصطفى بدر - مغول ايران بين الاسلام والمسيحية ص ٤٥ - ٤٨ .

Howorth·3·P·530.

وحارب البغاء ، وكان عملياً في ايجاد الحلول لعلاجه كما ينقل ذلك مصطفى بدر وتدخل في شؤون تكوين الاسرة وحمايتها من الانفصال ، وتشجيع الزواج ومعالجة ارتفاع الصداق (١) .

وفي مجال الاصلاح الزراعي سعى غازان لتوفير الأمن والاستقرار للفلاحين لكي لا يهربوا من مزارعهم وقراهم نتيجة لسوء تصرف موظفي الدولة من جباة ورسل وغيرهم ، كما عمل على تشجيعهم على زيادة الانتاج الزراعي ، وذلك بتسهيل عملية الجباية منهم وتقسيطها عليهم من ناحية ، واقامة مشاريع الري لهم من ناحية اخرى ، وكان نصيب العراق من هذه المشاريع اكثرها ، فضلا عن ان من اغراض انشائها بالاضافة الى نفعها الزراعي ، تقربة الى رجال الدين وخاصة آل البيت ، من ذلك انشاؤه ترعة من الفرات في اعلى الحلة لايصال المياه الى مدينة كربلاء وارواء وزرع الصحراء الكبيرة المحيطة بها ، وعرف هذا بالنهر الغازاني . وحفر ترعة ثانية لايصال المياه الى مشهد الامام علي في النجف ، وترعة ثالثة لايصال المياه الى الشيخ ابي الوفاء ، في قرية ام عبيدة القريبة من واسط (٢) .

---

(١) وصاف م ٣ ص ٣٤٤ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٩٤ - ٩٦ ، مغول ايران ايران بين الاسلام والمسيحية ص ٤٢ - ٤٥ .

(٢) وصاف م ٤ ص ٤٠١ ، الشبنكاري الورقة ٣١٧ ، التاريخ الغياثي الورقة ١٤٦ ، الحوادث الجامعة ص ٤٩٧ . العزاوي ج ١ ص ٣٨٢ ، ٣٩٨ ، خصباك - احوال العراق الاقتصادية ص ١٢٠ . مجلة كلية الآداب - بغداد م ٤ اغسطس ٩٦١ وهو يعلق على النهر الغازاني بأنه ربما كان هو نفس النهر العباسي المسمى بالعلقمي حيث أعاد غازان تنظيفه وفتحه . نزهة القلوب ص٤٦ في الاشارة الى مرقد الشيخ ابي الوفاء في ام عبيدة .

وفي مجال الاصلاح المالي تجلى حزم غازان وبعد نظره ، فقد كانت الخزائن خاوية عندما تولى العرش . واضطر هو ونوروز عند خروجهما لدفع اعتداء مغول ما وراء النهر عن خراسان ، الى مداراة الناس ومعاملتهم بالحسنى لكي يقرضوهم الاموال لانفاقها على تجهيز الجيش الزاحف وامداده بالمؤن ، وعندما استقر في سلطانه ، وجد أن هناك أيدي كثيرة تتناهب الاموال فلا يصل منها الى الخزانة إلا القليل ، وعندما بدأ في اصلاحه ، بدأ من الأساس معتبراً كأن لم يكن هناك تنظيم من قبل ، وقام باجراء مسح شامل لجميع الملكيات الزراعية وحدد عليها الضريبة وجعل دفعها على قسطين ، ونظم عملية الجباية بحيث لا يستوفي الجابي شيئاً اضافياً عليها ، وكان على الجابي ان يحمل معه الأمر الرسمي بتفاصيل الضريبة لكل قرية من القرى (١) .

ولتأمين سلامة التطبيق عمل على ازالة وضع كل ما من شأنه اعاقة ذلك ، ففرض على الجيوش ان لا تسلب وتعتدي على سكان القرى خلال مرورها واقامتها ، بعد أن أمن لهم حاجتهم وخصص لهم الاموال ، كما فرض على موظفي البلاط ، وامراء الاسرة ان يلتزموا بهذه التعليمات .

ونظم الرسل الذين يتنقلون في البلاد لحمل الاوامر الرسمية ، والذين كانوا نموذجاً سيئاً للارهاب والاستغلال ، فحدد عددهم ومنع استخدامهم إلا للعمل الحكومي ، وأعاد تقسيم مراحل الطرق وجهز محطات الراحة لهم بما يحتاجون اليه من خيول ولوازم بحيث لا تمتد أيديهم الى اموال الناس (٢) .

(١) *Howorth . 3 . P . 478 ، Sykes . 2 . P . 113*

(٢) خواندمير م ٣ ج ١ ص ٩٨ ، علي ابراهيم حسن ـ دراسات في تاريخ ـ

واعتمد على الذهب والفضة كأساس للتعامل عند جمع الضريبة ، فحدد سعرهما ومنع أخذ الضريبة او الصيرفة عند تبادلهما ، وحدد الموازين والمكاييل ، ووحد عياراتهم على أساس ما هو معمول به في تبريز من عيار وسنجة ، وفي جميع هـذه الاعمال كان يميل الى التخفيف عن الرعية في الضريبة وجبايتها (١) .

وعندما لاحظ تأثير اختلاف موعد الجباية عن وقتها الحقيقي وما يسببه ذلك من تعسف وظلم ، أمر بعلاج ذلك والتوفيق بين السنتين الشمسية والقمرية ، واعتبر يوم ١٢ رجب ٧٠١ هـ بداية لتأريخ جديد عرف بالتاريخ الايلخاني (٢) .

وفي مجال الاصلاح العمراني ، خلف لنا غازان الكثير من الآثار العمرانية ، فأعاد اعمار تبريز واختار احـــدى ضواحيها التي حملت اسم الشام فجعلها مركزاً لاعماره واستقراره وشيد فيها مجموعة من البنايات بينها ضريحه الذي امتاز بالفخامة والضخامة ، كما أعاد اعمار مدينة اوجان القريبة من تبريز ايضاً والتي كانت مشتى

- المماليك البحرية ص ١٥٩ ، ايران في عهد غازان ص ١٣٣ -- ١٣٦ .

Malcolm. 1. p. 275 ، Sykes . 2 . p . 113 - 114 .

(١) خواندمير م ٣ ج ١ ص ١٠٠ . الحوادث الجامعة ص ٤٩٣ ، العزاوي ج ١ ص ٣٨٩ ، ايران في عهد غازان ص ١٤٢ - ١٤٤ .

مينورسكي - ترجمة المعارف الاسلامية م ٤ - تبريز - ص ٥٤٥ .

Howorth. 3. P. 421.

(٢) تاريخ كزيدة ص ٥٩٤ ، العزاوي ج ١ ص ٣٨٩ ، بينما اعتبر فصيحي خوافي بداية هذا التاريخ يوم السبت ١٠ رجب . اما هورث *Howorth* . ج ٣ ص ٥٣٠ فاعتبره يوم ١٣ رجب يعادل ١٤ مارس ١٣٠٢ م .

الأيلخان وحملت اسم مدينة الأسلام .

بالاضافة الى عشرات من المربط والمساجد ودور العلم التي اوقف لها الوقوف المنتشرة في أرجاء البلاد (١) .

اما الحركة العلمية ، فكانت رعايته لها تعبيراً عن تقدير العلماء للعلم ، فقد كان غازان نفسه عالماً ، أشار الى ذلك رشيد الدين عندما وصفه برجاحة العقل وسعة المعارف ، وكذلك وصفه خواندمير .

فكان العلماء يجدون عند وفودهم اليه حاملين نتاج افكارهم ، يجدون كل تقدير ورعاية ، وكانت المدارس والمكتبات اول ما يزورها عند وروده الى المدن الكبيرة مثل بغداد ، فضلا عن انشائه العشرات منها .

اما دار الرصد في مراغة فكان موضع اهتمامه وتشجيعه ايضاً حتى انه كما يشير بارتولد *Barthold* ، أمر ببناء مركز آخر للرصد في تبريز . وكان اطلاعه واهتمامه بالتاريخ وخاصة المغولي منه ، دليل على سعة اطلاعه وعلى حرصه عليه ، ولعل خير ثمرة قدمها لعلم التاريخ ، هو تشجيعه لوزيره رشيد الدين على تأليف كتابه جامع التواريخ الذي انتهى من تأليفه في الوقت الذي توفي فيه غازان (٢) .

---

(١) التاريخ الغياثي الورقة ١٤٦ ، مقدمـة كاترمير م ٢ ج ١٨ ، ٢٣ . مينورسكي ـ ترجمة المعارف الاسلامية م ٤ ـ تبريز ـ ص ٥٤٥ . لسترنج ـ بلدان الخلافة الشرقية ص ١٩٦ ، ١٩٨ .

دبرتوار *Ropertoire* ج ١٤ ص ٤٨ ، ٤٩ ، رقم ٥٢٧٦ ، ٥٢٧٧ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٩١ ، مقدمة كاترمير م ٢ ج ١ ص ١٧ في استقبال غازان لصاحب تاريخ وصاف ، انظر ـ

وحقق غازان الكثير من اهداف اصلاحاته ، فامتلأت الخزائن بالأموال وازدادت واردات الدولة كثيراً عما كانت عليه سابقاً (١) ، وساد الأمن والاستقرار ربوع البلاد ، وانتشر الرخاء ، وبينما كان غازان يستعد لقطف ثمار هذه الجهود ، أدركه الأجل بالرغم من انه لم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره إلا بسنوات ثلاث ويشير رشيدالدين الى انه كان قد عهد بولاية عهده لأخيه اولجايتو قبل ذلك بسنوات خمس ، وانه جدد هذا العهد قبيل وفاته بأيام قليلة حيث جمع الأميرات والامراء وأركان الدولة واكد عليهم وصيته (٢) .

وقد توفي في يوم الأحد ١١ شوال ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م بعد حكم دام اكثر من ثمان سنوات بشهرين ونصف تقريباً . ودفن في الضريح الذي أعده لنفسه في منطقة الشام بضواحي تبريز . وكان اول ايلخان مغولي يدفن في مكان ظاهر (٣) .

وسار اولجايتو على خطى اخيه في إدارة البلاد والاهتمام باصلاحها ، ولكنه

ـ ايضاً ص ٨٢ ، ٢١٣ ، في تكليف غازان لرشيد الدين لتأليف جامع التواريخ

Howorth . P . 45I .

Bortholof . 2 . *Chazan* . P . 150 . *Elliot* – I – *Bibloigraphical Index* . P . 6 .

(١) يذكر بارتولد ـ ان الواردات بلغت في عهده ٢١٠٠ تومان بعد ان كانت ١٧٠٠ تومان انظر ص ١٥٠ من *Encof Isl* . 2 .

(٢) مقدمة رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ١٨٥ .

(٣) مقدمة رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ١٨٤ ، وصاف م ٤ ص ٤٥٥ ـ ٤٥٨ خواندمير م ٣ ج ١ ص ٩١ ، مجمل فصيحي حوادث سنة ٧٠٣ هـ . الدياربكري . الخميس في احوال انفس نفيس ج٢ ص٣٨١ . لسترنج ـ بلدان الخلافة الشرقية ص١٩٦ .

كانت تنقصه روح اخيه وعزيمته التي كانت قوة تراقب وترهب .

وكان اهتمامه بالعمران اول عمل قام به ، إذ أمر في ربيع ٧٠٤ هـ باكمال البناء الذي كان ابوه ارغون قد وضع أسسه لانشاء مدينة الارغونية في العراق العجمي ، وقد سماها بالسلطانية ، وبنى فيها دوراً للضيافة وللسيادة ، ومدرسة على غرار المستنصرية ، ومستشفى ومسجد الجمعة . واقتدى الامراء به فشيدوا بجواره حتى تحولت الى مدينة كبيرة اتخذها عاصمة له ، فتوارد اليها الناس من اقطار الدنيا (١) . وبنى مدينة اخرى سماها سلطان اباد في منطقة كردستان قرب موغان لتكون مصيفاً له بحكم وقوعها فى منطقة جبلية (٢) .

واهتم كذلك بتشجيع الحركة العلمية وأحاط نفسه بعدد من العلماء كان على رأسهم وزيره رشيد الدين الذي كان موضع رعايته وتشجيعه على اضافة بعض الفصول الى كتابه السالف الذكر ، والذي أغدق عليه من الاموال والضياع عند تقديم الكتاب له مما شهد به رشيد الدين نفسه بأنه ليس هناك ملك أظهر نحو أحد رعاياه مثل هذا السخاء الشاسع (٣) .

---

(١) وصاف م ٤ ص ٤٧٥ - ٤٧٧ ، ابرو ص ٨ ، خواندمير م ٢ جـ ١ ص ١٠٩ . ابو الفداء - تقويم البلدان ص ٤٠٦ - ٤٠٧ . مسالك الأبصار جـ ٢ ق ٢ الورقة ٢٧٤ .

مينورسكي - ترجمة المعارف الاسلامية م ٤ - تبريز ص ٥٤٥ .

(٢) حمدالله مستوفي قزويني . تاريخ كزيدة ص ٥٩٦ ، نزهة القلوب ص١٠٧ .

(٣) وصاف م ٤ ص ٥٢٩ ، مقدمة كاترمير م ٢ جـ ١ ص ٢٥ .

ولقي مرصد مراغة نفس العناية التي تعود عليها من الايلخانات ، كما احتل المشرف عليه أصيل الدين الحسن بن النصير الطوسي نفس المكانة التي احتلها في نفس غازان باعتباره منجم السلطان (١) .

وكانت رعاية اولجايتو للعلم والادب انعكاساً لاهتمامه بشؤون الاسلام وجزءاً منه . واذا كنا نلمس بعض الدوافع الشخصية او السياسية في اسلام غازان ، فاننا لا نجد ذلك في اولجايتو الذي ورث عن اخيه التمسك بالاسلام ورعاية شؤونه مثلما ورث عنه الحكم .

ولكن اولجايتو الذي كانت اوضاع البلاد في عهده اكثر استقراراً مما كانت عليه في عهد اخيه ، لم يكن لديه ما يشغله سوى احاطة نفسه برجال الدين والاستماع الى شروحهم ، وقع ضحية تنابز هؤلاء العلماء وتنافسهم المذهبي ، الذين لم يحسنوا القيام بواجباتهم الدينية الصحيحة كما أعتقد ، اذ كان عليهم أن يدركوا اولا أن معركة الاسلام مع الوثنية لم تنته بعد : كالمغول الوثنيين لا زالوا يشكلون جانباً من حاشية الايلخان وبلاطه ، وكانوا من القوة والتماسك بحيث لم يذوبوا أمام شدة غازان عليهم ، وكان عليهم أن يدركوا ثانياً ان اسلام الايلخان مكتسب وليس أصيل ، وبالتالي فان جذوره ليست عميقة في نفسه .

فقد أدى تنابزهم أمامه واسفافهم في المناقشة التي فقدت طابعها الديني ، أدى ذلك الى تشويه صورة الاسلام القلقة في نفسه حتى اوشك ان ينصرف عنه نهائياً أمام

---

(١) كرامرز *Kramers* ترجمة المعارف الاسلامية م ٢ ـ الجايتو خدابنده ص ٥١٢ . العيني ـ وفيات سنة ٧١٥ هـ الورقة ٦١ ـ ٦٢ .

إلحاح رجال المغول الوثنيين وكهنتهم الذين فسروا له الاحداث الطبيعية التي صادف وقوعها في تلك الفترة بأنها من شؤم المسلمين عليهم لتركهم ديانة آبائهم وأجدادهم ، لولا أن أشار عليه بعض المقربين من الحاشية باتخاذ التشيع مذهباً له اقتداءاً بأخيه غازان (١) ، وسببوا له تفضيل ذلك فاستجاب الى نصحهم فكان اول ايلخان مغولي اعتنق المذهب الشيعي .

وقد اندفع بعد ذلك لتطبيق تعاليمه على الحكم ، واحاط نفسه بعدد من فقهائه كان أبرزهم الشيخ جمال الدين ابو منصور الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي ، الذي كان تعلق الايلخان به من الشدة بحيث ألزمه بمرافقته وأقام له مدرسة سيارة بجوار بلاطه يفد اليه التلاميذ فيها ، وشجعه على التأليف والارشاد (٢) .

وشجع اولجايتو كل ما من شأنه تقوية الاسلام ورفع مكانته .

ففي مجال الاصلاح الاجتماعي ، اكد على تطبيق تعاليم الاسلام في ازالة الفساد من المجتمع ، فأمر بغلق الخمارات ودور البغاء والميسر ، كما منع بيع البنات المغوليات البكر في سوق الرقيق واكد على نشر العدل بين الناس ، وأسقط كثيراً من الرسوم

---

(١) ليس لدينا ما يشير الى اعتناق غازان المذهب الشيعي .

وهناك فرق بين احترام ومحبة آل البيت الذي هو من خلق الاسلام وبين التشيع ، ومن المحتمل ان تقرب غازان من آل البيت كان لتحقيق اغراض سياسية معينة تفيده في صراعه مع المماليك .

(٢) خواندمير م ٣ ج ١ ص ١٠٩ ، ١١٢ ، ابو المحاسن م ٢ المنهل الصافي الورقه ٤٨ – ٤٩ . العاملي – اعيان الشيعة ج ١٤ ص ٢٧٧ وما بعدها ، الصياد – مؤرخ المغول الكبير – ص ١٤٤ – ١٤٨ .

الأضافية عنهم مؤكداً ان الدولة ليست محتاجة الى مال الرعية ما داموا يدفعون الخراج (١) .

وطالت فترة حكم اولجايتو عما هو مألوف بالنسبة للايلخانات حيث زادت على ثلاث عشرة سنة ، ترك لنا خلالها كثيراً من الآثار الخيرية التي كان قد أمر بإنشائها وأوقف لها الوقوف لادامتها ولا زالت نقوشها شاهدة على جهوده (٢) .

وكان قبيل وفاته في غرة شوال ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م وقد بلغ من العمر السادسة والثلاثين ، قد أوصى بولاية العهد لابنه القاصر أبي سعيد ، وأوصى الامراء برعايته. وقد دفن في ضريحه الذي كان أنشأه في السلطانية (٣) .

وتسلم الامراء الحكم ثانية باسم ابي سعيد الذي لم يكن قد بلغ الثانية عشرة سنة من العمر ، وانفرد من بين الامراء جوبان الذي تولى الوصاية عليه اكثر من عشر سنوات ، كان خلالها ابو سعيد مجرد رمز لا يملك سوى الاسم ، بينما كان جوبان مشغولا في القضاء على الاطماع الخارجية والداخلية التي ظهرت استصغاراً بالايلخان .

ويمكن القول ان اهم اصلاح في هذه الفترة كان في الميدان الاجتماعي على اثر

---

(١) وصاف م ٤ ص ٥٢٠ - ٥٢١ ، ابرو ص ٥٥

Howorth · 3 · P · 555 ·

(٢) انظر ربرتوار *Repertoiro* ج ١٣ ص ٢٥٦ رقم ٥١٧٨ ، ج ١٤ ص ٢٤ رقم ٥٢٣٨ ، ص ٨٠ رقم ٥٣٢٨ .

(٣) وصاف م ٥ ص ٦١٥ . ابرو ص ٦٩ - ٧١ ، اليافعي مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٥٥ .

النكبة الأقتصادية التي حلت بالبلاد والتي أدت الى حدوث المجاعة في سنوات ٧١٨ هـ ، ٧١٩ هـ ، وامتدت ذيولها الى سنوات اخرى لاحقة ، وكانت من الشدة والقسوة بحيث هلك الناس في دورهم ، وباع آخرون اولادهم . فتطير المسؤولون ولجأوا الى رجال الدين يسألونهم العون والدعاء ، والذين فسروا لهم ذلك بأنه من غضب الله عليهم وعقابه لهم لانتشار الفساد والظلم والمعصية .

فأصدر ابو سعيد امره بغلق الحانات ودور البغاء ، ومنع صناعة الشراب ، وأراق ما وجد منه فى البلاد ، وعوقب عدد من الناس بالموت لوجود الشراب لديهم، وزوجت البغايا والخاطبات ورفعت بعض المكوس والضرائب (١) .

وتحرر ابو سعيد من وصاية چوبان في محرم ٧٢٨ هـ . ولكنه لم يرتفع الى مستوى المسؤولية ، اذ دفعه شبابه اليافع والحرمان العاطفي الذي كان يعيشه الى تسليم مقاليد الامور الى وزيره غياث الدين محمد الذي كان يستوحي السلطان من زوجة ابي سعيد بغداد خاتون . ابنه وصيه چوبان الذي كان الايلخان قد تعلق بها حتى

---

(١) شرح النويري ج ٣٠ ق ٣ الورقة ٤١٥ - ٤١٧ هذه النكبة ، وبدأ بها منذ سنة ٧١٧ هـ وعدد المدن التي حدثت فيها وأحصى عدد الموتى في كل منها . وذكر أن الموصل مثلاً كان فيها ١٥ الف بيت لم يبق منهم سوى خمسمائة بيت ، وكذا حال بقية المدن الاخرى . انظر ايضاً الورقة ٤٨٥ - ٤٨٦ . العيني في حوادث سنة ٧٢٠ هـ الورقة ٢٤١ - ٢٤٣ . السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢١١ ، ابن كثير ج ١٤ ص ٩٧-٩٩. الذهبي ج ٢ - تذيل دول الاسلام ص ١٧٤ - ١٧٧ ، علي ابراهيم حسن - دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ١٦١ .

اكره زوجها الشيخ حسن الكبير على طلاقها ليتزوج منها حسبما تقضي تعاليم الياسا (١)
وبقي ابو سعيد نتيجة لذلك مجرد رمز للسلطان الذي يمارسه الوزير من خلال رغبات
وتوجيهات بغداد خاتون ، مما دفع البعض من المؤرخين من المسيحيين الاجانب الى
وصفه بالحاكم الضعيف (٢) .

وقام الوزير مقام الايلخان في مباشرة الاصلاح ، فرعى الحركة العلمية والادبية
وجعل ديوانه ندوة من ندواتها ، فاجتمع حوله عدد كبير من العلماء الذين اهدوا
مؤلفاتهم اليه نظير تشجيعه ورعايته لهم ومواصلتهم بالاموال والهدايا (٣) .

واهتم الوزير ايضاً باقامة العدل والتخفيف عن الرعية وتقوية شعائر الاسلام ،
فرعى مواكب الحج ، وواصل شيوخ العرب بالاموال لحماية الطريق ، وانفق الاموال

---

(١) ابرو ص ١٤٢ : ابن حجر ج ٤ ص ١٣٥ في ترجمة غياث الدين محمد . اما
ابن فضل الله فى المسالك ج ٢ ق ٢ فانه يضرب بها المثل بقوله وهو يتحدث عن مشاركة
نساء المغول لأزواجهن في الحكم ... إلا ما كانت عليه بغداد خاتون بنت چوبان
امرأة ابي سعيد فاننا ما رأينا في زماننا ولا سمعنا عمن قارب زماننا ان امرأة
تحكمت تحكمها .

(٢) عثر بالقرب من اصفهان على مجموعة من الرسوم لبعض الارمنيين عملها
سنة ١٣٣٠ م وسجل فيها هذا الوصف لأبي سعيد انظر

H. Kurdian: An Importantyrmenian M.S. From. A.D.1330.
J.R.A.S.1933.P.604 - 606.

(٣) تذكرة الشعراء ص ١٤٩-١٥١ في الحديث عن البناكتي ، مقدمة كاترمير
لجامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٦٧ - ٦٩ .

لأقامة المشاريع الخيرية باسم الايلخان ، وأسقط المكوس والضرائب الزائدة عن الناس (١) .

وكان آخر ما سعى للقيام به هو اصلاح ما فسد من نظم الجباية في خراسان التي كانت اموالها تضيع قبل وصولها الى الخزانة ، ولكن وفاة ابي سعيد حالت دون تحقيق ذلك (٢) .

ولم يشذ ابو سعيد عن اسلافه في توديع الحياة مبكراً ، فقد أدركه الموت وهو في ريعان شبابه ، اذ لم يكن قد جاوز الثانية والثلاثين من العمر ، بعد حكم طال تسع عشرة سنة ، لم يدرك فيه شيئاً من معاني السلطان ، وكانت وفاته في يوم ١٣ من ربيع الآخر ٧٣٦ هـ بعد مرض مفاجىء وهو يستعد لصد اعتداء مغول القبچاق . ولم يكن قد انجب بالرغم من زواجه من عدة نساء (٣) ، فكان بذلك

(١) السلوك جـ ٢ ق ٢ ص ٣٨٩ - ٣٩٠ . ديرتوار *Repertoire* : جـ ١٤ ص ٢٤٩ . رقم ٥٥٦٦ ، ص ٢٦٨ رقم ٥٥٩٠ ، جـ ١٥ ص ٢٧ - ٢٨ رقم ٥٦٤٢ .

(٢) حمدالله القزويني نزهة القلوب ص ١٤٧ فى الحديث عن ولاية خراسان - ترجمته الانكليزية ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٣) تاريخ الجزري م ٣ الورقة ٤٥٤ ، ميرخوند جـ ٥ ص ١٧٨ ، براون جـ ٣ ص ٥٨ ، الشواربي - حافظ الشيرازي ص ٦٦ ابرو ص ١٤٣ - ١٤٥ وقد أشار في حديثه الى هروب دلشاد خاتون زوجة ابي سعيد بعد وفاته والى انها كانت حامل منه ، والذي أراه ان ابا سعيد كان عاقراً وان الغرض من ادعاء حملها كان سياسياً لدعم مركز علي بادشاه في صراعه مع الايلخان الجديد ارباؤون الذي هربت منه والذي كان قد قتل عمتها بغداد خاتون بعد استنكافها من توليه .

آخر الايلخانات من ذرية هولاكو وكانت وفاته ايذاناً بانتهاء حكمهم وزوال دولتهم.

ويبدو لي على ضوء ما سبق ، ان مشاكل الحكم واعباءه كانت اكبر من طاقة الايلخانات جميعاً على تحمله . اذ اننا لا نجد بينهم ايلخاناً طال حكمه اكثر من عشر سنوات سوى اباقا ، اما ابو سعيد فلا عبرة لما استغرقه من زمن فانه كان في اغلب أيامه قاصراً او محجوراً عليه .

كذلك لا نجد بين الايلخانات من مات حتف انفه ، او قتل ، ألا وهو في عز شبابه . ولعل السبب في ذلك بالاضافة الى عجزهم الاداري ، طبيعة الطفرة السريعة التي نقلتهم من حياة البداوة الى حياة الاستقرار ، والتي افقدتهم خصائص حياة الصحراء القاسية المتمثلة بالكفاح المستمر والصبر على المشاق وبعد النظر في معالجة الامور ، ولم توفر لهم سوى الكسل والرخاء والسلطان فاندفعوا بغير روية كالمحرومين وراء عواطفهم وشهواتهم وانغمسوا في الترف والفجور حتى اصبحت الخمرة وارضاء الجنس اهم ما يشغل بال احدهم في حياته .

حتى اننا نستطيع القول ان الايلخانات الذين توفوا بصورة طبيعية ، توفوا نتيجة مباشرة لافراطهم في الجنس والخمر مثل اباقا واولجايتو وابي سعيد .

وسوف نعود لتفصيل ذلك عند بحثنا العوامل غير المباشرة لزوال دولتهم .

اعوان الايلخان :

نائب الايلخان : — عندما أقام هولاكو نظامه السياسي في البلاد التي صفت له استعان بأبنائه وبني عمه لادارتها بعد أن ساعدوه في اخضاعها ، على اننا نلاحظ انه لم يكن ابناء جنكيز فقط هم الذين قادوا الجيوش خلال العمليات العسكرية التي

أمنت فتح هذه البلاد ، بل كان جنكيز قد استعان بجانب ابنائه بعدد من امراء المغول وابطالهم الذين كانوا ملوكاً اوامراء لعشائرهم ، والذين التحقوا ومعهم اتباعهم في الجيوش الزاحفة ، لذلك فقد نال هؤلاء الامراء نصيبهم في ادارة البلاد بالقدر الذي احتاج اليه الايلخان .

ولما كانت طبيعة العلاقة بين هؤلاء مع الايلخان اشبه بعلاقة العبودية ، لذلك لم يكن يجرأ هؤلاء الامراء على الوقوف أمام الايلخان على قدم المساواة مع الامراء الآخرين من ابناء الأسرة .

واستمر هذا الحال غالباً طيلة عهد هولاكو وابنه اباقا ما دامت الاسرة متماسكة موحدة الزعامة .

وكان الاستقرار النسبي الذي ساد البلاد في أواخر عهد هولاكو قد دفعه بالاضافة الى تنظيم ادارة البلاد ، كما مر علينا ، دفعه الى تنظيم الجيش وتوزيعه على البلاد ليقوم بواجبه في نشر الأمن ودفع الاعتداء ، كل في منطقته ، بعد أن كان الايلخان قبل ذلك يقوم بهذه المسؤولية بنفسه متنقلا في ارجاء البلاد .

وأدى هذا التطوير الفني في واجبات الجيش الى ضرورة ايجاد قيادة مستقلة تقوم بالتخطيط لهذه الواجبات بالنيابة عن الايلخان وتكون مسؤولة أمامه ومرتبطة به .

وبالرغم من أهمية هذه المسؤولية ، فان هولاكو لم يخترلها واحداً من أبناء أسرته ، لما قد ينشأ عن اشغاله لها من محاذير على الايلخان نفسه او على أبناء الأسرة الآخرين ، بل اختار واحداً من أمراء المغول الذي كان قد قضى « كما يذكر رشيد الدين » مدة في خدمة الايلخان وعرف بالاخلاص والطاعة وهو ايلكانويان ،

فأعطي قيادة الجيش وسمي بأمير الجيوش او أمير الامراء او بكلربكي فيما بعد (١).

وبقي أمير الجيوش بمنصبه طيلة عهد هولاكو ، وأصبح من واجبه أن ينفرد بأباقا باعتباره ولي العهد قبيل توليه المسؤولية ، لكي يقدم له الطعام والشراب ويطلعه على الأحوال وما حدث لأبيه (٢) .

وفي عهد اباقا حافظ ايلكانويان على منصبه كأمير للجيوش بالرغم من اغفال المؤرخين لذكره ، ولكننا نستدل على ذلك مما رواه رشيد الدين عند وصول مسعود بك الى العاصمة موفداً من قبل قايدو وبراق ومثوله بين يدي الايلخان ، جلس متصدراً جميع الأمراء ما عدا ايلكانويان (٣) .

ومن المحتمل انه توفى بعد ذلك ، إذ ان خواندمير في اشارته الى تنظيمات اباقا ذكر أن الايلخان عهد بمنصب امير الأمراء الى سونجاق نويان (٤) .

وكان المفروض أن يستمر الاحترام والهيبة حاجزاً بين الايلخان وأسرته وبين الامراء لكي تسير عجلة الدولة على النحو الذي نشأت عليه في عهد مؤسسها ، ولكن الزمن لا يستقر على حال واحد ، فقد طرأت أحداث عديدة أثرت على طبيعة هذه العلاقة وطورتها .

---

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ١٠ ، ابن فضل الله . مسالك الأبصار ج ٢ ق ٢ الورقة ٢٧٩ . القلقشندي التعريف بالمصطلح الشريف ص ٤٥ .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٠ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٥ .

(٤) حبيب السير م ٣ ج ١ ص ٦٢ ، الشبنكاري الورقة ٣١١ ، مع العلم بان رشيد الدين أشار عند بحثه تنظيمات اباقا الى ان سونجاق نويان تولى مسؤولية ممالك بغداد وفارس .

من ذلك ان صفة الاستقرار أصبحت اكثر انطباقاً على الايلخانية وخاصة في أواخر عهد اباقا ، كما ان اخوة السلاح التي جمعت بين ابناء الاسرة والامراء في ميدان القتال اوجدت نوعاً من الاحترام المتبادل القائم على التقدير ؛ فضلا عن فارق السن والتجربة والكفاءة التي امتاز بها الامراء بالنسبة لأبناء الاسرة الذين تقدموا لتولي المسؤولية في هذه الفترة .

ونلمس هذا التطور بوضوح في اجتماع القوريلتاي الذي عقد لاختيار خلف لأباقا (١) ، حيث برز دور هؤلاء الامراء لأول مرة في تحريض ابناء الاسرة على طلب العرش ، وتقرير الايلخانية بعد ذلك لأحمد تكودار الذي كانت شروط الايلخانية اكثر انطباقاً عليه ؛ والذي كان اغلب امراء الاسرة بجانبه ، وكافأ الايلخان الجديد كل من الامراء شبكتور نويان وسونجاق نويان على جهودهم في ايصاله للعرش (٢) .

وقد أشرت سابقاً الى ان الاحداث السياسية التي رافقت تولي احمد تكودار لم تسمح له باجراء تغيير كبير في المناصب الادارية والعسكرية ، لذلك فقد استمر سونجاق نويان في منصبه كأمير للجيوش .

واستطاب الامراء هذا التدخل الذي قد يحقق لهم بعض الامتيازات والمنافع ، وعاودوا التدخل ثانية لمصلحة ارغون وبقية الطامعين في العرش من الامراء ، واذا كانوا قد فشلوا فيما مضى في منع تكودار من الوصول الى العرش ، فانهم نجحوا بعد

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٩١ ، حيث انقسم المجتمعون الى ثلاث مجموعات تؤيد ثلاثة مرشحين في أول الأمر .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٩٧ .

ذلك في القضاء عليه ، ولكنهم انقسموا كرة اخرى في تفضيل المتنافسين (١) على بعضهم حتى فرضت القوة التي هدد بها بوقا ، فرضت ارغون على منافسيه بالرغم من انه كان اضعفهم حجة وأقلهم نصيباً في تعاليم الياسا .

وكافأ ارغون الامير بوقا على جهوده في احقاق الباطل بأن فوضه النيابة عنه في كل كبيرة وصغيرة من مصالح البلاد وأطلق يده في شؤون الوزارة والجيش ، وزاد في اكرامه عندما أمر بأن ينثر على رأسه الذهب حتى اوشك ان يختفي تحته(٢).

وساهم الخاقان قوبلاي في تقدير عمل بوقا الذي كانت له اهمية خاصة في نظره بالنسبة لمستقبل سلطانه على البلاد (٣) ، وأمر بمنحه لقب چينكسانك أي امير الأمراء فكان بذلك اول امير مغولي من غير ابناء الاسرة يتلقى هذا التكريم من الخاقان ويحمل هذا اللقب (٤) .

---

(١) كان هناك ثلاثة مرشحين ايضاً هم هولاجو بن هولاكو ، وجوشكاب بن جمقور بن هولاكو ، وارغون بن اباقا ، انظر في هذا الموضع ايضا تعليق مصطفى بدر في رسالته - ايران في عهد غازان - عن دور هؤلاء الامراء في تحديد نفوذ الايلخانات واختيار الضعيف منهم ص ٥٤ .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٢٨

Howorth·3 P·313 . D'Herbelot·P.118.

(٣) ذلك ان التعاون الذي تم بين مختلف امراء المغول على محاربة تكودار لم يكن لغرض خلعه عن العرش فقط لمصلحة المرشحين الآخرين ، بل للقضاء على فكرة الاسلام التي اعتنقها احمد والتي اصبحت تهدد الكيان المغولي كحكم وثني بالزوال . وبالتالي تقضي على نفوذ الخاقان على الدولة الايلخانية وهو ما حدث في عهد غازان .

(٤) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٣٥ . العزاوي ج ١ ص ٣٢٣

Howorth . 3 . P . 320 .

وبفضل هذا التكريم والتفويض ، امتلك بوقا امتيازات واسعة وسلطات مطلقة فقد كان من هـذه الامتيازات أنه لا يعاقب اذا صدر منه خطأ حتى تبلغ ذنوبه تسعة ذنوب ، وأن لايستدعى إلا بواسطة الايلخان نفسه ، وان اوامر الايلخان لا تصبح نافذة ما لم يطلع عليها ويذيلها بختمه الأحمر ، بينما لا تحتاج اوامره الى تصديق الايلخان (١) .

ومن ملاحظة هذه الامتيازات نجد أن بوقا أصبح الحاكم الفعلي للبلاد ، وان ارغون مجرد اسم للايلخان . وباشر ارغون صلاحياته فى ادارة دفة الحكم ، حيث عين أخاه وأعوانه حكاماً ومتصرفين بالبلاد . ولكن هذه الامتيازات كانت اكثر من ان تتحملها عقلية بوقا الذي لعب به الغرور فاستخف بالامراء الآخرين وأساء معاملتهم ، فأخذوا يتجمعون عليه ويتألبون ضده ويتقولون على مسمع من الايلخان بما ينقص من قدره ويثير الشك فيه ، وزاد اعوان بوقا في الطين بلة عندما اعتمدوا على قوته ومكانته ، فأساؤا التصرف واستبدوا بالناس (٢) وبذلك أعطوا مزيداً من الادلة لاعدائهم لكي يعززوا الشك فى نفس الايلخان الذي بدأ يستمع اليهم اخيراً وأخذ يقلص من الصلاحيات المعطاة له ، ويعطيها لامراء آخرين من أعدائه .

وتكاثرت الشكاوى وتكاثر تجريده وعزل اعوانه من مناصبهم ، وأحس بوقا

---

(١) *Howorth.3 P.322* .

(٢) من ذلك ان اخاه اروق احتجز أموال بغداد ولم يرسلها للخزانة فضلاً عن عدم احترامه رسـل ارغون ، وكان والي تبريز لا يلتفت الى أي رسول يفد عليه حاملاً الفرمان والبايزة ما لم يكن مختوماً بخاتم بوقا الاحمر ، انظر رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٤١ – ١٤٢ .

بالخطر يهدده لو انكشف استغلاله للسلطان واستئثاره بالاموال ، فعزم على استبدال الايلخان بآخر . وسعى لتنفيذ ذلك بتجديد اتصاله ببعض امراء الجيش ، ثم وقع اختياره على الامير جوشكاب أحـــد منافسي ارغون على العرش فأرسل يشكو له الايلخان ويعدد خدماته له لاجلاسه على العرش ، وكيف ياقى منه الآن . ثم يعرض في آخر رسالته استعداده للتعاون معه لاحلاله محله باعتباره من ارومة هولاكو(١).

وكان من سوء حظ نائب الايلخان ان سلوكه في أيام عزه لم يترك له حبة من محبه في قلوب امراء المغول تشفع له أيام محنته ، اذ كشف جوشكاب بدافع الانتقام منه . أمره الى ارغون الذي أمر بالقضاء عليه ، فلم يقف بجانبه أحد من أعوانه ، حتى عز عليه أن يجد مكاناً يحتمي به .

واتعظ ارغون بدرس بوقا فلم يعهد بمنصب النيابة لاحد من الامراء ، بل وزع القيادات بينهم كل حسب منزلته ورتبته ، وان كان قد برز من بينهم شبكتور نويان باعتباره اكبرهم سناً (٢) .

ولكن الخطأ الذي وقع بها ارغون هو تسليطه وزيره الجديد على الحكم الذي استطاع التفريق بين الامراء فاستخدم قلة منهم في اعماله ، بينما عمد الى التقليل من شأن الآخرين وحرمانهم من كثير من الامتيازات والموارد التي كانوا قد تنعموا بها فثاروا عليه ، واستغلوا غيبوبة الايلخان فانتقموا منه وتسلموا زمام السلطة ، وسعوا لنقل الايلخانية من بيت اباقا لكي يخلصوا من مسؤولية اعمالهم السابقة ، ويعنوا

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٤٣ — ١٤٤ .

D'ohsson.4 P.15 - 23.

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٧٣ — ١٧٤ .

على الأيلخان الجديد وجوده في العرش فيسمح لهم بما يبتغون من سلطان ، ولكن انقسامهم على انفسهم مرة اخرى أدى الى فشلهم في تحقيق ما عزموا عليه (١) .

ولم يستعمل كيخاتو الحزم مع الامراء بعد توليه الايلخانية ، بل اتبع معهم سياسة اسدال الستار على ما حدث ، وأبقى شبكتور نويان في منصب النيابة عنه عند خروجه الى بلاد الروم وفوضه كل صلاحيات السلطة العسكرية والمدنية مدة غيابه(٢).

ولكنه بعد عودته ، أعاد النظر في تنظيمات الدولة وخاصة الجيش ، فبالاضافة الى انه قصر عمل الامراء على الشؤون العسكرية فقط ، فانه كذلك وسع من دائرة القيادة العامة للجيش فلم يجعلها بيد أمير واحد كما كان معمولا به في السابق بل جعلها مشاركة عندما أعطى الرئاسة فيها لاقبوقا نويان الذي أصبح بمنزلة القائد العام ، على أن يعاونه فيها اثنان من كبار الامراء هما شبكتور نويان القائد السابق ، وطغاجار نويان احد المتآمرين عليه (٣) .

وكان الايلخان كما يظهر يرمي من وراء هذه التجربة الى منعهم من الاتفاق عليه وبالتالي ضمان طاعتهم له . ولكن ذلك لم ينجه من خيانتهم له وغدرهم به .

وانتقلت الايلخانية من بيت اباقا عندما تولاها بايدو الذي أحس بفضل الامراء عليه ، فأرضاهم باعادة السلطة اليهم ووزعهم على البلاد ليمارسوا ذلك .

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٦٢ - ١٦٥ .

(٢) نفس المرجع ص ١٧٥

Howorth . 3 P . 361 .

(٣) وصاف م ٣ ص ٢٦٥ ، ميرخوند ج ٥ ص ١٢٣

D'ohsson . 4 . P . 95 - 96 .

وكان طغاجار نويان الذي كان من قدامى اصحابه فجعل منه كما يقول وصاف بكلاء بيكي وفي قبضته زمام الملك والمال ، واختار لمعاونته اربعة من الامراء وهم قبچق بال وتوكال وتوداجو ولكزي كوركان (١) .

ولا شك ان بايدو هدف من وراء توسيع قاعدة القيادة بهذا الشكل الى نفس الغرض الذي سعى اليه كيخاتو فيما سبق ، لذلك جاءت نهايته مثل نهاية صاحبه ، وعلى يد نفس هؤلاء الامراء الذين رفعوه مثلما رفعوا سلفه من قبل . ذلك ان ولاءهم كان معرضاً للتغير عند احساسهم بالخطر ، او تغير مصلحتهم التي استطاع الآن نوروز ان يؤمنها لهم لمصلحة غازان .

وعادت الايلخانية الى بيتها القديم بتولي غازان كرسيها ، الذي اختار لنيابته مدير اموره الامير نوروز فصدر اليرليغ بتفويضه الاشراف على كل عمل في جميع البلاد من نهر جيحون الى الفرات (٢) .

وقد أشرت سابقاً الى ان نوروز بلغ اوج قوته بعد طرده مغول ما وراء النهر من خراسان ، حيث أقال الوزير الزنجاني الذي كان قد اختاره الايلخان واستبدله بالدستجرداني . الذي هو أحد اعوانه ، ووزع اخوته على المناصب الهامة في البلاط فتولى حاجي الاشراف على الختم الملكي بالاضافة الى الشؤون المالية ، وأشرف اخوه الآخر على الرسـائل الخاصة للبلاط التي أصبحت تخضع لختمه الأحمر عند

---

(١) وصاف م ٣ ص ٢٨٤

Howorth . 3 . P . 378 .

(٢) وصاف م ٣ ص ٣٢٤ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٨٤

Howorth . 3 . P . 399 .

صدورها للتنفيذ .

ولكن عز نوروز لم يدم اكثر من سنتين ' اذ أن غازان لم يكن ضعيف الهمة ليستكين على تحكم نائبه به . فسرعان ما تخلص منه وباشر الامور بنفسه ' واختار لقيادة الجيش قطلوشاه نويان أحد كبار الامراء (١) . الذي لم تكن شخصيته لتطغى مع وجود غازان . ولكن مكانته تعرضت في عهد اولجايتو الذي اعطاه المكانة الاولى في الدولة من بعده باعتباره بكلربيكي ' ومنحه من الامتيازات المناسبة لمركزه فأصبح من صلاحياته ان يختم بختمه الأحمر على كل أمر .

وعين اولجايتو لمعاونته عدداً من كبار الأمراء أمثال چوبان ' وبولاد وحسين وسونج (٢) . على أن قطلوشاه لم يحاول شأن بقية الأمراء الذين سبقوه وتولوا هذا المنصب ' لم يحاول ان يستغل هذه المكانة الكبيرة ' فيعمد الى الاستئثار بالحكم ومزاحمة الايلخان او مضايقته ، بل حافظ على علاقة الاحترام والطاعة التي كان يحملها لأولجايتو .

ومن المحتمل ان الايلخان زاد في تكريمه فمنحه لقب قطلوبوقا ، إذ ان هورث Houorth . أشار الى ان چوبان عندما خلف قطلوشاه في منصبه بعد وفاته ، دعي ايضاً باسم قطلوبوقا (٣) .

وعند مقتل قطلوشاه خلال حروب كيلان ، أسند الايلخان منصب أمير الأمراء

(١) ابو الفداء ج ٤ ص ٣٩ .

(٢) وصاف م ٤ ص ٤٦٧ - ٤٧٢

D'ohsson . 4 . P . 481 - 482 .

(٣) Hist . of Mongols . 3 . P . 543 .

الى چوبان (١) الذي استمر في توليه مدة حياة اولجايتو ، وبلغ من اعزاز الايلخان له انه زوجه من ابنته دولندي في أواخر أيامه .

واستطاع چوبان المحافظة على منصبه عند تولي ابي سعيد الايلخانية أمام مزاحمة الأمير سونج اتابك الايلخان القاصر ، وذلك بفضل مساندة الأمراء والوزراء الذين دفعهم الخوف من بطش الأتابك بهم الى التمسك بزعامته عليهم ، الأمر الذي أدى الى توليه منصب الوصاية على الايلخان الصغير والنيابة عنه في الحكم فأصبح الحاكم الحقيقي للدولة (٢) .

وقد استبد چوبان بالحكم اكثر من عشر سنوات ، استعان خلالها بأبنائه فولاهم أطراف الدولة ، وأعطى الوزارة لأحد اعوانه المدعو ركن الدين صاين بعد وفاة الوزير عليشاه كما تزوج من الأخت الثانية للايلخان المسماة ساتي بيك بعد وفاة الاولى. وتصرف بأملاك الدولة وأموالها بدون رقيب او حسيب ، وبلغ من علو منزلته ان الخاقان المغولي في الصين أرسل اليه أحد رسله يحمل له خلعة التشريف ويمنحه لقب أمير الأمراء ، ويسلمه رسالة يثني عليه فيها لكفاءته وحسن إدارته (٣) .

---

(١) ابرو ص ١٤ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ١١٠ - ١١١ ، الشبنكاري ص ٣١٩ ، وليس لدينا اشارة الى تاريخ زواجه من ابنة الايلخان ، ولكن من الواضح انه كان متزوجاً منها عند وفاة اولجايتو .

(٢) وصاف م ٥ ص ٦١٨ - ٦١٩ ، ابرو ص ٧٣ ،

D'*herbelot* . P . *29* .

(٣) ابرو ص ١٢١ - ١٢٣ ،

Howorth . *3* . *P* . *606* .

وعندما بلغ الايلخان أشده ، أصبح أشبه بالمحجور عليه مع نائب چوبان في البلاط الذي كان يتولى شؤونه نيابة عن الايلخان وچوبان في وقت واحد ، ذلك هو دمشق خواجة بن چوبان الذي كان سوء تصرفه مع الايلخان من اهم الأسباب التي دفعت ابا سعيد الى مغامرة التمرد على وصاية چوبان و نجاحه في القضاء عليه وعلى اسرته(١).

وتشجع ابو سعيد بعد خلاصه من تحكم چوبان على ممارسة السلطة بنفسه ، فلم يعهد بمنصب امير الأمراء لأحد من الامراء ، وقاوم كل المحاولات التي بذلها الامير نارين طغاي لاحتلال مكانة چوبان ، حتى المسلحة منها والتي ادت الى مقتله.

على اننا سنرى ان ابا سعيد في الوقت الذي احتفظ فيه لنفسه بقيادة الجيش ، كان قد سلم امور الحكم لوزيره غياث الدين محمد الذي كان يديره بالتعاون مع زوجة الايلخان بغداد خاتون .

* * * *

الوزير الايلخاني - صاحب ديوان الممالك :

ويمثل هـــذا المنصب نموذجاً لاستعانة المغول بأبناء البلاد لتنظيم امورهم وأحوال بلادهم .

فقد كان المغول رجال حرب فقط ، ولم يكونوا بحاجة الى جهاز إداري لتنظيم حياتهم البسيطة في الصحراء التي تقوم على عدم الاستقرار ، ولكنهم عندما تطلعوا الى البلاد المجاورة وفرضوا عليها سلطانهم ، كان لابد لهم من تنظيم علاقتهم بأبناء

(١) تاريخ كزيدة ص ٦٠٨ - ٦١٠ ، ابرو ص ١١٧ - ١٣٩ ، ابن بطوطة جـ ١ ص ١٤٤ - ١٤٥ .

البلاد المفتوحة لتأمين جباية اموالهم على الأقل ، وقد استعان جنكيز ببعض الصينيين وببعض المسلمين ، وكذلك فعل ابناؤه من بعده ، وكذلك كان شأن هولاكو عند زحفه نحو بغداد ، فقد كان الى جانبه عدد من المسلمين الذين كانوا يقومون بتنظيم الصرف على حملته وتأمين موارد ذلك من الضرائب التي فرضت على امراء البلاد ومتوليها والذين كانوا قد توارثوا هذا العمل عن الدولة الخوارزمية وغيرها من الدول التي كانت قبل الاحتلال المغولي .

وعند قيام الدولة الايلخانية كان لدى هولاكو اكثر من واحد يقوم بهذه العملية ، ولكن الذي اشتهر من بينهم هو سيف الدين البيتكچي الذي كان يسميه رشيد الدين بالوزير الخاص . والذي غضب عليه هولاكو بسبب بعض الشكاوى فقتله في محرم ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م (١) .

وبالرغم من ان هذه الاعمال من صميم اعمال الوزارة ، إلا ان القائم بها لم يكن يتسمى باسم الوزير ، بل كان يطلق عليه اسم صاحب الديوان ، او صاحب ديوان الممالك ، وفي هذا يشير رشيد الدين الى انه « لما كان هولاكو قد قتل الامير سيف الدين البيتكچي ، فقد رفع الصاحب شمس الدين محمد الجويني ، وفوض اليه منصب صاحب الديوان للبلاد كلها وأطلق يده وقواها في حل الأمور وعقدها وترتيبها وضبطها » (٢) .

---

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٣٣٣

(٢) نفس المرجع ص ٣٣٨ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٥٩ - ٦٠ ، الحوادث الجامعة ص ٣٣٩ ، ترجمة المعارف الاسلامية م ٧ - الجويني ص ١٨٠ . ويعلق -

اما اتخاذ لقب «الوزير» فقدجاء بعدئذ في عهد بايدو الذي منح هذا المنصب الى جمال الدين الدستجرداني ، وأمر باستبدال لقب صاحب الديوان باسم الوزير تفاؤلا منه بأنه سينجح في تنظيم امور الدولة المضطربة (١) .

وتطورت اعمال صاحب الديوان مع تطور الدولة وتوسع اجهزتها ، فبعد ان كان عمله بسيطاً لا يتعدى جمع الاموال وتنظيم حساباتها وتقديم تقرير للايلخان كل سنة عن موارد البلاد وأوجـه انفاقها ، أصبح من واجبه ان يقوم ايضاً بتحرير الرسائل على اختلاف انواعها لارسالها الى الجهات المختلفة ، وأصبح من واجبه كذلك اختيار وعزل متصرفي البلاد ومحاسبتهم وانزال العقاب بهم ان اقتضى الحال، حتى بلغ من أمر بعضهم ان فوضت اليه البلاد ، ومنع الامراء والخواتين من الاعتراض عليه او مخالفة اوامره ، كما هو الحال بالنسبة لبوقا الذي جمع بين النيابة والوزارة لأرغون ، وصدر الدين الزنجاني ـ صدر جهان ـ الذي أصدر له كيخاتو أمراً يؤكد فيه ان ادارة الدولة من جيحون حتى حدود مصر قد عهدت اليه، وله السلطة في تعيين من يشاء في الوظائف ، وان جميع نواب الخواتين والامراء يعود امرهم اليه ، ومنع أمراء الاسرة وامراء الجيش من احتجاز أي مبلغ من الضرائب لهم (٢) .

ـ مصطفى بدر في رسالته ـ ايران في عهد غازان ص ١٢٠ بقوله في اوائل العهد الايلخاني كان يوجد منصب الوزارة وان لم يوجد اسم الوزير ، وكان متولي هذا المنصب يسمى صاحب الديوان .

(١) وصاف م ٣ ص ٢٨٤ .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٢٨ ـ بالنسبة لسلطات بوقا . اما بالنسبة لتفويض كيخاتو لوزيره صدر جهان فانظر

D'ohsson *. 4 .* P *. 98 99 . Howorth . 3 P . 369 .*

ولعل الصورة التي يقدمها لنا ابن فضل الله عن واجبات الوزير وصلاحياته تمثل ما وصل اليه تطور اعمال الوزارة ، وما تمتع به الوزير من نفوذ ومكانة ، وهي في نفس الوقت تنطبق على آخر الوزراء غياث الدين محمد بن رشيد الدين وزير ابي سعيد.

قال ابن فضل الله نقلا عن نظام الدين بن الحكيم الطياري : « إن السلاطين بها لا التفات لهم الى أمر ولا نهي في البلاد ولا في متحصلات الدخل والخرج فيها ، بل الوزير هو حامل هذه الأعباء وله التصرف المطلق في الولاية والعزل والعطاء والمنع ، لا يشاور السلطان الاعلى ما جل من المهمات او في ما قل من الامور ، بل هو السلطان حقيقة ، وصاحب البلاد معنى ، واليه ترجع الامور كلها و بيده عقدها وحلها » (١).

ونظراً لعظم هذه المسؤوليات التي اصبح يقوم بها الوزير ، فلابد لمن يرشح لهذا المنصب ان يتحلى ببعض الصفات التي تؤهله الاستطاعة بها ، من ذلك ان يكون متعلماً واسع الاطلاع على العلوم المختلفة الرائجة في ذلك الوقت كالحساب والفلك وعلوم الدين والأدب ، وكذلك يجب ان يتقن اكثر من لغة ، وخاصة الفارسية والمغولية والتركية ، ليستطيع التعبير بها عن المعاني المطلوبة ، اذ كثيراً ما يكون في اسلوب الكتابة من قوة التعبير ما يحقق الغرض ويغني الدولة من ارسال الجيوش ، ويقدم لنا كاترمير نموذجاً لذلك في الوزير رشيد الدين الذي كان يحسن عدة لغات ،

---

(١) ابن فضل الله ـ مسالك الابصار ج ٢ ق ٢ الورقة ٢٧٩ . انظر ايضاً الورقة ٢٨٥ في مسؤوليته عن الشكاوى التي تتعلق بامور الجيش . انظر ايضاً التعريف بالمصطلح الشريف ص ٤٦ . واستنسخ القلقشندي هذه التعليمات في صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ .

ألف في بعضها العديد من المؤلفات (١) .

على ان هذه الشروط لم تكن تراعى دائماً من قبل الايلخانات ، اذ كثيراً ما تلعب عوامل اخرى في اختيارهم ، من ذلك الاموال الكثيرة والهدايا التي يقدمها الطامعون فى الوزارة الى الايلخان لكي يفضلهم على غيرهم ، كما فعل صدر الدين الزنجاني مثلا مع كيخاتو حيث كان ينافسه في طلبها طامع آخر هو شمس الدين احمد لاكوشي (٢) .

وكما فعل ايضاً الوزير عليشاه التبريزي مع اولجايتو ، فقد كان سمساراً في سوق الجواهر والحرير ، ولم يكن يحسن حتى القراءة والكتابة ، ولكن أحسن الوصول الى قلب الايلخان وحريم قصوره (٣) .

ومن هذه العوامل ايضاً نفوذ الامراء وتدخلهم فى اختيار الوزراء من اعوانهم من ذلك ما مر علينا من قيام الامير نوروز بعزل صدر الدين الزنجاني وتعيين جمال الدين الدستجرداني وكما فعل چوبان ايضاً بعد وفاة عليشاه من اختيار ركن الدين صباين للوزارة .

---

(١) مقدمة كاترمير لجامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٧٤ ـ ٧٩ ، انظر ايضاً دراسة الصياد لرشيد الدين ومؤلفه جامع التواريخ وما استخلصه من ملاحظات في ص ٤٥٥ وما بعدها .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٧٨ .

(٣) ابرو ص ٤١ ـ ٤٨ . انظر ايضاً ابو القاسم الكاشاني ، تاريخ اولجايتو في حوادث سنة ٧١١ هـ الورقة ٨٢ ـ ٨٦ نقلاً عن مقدمة تاريخ المغول ليلوشيه ، معتمداً في ذلك على ترجمة خاصة بالدكتور فؤاد الصياد . انظر ايضاً مقدمة جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٤٤ .

وينقل لنا هورث (١) الحديث الذي دار بين هـذا الوزير وچوبان والذي يكشف عن مدى تنفذ هؤلاء الامراء وتدخلهم في ذلك . قال ركن الدين ان العادة جرت بأن يكون منصب الوزارة بعهده احد اتباع اكبر الامراء في الدولة ، ففي عهد ارغون حفظ اردوقيا منصب الوزارة لسعد الدولة . وفي زمن كيخاتو حفظ طغاجار المنصب لصنيعته صدر الدين ، وفي عهد غازان حفظ نارين اغا ذلك لسعد الدين الساوجي ، وفي عهد اولجايتو حفظ حسين كوركان ذلك لعليشاه ، وسيدنا « يقصد چوبان » ليس أقل من هؤلاء .

ولم يكن للوزارة بناية مستقلة بها ، وانما كان مكانها بلاط الايلخان حيث كان على الوزير ملازمة بابه ، وكثيراً ما كان ينفرد بالدخول عليه دون بقية الامراء وقد مر علينا انه خلال اعتكاف ارغون كان الوزير وبعض اعوانه من الامراء ، هم الوحيدون الذين يدخلون عليه ، وكذلك ينقل القلقشندي عن ابن فضل الله قوله : ويدخل الوزير على القان في بكرة كل يوم (٢) .

اما السجلات وما يتعلق بأمور الديوان فكان الوزير يحتفظ بها في منزله ، يشير الى ذلك رشيد الدين انه عندما غضب ارغون على نائبه يوقا امر بنقل الديوان والسجلات من داره (٣) .

ومن متعلقات الوزارة ، الختم الخاص بها الذي يعلم به الوزير على الأوامر والمراسيم التي تصدر عن الايلخان وكثيراً ما كان الولاة يرفضون تنفيذ ما يحمله اليهم

---

(١) *Howorth . 3 . P . 605 .*

(٢) القلقشندي صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

(٣) جامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ١٤٢ - ١٤٣ .

الرسل من أوامر الايلخان نفسه ما لم يكن يحمل بصمة ختم الوزير .

ونلاحظ انه عندما قام النزاع بين الوزيرين رشيد الدين وعليشاه في زمن اولجايتو ، اتهم رشيد الدين زميله بالاستيلاء على اموال الدولة ، ثم جوابه عند اعتراض عليشاه عليه بقوله « ذلك لأنك الوزير الحقيقي ، وموضع الثقة ، وانك انت وحدك المستحوذ على الخاتم السامي والمكلف بتنفيذ اوامر الايلخان » (١) .

ولم تنجح فكرة المشاركة بالوزارة التي ابتدعها غازان عندما اصطنع كلا من رشيد الدين وسعد الدين الساوجي فيها (٢) .

وأرى ان ذلك كان انعكاساً لانفراده بالسلطة بعد تخلصه من سيطرة نوروز عليه ومحاولته ضمان النجاح عن طريق توزيع المسؤوليات على اكثر من واحد من الوزراء ، فقد منعت شخصية غازان القوية الوزراء من الاختلاف حتى عهد اولجايتو الذي ورث عن اخيه اسلوب المشاركة فلم يغير حتى من افرادها ، لكنه اضطر عندما لم تفد نصائحه في إزالة اسباب الخلاف بين الشريكين الى اعدام احدهما . ثم لم يبق رشيد الدين وحده يتحمل المسؤولية ليحسن القيام بها بل شاركه بعليشاه (٣) .

---

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٤٢ ، م ٢ ج ٢ ص ١٤٢ ، الصياد ـ مؤرخ المغول الكبير ص ١٦٥ ، وينقل هورث ج ٣ ص ٣٦٨ انه عندما منح كيخاتو الوزارة لصدر الدين الزنجاني أعطاه ختم ذهبي عليه رأس اسد بالاضافة الى امتيازات اخرى .

(٢) مقدمة كاترمير لجامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ١٥

Howorth . 3 . P . 456 .

(٣) الشبنكاري ـ مجمع الأنساب ، ص ٣١٩ . منجم باشي م ٣ ـ صحائف الأخبار ص ٣ .

وبذلك أبقى على اسباب الخلاف .

وانتهت هـــــذه المشاركة بالفشل عندما تولى ابو سعيد الايلخانية واستيلاء چوبان على الحكم والذي لم يكن حريصاً على ابعاد رأس رشيد الدين عن سيف الجلاد أمام مغريات ووسائس شريكه عليشاه الذي انفرد بالوزارة وحده (١) .

وعلى العكس من كان يتمتع به الوزير في العصر العباسي من ألقاب فخمة ، فان الوزير الايلخاني كان محروماً من ذلك بالرغم مما وصل اليه بعضهم من قوة وتسلط ولعل صدر الدين الزنجاني هو الوزير الوحيد الذي منح لقب « صدر جهان » من قبل كيخاتو ، والذي قد يكون اشتراه منه بالمال كما اشترى الوزارة نفسها (٢) .

بينما يشير هورث الى انـــ ابا سعيد تقديراً منه للشجاعة التي أبداها وزيره عليشاه الذي كان اول من تصدى للعدو ، فقد أنعم عليه بشعار الصيد المغولي (٣) .

وبالرغم من ان الواجب الاساسي للوزير هو الاشراف على التنظيمات المالية للدولة ، إلا ان بعض الوزراء لم يكونوا معزولين عن النشاطات العامة للمجتمع وخاصة في المجالات العلمية والأدبية ، فقد ساهم بعضهم بالحفاظ على الحركة العلمية ودعمها بتشجيع العلماء والأدباء ، وتخصيص المكافآت لهم وعقد الندوات معهم .

ويمكن القول انه في الفترة الاولى من العهد الايلخاني حتى غازان ، كان الوزير هو

---

(١) مقدمة كاترمير لجامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٥٠ – ٥٥ ، BR ج ٣ ص ٥١ – ٥٢ .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٧٩ .

(٣) وكان ذلك عندما تآمر الأمراء لقتل چوبان فلاحقوه حتى العاصمة فوقف الإيلخان والوزير بجانبه .

المسؤول عن رعاية الحركة الادبية في البلاد ، يدفعه الى ذلك شعوره بأهميتها وميله الطبيعي نحو هذا النوع من الثقافة (١) التي هي ثقافة مجتمعة وليس ثقافة السلطة السياسية التي يأتمر بأوامرها ، ونذكر في هذا المجال دور الوزير شمس الدين الجويني وأخيه علاء الدين في بغداد اللذين يعود اليهما الفضل في الحفاظ على ما تبقى من التراث الفكري بعد سقوط بغداد وفي تشجيعهما العلماء على مواصلة البحث والتأليف وتخصيص الاموال الطائلة لهم

وينقل الذهبي صورة لنشاطهما في هذا المجال بقوله : « وحكى غير واحد ان ابغا قدم العراق فاجتمع العيد والصاحب شمس الدين ببغداد ، فأحصيت الجوائز والصلات التي فرقها ، فكانت اكثر من الف جائزة ، وكان الرجل الفاضل اذا صنف كتاباً ونسبه اليهما تكون جائزته الف دينار .. وكان لهما احسان الى العلماء والصلحاء » (٢) .

وفي الفترة الثانية حيث اعتنق الايلخانات الاسلام ، تعاون الايلخان ووزراؤه على تدعيم النشاط الثقافي كجزء من واجباتهم نحو الاسلام .

وبرز في هذا المجال الوزير رشيد الدين فضل الله الذي كان هو نفسه احد العلماء . كما برز ابنه من بعده غياث الدين محمد الذي حكم دولة ابي سعيد بعد تحررها من سيطرة چوبان ، والذي كان يجتمع بالعلماء والفقهاء ليلة الجمعة من كل اسبوع

---

(١) باعتباره مسلماً ، وباعتبارها وجهاً من أوجه التعبير عن حيوية الاسلام .

(٢) الذهبي ـ تاريخ الاسلام ـ الورقة ٦ ـ ٧ في وفيات سنة ٦٨١ وفاة عطا ملك .

يطارحهم الحديث حول العلوم والآداب ، وكان يكافىء البارز منهم بتقريبه من مكان جلوسه واغداق الاموال عليه (١) .

ومما ساعد الوزراء على هذه الرعاية وهذا الانفاق ، ما كانوا يحصلون عليه من الاموال نظير خدمتهم للدولة ، وليس لدينا ما يشير الى مقدار مايتقاضاه الوزير بشكل واضح ، ولكن ابن فضل الله يذكر ان ارزاقه كانت مائة وخمسين توماناً وهو الف الف وخمسمائة الف دينار في السنة ، ثم يقول : « ولا يقنع بعشرة اضعاف هذا في تقارير البلاد » (٢) .

ويعلق حمد الله القزويني على الوزير شمس الدين الجويني بأنه استطاع بحسن تدبيره ان يحصل لنفسه على ضياع شاسعة وثروة عظيمة ، ويقال ان دخله اليومي من ضياعه بلغ توماناً (٣) .

ولكن شمس الدين يعترف بأن أملاكه وضياعه لا تدر عليه سوى الف دينار كل يوم وذلك في جوابه على أسئلة المحققين معه قبيل مقتله (٤) .

(١) انظر في ذلك مقدمة كاترمير لجامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٦٧ - ٦٨ . الصياد ـ مؤرخ المغول الكبير ص ٢٠٢ وما بعدها في التدليل على مكانة الوزير ودوره في النشاط الادبي .

(٤) أشرت سابقاً الى ان التومان يعادل هنا عشرة آلاف دينار ، انظر مسالك الابصار ج ٢ ق ٢ الورقة ٢٨١ وهو يعتمد في حديثه على ابي الفضائل بن الحكيم الطياري . انظر ايضاً القلقشندي ج ٢ ص ٤٢٦ .

(٣) نقل ذلك بارتولد في ترجمة المعارف الاسلامية م ٧ ـ الجويني ـ ص ١٨٢ .

(٤) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٣١ .

ومن هذا نستنتج ان الوزير كان يتقاضى مبالغ ضخمة من عمله بشكل مباشر وغير مباشر ، واذا كانت هذه الثروة قد مكنت بعض الوزراء للانفاق منها على عمل الخير ، فانها كانت في نفس الوقت مجلبة للتحصن لهم . ذلك ان الطمع لعب باعطاف الكثير من الطامعين من اعوانهم ، ودفعهم الى حسدهم واحصاء نعمهم وبالتالي الى التفتيش عن مثالبهم للوشاية والايقاع بهم ، ومن ثم للحلول محلهم .

وكان من نتيجة ذلك ان احداً ممن تولى منصب الوزارة لم يسلم من سيف الجلاد الا واحداً منهم كان الاولى به ان يقع تحت طائلته ذلك هو الوزير عليشاه التبريزي الذي توفي حتف انفه (١) .

ثانيا : النظام الاداري ـ حكومة بغداد : ـ

اشرنا فيما سبق الى ان كل ايلخان كان بعد توليه يقوم بتنظيم ادارة البلاد فيرسل الامراء الى الولايات المختلفة ليقوموا بذلك نيابة عنه .

وكان العراق العربي (٢) واحداً من هذه الولايات ، ولكن تنظيمه كان سابقاً على غيره ، اذ ان هولاكو نفسه قام باجرائه ، بعد اخضاعه بغداد وعوته عنها .

(١) مقدمة كاترمير لجامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٥٩ . براون ج ٣ ص ٥٤ ،

Elliot . I - Bib'oigraphicalIndex . P . 4 .

الصياد ـ مؤرخ المغول الكبير ص ١٨٧ .

Howorth . 3 . P . 604 .

(٢) تمييزاً له عن العراق العجمي الذي يشمل اصفهان وهمدان ، الري ، اذربيجان ، بلاد الجبال .

ويمثل النظام الاداري الذي أقامه هولاكو ببغداد نموذجاً للنقص الحضاري عند المغول من جهة ، والى استمرار حاجتهم الى ابناء البلاد من جهة اخرى .

فقد سعى هولاكو الى استخدام كل من بقي من موظفي الخلافة السابقين الذين سموا لخدمته ، للاستفادة من خبراتهم (١) . كما كافأ كل من تقرب اليهم بالخدمة والسعاية بمنحهم المناصب الكبيرة ليكونوا أداة اغراء للآخرين (٢) .

ويرسم لنا المؤرخون صورة لحكومة بغداد ، فقد كانت السلطة المدنية فيها بيد أبناء البلاد ممثلة بالوزير ابن العلقمي الذي ابقاه هولاكو في منصبه كوزير للحكومة الجديدة ، فكذلك صاحب الديوان فخر الدين الدامغاني ، الذي بقي يتولى رئاسة الديوان ، بالاضافة الى قاضي القضاة ، ونجم الدين بن الدرنوس وشرف الدين العلوي المعروف بالطويل ، وأضاف اليهم هولاكو احد المتزلفين اليه وهو نجم الدين

(١) وفي هذا المعنى يشير ابن فضل الله ج ٢ ق ٢ الورقة ٢٨٦ في قوله : ولقد هولاكو من اول ما أخذ من بغداد على نية إجراء الامور في مجاريها وابقاء الاحوال على ما كانت عليه ، ولكنه ما تهيأ له ذلك لشدة من كان معه على المغولية ، وافراط تخوف الناس منهم ، وانهم لكثرة خوفهم تجنبوا لقاءه ، فزالت عنهم رتبهم وتغيرت عليهم أحوالهم ، ولقد كان يقنع منهم بالطاعة والانقياد والمداراة بالمال عن استئصال البلاد ولكن المقادير لا ترد سهامها ولا تصد أحكامها .

(٢) وهنا ينطبق وصف *D'ohsson* على سياسة المغول قوله : ان حكومتهم كانت تعمل على نشر الفساد فتقصى كل من عرف بالشرف والنبل وتقرب كل من اشتهر بالضعة والخسة وتجزيهم على طاعتهم الذليلة . انظر براون ج ٢ ص ٥٥٢ ـ ٥٥٣ ، نقلاً عن دوسون ج ١ ص ٦ .

احمد بن عران الذي كان قد منحه لقب الملك وأعطاه مسؤولية الاعمال الشرقية لبغداد وخوله التعاون في الحكم مع الوزير وصاحب الديوان .

اما السلطة العسكرية :

فقد فوضها هولاكو الى المغول متمثلة في الشحنة على بهادر الخراساني (١) بالاضافة الى فرقة من الجيش المغولي مكونة من ثلاثة آلاف جندي يقودهم ايلكانويان وقرابوقا ، لتقوم بحفظ الأمن الداخلي والدفاع الخارجي بالاضافة الى قيامها موقتاً بأمر اعمار البلاد بعد التخريب الذي كان قد أصابها (٢) .

وقام الوزير بعد عودته من معسكر هولاكو بالتعاون مع الآخرين الذين كانوا قد استلموا مثله أمر التعيين من هولاكو ، قام بتنظيم إدارة البلاد ، فاختار لها الصدور والنظار والنواب (٣) ، ومن ملاحظة توزيع هؤلاء الموظفين على اعمال

---

(١) اعتمد المغول في اختيار الشحن على بني جنسهم فقط لأهمية هذا المنصب في إدامة الولاء للحكم المغولي ، ولكننا نلاحظ أن أول هؤلاء لم يكن مغولياً بل كان خراسانياً ، ويظهر انه كان من المقربين اليهم حتى استحق توليه ، على أن هولاكو كان قد وضع بجانبه حامية عسكرية في هذه الفترة يقودها بعض كبار قادتهم لتحقيق أغراض الاحتلال المغولي والدفاع عن وجوده .

(٢) ابن العبري ص ٢٧٢ ، الحوادث الجامعة ص ٣٣١ ، رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٩٥ ، العزاوي ج ١ ص ٢٠١ – ٢٠٢ خصباك . الادارة الايلخانية في العراق . ص ١٢ ، مجلة كلية الآداب ـ بغداد العدد الاول ـ يونية ١٩٥٩ م .

(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٣٢ – ٣٣٣ ، العزاوي ج ١ ص ٢٠٢ . والصدر ـ

العراق المختلفة ، كالأعمال الفراتية وواسط ، البصرة ، والحلة ، الكوفة ، دجيل ، وشرقي بغداد التي كانت تشمل طريق خراسان ، الخالص البندنيجين حتى خانقين ، نجد أن المغول لم يغيروا من التقسيمات الادارية التي كان عليها العراق فى العصر العباسي الأخير .

واختار الوزير ايضاً بعض الموظفين لمساعدته فى بغداد ، فأبقى عز الدين بن ابي الحديد في كتابة السلة ، وعين لنيابة الشرطة عز الدين بن الموسوي ، وأعطى خزانة الديوان للشيخ عبد الصمد بن ابي الجيش .

وتجلى حرص المغول على دعم هـــذا الجهاز وانجاحه ، انهم ورثوا مناصبه لتحقيق ذلك ، فبعد أشهر قليلة من قيامه توفى الوزير ابن العلقمي ، فخلفه ابنه عز الدين ابو الفضل ، وتوفي كذلك تاج الدين علي بن الدوامي حاجب الباب الذي كان قد خرج مع الوزير الى هولاكو فولاه صدر الاعمال الفراتية ، فخلفه ابنه مجد الدين حسين (١) .

وبالرغم من ارتباط هذا الجهاز الاداري بهولاكو مباشرة حيث يستمد منه التوجيهات ، ويعرض عليه الامور ، إلا ان السلطة الحقيقية في البلاد كانت بيـد

- هو المتصرف او الحاكم الذي يتولى مسؤولية اقليم من البلاد ويكون مسؤولاً أمام صاحب الديوان ، اما تعيينه فيكون من قبل صاحب الديوان ، وفي بعض الاحيان يكون من قبل الايلخان نفسه ، وحينئذ لا يكون لصاحب الديوان عليه سلطان .

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ . وتوفي الوزير العلقمي في جمادي الاولى ٦٥٦ هـ .

الشحنة المغولي وليس بيد الوزير الذي كثيراً ما تعرض لاحتقار الشحنة وسوء معاملته (١) .

وعند وفاة الوزير فى ذي الحجة ٦٥٧ هـ لم ير المغول تعيين آخر خلفاً له ، وأصبح صاحب الديوان يسد مسده .

ومن المحتمل انه في هذه الفترة اختارت السلطة العسكرية ، او الشحنة ، ممثلا لها ، يشارك السلطة المدنية فيحضر الديوان مع الجماعة وينقل اليهم التعليمات ، ويشرف على تنفيذها ، وكان هذا المندوب هوعماد الدين عمر بن محمد القزويني(٢) .

---

(١) ينقل صاحب الحوادث الجامعة نموذجاً لهذا الاحتقار عندما دخل الشحنة الديوان مرة فرأى فرس الوزير وعليها مظاهر الزينة كما جرت عادة الوزارة في زمن الخلافة ، فوقف وأراق الماء على مشدتها وأمر باخراجها من الدركاة ، وأنكر هذا الوضع . انظر ص ٣٤٠ - ٣٤١ ، العزاوي ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) هناك غموض وتناقض في أمر القزويني ونيابته وتاريخها ، بين المؤرخين . فرشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٩٥ يشير الى تعيينه نائباً للأمير قراتاي ، ولكنه لايذكر شيئاً عن قراتاي ومكانته والعمل الذي يقوم به القزويني نيابة عنه ، ويوضح العزاوي ج ١ ص ١٦٨ ان الامير قراتاي البيتكجي كان من اعاظم الامراء ومن مدبري مملكة هولاكو وقد رافقه في الحملة .

وعند بحثه تنظيمات حكومة بغداد ص ٢٠٣ يذكر ان الامير قراتاي عين القزويني نائباً عن الوزير فكان يحضر الديوان مع الجماعة . اما صاحب الحوادث فيذكر في ص ٣٣٢ وصول الامير قرابوغا الى بغداد وانه عين القزويني نائباً عنه للحضور في الديوان . وقد بقي في عمله هذا حتى بعد تعيين عطا ملك الجويني حيث أصبح كما يظهر -

وعند توجه صاحب الديوان في سنة ٦٥٧ هـ الى بلاط هولاكو « الأردو » كما جرت العادة ، ليعرض عليه امور العراق وبرفقته صدور اعمال البلاد . استطاع في أول الأمر ارضاء الايلخان بما عرضه عليه من حسن سير الادارة فيه ، حتى ارشك الايلخان أن يفوض اليه البلاد ، لولا ان وشى به احد اعوان المغول من الصدور وهو نجم الدين بن عمران الذي اتهم صاحب الديوان بأنه اطلق من سجن المدائن احد ابناء الاسرة العباسية ، فأمر الايلخان باعتقاله حيث توفي بعد ذلك فيه ، واسند الايلخان اعمال الديوان الى الصدر نجم الدين بن المعين الذي كان يتولى صدارة الاعمال الحلية والكوفية ، والذي لم يطل به الأجل ، فقد داهمه الموت عند وصوله بغداد فلم يباشر شيئاً من العمل (١) .

وتكاملت صورة الجهاز الاداري ، وتوضحت سلطاته سنة ٦٥٧ هـ عندما تولى مسؤوليته علاء الدين عطا ملك الجويني (٢) ، الذي استطاع إعادة الأمن والاستقرار

ـ نائباً عن الشحنة في الديوان . انظر ص ٣٣٩ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ .

ويظهر ان القزويني هذا كان من المقربين للمغول ، فقد رافق هولاكو في حملته على الشام وتولى النيابة على حلب بعد احتلالها ، وعند عودة هولاكو أعاده الى بغداد انظر في ذلك : العيني الورقة ٤٢٨ ـ ٤٢٩ في حوادث سنة ٦٥٨ هـ ، بيشوف ـ تحف الانباء في تاريخ حلب الشهباء ص ٨٠ .

(١) ابن الفوطي ـ تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ق ٣ ص ٩٩ ، الحوادث الجامعة ص ٣٣٨ .

(٢) هناك خلاف في تاريخ تعيين عطا ملك لولاية بغداد ، وبالتالي في تعيين أخيه شمس الدين محمد لديوان الممالك ، فرشيد الدين يذكر ذلك في سنة ٦٦١ هـ ، ـ

الى البلاد ، فتوفرت خيراته وزاد رخاؤه حتى قيل ان بغداد في عهده اصبحت اجود مما كانت عليه في أيام الخلافة (١) .

وتمثلت هذه الصورة ، في ان علاء الدين اصبح المسؤول المباشر عن ديوان العراق ، او عن شؤون الحكم في العراق .

ومن الناحية الرسمية ، لم يكن علاء الدين منفرداً بهذه المسؤولية ، فقد

- اما صاحب الحوادث الجامعة فيذكر تعيينه في سنة ٦٥٧ هـ وقد أخذت به معتمدا على عاملين اولهما ان العزاوي جـ ١ ص ٢٣٦ - عندما أخذ بهذا الرأي استند الى ما جاء عن عطا ملك نفسه في رسالة له يقال لها « تسلية الاخوان » ان تاريخ تعيينه كان سنة ٦٥٧ هـ وتفصيل الخبر كالآتي : « ان القادر تعالى ... انتزع ممالك العراق وبغداد ... من أيدي بني العباس وتصرفهم وأودعها ليد السلطان هولاكو ... وفي شهور سنة ٦٥٧ هـ أي بعد وقعة بغداد بسنة ، قد أسندت هـــذه المملكة وفوضت إلي لأقوم بمهامها » .

ومما يؤيد أن عطا ملك كان على رأس الديوان في هذا التاريخ ما أورده ابن الفوطي في معجم ألقابه جـ ٤ ق ١ ص ١٢٧ - ١٢٨ فى حديثه عن عز الدين الحسين بن كندج الذي قبض عليه في الديوان سنة ٦٥٨ هـ مع آخرين من أعوان صاحب الديوان عطا ملك الذي قبض عليه في نفس الوقت بتدبير الشحنة بهادر ومعاونه القزويني كما أشرت الى ذلك اعلاه .

وقد أخذ بهذا الرأي ايضاً الدكتور جعفر خصباك في مقالة الادارة الايلخانية في العراق ص ١٣ .

(١) الذهبي - تاريخ الاسلام الورقة ٦ - ٧ في وفيات سنة ٦٨١ هـ . فوات الوفيات جـ ٢ ص ٧٥ بارتولد ترجمة المعارف الاسلامية م ٧ - الجويني - ص ١٨٤-١٨٥ .

كان يشاركه فيها عماد الدين عمر القزويني الذي كان اشبه بالمشرف عليه او الرقيب .

وكان علاء الدين يستعين ايضاً بعـــدد من الموظفين والكتبة لانجاز اعمال الديوان في بغداد مثل كاتب السلة (١) ، وكاتب الانشاء ، وخازن الديوان ، كما كان يستعين بعدد آخر من النواب او الصدور والنظار للاشراف على أعمال البلاد الاخرى هذا بالاضافة الى عدد من القضاة والمدرسين .

اما مسؤولية الامن :

فقد أشرت الى ان هولاكو كان قد ترك بعض الفرق المغولية بقيادة بعض كبار أمراء المغول لتتولى حماية البلاد من الاعتداء الخارجي ، كما ترك الشحنة ، او الحاكم العسكري . وهو من المغول عادة ، وقد أنيطت به مسؤولية الأمن الداخلي ، بالاضافة الى تعاونه مع القوات المغولية في صد الهجمات التي قد تقع على البلاد من الخارج كما حصل عندما زحف الخليفة العباسي الجديد المستنصر بالله ابو القاسم الاسود (٢) بأصحابه لاسترجاع بغداد .

وكان يرتبط بالشحنة صاحب الشرطة وهو من ابناء البلاد عادة ، ويتولى مساعدته في حفظ الأمن فى اطراف بغداد ويراقب اللصوص ويلاحق القتلة .

---

(١) ليس بين أيدينا ما يوضح حقيقة عمل كاتب السلة ، ولكنني أرى على ضوء اتصالات الاشخاص الذين تولوها وعلاقاتهم ، أرى انها وظيفة تتعلق بالشؤون المالية للديوان .

(٢) أشرنا فيما سبق الى قيام المماليك باحياء الخلافة العباسية ونقلها الى القاهرة ، وكان الخليفة المذكور أول من تولاها في القاهرة .

ويبدو ان بقاء القوات المغولية في بغداد لم يطل كثيراً بعد عودة هولاكو من الشام سنة ٦٥٨ هـ ، اذ انه قام بتأمين مسؤولية الدفاع عن حدوده مع المماليك بعد واقعة عين جالوت ، حيث تفرغ لتنظيم ادارة البلاد فقسمها الى وحدات ادارية من الناحية العسكرية ، واختار لمسؤوليتها عدداً من أمراء الأسرة وغيرهم من امراء المغول (١) . وبالتالي اصبحت مسؤولية الدفاع عن العراق مناطة بقيادة ديار بكر ، وبقيادة بلاد الروم ، بينما بقي الشحنة (٢) في بغداد وتحت امرته عدد قليل من الجند المغولي .

ولكن علاء الدين من الناحية العملية اصبح هو الحاكم الحقيقي للبلاد ، اذ ان ما امتاز به من شخصية قوية وحسن تصرف ، وما يستند عليه من نفوذ في بلاط الايلخان بفضل وجود أخيه شمس الدين ، جعله فوق الرقابة او الخضوع لسلطانها ، الأمر الذي ألب عليه شحان المغول ومن يتزلف اليهم وينفق معهم من موظفي الديوان ، ونتيجة لذلك فقد أصبح هدفاً لمؤامراتهم التي كان الفشل حليف أغلبها ، والتي أدت الى تساقط هؤلاء الخصوم بين قتيل ومعزول .

من ذلك محاولة الشحنة علي بهادر الذي عاونه في تآمره العماد القزويني وعدد من صدور العراق ، ونجاحه في إلصاق بعض التهم بعلاء الدين الذي اكتفى هولاكو من عقابه بحلق لحيته ، ولكن أخاه شمس الدين استطاع بعد سنة من ذلك إبراء أخيه من التهمة ، وإعادة الاعتبار اليه وتقوية يده في ولايته ، ثم دبر على خصوم

---

(١) أشرت الى ذلك في بحث التنظيمات الادارية التي أجراها هولاكو .

(٢) وأصبح يسمى بشحنة بغداد تارة ، وشحنة العراق أخرى .

أخيه فساقهم الى الموت حيث أعدم العماد القزويني سنة ٦٦٠ هـ ، ولحق به الشحنة سنة ٦٦١ هـ (١) .

وعُزل الشحنة الثاني قرابوغا بعد فشله في التدبير سنة ٦٦٢ هـ على علاء الدين الذي حضر مجلس التحقيق - اليارغو - في البلاط الايلخاني وأثبت براءته مما نسب اليه ، وعاد الى بغداد وقد صدر الأمر بتعيين شحنة ثالث هو توكال بخشي الذي استمر حتى سنة ٦٦٥ هـ والذي كانت علاقته حسنة بصاحب الديوان (٢) .

ولم تتأثر مكانة علاء الدين وسلطاته في عهد اباقا بالرغم من ان مسؤولية العراق اصبحت تحت اشراف سونجاق اغا بحسب التنظيمات التي أصدرها الايلخان ، اذ أن المسؤول الجديد جدد ثقته بعلاء الدين كنائب له . وقام الايلخان بدوره بتقوية سلطاته وانهاء هذا الاشراف الاسمي عليه عندما أصدر اوامره سنة ٦٦٤ هـ بأن يكون علاء الدين حاكماً مطلقاً لا يكون فوق يده يد (٣) .

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٨٤٨ ، ٨٤٩ . خصباك - الادارة الايلخانية في العراق ص ٢٠ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، العزاوي ج ١ ص ٢٤٨ ، ٢٦٣ ، وأخطأ ابن العبري هنا في إشارته ص ٢٨٥ الى محاولة الشحنة قرابوغا ونائبه الأرمني اسحاق الايقاع بالصاحب وإغراء بعض الاعراب للتقول عليه وانكشاف ذلك عند التحقيق حيث اعتبر هذه المحاولة في سنة ٦٦٤ هـ ، وقد جاراه في هذا الخطا واعتمد عليه هورث ج ٣ ص ٢٢٠ .

(٣) رشيد الدين م ٢ ج ٣ ص ١٢ ابن العبري ص ٢٨٥ ، تاريخ وصاف م ١ ص ٥٥ . وفي ص ٥٨ - ٥٩ يشير الى وصول بعض اعيان بغداد الى الاردو يلتمسون اعطاء ديوان بغداد الى الصاحب علاء الدين وصدور اليرليغ بذلك .

وبلغ علاء الدين قمة مجده في عام ٩٧٢ هـ حيث نال اعجاب الأيلخان الذي لم يكتف باطلاق يده في بلاد العراق بل اضاف اليه بلاداً اخرى هي بلاد تستر وأعمالها فتوجه اليها وتفقد أحوالها وعين بها نواباً له (١) .

على ان هذا النجاح الذي توفق اليه صاحب الديوان لم يكن ليمر دون اثارة الحسد والبغضاء والطمع في نفوس الآخرين ، فقد عاود الشحنة تتارقيا الذي خلف توكال بخشي الى محاولة النيل منه والتدبير عليه وذلك سنة ٦٧٧ هـ بتهمة الاتصال بسلاطين الشام ومكاتبتهم مستغلا حالة الهياج السياسي الذي كان قائماً بين الدولتين في اعقاب واقعة الابلستين ، ولكن المؤامرة انكشفت عندما اعترف البعض على البعض الآخر فسيق بعضهم الى الموت بينما سيق معهم الشحنة الى العزل والاعتقال (٢) .

ويظهر ان الدولة استغنت موقتاً بعد هذه الاحداث عن تعيين شحنة للعراق مراعاة منها لجانب صاحب الديوان الذي كان قد توجه الى الاردو لاستنزال العقاب بالمتآخرين عليه ، واطمئناناً منها الى استقرار الأمن في البلاد مما لايستوجب وجوده .

ولم يكن الشحن وحدهم الذين حقدوا على صاحب الديوان انفراده بالسلطان في العراق وتقييده لسلطانهم ، بل شاركهم في ذلك عدد من المتزلفين من ابناء البلاد الذين دفعهم الحسد والطمع الى مزاحمة علاء الدين للحلول محله ، وقد مر علينا تعاون بعضهم مع الشحن لتحقيق ذلك وفشلهم ، وبلغ البعض الآخر من الخطورة على صاحب الديوان انهم سعوا للاتصال بالايلخان واغرائه بمزيد من المال والهدايا مستغلين بذلك

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٧٦ ، ابن كثير ج ١٣ - البداية والنهاية ص ٢٦٦.

(٢) الحوادث الجامعة ص ٤٠١ - ٤٠٣ . العزاوي ج ١ ص ٢٩٠ - ٢٩٢ .

تعطش الايلخانات الى الاموال واستعدادهم للتخلي عن اعوانهم أمام تأثيره ، وقد اضطر صاحب الديوان ازاء ذلك الى ملاحقة هؤلاء وانزال العقاب بهم بنفسه او التدبير عليهم ، ولعل أخطر هؤلاء كان النقيب تاج الدين علي بن الطقطقي العلوي صدر الاعمال الحلية الذي دبر له صاحب الديوان من قتله ثم أمر بقتل القتلة حتى لا ينكشف أمره (١) . وبالرغم من كل الوسائل التي استعان بها صاحب الديوان لحماية نفسه ، إلا انه لم يستطع في النهاية ان يخلص من تدبير مجد الملك اليزدي الذي نجح في الوصول الى منصب مشرف الممالك والذي استطاع تجريده من كل ما يملك حتى اضطر الى بيع نسائه وأولاده ثم لم يسلم بعد ذلك من الموت (٢) .

اما واجبات صاحب الديوان وأعماله فينطبق عليها ما سبق ان ذكرناه في واجبات وزير الايلخان او صاحب ديوان الممالك ، وما استعرناه من وصف ابن فضل الله

(١) انظر تفصيل ذلك في عمدة الطالب ص ١٥٩ - ١٦٠ ، الحوادث الجامعة ص ٣٧٧ ، العزاوي ج ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ . انظر كذلك تخلص الصاحب من احد نوابه وهو نجم الدين خواجة الذي كفر بنعمته والتجأ الى بعض المغول لايصاله الى الايلخان واضطرار الصاحب الى محاصرته وأخذه بالقوة وقتله . الحوادث ص ٣٧٢ . وكذلك في ص ٣٩٥ - ٣٩٦ في محاولة العميد شمس الدين على الاعوج مزاحمة صاحب الديوان ونهايته .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٨ - ٩٩ ، ابن شاكر ج ٢ - فوات الوفيات ص ٧٥ . ابو المحاسن م ٢ - المنهل الصافي الورقة ٣٧٧ ، ترجمة المعارف الاسلامية م ٧ - الجويني ص ١٨٥

Howorth. 3 · P. 275 - 276 ·

في التدليل عليه ، مع ملاحظة الفارق ان صاحب ديوان العراق كان عمله مقصوراً على حدود سلطانه .

فقد كان اليه أمر تعيين الصدور على البلاد وعزلهم ومحاسبتهم وحتى انزال العقاب بهم ان اقتضى الامر . وقد مر علينا انه عندما فوضت اليه ولاية تستر واعمالها خرج اليها وتصفح أحوالها وعين له نواباً بها . وفي سنة ٦٧٢ هـ عندما احس باختلال أمر واسط انحدر اليها وقبض على صدرها فخر الدين بن الطراح واصحابه ونوابه وعزلهم وصادرهم ، ورتب عوضه شمس الدين محمد بن البروجردي (١) .

وعندما أوجس خيانة من نائبه نجم الدين خواجة لم يتردد في اعتقاله ، ثم قتله بعد ذلك بالرغم من هروبه والتجائه الى بعض امراء المغول (٢) .

على ان سلطات صاحب الديوان وأوامره لم تكن تنفذ في بعض ولايات العراق في بعض الاحيان . وذلك عندما يحظى احد المتزلفين بتقدير الايلخان فيفوضه امر ولاية من هذه الولايات ، من ذلك ما فعله شمس الدين محمد البروجردي الذي توجه الى الاردو وضمن الاعمال الواسطية وتفرد بها ، فلم يكن لصاحب الديوان معه حكم فيها حتى وفاته سنة ٦٧٦ هـ حيث عادت الولاية الى سلطة صاحب الديوان الذي رتب لصدارتها الملك ناصر الدين قتلغ شاه (٣) .

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٨١ ، وقد قام بعد ذلك بتعيين الصدر المعزول صدراً للأعمال الحلية والكوفية والسبب في عزله صدر الاعمال الحلية والفراتية ابن الاعوج عندما أحس بمزاحمته له ثم مصادرته .

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٢ ، انظر ايضاً ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٩٥ .

وكان من واجبات صاحب الديوان ايضاً اعمار البلاد وترقيتها واقامة العدل فيها ، وبالغ البعض فى تقدير اعمال علاء الدين وأشادوا بنجاحه فى اعادة الحياة الى بغداد وازدهارها حتى قيل انها اصبحت اجود مما كانت عليه ايام الخلافة . من ذلك انه اهتم بترقية الزراعة وتشجيع الفلاحين فأسقط عنهم الكثير من مطاليب الديوان حتى تسبب ذلك فى حصول عجز كبير في دخل بغـــداد ، وأوشك اباقا عندما أمر سنة ٦٦٩ هـ بمحاسبته ان يتهمه بالاختلاس والسرقة وينزل به العقاب لولا انه استطاع تبرير عمله واثبات حسن نيته فى هذه المسامحات .

وقام ايضاً بفتح قناة من الفرات في اعلى الانبار لسحب المياه حتى الكوفة والنجف انفق عليه اكثر من مائة الف دينار ، وأنشأ على جانبيه اكثر من مائة وخمسين مزية ، فأحيا بذلك اراضي شاسعة وأوجد موارد للخزينة (١) .

واهتم باعمار بغداد واصلاح وتجديد ما تهدم من مدارسها ومساجدها وأنشأ الكثير من القصور والبساتين فيها من ذلك اعادة بناء منارة جامع الخليفة واصلاح مسجد قمرية وعمارة مسجد الشيخ معروف (٢) .

ونظم ايصال المياه الى بركة المستنصرية بانشاء دولاب تحت مسناتها لرفع الماء اليها من دجلة وعندما اشتعلت النيران في سوق المدرسة النظامية أمر بتجديد عمارة

(١) خواندمير م ٣ ج ١ ص ٦٠ ، الذهبي تاريخ الاسلام ـ الورقة ٦ ـ ٧ في وفيات سنة ٦٨١ ، المقري الفيومي ق ٢ نثر الجمان ـ الورقة ٢٧٤ نقلاً عن تاريخ الحريري ، بارتولد ترجمة المعارف الاسلامية م ٧ ـ الجويني ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٣٦٥ ، ٣٧١ ، ٤٠٨ ، العزاوي ج ١ ص ٢٦٧ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

السوق ، كما أمر بعمل حياض للماء في دروب بغداد ليستفاد منها في اطفاء الحرائق التي كانت تحدث فيها (١) .

ووسع مدينة بغداد عندما أمر ببناء بعض القصور والأروقة والحمامات خارج سورها أمام بابي الظفرية والحلبة وزرع حولها البساتين بأنواع الأشجار المستمرة حتى أصبحت منتزهاً لسكانها (٢) .

ولم يكن جهد صاحب الديوان العمراني مقصوراً على مدينة بغداد فحسب ، بل شمل انحاء اخرى من العراق باهتمامه ، من ذلك انه أمر بعمارة موضع في نهر جعف من اعمال واسط سماه المأمن وبنى فيه ديواناً وجامعاً وخاناً وحماماً وسوقاً ، فسكنه خلق كثير وانتفع به التجار الذين كانوا يتنقلون بين البصرة وواسط وأمنوا على اموالهم . وقام كذلك ببناء رباط في مشهد الامام علي ليسكنه المقيمون والمجاورون وأوقف عليه الوقوف ، كما أمر بعمل جسر وحمله الى تستر حيث نصب فيها (٣) .

وكان من واجباته ايضاً اختيار قاضي القضاة الذي يقوم بدوره بتعيين القضاة على اطراف البلاد ، وفي هـذا يشير القلقشندي الى ميزة ولاية بغداد على بقية

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٢٦٥ ، ٣٧١ ، ٣٩٠ . العزاوي جـ١ ص ٢٦٧،٢٨٥.

(٢) الحوادث الجامعة ص ٣٥٧ .

(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٥٨ ، ٣٧٢ ، ٤١٣ ، العزاوي جـ ١ ص ٢٦٣ ، ٢٩٨ ، ابن حبيب الشافعي ـ درة الأسلاك ـ الورقة ٧٢ . في الحديث عن الصاحب الجويني .

الولايات الايلخانية التي تخضع في تنظيم قضائها الى اشراف قاضي القضاة المقيم في الاردو مع الايلخان (١) .

وكان يقوم ايضاً باختيار المدرسين على اختلاف طوائفهم ويخلع عليهم ، واهتم بنشر العدل وتطبيق احكام الشريعة الاسلامية ومكافحة الفساد ودور البغاء ومعاقبة الذين يعملون على تشويه تعاليم الاسلام ، وسعى لاعادة موكب الحج لأول مرة سنة ٦٦٦ هـ بعد انقطاعه منذ سقوط الخلافة . فدعا الناس للتأهب له واستدعى رؤساء القبائل العربية الذين ينتشرون على طريق الحج فأرضاهم بالأموال ليقوموا بحماية قوافل الحجاج وعدم التعرض لها ، وجهز الفقراء من الناس وأحيا وظيفة امير الحج ليتولى مرافقة الموكب وقيادته (٢) .

وبالرغم من ان مسؤولية حفظ الأمن الداخلي كانت من واجبات الشحنة ، إلا أن صاحب الديوان تولى مسؤولية ذلك في بعض الاحيان في بغداد على الاقل ، تاركاً اطراف العراق لتصرف الشحنة ، فعندما خلا العراق من الشحنة بعد اعتقال تتارقيا سنة ٦٧٧ هـ أصبح صاحب الديوان مسؤولا عن واجباته ، وأصبح نائب

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٦٢ ، ٣٧١ ، انظر ايضاً الاشارة في ص ٣٤٣. في تعيين قاضي القضاة لبغداد مع وجود أقضى القضاة نظام الدين البندينجي الذي كان قد عينه هولاكو مع الآخرين ، ومن المحتمل في هذه الحالة ان صلاحيات أقضى القضاة كانت تشمل اختيار القضاة لأطراف العراق عدا بغداد التي كانت تحت اشراف قاضي القضاة ، ويظهر أن منصب أقضى القضاة انتهى بوفاة البندينجي . القلقشندي ج ٢ ص ٤٢٤ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٧٣ - ٣٧٤ ، ٣٧٦ .

الشرطة مرتبطاً به . لذلك فانه عندما قتل النقيب تاج الدين بن الطقطقي بظاهر سور بغداد تولى الصاحب أمر التفتيش عن قتلته حتى عثر عليهم وقتلهم ، وعندما استشرى خطر بعض الشطار وكثر شرهم ، اعمل صاحب الديوان الحيلة حتى جلب رؤساءهم وعينهم في الشرطة ، ولكنه عندما حكى له قتادة نائب الشرطة عن استغلالهم لمراكزهم وتهديدهم للناس وما يقومون به من فساد أمر بهم فقتلوا (١) .

وكان من واجباته ايضاً تنفيذ ما يفرضه الاردو من الضرائب والاعانات على السكان حيث يقوم صاحب الديوان بجمعها بالاضافة الى الضرائب الاخرى التقليدية كالخراج مثلا ويرسلها الى العاصمة سنوياً كما جرت العادة ، إلا اذا كانت الدولة في ضائقة مالية فانها كانت تستعجل صاحب الديوان في ارسال ما يستطيع جمعه على وجه المساعدة (٢) .

وقد مر علينا شيء من نشاطه في دعم الحركة العلمية ببغداد وتشجيعه للعلماء واجازته للمبرزين منهم مقتدياً بذلك بأخيه شمس الدين محمد ، فضلا عن أنه هو نفسه كان أحد العلماء .

وكانت وفاته بعد تعذيب مجد الملك اليزدي له ومطالبة ارغون به بعد ذلك ، نهاية لعصر الاستقرار والرفاه الذي نعم به العراق طيلة الواحد والعشرين سنة التي تولاها .

فقد تعرض العراق بعد وفاته الى تعسف الأمير ارغون الذي قدم بغداد في

---

(١) نفس المرجـــع السابق ص ٣٧٧ ، ٤٠٣ - ٤٠٤ . العزاوي ج ١ ص ٢٧٦ ، ٢٩٢ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٣٣٩ ، ٣٩٨ ، ٤٦٠ .

شتاء ٦٨١ هـ وصادر أهلها ، فلم يسلم منه أحد . وانزاحت غمته قليلا عندما وصل في رجب ٦٨٢ هـ شرف الدين هرون بن شمس الدين الجويني الذي فوض اليه تدبير أمر العراق على قاعدة عمه عطا ملك ، وكان الشحنة تتارقيا قد أعيد خلال ذلك الى منصبه في بغداد (١) .

ولم يستقر صاحب الديوان الجديد في عمله إلا قليلا حتى اعتقل مع غيره من موظفي الايلخان احمد الذي كان قد قتل بتدبير ابن اخيه ارغون .

ويعكس لنا اضطراب ديوان العراق بعد ذلك حالة الفوضى التي طغت على اعمال الايلخانية وتنازع الأمراء على السلطة وطغيانهم على الايلخانات ، حتى أصبح المتنفذون من هؤلاء الامراء يختارون اعوانهم للاشراف على ادارة البلاد .

ففي عهد ارغون ارسل امير الامراء بوقا اخاه اروق ليشارك امراء الاسرة جوشكاب وبايدو اللذين كان ارغون قد أناط بهما مسؤولية ديار بكر والعراق ، وليتولى الرقابة عليهما ، فاختار بدوره احد اعوانه وهو بدر الدين خاص ليتولى ديوان العراق (٢) .

وعندما حل سعد الدولة محل بوقا في السيطرة على الايلخان ، اختار أخاه فخر الدوله لولاية بغداد وفي عهد كيخاتو تولى قوام الملك ابن عم الوزير صدر جهان منصب حكومة العراق .

وعهد بايدو الى الامير توداجو ببغداد وأعمالها ، اما غازان فقد تولى بغداد

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٢٨ ، ٤٣٣ ، ابو الفداء ج ٤ ص ١٦ .
(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٢٨ ، الحوادث الجامعة ص ٤٣٧
Howorth . 3 . P . 313 .

في عهده عماد الدين الدستجرداني شقيق وزيره جمال الدين .

ولم يكن هؤلاء المتولون منفردين بالحكم كما كان عطا ملك ، وانما شاركهم في سلطانهم عدد من الموظفين كونوا بمجموعهم حكومة الولاية التي أصبح هو مسؤولا عنها بالدرجة الاولى .

فقد كان الى جانب بدر الدين خاص الذي اختاره اروق لديوان العراق ، كان الى جانبه سعد الدين مظفر بن المستوفي مشرفاً عليه ، ومجد الدين بن الأثير مشاركاً في الحكم ، واختير الامير تمسكاي شحنة ، وقد سمي بشحنة العراق ، فعزل بذلك تتارقيا الشحنة السابق .

وكان اول عملهم عند وصولهم بغداد اعتقالهم موظفي الديوان السابقين والتحقيق معهم وتعذيبهم لاستخراج الاموال منهم (١) .

وعدلت هذه الحكومة بعد سنة من توليها ، ففي سنة ٦٨٤ هـ عين تاج الدين علي جيبان مشرفاً بالعراق بدلا من سعد الدين بن المستوفي الذي عين لكتابة السلة ، لكن الترتيب الجديد للحكومة لم يستطع تحقيق رغبات الامير اروق كما يظهر ، بل وأصبح موضع اتهامه ، ففي سنة ٦٨٥ هـ فوض أمر العراق الى عزيز الدين الاربلي ومجد الدين اسماعيل بن الياس وخلع عليهما ، فسيق اعضاء الحكومة السابقة الى التحقيق والمحاسبة ثم الى المقصلة . ووصل بعد ذلك الملك ناصر الدين قتلغ شاه الصاحبي وقد رتب مشرفاً بالعراق (٢) .

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٢٨ ، الحوادث الجامعة ص ٤٣٦ - ٤٣٨ ، العزاوي ج ١ ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٤٤٦ ، ٤٤٨ .

ولم يطل الوقت بهذه الحكومة الجديدة التي سرعان ما وقعت ضحية مطامع سعد الدولة اليهودي الذي استطاع التأثير على الايلخان لكي يغير من اعضائها ، حيث تولى هو منصب الاشراف عليها بينما تولى ديوانها الملك شرف الدين السمناني ، ثم لم يلبث بعد انقلاب ارغون على نائبه بوقا ان تولى منصب الوزارة فأرسل اخاه فخر الدولة لولاية بغداد وأرسل معه مهذب الدولة بن الماشعيري ، ورتب جمال الدين الدستجرداني كاتباً لهم . ففعلوا مثل سابقيهم في موظفي الديوان من تعذيب وقتل (١) .

وأرسل كيخاتو بعد توليه ، الأميرين ساطي وبكتمر لتصفح اعمال العراق وعمل حسابه ، فوقف بين ايديهما جمال الدين الدستجرداني الذي بعد عودتهما جمع اموال البلاد وتوجه بها نحو كيخاتو ففوض اليه ولاية العراق ورتب معه اثير الدين التستري وتاج الدين علي تاشان ، وسير معهم اميراً مغولياً اسمه تيطاق ليتولى منصب الشحنة (٢) .

وكان صدر جهان الذي تولى وزارة كيخاتو قد اختار ابن عمه قوام الملك لمسؤولية ديوان العراق ، ولـكن هذه المسؤولية أصبحت اسمية بسبب قيام كيخاتو في ذلك الوقت بارسال شمس الدين محمد التركستاني المعروف بالسكورجي الى العراق ليزيل عن الرعية ما جـــدد عليهم من الأثقال ويتولى ولايته ، فوصل واعتقل

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٥٢ ، تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ق ٣ ص ١٢٨ الحوادث الجامعة ص ٤٠٨ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٧٦ - ٧٧ ، يوسف غنيمة - نزهة المشتاق ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٤٦٩ - ٤٧٠ ، العزاوي ج ١ ص ٣٥٥ .

الدستجرداني وأصحابه وأظهر العدل والاحسان واستجلب الناس ووعدهم بأشياء يخاطب بها الايلخان .

ولكنه كما يظهر لم يكن يملك شيئاً من الصلاحيات العسكرية ليقوم بدور الشحنة في القضاء على الاضطرابات التي قام بها جماعة الأعراب في واسط وسوادها ، لذلك فقد اوعز الايلخان الى بايدو الذي كان معسكراً بالتوجه للقضاء عليها (١) .

وكذلك كانت ولاية الامير توداجو اسمية على العراق في عهد بايدو الذي كان قد فوض ديوانه الى جمال الدين الدستجرداني الذي قام باعتقال السكورجي واهله وارسالهم الى بايدو ، كما قام بترتيب امور العراق فعين الصدور والنواب في سائر الاعمال ، وجمع الاموال من السكان على وجه المساعدة ليتوجه بها الى الايلخان بعد أن عين من قبله لحكومة الديوان كل من نور الدين عبد الرحمن بن تاشان وشرف الدين بديع (٢) .

ورتب غازان بعد انتصاره على بايدو رتب لديوان العراق شرف الدين السمناني وسير معه الأمير توغولدار لمنصب الشحنة (٣) ، ولكن جمال الدين الدستجرداني سرعان ما استعاد مكانته وتولى منصب الوزارة ثانية بفضل حماية الامير نوروز له ، فعين لديوان العراق أخاه عماد الدين بدلا من السمناني وعاونه في الحكم عز الدين بن

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٧٩ ، الحوادث الجامعة ص ٤٧٥ - ٤٧٦ ، العزاوي ج ١ ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

(٢) وصاف م ٣ ص ٢٨٤ ، الحوادث الجامعة ص ٤٨١ - ٤٨٣ ، العزاوي ج ١ ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٣) الحوادث الجامعة ص ٤٨٤ ، العزاوي ج ١ ص ٣٦٩ .

شمام كنائب له وشرف الدين بن البديع مشرفاً (١) .

ولكن امر الدستجرداني لم يطل اذ سرعان ما تحرر الايلخان من سيطرة نوروز عليه ، وأوفد الامير توختا لتصفح احوال العراق ، وسير معه سعد الدين اسعد بن علي ليكون مشرفاً على الديوان بدلا من شرف البديع الذي اعتقل لمحاسبته ، ولكنه استطاع الفرار واللحوق بنوروز (٢) .

ولا شك ان كثرة هذه التبدلات في ديوان العراق ، وما رافقها من اعتقال وتعذيب وقتل ، قد أثرت على حالة الاستقرار فيه ، كما اثرت على اوضاعه المالية التي تدهورت كثيراً حتى عجزت عن الوفاء بما قرر عليه من ضرائب كانت تتزايد يوماً بعد يوم بفضل حالة التبذير التي عرف بها الايلخانات وخاصة كيخاتو ، وكثرة تغير الايلخانات انفسهم حتى ان ثلاثة منهم تناوبوا الحكم في سنة واحدة هي سنة ٦٩٤ هـ (٣) .

وبالاضافة الى ذلك فان الطبيعة لم تنجل على البلاد بغضبها في هذه الفترة ، فمن انقطاع امطار حتى كان الناس يخرجون للاستسقاء ، الى سقوطها في اوقات غير ملائمة تلحق الضرر بالمزروعات ، الى قيام الجراد بحصد المزروعات قبل اوانها ، الى فيضان لدجلة والفرات وإغراقهما الكثير من البلاد ، الأمر الذي تسبب عن هذا جميعه

---

(١) ابن الفوطي ـ تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ج ٤ ق ٢ ص ٦٩٦ ـ ٦٩٧ ، الحوادث الجامعة ص ٤٩٠ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٤٩٠ ـ ٤٩١ ، العزاوي ج ١ ص ٣٧٣ .

(٣) وهم كيخاتو وبايدو وغازان .

نقص في الغذاء وارتفاع في الاسعار وحدوث الغلاء وما ترتب عليه من المجاعة وانتشار الأوبئة (١) .

كل هذه العوامل لابد انها دفعت غازان الى التفكير في حماية الخزينة من الخسارة وتحميل سكان البلاد وحدهم وزرها ، فلجأ الى اتباع نظام الضمان في العراق ، فعقد ضمانة على الشيخ جمال الدين ابراهيم بن السواملي والملك امام الدين يحيى البكري القزويني عند زيارته للعراق سنة ٦٩٦ هـ . وكان في نفس الوقت قد عزل الشحنة تاولدار ورتب عوضه الامير أذينة الذي مهد العراق بحسن سيرته وعظم سطوته وشدة وزعته (٢) .

ولم يكن تطبيق نظام الضمان غريباً على العراق ، فقد كان المألوف عند اتباعه تضمين مناطقه كل على انفراد ، وقد مر علينا ان اباقا ضمن الاعمال الواسطية لشمس الدين محمد البروجردي وجعله مستقلا عن صاحب الديوان ، كما ضمن فخر الدين بن الطراح اعمال واسط سنة ٦٨٣ هـ ، وتولى مجد الدين اسماعيل بن الياس ضمان الاعمال الحلية بالاضافة الى نيابة الديوان والحكم ببغداد سنة ٦٨٦ هـ ، ولكنه تضمينه دفعة واحدة كان في هذه المرة التي هي الاولى والتي اتبعها غازان كنظام جديد لادارة العراق ، وقد اختلف الضامنان بعد سنتين كما يظهر في عملهما ، فكفت يد الشيخ السواملي ، واستقل الملك القزويني بالحكم فيه ، وعند وفاته سنة ٧٠٠ هـ

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٤٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣ ، ٤٦١ ، ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ابن العماد الحنبلي ج ٦ شذرات الذهب ص ١٣ في الحديث عن السواملي .

ورث ابنه افتخار الدين ضمانه فأقيم مقامه (١) .

ولم يستقر تطبيق هذا النظام طويلا ، اذ ان غازان احس في ايامه الأخيرة بما نشأ عنه من إضرار بالملتزمين والاهالي على حد سواء ، فأمر بالغائه في ٢٢ رجب ٧٠٢ هـ (٢) .

وتسكت المراجع بعد هذا عن اعطاء صورة واضحة لاسلوب الحكم الذي اتبع لادارة العراق ، على انه يمكن القول بأن الشحنة بقي يتولى النصيب الأكبر من الاشراف على الجهاز الاداري فيه ، بالاضافة الى واجباته كشحنة .

فابن عنبة يشير في حديثه عن مقتل النقيب زين الدين ابو طاهر هبة الله الذي كان يتولى النقابة الطاهرية وصدارة الاعمال الفراتية ، بأن الشحنة أذينة حاكم بغداد رخص لبني محاسن قتله (٣) . ويشير كذلك ابن الفوطي في حديثه عن فخر الدين ابي بكر عبدالله ، ان شحنة العراق الأمير أذينة فوض اليه الرباط الارجواني بدرب زاخي وخلع عليه (٤) .

ومن المحتمل ايضاً ان الايلخانات قاموا بتفويض اعمال العراق مباشرة لمن توسموا فيه القدرة او المصلحة ، فقد توجه الفقيه الزاهد جلال الدين ابو القاسم بعد قتل اخيه زين الدين ابو طاهر ، توجه الى حضرة السلطان غازان فولاه النقابة

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٩٨ ، ٥٠٤ . الذهبي ـ تاريخ الاسلام ـ الورقة ٢٤٦ ـ ٢٤٧ في وفيات سنة ٧٠٠ هـ .

(٢) العزاوي جـ ١ ص ٢٩٦ .

(٣) ابن عنبة عمدة الطالب ص ٢٥١ .

(٤) تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب جـ ٤ ق ٣ ص ١٩٦ .

الطاهرية ، والقضاء والصدارة بالبلاد الفراتية فقتل كل من دخل في قتل اخيه وتجرأ على سفك الدماء وطالت حكومته (١) .

وكان الوزراء في هذه الفترة يوفدون نوابهم الى العراق للاشراف على بعض اعماله ، ففي شوال ٧١١ هـ عندما أمر اولجايتو بقتل وزيره سعد الدين الساوجي أمر بقتل بعض اعوانه معه ومنهم صاحب الديوان الخواجة زين الدين الماستري ، والملك ناصر الدين يحي صاحب سنجار وغيرهم وقد قتـــل هؤلاء في قرية المحول قرب بغداد (٢) .

وعندما استقر عليشاه بالوزارة عمل على تقريب أصيل الدين الحسن بن نصير الدين الطوسي من اولجايتو حتى ولاه نيابة السلطنة ببغداد ، ولكنه فشل في عمله فعزل وصودر (٣) .

وفي زمن ابي سعيد اعتادت الدولة ارسال بعض الكتاب الى العراق لتصفح أحواله وملاحظة أمواله ، من ذلك ما كان يقوم به سديد الدولة بن الدباس الذي عزل سنة ٧٢١ هـ حيث أوفدت الدولة فخر الدين ؟؟ ليقوم بذلك ، وعندما وجهت شمس الدين محمد بن الحسين الخاني لعمارة العراق اعتمد هذا على فخر الدين ففوض

(١) ابن عنبة ـ عمدة الطالب ص ٢٥١ .

(٢) تاريخ كزيدة ص ٥٩٧ ، حبيب السير م ٣ ج ١ ص ١١٠ ، الصفدي ج ٦ ق ١ أعيال العصر الورقة ١٠٤ ، العزاوي ج ١ ص ٤١٨ .

(٣) ابو المحاسن ج ٩ ، النجوم الزاهرة ص ٢٣٢ ، العاملي ـ اعيان الشيعة ج ١٤ ص ٢٧١ ـ ٢٧٣ في الحديث عن تاج الدين محمد بن زهرة الحسيني ، العزاوي ج ١ ص ٤٣٧ .

اليه أمر غرب بغداد فسار فيها السيرة العمرية وساسها بالسياسة الكسروية ، فاجتهد ودبر الامور وأمر بأن لا يغلق أهل السوق دكاكينهم ... وأخرج من في الحبوس وكثرت الأدعية له ولمخدومه (١) .

وآخر من ورد ذكرهم من ولاة بغـــداد الخواجة معروف الذي أشار اليه ابن بطوطة عندما حوله الايلخان ابو سعيد عليه لكي يعطيه نفقات سفره الى الديار المقدسة (٢) .

النظام الحربي :

ولعل المزايا الحربية كانت هي الشيء الوحيد الذي لم يستورده المغول من الآخرين وانما نبع من ذاتهم ، وتطور مع تطور قسوة الحياة عليهم في بيئتهم ، فخرجوا متماسكين مع بعضهم أشداء على أعدائهم مطيعين لقادتهم صبورين على تحمل المشاق واستطاعوا بفضل هذه الصفات ، وبما توافر لهم اخيراً من قيادة جريئة وحكيمة تمثلت فى شخصية جنكيز خان ، ان يفرضوا سطوتهم على البلاد المجاورة ويلقوا الرعب في نفوس اهلها فتضعف عن معاندتهم والتمرد على طاعتهم .

وتنظمت هذه القوى بعد استقرار أمر جنكيز وقيام خانيته وكونت نواة للجيش المغولي الذي أصبح مضرب المثل في الشجاعة ، والذي ترك أسوأ الأثر في البلاد التي وصل اليها .

لقد نشأ الجيش المغولي أولا فى الصحراء من ابناء القبيلة التي نشأ فيها جنكيز

---

(١) ابن الفوطي ـ تلخيص مجمع الآداب جـ ٤ ق ٣ ص ١٦٩ .

(٢) رحلة بن بطوطة جـ ١ ص ١٤٧ .

والتي اعتمد عليها عند كبره في اظهار مواهبه وقابلياته في القتال والقيادة ، حتى بزغ اسمه وطارت شهرته فالتفت حوله بعض القبائل وخضعت لزعامته ، فتنقل بها من نصر الى نصر على القبائل الاخرى حتى استقر فوق الجميع .

وكان كل أفراد القبيلة جنوداً مجندين في جيشها ، اذ ان شعار الحياة في هذه البيئة كان البقاء للأقوى لذلك يشبههم ماركو بولو بأنهم عالم متنقل من العسكر ، فكل ذكر فيهم محارب ، وكل انثى تتعلم كيف تساعد زوجها ، وطفلهم يمتطي الخيول في السن الذي يعامل فيه في البلاد الاخرى معاملة الاطفال ، وحرفتهم الرئيسية هي الحرب حتى في وقت السلم فانه يخرج للصيد (١) .

وتطورت مهارات هذا الجيش وأساليبه في القتال مع الزمن وعلى ضوء احتكاكه بالأقوام المجاورة ولا شك انه استفاد من احتكاكه بالصينيين أولا وأخذ عنهم بعض اساليب القتال كحصار المدن واستخدام الآلات الثقيلة مما لم تكن موجودة في الصحراء .

وبقي المغول يعتمدون على الفرد المغولي كمادة للجيش حتى استقرت فتوحاتهم وقامت دولهم في البلاد التي خضعت لهم حينئذ بدأوا يستفيدون من خدمات سكان البلاد المفتوحة في التجنيد لسد النقص في جيوشهم ولزيادة عددها ، كما استعانوا بالأمراء المحليين الذين دانوا لهم بالطاعة والذين كان عليهم ان يقدموا عدداً من جندهم الى الايلخان في حالة الحرب . على انهم لم يمنحوا مطلقاً أية رتبة عسكرية لواحد من غير المغول .

---

(١) The Hist . Ofpersia - 1 - P . 203 ، 205 . Marcopolo .2. P . 85 .

وقد مر علينا استعانتهم بالأسرى حين زحفهم لفتح سمرقند وبخارى لارهاب اهلها بكثرة سوادهم ، وكان مع هولاكو عند زحفه نحو بغداد عـــدد من امرائه المسلمين الذين خضعوا له على رأس جيوشهم . وبعد قيام الايلخانية استعان هولاكو ببقايا جيوش الخلافة من العرب وغيرهم . ففي حصار الموصل سنة ٦٦٠ هـ أنجد هولاكو قائده سنداغو بعشرة آلاف من المتطوعة العرب يقودهم الملك صدر الدين التبريزي(١) كما فوض جلال الدين بن الدويدار الصغير الذي كان قد عطف عليه وحماه من القتل في مجزرة بغداد مع ابيه ، فوضه أن يقوم بتجنيد بقايا جند الخلافة من الأتراك المنتشرين في العراق للاستفادة منهم في الحرب مع بركة خان ، ومنحه من الصلاحيات لانجاز مهمته ، بحيث أصبح حاكم بغداد يخضع لحكمه وينفذ أوامره .

وكذلك كان الحال بالنسبة لبقية الايلخانات (٢) .

اما تكوين الجيش فكان بسيطاً في اول امره بحكم بخل الصحراء ، ولكنه تنوع

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٣٢٧ .

(٢) فبالنسبة لأباقا فقد استخدم جيوش الروم والأرمن في حروبه مع المماليك اما تكودار فقد استعان بجيوش المسلمين والأرمن والجورجيين عند قتاله لابن اخيه ارغون . وكذلك فعل غازان . انظر رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٣٣٨ – ٣٣٩ ، م ٢ ج ٢ ص ١٠٣ ، ابن كثير ج ١٣ ص ٢٩٦ ، الدبس ج ٦ – تاريخ سورية ص ٢٩٣ ، ابن فضل الله ج ٢ ق ٢ – مسالك الأبصار الورقة ٢٢٦ – ٢٢٧ ، التعريف بالمصطلح الشريف ص ٥٣ – ٥٤ .

Howorth . 3 . 333 . ' 414 - 415 . Jacob de Haas . Hist . Ofpalastine . P . 290 .

مع تطور قوته وسعة سلطانه وازدياد غنائه ، على اننا نلاحظ ان الصيد بقي المورد الدائم لتموينه في كل الظروف التي مر فيها هذا الجيش ، وخاصة عندما تعاني البلاد من الضائقة الاقتصادية ، يشير هورث الى ذلك في حديثه عن اضطرار غازان الذي كان يتصدى لتمرد نوروز في زمن عمه كيخاتو سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م وكانت بلاد خراسان تعاني من المجاعة ، فاضطر غازان وجيشه للاعتماد على الصيد في تموينه (١) .

اما في غير هذه الحالة فكان الصيد ايضاً واجباً على الجيش باعتباره نوعاً من التدريب .

على ان الطبيعة عودت المغول على تناول كل شيء يقع في ايديهم ويستطاع مضغه . وقد ذكر ذلك ابن الاثير انهم لم يكونوا يحرموا شيئاً من المأكول ، بل كانوا يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير والفئران والقطط وغيرها ، بل حتى الاعواد الجافة والبراغيث كما يصف ذلك الرحالة الايطالي كاربيني (٢) .

وتعودوا كذلك على الاعتماد على لبن خيولهم فقط وخاصة عندما يضطر الجيش الى مواصلة السير أياماً عديدة ، فيحمل الجندي حينئذ معه بطلين من الجلد يحفظ بهما اللبن للشرب ، واذا تعذر عليه ذلك فقد يبقى أياماً عديدة يعيش على امتصاص دماء حصانه حيث يفتح أحد عروقه ويمتص منه (٣) .

---

(١) هورث *Howorth* .

(٢) الكامل في التاريخ جـ ٩ ص ٣٢٩ - ٣٣٠ ، براون جـ ٣ ص ٥٦١ حيث نقل رواية الرحالة الايطالي .

(٣) حافظ حمدي - الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٦ - ٢١٧

Marcopolo . P . 87 - 88 . *Osbern* . P . 378 .

اما في الظروف والاحوال الاعتيادية فكانت الدولة تقوم بتأمين تموينه من المناطق التي يمر بها . ويعطينا رشيد الدين نموذجاً لذلك في تموين حملة هولاكو ، وان الخاقان أمر باختيار الطريق الذي ستمر به ، واعتبروا جميع المزارع والمراعي مناطق محرمة ، وأعد تموين الجيش من جميع انحاء الدولة وكان نصيب الجندي مقداراً من الدقيق وقربة من النبيذ (١) .

اما تشكيلات الجيش وتقسيماته ، فمن الناحية القيادية كان التقسيم العشري هو المتبع في تنظيمه (٢) ، فكانت اصغر وحدة في الجيش مكونة من عشرة أفراد عليهم رئيس يقال له مقدم عشرة . يشير ابن عبد الظاهر الى لجوء بعض المغول الى الرحبة في سنة ٦٩٠ هـ كان من بينهم مقدم عشرة اسمه تكش بن قدودك (٣) .

وكانت كل عشر مجموعات من هذه يقودها امير يقال له أمير المائة ، وكل عشرة من امراء المائة يقودهم امير يقال له امير الألف ، ويذكر هورث « انه عندما بدأ نوروز يفكر في اعلان تمرده على طاعة ارغون خوفاً على نفسه من تهمة تأييد بوقا ، اعتزل بجيوشه عن الامير غازان بن ارغون الذي كان يتولى امارة خراسان في ذلك الوقت واستدعى قواد المائة والألف من جيشه وأمراء حرسه وأخبرهم بأنه علم بعزم غازان على قتلهم (٤) .

---

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٣٥ ، الجويني ج ٣ ص ٣٧ – ٣٨ .

(٢) الجويني ج ١ ص ٢٣ ، *SYKE* ج ٢ ص ٨٥

Hart . Enc . Br . 15 . P . 706 .

(٣) ابن عبد الظاهر ج ٣ – الالطاف الخفية ص ٤٨ – ٤٩ .

(٤) هورث ج ٣ ص ٣٣٥ .

وكل عشرة من مجموعات الألف تكوّن مجموعة من عشرة آلاف يطلق عليها اسم التومان ويقودها امير يقال له النوين او النويان ، يشير غرس الدين الظاهري في حديثه عن وصول رسول الى مصر من احد ملوك الشرق يهدده بالحرب او الخضوع ودفع الجزية ويذكر بأن عنده جيوش كثيرة تضم عدة توامين ، وكل تومان عشرة آلاف فارس » (١) .

وعندما يبلغ الجيش عشرة تومانات يطلق على قائدهم امير المائة الف . ويذكر ماركوبولو بعد أن يعدد هذه التقسيمات ، انه يطلق على المائة الف لفظ توك (Tu) وعلى العشرة آلاف لفظ تومان (٢) .

وقد مر علينا ان القائد العام للجيش كان يسمى امير الامراء او بكلر بيك ويلحق باسمه عادة كلمة النويان ، اذ انه في اغلب الاحيان يكون قائداً للتومان .

ويسمي لنا العزاوي (٣) اسماء بقية الرتب العسكرية فيذكر ان قائد الألف يقال له « بيكباش » وان قائد المائة يقال له « يوز باش » وان قائد العشرة يقال له « اونباش » .

ويكون تعيين النويان وامير الالف من قبل الايلخان نفسه ، بينما يتولى النويان تعيين قواد المائة والعشرة . ولما كان الجيش يعتمد على القبائل المغولية في تكوينه ،

---

(١) زبدة كشف الممالك ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٢) *Marco polo . Op cit . 87* .

(٣) تاريخ العراق بين احتلالين جـ ١ ص ١٣١ . وهي اصطلاحات تركية كانت مستعملة في الجمهورية العربية المتحدة حتى سنة ١٩٥٨ حيث عربت عند قيام الوحدة .

فانه روعي عند تشكيل وحداته ، أن تضم الوحدة افراداً من قبيلة واحدة قدر الامكان ليكون التجانس والتعاون بينهما قائماً . يؤيد هذا ما اشار اليه رشيد الدين في حديثه عن استعدادات الامير بوقا عندما عزم على الانقلاب على ارغون ، وانه اتصل باتباعه من الامراء والمقدمين ، وبعد ان يعدد اسماءهم يقول وهذه الجماعة كلها من الجلائريين (١) .

ويعتبر هذا التشكيل استمراراً لما كان عليه الجيش عند نشوئه ، اذ ان جنكيز كان يعتبر القبيلة الملتحقة به وحدة عسكرية واحدة ، ويُبقي زعيم القبيلة على رأسها باعتباره وثيق الصلة بها وأخبر بقيادتها (٢) .

وبفضل هذا التنظيم كانت اوامر القيادة تنتقل بسرعة بين كتائب الجيش لان كل مسؤول فيه كان يتعامل مع عشرة من التابعين له .

ومما اشار اليه المؤرخون المعاصرون لهذا الجيش ان اهم ما يمتاز به هو الطاعة ، ويعبر عنها ابن فضل الله (٣) بأنها الطاعة لمجرد الطاعة والاستعداد للتضحية .

وحققت هـذه الميزة سيادة النظام بين صفوفه ، واسراعه بتنفيذ الأوامر ،

---

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ١٤٣ ،

Molcolm . of . cit . I – 256 .

(٢) سبق العرب جنكيز خان في اتباع هذا الاسلوب في تكوين الجيش ، فان الجيش العربي الذي خرج بالاسلام لتحرير العراق من الحكم الفارسي وسورية ومصر من الحكم البيزنطي كان تشكيله يقوم على اساس قبلي ايضاً .

(٣) مسالك الابصار ج ٢ ق ٢ الورقة ٢٢١ ، ابن طباطبا ص ٢٤ ،

Marco polo . P . 86 .

الامر الذي مكنه من تحقيق كثير من الانتصارات .

وكانت الكفاءة والشجاعة اساساً للتقدم في هذا الجيش الذي لم يكن فيه مكان لمتواكل او كسول ، اذ ان الفاشل فيه او المتمرد على أوامره يكون جزاؤه الموت هو وأهله ، فان الايلخان كان يراقب قواده ويحاسبهم على اعمالهم ويعاقبهم على اهمالهم . يشير الى ذلك رشيد الدين في حديثه عن حملة هولاكو وكيف انه عند وصوله همدان استدعى قائده بايجو وحاسبه على ما فعله خلال توليه القيادة واتهمه بالتواكل والكسل ، فلم يملك القائد سوى ان جثا على ركبتيه وأخذ يدفع عن نفسه تهمة التقصير (١) .

اما في حالة الحرب فكان الجيش ينقسم بالاضافة الى تقسيماته القيادية ، ينقسم من الناحية الفنية الى تشكيل آخر تراعى فيه المهارات الاساسية للقتال من هجوم أو دفاع ، فهو ينقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية هي القلب ، والميمنة والميسرة .

وبالرغم من ان الجيش يعمل خلال القتال كوحدة واحدة متجانسة تخضع لاشراف وتوجيهات القائد العام الذي يكون مقره في القلب عادة ، إلا ان كل قسم من هذه الاقسام كانت له قيادة خاصة به تتولى تنسيق خططه على ضوء خطط القيادة (٢).

ففي خلال الزحف نحو بغداد تولى هولاكو قيادة قلب الجيش بينما اعطى قيادة

---

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٦٠ - ٢٦١ ، براون ج ٢ ص ٥٥٣ ، الدولة الخوارزمية ص ٢١٥ .

(٢) يشير الى ذلك رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٤٠ في حديثه عن منصب امارة قلب الجيش التي عهد بها ارغون الى قنجقيال .

الميمنة الى كل من چورماغون نويان وبايجو نويان وقيادة الميسرة الى كيتو بوقانويان، وكذلك فعل عند زحفه نحو الشام فقد تولى بنفسه القلب ووزع الامراء على الميمنة والميسرة (١) .

ومما يتمم هذا التشكيل قسم رابع يطلق عليه اسم الطليعة ، يتقدم الجيش لاستكشاف طريقة ومناوشة العدو وإرباكه ، وقد تكون الطليعة عدداً محدوداً من الجند ، وقد تكون جيشاً كاملا ، فقد أرسل اباقا خـلال حروبه مع براق طليعة لا تتجاوز المائة جندي ، بينما كان هولاكو قد ارسل جيشاً كاملا بقيادة كيتوبوقا عند زحفه نحو الشام (٢) .

أما اسلحة الجيش فكانـت ابسطها واولها السهام وقسيها والسيوف والرماح والحراب ، ويعطينا ماركوبولو وصفاً لتجهيزات الجندي فى الحرب فيذكر ان كل جندي يحمل معه ستين (٦٠) سهماً منها (٣٠) ثلاثين صغيرة تستخدم في الرشق على العدو ، والثلاثين الاخرى اكبر منها بها نهايات واسعة تستخدم في الاطلاق على العدو عندما يكون قريباً فتصيبه في وجهه او ذراعه وتقطع خيوط قوسه ، وبعدها يتناول الجندي سيفه (٣) .

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٨١ ، ٣٠٥ ، بينما عهد اباقا في حروبه مع بركة خان قيادة الميمنة والميسرة الى اخوته يشموت وتبشين . انظر م٢ ج ٢ ص ٣٤، ٤١ ، ٤٣ ، ٨٣ .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ، ٣٠٥ ، م ٢ ج ٢ ص ٣٤ ،
Marco Polo . P . 87 .

(٣) *Marco Polo . P . 360 - 361 .*

وتسمى هذه الأسلحة ، الخفيفة ، ولكن الجيش بعد تطوره واحتكاكه اقتبس انواع اخرى من الأسلحة عرفت بالأسلحة الثقيلة . وهي التي اصبح يحتاجها عند حصار المدن خاصة ، ومنها المنجنيق الذي كان يستعمل لقذف الحجارة على المدن المحصورة لتهديم ابراجها وقتل الجنود الذين يدافعون عنها ، وقد اضطر هولاكو خلال حصاره بغداد وتعذر حصوله على الاحجار اضطر الى قذف اشجار النخيل بدلا منها ومنها ايضاً العرادات التي كانت تتولى عملية نقب الأسوار لكي ينفذ الجنود منها الى داخل المدن المحصورة ، ومنها قاذفات النفط التي كانت ترمي القوارير المليئة بالنفط المشتعل ، وبالاضافة الى هذا كله كانت هناك الدروع التي يلبسها الجنود والدرق التي يحتمون خلفها (١) . وكان يرافق الجيش عدد من المهندسين الذين يتولون تمهيد الطرق واقامة الجسور والمعابر على مجاري المياه (٢) .

ولم يكن الجند ، في اول الأمر يتقاضون اجورهم نقداً وانما وزعت عليهم اقطاعات من الارض تزرع لحسابهم ويتوارثها ابناؤهم ، يشير الى ذلك ابن فضل الله بقوله : ولكل طائفة ارض لنزولهم توارثها الخلف عن السلف منذ ملك هولاكو هذه البلاد ، وفيها منازلهم وبها مزدرع لأقواتهم ، لكنهم لايعيشون بالحرث والزرع (٣) . يؤيد هذا ما اشار اليه رشيد الدين من ان اموال خراسان كانت توزع على

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، ٢٣٥ ، ابن العبري ص ٢٧١ ، الحوادث الجامعة ص ٣٢٥ .

(٢) الدولة الخوارزمية والمغول ص ٢١٦ .

(٣) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٢ الورقة ٢٨١ ، القلقشندي ج ٤ ص ٤٢٥ .

الجند المقيم بها والذي يتولى الدفاع عنها (١) .

وكان الحد الأدنى للاجور هو مائة دينار يتقاضاها كل من الجندي أمير العشرة وأمير مائة ، لا فرق بينهم ، ولكن هذين القائدين الأخيرين كانا يحتجزان لهما مما هو مقرر للجيش بحكم مزيتهما عليه ، ولا يشير ابن فضل الله الى مقدار ذلك ، اما امير الألف فالمقرر له الف دينار ، بينما قرر للنوين عشرة آلاف دينار ، ولكن تطور الاوضاع السياسية للدولة وتحكم الامراء فيها فسح المجال لكبارهم ان يتخطوا ما هو مقرر لهم في الديوان ، فلم يعد النويان يفتح إلا باربعين او خمسين تومان . اما كبار الامراء الذين يحملون لقب البكلربيك ، فلم يكن هناك قيود تحد من مواردهم ؛ مثال ذلك ان الامير چوبان الذي تولى الوصاية على ابي سعيد كان يحصل على ثلاثمائة تومان - أي ثلاثة ملايين دينار في السنة بخلاف ما يحصل عليه عند تقدير ضمان البلاد المختلفة (٢) .

وقد مر علينا محاولة غازان لوضع حد للفوضى المالية التي كانت عليها البلاد ، وكان من جملتها اعادة تنظيم اجور الجيش ، فسحب منهم موارد الاقطاعات وحدد لهم اجوراً نقدية يتقاضونها فى كل فترة زمنية ، ولابد أن هذه الاجور لم تكن تتفق ورغبات كبار الامراء الذين وجدوا في استمرار العمل بها بعد وفاة غازان قيداً يحدد من مصروفاتهم وبالتالي يحدد من نفوذهم ، فأبطل العمل بها وتم ذلك في عهد

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ١٥٦

Howorth . P . 337 .

(٢) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٢ الورقة ٢٨٠ - ٢٨١ .

ابي سعيد على الأكثر (١) .

النظام المالى :

أشرنا فيما سبق الى ان المغول استعانوا عند خروجهم من الصحراء بأبناء البلاد التي خضعت لهم ، وكان غرضهم من ذلك ، تحقيق منافع السيطرة والفتح ، ومن اهمها تأمين العلاقة السلمية بين الحاكم والمحكوم وتنظيم جباية خيرات المحكومين لمنفعة الحاكمين .

وورث المغول من جملة ما ورثوا عن الحكومات السابقة وخاصة الخلافة العباسية ورثوا أنظمها المالية التي كانت سائدة فيها . ولما كان المغول يفتقرون الى النظم الحضارية ، فقد أخذوا بهذه النظم ولم يغيروا فيها فضلا عن انهم استخدموا معظم رجالاتها ، وقد مر علينا مصداق ذلك في حكومة بغداد .

كان النظام المالي السائد في البلاد الاسلامية يقوم على الموارد التي تحصل عليها

---

(١) لان السلطة كانت بيد الامراء انفسهم وخاصة جوبان فضلًا عن انه لدينا ما يشير الى ان الجند كانوا يتقاضون رواتباً في عهد اولجايتو . انظر مقدمة كاترمير لجامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٤١ ، بينما يشير حمد الله في حديثه عن ولاية خراسان ومحاولة الوزير غياث الدين اصلاح اوضاعها المالية ، يشير الى ان الجيش كانت له اقطاعات فيها ، وانه حاول ان يقوم بحساب هذه الاقطاعات لكي يحمل ضرائب خراسان الى الخزانة ولكن الزمن لم يساعده . حمد الله مستوفي قزويني نزهة القلوب ص ١٤٧ ، ترجمته الانكليزية ص ١٤٦ - ١٤٧ .

الخلافة من الضرائب الشرعية بالدرجة الاولى ، وغير الشرعية في كثير من الاحيان(١).

اما المغول فلم يكن من طبعهم ان يميزوا بين الشرعية وغيرها مادام ذلك يوفر لهم مزيداً من المال ، فقد اعتبروا كل انواع الضرائب التي كان معمولا بها في السابق مصدراً يهتدي به وأضافوا من عندهم ضرائب اخرى في بعض الاحيان عندما تشتد بهم الحاجة الى المال .

وعلى ذلك أصبحت موارد الدولة الايلخانية تعتمد على الضرائب الآتية :

١ - ضريبة الخراج : - وهي ضريبة الارض ، او ثمن ايجارها يدفعه الفلاح نقداً او عيناً او بكليهما معاً تخفيفاً عنه .

وعندما ورثها المغول كانت قد بعدت كثيراً عن اصولها الشرعية إذان المتغلبين على الخلافة ، وحتى الخلفاء انفسهم تلاعبوا بنسبها وأقسامها (٢) كاما

(١) اما الضرائب الشرعية فهي الخراج ، الجزية ، الصدقات ، العشر الذي يؤخذ من التجارة ، وخمس المعادن وخمس سيب البحر وارث الميت الذي لاوارث له، اما غير الشرعية ، فضرائب الأسواق ، الحوانيت ، الضرائب التجارية والاضافات على الضرائب الشرعية .

(٢) فهناك نوعان من الارض ، الاولى التي امتلكها العرب عند تحريرهم البلاد من الحكم الفارسي مثلا ، وقد سميت بالاراضي العشرية ، واصلها من اراضي الاسرة المالكة او من الارض التي هرب عنها اصحابها ، ومقدار الضريبة عليها العشر . اما النوع الثاني فهي الخراجية التي ابقاها العرب بيد اصحابها وفرضوا عليهم دفع ايجارها وهو الخراج وكان لا يزيد عن النصف . انظر في ذلك الدوري ـ النظم الاسلامية ص ١٦٠ وما بعدها .

احتاجوا الى مزيد من الاموال حتى الف الناس الزيادة فيها . من ذلك ما نقله ابن الاثير ان مدينة يعقوبة اصبحت تدفع في زمن الخليفة الناصر لدين الله ثمانين الف دينار بينما كان خراجها عشرة آلاف فقط (١) .

وتسلم المغول هـذه الصورة من الضرائب واعتبروها اساساً لعلاقتهم مع المحكومين ونسجوا على منوالها ، وليست لدينا معلومات واضحة عن المدى الذي اندفع فيه الحاكمون الى التلاعب فيها . وبالرغم مما أشار اليه الدكتور الفيل من ان المغول أبقوا هذه الضريبة كما هي مع ملاحظة نوع الارض المفروضة عليها (٢) ، إلا أن الخراج لم يسلم من التلاعب به من قبل الحاكين عندما يحتاجون الى مزيد من المال . فقد ضاعفه جمال الدين الدستجرداني ، كما ضاعفه من بعده صدر الدين الخالدي (٣) ، هذا بالاضافة الى ان الايلخانات كانوا يعملون دائماً على التخفيف عن الرعية والاحسان اليها وإزالة الأثقال عنها في كل مناسبة مما يدل على استمرار التلاعب به . من ذلك ما قام به اباقا عند زيارته بغداد سنة ٦٧٢ هـ ، بينما أرسل كيخاتو نائبه محمد السكورجي ليزيل عن الرعية ما جدد عليها من الاثقال ، وكذلك فعل غازان عندما خفف عن الناس ما يقاسونه من أمر الخراج (٤) .

(١) الكامل في التاريخ جـ ٩ ص ٣٦١ – ٣٦٢ .

(٢) الجغرافية التاريخية للعراق بين الفتح المغولي والفتح العثماني ص ١٩٩ . خصباك ـ احوال العراق الاقتصادية في عهد الايلخانيين ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد م ٤ اغسطس ١٩٦١ ص ١٣٦ .

(٣) الحوادث الجامعة ص ٤٩٥ .

(٤) نفس المرجع ص ٣٧٥ ، ٤٧٥ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ .

اما اولجايتو فقد اسقط بعض الرسوم الاضافية التي كانت مقررة من قبل معللا ذلك بأن الدولة ليست محتاجة الى مال الرعية ما داموا يؤدون الخراج (١) .

ومن المحتمل ان الخراج كان يستوفى نقداً من الناس ، على المكس مما كان عليه استيفاؤه في العصر العباسي الذي رخص للناس دفعه نقداً او عيناً ، وذلك ان غازان استجاب لشكوى الناس من إلزامهم بالخراج ذهباً احمراً ، الامر الذي أضر بهم ، فأمر باجرائهم على عادتهم منذ فتحت بغداد (٢) .

ويشير كذلك ابن الفوطي فى حديثه عن هبة الله بن يوحنا النصراني الكاتب الذي كان من ايام استيفاء الخراج من النواحي والبلاد ، يحضر الى الديوان ومعه كيس ملآى بالدراهم ليتم به خراج من ليس له طاقة ، ومن عجز عن الخراج (٣) .

ضريبة الجزية . أو الرؤوس : – وتسمى ايضاً بالضريبة الشخصية ، وكانت مفروضة على اهل الذمة في زمن الخلافة ، وهي ثمن حماية المسلمين لهم ، وكانت درجاتها ثلاثة بالنسبة لحالة الذمي المالية ، فالفقير يدفع اثني عشر درهماً ، ومتوسط الحال اربعة وعشرين ، والموسر ثمانية واربعين . وهي تعادل في وقتها من الدنانير ، ديناراً واحداً . وديناربن واربعة .

ولم يكن هذا النوع من الضرائب غريباً على المغول حتى في صحرائهم ، فالرحالة ماركوبولو يشير فى حديثه عن بداية امر التتار انهم كانوا خاضعين لملك يقال له

---

(١) ابرو ص ٥٥ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٤٩٣ .

(٣) مجمع الآداب في معجم الالقاب ج ٤ ق ٢ ص ٩٦٨ – ٩٦٩ .

اونك خان *Unk Kan* وكانوا يدفعون له الضريبة ومقدارها عشر من كل شيء مما عندهم (١) .

وورث جنكيز وأبناؤه هذا النمط من الضريبة ففرضوها على الشعوب التي خضعت لهم ، يشير الى ذلك مينورسكي في حديثه عن تبريز ، ان القائد المغولي چورماغون استدعى أشراف المدينة وأخذ منهم غرامة كبيرة ، وأمر الغزالين بصنع الثياب الخطائي للمكهم الاعظم او كتاي وفرض عليهم جزية سنوية معينة (٢) .

ويوضح لنا الرحالة الصيني شانك تي *Ch' ang . Te* الذي تولى السفارة بين منكوخان وأخيه هولاكو فيقول بعد عبوره نهر سيحون متجهاً نحو الغرب « ان الناس هنا يدفعون عشرة قطع ذهبية كضريبة على كل رأس كحد أعلى ، ولكن هناك فروق عملت في الضريبة بالنسبة للفقير والغني » (٣) .

---

(١) رحلة *Mar* ص ٧٨ .

(٢) مينورسكي ترجمة المعارف الاسلامية م ٤ - تبريز - ص ٥٤٤ .

(٣) *Bretschneider - I - P . 131 .*

ويستعير الناشر في الحاشية رقم (٣٤٠) ما نقله دوسون عن رشيد الدين قوله بأن منكوخان أمر سنة ١٢٥١ م بملاحظة الضريبة في ايران بأن تؤخذ من الفقير ديناراً واحداً من الذهب ، ومن الاغنياء عشرة دنانير .

ومن المحتمل ان ابن العبري كان هو المرجع الذي نقل عنـــه هؤلاء فانه في ص ٢٦٢ - ٢٦٣ يشير الى ان منكو أمر بأن يؤدي المتحول ببلاد الخطا في السنة (١٥) دينار والوضيع ديناراً واحداً . وببلاد خراسان يزن المتحول في السنة ١٠ دنانير والفقير ديناراً واحداً .

وطبق هولاكو هذه الضريبة ، ولم يميز بين المسلمين واهل الذمة عندما أمر بجمع اهل بغداد وكتب اسماءهم وجعل عليهم امراء الوف ومئات وعشرات وقرر على كل واحد منهم ما يؤديه في كل سنة على قدر حالهم ما عدا الشيخ الكبير ومن هو غير بالغ (١) .

ودفع السكان الجزية مرة واحدة على الأكثر ، اذ ان علاء الدين عطا ملك اسقطها عنهم عند توليه حكومة بغداد (٢) .

وكان اول تطبيق شرعي لضريبة الجزية فى عهد احمد تكودار اول الايلخانات المسلمين الذي فرضها على اهل الذمة ، وراعى فى تطبيقها الاعفاءات الشرعية ، فأعفى الكنائس والأديرة والقسس والرهبان من دفعها (٣) ، ولابد انه عين الموظفين لاستيفائها وأنشأ لذلك ديوان الجوالي .

وليس لدينا ما يشير الى ان ارغون اوقف تطبيقها عند توليه ، وان كنت اميل الى القول بأن تنفيذها كان يتعثر بسبب صلات ارغون بالمسيحيين خاصة ، بالاضافة الى ان معظم اعوانه كانوا من اليهود والمسيحيين (٤) . الذين لا يهون عليهم حتما ان يغرم ابناء طائفتهم كل سنة هذا المبلغ من المال حتى لو كانوا هم بمنجاة من دفعه

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٣٩ ، مصطفى بدر ـ ايران في عهد غازان ص ١٣٧ وليست لدينا معلومات عن مقدار ما فرضه هولاكو على الناس في هذه الضريبة .

(٢) خصباك ـ احوال العراق الاقتصادية ص ١٤١ مجلة كلية الآداب ـ بغداد م ٤ اغسطس ١٩٦١ .

(٣) الصائغ ج ١ ـ تاريخ الموصل ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

(٤) *Howorth* · 3 . 344 .

بسبب نفوذهم ومكانتهم .

ومما يشير الى استمرار بقاء ديوان الجوالي ، وقيامه بعمله ان وزير گيخاتو صدر الدين الخالدي - صدر جهان - ارسل اخاه زين الدين محمد الى بغداد ليتولى منصب قاضي القضاة والوقوف والوكالة والتركات والمقاطعات والجوالي (١) .

واستقرت ضريبة الجزية في عهد غازان الذي جعل من الاسلام ديناً رسمياً للدولة ، وأمر أن ينادى بين الناس بضرورة اعتناقه وتطبيق احكامه ، ولاحق المجوس والشمسة والمثنوية ، وفرض الجزية على اليهود وعاملهم باحتقار وأنكر على النصارى ما يعتقدونه ، وشدد في معاملة اهل الذمة وألزمهم بلبس الغيار (٢) .

واقتفى اولجايتو سياسة اخيه فى مضايقتهم وتمييزهم عن المسلمين وفرض الجزية عليهم ، ويذكر ابن الفوطي ان الامير سندمر بن اميرك مسؤول ديوان الجوالي في عهده اختار عز الدين ابو محمد الحسن المعروف بالبامجي ليتولى مسؤولية استيفاء الجزية من بعض اهل الذمة ، وكان جلداً أميناً قيماً بما فوض اليه واعتمد فيه عليه(٣).

وعلى منواله سار ابنه ابو سعيد الذي حافظ على هذه السياسة وصدر في عهده مرسومان فى ملاحقة اهل الذمة وتطبيق احكام الشريعة عليهم ، حتى اضطر الكثير منهم الى اعتناق الاسلام تخلصاً من هذه المضايقات (٤) .

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٧٨ .

(٢) وصاف م ٣ ص ٣٢٤ ، الحوادث الجامعة ص ٤٨٣ - ٤٨٤ .

(٣) تاريخ كزيدة ص ٥٩٥ ، مجمع الآداب ج ٤ ق ١ ص ١٠٨ في الحديث عن عز الدين البامجي .

(٤) كان الاول منهم سنة ٧٢١ هـ ، والثاني سنة ٧٣٤ هـ . انظر : ابو الفداء -

لقد كانت ضريبتا الخراج والجزية من اهم الموارد التي اعتمدت عليها الدولة في زمن الخلافة ومن ثم الايلخانية ، وخاصة ضريبة الخراج .

اما الضرائب الاخرى ، فكان منها ضريبة الزكاة او الصدقة وهي الضريبة الشرعية الثالثة فليس لدينا ما يشير الى وجودها في العهد الايلخاني ، ومن المحتمل ان المسلمين كانوا يخرجونها بأنفسهم ويوزعونها على مستحقيها بمعرفتهم او بالاستعانة برجال الدين من المسلمين ، خاصة وانها ضريبة اسلامية خالصة ، وان الحكم الايلخاني القائم لا تتوفر فيه شروط الحكومة المسلمة ليكون تقديمها اليها واجباً شرعياً .

وكانت ضريبة العشر تفرض على التجارة الخارجية ، واستمر استيفاؤها في العهد الايلخاني ما دامت الحركة التجارية مستمرة وخاصة في فترات السلم (١) . وقد فرض اولجايتو على تجار جيلان الخراج (؟؟) عندما رفضوا الخضوع له والدخول في طاعته (٢) وعزم على حربهم .

- المختصر في اخبار البشر ج ٤ ص ١١٧ ، المقريزي السلوك جـ ٢ ق ٢ ص ٣٧٥ ويوسف غنيمة ـ نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ص ١٤٩ .

(١) ومما يلاحظ في ذلك انه بالرغم من انقطاع الصلات السياسية وغلبة حالة الحرب بين الايلخانية والدول المجاورة لها من الشمال والغرب ، فان القوافل التجارية لم تنقطع عن التنقل بين البلاد في الحالات التي تكون الحرب قائمة فعلاً . وكثيراً ما تعرض التجار لغضب الحاكمين في البلاد الاخرى مثل ذلك ما فعله هولاكو بتجار بركة خان الذين كانوا في بلاده بعد هزيمته ، وما قابله به بركة خان ايضا بعد ذلك .

(٢) واظنه يقصد ضريبة العشر وليس الخراج . انظر تاريخ كزيدة ص ٥٩٦ حبيب السير م ٣ جـ ١ ص ١١٠ .

وخضعت ضرائب التجارة شأنها شأن بقية الضرائب الاخرى لرغبات الحاكمين وحاجتهم الى الاموال ويعطينا هورث نموذجاً لفداحتها وثقلها عندما ينقل لنا احصائية عن مقدار المفروض منها على البضاعة التجارية القادمة من ايطاليا ـ فنيسيا ـ منذ دخولها الحدود حتى وصولها الى تبريز ، فيذكر انها تبلغ (٢٠٩) او (٢٠٣) من الاسبيرز *Aspers* ، وانها تتحمل نفس هذا المقدار عند عودتها (١) علماً بأن هؤلاء التجار كانوا يتمتعون بموجب الاتفاقية التي عقدها اولجايتو مع فنيسيا سنة ٧٠٥ هـ/١٣٠٦ م ، والتي جددها ابو سعيد سنة ٧٢٠ هـ/١٣٢٠ م ، كانوا يتمتعون بكثير من التسهيلات المشجعة لهم على الوفود الى البلاد والمكوث فيها ، وانه لا تؤخذ منهم سوى الضرائب العادية مع ضرائب الحراسة (٢) .

على ان الايلخانات كثيراً ما كانوا يحسون بفداحة الضرائب المفروضة على الناس ، فيسارعون الى تخفيفها وإزالة آثارها ، وقد مر علينا بعض احساسهم هذا في ضريبة الخراج .

وكذلك فعل ابو سعيد بالنسبة لضرائب التجارة فانه في سنة ٧٢٠ هـ بعد ان رأى ما حل بالبلاد من نكبات اقتصادية وبشرية ، أمر بازالة جميع المنكرات وكتب الى الموصل وبغداد وغيرها بابطال جميع المكوس التي تجبى من التجار الواردين

---

(١) الاسبيرز هو وحدة العملة المتداولة في ايطاليا . انظر *Howorth*. جـ٣ ص ٦٣٠ ـ ٦٣١ وهو يعتمد في ذلك على بيكولوتي في كتابه « ملاحظات على طريق الصين » .

(٢) المرجع السابق ص ٦٣١ ـ ٦٣٣ .

الى البلاد (١) .

اما الضرائب على التجارة الداخلية فكانت تفرض على ما يتعامل به الناس في الأسواق ، وقد وردت تحت اسماء عديدة منها ضريبة الطمغا ، ومنها المؤونة ، ومنها مكس الغلة ، بالاضافة الى الرسوم الاخرى والأصل الشرعي في هذه الضرائب انها نصف العشر ، ولكن مضايقة الناس منها وتهربهم من دفعها (٢) يدل على انها كانت اكثر من ذلك بكثير . ويعطينا النقش الموجود في ديار بكر نموذجاً لما كان يتحمله التجار من اضافات . وقد جاء فيه : ان يسقط عن تجار آمد المحروسة ما كان يؤخذ منهم من الأوزان والمقررات والوظائف والطارئات ، وان يطلق لهم ويزال عنهم ضمان الكرى ، وان يستمر الكيل عندهم على عادته المستمرة وقاعدته المستقرة ... وذلك في شهر رجب ٧٣١هـ (٣) .

وقد مر علينا ان الايلخانات كانوا كثيراً ما يسارعون الى تخفيف الضرائب عن الناس من ذلك ما قام به اباقا عند زيارته بغداد سنة ٦٧٢ هـ فقد أمر بتخفيف التمغات ـ الطمغات ـ وحذف الاثقال عن الناس وأمر بتدوين ذلك على جدران المدرسة المستنصرية ، اما ابو سعيد فقد أبطل مكس الغلة سنة ٧٢١ هـ تخفيفاً عن

(١) السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢١١ ، العيني ، الورقة ٢٤١ ـ ٢٤٣ في حوادث سنة ٧٢٠ هـ وكان من جملة ما اصاب البلاد تعرضها لمجاعة دامت ثلاث سنوات باع الناس فيها اطفالهم واكلوا لحوم بعضهم .

(٢) من ذلك ما اشار اليه صاحب الحوادث الجامعة ص ٤٠٤ من ان احد اهل السواد احضر طاره من الدخن بيعت بدرهم فطولب بالمؤونة عليها درهمين فانهزم وتركها .

(٣) *Repertoire . 15 . P . 9 . No, 5614 .*

الناس ما لقوه من ضائقة المجاعة ، وعند شفائه من مرضه سنة ٧٣٦ هـ أمر باسقاط المكوس من تبريز وبغداد والموصل (١) .

ومن الضرائب الأخري نصيب الدولة من الوقوف ، وكان مقدارها عشر مستغلات الأوقاف وقد تولى نصير الدين الطوسي وأبناؤه من بعده مسؤولية الاشراف على الوقوف في البلاد ، وكان لهم في كل بلد نائب يشرف عليها ويحمل عشر مستغلاتها اليه لكي يصرفها على دار الرصد وعلمائه (٢) . على ان الدولة كانت تستغني في بعض السنين عن اخذ هذه الحصة مساعدة منها لأحوال المنتفعين بالوقوف كما حصل ذلك سنة ٦٨٣ هـ حيث حذفت الحصة الديوانية من الوقوف ووفرت على اربابها (٣) .

ومن الضرائب الاخرى ما تحصل عليه الدولة من وراثة المتوفى الذي لا وارث له بالاضافة الى الضريبة على التركات التي فرضوها منذ استيلائهم على بغداد ، يشير الى ذلك ما نقله الدكتور خصباك عن عطا ملك قوله : عندما عهدلي هولاكو أمر حكم العراق وجدت ضرائب الارث تؤخذ في تلك المنطقة بأجمعها ، ولكني ألغيتها (٤) .

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٧٥ ، السلوك جـ ٢ ق ٢ ص ٣٨٩ - ٣٩٠ ، العيني الورقة ٣٠٣ في حوادث سنه ٧٢١ هـ .

(٢) الصائغ جـ ١ تاريخ الموصل ص ٢٤٨ . سليمان الظاهر في مقالة . نصير الدين الطوسي ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق جـ ٢ م ٣٦ ابريل ١٩٦١ ص ٢٤١ - ٢٤٧ .

(٣) الحوادث الجامعة ص ٤٤٣ . مجمع الآداب جـ ٤ ق ٣ ص ٧٤ - ٧٥ في الحديث عن فخر الدين الآملي التبريزي .

(٤) خصباك - احوال العراق الاقتصادية - ص ١٢٦ مجلة كلية الآداب - بغداد م ٤ اغسطس ١٩٦١ .

وأنشأت الدولة لذلك ديوان التركات الذي يتولى محاسبة الورثة واقتطاع حصة الدولة منها (١) . وليس لدينا ما يشير الى مقدارها ، ويظهر ان الدولة كانت تلجأ في بعض الاحيان وخاصة ايام ازماتها المالية الى اعطاء مسؤولية التركات لغير المسلمين ليكونوا أقدر على حرمان الورثة من حقوقهم كما فعلت ذلك سنة ٦٨٧ هـ حين عينت يهوداً من تفليس على تركات المسلمين في بغداد فأجروا الأمر على ان لا يورثوا ذوي الارحام وذلك بانكار او عـدم الاعتراف بأي صلة نسب بين المتوفى وادعياء ورثته ليكون في امكانهم الاستيلاء على التركة بأجمعها لحساب الدولة (٢) .

وأصبحت المصادرة ضريبة شبه دائمية يكافأ بها اغلب من يشتغل مع المغول ، والسعيد منهم من ينجو برأسه بعد المصادرة التي اصبحت تشكل دخلا لا بأس به في ميزانية الدولة ، من ذلك ان عطا ملك الجويني تعهد عند اعتقاله بدفع مبلغ ثلاثمائة تومان ثمن حياته ، ثم لم ينج بعدها . وكذلك كان شأن غيره من العمال(٣).

ومن الموارد الاخرى ما تفرضه الدولة من رسوم على الخمارات ودور الفاحشة وأمثالها (٤) .

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٧٨ في الحديث عن زين الدين محمد الخالدي .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥٥ ، الصفدي ج ٦ ق ١ ـ اعيان العصر الورقة ٢١٢ ـ ٢١٤ في الحديث عن الوزير غياث الدين ، يوسف غنيمة ـ نزهـة المشتاق ص ١٤٦ .

(٣) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٨٤ ، وكذلك كان حال اخيه شمس الدين محمد ومن بعدهم بوقا وغيرهم .

(٤) العيني الورقة ٣٠٣ في حوادث سنة ٧٢١ هـ . العزاوي ج ١ ص ٥١٣ .

وهناك موارد اخرى غير منظورة ، منها ما تحصل عليه الدولة عند تغيرها العملة وإنقاصها نسبة الذهب او الفضة فيها ، او فرضها دفع ضرائب بعملة معينة كما فعل الوزير الدستجرداني في عهد غازان عندما فرض الخراج بالذهب الاحمر ، اوما فعله صدر جهان وزير كيخاتو عند اصداره عملة الجاو - الورقية ، وفرض تعاملها بين الناس لكي يسحب النقود من السوق (١) .

هذه الموارد التي مرت كانت كلها مألوفة لدى الناس ، ولكن المغول لم يكتفوا بما تدره عليهم من اموال بالرغم من ثقلها على الناس ، فأضافوا اليها ضرائب اخرى من عندهم ، خفف من ثقلها انها كانت موقتة تفرض عند تعرض الدولة للأزمات المالية.

من ذلك ضريبة المساعدات الاجبارية ، حيث قام علاء الدين عام ٦٧٧ هـ باستيفاء مبلغ خمسين الف دينار من بغداد وأعمالها على وجه المساعدة ، وكذلك فعل ارغون عندما قدم بغداد سنة ٦٩١ هـ فألزم أهلها بالمساعدة فلم ينج منه حتى قاضي القضاة والعدول .

وقام جمال الدين الدستجرداني سنة ٦٩٤ هـ بجمع الاموال على وجه المساعدة من اهل بغداد والتجار والثناة (الملاكين) وغيرهم لتقديمها الى بايدو الذي كافأه وعينه وزيراً (٢) .

وكذلك فعل نوروز سنة ٦٩٥ هـ عند تولي غازان ، فقد كانت الخزانة خالية

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٧٧ ، ٤٩٣ ، ٤٩٨ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٧٩ ، ميرخوند ج ٥ ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٣٩٨ ، ٤٢٤ ، ٤٨٢ - ٤٨٣ .

والجيش بحاجة الى الاموال لدفع الخطر الذي كان يتهدد خراسان ، فتقرر أن يقدم جميع القادرين على امداد الجيش بالأموال او الحيوانات (١) .

وفرضت الدولة ايضاً ضريبة العقار او الاملاك عندما قامت باحصاء الدور ببغداد وفرضت عليها اجرة شهرين مرة وثلاثة اشهر مرة اخرى (٢) .

وفرضت ايضاً الفروض الاجبارية على التجار لمساعدة الدولة في سنة ٦٨٢ هـ . وسنة ٦٨٦ هـ (٣) .

وبالاضافة الى هذا فقد جرت العادة ان يقوم السكان بالانفاق على الجيش خلال تنقله في البلاد حيث تفتح الدور لهم وتترك المزارع والمراعي لحيواناتهم ، على ان بعض الايلخانات وخاصة الذين اسلموا منهم رفضوا ذلك ومنعوا جيوشهم من مضايقة الناس وسلبهم ما يملكون (٤) .

وكانت آخر وسائل السلب التي لجأوا اليها ما فعله ارغون لعقاب مدينة الموصل التي قتلت رسول البلاط المدعو متى الذي قدم لجمع ضرائبها ، حيث خول ابناء المقتول الانتقام لأبيهم وجباية المدينة مبلغ عشرة آلاف تومان (٥) .

هـذه هي الموارد التي كونت ميزانية الدولة الايلخانية . اما طرق جبايتها ،

---

(١) وصاف م ٣ ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٣٩٨ ، ٤٣٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٣٠ ، ٤٥١ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٣٠ ، ٤٩٢ . وصاف م ٣ ص ٣٢٥ - ٣٢٦ . ابرو ص ٥٥ .

(٥) نقل ذلك عن التاريخ السرياني .

فقد اختلفت بالنسبة لنوع الضرائب . ويمكن ملاحظة ثلاثة طرق اتبعتها الدولة في الجباية ، فقد اتبعت الجباية المباشرة لجمع ضرائب الجزية والتركات والوقوف وبعض الضرائب التجارية . وكانت الجباية بطريقة الضمان او الالتزام اكثر الطرق شيوعاً في جباية العراق حيث اتبعت في جباية الخراج والطمغات ، والخمر والفاحشة وغيرها .

وكان صاحب ديوان العراق او حاكمه يعتبر الضامن الاول له أمام الدولة ، حيث يقوم هو بدوره بتضمين ولاياته الى الصدور او النظار ويتولى محاسبتهم (١) .

وقد مر علينا ان الايلخان في بعض الاحيان كان يمنح ضمان بعض المناطق من العراق مباشرة الى بعض المقربين له ، فلا يكون حينئذ لصاحب الديوان سلطان عليهم (٢) .

وقليلا ما اتبعت الدولة طريقة الجباية بواسطة الاقطاع ، اللهم إلا لتحقيق بعض الأغراض السياسية ، كما فعلت مع بعض اللاجئين اليها من زعماء القبائل العربية الفارين من الشام فكانت تقطعهم ضرائب بعض المناطق او المدن لتغريهم بالبقاء والوقوف بجانبها في صراعها مع الدولة المملوكية ، من ذلك تشجيع هولاكو لزامل ابن علي الذي وفد عليه فأعطاه اقطاعاً بالعراق (٣) ، وكذلك تشجيع اولجايتو للأمير مهنا بن عيسى ليتعاون معه فأقطعه مدينة الحلة وغيرها ، وكذلك اقطع اولجايتو سليمان بن مهنا البلاد الفراتية بحيث اصبح نوابه يستخرجون له الاموال من

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٧٧ ، ٤٠٤ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٩٥ .

(٣) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٣٥ ، العيني الورقة ٥٢٠ في حوادث سنة ٦٦٣ هـ .

هيت والحديثة والأنبار وعانة (١) .

وكذلك فعل ابوسعيد عندما اقطع الأمير فضل بن عيسى مدينة البصرة (٢).

ولم تكن عمليات الجباية تمر بسهولة أمام تشدد الجباة وغلوهم في استيفائها وعجز الناس عن دفع ما فرض عليهم مما لا قبل لهم به ، لذلك كان يرافق هـــذه العمليات كثير من الشدة والعسف والقهر ، حتى اصبح التعذيب والقتل الوسيلة التي يلجأ اليها الجابي لاستخراج الاموال . وقد اضطر اهل بغداد سنة ٦٧٧ هـ الى الاختفاء واغلاق الاسواق عندما فرضت عليهم بعض الضرائب ، فطالب المستوفي النساء بما قرر على رجالهن (٣) .

وعندما توصل سعد الدولة اليهودي الى ارغون الذي اوفده لجمع متأخرات الضرائب على بغداد قام بجمعها بضرب العصا والتعذيب (٤) .

وكان المسؤولون عن الجباية مضطرين الى سلوك هذه الأساليب في الجباية لانهم ان لم يوفوا ما عليهم من التزام ، سوف يعاملون بمثل ما يعاملون الناس به ، لذلك فقد كانوا يتوقون هذا اليوم بالاستزادة من الجمع واتباع كافة الأساليب التي تحقق لهم ذلك ما دامت الدولة لا تحاسبهم على ما يحدث لديهم ، بقدر ما تحاسبهم على مقدار ما يقدمون ، ولكنهم بالرغم من كل ذلك لم يخلصوا من العذاب ، اذ قلما

---

(١) ابو الفداء ج ٤ ص ٧٣ ، ابن حجر الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٦٣-١٦٤، ج ٤ ص ٣٦٨ - ٢٧١ ، الصفدي م ٥ ق ١ الوافي بالوفيات الورقة ١٤١ .

(٢) ابو الفداء ج ٤ ص ٨٥ ، ٨٧ .

(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٩٨ .

(٤) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٣٨ .

نجوا منه ما دامت مطاليب الايلخانات ليس لها حدود (١) .

ولم تجر محاولات جدية لاصلاح الفوضى المالية قبل غازان (٢) . وبالرغم من ان اصلاحاته جاءت متأخرة إلا انها ساعدت كثيراً على انعاش الوضع المالي ، وانقاذ الفلاح من جشم الجباة ومضايقة رسل الدولة ومطاليب الجيوش المارة بالقرى (٣).

وبالرغم من عدم توفر احصائيات لموارد البلاد خلال الحكم الايلخاني ، إلا ان هذا الاصلاح كان له أثره في رفع موارد الايلخانية الى (٢١٠٠) الفين ومائة تومان

---

(١) يعطينا صاحب الحوادث نماذج لنهايات هؤلاء الموظفين ، ولو قمنا باحصائية لهم لوجدنا ان اغلبهم لقي مصرعه تعذيباً او خوفاً منه ، شأنهم في ذلك شأن جميع وزراء الايلخانية .

(٢) يمكن القول ان هناك بعض المحاولات التي سبقت غازان ، ولكنها لم تكن بنفس الجدية والشمول والاخلاص ، لذلك فشلت قبل ان تلمس ثمارها ، من ذلك محاولة شمس الدين الجويني بعد عودته في عهد تكودار فقد بدأ عمله بتنظيم النفقات والاقتصاد بها ، وطبق ذلك على المطبخ الايلخاني فأنقص نفقاتـــه من ثمانين تومان الى اربعين ، الامر الذي اثار عليه رئيس الطباخين فخر الدين الذي كان قد رشح للوزارة والذي هـدده بالخلع . وكانت المحاولة الثانية التي قام بها سعد الدولة وزير ارغون الذي سعى لتخفيف بعض الضرائب عن الناس ووضع حد لتدخل العسكريين في الجباية .

وكذلك حاول صدر جهان وزير كيخاتو الذي اصدر العملة الورقية الچاو ليسرق بها الذهب الموجود عند الناس .

(٣) *Sykes* ج ٢ ص ١١٣ .

أي (احدى وعشرين مليوناً من الدنانير) بعد ان كانت قبل ذلك لا تزيد عن (١٧٠٠) الف وسبعمائة تومان (أي سبعة عشر مليوناً من الدنانير) (١) .

اما نصيب العراق من هذه الموارد ، فليست لدينا ايضاً احصائية عنه سوى ما قام به حمد الله مستوفي القزويني من تدوين خراج اعمال العراق المختلفة .

وبموجب هذه الاحصائية التي تعود لسنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م نجد أن نصيب العراق من ميزانية الدولة لايتجاوز (٣٠٠) ثلاثمائة تومان او ثلاثة ملايين دينار(٢).

اما اوجه النفقات لهذه الموارد فكانت كثيرة ايضاً . فمن ذلك ان الدولة كانت تدفع الرواتب للجند والموظفين ، وقد مر علينا ان الجند كانوا قد وزعوا منذ زمن هولاكو على البلاد واتخذوا من بعض مواردها اقطاعاً لهم ، وان غازان في اصلاحاته استبدل هذه الاقطاعات بأجور نقدية تدفع لهم من خزينة الدولة ، وفي كل هذه الحالات كانت اجور الجيش تشكل القسم الاكبر من نفقات الدولة .

اما رواتب الموظفين فقد تطورت مع الزمن ، فزاد عددهم وتنوعت اعمالهم ، وأخذوا يمتصون الكثير من موارد الدولة قبل وصولها الى الخزينة .

ويعطينا هورث نموذجاً لذلك في وزارة سعد الدين الساوجي وزير اولجايتو.

---

(١) بينما يشير Howorth جـ ٣ ص ٣٦٩ الى انها كانت تبلغ ١٦٠٠ تومان في زمن كيخاتو . انظر ايضاً Enc.Ofisl · 2 . Chazan · P · 150

(٢) حمد الله مستوفي القزويني نزهة القلوب ص ٣٦ ـ ٤٣ ، ترجمته الانكليزية ص ٤٣ ـ ٤٩ . واعتمد الفيل على هذه الاحصائية فعمل جدولاً لموارد العراق منذ العهد الاموي حتى ابي سعيد ، انظر رسـالته : الجغرافية التاريخية للعراق ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

والعدد الكبير من المستخدمين في ديوانه وتقسيم الاعمال بينهم بحيث اصبح من العسير الوصول الى مقابلة الوزير إلا بعد المرور على (٣٥) خمسة وثلاثين رئيساً منهم (١).

وتأتي نفقات الايلخان الشخصية بالدرجة الثانية بعد الرواتب في استهلاك الميزانية. فقد كان الايلخان بعد تتويجه يقوم بتوزيع الهدايا والانعامات على اعضاء القوريلتاي والجيش، ويذكر رشيد الدين نموذجاً لهذه الانعامات ان احمد تكودار احضر الخزائن الموجودة في جزيرة شاهوتلا ووزع ما فيها على الخواتين والامراء الانجال والامراء المقربين والمحتاجين واغدق على جميع جنود الجيش فمنح كل فرد منهم عشرين ومائة دينار (٢).

وكان الايلخان يقدم ايضاً الهدايا الشخصية للمقربين اليه او المبرزين في العلوم والآداب الذين يتقدمون اليه بثمار عقولهم، من ذلك ما قدمه اولجايتو لرشيد الدين حين فراغه من تأليفه كتابه جامع التواريخ، فقد قيل انه اهداه ضياعاً تغل ثلاثة ملايين قطعة من الذهب تشبهاً بما فعله الاسكندر مع ارسطو، وتفوقاً عليه (٣).

---

(١) العيني ـ الورقة ٤٢١ في حوادث سنة ٦٥٧ هـ. مقدار اجور علماء الرصد الذين اختارهم الطوسي.

D'ohsson . 4 . P . 542 - 543. Howorth .3.P.560

(٢) جامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ٩٣، *Sykes* ج ٢ ص ١١٣، *Howorth* ج ٣ ص ٤٧٨، في خلو الخزانة عند تولي غازان حتى لم يكن لديه مايستطيع توزيعه على الجنود الذين رافقوه من خراسان.

(٣) مقدمة جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٥، الصياد ـ مؤرخ المغول الكبير ص ٢٥٣.

وكانت نفقات القصر الايلخاني تبتلع جانباً آخراً من هذه الموارد ، ويكفي نموذجاً لذلك نفقات مطبخ القصر التي انقصها شمس الدين الجويني الى اربعين توماناً في السنة ، ولكنها ارتفعت في زمن كيخاتو الى مبلغ (١٦٥) مائة وخمسة وستين توماناً ، حتى عجزت الخزينة بعد ذلك عن توفير مائدة للايلخان فاضطر الوزير الى الاقتراض (١) .

ولم يكن انفاق الدولة مقصوراً على ما سلف ، فانها كانت تنفق في بعض الاحيان عندما تتوفر لها الاموال ، على اوجه اخرى اقل اهمية .

من ذلك النفقات الاعمارية ، فقد شيد هولاكو قلعة شاهوتلة على ضفاف بحيرة اورمية لتكون مخزناً لأمواله ومنتزهاً له ، ووضع ارغون اسس مدينة السلطانية التي كان قد سماها الارغونية ، فأكملها ابن اولجايتو من بعدها .

وجدد غازان اسوار تبريز وعمر ضواحيها ، وكذلك قام علاء الدين الجويني باعمار مدينة بغداد وضواحيها ، وغير ذلك .

وكان انفاقها على خانات البريد ومرابط خيوله مستمراً وخاصة بعد اصلاحات غازان ليس باعتبارها وسائل نقل الاوامر الرسمية فحسب ، بل طرق مواصلات تسترشد بها الجيوش عند تنقلها في البلاد ، وقد مر علينا قيام علاء الدين بعمل جسر لمدينة تستر .

وكان الانفاق على مشاريع الري اكثره في العراق ، ففي عهد اباقا قام الجويني

---

(١) انظر في ذلك ما نقله *Howorth* ج ٣ ص ٣٦٩ - ٣٧٠ عن التاريخ السرياني لابن العبري .

بحفر قناة لايصال المياه الى الكوفة والنجف من الفرات .

وفي عهد غازان حفرت عدة قنوات لايصال المياه الى كربلاء والنجف ومشهد أبي الوفاء وإرواء الأراضي المحيطة بها حتى تحولت الى مناطق زراعية خصبة أنشأت فيها مئات من القرى .

وكان للدين نصيب من هذه النفقات ، فالايلخانات الوثنيون شيدوا المعابد الوثنية وخصصوا الاموال للكهنة ، وكذلك فعل المسلمون .

فبني هولاكو معابد في خوي ، وكذلك فعل ارغون الذي خصص الأموال الطائلة للكهنة ، اما غازان فقد بنى قبل اسلامه عدة معابد بوذية في كبوش ، كما ابقى بعد اسلامه على الدخل المخصص لأغراض العبادة في تلك المعابد (١) .

وفي خلال وثنية الايلخانات كان الجويني في العراق يرعى شؤون الاسلام ، وقد مر علينا ما قام به من اعادة بناء وترميم المساجد والربط في مختلف انحاء البلاد .

وعندما اعتنق غازان الاسلام اهتم هو وخلفاؤه من بعده باعمار بيوت الله التي أصبحت جزءاً من واجبات الدولة ، كما أفرد مكانة خاصة لآل البيت وخصص لهم النفقات ، وكذلك فعل اولجايتو وابنه ابو سعيد .

ولقيت الحركة العلمية قسطاً من هذه النفقات ايضاً ، وقد أشرنا الى قيام هولاكو بتشجيع النصير الطوسي على انشاء دار الرصد ، وخصص له الاموال الطائلة التي كانت ترد من حصة الدولة من الوقوف ، كما انفق على تشجيع الحركة العلمية

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٣٣٧ ، م ٢ ج ٢ ص ١٣٨ ، ١٥٨

Howorth. 3. P. 397 - 398.

الشيء الكثير من الأموال ، وسار أبناؤه على منواله من بعده .

وكان من هذه النفقات ايضاً ما توزعه الدولة على الفقراء وأوجه البر المختلفة عند مرض الايلخانات طلباً لدعائهم له بالشفاء . من ذلك ما أنفقه سعد الدولة اليهودي وزير ارغون عند مرض ارغون من الصدقات على الفقراء في تبريز ، حتى انه أرسل الاموال الى بغداد وشيراز لتوزيعها والتماس ثوابها .

وكذلك فعل اولجايتو بعد شفائه من مرضه ، فقد أرسل بالاضافة الى ذلك الاموال الى مكة المكرمة لكي يدعى له في وقفة عرفة .

اما ابو سعيد فقد تصدق بأموال كثيرة وأمر باسقاط المكوس من تبريز وبغداد والموصل وغيرها (١) .

وكانت الدولة أخيراً تسامح الناس وتعفيهم من دفع الضرائب وخاصة فى أعقاب الفتن والاضطرابات ، بل وتساعدهم بأموال الديوان حتى تنتعش الزراعة والعمران ثانية كما فعل ابو سعيد في بلاد خراسان سنة ٧٣٠ هـ (٢) .

---

(١) وصاف م ٥ ص ٦١٥ ، خواندمير م ٣ جـ ١ ص ٧٧ ، ميرخوند جـ ٥ ص ١٢١ - ١٢٢ ، المقريزي جـ ٢ ق ٢ ص ٣٨٩ ، BR جـ ٣ ص ٣٣ - ٣٤ .

(٢) ميرخوند جـ ٥ ص ١٧٨ ، خواندمير م ٣ جـ ١ ص ١٢٤ .

الباب الثالث

السياسة الداخلية

١ – موقف الايلخانات من طوائف الشعب المختلفة :

المسلمين ، أهل الذمة ، القبائل العربية

٢ – موقفهم من الامارات الداخلية – إمارة الموصل

الباب الثالث

السياسة الداخلية

أولاً : موقف الايلخانية من طوائف الشعب المختلفة :

المسلمين ، أهل الذمة ، القبائل العربية .

دخل المغول بغداد بعد اربعين سنة من احتكاكهم بالشعوب الاسلامية ، استعانوا خلالها بالكثير من أبناء البلاد لصياغة حياتهم الجديدة بعد خروجهم من الصحراء وتنظيم علاقاتهم بشعوبها ، وتعلموا بالاضافة الى ما سبق ، فن الحكم وسياسة توجيه هذه الشعوب نحو طاعتهم والخضوع لهم بالرغم من التفاوت الكبير بين بداوة الحاكمين وحضارة المحكومين .

وكانت هذه البلاد التي احتك بها المغول تضم شعوباً عديدة ، منها ما يمت للمغول بصلة النسب كالترك (١) مثلا ، ومنها ما لا يمت كالعرب والفرس ، ولكنهم

---

(١) استفاد المغول من صلة النسب هذه في تفريق جيش خوارزمشاه ، واستسلام بعض المدن الخوارزمية كبخارى وسمرقند وغيرها .

جميعاً كانوا يختلفون عن المغول في عقيدتهم الدينية .

ففي الوقت الذي لم يكن فيه للمغول ديانة مميزة المعالم ، فيها من الحيوية والروح ما يشد أبناءها الى بعضهم ويجذب اليها الآخرين (١) ، كانت الشعوب المحكومة تملك من وضوح العقيدة وحلاوة المعتقد ما جعل مجتمعاتها اكثر تماسكاً وانفتاحاً لجذب الآخرين وإذابتهم في بوتقة عقيدتها .

كان الاسلام دين الأغلبية الساحقة لهذه الشعوب ، بينما كانت المسيحية ثم اليهودية تحتضنان عدداً أقل منهم .

ولمعرفة الاسلوب الذي اتبعه المغول لمواجهة هذه الشعوب ، لابد من القول ان سياستهم لم تكن واحدة مع اتباع هذه الديانات ، ولابد لنا أن ندرس كلا منها على انفراد لتتوضح لنا هذه الصورة .

١ ـ موقف الايلخانية من المسلمين : ـ

احتمى المغول وراء شعار حرية الأديان في دولتهم ، لتفادي نقمة المسلمين

(١) كانت الديانة الرسمية للمغول تسمى بالشامانزم *Shamanism* وتتمثل بعبارة مظاهر الطبيعة وخاصة الشمس ، وتمتاز بشدة الطاعة لكهنتها الذين يتولون بدورهم تنظيم الحياة الخاصة لاتباعها ، كما يدل على ذلك حديث منكوخان الى الرحالة روبريكي الذي مر ذكره في بحث ديانة المغول ، ولم تستطع تعاليمها الصمود أمام الديانات الاخرى التي احتك بها المغول الامر الذي ادى الى ذوبانها ، وتحول المغول عنها الى البوذية في الصين ، والاسلام في البلاد الاسلامية والمسيحية في روسيا . انظر ايضاً ارنولد ، الدعوة الى الاسلام ص ٢٥١ .

عليهم ، ولجرهم الى استمرار الطاعة ، ففتح ملوكهم لذلك ابواب قصورهم أمام رجال الدين عامة ، وأحاطوهم بالرعاية وأعفوهم من الضرائب ، ونجحت هـذه السياسة في جلب النفع على المغول ، إذ يسرت عليهم فرض طاعتهم على الناس ، وأدت الى التفاف عدد من رجالات الدين من المسلمين والمسيحيين وغيرهم حولهم طمعاً في مغانم الدنيا ، وتسابقوا في اظهار ما لديهم من قيم وما لدى الآخرين من مساوئ .

واطلع المغول نتيجة لذلك على طوائف هذه الديانات وأقسامها ونقاط الضعف في علاقات افرادها بعضهم ببعض وبغيرهم ، وكان المغول جد بارعين فى استغلال انقسامات المسلمين الطائفية خاصة ، واستخدام البعض من رجالاتهم في التمكين لهم من اخضاع البلاد .

فقد كان بجانب هولاكو عند زحفه نحو بغداد عـدد من رجالات المسلمين يشجعونه على البطش بالخلافة ، ويفلسفون له ما يشاع من موانع بما يحقق الاجهاز عليها .

وكان النصير الطوسي (١) على رأس هؤلاء الضالعين في ركاب هولاكو ، وبالرغم مما يقال عن « تمكنه من هولاكو وسيطرته عليه حتى اصبح لا يركب إلا

(١) ينقل الشيخ الشبيبي في مؤلفه مؤرخ العراق ابن الفوطي - ج ٢ ص ٢٠٧ - ٢٠٨ في حديثه عن النصير الطوسي « انه كان يحقد على الخليفة المستعصم » ولست اجد مبرراً لهذا الحقد إلا بأنه انعكاس لتأثير تعاليم الاسماعيلية في تفكيره ، اذ المعروف ان النصير كان في خدمة شيخهم علاء الدين محمد حتى سقوط قلاعهم حيث انتقل بعدها الى خدمة هولاكو .

بأمره » (١) فانه كما ارى ، لم يكن إلا أداة طيعة في تنفيذ سياسة هولاكو الذي اتخذ من مكانته العلمية والدينية لدى الشيعة خاصة سبيلا لتحقيقها بأيسر الطرق وأقل التكاليف .

فقد تضمنت رسائله التي كان يكتبها على لسان هولاكو المشبعة بالتفسيرات الدينية المناسبة ، والتي يبعث بها الى امراء المسلمين عامة وزعماء الشيعة من السياسيين ورجال الدين المحيطين بالخلافة ، تبريراً لتخليهم عن الخلافة وقبول موالاة المغول (٢) وأتت هذه السياسة اكلها حتى لقد بلغ من تهافت هؤلاء الزعماء واستخذائهم في اظهار التملق والطاعة الى حد الافتاء بشرعية تفضيل الكافر العادل على المسلم الجائر كما فعل ابن طاووس (٣) ، بالرغم مما في هذا التعليل من مجافاة لتعاليم الاسلام التي

(١) الصفدي ج ١ - الوافي بالوفيات ص ١٧٩ - ١٨٣ ، ابو المحاسن م ٣ المنهل الصافي - الورقة ٢٦٥ - ٢٦٦ ، سليمان ظاهر في مقاله : نصير الدين الطوسي - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج ٢ م ٣٦ ابريل ١٩٦١ .

(٢) واذا اخـــذنا بنظر الاعتبار ما اتهم به الوزير ابن العلقمي من مواصلة هولاكو والاتفاق معه على خيانة الخلافة فان فضل هـذا الاتصال يعود الى نشاط الطوسي وتأثير رسائله ، وكذلك فان من الزعماء السياسيين الذين جاروا المغول واستسلموا لوعودهم كان ابن الصلايا العلوي حاكم اربل الذي قتله هولاكو فيما بعد .

(٣) رضي الدين علي بن طـاووس المتوفى سنة ٦٦٤ هـ . ابن الطقطقي ص ١٤ - ١٥ . انظر ايضاً تعليق الشيخ الشبيبي ج ٢ ص ٢٣٠ - ٢٣٢ ، العزاوي ج ١ ص ٢٦١ - ٢٦٢ وقام عالم آخر من آل طاووس هو مجد الدين محمد بن عز الدين الحسن بتأليف كتاب البشارة لهولاكو . انظر ابن عنبسة ص ١٦٩ ، الشبيبي ج ٢ ص ١٨٩ .

لا تبيح هذه الموالاة مهما كان السبب ، ثم ظهور دعوات انهزامية افقدت الخلافة قدرتها على الدفاع وأدت الى تفريق الجيش والاستغناء عن كثير من فرقه ، واستلم كثير من المدن الاسلامية مثل الحلة والنيل والمشهدين والبصرة والكوفة لجيوش المغول التي لقيت الترحيب من بعض اهلها .

وعلى العكس مما يراه البعض من تبرير هذا التعاون بأنه كان انقاذاً للاسلام(١) من الضياع او الفناء على ايدي المغول ، فان مكانة النصير الطوسي لدى هولاكو ، واستخذاء هؤلاء العلماء لم تشفع للمسلمين بعد استسلام بغداد ، من السقوط تحت سيوف المغول التي لم تكن تميز بين السنة والشيعة طيلة فترة الاستباحة التي أمر بها هولاكو ، والتي لم يتوقفوا خلالها عن الذبح حتى تعبوا منه .

ولم تدم طويلا سياسة الشدة التي اتبعها هولاكو مع الخلافة والتي كانت ضرورية لاخضاعها وارهاب ابنائها ليدخلوا في حظيرة الطاعة ويستسلموا للحكم الجديد فقد عاد بعد ذلك الى سياسة المغول التقليدية التي اتبعوها منذ دخولهم البلاد الاسلامية والتي تقوم على التظاهر بالتسامح الديني ومهادنة الناس .

ولكن هذه السياسة لم تكن تطبق دائماً ، اذ ان المغول خاصة وهم يعيشون في فراغ فكري ، كانوا يحسون دائماً من مخالطتهم للمسلمين ، بتأثير الاسلام عليهم وانه ليس من السهل حكم المسلمين ما لم يعتنقوا دينهم ، فكانوا يقاومون ذلك في انفسهم ، وأدى بهم الهروب من هذا الاحساس الى التفتيش عن ركائز في المجتمع

---

(١) راجع مقدمة يحيي الخشاب في مقدمته لكتاب - مؤرخ المغول الكبير الصياد ص ت .

الاسلامي يستندون عليها في حكمهم له ، ووجدوا ذلك في احتضانهم الاقليات الدينية وخاصة المسيحية تجنباً الدخول في الاسلام .

ولتوضيح هذه التطورات يمكن تقسيم سياســـة المغول بالنسبة للمسلمين الى مرحلتين أساسيتين . الاولى منهما فى جاهليتهم والثانية بعد اعتناقهم الاسلام .

اما المرحلة الاولى :

فتمتد من حكم هولاكو وأبنائه حتى سقوط بايدو في سنة ٦٩٤ هـ .

ولم يكن موقف المغول خلالها من المسلمين واحـداً ، فقد بدأها هولاكو بمحاباة النصارى الذين كانوا قد نجوا من مذبحة بغداد ، وسلطهم على املاك المسلمين حيث منح الجاثليق (١) حق الاستيلاء على دار الدويدار الكبير والرباط المجاور له وتحويلهما الى مركز مسيحي ، كما سلط على اوقاف المسلمين كثيراً من المرتزقة من الأطباء والمنجمين من النصاري واليهود الذين اصبحوا يتقاضون حقوقهم من هذه الوقوف (٢) .

وتقبل المسلمون هذا الاغتصاب على مضض منهم ، فقد كانت دماء مذبحة بغداد لا زالت فى الدروب والأزقة لما تجف بعد .

وتدخلت عوامل خارجية وسعت الشقة بين المسلمين والمغول وزادت من احتضانهم للمسيحيين والبطش بالمسلمين ، ذلك ان الموصل ثارت على الحكم المغولي بتشجيع ومساعدة من المماليك الذين اصبحوا بعد انتقال الخلافة العباسية اليهم حماة

(١) الجاثليق هو الرئيس الديني الاعلى لبعض طوائف النصارى في البلاد .

(٢) وصاف م ١ ص ١١٠ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٦٨ - ٦٩ .

للاسلام وأهله ، ولعب بعض المتنفذين من النصارى دوراً في احباط هذه الثورة وفي مساعدة المغول على البطش بالقائمين بها ، الأمر الذي ادى الى زيادة حقد المسلمين عليهم وانتهاز الفرص لالحاق الأذى بهم ، وتطورت الثارات والأحداث بعد ذلك حتى اصبح الحال كما يقول الشبيبي : « كأن هدف المغول هو البطش بالمسلمين »(١) .

على ان هولاكو سعى خلال ذلك للتخفيف من هـذا التباعد ، بل والتقرب الى المسلمين ، عندما أمر باعادة الوظائف الدينية الى سابق عهدها كالقضاء والنقابة وتعيين الأئمة والخطباء في المساجد ، وتطبيق احكام الشريعة في المعاملات كما كان متبعاً في عهد الخلافة ، وأمر نوابه باعادة بناء جامع الخليفة ومشهد موسى الجواد وبقية اطراف بغداد التي اصابها الخراب من جراء الحرب (٢) .

وفوض شؤون الاوقاف الى النصير الطوسي وحكمه بها ، ثم استعان به للعمل على تأكيد شرعية الحكم المغولي ووجوب طاعته ، فقام النصير بذلك عندما وجه رسالته الى اهل بغداد سنة ٦٦١ هـ والتي بدأها بقوله :« قد وقفتم على قوله تعالى :« وتلك الايام نداولها بين الناس » (٣) ، ثم يستمر في تمجيد المغول والتأكيد على رعاية الله لهم في فتوحاتهم ... » (٤) .

(١) بينما اصبح هدف الجيش المملوكي واعوانه الذين كانوا يتوغلون في البلاد هو البطش بالنصارى ابن العبري ص ٢٨٢-٢٨٤ ، الحوادث الجامعة ص ٣٤٦-٣٤٨، ٤٤٧ .

(٢) وقد تولى الاشراف على ذلك عماد الدين عمر القزويني . انظر تلخيص مجمع الآداب ج ٢ ق ٢ ص ٨٠١ ، الشبيبي ج ٢ ص ١٤٤ .

(٣) القرآن الكريم . سورة آل عمران رقم ٣٠ . الآية (١٤٠) .

(٤) تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ق ٣ ص ٥٥٦ - ٥٥٧ ، في ترجمة جنكيز ، انظر ايضاً ملحق الرسائل .

ومن المحتمل ايضاً تفسير ما لحق النقود الاسلامية من تغيير الى هذه الاستمانة التي استخدم فيها هولاكو علم النصير الطوسي وتخريجه لأسباب الطاعة .

فقد ابقى المغول الشهادتين على احد وجهي العملة ، بينما حذفوا اسم الخليفة وألقابه من على الوجه الآخر واستبدلوها باسم الايلخان والخاقان .

كما تلاعبوا بالآيات القرآنية المحيطة بوجهي العملة ، فحذفوا بعضها وأبقوا البعض الآخر ، ثم اضافوا من الآيات ما يناسب تفسيرها ما يرجونه من طاعة الناس لهم (١) .

---

(١) لتوضيح ذلك نعقد مقارنة بين ما كان عليه النقد في زمن الخلافة وما اصبح عليه بعدها .

فقد حذف المغول من احد الوجهين الآية : لله الامر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون واستبدلوها بالآية « قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء بيدك الخير » .

وكذلك فعلوا في الوجه الآخر الذي اصبح يحمل اسم الخاقان والايلخان ، فقد حذفوا الآية القرآنية « ولو كره المشركون » .

واستبدلوها بنفس الآية السابقة « قل اللهم مالك الملك » .

ويلاحظ ايضاً انهم استبدلوا اسم دار السلام ، بمدينة « بغداد » عند الاشارة الى مكان الضرب

Lavoix : Catalogu des Monnaies Musulmanes , P · 336, No· 1317.

مدينة الضرب دار السلام ٦٤٠ هـ . —

واستمر اباقا على سياسة المهادنة والاعتدال التي اتبعها ابوه في ايامه الأخيرة بالرغم من تعرضه اضغط المسيحية عليه ممثلة في زوجة ابيه دوقوزخاتون التي حفظت له العرش ' وزوجته الجديدة ابنة ملك القسطنطينية اللتين كانتا تريدان تأكيد وقوفه بجانب المسيحية ضد الاسلام (١) .

ونلمس هذا الاعتدال والحياد في مجاملته لكل من النصارى والمسلمين في علاقاته معهم ففي الوقت الذي فتح فيه ابواب بلاطه لرجال الدين المسيحيين ورسل البابا وملوك اوربا يبادلهم الرسائل والهدايا (٢) ، منح ثقته لوزير ابيه الجويني شمس الدين ، وفوض اخاه عطا ملك حكم العراق وأطلق يده فى اعماره فاندفع بدوره لتنفيذ ذلك مستغلا تفويض الايلخان ، فخفف عن الرعية واهتم بكل ما يؤدي الى تقوية الاسلام من اعمار بيوت الله وتأمين طريق الحج ودعوة الناس اليه ومحاربة الزندقة ودعاة الالحاد والانفاق على العلماء الامر الذي أدى الى عجز في ميزانية العراق من جراء هذه الأعمال (٣) .

— انظر ايضاً : محمد مبارك ـ مسكوكات قديمة اسلامية قتالوغي قسم ٣ ص ٨ ـ ٩ رقم ٧ ، مهاب دريش البكري ، مجلة سومر ج ١ ـ ٢ م ٢٢ سنة ١٩٦٦ ص ٩٧ العملة الاسلامية فى العهد الايلخاني .

(١) براون *Browne* ج ٣ ص ١٧ ' وهو يشير ايضاً الى اصرار زوجته الجديدة عليه باعتناق المسيحية قبل الدخول بها والى انه قد فعل ذلك . الشبيبي ج ٢ ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ' مصطفى بدر ـ مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١٠ .

(٢) ارنولد ـ الدعوة الى الاسلام ص ٢٦٠ ' مغول ايران ص ٧ ' ٩ .

(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٥٨ ' ٣٥٩ ' ٣٧١ ' ٣٨٦ ' ٤٠٨ ' ابن كثير ج ١٣ ص ٢٥٣ ' ٢٦٩ ابن عنبة ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

ويمكن القول ان كفة المسلمين رجحت على المسيحية في سياسة اباقا فعلى الرغم من حذره في سياسته الدينية ، إلا اننا نلمح نوعاً من الالتزام لجانب المسلمين قد يكون مبعثه تأثير الحاشية المسلمة المحيطة به والتي بيدها معظم مقاليد الدولة وعلى رأسها الوزير الجويني ، وقد يكون مبعثه ايضاً رغبته في استمالة المسلمين من اهل العراق خاصة لتأييد سياسته باخلاص في صراعه مع المماليك ، ويتمثل لنا ذلك في سكوته على ما لحق الجاثليق ميخا ـ او مكيخيا ـ الذي اضطر الى الهرب من بغداد أمام غضبة المسلمين عليه ، والذي لم يجد أذناً صاغية لشكواه في بلاط الايلخان فاضطر بعدئذ الى الاقامة فى اربل (١) .

ونلمح ذلك ايضاً في زياراته المتكررة الى بغداد وقيامه بالاحسان الى الرعية وتخفيف الضرائب عنهم وتسجيل اعماله هذه على جدران المدرسة المستنصرية لتكون نوعاً من الدعاية له (٢) .

واكثر من ذلك فقد تأثر ببعض عادات وطقوس المسلمين من زيارة قبور الاولياء الصالحين والتماس البركة والعون ، ويشير رشيد الدين الى قيامه عندما كان يستعد لحرب ابن عمه براق ، انه توجه نحو مشاهد الاولياء وقبورهم وكان يطلب العون والمدد من الله فى تضرع وخشوع (٣) .

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٥٤ ، الشبيبي ج ٢ ص ١٧٣ - ١٧٤ ، رفائيل بابو اسحاق ـ تاريخ نصارى العراق ص ١١٠ - ١١١ .

(٢) زار اباقا بغداد ثلاث مرات خلال فترة توليه في سنوات ٦٦٧ هـ ، ٦٧٢ ، ٦٨٠ هـ .

(٣) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٣٥ .

واستعاد الاسلام مكانته في عهد تكودار الذي كان اول ايلخان مغولي يعتنق الاسلام والذي وقف المسلمون الى جانبه في صراعه على العرش ، وبالرغم من ان الايلخان الجديد لم يكن قادراً على جعل الاسلام ديناً رسمياً للدولة ، إلا انه سعى لتطبيق تعاليمه وتثبيت قواعده ، وكان اول عمل قام به بعد توليه ، ان بشر اهل بغداد في رسالة وجهها اليهم « بأنه مسلم مثلهم وانه سيعمل على تطبيق قواعد الاسلام وان عليهم ان يفرحوا وينشروا ذلك بين الناس » (١) .

وسعى في خطوته الثانية في استجلاب مودة المماليك ، فأمر بايقاف تجهيز الجيوش التي كانت قد تجمعت في اواخر ايام اخيه للانتقام منهم ، واستبدل ذلك برسالة الى السلطان المملوكي قلاوون يشرح فيها اسلامه ورغبته في اعلاء كلمة الدين واصلاح امور المسلمين ، ويدعوه فيها الى الاقتداء به في حقن الدماء وتسكين الدهماء والتمسك بالعروة الوثقى والتعاون لاحلال السكينة والأمان وتوحيد كلمة الاسلام»(٢).

وقام بدوره بتطبيق ما وعد به الناس فجدد ثقته بآل الجويني وأنقذهم مما كان يدبر لهم على يد مجـــد الملك اليزدي واعادهم الى مناصبهم ليكونوا له عوناً في تحقيق اسلامه .

---

(١) انظر نص الرسالة في تشريف الايام والعصور لابن عبدالظاهر ص « ٥ » انظر ايضاً ملحق رسائل تكودار ورسالته الى اهل بغداد .

(٢) وقد حمل هذه الرسالة وفد مكون من قطب الدين محمود الشيرازي قاضي سيواس ، والامير بهاء الدين اتابك السلطان مسعود صاحب الروم والامير شمس الدين محمد بن التيتي وزير صاحب ماردين ، انظر نص الرسالة ايضاً في تشريف الايام والعصور ص ٦ - ١٠ ، انظر ملحق الرسائل ، رسالة تكودار الى قلاوون .

وأعاد تنظيم شؤون الأوقاف ، فنقل إشرافها من بيت الطوسي وقطع صلتهم بها وفوض ذلك الى الشيخ كمال الدين عبدالرحمن الذي كان له فضل هدايته الى الاسلام وأزال حقوق الاطباء والمنجمين من اهل الذمة الذين كانوا يتقاضونها من مواردها منذ زمن هولاكو ، وجمع اموال الوقوف المخصصة للحرمين الشريفين وارسلها الديار المقدسة ، واهتم بأمر الحج ، فنظم موكبه وخصص الاموال للانفاق عليه وتأمين طريقه ، بالاضافة الى اعماره دور العبادة من مساجد ومدارس (١) .

وأكد على تطبيق تعاليم الشريعة في حماية الاسلام من الفساد ، فأصدر اليرليغ بمنع شرب الخمر والقمز (٢) .

وقام نوابه في العراق بمطاردة الأدعياء باسم الدين الذين كانوا قد ظهروا في الحلة وواسط وأوقعوا الناس في غواياتهم ، فلاحقوهم وقضوا على جموعهم (٣) .

وكان عادلا رحيما مع اهل الذمة فى تطبيق احكام الشريعة على الذين رفضوا الدخول في الاسلام ، فأخضعهم للجزية وأعفى من نصت الشريعة باعفائه ، وقد اعترف ابن العبري بهذه المعاملة الحسنة بالرغم من محاولات الآخرين تشويه موقفه منهم (٤) .

---

(١) وصاف م ١ ص ١١٠ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٦٨ - ٦٩ ، الصياد - مؤرخ المغول الكبير ص ٦٠ .

(٢) القمز : نوع من الشراب يستخرج من لبن الخيل كان مألوفاً عند المغول والترك عامة .

(٣) الحوادث الجامعة ص ٤٣٩ - ٤٤١ .

(٤) ابن العبري ص ٢٨٩ ، الصائغ ج ١ ص ٢٤١ - ٢٤٢ . ترجمة المعارف الإسلامية م ٥ ، تكودار - ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

واستغاث امراء المغول من دعوته للاسلام بينهم واستجابه عدد منهم له ، وأحسوا بالخطر يهدد مكانتهم وامتيازاتهم ، فتألبوا عليه والتفوا حول منافسه ارغون وقرروا الاستعانة عليه بالخاقان قوبيلاي ، ويشير المؤرخ الارميني هيتون الى انه كتب تقريراً عن اسلامه وجهوده لتحويل المغول وارسله الى الخاقان الذي غضب من الايلخان وارسل ينذره فلم يستطع تكودار التصدي له ، بل وجه غضبه على اخيه قونغرتاي وابن اخيه ارغون (١) .

ويشير صاحب شجرة الترك الى ان قلوب المسلمين قد وقفت عندما كسروا ظهر الايلخان وقتلوه (٢) .

على ان الاسلام لم ينتعش طويلا بعودة تكودار الى حظيرته (٣) ، اذ سرعان ما تعرض الى اضطهاد ارغون الذي خلفه على العرش ولجأ الى البطش بالمسلمين ، ويمكن تفسير سياسة ارغون هذه وقسوته على المسلمين بأنها رد فعل لتحزبهم والتفافهم حول تكودار من ناحية ، والى تأثير الحاشية المسيحية واليهودية المسيطرة على بلاطه

(١) وصاف م ١ ص ١١٨ - ١٢٥ ، الدعوة الى الاسلام ص ٢٦٣ ، ابن الفرات م ٨ ص ٤

Howorth . 3 . P . 310 .

(٢) نقل ذلك هورث *Howorth* ج ٣ ص ٣٠٧ عن شجرة ترك .

(٣) ينفرد ابن عبدالظاهر في تشريف الايام ص ٤٨ ، ٦٢ ، بانكار حقيقة اسلام تكودار ويعتبره نوعاً من الخداع والتظاهر لتحقيق اغراض سياسية معينة ، ولعله يريد بذلك تبرير المعاملة السيئة التي لقيها وفد تكودار الثاني من قبل قلاوون واغتصابه ما كان معهم من اموال وجواهر بعد ان تأكد من مقتل الايلخان .

ودفعها إياه للأنتقام منهم .

وتعرض المسلمون في هذا العهد الى محنة جديدة لم تصبهم في ارزاقهم فحسب وانما مستهم ايضاً في عقيدتهم ، وبقدر ما تمثل هذه المحنة مدى خطر الاسلام على اعدائه وخوفهم من انتشاره بينهم واكتساحه عقائدهم ، تمثل كذلك مقدار الحرص والدهاء الذي جمع بين هؤلاء الاعداء وألف بينهم بالرغم من اختلاف عقائدهم ، وان خرج الاسلام من هذه المحنة قوياً عزيزاً .

فقد بدأ ارغون ـ وهو لم يكن في اغلب ايام توليه إلا قفازاً بيد هذه القوى المتحالفة المتآمرة ـ بآل الجويني فلم يسلم من حقده حتى ابناؤهم واحفادهم فيما بعد واعاد شؤون الاوقاف الى اعوان ابيه وجده من قبل آل الطوسي حيث تولاها من ابنائه فخر الدين احمد ، ومن المحتمل ايضاً انه اعاد الحقوق التي كانت لأهل الذمة عليها ، اذ لم يكن هناك ما يمنع من ذلك (١) .

وبدأ يصفي الموظفين المسلمين ، فلم يبق احـداً منهم في البلاط اولا ، ثم لاحقهم في دوائر الدولة الاخرى واستبدلهم بآخرين من اهل الذمة ، حتى انه استورد يهوداً من تفليس للاشراف على تركات المسلمين وهي وظيفة اسلامية (٢) .

وكانت خطوته الاخرى التشكيك فى الاسلام ، فبينما كان نوابه فى العراق

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ ، الصياد ـ مؤرخ المغول ص ٦١

Howorth • 3 • P . 374

(٢) الحوادث الجامعة ص ٤٥٥ ، يوسف غنيمة ـ نزهة المشتاق ص ١٤٦ ، مغول ايران ص ١٠ ، الدعوة الى الاسلام ص ٢٦٣ ، الشبيبي ج ٢ ص ١٥٧

Howorth • 3 . P . 332 .

يقومون بتعطيل المدارس والمساجد وهدمها لاستخدام احجارها في بناء قصورهم ،
تشجع بعض اهل الذمة المتسترين في الاسلام ، على التأليف للطعن في الاسلام حيث قام ابن كمونة اليهودي بتأليف كتابه في الملل الثلاثة (١) .

ثم جاءت الخطوة الاخيرة لمحاولة تحويل المسلمين الى عبادة الفرد ، عندما اوصى اليه وزيره اليهودي سعد الدولة بنبوة جنكيز خان وبوراثته لهذه النبوة وبوجوب طاعة الناس لأوامره وعبادتهم له . وبرر هذا العمل بأنه ضروري لفصل المسلمين عن اخوانهم في خارج البلاد وتوجيههم نحو الاخلاص للايلخانية .

ومهد سعد الدولة لذلك بين الناس حيث كان يجتمع بالبارزين من المسلمين فيجرهم الى القول معه بما في ارغون من صفات نادرة لا تتوافر في الرجال ثم يأخذ خطوطهم على الاعتراف بذلك ، فكان بعضهم يوقع له رهبة او رغبة واندفع البعض الآخر في تزلفه فكتب عبارة « الناس على دين ملوكهم » وهو ما يريده الوزير اليهودي ان يشيع بين الناس .

وتضاربت الآراء في حقيقة النوايا التي كان الوزير يعدها للمسلمين حتى قيل بأنه مهد لارسال حملة الى الديار المقدسة لازالة الكعبة المشرفة وتحويل بيت الله ثانية

---

(١) وصاف م ٢ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ، يوسف غنيمة ص ١٤٣ - ١٤٤

Howorth . 3 . P . 331 - 332 .

وينفي الشيخ الشبيبي ج ٢ ص ١٢٢ - ١٢٥ عن ابن كمونة تهمة الطعن في الاسلام التي اتهم بها ، ويشير الى عثوره على نسخة من هذا المؤلف مع رسائل اخرى بخط ابن كمونة في خزانة المشهد العلوي تؤيد ذلك .

الى عبادة الاوثان (١) .

وتنبه المسلمون لما يدبره لهم اعـــداؤهم ، وتصدوا لهم تارة بالاضرابات والمظاهرات ومهاجمة اهل الذمة بالرغم من حماية الدولة لهم ، وتارة بالتأليف والرد عليهم عندما نظم محضر للطعن باليهود ووزيرهم سعدولة (٢) .

وأحس الوزير اليهودي اخيراً ان المكر السيء لايحيق إلا بأهله ، وانه سيفقد قريباً الحماية التي شجعته على الاندفاع في معاداة المسلمين والتي اصبح ينفرد الآن بحمل عبئها بعد ان اعتزله امراء المغول ان لم يكونوا يتربصون به ، واصبح الايلخان قاب قوسين او ادنى من الموت ، فأسرع يفتش عن حماية لنفسه بالتزلف الى المسلمين والتمسح بأذيالهم ، فوزع الصدقات ، واطلق السجناء وارسل الاموال الى الديار المقدسة ، واعلن التمسك بأحكام الشريعة الاسلامية وخفف الضرائب عن الناس ودعاهم الى تقديم ظلاماتهم ، لكن هذه الاعمال لم تفد كثيراً في تأخير اجله وفي إلحاق الأذى والاضطهاد بأهل الذمة من بعده (٣) .

وانتعش الاسلام بوفاة ارغون واستعاد قوته وتأثيره على الحاكمين الذين اعقبوه بالرغم من بقائهم على وثنيتهم .

---

(١) وصاف م ٢ ص ٢٤١ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٧٦ – ٧٧ ، الصياد – مؤرخ المغول ص ٦٢ – ٦٣ ، مغول ايران ص ١٠ – ١١

Howorth . 3 . P. 340 - 341 .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٤٥٥ ، ٤٦١ – ٤٦٢ ، العزاوي ج ١ ص ٢٤٢، ٢٤٧.

(٣) وصاف م ٢ ص ٢٤٣ – ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، الحوادث الجامعة ص ٤٦٤–٤٦٥ ، الصياد – مؤرخ المغول ص ٦٣ – ٦٥ .

فقد اقتفى كيخاتو سياسة والده اباقا في الاعتدال بين طوائف الشعب ، وأعاد المسلمين الى الوظائف وجعل الوزارة في ايديهم ، واصبح اكثر ميلا اليهم عندما فوضهم امرها وأعفى العلماء ورجال الدين وآل البيت من الضرائب ، ووزع الاموال والصدقات على المحتاجين ، حتى ان رجال الدين من المسلمين اجتمعوا مع بقية رجال الدين من الطوائف الاخرى وصلوا من اجله ودعوا له بالشفاء عندما سقط مريضاً(١).

ولم يكن هوى بايدو مع المسلمين ، ولكن قوتهم وانتشار الاسلام بين المغول فرض عليه التزام جانب الحذر فى علاقته بهم . فأبقى الوزارة في ايديهم واضطر في بعض الاحيان الى التظاهر بالاسلام ، او ارسال ابنه علي ليصلي مع المسلمين . ولكن بيته كان مسيحياً متعصباً ، يفرض عليه في كثير من الاحيان التمرد على مسايرة المسلمين ، حتى اضطر في بعض الأوقات الى منع الوعاظ والمبشرين المسلمين من ممارسة عملهم بين المغول الأمر الذي اوقعه في نزاع مع امراء المغول المسلمين الذين انتهى بهم الامر الى الالتفاف حول غازان بعد اعتناقه الاسلام وقيامهم على بايدو ، فكان مقتله نهاية لوثنية الحكم الايلخاني (٢) .

المرحلة الثانية :

ويعتبر تولي غازان الحكم المرحلة الثانية التي يمكن ارجاعها ايضاً الى بدء اعتناقه

---

(١) الذهبي ـ تاريخ الاسلام ـ الورقة ١٥٨ في وفيات سنة ٦٩٣ هـ .

D'ohsson . 4 . P · 86 - 87 . *Encofitl* · 2 · *Kaikhatu* .P 128.

(٢) الدعوة الى الاسلام ص ٢٦٣ ، مغول ايران ص ١١ ، الصياد ـ مؤرخ المغول ص ٧٠

Howorth · 3 . *P* · 387 . *Sykes* . 2 · P . 109 ·

الاسلام قبل توليه بأربعة شهور تقريباً بفضل توجيه وهداية نوروز له (١) . وبذلك اصبح الاسلام الدين الرسمي للدولة . ومهما قيل في الدوافع والاسباب التي دفعته لاعتناقه ، رغبة او مصلحة ، فالثابت ان الاسلام كسب الكثير من اسلامه ، وان المسلمين ازدادوا قوة ومنعة بانضمامه اليهم ، ومن المحتمل انه في اول الأمر تعلق بالاسلام طمعاً في الوعود التي وعد بها لايصاله الى العرش (٢) . ولكن الآلاف المؤلفة التي اعتنقت الاسلام باعتناقه ، لم يكن يدور بخلدها تلك المغريات التي اطمعته من قبل ، وقد أصبحت هذه الجموع الكثيرة بعد ان عد في اسلامها حقيقة لا تقليداً بفضل اختلاطها بالمسلمين واطلاعها على تعاليم الاسلام ، اصبحت سياجاً وقى الاسلام من كثير من اخطار الوثنية المغولية وخاصة الردة التي كادت تعيد الايلخان اولجايتو فيما بعد الى الوثنية ، هذا بالاضافة الى ما رافق المبشرين المسلمين المنتشرين بين المغول من نشاط بفضل حماية الدولة لهم وتشجيعهم في عملهم .

---

(١) كان اعتناق غازان للاسلام يوم الجمعة ٤ شعبان ٦٩٤ هـ / حزيران - يونيو ١٢٩٥ م ، انظر في ذلك خواندمير م ٣ جـ ١ ص ٨٣ - ٨٤ ، تاريخ سلاطين المماليك ص ٣٤ - ٣٥ ، ابن الوردي جـ ٢ ص ٢٤٠ ، الذهبي - تاريخ الاسلام - الورقة ١١٧ في حوادث سنة ٦٩٤ هـ ، ابن كثير جـ ١٣ ص ٣٤٠ براون *Broune* جـ ٣ ص ٤٠ .

(٢) من ذلك ما وعد به نوروز غازان بعد تمرده على الايلخان بايدو وقوله له : « ان رغبتي في ان اضع امير العالمين على سرير السلطنة عن قريب ، وأرفع عنه بايدو الكافر ، واخضع جميع الامراء والكبراء على شريطة ان ينير الامير قلبه بنور الايمان ويسلك طريق الاسلام ويتبع ملة نبي آخر الزمان . انظر خواندمير م ٣ جـ ١ ص ٨٣ .

على ان المؤرخين المسلمين المعاصرين لاسلام غازان لم يشكوا مطلقاً في صحة اسلامه فضلا عن ان اعماله واقواله بعد ذلك لم تدع لهم مجالا للطعن في صحة ما وثقوا به .

اما ماتحجج به بعض المؤرخين من الاجانب خاصة في التشكيك في ذلك متخذين من استمرار معاداته لسياسة المماليك المسلمين دليلا على صحة شكوكهم ، فليس في ذلك غرابة ، اذ ان الاسلام وحد بين اتباعه في العبادات ، وافترض تبعاً لذلك وحدة مصالحهم الاخرى التي ترك أمر تطبيقها على ضوء الظروف المحلية لكل بلد ، واجتهادات مشرعيهم وفقهائهم وفق الاطار العام الذي رسمه لهم .

والحروب بين المسلمين وان كانت غير مرغوب فيها بالنسبة للاسلام ، إلا انها كثيراً ما وقعت بينهم قبل غازان وبعده ، وحتى الآن ، بسبب اختلاف هـذه المصالح والاجتهادات التي تنبع منها (١) .

وبفضل اتخاذ الاسلام ديناً رسمياً للدولة ، اصبح من الواجب على اجهزة الدولة المختلفة ان تعمل وفقاً لتعاليم الاسلام وان تصبغ بصبغته ، من ذلك انه اصبح يذكر اسماء الخلفاء الراشدين في خطبة الجمعة والعيدين والمناسبات الاخرى في الجوامع واصبح يدعى للايلخان من بعدهم ، ونقشت اسماؤهم على السكة محاطة ببعض الآيات

---

(١) ناقش الصياد في مؤرخ المغول ص ٧٠ ـ ٧٥ موضوع اسلام غازان وما لاحقه من شك . وكذلك فعل مصطفى بدر في مؤلفه مغول ايران ص ١٤ ـ ٣١ ، انظر ايضاً الدعوة الى الاسلام ص ٢٦٣ ـ ٢٦٥ ،

Malcolm . of . cit . I - 275 - 278 .

القرآنية (١) ، وصارت العمامة لباس الرأس الرسمي للايلخان الذي اتخذ له راية سوداء اقتداءً بالخلفاء الراشدين ، وأضحت الأوامر الرسمية تبدأ باسم الله واسم رسوله ، وتطور شكل الختم الايلخاني فأصبح دائرياً بعد ان كان مربعاً (٢) .

ومن ناحية العلاقات الداخلية ، فقد توثقت العلاقة بين الحاكمين والمحكومين من المسلمين ، وأزيلت الحواجز الجنسية والطبقية التي كانت تفصل بينهم ، واختلط المغول بالمسلمين وازدادوا تأثراً بالبيئة الحضارية الاسلامية مما ساعد على سرعة تطبيع المغول واندماجهم في المجتمع الاسلامي ، ونشأ عن ذلك ايضاً ان سهل على المسلمين

---

(١) وصاف م ٣ ص ٣٢٤ ، ابن كثير ج ١٣ ص ٣٤٠ ، براون BRowne ج ٣ ص ٤٠ . وجاء التغيير على السكة كالآتي ، ففي الوجه الاول احيطت الشهادتين بأسماء الخلفاء الراشدين ، تحيط بهم جميعاً الآية الكريمة « محمد رسول الله والذين معه اشداء عل الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً .. » سورة الفتح ٤٨ ، الآية ٢٩ .

وجاء على الوجه الثاني بالاضافة الى الايلخان وألقابه ومكان الضرب وتاريخه الآية الكريمة « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض .. » سورة النور ٢٤ ، الآية ٥٥ . انظر في ذلك لوحات النقود المرفقة :

Lane - Poole · *4* · *P* · *46* · N . *I29* ·

Enc . *of* . *1sl* · *2* · *Chazan* . *P* · *149* ·

(٢) تاريخ سلاطين المماليك ص ٣٦ ، مغول ايران ص ٤٦ ، الصياد ـ مؤرخ المغول ص ٧٤ ، ٧٧ .

D'*ohsson* . *4* · *P* · *151* ' *Howorth* · *3* · *P* · *399* ·

الوصول الى الأيلخان مباشرة بعد ان كان يحتاج الى كثير من الالتماسات والوساطات حتى أصبحت هذه السهولة مثار استغراب لبعض أمراء المغول (١) .

وبسبب اسلام الايلخان ايضاً واتخاذهم الاسلام ديناً رسمياً ، تحدد موقف الدولة من الأقليات غير المسلمة التي كانت تحظى منهم بالكثير من العطف والرعاية على حساب المسلمين ، فقد انتهت هذه السياسة ، وفرضت عليهم الجزية بصورة منتظمة وحددت مكانتهم في المجتمع الاسلامي كأهل ذمة ليسوا بمستوى المسلمين .

كما تحدد موقف الايلخانية من تبعيتها للخاقان المغولي الوثني الذي كانت له السيادة الاسمية ، فقد انتهت هذه التبعية وأزيل اسمه من على النقود ، وقطع ما كان يدفع له سنوياً من حقوق على شكل هدايا وغيرها .

وتحولت العلاقات بين الدولتين الايلخانية والخاقانية الى علاقات تكافؤ ومساواة وقائمة على اساس من المصالح المتبادلة .

وكان التأثير الأكبر لهذا التحول ، هو في موقفهم من الوثنية وكهنتها ، فقد تعرضت معابد الشرق الى الهدم والتخريب وتحولت الى مدارس ومساجد ، كما تعرض الكهنة للضغط والاكراه حتى اعتنق بعضهم الاسلام قناعة او خوفاً ، بينما فضل الآخرون العودة الى ديارهم احتفاظاً بوثنيتهم (٢) .

---

(١) انظر في ذلك استنكار الامير ايرنجين في حديثه لجوبان عن سرعة وصول عليشاه الى الايلخان اولجايتو . انظر مقدمة كاترمير لجامع التواريخ م٢ ج١ ص ٤٤ انظر ايضاً ، الصياد ـ مؤرخ المغول ص ٧٤ ـ ٧٥ ، مغول ايران ص ٣٥ .

(٢) وصاف م ٣ ص ٣٢٤ ، علي ابراهيم حسن ـ دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ١٥٩ ـ ١٦٠ ، يوسف غنيمة ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ، مغول ايران ص ٤٧ ، ـ

وبوحي من هذا الايمان قام غازان بكثير من الاصلاحات التي شملت مختلف نواحي الحياة وخاصة ما يتعلق منها بتطبيق احكام الشريعة من بناء مساجد ومدارس وربط ومشاريع ري واعمال البر وغيرها مما سبق ان شرحته مفصلا في الحديث عن اصلاحاته .

ودفع اهتمام غازان بآل البيت ورعايته لهم وافراد سجلات خاصة بهم وانشاء دور السيادة في المدن الكبرى وتجهيزها بما يحتاج اليها المقيمون فيها من آل البيت وتخصيص الوقوف الكثيرة لهم وزياراته المتكررة لمراقد الأئمة في النجف وكربلاء وتبرعه بالأموال لسدنتها وخدمها ، دفع هذا بعض المؤرخين من الأجانب الى القول بأنه اعتنق المذهب الشيعي (١) .

ولكني أرى ان هذا الاستنتاج ليس في محله ، إذ ان الاهتمام بآل البيت ورعاية شؤونهم من خلق الاسلام قبل كل شيء ، وهو واجب على المسلمين جميعاً ، تقديراً منهم لجهاده (ص) في هدايتهم الى الخير ، ومحبة منهم له في اشخاص ذريته. اما التشيع فذلك شيء آخر ، فانه وان كان يقوم في اساسه على دعوى التمسك بحق آل البيت في خلافة المسلمين ، إلا ان الأحداث السياسية التي رافقت تطور الخلافة الاسلامية ، طورت من هذه الدعوة حتى أصبحت غرضاً سياسياً في حد ذاتها يتمسك بها الكثير من المعارضين او الثوار ، لتبرير قيامهم بالثورة على النظم الحاكمة .

Sykes . 2 . P . 110 . Howorth . 3 . P . 397 – 398 .
Howorth . 3. P . 453 – 454 . Brice . of . cit . 2 . 632 . (١)
– ٥١ – ٥٤ ، الصياد – مؤرخ المغول ص ٧٤

اما غازان فانه لم يعتنق التشيع ، لان التزامات التشيع الحقيقية تفرض عليه التنازل عن كثير مما يشتهي من السلطان ، وهو أمر فوق طاقته .

اما تبرير اهتمامه الشديد بآل البيت ، فقد يكون صادقاً فيما ادعاه من الرؤيا الرسول (ص) وما وصاه به من حسن معاملتهم ، وان كنت ارى ان اسباب ذلك سياسية ايضاً ، اذ ان تعطش غازان الى وحدانية الزعامة على المنطقة قد دفعه الى محاولة العودة لاخضاع الشام ومصر لسيطرته تحقيقاً لسياسة قديمة ، مستغلا التفكك السياسي الذي أصاب حكامها في هذه الفترة ، ولكن الرأي العام الاسلامي في بغداد خاصة الذي كان يرى في الحكم المملوكي حامياً للاسلام ومنقذاً لارادة الخلافة الاسلامية التي كانت قد انتقلت الى القاهرة ، لم يشجع غازان ويؤازره فى محاولته هذه المؤدية الى قتال المسلمين بعضهم لبعض .

وكان غازان كما يظهر محتاجاً الى هذا التشجيع ، ان لم يكن لتجنيد المسلمين من غير المغول فى جيشه الذي خلا منهم ، فعلى الأقل لتبرير عمله أمام جنوده المسلمين من المغول الذين اضطر كما يظهر ايضاً الى اصدار فتوى على لسان بعض رجال الدين تبيح قتال اهل الشام الذين لايصومون اويصلون إلا اذا دفعت لهم اجور على ذلك(١).

لذلك فقد يفسر تكرار زيارته للمشهدين فى النجف وكربلاء وما رافق هذه الزيارات من عناية واحترام وإكرام لآل البيت ، بأنه محاولة منه لكسب ثقة الشيعة وخلق رأي عام منهم يدعم موقفه فى صراعه مع المماليك بعد فشله في كسب تأييد اهل السنة ، ولاعطاء زحفه صفة الشرعية .

---

(١) مغول ايران ص ٤٦ ، ابن ايبك ـ كنز الدرر جـ ٩ ص ٣٣ .

على ان غازان بالرغم من تظاهره هذا ، لم يكن قد قطع صلاته برجالات أهل السنة ومؤسساتهم ، فقد كانت مدرسة المستنصرية تحظى دائماً بزياراته ، كما كان يؤدي صلاة الجمعة في جامع ابي حنيفة عندما يكون في بغداد .

واقتفى اولجايتو سياسة اخيه في رعاية الاسلام ، خاصة وقد انقلب على المسيحية التي اعتنقها وهو صغير (١) ، بتوجيه والدته المسيحية ، كما قلد اخاه في رعاية آل البيت والاهتمام بهم حتى انه قام بنقش اسمائهم واسماء الأئمة الاثنى عشر على صحائف ثمينة (٢) .

وقام بتطبيق تعاليم الشريعة على اهل الذمة فى استمرار دفعهم الجزية وإلزامهم بلبس الغيار لكي يتميزوا عن المسلمين ، كما اهتم باعمار المساجد والمدارس والمستشفيات وخاصة فى مدينته الجديدة السلطانية بالاضافة الى البلاد الاخرى ، ومن اعماله ايضاً في هذا المجال انتزاعه ملكية مشهد ذي الكفل الذي يحج اليه اليهود واعطائه للمسلمين حيث شيد فيه مسجداً وبنيت له منارة ، ومنع اليهود من قصده (٣) .

---

(١) ترجمة المعارف الاسلامية م ٢ ـ اولجايتو ص ٥١١ ، براون جـ ٣ ص٤٦ .

(٢) تاريخ وصاف م ٤ ص ٤٧٠ ـ ٤٧٢ .

(٣) حمد الله مستوفي القزويني ـ نزهة القلوب ص ٣٢-٣٣ ، الترجمة الانكليزية ص ٣٩ في الحديث عن الكوفة ، ويشنع ابن عنبة ص ٢٠٧ ـ ٣٠٨ على الوزير رشيد الدين ويتهمه باليهودية بشكل غير مباشر بسبب موقفه من النقيب تاج الدين ابي الفضل محمد الذي كان قد منع اليهود من زيارة مشهد الكفل ، واشرف عليه فحقد عليه الوزير وتسبب في اعدامه فيما بعد ، على ان النزاع بين المسلمين واليهود على ملكية المشهد بقي مستمراً حتى مطلع القرن العشرين .

وساعد الاستقرار النسبي الذي ساد البلاد في عهده ، ساعد اولجايتو على قضاء وقته متنقلا بين حلقات الصيد ومجالس العلماء الذين احاط بهم نفسه ، وكان يستمع الى مناقشاتهم ومناظراتهم .

وتسببت هذه المخالطة الشديدة ، بالاضافة الى ما عرف عنه من ضعف شخصيته أمام امراء المغول خاصة الذين أخذوا يستعيدون مكانتهم في عهده ، والى ضحالة ثقافته وقلة معرفته في شؤون الدين خاصة ، تسبب ذلك في سيطرة الحاشية عليه وسهولة تلاعبهم بعواطفه المذهبية والتأثير عليها حتى كان من السهل عليه ان يعود الى وثنيته لو فسح المجال لكهنة المغول الذين لا زالوا يحيطون به ، وأمرائهم ، بالضغط عليه ، وقد أشرت في أحاديثي عنه الى انه كان مقلداً لأخيه في كل شيء ورثه عنه ، اذ قلما نجد في أعماله ما يدل على انفراده بعمل او استقلاله برأي (١) .

ومن المحتمل ان مظاهر الضعف هذه في شخص اولجايتو هي التي دفعت بعض المؤرخين من الاجانب خاصة الى اتهامه بكثرة التقلب في آرائه المذهبية ، عندما اشاروا الى انتقاله من المذهب الحنفي الى المذهب الشافعي بتأثير وزيره رشيدالدين ، ثم عدوله عنه وتحوله الى المذهب الشيعي واستقراره عليه فترة ثم عدوله عنه قبيل وفاته (٢) .

---

(١) اورد الصياد في رسالته مؤرخ المغول ص ٢٤٩-٢٥٠ مقارنة بين الاخوين رفع فيها من مكانة اولجايتو العلمية بينما اشار الى ضعف شخصيته السياسية والادارية .

(٢) ترجمة المعارف الاسلامية م ٢ - اولجايتو ص ٥١١ - ٥١٢ ، م ١٠ رشيد الدين ص ١١٦ ،

Howorth . op . Cit . 3 . P . 557 - 559 . Browne . op . Cit , 3.50

ولكن المراجع الاسلامية المعاصرة التي بين أيدينا لاتشير الى شيء من شافعيته.

لقد كان اولجايتو اول ايلخان مغولي اعتنق المذهب الشيعي إثر الجدل الذي قام بين علماء الحنفية والشافعية في مجلسه ، والذي كان التعصب المذهبي الاعمى الجافي لروح الاسلام قد سيطر على عقول الفريقين المتهاترين فأنساهم طبيعة اسلام المغول الذين كانوا اشبه بالمؤلفة قلوبهم ، والذين كانوا بحاجة الى من يعمل على تثبيت الايمان في افئدتهم ، لا ان يعرض عليهم هذه الصور من المجادلة التي خرجوا فيها عن آداب الاسلام عندما فتش كل فريق عن سوءات خصمه ، فأثاروا الاشمئزاز في نفوس الحاضرين وأعطوا الحجة لكهنة المغول المتربصين في مجلس اولجايتو ومن معهم من أمراء المغول الوثنيين ليزعزعوا ايمان اولجايتو الذي لا يدل واقع الحال على رسوخ جذوره في نفسه . وكان دفعه لهذا النداء الشيطاني الذي دعاه الى العودة الى الوثنية ، ليس زجراً له او انزال العقاب به ، بل اظهار الندم على الجهود التي بذلها في سبيل الاسلام والتي ستضيع لو تركه هكذا دفعة واحدة (١) .

واستغل بعض افراد حاشيته من الشيعة حالة القلق والاضطراب التي أصبح يعانيها بعد هذه الجلسة ، وما نشأ بعدها من أحداث طبيعية أساء تفسيرها له المفسرون عندما نسبوها الى شؤم الاسلام عليه لتركه ديانة آبائه وأجداده ، استغل هؤلاء الافراد ، فعرضوا عليه مذهب التشيع ، ودعوه اليه ، وذكروه بميل غازان

(١) نقل الصياد في رسالته ص ١٤٦ هذا الجواب عن مخطوطة مجمع التواريخ وهو : لقد بذلت جهوداً كبيرة في سبيل الدين الاسلامي واقامة الطاعات والعبادات ولا استطيع ان اترك هذا الدين هكذا دفعة واحدة .

ورعايته له ، وربطوا له بين تعاليمه وضرورة بقاء الحكم الايلخاني في سلالة جنكيزخان حتى اقتنع بما عرضوه عليه من آراء وتفسيرات ، فاعتنق المذهب وجعله المذهب الرسمي للدولة ، وتم ذلك في سنة ٧٠٩ هـ (١) .

وترتب على اعلان تشيعه ضرورة تغير أجهزة الايلخانية المختلفة بما يناسب تعاليم المذهب الجديد ، فأسقطت أسماء الخلفاء الراشدين الثلاثة الاول من الخطبة واستبدلوا ببقية اسماء الأئمة الاثني عشر .

وشمل التغيير السكة ايضاً ، فأضيفت اليها الشهادة الثالثة « علي ولي الله »(٢) . وفتحت ابواب القصر الايلخاني لعلماء الشيعة الذين توافدوا اليه من مختلف انحاء

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٦ - ١٤٧ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ١١٣ ، العيني الورقة ١٠٢ في وفيات سنة ٧١٦ هـ ، العاملي ج ٢٤ اعيان الشيعة ص ٢٧٧ - ٢٣٤ ، برايس ج ٢ ص ٦٣٤ .

D' ohsson · 4 · p . 536 - 541 ' Howorth . 3 · p . 557 - 559.
Malcolm . 2 · 279 ·

(٢) انظر لوحات النقود الملحقة - نقود اولجايتو ، انظر ايضاً مسكوكات قديمة اسلامية ، قتالوغي ق ٣ ص ٦٩ - ٧٠ رقم القطعة ١٠٢ ضرب تبريز سنة ٧١٠ . كنموذج لهذا التغيير . وقد جاء على احد الوجهين ما يلي : بسم الله الكريم . لا إله إلا الله . محمد رسول الله . علي ولي الله . يحيط بها جميعاً ما يلي : اللهم صل على محمد وعلي والحسن والحسين وعلي ومحمد وجعفر وموسى وعلي ومحمد وعلي والحسن ومحمد .

انظر ايضا الصياد - مؤرخ المغول ص ١٤٨ نقلاً عن مخطوطة خلاصة الاخبار ، الشبنكاري الورقة ٣٢٠ .

البلاد حتى أصبحوا يمثلون القوة المؤثرة في حاشيته ، وتجلى ذلك بصورة خاصة في ضعف مكانة رشيد الدين في البلاط وظهور شخصية زميله سعد الدين الساوجي الذي أصبح يتمتع بثقة رجالات الشيعة (١) .

ودفع التعصب المذهبي هذه الحاشية وتأثيرها على الايلخان الى محاولة فرض التشيع على جميع الناس ، يشير الى ذلك ابن بطوطة عندما يذكر ان السلطان أمر بحمل الناس على الرفض - أي التشيع - وكتب بذلك الى العراقين وفارس واذربيجان واصفهان وكرمان وخراسان وبعث الرسل الى البلاد ، ونشأ من جراء هذا الاكراه قيام كثير من الفتن والاضطرابات في البلاد وخاصة في بغداد وشيراز واصفهان وقزوين (٢) .

وبلغ من تعصب الحاشية وتأثيرها عليه انه أمر بعدم ذكر الشيخين (ابي بكر وعمر) كما قيل انه جهز جيشاً بقيادة ابي طالب الدلقندي ومعه الامير حميضة بن ابي نمي أمير مكة السابق ، ليزحف الى المدينة المنورة ، وينقل قبريهما منها ، ثم

(١) الصياد - مؤرخ المغول ص ١٤٩ ،

D' *ohsson . 4 . P. 541 .*

على ان ذلك لا يعني ان ابواب القصر الايلخاني كانت مغلقة بوجه الشيعة قبل ذلك فقد كان الايلخان على صلة بهم ، ولكن الذي تغير الآن هو تمكنهم من الايلخان الذي اصبح يسمع لهم وينفذ طلباتهم بعد ان اصبح مشاركا لهم بالرأي .

(٢) ابن بطوطة جـ١ ص ١٢٨ ، الصياد - مؤرخ المغول ص ١٤٨ نقلاً عن مخطوطة مجمع التواريخ لابرو ، ابن كثير جـ ١٤ ص ٧٧ ، الصفدي - الوافي بالوفيات جـ ٢ ص ١٨٥ .

يعمل على فرض التشيع في الحجاز (١) .

واستمر اولجايتو على تشيعه حتى ايامه الاخيرة حيث سقط مريضاً فأندر كما يقول وصاف « يرليغا باعادة ذكر الخلفاء الراشدين في الخطبة جميعاً » .

ويعلل ذلك الشبنكاري بقوله : « بأن جماعة من العلماء اجتمعوا اليه وعرفوه خطورة ما قام به من مخالفه السنة والجماعة ، واكدوا له ان جميع المسلمين يعترفون بامامة علي وأولاده » (٢) .

وانعكس هذا التراجع عن التشيع عندما تولى ابو سعيد الايلخانية بعد وفاة ابيه ، فأزيلت التغييرات التي احدثها اولجايتو ، وأعيدت الخطبة باسم الخلفاء الاربعة كما اعيد نقش اسمائهم ثانية على السكة (٣) .

واختلفت مكانة الاسلام في عهد ابي سعيد عما كانت عليه في عهد من سبقوه من الايلخانات المسلمين ، فقد نشأ ابو سعيد في الاسلام ، واحيط منذ صغره

---

(١) النويري ج ٣٠ ق ٣ الورقة ٣٤٥ ، ابو المحاسن ج ٩ ـ النجوم ص ٢٣٩

D' *ohsson* • *4* • *P* • *583* - *585* .

(٢) وصاف م ٥ ص ٦١٥ - ٦١٧ ، الشبنكاري ـ الورقة ٣٢٠ - ٣٢١ .

(٣) انظر لوحات النقود الملحقة ـ نقود ابي سعيد ، انظر ايضاً مسكوكات قديمة اسلامية قتالوغي ـ ق ٣ ص ٨٩ رقم ١٣٤ ضرب ارزنجان سنة ٧١٧ هـ وجاء التغيير فيها كالآتي على الوجه : لا إله إلا الله محمد رسول الله / يحيط بها اسماء الخلفاء الاربعة ابو بكر ، عمر ، عثمان ، علي . تحيط بهم الآية الكريمة « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » البقرة السورة ٢ الآية ١٣٧ .

بحاشية مسلمة تولت الأشراف على تربيته وتعليمه ، لذلك خلا ايمانه بالاسـلام واحساسه به من ترسبات وثنية او مسيحية ، فلم يعد لكهنة الوثنية مكان في بلاطه ، كما ان نظرته نحو اهل الذمة كانت تتفق وما أدركه من الاسلام وتعاليمه في حسن معاملتهم وضرورة تميزهم ، فضلا عن ان بيئته كانت تسود فيه العادات والتقاليد الاسلامية ، يشير الى ذلك ابن بطوطة الذي رافق موكبه سنة ٧٢٨ هـ فيذكر « ان كل خاتون من خواتينه كانت تنزل في محلة على حدة ، ولكل واحدة منهن الامام والمؤذن والقراء » (١) .

لذلك اندفع ابو سعيد بفضل توجيه الحاشية المحيطة به ، والتي اصبح على رأسها الأمير جوبان ، اندفع في رعاية الاسلام والعناية بأسبابه ، فأنفق الكثير من الاموال على وجوه البر المختلفة ، وخفف من الضرائب والمكوس ، وقام بتحريم شرب الخمر وإراقة ما وجد منه ، وأنشأ الكثير من المدارس والمساجد مما سبق ان أشرت اليه في حديثي عن إصلاحاته .

ولكن أهم ما تميزت به سياسته الاسلامية هو سعيه الشديد لتحقيق غرضين .

أولهما محاولة اعادة موكب الحج الى سابق عهده مثلما كان عليه في زمن الخلافة.

وثانيهما تحقيق الصلح مع المماليك على اساس من الاخوة الاسلامية وهو الأمر الذي سعى اليه تكودار من قبل .

وتطورت مساعيه لانجاح الغرض الاول من اختياره امراء الحج الذين عرفوا بالشجاعة والشهامة ، الى محاولة الاتفاق مع العربان المنتشرين على طريق الحج الى

(١) ابن بطوطة جـ ١ ص ١٤٦ .

فحاولة الاستظلال بالحماية الناصرية وتغيير الطريق وجعله على الشام ، حتى تحقق الصلح مع المماليك وسكنت القبائل العربية الى الطاعة ؛ فعاد الحجيج الى سلوك الطريق القديم الذي وصفه لنا ابن بطوطة عند وصوله الى بغداد سنة ٧٢٨ هـ (١) .

وتحقق الغرض الثاني وهو عقد الصلح بين الدولتين بعد مراسلات دامت اكثر من ثلاث سنوات تبادلوا خلالها الرسل والهدايا حتى استقروا على شروط نافعة للبلدين وفرت لهما اسباب الاستقرار السياسي وفتحت البلاد أمام التجارة والزيارة والتعاون بينهما وذلك سنة ٧٢٣ هـ (٢) .

وتجلى تأثير هذا الصلح على البلدين فى الدعاء لأبي سعيد في مكة بعد الدعاء للناصر كما اصبح يدعى للناصر في بلاد الايلخان بعد الدعاء لأبي سعيد .

---

(١) ابن بطوطة ج ١ ص ١٠٦ - ١٠٩ وكان اسم امير الحج شهاب الدين قلندر فلما توفي خلفه البهلوان محمد الحويج . المقريزي ج ٢ ق ١ ص ١٩٠ ، ج ٢ ق ٢ ص ٢١١ ، ٢١٤ . النويري ج ٣ ق ٣ الورقة ٤٧٧ - ٤٧٨ ، العيني الورقة ٣٤٦-٢٥٠ في حوادث سنة ٧٢٠ .

(٢) ابن ايبك ج ٩ - كنز الدرر ص ٣١٢ ، ابن حجر ج ١ - الدرر الكامنة ص ٣٨١ في الحديث عن مجد الدين السلامي ، ص ٤٠١ في الحديث عن كريم الدين وزير الناصر ودوره في عقد الصلح . العيني - الورقة ٢١٩-٢٢١ في حوادث سنة ٧٢٠ ، الورقة ٣٥٤ - ٣٥٧ ، ٣٦٥ - ٣٧٢ في حوادث سنة ٧٢٣ هـ .

موير - تاريخ دولة المماليك ص ٨١ - ٨٢ . الشيال ج ٢ - تاريخ مصر الاسلامية العصران الايوبي والمملوكي ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

وحتى ان الناصر لم يمانع فيما قام به الأمير چوبان من اجراء العين في عرفة لسقي الحجيج .

وتجلى ايضاً فى انعكاس اعمال الخير التي يقوم بها احـد السلطانين في بلاده كالتخفيف من الضرائب والرسوم وتطبيق احكام الشريعة في منع المحرمات وإلزام اهل الذمة ، على السلطان الآخر الذي يسارع للاقتداء به ففعل فعله .

موقف الايلخانية من اهل الذمة :

أشرنا فيما سبق الى ان سياسة المغول لم تكن واحدة مع سكان البلاد الاسلامية التي خضعت لهم ، وانهم احتضنوا الأقليات غير المسلمة من السكان لتكون ركيزة لهم في البلاد تساعدهم على الحكم ، وتحميهم من تأثير المسلمين عليهم .

وأقصد بالأقليات غير المسلمة ، اهل الذمة الذين كانوا يعيشون في جوار المسلمين من المسيحيين واليهود .

وترجع صلة اهل الذمة وخاصة المسيحيين منهم بالمغول الى الايام الاولى لقيامهم حتى اشيع ان بعض قبائلهم كانت قد اعتنقت المسيحية ، وان جنكيزخان نفسه كان يميل اليها ويحسن الظن بها بعد أن رأى الرؤيا التي ظهر له فيها احد القديسين من رجال الدين (١) . وسوف نأتي على تفاصيل هذه العلاقة فيما بعد .

لقد استفاد المغول من هذه الرعاية التي اظهروها لأهل الذمة خلال زحفهم نحو بغداد فوائد كثيرة اهمها سياسية وعسكرية .

---

(١) انظر ما اورده ابن العبري في ذلك ص ٢٢٦ ، ٢٣٠

ففي المجال السياسي ، اصبح اهل الذمة ، تدفعهم عوامل مختلفة اهمها رغبتهم في الحصول على مكانة افضل في المجتمع ، اصبحوا دعاة للمغول يمهدون لهم الطاعة بما ينشرونه بين الناس من اخبار ودعايات انهزامية ، كما اصبحوا لهم رسلا يحملون اوامرهم ورسائلهم الى امراء البلاد ، وجواسيس ينقلون لهم الاخبار ويترصدون حركات ابناء البلاد .

وفي المجال العسكري ، كونت جيوشهم فرقاً من الجيش الزاحف نحو بغداد كما اصبحوا بعد ذلك اعواناً على قدم الاستعداد للمشاركة بكل زحف مغولي نحو الشام.

وبالرغم من هذه الرعاية ، وهذا التعاون بين الفريقين ، وبالرغم من ان البيت المغولي او الايلخاني فيما بعد كان مشبعاً بالعطف على المسيحية خاصة بفضل الزوجات المسيحيات الكثيرات اللواتي دخلن في حياة المغول ، فانني ارى ان التخطيط التوسعي للمغول كانت تمليه اسباب سياسية ، وليس للتعاون المسيحي معهم تأثير في رسمه او تغير اتجاهاته ، وخاصة فيما يتعلق بالحملة على بغداد (١) .

أما دور المسيحية في ذلك فلم يكن سوى التشجيع عليه والمساعدة في تنفيذه .

وكان من ثمار رعاية المغول للمسيحيين ان نجا مسيحيو بغداد من مجزرتها يشير الى ذلك صاحب الحوادث الجامعة بقوله : ووضع السيف في اهل بغداد فلم يبق من اهل البلد ومن التجأ اليهم من اهل السواد إلا القليل ما عدا النصارى فانهم عين لهم

---

(٢) لا كما يرى ارنولد في الدعوة الى الاسلام ص ٢٥٢ ، حيث يقول بان هيثون ملك ارمينيا المسيحي هو العامل الرئيسي في اقناع مانكوخان بارسال تلك الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاكو .

شحان حرسوا بيوتهم (١) .

وحاول الخليفة المستعصم (٢) استغلال هذا العطف عندما ارسل الجاثليق مع الوزير الى هولاكو ليخفف من شروطه وليفتح باب الصلح ولكنه لم يفلح .

وكانت عواطف المغول فى هـذه الفترة مع المسيحيين فقط ، اذ ان اليهود في بغداد لقوا ما لقيه المسلمون من العذاب والقتل (٣) .

كان اهل الذمة في العراق ينتشرون على ضفاف الرافدين ، ويتركزون في بغداد باعتبارها مركز الخلافة ومركز رئاستهم الدينية ، ويكثر المسيحيون ايضاً في الموصل وأطرافها ، ويلاحظ ان كلا من اليهود والنصارى الذين كانوا يسكنون في المدن ، كانوا يسكنون في محلات خاصة بهم منعزلة عن المسلمين ، وبقيت آثار هذا الانعزال واضحة حتى الآن في البلاد .

وليست لدينا احصائيات مفصلة عنهم ، اذ ان المؤرخين المسلمين قلما اشاروا اليهم . وينقل صاحب تاريخ نصاري العراق ، ان عدد النصارى الذين كانوا يدفعون الجزية في بغداد عند وصول هولاكو اليها كان ثلاثة واربعين الف نسمة ، يملكون (٥٦) ستة وخمسين بيعة (٤) .

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٢٩ .

(٢) رشيد الدين م ٢ جـ ١ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٣) مصطفى بدر ـ محنة الاسلام ـ ص ١٧٦ ، يوسف غنيمة ـ ص ١٤٢ .

Coke • Baghdad The City • of . Peace . P . 152 .

(٤) رفائيل بابو اسحاق ـ تاريخ نصارى العراق ص ١٠ ، انظر ايضاً . القزاز الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير ص ١٣٦ .

اما اليهود فمن المحتمل انهم لم يقلوا عما ذكرهم الرحالة بنيامين التطيلي الذي قدرهم بنحو اربعين الف يهودي ولهم في بغداد عشر مدارس مهمة (١) .

وامتهن اهل الذمة في عهد الخلافة مهناً كثيرة اشار اليها القاضي ابن فضلان في رسالته التي رفعها الى الخليفة الناصر لدين الله ، ويمكن القول ان اغلب ما اشتهر به اليهود هو في مهنة الصيرفة واعمال البنوك ، بينما اشتهر النصارى بالطب وكتبة الديوان (٢) .

وتحسنت احوال اهل الذمة في عهد الايلخانات حيث ازيلت الفوارق التي كانت تجعلهم دون المسلمين ، كما اصبحوا موضع عطف ورعاية من الحاكمين على حساب المسلمين ، بل انهم اصبحوا يستغلون هذه الرعاية في كثير من الاحيان للادلال على المسلمين بها ، الأمر الذي سبب لهم وللحاكمين كثيراً من المشاكل ، على انه يمكن القول ان سياسة الايلخانات لم تكن واحدة مع اهل الذمة في جميع العهود وبالتالي فان العز الذي تمتعوا به في عهد ، تحسروا عليه في عهد آخر ، لذلك فانني ارى كما فعلت بالنسبة لموقف الايلخانات من المسلمين ، أرى تقسيم سياستهم مع اهل الذمة الى مرحلتين ايضاً . مرحلة وثنية الايلخانات ، ومرحلة اسلام الايلخانات .

---

(١) وكان هـذا الرحالة قد زار العراق سنة ٥٦١ هـ في خلافة المستنجد بالله ابي المظفر يوسف بن المقتفي لامر الله . انظر الرحلة ص ١٣٥ ترجمة عزرا حداد .

(٢) انظر رسالة القاضي بن فضلان في الحوادث الجامعة ص ٦٦ - ٦٨ ، القزاز ص ١٣٣ .

المرحلة الاولى :

ونلمس في هذه المرحلة تغير موقف الايلخانات منهم تبعاً للمؤثرات الشخصية او المحلية ، إلا انهم بصورة عامة كانوا اكثر التزاماً لأهل الذمة على المسلمين . لذلك جاءت تعليقات اغلب المؤرخين لهذا العهد ، جاءت بالثناء على حسن معاملتهم ، وبتحسن أحوالهم وارتفاع منزلتهم حتى ان اهل الذمة اصبحوا ينظرون الى المغول او هولاكو خاصة كمنقذ لهم بالنسبة لما كانوا عليه في زمن الخلافة (١) .

فقد احتضن هولاكو النصارى وسلطهم على رقاب المسلمين ، حيث خول الجاثليق ميخا الاستيلاء على دار الدويدار الكبير علاء الدين الطبرسي فسكنها ودق الناقوس في أعلاها ، كما استولى على دار الملك التي كانت رباطاً للنساء تجاه هذه الدار ، وعلى الرباط البشري المجاور لها ، وهدم الكتابة التي كانت على البابين وكتب عوضها بالسرياني (٢) ، ومنحه سلطات واسعة ليس على النصارى فحسب ، بل تعدت حتى الى المسلمين حيث اصبح له رجال يأتمرون بأمره ، وأصبحت البيعة اشبه بالسجن يعتقل فيها من يشاء ويصدر عليهم الاحكام حتى الاعدام .

كما سلطهم على ارزاق المسلمين عندما جعل للأطباء والمنجمين من اهل الذمة حقوقاً على اوقافهم .

---

(١) رفائيل بابو اسحاق ـ تاريخ نصارى العراق ص ١٠٩ .

Howorth . 3 . P . 140 - 141 .

Inc of Isl . 2 . Hulaco . P . 332 .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ .

وفتحت أمامهم ابواب الوظائف التي لم يتولوها من قبل ، وفضلوا على المسلمين في اشغالها كمناصب بعض الولايات في شمال العراق خاصة .

وبالرغم من ان الحاشية الايلخانية اصبحت تضم عدداً كبيراً من اهل الذمة ، إلا ان الايلخانات كانوا كثيراً ما يستدعون زعماء اهل الذمة ورؤساءهم ويشركونهم في مجالسهم الخاصة ويناقشونهم في شؤونهم الدينية مظهرين لهم الاحترام ، يشير الى ذلك المؤرخ الجورجي وارتان الذي استدعاه هولاكو لحضور احد هذه الاجتماعات فوجد فيها عدداً من هؤلاء الزعماء ... ثم يقول ان هولاكو قدم له الخمر بنفسه ثم سأله عن المسيحية ومعانيها ، وعن محبته لها ، وان امه كانت مسيحية ، ثم طلب منه في الأخير ان يدعو له بالخير (١) .

وبلغ من رعاية المغول للمسيحيين انهم ساهموا في اعادة الاعتبار للمسيحية كديانة معترف بها من قبلهم عندما ساهم بعض الايلخانات اوممثلوهم في تنصيب رئيسهم الديني الأعلى (الجاثليق) في احتفالات رسمية تقام تحت رعايتهم ، على العكس مما كانوا عليه في عهد الخلافة حيث كان هذا الرئيس يتسلم عهد توليه من الوزير نيابة عن الخليفه الذي كان يتضمن رأي الاسلام في ديانتهم ومكانتهم من المسلمين (٢) .

---

(١) وكذلك اشيع عن اباقا انه كان يشارك المسيحيين في اعيادهم بالحضور الى الكنائس ، بينما كان آخرون من الايلخانات يحملون الشعار المسيحي - الصليب على صدورهم .

انظر ابن العبري ص ٢٨٩ ،

Howorth . 3 . P . 206 - 207 .

(٢) انظر في ذلك القزاز ، ملحق الباب الثالث - عهد الخليفة المقتفي لامر الله -

وينقل لنا الشيخ الشبيبي وصفاً لهذه الرعاية عن كتاب المجدل لماري المؤرخ المسيحي بعد ان اغفلت المراجع الاسلامية، الفارسية والعربية، وحتى بعض المراجع المسيحية ايضاً اغفلت ذكر ذلك .

ومن ملاحظة مراسيم هذه الرعاية التي هي اشبه بمناورة سياسية مغولية لاضعاف مكانة الاسلام في البلاد وارهاب اهله، نجد ان اختيار الجاثليق في العهد الايلخاني كان يتم أولا بترشيح من زعماء النصارى حيث يقول : اجمع وجوه النصارى وقساوستهم على اختيار ... » والمقصود هنا بالنصارى، نصارى بغداد ... ثم نظموا بذلك محضراً مذيلا بتواقيعهم وخطوطهم، ويحمل المرشح هذا الترشيح الى الايلخان الذي يخلع عليه ويشرفه « بالخلعة السنية والفرمان والبائزة والجتر » (١)، ويطلق له من الاقامات الشيء الكثير، ثم يوفد معه من يتولى تمثيله في احتفال التنصيب وقد مثل اباقا في حفل تنصيب الجاثليق ونحى الذي كان اول من نصب في العهد

– الجاثليق النصارى ص ٢٩٥ وعهد الخليفة الناصر لدين الله لرأس الجالوت اليهودي ص ٢٩٦ – ٢٩٧ .

(١) الفرمان – ويسمى ايضاً باليرليغ وقد مر ذكره . وهو عبارة عن منشور او عهد امان .

البائزة : وقد مر ذكرها ايضاً، وهي عبارة عن لوح من الذهب مرسوم عليه رأس اسد وتعطى لمن هو في منزلة كبيرة .

الجتر : وهو العلم، او المظلة ويسمح برفعها على رأس ذوي المنزلة الكبيرة في الدولة .

الايلخاني بعد وفاة الجاثليق المخضرم ميخا سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م الذي كان قد نصب بأمر من الخليفة العباسي المستعصم بالله سنة ٦٥٣ هـ ، اقول : وقد اناب اباقا عنه ثلاثة من كبار امراء المغول ، بينما اناب عنه في حفل تنصيب الجاثليق بابلاها الثاني أميراً كبيراً من أمراء الاسرة .

ويتوجه المرشح بعد ذلك الى بغداد حيث يتجهز الموكب منها وينحدر الى مكان الاحتفال الذي كان يقام عادة في دير المدائن (١) .

ويصف الطيرهاني ايضاً وصول موكب المرشح بابلاها الثاني الى الدير بقوله : «وكان وصوله يوماً مشهوداً ، ودخل البيعة يحف به عدد كبير من المطارنة والأساقفة جاؤا من اقاصي بلاد الترك وفارس والروم ومن بلاد الجزيرة والموصل وفلسطين ومصر فكان مطران المالق وتكنت على حدود الصين ممن شهد هذه التظاهرة » ، ثم يقول : « وما كان لأحد في الهيكل موضعاً يقف فيه من كثرة الناس » .

وكان من المراسيم ايضاً نثر الذهب والفضة خلال الاحتفال ، ثم ينحدر الجاثليق بعد الانتهاء منه الى دير مارماري في السليح القريب من مكان الاحتفال وبعد ذلك أصعد الى بغداد (٢) .

---

(١) المدائن : وهو المدينة الفارسية القديمة ـ طيسفون ـ او طاق كسرى . وكانت عاصمة للفرس الساسانيين أيام استيلائهم على العراق قبل الاسلام ، وآثارها تبعد الآن عن جنوب بغداد بحوالي عشرين كيلومتر ، وكان فيها دير يعرف بدير قنا تقام فيه هذه الاحتفالات .

(٢) تجد تفصيل هذه الاحتفالات فيما نقله الشبيبي في مؤلفه « مؤرخ العراق ـ

ويعلل البعض من المؤرخين هذه الرعاية الى تأثير نساء الايلخانات المسيحيات اللواتي كن يفرضن هذه الحماية لمصلحة المسيحيين ، فقد كان هولاكو يستمع الى نصائح وتوجيهات زوجته المسيحية دوقوز التي ورثها عن ابيه والتي اوصاه أخوه منكوخان بمشاورتها ' والتي استمر نفوذها حتى في عهد اباقا الذي يعترف بفضلها عليه في وصوله الى العرش .

وخضع اباقا بالاضافة الى ذلك الى تأثير زوجته الجديدة ماريا التي حملت اسم (صبينا) ابنة امبراطور القسطنطينية التي كانت قد خطبت لهولاكو قبيل وفاته فتزوجها اباقا عند وصولها ، وقيل انه بلغ من سلطانها عليه انه اعتنق المسيحية لارضائها (١)' وقد بقيت تتمتع بهذا النفوذ حتى عهد بايدو .

ولكني أرى كما اشرت سابقاً الى ان المصلحة السياسية وليست العاطفة هي التي كانت تملي هذا السلوك المغولي وتخطط له . وسوف نرى ان مجاملة الايلخانات لهذه العواطف كانت تنتهي عندما تتعارض مع مصالحهم .

واختلفت نتائج انعكاسات سياسة الرعاية المغولية على المسيحيين ، ففي الوقت

- ابن الفوطي ، ج٢ ص ١٦٨ - ١٧٩ ' عن كتاب المجدل للطيرهاني . انظر ايضاً ما نقله *Howorth . 3 . 355*

عن المؤرخ الارميني ستيفن اوربليان الذي يشيد برعاية ارغون للاحتفالات الدينية ، وانه ألبسه بنفسه رداء الكهنوتية وامر الجميع بالتبرك به .

(١) مغول ايران ص ١٠ ' دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ١٤٤ ' براون ج ٣ ص ١٧ مالكولم ج١ ص ٢٦٦ ' عاشور - الحركة الصليبية ج٢ ص ١١١٢.

D' ohsson . 3 . p . 270 ' Howorth . 3 . p . 218 .

الذي اعتقد فيه مسيحيو اوربا ان المغول اعتنقوا ديانتهم ، اوفي طريقهم لذلك ، فسارعوا لاستغلاله عندما أرسل البابا اسكندر الرابع مثلا رسله الى هولاكو في سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١م يحملون رسالة يثني عليه فيها ويعلن فرحته بما سمعه عنه من رغبته في الانضمام الى صفوف المسيحية ، وكذلك فعل البابوات اللاحقون في مراسلاتهم لأباقا وأبنائه من بعده (١) .

واستغلال المغول بدورهم لهذا الوهم عندما سعوا لتحويل هذه المراسلات الى عمل سياسي وعسكري يجمع بينهم وبين اوربا لمواجهة خطر المماليك عدوهما المشترك كان النصارى في الداخل قد اندفعوا ثقة منهم بهذه الحماية وهذا التأييد ، اندفعوا للتصريح عما في نفوسهم من غيظ وحقد على المسلمين ، وظنوا ان الامور دانت لهم في البلاد ، فنالوا من المسلمين بالتحريض عليهم أولا ثم بمباشرة الانتقام منهم بأنفسهم.

وقد مر علينا استيلاؤهم على بعض دور المسلمين وإزالتهم ما بها من آثار المسلمين ، وفي تكريت (٢) لم يكتفوا بما ذبحه المغول من المسلمين من سكانها بل قاموا هم بدورهم بالاعتداء على بعض المسلمين (٣) .

(١) مغول ايران ص ٧ ـ ٩ ، براون جـ٣ ص ١٩ ، موير ـ تاريخ دولة المماليك ص ٥٧ ـ ٥٨ .

Macler . C . M . H . 4 . P. 175 - 176 . Sykes . 2 . P . 99 , 103 .

(٢) تكريت مدينة صغيرة تقع شمال بغـــداد على دجلة ، وكانت مركز للكنيسة الكاثوليكية .

(٣) نقل ذلك هورث

Howorth . 3 . 140 - 141 .

عن التاريخ السرياني لابن العبري .

وفي الموصل لعب ابن الباعشيقي دوراً كبيراً في الوشاية بحاكمها الصالح اسماعيل الأمر الذي تسبب بعد ذلك الى حصارها من الجيش المغولي ومن لحق بهم من نصارى الأطراف ثم فتكوا بسكانها بعد استسلامها لهم (١) .

وكان موقف النصارى في الشام عند وصول المغول اليهم أشد من موقفهم في العراق « فقد شمخت النصارى في دمشق كما يقول ابو شامة » بفضل ما حصلوا عليه من هولاكو ، فدخلوا من باب توما وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم واتضاع دين الاسلام ، وأخذوا يعتدون على المسلمين ويرشون عليهم الخمر في الطرقات وعلى ابواب المساجد في رمضان وألزموا الناس بالوقوف عند مرورهم بالصليب عليهم ، وطالبوا بتحويل المساجد الى كنائس (٢) .

واستمر المسيحيون في اندفاعهم غير مدركين بأنهم لم يكونوا إلا أداة حركتها السياسة المغولية لارهاب المسلمين واخافتهم ، وان المغول عادوا بعد تحقيق غرضهم ، عادوا الى سياستهم التقليدية القائمة على التسامح والتوازن بين طوائف الشعب المختلفة مع المسلمين ، وأصبحوا لذلك غير راضين عن هذه الاعتداءات .

ومن الناحية الثانية ، احس الايلخانات بضرورة مسايرة المسلمين والانتفاع بهم في إدارة البلاد لضمان نجاح حكمهم ، ومن المحتمل انهم تركوا علاج المشاكل المحلية لكل بلد لاجتهاد وتصرف الحاكمين فيه وفق الأطار العام لسياسة الاعتدال التي رسموها لأنفسهم في حالة السلم .

---

(١) ابن العبري – ص ٢٨٢ – ٢٨٤ .

(٢) ذيل الروضتين ص ٢٠٨ ، اليونيني جـ ١ ص ٣٦٢ – ٣٦٣ ، المقريزي جـ ١ ق ٢ ص ٤٢٥ .

لذلك جاء هذا التطور لسياسة المغول في غير صالح اهل الذمة الذين صدموا به وأدى بهم عدم إدراكهم له الى الوقوع في كثير من المشاكل مع المسلمين . من ذلك ما لقيه الجاثليق ميخا الذي كان قد استهان بشعور المسلمين ، واستولى على بعض املاكهم وحولها الى بيعة للنصارى ، عندما حاول انزال العقاب ببعض المسلمين الذين كان قد اعتقله في البيعة وعزم على اغراقه في دجلة بحجة انه قد ارتد عن المسيحية ، فقد هاجم المسلمون عندما سمعوا بذلك ، هاجموا داره وأحرقوها فهرب محتمياً بصاحب الديوان الجويني الذي هرّبه الى اربل ، والذي قصد بعدها البلاط الايلخاني فلم يجد لشكواه أذناً صاغية فعاد ، ونقل مركز رئاسته الى اربل حتى توفي (١) .

وكان رد الفعل لسلوك النصارى في الموصل واربل اوضح مما رأيناه في بغداد بالرغم من ان حماة المسيحيين فيهما كانا من المغول المسيحيين ، حيث لم يستطع المسلمون السكوت على اعتداءات المسيحيين عليهم ، فانفجروا يهاجمونهم بالعصي والأحجار حتى فرضوا عليهم ما يبتغون ، وحرموا عليهم الخروج من دورهم لفترة من الزمن (٢) .

ولعبت السياسة المملوكية بالتعاون مع المسلمين في الداخل دوراً في إثارة الشك في نفس اباقا نحو احد كبار رجال الدين المسيحي الأمر الذي أدى الى اعــدامه

(١) الحوادث الجامعة ص ٣٥٤ ، تاريخ نصارى العراق ص ١١١ ، الشبيبي ج ٢ ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢) نقل ذلك

Howorth . 3 . P . 247 .

عن التاريخ السرياني لابن العبري .

سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م . واضعاف مكانة المسيحيين في نفسه (١) .

وتوالت هذه الأحداث التي اشعرت النصارى بضعف موقفهم أمام المسلمين وخطأ سلوكهم معهم فيما سبق ، وكان من الممكن ان تعود الثقة بينهم وبين المسلمين الى سابق عهدها لو انهم ادركوا خطأهم وعملوا على إزالة اسبابه مع المسلمين ، ولكنهم لم يفعلوا طمعاً ببقية تأثير لهم على المغول ، فجاء الاعتداء على صاحب الديوان الجويني في بغداد الذي فسر بأنه من تدبيرهم نهاية لكل وفاق لهم مع المسلمين الذين تظاهروا على الجاثليق ماردنحا سنة ٦٦٨ هـ واضطروه الى الرحيل عن بغداد الى اربل ومنها الى اذربيجان ليكون قريباً من حماية الايلخانات بعد ان تعذرت عليه حماية نوابهم وذلك سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م (٢) .

واستعاد اهل الذمة شيئاً من نفوذهم ومكانتهم ثانية في عهد ارغون الذي وجد في الاعتماد عليهم سبيلا لبقائه في العرش .

ومما يلاحظ في موقفه منهم ، انه وزع عواطفه ورعايته بالتساوي بين اهل الذمة حيث فسح المجال لليهود للمشاركة في السلطة لأول مرة في التاريخ الايلخاني ، بعد

---

(١) ابن الفرات م ٧ ص ٤ ، المقريزي ج ٢ ق ١ ص ٦١١ .

Howorth . 3 . P . 245 - 246 .

ورجل الدين الذي اعدم هو اسقف الجزيرة حنا يشوع كما اشار الى ذلك ابن العبري في تاريخه السرياني .

(٢) مغول ايران ص ١٠ .

Enc of Isl . 3 . Mara Gha . P . 265 .

D' *ohsson* . 3 . P . 469 - 471 . *Howorth* . 3 . P . 247 .

أن كانوا مبعدين عنه في عهد الايلخانات السابقين .

وكان التفاف اهل الذمة حول ارغون قبل توليه العرش ، كرد فعل لما كانوا يلقونه من اهمال منذ اواخر ايام ابيه ، وخلال حكم عمه تكودار ، وقد لعبوا دوراً كبيراً في اسناده في صراعه على العرش وفي ارسال الرسائل الى الخاقان يغرونه بتكودار (١) .

لذلك فانهم بعد نجاحهم في إجلاس ارغون ، عملوا على طرد جميع الموظفين المسلمين من البلاط الايلخاني ووظائف الدولة الاخرى ، وتوزيعها بينهم حتى اصبحت تركات المسلمين يتولاها اليهود (٢) .

وتحالف دهاء اليهود وخبثهم مع مكانة النصاري القوية في نفس ارغون تحالفوا على العمل في استمرار سيطرتهم على الحكم من ناحية ، وعلى تهديم الاسلام عدوهم المشترك من ناحية اخرى .

فقد تولى سعد الدولة منصب الوزارة ، ونجح بأساليبه اليهودية في الوصول الى قمة السلطان ، ولكنه لم ينس ان يحتفظ بثقة النصارى به ، فكان كما يذكر مالكولم يعطف عليهم ويحميهم من الاعتداء (٣) .

ولم يحارب الاسلام صراحة ، ولكنه بفضل سيطرته على عقلية الايلخان ،

---

(١) انظر في ذلك الرسالة التي كتبها المؤرخ الارميني هيثون الى الخاقان قوبيلاي والتي يستعديه فيها على تكودار كما نقل ذلك :

Howorth . 3 . P . 310 .

(٢) تولى يهود تفليس تركات المسلمين في العراق ـ الحوادث الجامعة ص ٤٥٥ .

(٣) *Malcolm . op . Cit . I . 268 .*

اوشك ان يجعل ارغون يدعو الى ديانة جديدة يكون الاسلام ضحيتها الاولى (١) . ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين (٢) .

وبوفاة ارغون لقي اهل الذمة شر اعمالهم وخاصة اليهود منهم حيث هوجمت دورهم ونهبت كنائسهم وقتل عدد كبير منهم ، حتى انه في بغداد وحدها لقي اكثر من مائة من أعيانهم ، لقوا الذل والمهانة وفقدوا اموالهم (٣) .

ولم يستطع خلفاء ارغون بالرغم من التزامهم اهل الذمة ، حمايتهم من اضطهاد المسلمين الذين كانوا قد عادوا الى تولي المسؤولية ، فنقموا عليهم ما فعلوه في عهد تسلطهم ، وكان الايلخانات مضطرين الى التغاضي عن ذلك بسبب مشاكلهم الكثيرة مع أمراء المغول ، وشعورهم بالحاجة الى مداراة المسلمين وكسب تأييدهم ، حتى أن آخر الايلخانات الوثنيين بايدو ، بالرغم من انه كان يعلق الصليب على عنقه ، كان يرسل ابنه علي لكي يصلي مع المسلمين (٤) .

المرحلة الثانية . موقف الايلخانات المسلمين :

وضعفت مكانة اهل الذمة عندما اعتنق الايلخانات الاسلام وجعلوه الديانة الرسمية للدولة . ففقدوا بذلك ما كانوا يتمتعون به من امتيازات وإعفاءات .

---

(١) وصاف م ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٢) القرآن الكريم - سورة آل عمران - ٣ - الآية ٥٤ .

(٣) وصاف م ٢ ص ٢٤٥ ، الحوادث الجامعة ص ٤٦٥ - ٤٦٦ ، تاريخ الموصل جـ ١ ص ٢٤٤ .

(٤) مغول ايران ص ١١ .

Howorth op. Cit. 3. 387.

وبدأ ذلك بتولي احمد تكودار الذي كان اول الايلخانات المسلمين والذي تشير الأخبار الى انه نشأ في احضان المسيحية حتى قيل انه عمد في الكنيسة وسمي نيقولا ولكنه تحول عنها بسبب احتكاكه بالمسلمين حتى اعتنق ديانتهم وتسمى بأحمد .

وقد أشرت الى انه كان رحيما بأهل الذمة ، لم يزد على تطبيق احكام الشريعة عليهم من فرض الجزية وتحديد مكانتهم في المجتمع الاسلامي وإلغاء حقوقهم غير الشرعية التي كانت قد فرضت لهم على اوقاف المسلمين (١) .

ويشهد بحسن معاملتهم هذه المؤرخ المسيحي المعاصر ابن العبري الذي اكد على حسن معاملته للناس وخصوصاً زعماء النصارى (٢) ، على العكس من محاولة البعض من المؤرخين المسيحيين تشويه موقفه واتهامه باضطهاد المسيحية وتخريب الكنائس وقتل رجال الدين ، ليبرروا بذلك على الاكثر موقف اهل الذمة المعادي منه وتحالفهم مع ارغون للاطاحة به (٣) .

وجاء التحول الحقيقي في مكانة اهل الذمة عندما تولى غازان العرش بعد عشر سنوات من استشهاد تكودار ، فقد كان اول عمل قام به ان اعلن اعتبار الاسلام

---

(١) وصاف م ١ ص ١١٠ ، ترجمة المعارف الاسلامية م ٥ . تكودار ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

(٢) ابن العبري ص ٢٨٩ ، تاريخ الموصل جـ ١ ص ٢٤١ - ٢٠٢ .
Howorth . 3 . P . 286 .

(٣) نقل ذلك هورث *Howorth* جـ ٣ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ عن المؤرخ الارميني هيثون ، مالكولم جـ ١ ص ٣٦٦ .
تاريخ نصارى العراق ص ١١١ .

الديانة الرسمية للدولة ، وأمر بتطوير جهاز الحكم الى مايتفق واحكام الشريعة الجديدة.

وحدد غازان موقفه من غير المسلمين عامة عندما اعلن انه لن يقبل منهم غير الاسلام فلاحق المجوس والمشمسة والمثنوية وكهنة المعابد الوثنية حتى اضطروا الى اعتناق الاسلام او الرحيل الى بلادهم .

اما اهل الذمة ، فقد تعرضوا لمعاملة قاسية من الاحتقار والاستخفاف ، فقد اعيد فرض الجزية عليهم ، وألزموا بلبس الغيار ، فكانت علامة النصارى شد الزنار في اوساطهم ، واليهود خرقة صفراء في عمائمهم .

واستعيد منهم دار الدويدار الذي كانوا قد حولوه الى بيعة ، بينما جعلوا من دار الفلك مدفناً لبطارقتهم ، فنبشت القبور وأزيلت الكتابات السريانية وحول الى دار للوعظ جلس فيه الشيخ محمد بن عكبر .

وكانت الأوامر قد صدرت بتهديم الكنائس والبيع او تحويلها الى مساجد ومدارس حتى قبل أن يعتلي غازان العرش اذ ان نوروز كان قد أمر بذلك منذ ان لاحت له تباشير النصر عند مطاردته بايدو (١) .

وليس غريباً ما لقيه اهل الذمة خلال هذا التحول من اضطهاد واعتداء شملهم في جميع المدن الايلخانية تقريباً ، حتى اصبح حالهم كما يصفه متمم تاريخ ابن العبري في بغداد « أصبح من غير الممكن ان نصف مقدار الاحتقار الذي يتعرضون له

---

(١) وصاف م ٣ ص ٣٢٤ . الحوادث الجامعة ص ٤٨٣ - ٤٨٤ ، مغول ايران ص ٥٠-٥٩ ، تاريخ نصارى العراق ص١١٢ ، الشبيبي ج ٢ ص ١٧٩ - ١٨٠ ، يوسف غنيمة ص ١٤٨ .

Howorth . 3 . P . 396 - 367.

حتى لم يعد يجرأ احـــــدهم على الظهور في الشوارع ، واضطرت نساؤهم الى القيام بعمليات البيع والشراء لأنهن غير متميزات عن نساء المسلمين » (١) .

أقول : ليس غريباً ما لقوه في هـذه الفترة ، فهو يمثل رد الفعل لما عاناه المسلمون من تسلطهم عليهم ايام ارغون خاصة .

ونشأ من جراء هذا الاضطهاد ان هجر النصارى خاصة بغداد والبصرة ومدن العراق الاخرى عدا الموصل والتجأوا الى الجبال او بلاد فارس حتى انقطع ذكرهم من بغداد لفترة تزيد على قرن من الزمن قبل ان يعودوا اليها ثانية ، وعلى العكس من ذلك اليهود كما يقول « يوسف غنيمة » (٢) فانهم رضخوا لتقلبات الزمن وصروف الدهر وجاملوا الحكام والامراء .

وعاد اهل الذمة من هذا التاريخ وحتى نهاية الحـكم الايلخاني ، عادوا الى مكانتهم القديمة فى المجتمع الاسلامي كطائفة تعيش في حمايتهم ولا تساويهم فى الحقوق .

على ان الشدة التي لقيها اهل الذمة خلال مرحلة التحول هـذه لم تستمر إلا اشهراً معدودات لأنها ليست من طبيعة الاسلام والمسلمين ، وانما كانت حالة طارئة أملتها انفجارات العواطف المكبوتة التي قاست من الظلم والاهانة فيما سبق كثيراً .

وعندما عاد الاستقرار الى المجتمع ، وعاد الناس الى حالتهم الطبيعية ، استطاع

---

(١) نقل ذلك :

Howorth • 3 • P • 396 .

مغول ايران ص ٥٣ .

(٢) نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ص ١٥١ - ١٥٢ .

اهل الذمة التخلص حتى من لبس الغيار بفضل اساليبهم المختلفة (١) .

لذلك نجد ان الايلخانات كانوا يؤكدون على ذلك كلما ذكرهم مذكر .

فقد أمر اولجايتو بالزامهم بلبس الغيار عند تولي العرش ، اما ابو سعيد فقد أصدر اوامره مرتين بذلك كانت الاولى سنة ٧٢١ هـ والثانية سنة ٧٣٤ هـ (٢) .

على ان السياسة فرضت على الايلخانات ان يجاملوا قليلا في معاملة اهل الذمة تحقيقاً لبعض المصالح من ذلك ان حاجة غازان الى تأييد الامارات المسيحية المتحالفة معه في صراعه مع المماليك ، دفعته الى مطالبة المسلمين بالتخفيف من مضايقة اهل الذمة ، لاسيما المسيحيين منهم .

لذلك فانه تنصل من الأعمال الاعتدائية التي لحقت النصاري أما هيثوم الثاني ملك ارمينيا الصغرى الذي كان قد قدم بمناسبة توليه العرش ، وألقى غازان تبعة ذلك على عاتق نوروز ، كما استجاب لكثير من الطلبات والشفاعات التي تقدم بها الملك المسيحي ، والتي كان منها ايقاف هدم الكنائس ما دام يعبد فيها الله ، ومنها ايضاً حماية ورعاية الجاثليق بابلاها الثاني (٣) الذي كان قد اتي الأمرين من ملاحقة

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٨٣ ، وهو يشير الى ان ذلك تم بعد تسلط العوام والجهال عليهم . والذي أراه ان اهل الذمة كانوا يشترون هذه الاعفاءات من الرؤساء ببذل الاموال لهم .

(٢) تاريخ كزيدة ص ٥٩٥ ، المقريزي ج ٢ ق ٢ ص ٣٧٥ ، يوسف غنيمة ص ١٤٩ .

(٣) مغول ايران ص ٥٤ ، ٥٩ .

Howorth . 3 . P . 402 - 403 .

نوروز له ولاتباعه بالمصادرة والارهاب .

ووضحت هذه المجاملة بصورة خاصة بعد تخلص غازان من نوروز وتأثيره ، حيث استعاد اهل الذمة الكثير من حريتهم الدينية ، حتى ان غازان أخذ يزور الجاثليق ويصطحبه في كثير من تنقلاته ويهاديه ، وسمح له في ايامه الاخيرة ببناء دير في مراغة (١) .

وحقق غازان اهدافه من هذه المجاملة ، في وقوف جيوش جورجيا وارمينيا الصغرى بجانبه في صراعه السياسي مع المماليك ، وحملاته العسكرية على بلاد الشام ، كما جعل منها ايضاً وسيلة اغراء لبقايا الامارات الصليبية في قبرص وأمراء اوربا للتعاون معه في اعادة الحروب الصليبية وإنقاذ البلاد المقدسة من ايدي المماليك وتسليمها اليهم مما سوف نبحثه فيما بعد .

ومن المحتمل انه بتأثير وجود هذه الجيوش معه عند احتلاله الشام ، أصدر اوامره بمنع الاعتداء على اهل الذمة فيها ما داموا يدفعون الجزية ، وتهديده بانزال العقاب بمن يخالف ذلك (٢) .

---

(١) مغول ايران ص ٥٨ ـ ٦٠ ، بينما سمح اولجايتو خـــلال مراسلته للبابا لاقامة أسقفية في السلطانية تمثله وتتولى الاشراف على الكاثوليك في بلاده وبلاد كايدو واثيوبيا والهند ، وقد صدر الامر البابوي المؤرخ اول مايو ١٣١٨ م بتعيين فرانسس البروسيا لمسؤوليتها .

Howorth , 3 . P . 603 .

(٢) مغول ايران ص ٦٠ ـ ٦١ ، يوسف الديس ـ تاريخ سورية ج ٦ ـ

وانتهت اسباب هذه المجاملة في عهد ابي سعيد وخاصة بعد عقده الصلح مع المماليك حيث تشير بعض المدونات الأثرية التي تعود الى سنة ٧٣٠ هـ/ ١٣٣٠ م ، والتي جاء فيها انه في عهد ابي سعيد لم يعامل المسيحيون الارمنيون معاملة حسنة وكانت الضرائب عليهم باهظة (١) .

موقف الايلخانية من القبائل العربية :

ترجع القبائل العربية في العراق الى اصولها في الجزيرة العربية وهي التي هاجرت اليه قبيل الاسلام وخلاله وحتى الآن وأعطت للعراق طابعه العربي .

استوطنت هذه القبائل اراضي السواد بين دجلة والفرات وانتشرت شمالا في الجزيرة حتى الموصل وسنجار ونصيبين .

— ص ٣١٥ ٣١٦ ، موير — تاريخ دولة المماليك ص ٧١ .

Howorth . 3 . 446 , 454 - 456 .

ويشير النويري ج ٣١ ق ١ الورقة ١٤ أ في حوادث سنة ٧٢١ هـ الى ان اليهود استغلوا هذه الحماية التي وفرها لهم غازان خلال احتلاله دمشق فقاموا بتحويل أحد بيوتهم الى كنيسة بعد توسيعها وتجديد عمارتها ، عرفت بكنيسة اليهود القرابين من دون معرفة المسلمين بذلك .

(١) انظر في ذلك الرسوم التي عثر عليها قرب اصفهان والتي دونها احد الارمينيين المدعو جراكوس .

H. Kurdian . An Important Irmenian .

Ms . From A . D . 1330 . P . 604 - 606 ,

J.R.A.S. 1933 .

وبالرغم من انها لم تستقر في مكان واحد بحكم سعيها وراء الماء والكلأ ، إلا انها مع مرور الزمن تحددت لها مواطن معينة أصبحت تعرف بها .

وفي مطلع القرن السابع الهجري ، كانت أشهر هذه القبائل هي قبيلة ربيعة التي كانت منازلها غربي الفرات تحت سوراء ، وكانت فروعها منتشرة حول ضفتيه ، فمنهم بنو معروف والمنتفق في البطائح حتى البصرة . ومنهم آل فضل الذين ينتشرون شمالا حتى الرحبة وقلعة جعبر (١) .

واستقرت بنو أسد حول واسط وأم عبيدة حتى الحلة ، وكان من فروعها بنو مزيد الذين كانوا قد أقاموا لهم ملكاً في الحلة دام حقبة من السنين (٢) .

وانتشرت قبائل خفاجة حول الكوفة الى الحلة بينما استوطنت بعض بيوتها حول بغداد الى عكبرا ، ومن فروعها بنو كعب وبنو حزن المنتشرين في السواد حتى البصرة (٣) .

وتناثرت بنو عقيل بعد ان زال ملكها من الموصل والجزيرة ، تناثرت بطونها

---

(١) ابن الاثير - الكامل ج ٨ ص ٢٣٤ ، ج ٩ ص ٣٢٨ ، القلقشندي - قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ص ٧٦ ، نهاية الارب في معرفة انساب العرب ص ١١١ .

(٢) ابن الاثير ج ٩ ص ٨٣ ، ابن بطوطة رحلته المسماة تحفة النظار ج١ ص١١٤ نهاية الارب في معرفة انساب العرب ص ٤٢٠ .

(٣) ابن الاثير ج ٩ ص ١٢١ ، رحلة ابن جبير ص ١٩٧ ، ٢١٧ ، ابن بطوطة ج ١ ص ١١٣ ، قلائد الجمان ص ١٢٢ .

بين النهرين ، فبعض مضاربها استقرت على ضفاف الفرات حول الأنبار ، بينما رجعت أقسام اخرى منها الى منازلها الأصلية في البحرين والاحساء حيث كانت قد خرجت منها فيما مضى .

واستقرت بنو عبادة وهي احدى بطونها على دجلة حول سامراء حتى الموصل بينما عبرت بعض افخاذها دجلة واستقرت بين نهري الزاب والخازر قرب الموصل وعرف هؤلاء بعرب شرف الدولة (١) .

وهناك بنو تغلب وهم من وائل . ومضاربهم بالجزيرة بين سنجار ونصيبين وديارهم تعرف بديار ربيعة ، ومن بني عمومتهم بكر من وائل ايضاً . وهم منتشرون بجوار تغلب حتى حلب في بلاد الشام ، ومنهم ايضاً بنو شيبان المنتشرين حول الموصل وشرقي دجلة (٢) .

واستقرت مضارب بني عامر حول البصرة حتى الاحساء (٣) .

اما بطون طي فقد توزعوا جهات العراق المختلفة ، ومنهم بنو زبيد الذين انتشروا ببرية سنجار شمال الموصل .

---

(١) ابن الاثير ـ الكامل ج ٩ ص ٩٢ ، ابن الساعي ج ٩ ، الجامع المختصر ص ١٧٦ ، القلقشندي ـ نهاية الارب في معرفة انساب العرب ص ٣٦٥ ، قلائد الجمان ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

(٢) وكانت بعض بطونهم قد استقرت في اليمامة حتى البصرة وهم بنو عجل . انظر قلائد الجمان ص ١٣١ ـ ١٣٢ ، نهاية الارب ص ٣٠٩ ، ٣٥٠ ـ ٣٥١ .

(٣) ابن الاثير ج ٩ ص ٢١٩ ، نهاية الارب ص ٢٣٠ .

وبنو صنبس الذين انتشرت فروعهم مثل الخزاعل وعبيد وجوح في بطائح العراق من ارض السواد .

ومنهم بنو غزية الذين استقروا في البادية غرب الفرات على طريق الحج البغدادي حتى الحجاز (١) .

وهناك قبائل اخرى استوطنت منطقة المستنقعات الممتدة في السواد بين الحلة وواسط حتى البصرة والتي تعرف بالبطائح ، ومنهم عرب آل نطاح الذين ينتسبون الى عرب العذار ، ومنهم الجبور .

وشاهد ابن بطوطة خلال تجواله بين الحلة وواسط في هذه المستنقعات عرباً سماهم بالمعادي ، وهم يسمون الآن بالمعدان (٢) .

وكان لكل من هذه القبائل منطقة عرفت بها ، ومع ذلك فان استقرارها بها كان يتوقف على طبيعة علاقات الجوار مع القبائل المجاورة لها او على موقفها من السلطة الحاكمة .

وكثيراً ما تعرضت هذه العلاقات الى الاضطراب ، الأمر الذي يؤدي بالقبيلة الى الرحيل عن منازلها لفترة قد تطول وقد تقصر أمام تحالف القبائل عليها او مطاردة جيوش السلطة لها .

وغالباً ما كانت البادية غرب الفرات خاصة ، هي المكان الذي تلجأ اليه هذه القبائل الهاربة .

---

(١) نهاية الارب ص ٢٦٩ ، قلائد الجمان ص ٨٧ - ٨٨ .

(٢) نهاية الارب ص ١١٣ ، ١٣١ ، ابن بطوطة ص ١١٣ .

واعتمدت هذه القبائل في معيشتها على منتجات حيواناتها أولا ، فكانت تستهلك بعضها وتبادل بالبعض الآخر القوافل المارة بأراضيها وخاصة فى موسم الحج او مع المدن القريبة منها .

و كان لبن الابل وخبز الشعير هو الطعام المتوفر لديها في اغلب الاحيان . وفي زمن الخلافة كانت هذه القبائل تحصل على رسوم منها في كل سنة مقداراً من التمر والطعام ، ولكن هذه المعونة كانت معرضة للمنع عندما تغضب الخلافة على القبيلة (١).

وكانت ضريبة الخفارة التي تفرضها القبيلة على القوافل او المواكب المارة بأراضيها مصدراً من مصادر معيشتها .

وكانوا عندما تشتد بهم الحاجة يلجأون الى قطع طرق المواصلات ونهب القوافل ، او مهاجمة المدن المجاورة لهم ، وكثيراً ماتعرضت الكوفة والبصرة وحتى بغداد الى هذه الاعتداءات (٢) .

وكان اول اتصال للمغول بهذه القبائل حين تعرضهم للخلافة العباسية ، فقد استجابوا لنداء الخلافة عند دعوتها لهم الى الجهاد ، ونفروا خفافاً وثقالا للتطوع في جيوشها لردهم ، وتجلى ذلك في سنوات ٦٣٤ هـ ، ٦٤٢ هـ (٣) .

---

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٧٦ ، العيني ـ الورقة ٣٤٠ ق ٢ ج ٢١ ، ابن جبير ص ١٩٢ ، ١٩٤ ، ابن بطوطة ج ١ ص ١٠٨ .

(٢) ابن الاثير ج ٩ ص٢١٩ ، ٣٢٨ ، الحوادث الجامعة ص٢٦ ، ابن الجوزي ج ١٠ ، المنتظم ص ٢٠٦ ، ابن بطوطة ج ١ ص ١٣٧ .

(٣) الحوادث الجامعة ص ٨٥ ، ٢٠٠ .

ومن المحتمل انهم بعد ذلك لقوا من اعتداءات الجيش المغولي الزاحف ماجعلهم ينسحبون الى البوادي ويحتمون بها حتى هـــدأت موجة الاضطهاد المغولي الذي رافق زحفهم .

اما موقفهم من المغول بعدقيام الحكم الايلخاني فيكاد الغموض يحيط به نظراً لقلة ما كتب عن ذلك (١) .

ومن خلال الاشارات القليلة التي تناقلتها بعض المراجع يمكن القول ان موقف هذه القبائل من الحكم الايلخاني كان أقرب الي العداء منه الى الرضى في الفترة الاولى من قيامهم على الاقل ، يفسر ذلك ميلهم الى التعاون مع الحكم المملوكي المسلم للاطاحة به .

على ان هذا القول لا ينبغي اعتباره قاعدة عامة لهذه العلاقة ، إلا لفترة ، اذ ان المصالح المختلفة لهذه الاطراف لعبت دوراً في التأثير على هذا الولاء ونقله من جهة الى اخرى .

فبالرغم من ان هذه العشائر كانت مسلمة ، وان التصدي للغزو المغولي اصبح واجباً دينياً بالاضافة الى ضرورته السياسية ، فان بعض زعماء هذه القبائل لم يترددوا

(١) لم تشر المراجع الفارسية التي عاصرت الحكم الايلخاني الى احداث هذه القبائل ، اما المراجع العربية فوضعها يختلف ، فالعراقية منها أشارت الى بعض الاضطرابات التي قام بها الاعراب في البطائح . اما السورية او المصرية التي كان مؤلفها يعيش في ظل الحكم المملوكي فقد أشاروا الى اخبارها عند وصول زعمائها او رسلها الي السلطان ، وما يرونه من أحداث .

في الانضمام الى هولاكو والوقوف بجانبه ضد الحكم المملوكي الذي أصبح يمثل الخلافة الاسلامية بعد انتقالها الى القاهرة .

على انني أرى ان هذه القبائل التي كانت تتمتع بالكثير من الاستقلال فيما مضى ، وقعت الآن تحت تأثير كثير من المغريات .

فقد أسرعت السياسة المملوكية الى استغلال فزعها من الارهاب المغولي وإثارة عاطفتها الدينية في الانتقام للخلافة الاسلامية ، فوفرت لها الأرزاق والرسوم التي كانت تقدمها لها الخلافة فكسبتها بذلك الى جانبها فى صراعها مع الخطر المغولي ، فكان أفرادها رسلا وجواسيس ينقلون أخبار التحرك المغولي ، وهم الذين أخفوا وحموا الهاربين من أبناء الاسرة العباسية الذين نقلت باسمهم الخلافة الى القاهرة ، كما ساهموا في جيش الخليفة المستنصر بالله الأسود الذي جهزه السلطان الظاهر بيبرس لاسترجاع بغداد ، وفي غيره من الجيوش الاخرى (١) .

وبقيت السياسة المملوكية تملك التأثير الأكبر على هذه القبائل فيما بعد .

وأحس هولاكو بعظم الدور السياسي والعسكري الذي تقوم به هذه القبائل وخطره على الحكم الايلخاني ، فسعى لكسب ودها وإغرائها بالوفود اليه ، ومن المحتمل انه وفر لها ما كانت توفره لها الخلافة من رسوم وأرزاق ليكون ذلك وسيلة الاتصال بهم وارتباط معهم .

ولم يفشل هولاكو فيما سعى اليه ، فان رشيد الدين يشير الى ان الجيش الذي

---

(١) اليونيني ج ٢ ص ٣١٨ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٤٧٦ ، ٥٠١ - ٥٠٢ ، قلائد الجمان ص ١٢٣ في الحديث عن خفاجة .

أرسله هولاكو لاحتلال الموصل بعدخروج الملك الصالح اسماعيل عنها الى بلاد الشام والذي كان يقوده الملك صدر الدين التبريزي كان يتألف من عشرة آلاف من الجند العرب (١) .

كما ان الجيش المغولي وحلفاءه من الأرمن والروم الذي هاجم عينتاب سنة ٦٦٢هـ كان يضم الفاً من قبيلة بني كلاب (٢) .

واستطاع هولاكو أخيراً إغراء الأمير زامل بن علي اميرال فضل الذي كان قد عزل من الامارة لصلحة ابن عمه عيسى بن مهنا ، استطاع هولاكو اغراءه بالوفود اليه وتشجيعه على بني عمه ، فهاجم مضارهم وأفسد وقبض على قصاد السلطان المملوكي المتوجهين الى شيراز وأخذ منهم الكتب وسار بها الى هولاكو وأطمعه في البلاد ، فأعطاه هولاكو اقطاعاً بالعراق (٣) .

واستمر هذا التعاون بعد ذلك في حدوده الضيقة في عهد اباقا الذي تعاونت معه قبيلة خفاجة سنة ٦٧٢ هـ عند وصوله الى بغداد وكان يعتزم مهاجمة الشام فتولت خفاجة مسؤولية الطليعة في جيشه وكشف أخبار عدوه ، ثم قامت بالتصدي للأمير عيسى بن مهنا الذي كان قد وصل في توغله حتى الانبار فقاتلته حتى منتصف النهار

---

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٣٢٧ .

(٢) ابن بهادر المؤمني ـ فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر ، الورقة ١٠٦ في حوادث سنة ٦٦٢هـ .

(٣) المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٥٣٩ ، العيني ـ الورقة ٥٢٠ في حوادث سنة ٦٦٣ المقري الفيومي ـ نثر الجمان في تراجم الاعيان ـ الورقة ١٤٢ في وفيات سنة ٦٧٠ .

ربما تمكن اباقا من الرجوع بعسكره الى بغداد معتقداً ان السلطان المملوكي وراء الامير عيسى (١) .

ويظهر ان التعاون انقطع بعد ذلك بين الايلخانية والقبائل العربية حتى تولي غازان العرش ، والذي ربما كان اعتناقه الاسلام مشجعاً لبعض القبائل على اعادة التعاون معه ، من ذلك لجوء بعض أمراء آل كلاب وآل فضل في جماعة من عشائرهم اليه ، ومكوثهم في خدمته مدة ايلخانيته فكانوا كما يقول « ابن ايبك » مضرة على الاسلام خصوصاً على القفول الواردة والصادرة من الشرق ، ولكنهم بعد وفاته عادوا الى طاعة السلطان لانهم لم يجدوا من خلفه ماعهدوه منه من الرعاية والاكرام(٢).

وفي عهد اولجايتو وابنه ابي سعيد ، أصبح التعاون بين القبائل العربية والحكم الايلخاني أمراً طبيعياً بعد ان زال الاختلاف الديني الذي كان يحد منه .

وسعى اولجايتو بعد أن فشلت محاولاته لعقد الصلح مع المماليك ، سعى لاستغلال هذه القبائل في تحقيق نفس الأغراض التي كانت تقوم بها لمصلحة السياسة المملوكية . لذلك فانه رحب بلجوء احمد بن عميرة أحد فرسان العرب المشهورين

---

(١) ابن الفرات م ٧ ص ٦ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٦١٠ - ٦١١ .

(٢) ابن ايبك ج ٩ ص ١٢٧ ، النويري ج ٣٠ ق ١ الورقة ١٠٤ في حوادث سنة ٧٠٤ هـ ، المقريزي ج ٢ ق ١ ص ٣ ، العيني الورقة ٣٣٤ في حوادث سنة ٧٠٤ هـ . وقد يكون السبب في مضايقتهم وإخراجهم رغبة اولجايتو فتح صفحة جديدة من العلاقات مع المماليك حيث كان قد أطلق سراح رسل السلطان المملوكي الذي كان غازان قد اعتقلهم ، وأرسل رسله معهم لفتح باب المفاوضات .

سنة ٧٠٨ هـ الذي كان قد تمرد على طاعة بني عمه آل فضل لاسباب عائلية ، والذي أعلن استعداده لتنفيذ سياسة اولجايتو في مهاجمة الحكم المملوكي في الشام وانتزاعها من ايديهم .

وتحققت بعض هذه الاهداف ، عندما تولى ابن عميرة قيادة جيش العراق وديار بكر وهاجم به نصيبين وقلعة الروم ونهب اموال التركمان وأوقع الفزع والخراب في شمال الشام (١) .

وانعكست آثار هذه الرعاية التي حصل عليها ابن عميرة من الايلخانية ، على الحكم المملوكي في الشام الذي بدأ يفقد سلطانه على هذه القبيلة التي وجدت في الوفود الى العراق سبيلا للتخلص من طاعة المماليك التي كانت تضيق بها في كثير من الاحيان الأمر الذي أضعف من سلطان المماليك عليها (٢) .

فقد سارع اولجايتو الى قبول وساطة امير العرب مهنا بن عيسى في لجوء بعض امراء المماليك الذين كان قد حماهم من غضب السلطان المملوكي .

وشجعت الحفاوة الكبيرة التي لقيها هؤلاء اللاجئون من اولجايتو ، شجعت أمير العرب نفسه على استبدال طاعة السلطان المملوكي بطاعة اولجايتو سنة ٧١٢ هـ ، بعد ان ساءت العلاقة بينهما ، بسبب اتهامه بتشجيع الامراء على الهروب ، وارسال

---

(١) العيني ـ الورقة ٦ ـ ٢٢ في احداث سنة ٧٠٨ هـ ، العزاوي ج ١ ص ٤١٢ .

(٢) فضلاً عن تطلع امراء المماليك انفسهم الى هـذا اللجوء فيما بعد ، بعد ان ساءت علاقتهم بسلطانهم . كما فعل قبجق واصحابه في عهد غازان . وقره سنقر وأصحابه في عهد اولجايتو .

ابنه سليمان الى خربندا ، الأمر الذي شجع الايلخان على غزو الرحبة (١) .

ويشير ابو الفداء (٢) الى ان خربندا اقطع الأمير مهنا مدينة الحلة بالعراق ، بينما بقي اقطاعه بالشام وهو مدينة سرمين وغيره على حاله ، وان مهنا جعل ولده سليمان منقطعاً لخدمة خربندا ومتردداً اليه ، بينما استمر ابنه موسى في خدمة السلطان ومتردداً اليه ، بينما استمر مهنا على ذلك بأخذ الاقطاعين بالشام والعراق ، وتصل اليه الرسل من الفريقين وإنعامهما وهو مقيم بالبريد ينتقل الى شط الفرات من منازله لا يروح الى احد الفئتين .

ورجحت كفة اولجايتو عندما انحاز الى جانبه أمير العرب مهنا بسبب تهور السلطان المملوكي الذي انتزع منه امرة العرب وقطع اخباره وحزم عليه البقاء في البلاد ، وبالرغم من ان السلطان أحس بعد أقل من سنة بخطأ سياسته فأسرع يسترضي مهنا ويعيد اليه ما سلبه منه ، بل وزاد في اقطاعه مبلغ مائتي الف درهم ، فان قبائل مهنا وأولاده لم ينقطعوا عن الاغارة على أطراف الشام بتشجيع ومساندة من الايلخانية .

من ذلك ما حدث سنة ٧١٣ هـ حيث قطع اولاده وعربانه الطرقات على القفول التجارية ، وما قام به ابنه سليمان سنة ٧١٥ هـ من الاستعانة بالتتار ومهاجمة التركمان النازلين بين تدمر والقريتين وسلبهم ما يملكون (٣) .

---

(١) وصاف م ٤ ص ٥٥٢ ـ ٥٥٣ ، المقريزي ج ٢ ق ١ ص ١١٤ ، ١١٩ ، العيني ـ الورقة ٣٤٠ ـ ٣٤٥ في حوادث سنة ٧١١ هـ .

(٢) المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٧٣ .

(٣) ابو الفداء ج ٤ ص ٨٠ ، النويري ج ٣٠ ق ٢ الورقة ٣١٨ في حوادث ـ

وفي سنة ٧١٦ هـ قدم مهنا لزيارة اولجايتو ، في الوقت الذي كان يأبى زيارة السلطان المملوكي خوفاً من مكائده . فاجتمع به بالقرب من عاصمته السلطانية ، فأكرمه اولجايتو وقرر له معه امر الركب العراقي للحج فتعهد به مهنا وأعطاه عصاه خفارة لهم ، وعندما خيره في المقام عنده ، اختار العودة الى دياره لاصلاح ذات البين مع السلطان (١) .

وكان اولجايتو بالاضافة الى اهتمامه بمهنا قد اكرم ابنه سليمان منذ انقطاعه لخدمته ، فأقطعه بلاد الفرات حتى أصبح كما يقول الصفدي « كان له بالبلاد الفراتية نواب وشحان يستخرجون له الاموال من هيت والانبار وعانة » (٢) .

وسار ابوسعيد في اول أمره على سياسة ابيه في احتضان امراء القبائل العربية وخاصة أمراء آل فضل الذين كانوا يملكون السيادة الحقيقية على البادية بين القطرين العراق والشام .

فقد وفد اليه بعد توليه مباشرة الأمير فضل بن عيسى مصطحباً معه هدية من الخيول العربية ، فرحب به ابو سعيد ونائبه جوبان وأقطعه البصرة (٣) .

ــ سنة ٧١٥ وابن ابي الفضائل ج ١ - النهج السديد ص ٧٦٠ ، المقريزي ج ٢ ق ١ ص ١١٨ ، ١٢٨ .

(١) ابو الفداء ج ٤ ص ٨٢ ، النويري ج ٣٠ ق ٢ الورقة ٣٢٩ في حوادث سنة ٧١٦ ، ابن حجر ج ٤ ـ الدرر ص ٣٦٨ - ٣٧١ ، في الحديث عن مهنا بن عيسى.

(٢) الصفدي م ٥ ق ١ ، الوافي بالوفيات الورقة ١٤١ في الحديث عن سليمان ابن مهنا ، ابن حجر ج ٢ ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٣) وهو شقيق أمير العرب مهنا ، وكان السلطان المملوكي يسند اليه الامارة عندما يغضب عليه اخوه ، ابو الفداء ج ٤ ص ٨٥ ، العزاوي ج ١ ص ٤٥١ .

ولكن ابا سعيد بعد ذلك بتوجيه من وزيره عليشاه لم يستمر طويلاً على هذه السياسة العشائرية التي كان ابوه قد خطط لها ، فان رغبة الوزير المذكور في إقامة الصلح مع المماليك فرضت عليه التنكر للعشائر التي كانت قد وجدت في اختلاف سياسة السلطانين المملوكي والايلخاني رحمة ، فكان شيوخها ينتقلون في الطاعة بينهما ويأكلون ارزاقهما ، حتى اصبح العراق اقطاعاً لهم ، يشير العيني في ذلك الى وصول قاصد من قبل عليشاه الى مصر ومعه تقادم وبخاتي وقماش ومماليك وجواري ، وقد ذكر ان سلطانهم قطع اخبار العربان من عندهم وهم مهنا وأولاده واخوته وقرايبه (١).

وانعكست سيئات هذا التحول في سياسة الايلخانية على الايلخانيين انفسهم الذين اضطروا بعد ذلك الى طلب حماية السلطان المملوكي لموكب الحج العراقي الذي كان امير العرب مهنا قد اعطى ذمامة له فيما مضى .

ذلك ان هذه القبائل عادت الى اساليبها القديمة في قطع الطرق وسلب القوافل كوسيلة لتعيشهم بعد ان سارع السلطان المملوكي الى استغلال هذا التحول فقطع اخبارهم بدوره وأرسل الجيوش لطردهم من البلاد تأديباً لهم ، فتركوا منازلهم في الرحبة وعانة وغيرها (٢) وهربوا الى البادية ، فكان ان تعرضوا لموكب الحج المذكور الذي لم يحمه سنجق السلطان الناصر منهم . وكان جواب الامير مهنا لابن اخيه سيف الذي قدم يشفع باسم السلطان المملوكي في الموكب ، كان جوابه « انني آكل من كسب سيفي ، فكيف ارجع عن هذا الركب وفيه مكسب يقوتني سنة كاملة ، وأنا

---

(١) عقد الجمان ـ الورقة ٢١٦ في حوادث سنة ٧٢٠ .

(٢) ابو الفداء ج ٤ ص ٩١ ، المقريزي ج ٢ ق ١ ص ٢٠٨ .

رجل لست تحت طاعة سلطان ... ثم خاطب الركب قائلا لنا خفر عليكم خمسة آلاف دينار وبذلك جرت عادة العرب » (١) .

واضطر ابو سعيد الى التراجع قليلا عن تشدده مع هذه القبائل ، ورحب بزيارة مهنا سنة ٧٢١ هـ الذي قدم اليه بهدية كبيرة ، ثم أغراه بالتعاون على السلطان المملوكي .

ولكن ذلك لم يطل كثيراً إذ ان شروط الصلح التي فرضها السلطان المملوكي كانت تقضي بابعاد عرب آل مهنا ، وتعاون السلطانين على اخراجهما من البلاد (٢) ، وكان قبول ابي سعيد لهذه الشروط يعني قطع كل صلة له بهذه القبائل ، وبالتالي اسقاط دورها في علاقاته السياسية ، الأمر الذي دفع بعض ابناء مهنا واخوته الى الدخول على السلطان الناصر والتماس عفوه بعد أن ضاقت بهم البلاد بسبب هذا الصلح (٣) .

ولم يقف استغلال الايلخانية لهذه العشائر في صراعها مع المماليك وتهديد أطراف بلادهم فحسب ، بل تعدى ذلك الى محاولة منافستهم على بلاد الحجاز لغرض انتزاعها من دائرة نفوذهم .

وبدأت هذه المحاولات في زمن اولجايتو الذي كان قد سعى لكسب ود القبائل وإغرائها بالتعاون معه ، وفتح ابواب العراق أمام شيوخها وامرائها الهاربين من تحكم السياسة المملوكية فيهم .

---

(١) العيني - الورقة ٢٠٠ - ٢١٦ في حوادث سنة ٧٢٠ هـ ، العزاوي ج ١ ص ٤٦٤ - ٤٦٧ .

(٢) ابو الفداء ج ٤ ص ٩٣ ، العزاوي ج ١ ص ٤٧٢ - ٤٧٦ .

(٣) ابو الفداء ج ٤ ص ٩٦ ، المقريزي ج ٢ ق ١ ص ٢٤٦ .

وكان الامير حميضة بن ابي نمي احد امراء مكة ، من هؤلاء الذين وفدوا اليه سنة ٧١٦ هـ طالباً مساعدته للعودة الى امارة مكة التي كان قد طرد منها لمصلحة أخيه رميثة .

والتقت مصلحة غلاة الشيعة المحيطين بأولجايتو مع مصلحة حميضة الذي أنس فيه اولجايتو شجاعة ، لتجهيز حملة لمساندته ، على ان يعترف بعد نجاحه بسيادة الايلخانية على مكة والخطبة لأولجايتو فيها .

ولكن الفشل كان حليف هذه الحملة التي ضمت بالاضافة الى التتر ، ضمت جماعة من عرب خفاجة وعقيل ، إذ ان اولجايتو توفى بعد مغادرتها البصرة بأيام قليلة ، فانقسم الرأي فيها ، في الوقت الذي هاجمتها فيه القبائل الاخرى التي كان قد جمعها محمد بن عيسى شقيق مهنا ، طمعاً فيما تحمله من اموال ، وانكاراً لما تعتزم القيام به بعد استيلائها على مكة ، فنجا حميضة بنفسه تاركاً عياله وأمواله أسرى (١) .

وسوف نرى فيما بعد ان السياسة الايلخانية نجحت في السيادة على مكة في عهد ابي سعيد ، ولكن لفترة قصيرة ، ونتيجة لعوامل اخرى .

ان ما رأيناه الآن يمثل موقف الايلخانات من عشائر معينة اغلبها من ربيعة وطي ، تنتشر مناطق سكناها على جانبي الحدود المشتركة مع المماليك ، وتملك السيطرة الحقيقية على طرق المواصلات مع الشام والحجاز لذلك رأينا تملق الايلخانات لزعمائها وسعيها لكسب تحالفهم معها .

---

(١) كانت الحملة تعتزم بعد نجاحها ، نبش قبر الشيخين في المدينة المنورة ونقل رفاتهما ، ابو الفداء جـ ٤ ص ٨٣ ، ابن ابي الفضائل جـ ٣ ص ٧٦٣ ، المقريزي جـ ٢ ق ١ ص ١٤٧ - ١٤٨ .

ولكن هؤلاء الايلخانات كان لهم موقف من العشائر المنتشرة داخل العراق البعيدة عن هذا التأثير السياسي ، إذ انهم تركوا كما يظهر أمر معالجة شؤونها الى مسؤولية ولاة العراق ونوابهم .

وكان لهذه القبائل تأثير على السياسة الداخلية للعراق ومايتشأ عنها من استقرار الأمن وازدهار الوضع الاقتصادي .

وبالرغم من سكوت المراجع الرئيسية عن الاشارة الى دور هذه القبائل إلا اننا نستطيع القول ان علاقتها مع حكام العراق لم تكن حسنة ، وانها كثيراً ما تمردت عليهم وقطعت طرق المواصلات ونهبت القوافل التجارية حتى اصبحت الطرق غير مأمونة ، وتعذر على المسافرين او القوافل ، الانتقال في البلاد ما لم يحصلوا على حماية القبائل التي تقوم بالخفارة على طرق المواصلات بين المدن المختلفة .

ويعطينا ابن بطوطة صورة لهذه الأوضاع التي اصبح عليها العراق في الأيام الأخيرة للايلخانية ، عند زيارته له . فانه يقول بعد خروجه من النجف وتوجهه نحو البصرة « وسافرت الى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة وهم اهل تلك البلاد ، ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ، ولا سبيل للسفر فى تلك الأقطار إلا في صحبتهم » ثم يذكر ما لقيه بعض المسافرين الذين تأخروا عن القافلة فتعرضت لهم قبائل المعادي وسلبوهم حتى النعال (١) والكشاكل .

وليست هذه الصورة التي يرويها ابن بطوطة ، حديثة العهد بالنسبة لتاريخ

---

(١) رحلة بن بطوطة ج ١ ص ١١٣ ، انظر ايضاً ص ١١٤ في حديثه عن بني أسد وانهم كانوا يحمون الطرق حول واسط وأم عبيدة .

زيارته وانما هي استمرار لما كان عليه الوضع العشائري في العراق طيلة العهد الايلخاني .

والذي أعتقده ان النواب في العراق كانوا قد قطعوا عن هذه العشائر ما كانوا يتقاضونه من ارزاق كانت تقدمها لهم الخلافة لتكسب بها طاعتهم ، لذلك اضطروا لاحتراف السلب والنهب ما دام يوفر لهم معايشهم ، واضطر النواب معهم الى قيادة الجيوش وملاحقتهم والدخول معهم في صراع طويل لم يكن ينشأ عنه إلا إرهاق للحكم القائم واضطراب في احوال البلاد الاقتصادية .

يشير ابن الفوطي الى هذا الصراع في حديثه عن فخر الدين بن الطراح الذي تولى صدرية واسط والحلة ، حيث يقول : « وكان شجاعاً له في قتال الاعراب الخارجين عن سنن الصواب اليد البيضاء » (١) .

وقد مر علينا ماقام به علاء الدين الجويني من محاولات لتأمين طرق المواصلات وحماية القوافل التجارية من ذلك الموضع الذي شيده في نهر جعفر من اعمال واسط وسماه « المأمن » ليأمن اليه التجار والمسافرون (٢) .

وساهم بايدو في القضاء على تمرد هذه العشائر التي كانت قد استغلت ما اصاب الايلخانية من فوضى وانقسام ، عندما أمره كيخاتو بذلك فقدم العراق سنة ٦٩٣هـ واستقر في واسط ، ولكنه عجز عن الوصول الى الاعراب الذين كانوا قد احتموا بالبطائح ، فأفرغ غضبه في القرى التي صادفها في طريقه فنهبها وأخذ اموالها وحيواناتها وسبى نساءها ، وصادف بعض السفن التجارية فسلب بعض ما فيها من اموال ،

(١) تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ق ٣ ص ٤١٠ - ٤١٢ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٣٧٢ .

ولما تركها ، خرج عليها الاعراب فأكلوا نهبها واصبح التجار حفاة عراة » (١) .

وسلك غازان مسلكاً مخالفاً لبايدو فقد لاحق الاعراب بنفسه عندما قدم العراق سنة ٦٩٨ هـ وسير العساكر الى البطائح وحصرهم فيها ، واكثر فيهم القتل ، ثم ترك بعد ذلك جيشاً في واسط لمنع من تخلف من العرب عن الفساد (٢) .

وكان آخر من استعانت به الايلخانية لمطاردة هذه القبائل وحماية البلاد منها هو الشريف احمد بن رميثة بن ابي نمي احد أمراء مكة الذي كان ابو سعيد قد كافأه فأقطعه الحلة وفوض اليه أمر الأعراب فأكثر فيهم الغارة والقتل حتى نشر سيطرته على البلاد وفرض النظام فيها ، الأمر الذي مكنه بعد ذلك من الاستقلال بالحلة بعد وفاة ابي سعيد لفترة من الزمن وجباية اموالها لنفسه حتى تغلب عليه الشيخ حسن الكبير (٣) .

ثانيا ـ العلاقات الداخلية :

موقف الايلخانية من الامارات الداخلية :

وأقصد بالامارات الداخلية ، الكيانات السياسية التي كانت قائمة في أواخر ايام الخلافة العباسية ، والتي جبن امراؤها عن مواجهة الزحف المغولي ، فدخلوا في

(١) المرجع السابق ص ٤٧٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٩٧ ، ابن ايبك جـ ٩ ص ٩ ، الذهبي ـ تاريخ الاسلام الورقة ١٢٢ في حوادث سنة ٦٩٨ هـ .

(٣) ابن عنبة ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ، في الحديث عن الشريف شهاب الدين ابو سليمان احمد بن رميثة بن ابي نمي .

طاعتهم سلماً وقبلوا شروطهم .

واستغل المغول طاعة هؤلاء فتدرجوا معهم في فرض الشروط . فقد أبقوهم في اماراتهم وأظهروا لهم الاحترام ترغيباً لهم على استمرار الطاعة ، وإغراء الآخرين بالدخول في الطاعة والتخلي عن المقاومة .

واكتفوا في أول الأمر من هؤلاء الأمراء ، دفع مبالغ من المال سنوياً وقبول شحنة مغولي عندهم .

ثم طالبوهم بعد ذلك بالتعاون معهم عسكرياً وتقديم عدد معين من الجند فرساناً ومشاة للزحف نحو بغداد . وبذلك سهل على المغول الاستيلاء على كثير من البلاد الاسلامية ، والقضاء على الخلافة العباسية بجهود مغولية محدودة ، بينما نجت المدن المستسلمة من الخراب والتدمير والقتل الذي اصاب الاخرى (١) .

وانكشفت لهؤلاء الأمراء حقيقة موقف المغول منهم بعد أن هدأت نار الحرب حيث بدأ هولاكو يعيد امتحان طاعتهم ويتصرف بهم وبأبنائهم ويستزيد من فرض الشروط عليهم ، فاستيقظوا بعد فوات الأوان ، وندموا على ما فرط منهم حيث لا ينفع الندم . يشير اليونيني الى ذلك فى حديثه عن صاحب ماردين الذي كان هولاكو قد احتجز ابنه عنده ،كما احتجز أولاد صاحب الروم عزالدين وركن الدين وبدأ يتحجج عليهم « فندم على ارسال ولده وأرسل يستحث الملك الناصر على الحركة

---

(١) الجوزجاني ـ دور تاريخ آل جنكيز ص ٤٧ ، في الحديث عن موقف صاحب فارس و كرمان ، ابن دقماق ـ نزهة الانام الورقة ١٠٩ ـ ١١٠ في الحديث عن موقف بدر الدين لولو .

الى حلب ، وكتب الى ابنه يوصيه بالهرب ، والى أولاد صاحب الروم ينكر عليهما مجيئهما وينصحهما باتباع الحيلة والهرب ، فقال عز الدين : والله ما خرجت البلاد عن أيدينا إلا بتخاذل بعضنا عن بعض ، فلو كانت الكلمة مجتمعة لم يجر علينا ما جرى » (١) .

ولم يعد بعد ذلك في وسع هؤلاء الامراء إلا تنفيذ ما يريده المغول .

وبعد استقرار الايلخانية ، ومع مرور الزمن توضحت العلاقة بين الايلخان وأمراء هذه البلاد ، فاذا هم ليسوا إلا عبيداً لا يملكون من أمرهم شيئاً ، وان بقاءهم في كرسي الحكم واستمرار ذلك في أسرهم من بعدهم ليس إلا تحقيقاً لمنفعة يراها المغول او تجنباً لمشكلة تلحق الضرر بهم .

على اننا يجب أن لا ننسى ايضاً ان هؤلاء الامراء كانوا يتمتعون بشيء من القوة والسلطان في الفترات التي ينقسم فيها الايلخانات على بعضهم ويدب النزاع فيما بينهم .

ويمكن تحديد هذه العلاقة بين الايلخانية وامراء هذه البلاد بما يلي :

لقد أصبح الايلخان المالك الحقيقي لهذه البلاد ، اما الامراء فان عليهم ان يحصلوا على موافقته لبقائهم في الحكم .

ولم تكن هذه الصورة غريبة على هؤلاء الامراء الذين استبدلوا طاعة الخلافة بطاعة الايلخان ، ولكن الجديد فيها ، ان الايلخان كان قادراً على تنفيذ رغبته في عزل او قتل او نفي من لا يريده من هؤلاء الامراء او المرشحين للامارة بعكس

(١) ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

ما كانت عليه الخلافة التي كانت ترضي بالأمر الواقع .

فقد أمر منكوخان بعزل صاحب كرمان ركن الدين الذين كان قد استلم التقليد من اوكتاي خان لمصلحة اخيه قطب الدين .

كما أمر بتقسيم بلاد الروم بين الأخوين عز الدين وركن الدين .

وعندما توفي بدر الدين لولو صاحب الموصل وافق هولاكو على إمارة ابنه الصالح اسماعيل من بعده (١) .

وتبعاً لهذه العلاقة ، أصبح على الأمير ان يلبي استدعاء الايلخان ، فيتوجه نحو بلاطه في الحال قبل أن يثير غضبه عليه ويتهمه بالتمرد .

وكثيراً ما احتفظ الايلخان بالأمير او أحد اخوته في بلاطه كرهينة او كعقاب بينما يقوم أحد نواب الامير بتصريف شؤون الحكم في إمارته مدة اقامته الاجبارية .

فقد استدعى اباقا صاحب هرات شمس الدين آل كرت بسبب الشك في ولائه وتعاونه مع العدو ، وأبقاه محجوراً عليه حتى توفي بعد ذلك منتحراً . وكان يوسفشاه صاحب لورستان مقيما في بلاط اباقا بينما كان نوابه يحكمون البلاد نيابة عنه ، ولم يسمح له بالعودة الى بلاده إلا بعد أن قام بفعل بطولي ، عندما أنقذ حياة أباقا من اعتداءات بعض المتمردين ، حينئذ استحق تقدير الايلخان وثقته فأعاده الى بلاده وأضاف الى املاكه اقاليم اخرى .

---

(١) الجويني ج ٢ ص ٢١٦ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٥٧ ، ابن العبري ص ٢٦٦ ، ٢٧٨ ، تاريخ الموصل ج ١ ص ٢٣٦ ، ابن خلدون ج ٥ ـ العبر ص ٥٥٨ ـ ٥٥٩ .

D'ohsson . 3 . P . 94 . Howorth . 3 . P . 35 - 36 .

وفي عهد غازان كان صاحب فارس محمد شاه صغير السن يقيم في بلاط الايلخان بينما كان قاضي شيراز فخر الدين الهراتي يتولى الاشراف على ادارة البلاد (١) .

وتعبيراً عن هذه التبعية ايضاً ، فقد أصبح على الأمير أن يحصل على تفويض بامارته من الايلخان ، وكانت مراسيم التعيين تتم ، اما بحضور المرشح او أحد ممثليه الى البلاط الايلخاني لاستلام أمر التعيين الذي يصدر فيه يرليغا - أمراً سلطانياً - من الايلخان بتقليد البلاد له لكي يقرأ على الناس ، وقد ينقش هذا التقليد على بائيزة ذهب ، تقدم للأمير تكريماً له ، كما قد يمنح لقباً في بعض الأحيان .

ومن متممات مراسيم التعيين ايضاً ان يرسل الايلخان الجتر او السنجق لكي يرفع فوق رأس الأمير عند جلوسه او تنقله ، كما قد يرسل اليه سيفاً وبعض الثياب التي يرتديها في حفل الجلوس الذي يكون عادة بحضور ممثل الايلخان فى الامارة (٢).

وكان على الامير أن يقوم مقابل ذلك بتنفيذ كثير من الالتزامات المختلفة التي

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٦٦ ، ٦٩ ، البدليسي - الشرفنامة ص ٤٩ .

Howorth . 3 . P . 250 - 252 ' 357 - 358 ' 417 .

(٢) التاريخ الغازاني ق ٣ الورقة ٦٠١ - ٦٠٢ في الحديث عن مراسيم تولية صاحب كرمان الدواداري م ٩ ، زبدة الفكرة - الورقة ٣ - ٥ في مراسيم تولية عز الدين كيكاوس صاحب الروم ، العيني - الورقة ٤٧٤ - ٤٧٥ ، في حوادث سنة ٦٥٩ هـ في الحديث عن تمرد التركمان على سلاجقة الروم واتصالهم بهولاكو واعلانهم الطاعة له وطلبهم السنجق والفرمان والشحنة .

Howorth . 3 . P . 543 - 544 .

في حضور ملك جورجيا الطفل الى الاوردو ومنحه لقب حاكم تفليس .

تنظم علاقته بالايلخان لضمان بقائه في إمارته ، من ذلك :

الالتزامات المالية : فقدكان عليه ان يحمل الى خزانة الأيلخان مبلغاً متفقاً عليه من المال سنوياً ، هو أشبه بضمانة للبلاد .

ويحمل كذلك موارد دار الضرب او السكة ، بالاضافة الى كثير من الهدايا الى الايلخان والخواتين وأمراء المغول الآخرين لكي يداري مكانته في البلاط أمام خصومه او الطامعين في كرسيه من اخوته او بني عمه .

وهناك الالتزامات العسكرية : فقد كان على الأمير أن يكون مستعداً للتعاون مع الايلخان في حالة الحرب ، وذلك بتقديم عدد معين من جيشه اليه ويطلق عليها الكوتة المقررة .

على اننا نلاحظ في كثير من الحالات ان التعاون بين الاثنين كان اوسع بكثير من هذه الحدود ، اذ قلما دخل الايلخان في حرب مع البلاد المجاورة إلا وكان برفقته امراء البلاد المجاورة لميدان الحرب .

فقد شارك امراء جورجيا وارمينيا الصغرى المسيحيون الايلخانات في جميع الحروب التي خاضوها مع المماليك ، بينما شارك امراء الموصل وماردين والروم في بعضها فقط .

ولم تقتصر المشاركة العسكرية على الحروب الخارجية فقط ، بل ساهم بعضهم في النزاع الداخلي الذي قام بين الايلخان ومنافسيه من أبناء الاسرة على العرش ، من ذلك مشاركة امراء لورستان وجورجيا وارمينيا الصغري في جيش احمد تكودار

عندما تمرد عليه ابن اخيه ارغون (١) .

وكان الامراء بدورهم يعتمدون على مساعدة الايلخان في الدفاع عن اماراتهم عند تعرضها للخطر ، فقد قام غازان بحملته على الشام سنة ٦٩٩ هـ انتقاماً لما فعله أهلها بماردين ، بينما استعان ملك ارمينيا بأبي سعيد الذي أمده بعشرين الف من الجند لدفع هجمات المماليك عن بلاده سنة ٧٢٢ هـ قبيل عقد الصلح بين الايلخان والناصر محمد بن قلاون (٢) .

بالاضافة الى ذلك فقد كان على الأمير أن يستأذن الايلخان ويأخذ موافقته عند قيامه بأي اصلاح لجهازه العسكري ، من ذلك تحصين مدنه او ترميم قلاعه ، او زيادة عدد قواته .

وينقل لنا هورث أسباب غضب غازان على صاحب هرات « انه لم يحافظ على الوعد الذي أعطاه للايلخان ، فقدم قام بتحصين مدينة هرات وزاد من عدد جيشه حتى بلغ ستين الفاً . كما اخذ يتملص من دفع الضريبة السنوية المقررة عليه » (٣) .

وكان من هذه الالتزامات ايضاً التعاون في المجال السياسي لتحقيق الاغراض التي تهدف اليها الايلخانية في علاقاتها الخارجية . من ذلك ما قام به اباقا عندما عجز

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٠٣ .

Howorth • 3 . P • 358 .

(٢) وكذلك القول بالنسبة لمعركة الابلستين سنة ٦٧٦ هـ فقد خرج اباقا لدفع الاعتداء المملوكي على بلاد الروم ، الحوادث الجامعة ص ٥٠٢ .

D'ohsson • *4* • P . *664* - *665* .

(٣) *Hist* . *of* . *Mongols* • *3* • P. *414* - *416* .

عن تحقيق نصر عسكري على المماليك بعد معركة الابلستين سنة ٦٧٦ هـ ، فقـد استعان بملك ارمينيا واتفق معه على ان يكتب الى البابا في روما وملوك اوربا يدعوهم للتعاون مع الايلخانية عسكرياً لاسترجاع البلاد المقدسة من ايدي المماليك .

وكذلك مساهمة امراء ماردين والروم في تحقيق الصلح الذي سعى اليه تكودار مع قلاون حيث ساهم وزير صاحب ماردين ، واتابك صاحب الروم مع قاضي القضاة في حمل المراسلات والتنقل بين الايلخانية والمماليك (١) .

وعندما عجز اولجايتو عن حماية ارمينيا من هجمات المماليك المستمرة ، اضطر الى الموافقة على الحل السياسي الذي اقترحـه صاحبها والذي يقضي بضرورة مسالمة السلطان المملوكي والاعتراف بطاعته بالاضافة الى التبعية الايلخانية ، بعد أن خيره اما بقبول هذا الاقتراح او إيفاد من يتولى حكم الامارة مباشرة بعـــد تنازله عن عرشها .

وكذلك رافق ابوسعيد على مثل هذا الازدواج في الولاء بالنسبة لهذه الولاية ايضاً ما دام عاجزاً عن حمايتها (٢) .

---

(١) ابن عبد الظاهر ـ تشريف الأيام والعصور ص ٥ ، ٦٩ ، ابن الفرات م ٧ ص ٢٤٨ ، ٢٧٨ ، ابن رجب جـ ٢ ذيل طبقات الحنابلة ص ٣٥٢ في الحديث عن وزير صاحب ماردين .

Howorth . 3 . P . 260 . Macler . C . M . H . 4 . P . 175-176 .

(٢) العيني ـ الورقة ٢٣ ـ ٣٥ في حوادث سنة ٧٠٨ هـ . ابو الفـــداء جـ ٤ ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

Howorth . 3 . P . 604 .

وكانت هناك التزامات اخرى للأمراء تتعلق بالسياسة الداخلية الايلخانية ، من ذلك وجود ممثل للايلخان لدى الأمير ، وهو الذي يتولى عادة قيادة الجيش المغولي في الامارة (١) .

وتختلف منزلة هذا الممثل بالنسبة لأهمية الامارة وموقعها ، ولقد أشرت في حديثي عن التقسيمات الادارية للايلخانية وتوزيع الامراء او الحكام عليها في عهد كل ايلخان تقريباً ، ان الولايات ذات الموقع العسكري الهام كان يتولى مسؤوليتها بعض أمراء الاسرة ، من ذلك ولاية خراسان التي تقع ضمنها امارة هرات ، فقد تولاها أغلب الايلخانات قبل توليهم الايلخانية . وكذلك ولاية بلاد الروم التي تشمل امارة سلاجقة الروم ، فقد مثل الايلخان فيها منذ أواخر أيام اباقا بعض أمراء الاسرة .

على العكس من ذلك الامارات الاخرى التي كان يتولى الامرة فيها ، او تمثيل الايلخان بعض امراء النويان من المغول ، او ما يسمون بالشحنة عندما تكون الامارة صغيرة وقليلة الأهمية مما لا يستوجب وجود جيش كبير فيها .

وكان ممثل الايلخان في الامارة أشبه بالرقيب على الأمير ، يلاحظ مدى اهتمامه بتنفيذ سياسة الايلخان وتمسكه بالولاء له في علاقاته الاخرى . يشير ابن ابي الفضائل الى اهمية وجود ممثل الايلخان في تأمين الطاعة الايلخانية في المحاورة التي دارت بين

(١) وكان هناك في بعض الامارات اكثر من قائد للجيش المغولي بحكم وجود اكثر من تومان من الجيش فيها ، وفي هذه الحالة يتعاون هؤلاء القواد على القيام بواجبات النيابة .

هولاكو وصاحب ماردين الملك المظفر قره أرسلان ، حيث خاطبه هولاكو بقوله : « إن اصحابك اخبروني انك تريد الرواح الى صاحب مصر ، وقد رأيت ان يكون عندك من جهتي من يمنعك عن ذلك ، ثم جهز معه امراء يقيمون عنده » .

وكذلك ما فعله البروانا (١) من الايقاع بصاحب الروم ركن الدين قليج ارسلان بن كيخسرو عندما وشي به الى اباقا متهماً اياه بتغيير نيته في طاعة الايلخانية وعزمه على مكاتبة صاحب مصر ، واقترح التخلص منه ، فكان جواب اباقا له ، بأنه اذا ثبت ذلك عند نوابي من المغول فافعل ما تختار » (٢) .

وكان على الأمير كذلك كتابة اسم الايلخان وألقابه على السكة المتداولة في امارته اعترافاً منه بتبعيته له ، تشير الى ذلك قطع النقود التي ضربت في الموصل سنة ٦٥٦ هـ ، ٦٥٧ هـ ، في عهد اميرها بدر الدين لولو ، وابنه الملك الصالح اسماعيل

---

(١) البروانا : معين الدين سليمان بن علي بن محمد وزير ركن الدين صاحب الروم ، كان قد حاز ثقة هولاكو عندما اجتمع به على أسوار حلب ، فأمر أن يكون السفير اليه عن ركن الدين وبفضل هذه الثقة تحكم بالسلطان وتفرد بالحكم في البلاد حتى أصبح يجمع بين وزارة السلطان ونيابة اباقا في إدارة البلاد .

وقد حاول في اواخر أيام اباقا ان يلعب دوراً سياسياً في إضعاف سيطرة المغول بالتعاون مع الحكم المملوكي ولكنه لم يخلص النية في عمله فانكشف أمره لأباقا الذي قتله بعد معركة الابلستين .

(٢) النهج السديد جـ ١ ص ٩٠ - ٩١ ، اليونيني جـ ١ ص ٤٥٧ - ٤٥٨ ، جـ ٢ ص ٤٠٣ - ٤٠٦ .

الذي خلفه (١) .

ولكن بعض الايلخانات كانوا يتساهلون مع الأمراء في تنفيذ هذا الالتزام فانا لا نجد مثلا في نقود سلاجقة الروم ما يشير الى هـذه التبعية حتى سنة ٧٠٠ هـ حيث حملت النقود التي ضربت في قونية في هذه السنة اسم الايلخان غازان بالاضافة الى اسم السلطان السلجوقي (٢) .

ومما يؤيد هذا التساهل من جانب الايلخان ، ان اولجايتو عندما ارسل جيشه لتأديب صاحب هرات ، أمر قائده بضرب اسمه على السكة ، ومحاسبة صاحب هرات على اهماله ذلك بالاضافة الى أشياء اخرى (٣) .

وكان من الالتزامات الأدبية التي حرص الامراء على المحافظة عليها الصلة المباشرة مع الايلخانات ، وذلك عن طريق الزيارات الشخصية لبلاطه وما يرافق ذلك من تقديم الهدايا للايلخان وخواتينه ومن يملك النفوذ في بلاطه . وتشير التقاليد التي تعارف عليها البلاط المغولي الى نوعين من من هذه الزيارات ، الأولى منها ، مشاركة

(١) انظر في ذلك قطع النقود التي نقلها الحسيني في رسالته العملة الاسلامية في العهد الاتابكي ص ٦٠ عن مسكوكات المتحف الاسلامي بالقاهرة برقم ١ / ٧٧١٤ ، والمتحف العراقي برقم ٧٨٦٢ ـ ع ، انظر ايضاً ص ٦٥ برقم ١٨٤٩٠ ـ ع ـ المتحف العراقي .

(٢) احمد توحيد ـ مسكوكات قديمة اسلامية قتالوغي ق ٤ ص ٤٨ رقم ٧٦٠ ، وكتب على أحد وجهيها ـ غازان الخان المعظم ـ اما الوجه الآخر فيحمل ـ السلطان الاعظم علاء الدنيا والدين كيقباد بن فرامرز خلد الله دولته .

(٣) *Howorth* . 3 . P . 544 - 555 .

الامير في حفل تتويج الايلخان وذلك بحضوره مجلس القوريلتاي المنعقد لهذه المناسبة وقد ينيب عنه أحد افراد اسرته او كبار امرائه ان تعذر عليه الحضور .

يشير رشيد الدين في حديثه عن مراسيم تتويج اباقا « وانه بعد مضي اسبوع اصدر اباقا الأوامر الى كافة البلاد بحمل البشرى بجلوسه المبارك ، وأعاد السلاطين والملوك والامراء والحكام » .

وكان الايلخانات يهتمون بزيارة الامراء في هذه المناسبة ويحاسبونهم في حالة التقصير او التملص منها ، لانها في نظرهم جزء من الطاعة الواجبة .

وقد كان من الاسباب التي زادت من غضب اولجايتو على فخر الدين صاحب هرات انه لم يأت للتهنئة بمناسبة جلوسه » (١) .

اما النوع الثاني ، فهي الزيارة الرسمية التي تكون عادة في فترات معينة من الزمن ، وقد تكون سنوية او اكثر ، ولكنها زيارات لابد للأمير أن يؤديها يشير ابو الفداء « الى قيام الملك الصالح صاحب ماردين في سنة ٧١٥ هـ بزيارة خربندا ملك التتر وقدحمل معه التقادم على عادة آبائه فأحسن اليه خربندا ثم عاد الى ماردين» .

وقد يحل الايلخان الامير من الارتباط بهذه المواعيد المعينة للزيارة ويترك له تنفيذها في الوقت المناسب ، بعد ان يكون قد وثق من ولائه ، كما فعل غازان مع

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٢ ، ابرو - ذيل جامع التواريخ ص ١٩-٢٠ ، براون ج ٣ ص ٤٩ . وينقل

Howorth · 3 · P · 587 .

عن المؤرخ الجورجي ان ملك جورجيا قدم الى بلاط ابي سعيد لتهنئته حالما سمع باعتلائه العرش .

فخر الدين صاحب هرات الذي كان قد استحق هذه الثقة لغدره بالأمير نوروز (١) .

وكان الايلخانات يكافئون الامراء الذين يخلصون لهم تشجيعاً لهم وتقديراً لأعمالهم . من ذلك ما اشرنا اليه من قيام اباقا باطلاق حرية يوسفشاه صاحب لورستان الذي كان قد فرضت عليه الاقامة في البلاط ، ولم يكتف باعادته الى امارته فحسب بل اضاف اليه بلاداً اخرى مثل خوزستان وغيرها .

وماقام به غازان من مكافأة الملك المنصور صاحب ماردين الذي آزره في حملاته على الشام والذي يقول عنه رشيد الدين « انه كان مخلصاً لغازان الى حد كبير » فقد منحه التاج والمظلة الملكية ، وجعله من اقرانه وفوض اليه حكم ديار بكر وديار ربيعة بالاضافة الى بلاده » (٢) .

وفي نفس الوقت كان الايلخانات لايترددون في نزع ملكية الامارة من الامراء الذين يحسون منهم تواطؤاً مع العدو عقاباً لهم بالاضافة الى ماينزلونه بهم من عقاب. من ذلك ما عزم عليه اباقا بشأن امارة الروم ، فانه بعد ان تكشفت له خيانة الوزير البروانة وتواطؤه مع السلطان المملوكي في معركة الابلستين ، لم يكتف باعدامه فحسب ، بل قرر نقل السلطة في الامارة الى اسرة حاكمة جـــديدة ، فاستدعى صاحب ارمينيا وعرض عليه ذلك ، فاعتذر الملك الارميني عن قبولها لصعوبة حكم

---

(١) المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٧٩ .

Howorth . 3 . P. *414 - 415*.

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٣٢٦ ، تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ق ٣ ص ٢٧٧ في الحديث عن فخر الدولة ابو محمد عيسى الحاكم على الموصل .

المملكتين بالاضافة الى ما سينشأ عن ذلك من مشاكل (١) .

ومما يلاحظ اخيراً في هذه العلاقة ، ان منصب القضاء في الامارة بقي أمره مرتبطاً بالايلخان وليس بالأمير ، اذ ان قاضي القضاة الذي كانت اقامته عادة في بلاط الايلخان ، هو الذي يرسل القضاة الى اطراف البلاد ، اشار الى ذلك ابن فضل الله العمري في الحديث الذي نقله عن ابي الفضائل الطياري والذي استثنى فيه ولاية بغداد فقط التي كانت مستقلة بتنظيمها القضائي وهو ما أشرنا اليه في الحديث عن حكومة بغداد .

ومما يؤيد ذلك ان الصاحب شمس الدين الجويني وزير اباقا فوض قضاء ممالك الروم الى قطب الدين محمود الشيرازي الذي استعان به بعد ذلك تكودار في السفارة الى المماليك (٢) .

ويمكن القول على ضوء هذه الملاحظات والالتزامات التي عددتها آنفاً ان هؤلاء الامراء لم يكونوا يملكون شيئاً من السلطان الحقيقي في اماراتهم ، وان تصرفهم في الامارة لا يتعدى حدود ما يرسمه لهم الايلخان او امرائه ، على ان ذلك ليس دائماً ، لان طاعة هؤلاء الامراء كانت في اغلب الاحيان طاعة اكراه ، لذلك فانهم كثيراً ما حاولوا التخلص من هذه الطاعة والتربص بالايلخانية ، وخاصة في

---

(١) *Howorth . 3.P . 260 ' Macler . C . M . H . 4 . P . 175-176.*

(٢) مسالك الابصار ج ٢ ق ٢ الورقة ٢٨١ ، السلامي تاريخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار ص ٢١٩ - ٢٢٨ ، في الحديث عن الشيرازي ، العيني الورقة ٢٥٣ في وفيات سنة ٧١٠ .

فترات ضعفها وانقسام امرائها على انفسهم .

وكانت الدولة المملوكية في الشام ومصر هي القبلة التي يتجه اليها هؤلاء الامراء في محاولاتهم ، كما ان سلاطين هذه الدولة كانوا يجدون في مراسلات هؤلاء الامراء او اتصالاتهم بهم ، الوسيلة التي تساعدهم على معرفة خطط المغول واستعداداتهم العسكرية ضدهم .

يذكر الدكتور الشيال ان من اسباب تولية المظفر قطز السلطان المملوكي لعلاء الدين بن بدر الدين لولو مدينـة حلب ، ما أداه ابوه الدولة المملوكية من خدمات جليلة ، فقد دل سلاطينها على حركات المغول وعلى اسرار مشروعاتهم الحربية للتقدم نحو الشام (١) .

وكان اعتصام الملك الصالح اسماعيل في الموصل سنة ٦٥٩ / ٦٦٠ هـ اول محاولة لهؤلاء الامراء للتمرد على طاعة الايلخانية والتخلص من سيطرتهم عليها .

وأعقب ذلك محاولات عديدة اختلفت اساليبها بين استخدام الجيش في ثورة مسلحة ، او استخدام الرسل والرسائل للتدبير على المغول وكشف خباياهم .

من ذلك ما قام به سلجوقشاه صاحب فارس عندما أمر بقتل نائبي هولاكو الموجودين لديه واعلان الانفصال عن طاعته ، والاتصال بالسلطان المملوكي بيبرس لتنظيم التعاون العسكري معه ، لولا ان جيوش هولاكو لاحقته وقضت عليه سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م (٢) .

---

(١) الشيال جـ٢ ـ تاريخ مصر الاسلامية ـ العصران الايوبي والمملوكي ص١٧٠.

(٢) المقريزي جـ١ ق ٢ ص ٤٨١ ، ٥٠١ - ٥٠٢ ، ٥١٠ - ٥١٢ ، ٥٣٥ -

وقد أشرت الى ان قتل ركن الدين قلبيج ارسلان صاحب الروم سنة ٦٦٦ هـ كان لاتهامه من قبل وزيره البروانة بأنه يراسل صاحب مصر ليسلم اليه البلاد ، كما ان البروانة نفسه لقي حتفه بنفس التهمة من امراء المغول ايضاً .

واستغل افراسياب صاحب لورستان فترة الانقسامات التي وقعت بين امراء المغول في اواخر ايام ارغون ، فأعلن استقلاله في امارته ، ثم هاجم اصفهان وشيراز وقتل امراء المغول فيها وشحنتهم وضرب السكة باسمه ، وهزم عدة كتائب مغولية قدمت للقضاء عليه ، حتى تولى كيخاتو الذي وافق على اصدار العفو عنه ان عاد الى الطاعة (١) .

وكذلك كان صاحب ماردين على اتصال بالمماليك حتى أسقط في يده عندما التحق الأمير المملوكي قبجق أمير حلب والذي كان واسطة الاتصال ، التحق بالايلخان غازان ، فانه كما يقول ابن ايبك « لم يساهم بالحملة التي قادها غازان نحو الشام سنة ٦٩٩ هـ ، واكتفى عند مرور الجيوش بماردين بأن انزل اليهم الضيافة ، ولم ينزل بنفسه خوفاً ان يكون قبجق قد نبه عليه انه كاتب صاحب مصر » (٢) .

هذه هي صورة العلاقة التي كانت بين الايلخانية والامارات التابعة لها ، والتي

– ابن بهادر المؤمني – فتوح النصر – الورقة ١٠٦ في حوادث سنة ٦٦٢ هـ .

D'ohsson . 3 . P . *400 - 402* . *Howorth* . 3 . P . *203* .

(١) تاريخ كزيدة ص ٦١٨ ، البدليسي – الشرفنامة ص ٥١ – ٥٢ .

Houorth . 3 . P . *359* .

(٢) كنز الدرر ج ٩ ص ٩ – ١٠ ، انظر ايضاً ابن ابي الفضائل ج ٢ ص ٧٥٨ في الحديث عن وصول رسل صاحب ماردين الى مصر .

مر ذكر اسمائها خلال هذا الحديث .

على ان اغلب هذه الامارات لم يطل بها الأجل كثيراً ، لان السياسة المغولية كانت تهدف عندما سمحت ببقائها في اول الامر ، تهـــدف الى استغلال وجودها السياسي والعسكري للتخفيف عن المغول انفسهم ، وهو ما أشرت اليه سابقاً ، ولكنها بعد ان تحققت هذه الاغراض ، عملت على إذابة الشخصية الاستقلالية لهذه الامارات ، او اضعاف وجودها قدر الامكان وامتصاص ما يمكن امتصاصه منها عن طريق المصاهرة الى نسائهم وسحب رجالهم للاقامة في البلاط الايلخاني ، حتى اختفت بهذه الوسيلة عدة امارات منها فارس واذربيجان وكرمان وسلاجقة الروم .

كما استغلت في نفس الوقت بالنسبة لامارات اخرى قيام بعض الاحـــداث العسكرية فيها ، فعجلت بالقضاء عليها وضمتها الى حكمها المباشر كما هو الحال بالنسبة للموصل مثلا .

بينما اكتفت بالنسبة لامارات اخرى ، اقامة امراء من ابناء الاسرة جردتهم من كل مزايا الامرة كما هو الحال بالنسبة لامارات لورستان وهرات .

وتكفي الاشارة هنا الى امارة الموصل كمثال لهذه الامارات بحكم وقوعها في حدود العراق الطبيعية .

امارة الموصل :

تحتل امارة الموصل القسم الشمالي من العراق ؛ وكانت أراضيها في هذه الفترة موزعة بين أقاليم العراق العربي الذي تنتهي حدوده شمالا بمدينة الموصل . واقليم الجزيرة واقليم الجبال اوما يسمى بالعراق .

وكانت أملاكها تشمل مدينة الموصل والجزيرة العمرية وسنجار ونصيبين والبوازيج وعقرسوس ودارا واعمالها وقلاع العمادية وكولي وبلدانها (١) .

وقد أشرت الى انها دخلت في طاعة المغولي منذ سنة ٦٤٢ هـ بعد أن تعرضت لهجماتهم عدة مرات ، وبعد أن يئس صاحبها بدر الدين لولو من يقظة الخلافة وقيامها بعمل جدي لدفع خطرهم عن البلاد .

ولابد ان بدرالدين كان مكرهاً على هذا التعاون ، لانه لم يقطع صلته بالخلافة خلال هذه الفترة وحتى سقوط بغداد ، فان اليونيني يشير الى انه كان يكاتب الخليفة سراً بما يطلع عليه من أمر المغول ويحذره من التهاون في أمرهم ، وهو عندما أحس بأن الوزير لايوصل رسله الى الخليفة ، استعان بنائبه في اربل الشريف تاج الدين ابن الصلايا الذي أخذ ينقل بدوره الى الخليفة تحذيرات بدر الدين وتنبيهاته (٢) .

وبالرغم من قيامه بتنفيذ طلبات المغول وامدادهم بالسلاح والميرة والهدايا عند

---

(١) انظر في توضيح ذلك النهج السديد جـ ١ ص ٩٤ ـ ١٠٠ ، خصباك ـ احوال العراق الاقتصادية في عهد الايلخانيين المغول ص ١١٧ . مجلة كلية الآداب ـ بغداد م ٤ اغسطس ١٩٦١ .

الفيل ـ الجغرافية التاريخية للعراق ص ٥٩ ، المسالك والممالك للاصطخري ص ٥٢ ـ ٦١ في الحديث عن اقاليم الجزيرة والعراق ، الخطيب البغدادي جـ ١ ـ تاريخ بغداد ص ٢٤ في الحديث عن تعريب اسم العراق ، ابن الوردي ـ خريدة العجائب ص ٣٦ في الحديث عن ارض الجزيرة .

(٢) ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٨٧ .

زحفهم نحو بغداد ، إلا ان جيشه الذي أرسله بقيادة ابنه الصالح اسماعيل للمشاركة في فتح بغداد لم يصل إلا بعد سقوطها ، وبالتالي لم يساهم في حصارها الامر الذي أغضب هولاكو ودفعه الى محاسبة الصالح واتهام أبيه بالمخاتلة في الطاعة ، واستمرار موالاته للخليفة (١) .

ولكن بدر الدين استطاع ارضاء هولاكو عندما توجه لزيارته بعد عودته من بغداد مباشرة ، وحمل معه مفاتيح المدينة وما فيها من حلي وجواهر حتى أنه انتزع ما لدى نسائه وأولاده من الذهب فقبل هولاكو اعتذاره ورحم شيخوخته وأعاده الى موضعه في الموصل (٢) .

ومنذ عودته وحتى وفاته بعد سنة تقريباً ، لم يتخل عن سياسته القديمة في التدبير عليهم من جهة والتخفيف من آثارهم على الناس من جهة اخرى .

فقد استمر على سياسة التظاهر بالموالاة لهم وتلبية ما يأمرونه به مما لايستطيع معه التردد في تنفيذه .

فقد دعي مثلا للمشاركة في فتح اربل التي كانت قد عصت عليهم ، فتعهد لهم

(١) أشار الى ذلك ابن العبري الذي نقل من حديث هولاكو الى الصالح قوله « انتم بعد في شك من أمرنا ، ومطلتم نفوسكم يوماً بعد يوم وقدمتم رجلا وأخرتم اخرى لتنظروا من الظافر بصاحبه ، فلو انتصر الخليفة وخذلنا لكان مجيئكم اليه لا الينا .. ص ٢٧٦ . انظر ايضاً ابن كثير ج ١٣ ص ٢٠٠ .

(٢) ابن العبري ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٥٥ ، ابن دقماق نزهة الانام - الورقة ١٠٩ - ١١٠ في حوادث سنة ٦٥٦ ه .

Howorth . 3 . P . 139 .

بها وتولى أمرها بنفسه حتى استسلمت له بالحيلة والتدبير ، ويظهر انها أضيفت الى مسؤوليته بعد ذلك مقابل ضمانها بمبلغ سبعين الف دينار يدفعها لهولاكو كل سنة(١).

ودعي كذلك للمشاركة في حملة الشام حيث انيطت بجيشه الذي كان يقوده ابنه الصالح مسؤولية الاستيلاء على مدينة آمد في الوقت الذي كان فيه خبراؤه في استخدام المنجنيق يساهمون مع الجيش المغولي في حصار ميافارقين (٢) .

وفي نفس هذا الوقت كان بدر الدين يوالي حكام الشام ومصر بأسرار المغول وحركاتهم ومشاريعهم ، وقد تكون هذه المعلومات التي أمدهم بها قد ساعدت المماليك على الانتصار في عين جالوت ، الأمر الذي دفع المظفر قطز السلطان المملوكي الى الاشادة بذلك ، ومكافأة بدر الدين في شخص ابنه علاء الدين الذي كان قد لجأ اليهم فاختاره لولاية حلب بعد طرد المغول من الشام (٣) .

وتوفي بدر الدين في يوم الجمعة ٣ شعبان ٦٥٧ هـ بعد ان قارب المائة سنة من العمر ، وبعد أن تولى حكم الموصل نصف قرن من الزمن ، فتوزع ابناؤه الامارة من بعـــده ، فخلفه على الموصل ابنه الكبير الصالح اسماعيل بينما تولى ابنه الثاني علاء الدين على حكم سنجار ، وسيف الدين اسحاق الحكم في الجزيرة العمرية ، وأقر

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ ، الصائغ ـ تاريخ الموصل ج ١ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ نقلاً عن التاريخ السرياني لابن العبري .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٣٢٠ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٥٥ ـ ٥٦ . برايس ج ٢ ص ٥٦٣ ـ ٥٦٤ .

(٣) الشيال ج ٢ ـ تاريخ مصر الاسلامية ـ ص ١٧٠ .

هولاكو هذه التقسيمات (١) .

وسار الأبناء على سياسة ابيهم فى مهادنة المغول وموالاتهم ، ولكنهم لم يقطعوا صلتهم بالقوى الاسلامية الاخرى التي لا زالت بمنأى عن سيطرتهم وخاصة المماليك فى مصر .

ويظهر ان علاء الدين على صاحب سنجار لم يستطع تمثيل دور المراوغة مع المغول فيظهر الوفاء ويبطن الغدر ، ففضل الالتحاق بالمماليك مباشرة .

ومن المحتمل ان ذلك تم بالاتفاق مع اخوته ، لأننا لا نجد أي رد فعل لدى المغول لهروبه هذا ، حتى كأنهم لم يحسوا به .

ويحدد ابن العبري تاريخ التحاق علاء الدين بالمماليك سنة ٦٥٩هـ (٢) . ولكن الوقائع التاريخية لا تتفق مع هذا التحديد ، اذ انه تولى ولاية حلب بأمر من المظفر قطز بعد واقعة عين جالوت التي حدثت في الثلث الثالث من رمضان ٦٥٨ هـ .

فهو اذن قد وصل خلال هذه الفترة من سنة ٦٥٨ هـ .

والذي أراه بالرغم من عدم وجود ما يشير الى مساهمته فى المعركة المذكورة ، بأن أنسب وقت لالتحاقه بقطز كان بين تاريخ عودة هولاكو من حلب الى بلاده والمصادف في ربيع الثاني ٦٥٨ هـ وحتى وقوع المعركة المذكورة ، اذ ان قطز لم يقم

---

(١) خواندمير م ٣ ج ١ ص ٥٧ ، تاريخ الموصل ج ١ ص ٢٣٦ ، العزاوي ج ١ ص ٢٢٧ وقد اعتمدت في تحديد الوفاة على ما نقله العزاوي عن ابن خلكان في ترجمته لابن المشطوب .

(٢) ابن العبري ص ٢٨٢ .

ببلاد الشام بعد المعركة إلا أياماً معدودات لم تتجاوز الشهر ، عاد بعدها الى حيث لقي مصرعه في طريق عودته الى القاهرة في اول ذي القعدة تقريباً .

وتعززت ثقة الصالح اسماعيل بنفسه بعد انتصار المسلمين في عين جالوت التي سرت آثارها ليس على الامراء في الشام فحسب ، بل تعدتها حتى الى الامراء الذين كانوا قد خضعوا للذل المغولي مثل سلجوقشاه صاحب فارس بالاضافة الى الصالح اسماعيل الذي اصبح بعدها اكثر جرأة في التدبير على المغول واضطهاد المشايعين لهم في بلده وخاصة النصارى ، حتى انه فقد الحذر فيما يجب بقاؤه مستوراً من التخطيط والتدبير .

وكانت مراسلاته مستمرة مع اخيه علاء الدين الذي كان قد تولى امرة حلب والذي اتصل بخدمة السلطان المملوكي الجديد بيبرس ، وأخذ يدعو أخاه الصالح في احدى هذه الرسائل الى الالتحاق به والتعاون مع المماليك لضمان مستقبل امارته .

وقد أسقط بيد الصالح اسماعيل عندما وقعت احدى هذه الرسائل بيد احد كبار امرائه المدعو محمد بن يونس الباعشيقي (١) فأخذها وهرب بها نحو المغول الأمر الذي دفع الصالح الى التعجيل بالخروج الى الشام قبل انكشاف امره لدى المغول وتوجه جيوشهم نحوه .

---

(١) وهو أحد أمراء ابيه ، من قرية بعشيقة المسيحية شرقي الموصل . والذي أعتقده على ضوء ما أورده ابن العبري في ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ، ان الباعشيقي هـذا هو من المسيحيين الذين تحولوا الى الاسلام في زمن بدر الدين طمعاً بالامتيازات وتخلصاً من المضايقات .

واضطربت أحوال الموصل بعد خروجه ، فقد سيطرت عليها زوجة الصالح المسماة تركان الخوارزمية (١) بالتعاون مع الشحنة في انتظار وصول الجيش المغولي. لذلك فانها أغلقت الأبواب بوجه الامراء الذين انفصلوا عن زوجها الصالح وقرروا العودة الى الموصل بزعامة الامير علم الدين سنجر الذي اضطر الى محاصرة المدينة ثم الاستيلاء عليها بالتعاون مع بعض السكان من المسلمين ، حيث اعقب ذلك وقوع مذبحة في النصارى من سكانها .

ولاقى سكان القرى المسيحية المجاورة للموصل في نفس الوقت الشيء الكثير من اعتداءات القبائل الكردية التي كانت قد اتفقت مع الصالح على ذلك لولا خروجه الاضطراري (٢) .

ويشير المقريزي الى وصول الصالح اسماعيل وأخيه سيف الدين اسحاق الى الظاهر بيبرس الذي اكرمهم وقبل شفاعتهم في اخيهم الثالث علاء الدين علي الذي كان قد ألقي في غياهب الاعتقال بسبب اساءته السيرة مع الامراء عندما كان في ولاية حلب ، فأفرج عنه وأعيد اليه اعتباره (٣) .

---

(١) تركان الخوارزمية ابنة جلال الدين التي كانت قد سقطت في أسر المغول ، فزوجها هولاكو من الصالح اسماعيل عندما التحق به في زمن والده .

(٢) انظر ابن العبري ص ٢٨٢ - ٢٨٣ فهو المرجع الرئيسي وخاصة الاصل السرياني - لجميع حوادث هذه الفترة بحكم وجوده في الموصل او بقربها ، وبحكم مكانته لدى المغول ، انظر ايضاً ما نقله عنه تاريخ الموصل ج ١ ص ٢٣٦ .

(٣) المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٤٦٠ - ٤٦٢ ، تاريخ الانبياء وملوك الاسلام ، مجهول المؤلف - الورقة ١١٢ في حوادث سنة ٦٥٩ هـ .

ولعب أحد هؤلاء الاخوة الثلاثة دوراً سيئاً في إفساد نية السلطان المملوكي نحو اعادة الخلافة وتجهيز الجيش مع الخليفة العباسي الجديد الزاحف نحو بغداد ، إذ ان أحدهم خلا بالسلطان وأشار عليه أن لا يفعل « فان الخليفة اذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر ، فتردد السلطان لذلك ولم يرسل مع الخليفة سوى ثلثمائة فارس بعد ان كان جهز له عشرة آلاف فارس » (١) .

ورافق الصالح واخوته الخليفة في طريق زحفه نحو بغداد حتى وصل الرحبة فانفصلوا عنه متوجهين نحو الموصل بالرغم من إلحاح الخليفة عليهم بالسير معه نحو بغداد .

وكانت الموصل عند وصوله اليها تقاسي من حصار الجيش المغولي الذي كان يقوده القائد المغولي سمراغو والملك صدر الدين التبريزي والذي اخرج عن المدينة حتى دخلها الصالح وأتباعه ثم أطبق عليها ثانية . ودام الحصار اشهراً معدودات قلت فيها الميرة لدى المحصورين ، وفشلت النجدة التي قادها شمس الدين البرلو من حلب لفك الحصار عنها .

ولقي الصالح بعد ذلك مصرعه على أيدي المغول الذين نكثوا الوعود التي قطعوها له بضمان حياته ، ثم عذبوه عذاباً شديداً في رمضان ٦٦٠ هـ .

اما اخوته ، فيظهر انهم كانوا قد توجهوا الى بلادهم ولم يدخلوا الموصل ثم التحقوا بعد ذلك بالشام فراراً من الوقوع بأيدي المغول ونجاة بأنفسهم من العذاب

---

(١) المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٤٦٢ .

واستقروا أخيراً في رفقة السلطان الظاهر بيبرس في مصر (١) .

وانقرضت بهذه النهاية أسرة بدر الدين لولو ، وألحقت الموصل بالحكم المغولي المباشر حيث سلمها المغول الى شمس الدين محمد بن يونس الباعشيقي مكافأة له على موالاته لهم وغدره بصاحبه (٢) .

---

(١) ينقل مصطفى جواد في تحقيقه لكتاب ابن الفوطي - تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ق ١ حاشية ص ٣٨ - ٣٩ في ترجمة عز الدين ابو المظفر ايبك بن عبدالله البدري ، ينقل عن مجلة المشرق م ٥٠ ج ٢ ص ١٤٣ سنة ١٩٥٦ في حوادث سنة ٦٦١ هـ ان سيف الدين اسحاق أرسل أحد مماليكه من مصر الى مملوكه جمال الدين جوليغ الذي كان يتولى الجزيرة ، يطلب منه ارسال بعض الدفائن في مكان عينها له ففعل .

(٢) ابن العبري ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، الحوادث الجامعة ص ٣٤٦ - ٣٤٨ ، رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٣٢٧ - ٣٣١ ، اليونيني ج ١ ص ٤٩٢ - ٤٩٥ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٤٧٥ ، تاريخ الموصل ج ١ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

الباب الرابع

السياسة الخارجية :

علاقة الايلخانية مع المماليك

علاقة الايلخانية مع اوربا ـ البابوات والملوك

علاقة الايلخانية مع المغول :

الخاقان ، مغول القبجاق ، مغول ما وراء النهر .

الباب الرابع

السياسة الخارجية

لم يمر قيام الايلخانية في هذه المنطقة من البلاد الاسلامية دون حدوث رد فعل في المناطق المجاورة لها ، فبالاضافة الى المشاكل الداخلية ، واحداث العصيان والتمرد التي قام بها ابناء البلاد لازاحة هذا الكيان الغريب من بينهم ، فان الكيانات السياسية في البلاد المجاورة احست بخطره عليها وتصدت له بدورها وسعت للقضاء عليه .

وتمثل ذلك في موقف المماليك (١) خاصة من ناحية الغرب ، ومغول القبجاق من ناحية الشمال .

---

(١) قامت دولة المماليك في مصر سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م على اثر مقتل السلطان تورانشاه بن الصالح ايوب واتفاق مماليك ابيه على اختيار زوجة الصالح المسماة شجرة الدر لحكم البلاد ، ولكنهم أمام استنكار المسلمين لحكم النساء اختاروا احد زعمائهم عز الدين ايبك الذي تزوج منها وتولى السلطنة نيابة عنها ، وسميت دولتهم بالمماليك البحرية ، لأنهم كانوا مماليك للأيوبيين ، ولأن الصالح ايوب كان قد اسكنهم في قلعة بناها في جزيرة الروضة على بحر النيل .

واختلفت الاسباب التي دفعت هاتين الدولتين لاتخاذ هذا الموقف ، ولكننا نستطيع القول انه بالرغم من ان الخلاف الديني كان السبب الظاهري لهذا الصراع الذي قام في المنطقة بين هذين المعسكرين ، إلا ان السبب الحقيقي كان اختلاف المصالح السياسية بينهما ، يدل على ذلك ان الاستقرار لم يسد بينهما عند زوال السبب الظاهري واتخاذ الايلخانية الاسلام ديانة رسمية لحكمهم ، فقد استمر الصراع بينهم قائماً ان لم يكن قد ازدادت حدته وتوسعت تأثيراته .

ولجأ الايلخانيون حفاظاً على وجودهم الى الاتصال والتعاون مع البلاد الاخرى التي اتفقت مصالحها مع اهدافهم وخاصة مع مسيحيي اوربا واتباعهم من بقايا الامارات الصليبية التي كانت لا زالت قائمة في هذه المنطقة من البلاد الاسلامية .

على ان الخطر الذي هدد الايلخانيين لم يكن مقصوراً على الدولتين السالفتين وانما تعرضوا ايضاً لحسد وأطماع ابناء عمومتهم مغول ما وراء النهر الذين ما انفكوا يواصلونهم بالاعتداءات لمحاولة اقتطاع بعض اراضيهم الشرقية .

وبالاضافة الى ذلك فقد كان للايلخانيين علاقة مع الرئيس المغولي الأعلى وهو الخاقان الذي كانت له السيادة الاسمية على جميع المغول ، وتطورت هذه العلاقة عندما امتنع الايلخانيون عن الاعتراف بسيادته بعد اعتناقهم الاسلام فى زمن غازان .

— على ان الشيال ـ تاريخ مصر الاسلامية ج ٢ ص ١٤٥ - ١٤٧ يعرض رأياً آخراً لتسميتهم بالبحرية ، انهم جلبوا من وراء البحار .

وكانت دولة المماليك في بداية نشأتها عندما اصطدمت بالمغول ، لذلك امتازت سياستها معهم بالقوة والحيوية .

ولدراسة هـذه العلاقات المتشابكة ، وتتبع اساليب الصراع الذي دار بين اطرافها ، رأيت دراسة كل منها على انفراد لتكون الصورة اوضح والبحث أتم .

اولا : علاقة الايلخانية مع المماليك :

كان المماليك يمثلون العدو الاكبر لقيام الحكم الايلخاني في هـــذه المنطقة الاسلامية ، وبالرغم من حتمية الصراع الذي كان لابد من وقوعه بين هاتين الدولتين الفتيتين ، إلا ان الايلخانيين هم الذين بدأوا به نتيجة لاستمرارهم في تنفيذ سياستهم التي كانت قد خططت لهم عند ارسال حملة هولاكو ، واستعجال هولاكو بتحقيقها عندما ارسل رسله الى القاهرة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م يطالب سلطان المماليك بتقديم الطاعة له والاعتراف بسيادته عليه ، وما أدى اليه من الزحف المغولي الذي كان سببه كما يقول خواندمير (١) « وصول ايلچية ورسل » هولاكو من ديار الشام تعلن مطاوعتهم وخضوعهم ، ولكن بقي بعض امرائهم متعلقين بحكام مصر فقرر هولاكو السيطرة على هذه الولايات .

ونجح هولاكو في الوصول الى اسوار حلب ، بعد ان كان قد لجأ الى اسلوب المغول التقليدي في استغلال سكان البلاد المفتوحة في حروبهم ، فقد استغل امراء البلاد الذين دخلوا في طاعته ليمتحن ولاءهم ، وأمرهم بسوق جيوشهم لمعاونته ، من ذلك مشاركة صاحب الموصل الذي أناب عنه ابنه الصالح اسماعيل ، وصاحب الروم الذي شارك في حصار حلب (٢) .

---

(١) حبيب السير م ٣ ج ١ ص ٥٥ .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٣٠٥-٣٠٦ ، ابوشامة - ذيل الروضتين ص٢٠١ ، ابن دقماق - نزهة الانام الورقة ١١٨ في حوادث سنة ٦٥٧ هـ .

ولقيت حلب بعد سقوطها بيد هولاكو في اول صفر ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م من الخراب والتدمير ما لقيته بغداد ، الأمر الذي افزع سكان البلاد وأوقع الرعب فى نفوسهم ، فتفرقت الجيوش التي كان الناصر يوسف زعيم الاسرة الايوبية فى هذه الفترة ، قد جمعها لمواجهة الزحف المغولي ، ودانت مدن الشام بالطاعة ولما يجاوز هولاكو معسكره في حلب ، فقد وفد اليه بعض امراء الايوبيين مثل الاشرف موسى صاحب حمص ، وأعيان حماة وبعلبك ودمشق يلتمسون آمانة لبلادهم وانفسهم فكان يقبل طاعتهم ويرسل معهم شحنة ليمثله في بلادهم (١) .

ووفد اليه كذلك امراء الغرب من بني بحتر الذين يشرفون على بلاد الساحل ، يلتمسون اقراره على ما بأيديهم من البلاد الجبلية المطلة على الساحل والمدونة في المنشور الناصري الممنوح لهم من الحاكم الأيوبي (٢) .

ونشأ التهديد المغولي للمماليك أولا عندما تجاوزت حدودها معاً حيث امتد النفوذ المغولي عملياً الى غزة ، وان كان هولاكو قد مد في هذه الحدود حتى اوصلها العريش كما نص على ذلك الفرمان « او الآمر » الذي اعطاه للقاضي محي الدين بن

---

(١) ذيل الروضتين ص ٢٠٣ ، ٢٠٦ . ابن شداد ـ الاعلاق الخطيرة ق ٢ ص ٥١ ـ ٥٢ ، اليونيني جـ ١ ص ٣٥٢ ، ابن الشحنة ـ ابو الوليد ـ روضة المناظر ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ . يوسف الدبس ـ تاريخ سورية م ١ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

(٢) ابن بحتر ـ تاريخ بيروت وأخبار الامراء البحتريين في الغرب ص ٥٦-٥٧ ابن شداد ـ الاعلاق الخطيرة ق ٢ ص ١٥٩ وهو يشير الى تعاون البحتريين مع المغول حتي ـ لبنان في التاريخ ص ٤٠٤ .

الزكي والذي جعل فيه سلطانه يمتد من قنسرين حتى العريش (١) .

ولكن التهديد الحقيقي جاء عندما ارسل هولاكو قبيل عودته عن بلاد الشام(٢) في جمادى الآخرة (٦٥٨ ه / ١٢٦٠ م) رسله الى سلطان المماليك مظفرالدين قطز(٣) يذكره بما فتح الله على بيت جنكيز من نصر ، وما آل اليه معاندوه ، ويدعوه الى أخذ العبرة من ذلك والاعتراف بطاعته وحمل الفدية اليه وقبول شحنة في بلاده (٤).

وكانت معركة عين جالوت التي وقعت في منتصف رمضان ٦٥٨ ه / ١٢٦٠ م . اول صفعة اجاب بها المسلمون على غرور المغول ، فقد زحف المماليك بعد أن وحدوا صفوفهم بقيادة قطز ، وتصدوا لهم في وادي بيسان عند عين جالوت واوقعوا بهم هزيمة منكرة ، قتل فيها قائدهم كيتوبوقا « كتبغا » وأبيد اكثر الذين معهم منهم بينما فر الناجون من ميدان المعركة لا يلوون على شيء ، تاركين بلاد الشام حتى

---

(١) ذيل الروضتين ص ٢٠٥ ، الاعلاق الخطيرة ق ٢ ص ٢٦٦ . السبكي - طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٧ .

(٢) اضطر هولاكو الى العودة عن الشام في جمادى الآخرة ٦٥٨ ه / ١٢٦٠ م بسبب وفاة أخيه منكوخان وتنازع اخوته على العرش . وقد استخلف على الشام قائده كيتوبوقا ، وعين بيدرا لنيابة الشام وفخر الدين لنيابة حلب .

(٣) كان قطز وصياً على السلطان القاصر علي بن المعز ايبك ، ولكنه عندما تهددت البلاد ، استشار زعماءها في ضرورة وجود سلطان قوي ، فتقرر خلعه في سنة ٦٥٧ ه ومبايعة قطز بالسلطنة .

(٤) انظر ملحق الرسائل : رسالة هولاكو الى قطز ، انظر ايضاً سرور دولة الظاهر بيبرس ص ٣٩ . عاشور - العصر المماليكي ص ٣١ .

عبروا الفرات وجعلوه سداً بينهم وبين مطارديهم .

وأصبحت عين جالوت بعد ذلك نقطة تحول في مجرى الأحداث السياسية في هذا الجزء الهام من العالم ، فقد تغيرت موازين القوى التي كانت تسود المنطقة ، وتغيرت نظرة الناس ايضاً الى هذه القوى .

فقد ترتب على هذه المعركة تأثيرات مختلفة شملت كل الاطراف المتنازعة ، ومن يحتمي وراءها او يتعلق بها ، ويعنينا منها انها كانت البداية للصراع المستمر السياسي والعسكري بين المغول من جهة ، والمماليك من جهة اخرى .

فبالنسبة للمغول كانت نتائجها قاسية عليهم ، اذ كان فيها القضاء التام على كل أمل بتحقيق اهدافهم السياسية التي خطط لها من قبل للوصول الى مصر ، وتحولت سياستهم بعدها الى الدفاع فقط بعد ان كانت هجومية ، وأصبح كل همهم الاحتفاظ بنهر الفرات كحد طبيعي لحدودهم مع المماليك . ولذلك يمكن القول ان كل محاولاتهم العسكرية بعدها لاجتياز الفرات ، كان الغرض منها التأديب والارهاب وليس الاستيلاء والاستيطان .

اما اهميتها بالنسبة للمماليك فكانت عظيمة جداً ، اذ انها اعطت لكيانهم السياسي قبل كل شيء السند الشرعي لحكم مصر والبلاد الاسلامية التي حرروها من الاستيلاء المغولي ، بعد أن كان يشوب حكمهم شيء من الانكار والانفة بحكم غموض اصولهم وانحطاط مكانتهم ، وجاء نجاحهم بعد ذلك في إحياء الخلافة العباسية ونقلها الى القاهرة مؤكداً لهذه الشرعية باعتبارهم حماة الاسلام ومنفذي ارادة الخليفة .

ومن هذه الأهمية ايضاً في الميدان السياسي ، تحقيق الوحدة بين مصر والشام

بزعامتهم وامتداد حدودهم من جهة الشمال الشرقي الى نهر الفرات الذي اصبح يحجزهم عن المغول ، الأمر الذي مكنهم بعدها من تحقيق كثير من الانتصارات السياسية والعسكرية على المغول وحلفائهم من الامارات المسيحية في شمال الشام والامارات الصليبية على الساحل الشامي (١) .

وهناك نتائج اخرى لمعركة عين جالوت ، اهمها (٢) تحطيم الاسطورة القديمة التي اشاعها الخوف والتخاذل بين المسلمين ، والتي تؤكد ان المغول قوة لا تقهر ، وبالتالي يجب الاستسلام لطاعتهم والرضى بحكمهم وان ذلك قضاء من الله قدره على الناس (٣) ، فقد أنعشت الهزيمة معنويات المسلمين الذين كانوا يرزحون تحت حكمهم

---

(١) ولكنه يؤخذ على المماليك في نفس الوقت ان الرغبة في السلطان والاستئثار به دفعهم الى التماهل المتعمد ، وترك الجدية في محاولة اعادة الخلافة الى بغداد ، وبالرغم من انه لم يكن مضموناً نجاحهم في تحرير بغداد لو أخلصوا النية في عملهم ، إلا انهم مع ذلك بخلوا على الخليفة المستنصر بالله ابي القاسم الاسود ان يزوده بالعدد الكافي من الجند ان لم يكن الواجب يحتم على السلطان نفسه قيادة الحملة .

(٢) من هذه النتائج ايضاً تأثيرها على الحضارة العربية الاسلامية التي نكبت في بغداد وقامت القاهرة بالحفاظ على بقية تراثها ، فلو نجح المغول في عين جالوت لأصاب الشام والقاهرة ما أصاب بغـــداد من الضياع ، ولفقدنا كل أثر لتراثنا الحضاري ، ولامتد الظلام الفكري الذي خيم على العراق فشمل الشام والقاهرة وربما واصل سيره حتى المحيط .

(٣) عبر ابو الفداء ج ٣ ص ٢١٤ عن تأثير هذه الاسطورة بقوله : « فان القلوب كانت قد يئست من النصر على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام ولانهم ما قصدوا اقليما إلا فتحوه ، ولا عسكراً إلا هزموه » .

فاسترجعوا ثقتهم بأنفسهم واستبشروا خيراً بهذا النصر ، وتشجعوا على تحدي سلطات المغول والتمرد عليهم ، وتجلى ذلك بالنسبة لأهل الشام مثلا الذين ثاروا على حكامهم حالما وصلتهم انباء الهزيمة فشاركوا في عرقلة هروب المغول وابادة الكثير منهم ، فضلا عن مشاركتهم في مطاردة الآخرين .

وكذلك تجلى أثرها على المسلمين الذين كانوا تحت النير المغولي ، فان امراءهم عملوا على الخلاص من سيطرتهم فثاروا عليهم وسعوا للاتصال بالمماليك والاستعانة بهم لانجاح هذه الثورات ، مثال ذلك ما حدث في الموصل وشيراز (١) .

ونخلص من ذلك الى ان عين جالوت وضعت الايلخانيين وجهاً لوجه أمام عدو فتي جديد ، يختلف في ذكائه وحيويته ونظرته للأمور عما ألفوه من امراء المسلمين الذين اكل الهرم والتواكل حياتهم ، وأصبح لزاماً على المغول أن يعيدوا تقييم قوة خصمهم ويحسبوا لها حسابها ، ولكنه ، ومن حسن حظ المسلمين ، وسوء حظ المغول ، انهم كانوا أعجز عن ذلك ، اذ ان الخلاف كان قد ذر قرنه بينهم فمزق وحدتهم وأضعف قدرتهم ، يشير الى ذلك رشيد الدين في حديثه عن محاولة هولاكو الانتقام لهذه المعركة بقوله (٢) : « ولكن لم تكن الظروف في ذلك الوقت تسمح بذلك بسبب وفاة منكوقا آن وبسبب الخلاف الذي ظهر بينه وبين اقاربه ، ولهذا عدل عن الفكرة » .

---

(١) استفدت عند مناقشة هذه النتائج من كثير من الملاحظات التي أشار اليها الشيال رحمه الله في مؤلفه ـ تاريخ مصر الاسلامية جـ ٢ ص ١٦٢ - ١٧٠ ، وكذلك ملاحظات سعيد عاشور ـ العصر المماليكي ص ٣٢ - ٣٨ .

(٢) جامع التواريخ م ٢ جـ ١ ص ٣١٧ .

وتنوعت اساليب المواجهة بين المغول والمماليك واختلفت حدة الصراع الذي قام بينهما قوة او ضعفاً ، تبعاً للظروف المحيطة بكل ايلخان او سلطان ، وكانت تتوفر في الحدود الطويلة بينهما دائماً اسباب الخلاف وعوامل اذكاء نار الحرب حتى في الفترات التي كان فيها دعاة السلام يتنقلون بين العاصمتين يحملون معهم امنيات السلام.

وعلى ضوء تطورات الاحداث التي نسجت العلاقة بين المماليك والمغول يمكننا القول ان هناك نوعين من الأساليب السياسية اتبعتا جنباً الى جنب من قبل الطرفين خلال هذا الصراع ، وهما الاسلوب السلمي ، والاسلوب العسكري .

الاسلوب السلمي في العلاقات : وأقصد به كل الوسائل والحيل وانواع الخدع التي لجأ اليها الفريقان لالحاق الضرر بعضهم ببعض .

ونلمح من خلال هذا الصراع ان كفة المماليك كانت أرجح فيه ، ذلك ان الحكم الايلخاني الذي ساد في العراق خاصة ، لم يكن قائماً على أساس من رضى الناس الذين كانت مشاعرهم متعلقة بالحكم المملوكي الذي كان يمثل فى نظرهم المدافع عن الاسلام أمام وثنية المغول ، لذلك كان اعوان المماليك او رسلهم يجدون الحماية والعون من أبناء البلاد الذين أصبحوا في موقفهم هذا يمثلون اشبه ما نسميه اليوم بالطابور الخامس ، وعلى العكس من ذلك لا نجد هذه الميزات متوفرة للمغول فى بلاد الشام ومصر إلا نادراً .

ولم تكن العلاقات السلمية هذه مقتصرة على اسلوب واحد في العمل ، وانما كانت تتشبث بكل وسيلة تساعدها على تحقيق اهداف النصر ، ولذلك فاننا نستطيع تميز عدة وسائل او اساليب مثلت هذا الجانب من العلاقات من ذلك :ـ

محاولة الاتصال بأمراء البلاد وإغرائهم بالتعاون معهم ، وفي هذا المجال كانت مهمة المغول صعبة جداً ، لان اعمالهم الوحشية في الشام على قصر احتلالهم لها لم تترك لهم محبة في قلوب اهلها ، لكي يستطيعوا استغلالها فيما بعد ، لذلك تعـذر عليهم الحصول على اعوان او عملاء لهم فيها ، فاضطروا الى طرق ابواب عملائهم القدامى من الامراء الأيوبيين الذين فقدوا الكثير من امتيازاتهم في ظل الحكم المملوكي الجديد الذي تفضل عليهم بما ابقاه في ايديهم من سلطان على ان يخلصوا الطاعة والولاء له .

وفشلت مساعي هولاكو في اغراء الملك المنصور صاحب حماة للتعاون معه عندما أرسل له بعض الرسـل سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م يحملون اليه فرماناً منه ، فقام المنصور بارسال القصاد والفرمان الذي حملوه الى السلطان الظاهر بيبرس (١) ليبرئ نفسه من فكرة مواطأة العدو ويثبت اخلاصه للسلطان ، وبذلك قطع الطريق على هولاكو (٢) .

ولكن شباك هولاكو لم تفشل مع الملك المغيث صاحب الـكرك الذي رضي بالعمالة له ، فأخذ يراسله ويكشف له احوال البلاد ، ولم يكتف بذلك بل عمد الى مراسلة بعض امراء الجيش المملوكي من الشهرزورية (٣) وافسادهم على السلطان حتى

(١) كان الظاهر بيبرس قدتولى السلطنة بعد غدره بقطز وقتله في طريق عودته الى القاهرة في أول ذي القعدة ٦٥٨ .

(٢) الدواداري م ٩ زبدة الفكرة الورقة ٦٢ .

(٣) الشهرزورية نسبة الى سهل شهرزور في منطقة الجبال الشمالية الشرقية من العراق ، والامراء الشهرزورية هم امراء الأكراد الذين التحقوا بالسلطان صلاح الدين

انكشف أمره واتي جزاءه سنة ٦٦١ هـ فأسقط في يد هولاكو وفشلت خططه (١) .

ولم ييأس هولاكو من العثور على اعوان آخرين او حتى ايهام السلطان المملوكي بوجودهم لكي يربك سياسة خصمه ويوقع الفزع في صفوفه ، فقد جرب الاتصال بالأمير فارس الدين اقطاي الأتابك الذي كان من اعوان قطز والذي تولى نيابته على القاهرة عند خروجه لقتال المغول ، ولو نجح هولاكو بالاتصال بهذا الأمير الكبير وإغرائه بالتعاون معه ، لكان قد نجح فعلا في شق صفوف المماليك، ولكن وقوع الرسل الذين حملوا فرمان هولاكو اليه ، بيد السلطان أفسد على هولاكو خططه وقضى على آماله ، كما أن السلطان « تنبه الى حقيقة اغراض هولاكو وعلم أن ذلك مكيدة منه » (٢) .

واذا كان هولاكو قد فشل في الحصول على ما يبتغي من عملاء ، فان ابنه اباقا كان أقدر منه في ذلك حيث توصل الى اغراء عدد غير قليل من أمراء السلطان تكتمت المراجع العربية في ذكر اسمائهم او حتى الاشارة اليهم ، ولابد أن اباقا استفاد من مراسلاته مع هؤلاء الامراء الذين قد يكون نظم معهم عملا للاطاحة بالسلطان او تحقيق منافع سياسية او عسكرية من جراء اتصالهم به ، ولكن يقظة السلطان وسلامة جبهته الداخلية فوتت على الايلخان استغلالهم في مزيد من الاعمال الاخرى

ـ الايوبي مؤسس الاسرة ومحرر القدس في وقعة حطين وتوارث هؤلاء الامراء مناصبهم مع ابنائه واحفاده حتى قيام الحكم المملوكي فتعاونوا معه .

(١) ابن شداد الاعلاق الخطيرة ق ٢ ص ٧٧ - ٧٨ ، اليونيني جـ ١ ص ٥٣١ - ٥٣٢ ، المقريزي جـ ١ ق ٢ ص ٤٨٢ .

(٢) العيني - عقد الجمان الورقة ٥١١ في حوادث سنة ٦٦٢ هـ .

فقد قبض عليهم وحقق معهم سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م ثم تقرر اعـــدام اثني عشر أميراً منهم (١) .

ورحب اباقا في أيامـه الأخيرة بمراسلة الامير سنقر الاشقر (٢) نائب الشام له والذي دعاه الى التعاون معه على السلطان قلاون (٣) ، وعزز من هذه المراسلة ، مراسلة الأمير عيسى بن مهنا امير العرب الذي وعـده بالانحياز اليه عند وصوله ومساعدته في حملته .

وتصور اباقا ان الفرصة قد واتته للاستيلاء على بلاد الشام بفضل هذا الانشقاق الذي حصل في صفوف المماليك ووقوف بعضهم الى جانبه ، فأسرع يجهز الجيوش ويخطط لزحفها بما يضمن له تحقيق النصر ، ولكن السلطان المملوكي قلاون استطاع بحسن تصرفه ومرونة سياسته ، التأثير على الامير المتمرد عليه وإثارة غيرته الدينية على الاسلام « من التعرض للهلاك بسبب هذا الانقسام » فاستطاع بذلك اعادة سنقر الى نوع من الطاعة بحيث جعله لا ينقلب على المغول فحسب بل ويقف في صفوف

---

(١) D'ohsson . 3 . P . 471 . Howorth . 3 . P . 247 .

(٢) الامير سنقر الاشقر أحد امراء المماليك وكان السلطان قلاون خلال وصايته على السلطان العادل سلامش بن الظاهر بيبرس قد ولاه النيابة على الشام ، فاستغل قيام قلاون بخلع العادل وتولى السلطنة فامتنع عن الاعتراف بسلطنته وأعلن انفصاله في الشام واستقلاله بها ولقب نفسه بالكامل ، لكنه عجز عن مواجهة جيوش قلاون فهرب الى بعض القلاع وراسل اباقا يدعوه للتعاون معه .

(٣) السلطان قلاون احد زعماء المماليك في عهد الظاهر بيبرس ، تولى الوصاية على ابنه الصغير سلامش ثم خلعه سنة ٦٧٨ هـ وأعلن عن سلطنته حتى توفي سنة ٦٨٩ م .

المسلمين للقضاء على جيوشهم (١) .

ويبدو ان الايلخانيين لم يستطيعوا الحصول بعد اباقا على اعوان لهم في صفوف المماليك بالرغم من تطور كثير من الاحداث السياسية في داخل الكيان المملوكي ، ولا يعتبر هذا المجال لجوء بعض كبار المماليك الى الايلخانيين في عهد غازان وأخيه اولجايتو وتأثيرهم المباشر في كثير من الاحداث العسكرية التي اعقبت ذلك ، لأن هؤلاء الامراء لم يكونوا على اتصال مسبق بالمغول ، وانما دفعهم الخوف على انفسهم من السلطان المملوكي الى الاحتماء بالايلخانيين الذين رحبوا بهم وشجعوهم على الوفود اليهم رغبة في استغلالهم او الاستفادة من خبراتهم .

وعلى العكس من ذلك فقد كان المجال واسعاً أمام المماليك لرصد حركات المغول والاطلاع على مخططاتهم او مشاريعهم وهي في مهدها ، بسبب روح العطف والتأييد التي كانت لهم في قلوب اهل العراق خاصة ، يتساوى في هذا التأييد والمؤازرة لهم ، الكثير من امراء البلاد وأغلبية ابناء الشعب الذين كانوا مكرهين على طاعة المغول ، والذين كانوا يعتقدون ان خلاصهم من هذا الحكم لن يتم إلا بتعاونهم مع المماليك(٢).

وكان السلطان المملوكي قد وثق صلاته حتى مع بعض الامراء المسيحيين الموالين

(١) ابن الفرات م ٧ ص ١٧٤ ، الحوادث الجامعة ص ٤١٢، ٤١٥ ، المقريزي ج ١ ق ٣ ص ٦٧٥ - ٦٧٧ .

(٢) ذكرنا من هؤلاء الامراء بدر الدين لولو صاحب الموصل وابنائه من بعده الذين كانوا يباطنون الايوبيين والمماليك حتى انهم دفعوا حياتهم ثمناً لذلك .

ومنهم ايضاً سلجوقشاه صاحب شيراز الذي تمرد على هولاكو في أواخر أيامه ودفع حياته ثمناً لذلك .

للمغول والذين دفعهم الخوف على بلادهم من هجماته الى تقديم الولاء له ايضاً في نفس الوقت ، وامداده بما يستطيعون من معلومات ، من ذلك ما أشار اليه اليونيني في سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م من وصول رسول صاحب سيس يبشر الملك الظاهر بيبرس بهلاك هولاكو (١) .

وفي زمن اباقا كان هناك مزيد من الامراء المسلمين الذين يبيتون على كره للحكم المغولي ويسعون للخلاص من سيطرته ، وقد مر علينا منهم السلطان السلجوقي ركن الدين قليج ارسلان الذي قتل بيدهم سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م بعد ان أشيع عنه انه كاتب المماليك وتعاون معهم (٢) ، لكن مقتله لم يؤد الى انقطاع صلة بلاده بهم، ذلك ان امراء البلاد وعلى رأسهم الوزير السلجوقي معين الدين سليمان البرواناه الذي كان السبب في مقتل ركن الدين ، ندم على مواطأته للمغول ، وأخذ يواصل المماليك بأخبار المغول وحركات جيوشهم التي كان أعدها اباقا لمهاجمة الشام . وكان آخر هذا التعاون دعوة هؤلاء الامراء للسلطان المملوكي الزحف على بلادهم ووعدوه بالقيام معه عليهم ، وكانت ثمرة ذلك معركة الابلستين التي ابيد فيها الجيش المغولي سنة

---

(١) والمقصود بصاحب سيس ملك ارمينيا الصغرى . اليونيني ج ٢ - ذيل مرآة الزمان ص ٣٢٢ . ويشير ابن الفرات م ٧ ص ٢٥ - ٣١ الى ان صاحب سيس هذا انقطع عن مراسلة السلطان بالاخبار الصحيحة كما انقطع عن حمل الرسوم المقررة عليه سنوياً . لذلك فقد تجهز له السلطان سنة ٦٧٣ هـ وهاجم بلاده وخربها وقضى على الجيش المغولي الذي قدم لنجدته .

(٢) ابو الفداء ج ٤ ص ٥ ، ابن العماد الحنبلي ج ٥ - شذرات الذهب ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

٦٧٩ هـ / ١٢٧٧ م والتي اتهم الايلخان فيها الوزير البروانا وأمر باعدامه (١) .

وعمد السلطان المملوكي الى استغلال تعاون هؤلاء الامراء للتخلص من اعوان المغول الذين كانوا يلحقون الأذى بالمسلمين في بلادهم ، فاتفق مع صاحب سميساط شمس الدين بهادر على تدبير حيلة للايقاع ببعض اساقفة النصارى الذين كانوا أشد وطأة على المسلمين من المغول .

وانخدع اباقا عندما وقعت في يده رسالة موجهة من السلطان الى اسقف الجزيرة حنا يشوع وتصور خيانة هذا الاسقف له فأمر باعدامه سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م ، لكنه احس بعد ذلك بتسرعه وانكشفت له حيلة صاحب سميساط فقبض عليه بعد هروب اصحابه الى الشام ، لكن شمس الدين استطاع الهرب بعد ذلك ولحق بالشام حيث اكرمه السلطان (٢) .

ولم ينقطع كثير من امراء المسلمين عن مواصلة المماليك باخبار المغول نكاية بهم ، من ذلك صاحب ماردين المنصور غازي بن قرة ارسلان (٣) الذي اشار ابن

(١) ابن الفرات م ٧ ص ٤١ - ٤٣ ، ٦٥ - ٦٨ . المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٦١٦-٦١٧ ، ابو محمد الطيب ج ٣ قلادة النحر الورقة ٩٤٢ في حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

(٢) ابن الفرات م ٧ ص ٤ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٦١١ . ونفس هذه الحيلة دبرها السلطان المملوكي مع هولاكو الذي أمر بقتل الزين الحافظي أحد الخونة المسلمين الذي كان من اعوان الناصر يوسف صاحب الشام والذي التحق بخدمة هولاكو وأخذ يدله على وسائل اضعاف المماليك انظر النهج السديد ج ١ ص ١٢٦ - ١٢٩ .

(٣) المنصور غازي بن قرة ارسلان تولى الحكم بعد اخيه السعيد داود من سنة ٦٩٢ - ٧١٢ هـ . ابن حجر ج ٣ ص ٢١٦ .

ايبك الى امتناعه عن النزول لجيوش غازان التي مرت في طريقها الى الشام سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠م ، بل اكتفى بانزال الضيافة اليهم خوفاً لئلا يكون الأمير المملوكي اللاجىء الى غازان قد نبه عليه بأنه يكاتب السلطان ، ولم تنقطع مراسلاته في عهد اولجايتو الذي كان قد أصهر اليه ، فكان يناصح السلطان وكانت رسله تفد اليه باستمرار(١).

وحتى بعض امراء المغول لم يترددوا من مراسلة المماليك لما نقموا على ايلخاناتهم من سوء التدبير وقبح السيرة ، وخاصة بعد اعتناقهم الاسلام ونكولهم عن تطبيق أحكامه ، ومن هؤلاء الامراء بدر الدين جنكلي المعروف بابن البابا الذي كان يعسكر في آمد « ديار بكر » فكانت مكاتباته تصل السلطان لفترة طويلة من الزمن يبذل فيها النصيحة للاسلام ويطلع السلطان على عورات التتر (٢) .

وكان چوبان يراسل السلطنة في عهد اولجايتو ، كما أصبح ابنه تيمورتاش يراسلها في عهد ابي سعيد حتى انه قام بايحاء من السلطان المملوكي ببعض الأعمال العسكرية ضد الامارات المسيحية الموالية للايلخانيين أنفسهم من ذلك حملته على ارمينيا الصغرى سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م ، ثم تعاونه العسكري مع المماليك في اخضاع أياس سنة ٧٢٢ هـ (٣) .

---

(١) كنز الدرر جـ ٩ ص ٩ - ١٠ ابن ابي الفضائل جـ ٣ ص ٧٥٨ ، ابو المحاسن المنهل الصافي م ٢ الورقة ٥٠٢ ، زيترستين - تاريخ سلاطين المماليك ص ٤٧ - ٤٩ .

(٢) النويري - نهاية الارب جـ ٣٠ ق ١ الورقة ٩٢ - ٩٣ ابن ايبك جـ ٩ ص ١١٣ ، ابن كثير جـ ١٤ ص ٢٩ .

(٣) ابن ايبك جـ ٩ ص ٢٦٨ - ٢٧٩ ، ابن كثير جـ ١٤ ص ١٠٠ ، العيني الورقة ٣٢٤ - ٣٢٥ في حوادث سنة ٧٢٢ هـ ، المقريزي جـ ٢ ق ١ ص ٢٦٣ - ٢٦٤ انظر تعليق زيادة في الحاشية (٦) .

وكان الأيلخانات يعاقبون هؤلاء الامراء عندما يكتشفون أمر اتصالاتهم وخياناتهم ، وقد مر علينا ما لقيه بعضهم من عقاب ، كالسلطان السلجوقي ووزيره البروانة ، ونشأ من جراء ذلك اعتبار الاتصال بالمماليك جريمة يعاقب مرتكبها بالموت الأمر الذي أصبحت معه هذه التهمة موضع استغلال في كثير من الأحداث السياسية او الخصومات الشخصية ، من ذلك ما تعرض له صاحب الديوان الجويني وأخوه عطا ملك من تهمة الاتصال بالمماليك والتعاون معهم التي دبرها لهم مجد الملك اليزدي وبالرغم من عدم ثبوتها عليهما بفضل ما بذلوه من اموال وشفاعات ، إلا انها تسببت في اضعاف موقفهما فيما بعد وأدت الى القضاء عليهما (١) .

ولفقت هذه التهمة في عهد غازان للتخلص من نوروز واخوته ايضاً ، عندما قام الوزير صدر الدين احمد الزنجاني « صدر جهان » بتحرير بعض الرسائل وتزوير خط أحد اخوة نوروز وإيهام غازان بخيانته له ، وجعلوا من هذه الرسائل الدليل على صحة اتهامهم الأمر الذي أدى بعد ذلك الى القضاء على نوروز واخوته (٢) .

وتعرض كذلك اثنان من كبار علماء المسلمين في بغداد وهما شهاب الدين السهروردي وجمال الدين العاقولي في عهد اولجايتو الى تهمة الاتصال بالمماليك ، فحملا الى البلاط الايلخاني وكادا يلقيان نهايتهما لولا تدخل الوزير رشيدالدين الذي

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٣ ص ٧٦ - ٧٧ ، ابن الشحنة ابو الوليد - روضة المناظر ص ٢٧٩ . الشواربي - مصادر فارسية في التاريخ الاسلامي ص ٨٩ .

(٢) ميرخوند - روضة الصفا ج ٥ ص ١٣٢ - ١٣٣

Howorth . P . 3 . 409 .

شفع فيهما وأظهر براءتهما من التهمة (١) .

وكان من هذه الأساليب السلمية ايضاً التشجيع على اللجوء السياسي والهروب الى البلاد الاخرى لاضعاف الجبهة الداخلية ، فضلا عن كشف كثير من الخفايا السياسية او الأسرار العسكرية ، وكانت الدولتان تبذلان الكثير من الاموال ووسائل الاغراء لتشجيع هروب امراء الدولة الاخرى اليها .

وعند المقارنة في هذا المجال بين نشاط الدولتين ، نجد ان المماليك كان لهم النصيب الاوفر ، إذ في الوقت الذي لايزيد عدد الهاربين من امرائهم الى الايلخانية ، لا يزيد على عدد اصابع اليدين ، يمكن القول ان امراء المغول الذين هربوا من الحكم المغولي لا يحصى عددهم لكثرتهم ، بالاضافة الى العديد من ابناء البلاد الاسلامية الرازحة تحت حكمهم وخاصة من بقايا رجالات الخلافة .

وبدأ سيل هجرة المغول الى المماليك في عهد هولاكو سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م ، إذ أنه بعد ان ساءت العلاقة بينه وبين ابن عمه بركة ، خشيت قوات بركة خان التي كانت قد ألحقت بامرة هولاكو عند زحفه نحو بغداد ، خشيت أن ينتقم هولاكو منها لهزيمته أمام بركة خان فتفرقت في البلاد ، ووصل عدد من أفرادها بلاد الشام بناء على وصية من بركة خان كما يقولون ، وكان السلطان المملوكي ونوابه يستقبلون كل طائفة عند وصولها ويقدمون لها حقوق الضيافة ، ثم يعرضون على افرادها الاسلام ، وقد أسلموا جميعاً ، واستفاد المماليك من هجرة هؤلاء اليهم ، إذ أن

(١) مقدمة جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٢ . الصياد ـ مؤرخ المغول الكبير ص ١٤٣ .

السلطان فتح بهم باب المراسلة مع بركة خان الذي رحب بدعوته للتحالف معه على أساس من وحدة الاسلام ، وتنسيق التعاون لعمل عسكري مشترك ضد هولاكو(١).

وفي عهد هولاكو ايضاً هرب من بقي من رجالات الخلافة وامرائها الذين كانوا قد اختفوا أبان شدة المغول عليهم ومطاردتهم لهم ، ويروي « ابن واصل » في حديثه عن سيف الدين بن السلار الذي كان والياً على منطقة الفرات في اواخر أيام الخلافة ، والذي كتب بعد لجوئه الى مصر ، كتب الى من تأخر من اعوانه يخبرهم بما ناله من السلطان من الاحسان فلحقوا به (٢) .

ولعب شيوخ العشائر من خفاجة وعبادة دوراً في إخفاء هؤلاء الهاربين وايصالهم الى الشام ، ولم يقتصر أمر اللجوء على رجالات العراق فحسب ، بل تعدى ذلك الى أمراء شيراز وخاصة خلال تمرد صاحبها سلجوقشاه الذي سبقت الاشارة اليه ، وكذلك بعض الخوارزمية من غلمان الاتابك سعد بن زنكي صاحب فارس وغيرهم ، وكان السلطان المملوكي يرحب بالوافدين ويكرم شيوخ العشائر ليكونوا عيوناً له على التتار (٣) .

وكان من هؤلاء اللاجئين ايضاً جلال الدين ابن الدويدار الصغير الذي كان

---

(١) ذيل الروضتين ص ٢١٩ – ٢٢٠ ، ابن واصل م ٢ – تاريخ الواصلين ، الورقة ٤٠٦ ، ٤٠٩ . اليونيني ج ١ ص ٤٩٦ – ٤٩٧ . المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٤٧٣ – ٤٧٤ ، ٥٠٠ – ٥٠١ .

D'ohsson · 3 . P · 386 ·

(٢) المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٤٧٦ ، انظر مانقله زيادة في الحاشية عن ابن واصل.

(٣) المرجع السابق ص ٥١٠ – ٥١٢ .

هولاكو قد اصطفاه لنفسه بعد معركة بغداد وأوصى بتربيته ، ويحدثنا رشيد الدين عن الحيلة التي لجأ اليها جلال الدين ليخلص من هولاكو ، حيث اوهمه باخلاصه له ورغبته بتجنيد بقايا جند الخلافة للمشاركة في حرب القبجاق التي كان هولاكو يستعد لها ، وبعد أن حصل جلال الدين على صلاحيات الايلخان المطلقة لتنفيذ مهمته ، جمع ما استطاع جمعه من الرجال والاموال ، وتوجه بهم الى الشام ، فكان هروبه أقسى ما وجه الى هولاكو من الضربات حتى قيل أن تأثيرها كان من أسباب وفاته لما لحقه من الالم والغيظ (١) .

وخفت حدة الهروب بين المغول في اول ايام اباقا نظراً للاستقرار النسبي الذي ساد البلاد بعد توقف الحرب بسبب وفاة بركة ، لكن النزاع لم يلبث ان وقع بين امراء المغول المقيمين فى بلاد الروم لأسباب شخصية على الأكثر ، ويبدو ان لأمراء سلاجقة الروم الذين كانوا في هذه الفترة يتعاطفون مع المماليك ، وخاصة الوزير البروانة الذي كان مصاهر لبعضهم ، كان لهم دور في توسيع شقة الخلاف بين امراء المغول الذي أدى الى اشهار السلاح بينهم وتدخل الايلخان الذي استدعى بعضهم الى بلاطه ، فامتنع هؤلاء عن طاعته بعد ان خوفهم الوزير البروانة من غدر اباقا بهم ثم نصحهم باللجوء الى السلطان المملوكي ، فتوجهوا اليه بأموالهم وعشائرهم سنة ٦٧٥ هـ (٢) .

---

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٣٨ - ٢٤٠ ، الحوادث الجامعة ص ٣٥٠ - ٣٥٢ .

Howorth . 3 . P . 199 - 200 .

(٢) ابن ابي الفضائل ج ٢ ص ٢٣٩ ، ابن الفرات م ٧ ص ٦٨ وكان منهم -

وفي اواخر ايام اباقا في شوال ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م التحق صاحب سنجار بأهله وحريمه بالشام داخلا في طاعة السلطان (١) ، ولعل سبب لجوئه يتصل بهزيمة الجيش المغولي التي لقيها قبل ايام بالقرب من حمص خاصة وان سنجار تقع على طريق حركة هذا الجيش الذي قاده منكوتيمور بن هولاكو .

وأسفرت الانقسامات الشديدة بين امراء المغول وتنازعهم على السلطة والتي راح ضحيتها ثلاثة من الآيلخانات (٢) ، أسفرت في اعقاب تولي غازان العرش ، عن اكبر هجرة مغولية الى الشام شملت ابناء قبيلة الأويرات الذين كان يرأسهم الأمير طرغاي ، وتراوح عدد النازحين بين عشرة آلاف الى ثمانية عشر الف من الفرسان ، وقد سبب المؤرخون المعاصرون هذه الهجرة الى خوف طرغاي وعشيرته من انتقام غازان منهم بسبب مشايعتهم لابن عمه بايدو ، ولقي هؤلاء الوافدون ترحيباً من السلطان المملوكي كتبغا (٣) الذي يمت اليهم بصلة النسب والذي استقدم زعماءهم الى

ـ الامراء نيكتاي وأخيه جاورچي ، وقرمشي وأخيه سكتاي من قبيلة ببسوت ، ثم لحق بهم حسام الدين ينجار مقطع خرتبرت وولده بهادر .

وأحصى الشيال ـ تاريخ مصر الاسلامية ج ٢ ص ١٩٤ ـ ١٩٦ مجموع الفرسان الذين وفدوا على السلطان الظاهر بيبرس فقط من المغول بثلاثة آلاف فارس ، وقد استقدمهم السلطان الى القاهرة واستخدمهم في جيوشه بعد أن منحهم الرتب المناسبة لهم ، وكون منهم نواة للفرقة الوافدية في الجيش المملوكي .

(١) المقري الفيومي نثر الجمان ـ الورقة ٢٤٠ .

(٢) وهم احمد تكودار ، كيخاتو ، بايدو .

(٣) العادل زين الدين كتبغا من اسرى المغول في عين جالوت ، استخدمه قلاون ـ

القاهرة وأسكنهم حتى الحسينية (١) ، ولم يتشدد معهم في اعتناق الاسلام الأمر الذي أثار حوله كثير من الانكار والشك خاصة وانه ألحقهم بفرق المماليك وأمر جماعة منهم واتخذهم بطانة له ، اما الباقون فقد أسكنوا في منطقة الساحل الشامي حيث اختلطوا بالسكان وضاعوا في اوساطهم (٢) .

ومن المحتمل ايضاً ان يكون لجوء الامير بدر الدين جنكلي بن البابا في أعقاب وفاة غازان ، له علاقة بفشل حملة الايلخان الاخيرة على الشام التي قادها قائده قطلوشاه إذ أنه وصل دمشق في ١١ ذي القعدة ٧٠٣ هـ أي بعد شهر من وفاة غازان ، وقبل أن يصل اولجايتو العاصمة ليتولى العرش ، فيكشف أمر اتصاله الطويل بالسلطان المملوكي قبل ذلك (٣) .

ـ ثم اصبح من مماليك ابنه الاشرف ، ثم تولى نيابة السلطنة للناصر محمد في سلطنته الاولى واستغل صغره فخلعه وتولى السلطنة في ٦٩٢ ـ ٦٩٥ هـ .

(١) ويحدثنا المقريزي في المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ٢ ص ٢٢ ـ ٢٣ حارة الحسينية عن الآثار الاجتماعية التي أحدثتها هذه الهجرة في أوساط المماليك لما امتاز به أفرادها من جمال الصورة وتنافس الامراء على التزوج من نسائهم واقتناء أولادهم . حتى انهم ارسلوا الى البلاد الشامية واستدعوا منهم طائفة كبيرة فتكاثر نسلهم في القاهرة وأصبح اهل الحسينية يوصفون بالحسن والجمال البارع ، انظر ايضاً الشيال ـ تاريخ مصر الاسلامية ج ٢ ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .

(٢) ابو الفداء ج ٤ ص ٣٤ ، ابن الوردي ـ تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٤١ ، تاريخ سلاطين المماليك ص ٣٨ ، ابن الفرات م ٨ ص ٢٠٣ ، المقريزي ج ١ ق ٣ ص ٨١٢ .

(٣) النويري = نهاية الارب ج ٣٠ ق ١ الورقة ٩٢-٩٣ في حوادث سنة ٧٠٣ هـ ـ

وبعد تولي اولجايتو بأشهر قليلة هرب الى الشام جماعة آخرون بينهم عدد من خاصة غازان ، حيث وصلوا في مطلع جمادى الاولى ٧٠٤ هـ ، بنسائهم وأولادهم (١).

على ان انتشار الاسلام بين المغول وهدوء العلاقات بين البلدين أضعف من حركة اللاجوء بين المغول طيلة فترة اولجايتو وابي سعيد ، كما أدى قيام الصلح بين البلدين بعد ذلك سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م الى تعزيز الاستقرار السياسي بينهما فلم يؤثر عليه لجوء الامير تيمورتاش بن چوبان سنة ٧٢٨ هـ ذلك ان السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاون (٢) بالرغم من ترحيبه بلجوئه في اول الأمر ، وبالرغم من صلات التعاون والخدمات العسكرية التي سبق ان قدمها تيمورتاش للسلطان أبان توليه مسؤولية بلاد الروم ، بالرغم من ذلك فان السلطان لم يتردد حفاظاً على صداقة الايلخان لم يتورع عن الغدر بضيفه متحججاً عليه بحجج افتعلها لتبرير خيانته لعهده ، فساوم أولا على تسليمه مقابل تسليم عدوه قرة سنقر (٣) الذي كان قد احتمى بالايلخان

ـ تاريخ سلاطين المماليك ص ١٢٨ ، ابن كثير ج ١٤ ص ٢٩ ، وكان غازان قد توفي في ١١ شوال ٧٠٣ هـ .

(١) النويري ج ٣٠ ق ١ الورقة ١٠٥ في حوادث سنة ٧٠٤ هـ ، ابن ايبك ج ٩ ص ١٢٨ . وقد تولى اولجايتو في ٢٣ ذي الحجة ٧٠٣ هـ .

(٢) الناصر محمد بن قلاون تولى السلطنة ثلاث مرات ، وحكم اطول فترة حكمها سلطان مملوكي ، تولاها وهو طفل لا يدرك وتوفي عنها وقد قارب الستين من عمره ، ولم يترك العرش إلا سنوات قليلة كان يخلع فيه من السلطنة .

(٣) قرة سنقر احد امراء المماليك كان يتولى النيابة على حلب ثم خاف على نفسه من السلطان فالتجأ الى اولجايتو .

المغولي ، ثم عدل عن ذلك وقرر اعدامه بعد ان احس بخطأ ايفاده حياً الى ابي سعيد وخطر ذلك على مستقبل العلاقات بينهما فيما لو بقي حياً (١) .

اما بالنسبة لنشاط السياسة الايلخانية في صفوف المماليك فاننا لا نكاد نحس به إلا قليلا إذ لم يفكر أحـد من المماليك في اللجوء الى المغول طيلة فترة وثنيتهم ، باستثناء تنقلات شيوخ العشائر الذين كانوا لا يستقرون على ولاء لأحـــد من الايلخانات او السلاطين (٢) .

وبدأ لجوء أمراء المماليك الى المغول بعد اشهارهم الاسلام وانتشاره بينهم ، ولم يكن ذلك لنشاط السياسة المغولية في صفوفهم ، إذ ليس لدينا مايشير الى وجود تعاون مسبق بين هؤلاء اللاجئين وبين السياسة الايلخانية قبل ذلك ، كما كان قائماً بين المغول والسلطان المملوكي .

وتعود اسباب حركة اللجوء بين المماليك بالدرجة الاولى الى حالة الضعف التي تعرضت لها السلطنة في السنوات العشر الاخيرة من القرن السابع الهجري ، والسنوات العشر الاولى من القرن الثامن الهجري (٣) ، حيث تنازع الامراء المتنفذون على

---

(١) ابو الفداء ج ٤ ص ١٠١ - ١٠٢ ، ابن حجر ج ١ ص ٥١٨ في ترجمة تيمورتاش . تاريخ سلاطين المماليك ص ١٧٩ .

(٢) وقد مر علينا تقلب هؤلاء الشيوخ في بحث موقف الايلخانية من العشائر في الباب الثالث وكان منهم شيوخ آل فضل ، نور الدين زامـل ، ومهنا بن عيسى وابنه سليمان وغيرهم .

(٣) بدأت مرحلة الضعف هذه عند وفاة السلطان المنصور قلاون في ذي القعدة ٦٨٩ هـ وانتهت عند تولي ابنه الناصر محمد السلطنة للمرة الثالثة في جمادى الآخرة -

الحكم فاستهانوا بحياة السلاطين وبطشوا بمعارضيهم من الامراء ليخلصوا من منافستهم للوصول الى السلطة ، الأمر الذي شجع الايلخانيين على معاودة الهجوم في هـذه الفترة عدة مرات واحتلال الشام .

وبدأت حركة اللجوء بين المماليك في فترة استيلاء السلطان لاجين المنصوري على الحكم ومحاولته تصفية زعماء المماليك الذين يتوقع قيامهم عليه ، فأحس هؤلاء بحقيقة غرضه فاجتمعوا الى بعضهم في الشام ولجأوا اولا الى اطراف الصحراء بالقرب من سلمية انتظاراً لما سيفعله اخوانهم في القاهرة ، ثم عبروا الفرات بعد ذلك الى ماردين وهم الامراء قبجق وبكتمر والبكي ، الذين استقبلوا من غازان الذي كان يعسكر في بغداد في ربيع الآخر ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٩ م . ويشير ابن ابي الفضائل الى فرحة غازان بلجوئهم انه زوجهم من نساء التتر ، وزوج قبجق من أخت زوجته وهو لا يعمل عند التتار إلا مع الأكابر والخانات (١) .

ـ سنة ٧٠٩ هـ ، وتولى السلطنة خلال هذه الفترة خمسة من السلاطين هم :

١ ـ الاشرف خليل بن قلاون	من ٦٨٩ ـ ٦٩٣ هـ	وقتل بيد الامراء	
٢ ـ الناصر محمد ـ السلطنة الاولى	٦٩٣ ـ ٦٩٤ هـ	خلع عن العرش	
٣ ـ كتبغا المنصوري	٦٩٤ ـ ٦٩٦ هـ	خلع عن العرش	
٤ ـ لاجين المنصوري	٦٩٦ ـ ٦٩٨ هـ	قتل بيد الامراء	
٥ ـ الناصر محمد ـ السلطنة الثانية	٦٩٨ ـ ٧٠٨ هـ	خلع عن العرش ثانية	
٦ ـ بيبرس الجاشنكير	٧٠٨ ـ ٧٠٩ هـ	تنازل ثم قتل	
٧ ـ الناصر محمد ـ السلطنة الثالثة	٧٠٩ ـ ٧٤١ هـ .		

(١) ابو الفداء ج ٤ ص ٣٩ ، ابن ابي الفضائل ج ٢ ص ٤٤٥ ، ابن شاكر عيون التواريخ ـ الورقة ١٨٣ ـ ١٨٥ .

وجاءت حادثة اللجوء الاخيرة في عهد اولجايتو سنة ٧١٢ هـ ، وأسبابها تعود ايضاً الى سوء سياسة السلطان المملوكي الناصر محمد الذي أراد تصفية زعماء المماليك لكي لا يتلاعبوا به ثانيـة ، ولم يميز في تصفيته حتى اولئك الذين وقفوا بجانبه وقت محنته الأمر الذي اضطر معه الامراء قرة سنقر والافرم وبدر الدين الزروكاش خوفاً على انفسهم من السلطان ، اضطروا الى الهرب واللجوء ، ومما يلاحظ ان هؤلاء الامراء لم يكونوا راغبين فى اللجوء أول الامر بالرغم من وسائل الاغراء التي عرضها الايلخان عند سماعه بعزمهم على اللجوء والذي كان حريصاً على كسبهم الى جانبه ، فأرسل احد نوابه اليهم ومعه نسخة اليمين التي حلفها لهم وفيها مائة يمين بتوفير الامان والاستقرار لهم ، وانه سيقطعهم بغداد وديار بكر وسنجار لو قدموا اليه ، وبالرغم من ذلك فان هؤلاء الامراء احتموا أولا بالامير مهنا بن عيسى شيخ العرب ورجوه اصلاح حالهم مع السلطان ، فلما فشلوا في ذلك او قدموا حريمهم وأولادهم الى السلطان ليكونوا وديعة عنده ، وليذكروه بأنه كان السبب فى فراقهم له ، وقد استقبل الايلخان اللاجئين واكرمهم واقطعهم مراغة وهمدان وفوضهم الاشراف على تدبير مملكته (١) .

ومن هذه الاساليب التهديد بالزحف والدعوة الى استرجاع البلاد ، حيث لجأ الفريقان فى كثير من الاحيان الى ممارسة الحرب الكلامية وإطلاق التصريحات الطنانة

---

(١) وصاف م ٤ ص ٥٥٢ - ٥٥٣ ، ابو الفداء ج ٤ ص ٦٦ - ٦٨ ، ابن ايبك ج ٩ ص ٢٢٦ - ٢٣٤ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ١١١ ، المقريزي ج ٢ ق ١ ص ١٠٧ - ١١٤ .

وارسال الرسائل التي تحمل النذير بالحرب وإظهار العزم على استرجاع او تحرير البلاد .

ولم يكن الغرض من كل هذه الجعجعة سوى ارهاب الفريق الآخر ايرضي بما تحت يده من البلاد ويكف عن التحرش ومحاولة التوسع على حساب املاكه .

وكانت الشام هي البلاد التي ساوم المغول عليها وهددوا باسترجاعها ، بينما كانت بغداد هي الامل الذي تاجر به المماليك ، فكانوا يهددون المغول بتحريره من سيطرتهم ، ويثيرون عليهم مشاعر المسلمين فيه للخلاص من حكمهم (١) .

ويمكن القول على ضوء الاحداث ان المغول في هذا المجال كانوا فعالين اكثر منهم قوالين ، على العكس من المماليك الذين لم يحاولوا سوى اطلاق الكلام .

فقد سعى المغول فعلا لاستعادة الشام وقاموا لتحقيق ذلك بعدة محاولات فشل أغلبها ، ونجح بعضها موقتاً ، ولم يلجأوا الى الاسلوب الدعائي إلا في الفترة التي غلب عليهم فيها الانقسام والضعف ، وذلك عندما قام كيخاتو (٢) سنة ٦٩٢ هـ بايفاد رسول الى الاشرف خليل ليقول له : « ان الايلخان عزم على اتخاذ مدينة حلب عاصمة له لانها مما فتحها جده هولاكو ، ثم ليذكره بأنه ان لم يسمح بها فانه سيزحف لاحتلال بلاد الشام » (٣) وكان غرضه من ذلك إيقاف روح الحماس الديني

(١) واستفاد المماليك في نفس الوقت من هـذا الشعار في سياستهم الداخلية ، حيث ثبتوا به عروشهم وجمعوا مزيداً من الاموال للانفاق على تحقيقه .

(٢) كيخاتو بن اباقا تولى الايلخانية بعد وفاة اخيه ارغون في رجب ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م - ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م .

(٣) المقريزي ج ١ ق ٣ ص ٧٨٦ .

Howorth . 3 . P · 363 .

التي سرت بين المسلمين في اعقاب استيلاء الاشرف على قلعة الروم التي سماها قلعة المسلمين تيمناً بهـذا النصر ، وانبعاث الدعوة من الخليفة والسلطان بالتحريض على الجهاد لاسترجاع بلاد الخلافة .

اما المماليك فكانوا في هذا المجال اكثر ممارسة لهذا الاسلوب من العمل السياسي ان لم يكن لارهاب المغول واضعاف عزائمهم ، فلا اقل من تثبيت سلطانهم على الناس بترديده واشغالهم به عن التفكير والتطلع الى شؤون الحكم .

ولقد صدقوا في دعواهم مرة واحـدة عندما جهز بيبرس الخليفة العباسي المستنصر بالله ابا القاسم الأسود بجيش لتحرير العراق ، ولكنهم حتى في هذه المرة اليتيمة ، لم يوفروا لهذا الجيش اسباب النصر الحقيقية بعد ان احسوا بخطر انتصاره على سلطانهم (١) .

وبعدها اكتفوا بجهاد الكلام ولم يحاولوا معاودة التنفيذ حتى فى الفترة التي تداعى فيها الحكم الايلخاني بعد وفاة ابي سعيد واستعداد كثير من امراء المغول الدخول في طاعتهم .

وبدأ الجهاد الكلامي فى عهد بيبرس سنة ٦٦٧ هـ عندما وصلته رسالة الايلخان اباقا يدعوه فيها لصلح يقوم فى اساسه على الارهاب والاستسلام فأجاب بيبرس على الرسالة بقوله : « اعلم اني وراءه بالمطالبة ، ولا ازال انتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر اقطار الارض » (٢) .

(١) انظر في هذا ملاحظة الشيال ج ٢ تاريخ مصر الاسلامية ص ١٧٩-١٨١ .

(٢) اليونيني ج ٢ ص ٤٠٧ ، سرور دولة الظاهر بيبرس ص ٩٦ ، الشيال ج ٢ ص ١٨٦ - ١٨٧ .

وتولى الاشرف السلطنة بعد وفاة ابيه قلاون الذي كان قد توقف عن امضاء عهده له بالعرش ، فلجأ الى الخليفة العباسي يستمده التأييد والتفويض ، واستغل الخليفة ذلك للتنفيس عن نفسه وللتعبير عن واجباته أمام الناس في إلقاء خطب الجمعة بعد ان تكفل له السلطان بالانتقام من التتار والسعي لاسترجاع العراق فكان في خطبة بحث الناس على الجهاد ويثير حميتهم الدينية لتنفيذ ذلك ، وجاء في احدى خطبه البليغة قوله (١) : « ولا يقدم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد . . . فلو كنتم شاهدتم اعداء الله واعداء الاسلام حين دخلوا بغداد ، دار السلم وكيف استباحوا الدماء والاموال ، وكيف قتلوا الرجال والأطفال ... فشمروا عن ساعد الجد والاجتهاد في إحياء فرض الجهاد ... فلم تبق معذرة في القعود عن اعداء الدين ... وقد رزقكم الله سلطاناً لا يدخر عن نصرة الدين نفساً ولا مالا ... » .

وبتأثير من هذا الشحن والحث ، اندفع الاشرف على رأس الجيش واستنقذ قلعة الروم من المغول ، وأرسل يبشر المسلمين « بهذا الفتح الذي ما يكون بعده إن شاء الله إلا فتح المشرق والروم والعراق » وهو الذى اجاب على رسالة كيخاتو في تسليم حلب بقوله : بأنه قد وافق الايلخان ما كان في نفسى ، فاني كنت على عزم من أخذ بغداد وقتل رجاله ، فانني ارجو أن أردها دار اسلام كما كانت ، وسينظر أينا يسبق الى بلاد صاحبه (٢) .

(١) ابن عبد الظاهر ـ الالطاف الخفية ج ٣ ص ٦ ـ ٩ ، ٩ ـ ١٣ . ابن كثير ج ١٣ ص ٣٢٢ ، ٣٣٥ .

(٢) ابن الفرات م ٨ ص ١٣٧ ـ ١٣٨ . المقريزي ج ١ ق ٣ ص ٧٨٦ .

Howorth . 3 . P . 362 - 363 . D'*ohsscn* . 4 . P . 87 - 89.

وجاء التلويح الأخير بالتهديد على لسان الناصر محمد الذي كتب الى غازان في اعقاب انتصاره عليه في معركة مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـ في رسالة يندد به ويذكره عاقبة الغرور ثم ينصحه في آخرها بالرجوع الى الحق والتمسك بأهداب الدين قائلا : « وانت تزعم ان الاسلام معك وبه تدين ، نقف نحن وانت على الكتاب المبين ، ولا تمشوا في الارض مفسدين ، نخرج نحن وانت من بغداد والعراق ونعيدها الى خليفة رسول الله بالاطلاق ونتبع نحن وانت اوامره ... » (١) .

الاسلوب العسكري في العلاقات : – لم يقتصر الصراع السياسي على هـذه المغازلات السلمية لتحقيق اهدافه ، وانما كان يتصاعد خلال ذلك ، وفي كثير من الأحيان الى مرحلة المواجهة واستخدام السلاح ، ولـكن ذلك لم يكن فجائياً ، وانما كان يتدرج حسب الظروف والعوامل التى تحيط بالفريقين المتنازعين ، ونلمس كذلك من خلال دراستنا لمراحل هذه المواجهة ، اتباع المعسكرين عـدة وسائل لتحقيق اهدافهم حسب درجة تصاعد الحرب .

أولا : ومن هذه الوسائل الاغتيالات السياسة باستخدام الفدائية لتحقيق بعض الاغراض السريعة التي لا تحتاج الى سوق الجيش ، ويمكن القول ان اتباع هذه الوسيلة كان مقصوراً على المماليك فقط ، اذ استغلوا طائفة الاسماعيلية وعداوتها للتتار فساوموا أتباعهم في القلاع الشامية على التعاون معهم في هذا المجال مقابل احتفاظهم ببعض قلاعهم .

---

(١) انظر ملحق رسائل غازان الى الناصر ، انظر ايضاً سرور . دولة بني قلاون ص ٢٠١ – ٢٠٣ .

وكان الظاهر بيبرس اول من استخدم هذا الاسلوب لاغتيال اعوان المغول ممن وجد في بقائهم خطراً على دولته ، من ذلك ما ورد في رسالته التي أرسلها سنة ٦٧٠ ﻫ من الشام الى الامراء في مصر يخبرهم فيها عن اعماله وتنقلاتهم بين القلاع والثغور ثم يقول : ان صاحب مرقية الذي أخذنا بلاده توجه الى التتار مستصرخاً ، وسيرنا وراءه فداويه فقتلوه (١) .

واستخدم الناصر محمد هذا السلاح ايضاً للتخلص من خصومه امراء المماليك الذين كانوا قد لجأوا الى المغول وهم قرة سنقر وأصحابه ، وبالرغم من فشل محاولات الفدائيين الذين أرسلهم سنة ٧١٥ ﻫ وسنة ٧٢٠ ﻫ (٢) بسبب خيانة بعضهم ، ويقظة قرة سنقر ، وبالرغم من ان السلطان لم يقصد من وراء ارسالهم سوى قرة سنقر فقط إلا ان ابا سعيد وبقية زعماء المغول اعتقدوا انهم المقصودون بذلك ، فكان خوفهم الشديد من الاغتيال دافعاً لهم الى الاسراع بعقد الصلح ، وكان اول شروطهم في ذلك الامتناع عن ارسال الفدائيين الى البلاد (٣) .

ثانياً : ومن هذه الوسائل ايضاً ارسال الحملات الصغيرة للقيام بالغارات المحلية

---

(١) المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٥٩٩ ، وينقل ابن الفرات م ٨ ص ١٥٥ عن مقتل شحنة عانة المدعو حنا في سوق بغداد سنة ٦٩٢ ﻫ حيث قفز عليه أحد الفداوية فقتله واختفى في خرائب بغداد .

(٢) ابو الفداء ج ٤ ص ٧٩ ، ابن كثير ج ١٤ ص ٧٤ .

(٣) ابو الفداء ج ٤ ص ٩٢ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٢٠٧ ، ٢٠٩ . العيني الورقة ٢٢٩ - ٢٢٣ في حوادث سنة ٧٢٠ .

على بعض الثغور او القلاع لارهاب العدو او منعه من إجراء التحصينات فيها لأهميتها العسكرية .

وقد أخطأ المغول عندما بدأوا هـذه الحملات إثر هزيمتهم في عين جالوت ، متصورين ان الانقسام الذي حدث بين المماليك بعد مقتل قطز ، مشجعاً لهم على غسل عار الهزيمة من ناحية وعلى استعادة هيبتهم فى قلوب الناس من ناحية اخرى . ولكن الذي حـدث ان المماليك تنبهوا الى خطر المغول المستمر عليهم ، فتناسوا خلافاتهم وأجمعوا أمرهم على طاعة بيبرس واتخذوا من ثغورهم على حدود المغول معسكرات دائمة يغزون منها عدوهم حتى أوقعوا الرعب فيه ورجحت كفتهم عليه .

ففي عهد هولاكو توجهت ثلاث حملات من هـذا النوع قام بها امراء المغول المحليون ، كانت الاولى سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م حيث تجمع المغول الذين نجوا من عين جالوت بقيادة بيدرا ، وانضم اليهم مغول حران والجزيرة ، فهاجموا البلاد واستولوا على حلب وحماة ولـكنهم اصطدموا بمقاومة المماليك ومن اجتمع اليهم من امراء الايوبيين عند حمص ، فكانت « كسرة المغول فيها لا تقل عن كسرتهم في عين جالوت » (١) .

وتعاون المغول في الحملة الثانية سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م مع أتباعهم امراء ارمينيا الصغرى وسلاجقة الروم وبعض العرب من بني كلاب وهاجموا عينتاب ، كما حاصروا

---

(١) ذيل الروضتين ص ٢١١ ، اليونيني جـ ١ ص ٤٣٤ - ٤٣٦ . الذهبي دول الاسلام جـ ٢ ص ١٢٧ - ١٢٨ وهو يشير الى غضب هولاكو لهذه الهزيمة وقيامه بقتل الناصر يوسف وأخيه الظاهر غازي .

في محرم ٦٦٣ ﻫ قلعة البيرة ، ولكن المماليك كانوا يسارعون عند سماعهم بأنباء الاعتداء ، الى ارسال الجيوش لطرد المهاجمين من جهة والقيام بهجمات مقابلة على قلاع المغول فيلحقون بهم الخسائر الكبيرة (١) .

وورث اباقا هذه العداوة ' وكان متفرغاً لها اكثر من أبيه بسبب انتهاء الحرب مع بني عمه مغول القبچاق من ناحية وما وفره ذلك من استقرار نسبي للبلاد في فترة حكمه الطويلة من ناحية اخرى . ويبدو انه سعى لاقرار الصلح غير المتكافئ مع المماليك لاستكمال الاستقرار لبلاده ؛ فكان رسله يحملون دعوته اليهم بعد أن يجرحوا من شعور المماليك وينسبونهم الى الرق والغدر ، وكان امراؤه يغيرون على اطراف الشام كل سنة تقريباً ليؤدبوا من المماليك ويحملونهم على اقرار هذا الصلح المهين ، ولكن النتائج كانت وبالا عليهم .

في خلال السنوات العشر الاولى من حكمه لم تنقطع هجمات المغول بأنفسهم مرات ' وبالاستعانة بأعوانهم من جيوش الأرمن والروم وفرنج الساحل مرات اخرى لم تنقطع عن الاغارة على جميع الثغور المواجهة لهم ' بل وصلت بعضها الى حلب .

فقد تعرضت البيرة مثلا خلال هذه الفترة لهجماتهم اربع مرات ' وتعرضت الرحبة مرتين وحلب مرتين ايضاً والساجور وعينتاب ، والعمق ' وحارم مرة واحدة (٢) .

---

(١) اليونيني ج ٢ ص ٣١٨ ' المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٥٢٣ ' ابن بهادر المؤمني - فتوح النصر الورقة ١٠٦ . *Howorth . 3 . P . 205*

(٢) تعرضت البيرة لهجماتهم في سنوات ٦٦٥ ' ٧٠ ' ٧١ ' ٦٧٤ ﻫ . والرحبة في سنوات ٦٦٥ ، ٦٧١ ﻫ . وحلب في سنوات ٦٦٦ ' ٦٧٠ ﻫ . والساجور سنة -

وعزم اباقا سنة ٦٧٢ هـ على قيادة الزحف بنفسه لفرض صلحه على المماليك بعد أن رفضوا دعوته الثالثة ، فقدم بغداد وأرسل طلائعه الى ضفاف الفرات ، ولكنه نكص على عقبيه عندما توهم ان السلطان بيبرس ينتظره على الحدود (١) ، ثم اضطر الى الخروج بنفسه الى بلاد الروم سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م لملاحقة السلطان الذي انزل بجيوشه هزيمة ساحقة في الابلستين ، ولكن امراء المغول بعد وصولهم ميدان المعركة عدلوا به عن الملاحقة خوفاً من تغير المناخ عليه ، وأقنعوه بتأجيل ذلك لوقت آخر ، على انهم تشجعوا بما أصاب المماليك من انقسام بعد وفاة بيبرس واستيلاء قلاون على السلطة فهاجمت كتائبهم حلب وحماة سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م لمعرفة تأثير هذا الانقسام على قوتهم كمقدمة لحملة كبيرة كان الايلخان يستعد لها (٢) .

وتوقف النشاط العسكري للمغول تقريباً في الفترة التي اعقبت وفاة اباقا سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م وحتى تولي غازان سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م وذلك بسبب اسلام الايلخان تكودار ودعوته الحقيقية للصلح ، وما أعقب ذلك من مقتله وتنازع امراء

- ٦٦٨ هـ ، وعينتاب والعمق وحارم سنة ٦٧٠ هـ . انظر في ذلك اليونيني ج ٢ ص ٣٦١ ، ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ابو الفداء ج ٤ ص ٧ ، ابو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٥٨ ، الذهبي ـ دول الاسلام ج ٢ ص ١٣٥ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٥٥٨ ، ٥٦٤ ، ٥٨٥ ، ٦٠٠ ، ٦٠٦ ، وصيف شاه . الورقة ٦٩ .

(١) ابن الفرات م ٧ ص ٦ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٦١٠ - ٦١١ .

Howorth . 3 . P . 245 .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٦٣ ، الذهبي ج ٢ دول الاسلام ص ١٤٠ .

Howorth . 3 P . 257 - 258 .

الاسرة وزعماء المغول على السلطة ، ففي خلال هذه الفترة الطويلة لم تتعرض حدود المماليك إلا لغارة بسيطة قامت بها بعض كتائبهم على اطراف الرحبة سنة ٦٩١ هـ (١).

اما غازان فقد قضى نصف أيامه في تصفية الانقسامات التي كانت قد أضعفت المغول ، بينما قضى النصف الآخر من حكمه يستعد لتجنيد الجيوش وقيادة الحملات لاخضاع المماليك مما سوف نبحثه فيما بعد .

وعندما تولى اولجايتو ، مال الى السلم ودعا اليه ، ولكنه لم يسع لتحقيقه السعي المشكور ، فبقي النزاع معلقاً ، وبقيت ثغور البلاد متوترة الأعصاب متفتحة الأعين حتى انتهى من بعض مشاكله الداخلية ، حينئذ استجاب لاغراء فرسان العرب (٢) الناقمين على المماليك والذين شجعوه على استغلال التفكك السياسي لهم ووعدوه بالنصر ، فغامر نائبه سونتاي ببعض الجيوش وهاجم بعض الثغور مثل حصن منصور وبهسنا وكركر وقلعة الروم في سنة ٧٠٨ هـ (٣) .

وتعلق اولجايتو بعد فشله في الحملة التي قادها بنفسه على الرحبة ، تعلق بوعود بعض المغامرين من فرسان العرب (٤) ، فكان يشجعهم على اعمال الغزو ويعدهم

(١) ابن الفرات م ٨ ص ١٣٥ ، المقريزي ج ١ ق ٣ ص ٧٧٧ .

(٢) وهو الفارس احمد بن عمرة من ابطال العرب المشهورين وقد مر الحديث عنه عند بحث القبائل .

(٣) الدواداري م ٩ زبدة الفكرة . الورقة ٤٦٤ ، المقريزي ج ٢ ق ١ ص ٤٢ . ابن اياس . وقائع الدهور ج ١ ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٤) من هؤلاء ايضاً الأمير حميضة بن ابي نمي امير مكة الذي كان قد لجأ اليه ووعده بالخطبة له في الحجاز .

بالأموال والرجال لتحقيق ما عجز عنه من نصر ، من ذلك تشجيعه لسليمان بن مهنا سنة ٧١٥ ﻫ حيث أمده بجماعة من التتر الذين هاجموا اطراف تدمر ووصلوا حتى البيضا ، وفي سنة ٧١٦ ﻫ أوفد جماعة آخرين هاجموا اطراف حلب وقلعة الكيختا(١)

وبوفاة اولجايتو انتهت الاعمال العسكرية التي كانت تعكر العلاقات بين المغول والمماليك وانفتح الباب واسعاً أمام مساعي الصلح وتحقيقه بين البلدين ، ذلك ان المسؤولين عن توجيه الايلخان الصغير أمسوا بحراجة موقفهم أمام انقسام أمراء المغول وأطماعهم في السلطة من ناحية ، وعجزهم عن مواجهة قوة المماليك المتنامية بفضل استقرار الناصر محمد في السلطنة من ناحية اخرى ، فركنوا للسلم الذي تحقق للبلدين بعد ذلك بفترة قصيرة وحقق لهما الأمن والاستقرار .

ثالثاً : وكان من هذه الوسائل ايضاً الحملات العسكرية الكبيرة وقيادة الايلخانات لها أملا في تحقيق انتصارات كاملة ، وذلك كلما أنسوا من المماليك ضعفاً وانقساماً ويمكن القول أن جميع هذه الحملات التي قادها الايلخانات على المماليك كانت بتشجيع من امراء المماليك أنفسهم الذين انقسموا على أنفسهم فدعوا المغول ، أو لجأوا اليهم وشجعوهم على غزو بلادهم ، من ذلك أن اباقا لم يجرأ على مهاجمة الشام بنفسه إلا بعد أن دعاه الأمير سنقر الأشقر الذي كان قد تمرد على طاعة قلاون واعتصم ببعض القلاع بالشام ، دعاه الى مهاجمة البلاد ووعده بالمساعدة على ذلك ، وعزز من هذه الدعوة ، دعوة الامير عيسى بن مهنا شيخ العرب الذي كان قد تحالف مع سنقر

---

(١) ابو الفداء جـ ٤ ص ٨٠ ، النويري جـ ٣٠ ق ٢ الورقة ٣١٨ في حوادث سنة ٧١٥ ﻫ . ابن ابي الفضائل جـ ٣ ص ٧٦٠ ، المقريزي جـ ٢ ق ١ ص ١٦٢ .

الاشقر بذلك ، فقصور اباقا نتيجة لذلك ان الفرصة قد حانت للاستيلاء على الشام فقاد بنفسه الجيش نحو الرحبة ، في الوقت الذي تولى أخوه قيادة جيش آخر ، ضم بالاضافة الى المغول ضم جيوش ارمينيا وجورجيا وتوغل به داخل البلاد حيث اصطدم به السلطان قلاون عند حمص في جمادى الآخرة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م وألحق به هزيمة منكرة فقد فيها معظم جيشه وفر جريحاً الى أخيه الايلخان الذي أنهى حصار الرحبة وعاد الى البلاد وقد أكل الغيظ قلبه فلم يعش بعدها إلا اشهراً معدودات (١) .

اما غازان ، فقد شجعته عدة عوامل على محاولة الاستيلاء على الشام أهمها لجوء أمراء المماليك اليه وعلى رأسهم الامير قبجق الذي كشف له عن حالة الضعف التي تسود البلاد بسبب استيلاء الامراء على السلطنة وتنازعهم عليها ، وشجعه على استغلال هذه الاوضاع ووعده بسهولة انهيار المقاومة أمامه (٢) .

ومن المحتمل ان غازان قبل زحفه على الشام في ربيع ٦٩٩ هـ ١٣٠٠ م أرسل رسولا الى المماليك يدعوهم الى الدخول في طاعته والخطبة له ، فان « ابن الفوطي » يشير الى أن غازان أرسل سنة ٦٩٨ هـ رسولا الى الشام هو نصير الدين محمد بن صدر الدين التبريزي (٣) .

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٨٢ - ٨٤ ، ابن العبري ص ٢٨٨ - ٢٨٩ ، ابو الفداء ج ٤ ص ٤ ص ١٥ - ١٦ ، ابو المحاسن - مورد اللطافة ص ٤٢ - ٤٣ .

Lane - Poole . Hist . egypt . P . 279 - 280 .

(٢) ابو الفداء ج ٤ ص ٣٧ ، علي ابراهيم - دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ١٤٨ - ١٤٩ . سرور . دولة بني قلاون ص ١٧٦ .

Lane Poole . Hist . egypt . P . 295 .

(٣) تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ق ١ ص ١٤١ .

وأصابت مشورة قبجق لغازان مقتلا من المماليك الذين كان الانقسام والتردد واضحاً على تجمعهم الذي وصل متعباً « مجمع المروج » في وادي الخازندار بين حمص وسلمية فلم يستطع الاشتباك مع المغول في يوم ٢٧ ربيع الاول اكثر من جولة واحدة تفرق بعدها هارباً وفي مقدمته السلطان الصغير الناصر محمد تاركاً الشام لغازان (١) .

ويبدو ان الايلخان لم تكن لديه خطة عمل واضحة لما بعد الانتصار مما يدل على ان الهدف من حملته لم يكن الاستيلاء والاستقرار ، بل لمجرد تأديب المماليك وإيقاف اعتداءاتهم ، يؤيد هذا أن فترة الاحتلال المغولي لم تطل اكثر من مائة يوم مكث غازان منها شهراً في الشام الى ان انتهى من جمع أموال الناس (٢) ثم غادرها الى بلاده في ١٢ جمادى الاولى بعد أن أناط مسؤولية الحكم فيها الى الامير قبجق نيابة عنه (٣) ، وعين لمساعدته بقية امراء المماليك الذين لجأوا معه الى المغول .

وبالرغم من اعلانه بقاء جيشه في الشام يقوده نائبه قطلوشاه وبولاي نويان ، وانه سيعود في الخريف القادم ، إلا ان هذا الجيش بدأ في العودة بعد عودة الايلخان

---

(١) ابو الفداء ج ٤ ص ٤٤ - ٤٥ ، ابن ايبك ج ٩ ص ١٥ - ١٧ ، الدواداري م ٩ الورقة ٣٥٦ ، ميرخوند ج ٥ ص ١٣٧ . ابو المحاسن - النجوم ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) ابن ابي الفضائل ج ٢ ص ٤٩٦ وهو ينقل عن علم الدين البرزالي ان المبلغ الذي حمل لخزانة الايلخان كان ثلاثة ملايين وستمائة الف درهم سوى ما لحق ذلك من الرشاوي والبراطيل وما استخرج للأمراء والوزراء .

(٣) انظر مرسوم تولية قبجق - تاريخ سلاطين المماليك ص ٦٦ - ٦٨ . انظر ايضاً ملحق رسائل غازان - الناصر .

مباشرة ، بعد أن جمع لنفسه أموالا أخرى ، فقد غادر قطلوشاه البلاد بعد أقل من اسبوعين من عودة سيده ، بينما لم يمكث بولاي نويان بعــده اكثر من شهر آخر (١) .

وأرى ان عودة هذه الجيوش بهذا التدرج لم تكن عقوبة ، وانما باتفاق مسبق مع الايلخان ، علماً بأنها لم تتعرض لأي مقاومة او اعتداء من بقايا جيوش المماليك او من الأهالي ، بالاضافة الى ذلك فان الرسالة التي أرسلها الايلخان الى السلطان كانت تحمل دعوة الى السلام .

وقهرت الظروف الطبيعية حملة غازان الثانية التي زحف بها في الجمادين من سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠١ م حتى وصل اطراف حلب ثم توزعت بين سرمين وانطاكيا وقرون حماة والمعرة ، لكنه لم يستطع التوغل فى الداخل بسبب الامطار والثلوج والعواصف التي صادف وقوعها في هذه الفترة ، والتي أدت الى إتلاف حيواناته وإهلاك رجاله فعاد الى بلاده وهو يظن أن غضب الله سبحانه وتعالى قد حل عليه (٢) .

ودارت الدائرة على جيوشه في حملته الثالثة التي قادها بعد أن يئس من مطاوعة المماليك له ودخولهم معه في صلح تكون يده فيه هي العليا ، فقد تقدم بعد حجزه رسل المماليك تقدم على ضفاف الفرات حتى حاصر الرحبة ، بينما أرسل الشطر الاكبر

(١) ابن ايبك ج ٩ ص ٣١ - ٣٧ ، ابن حجر ج ٣ ص ٢٤١ - ٢٤٣ ، ميرخوند ج ٥ ص ١٣٨ .

(٢) وصاف م ٤ ص ٢٩٦ ، ابو الفداء ج ٤ ص ٤٧ ، ابن ايبك ج ٩ ص ٤٥ - ٤٦ ، المقريزي ج ١ ق ٣ ص ٩٠٦ ، ابن شاكر - عيون التواريخ - الورقة ٢٠٦ - ٢٠٧ .

من جيوشه بقيادة نائبه قطلوشاه الذي توغل في داخل البلاد حيث اصطدم بالمماليك في مرج الصفر قرب حماة في اول رمضان ٧٠٢ هـ/١٣٠٣ م ، ولقي على أيديهم هزيمة منكرة ، حتى أن الذين نجوا من المعركة لقوا نهايتهم غرقاً في نهر الفرات او ضياعاً في أودية الصحراء ، فلم يتحمل غازان سماع انبائها حتى غادر الحياة بعدها بقليل(١) .

وانزلق اولجايتو بوعود الامراء اللاجئين اليه من المماليك الذين أغروه ببني قومهم وتمهدوا له بأخذ البلاد بغير قتال ، فزحف بوعودهم نحو الرحبة اولا لتكون قاعدة لأعماله العسكرية بعد أن أخبره الامراء اللاجئون ان صاحبها هو أحد عتقائهم وانه سوف يسلم لهم مفاتيحها عند وصولهم ، لكن حصاره لها طال شهراً عندما امتنع صاحبها عن خيانة سيده السلطان ، وعجزت مجانيق الايلخان عن هدم معنويات المحصورين الذين استطاعوا بالهدايا وحسن التصرف ، التأثير على حاشية الايلخان ليقبل منهم طاعة شكلية كانت كافية للايلخان لكي يهرب بجيشه من حصار الجوع وقسوة المناخ الذي كان ينتظره في هذا المكان الصحراوي الفقير ، فترك أثقاله في ٢٣ رمضان ٧١٢ هـ وقفل عائداً الى بلاده فكان آخر ايلخان يزحف نحو الشام (٢) .

---

(١) وصاف م ٤ ص ٤٠٩ ، ٤١٤ . ابو الفداء جـ ٤ ص ٤٩ - ٥١ ، ابن ايبك جـ ٩ ص ٨٤ - ٨٨ ، الدواداري م ٩ الورقة ٤٢٠ - ٤٢٧ ، المقريزي جـ ١ ق ٣ ص ٩٣٠ - ٩٣٨ .

Howorth . 3 . P . 465 - 467 . ' 469 - 475 .

(٢) ابو الفداء جـ ٤ ص ٧٢ ، ابرو ص ٥٤ ، انظر ايضاً حاشيته المنقولة عن تاريخ مفصل ايران لعباس اقبال جـ١ ص ٣٢٠ - ٣٢١ . ابن ايبك جـ ٩ ص ٢٤٥ ، ٢٥١ - ٢٦٢ . ابن ابي الفضائل جـ٣ ص ٧٢٨ .

اما بالنسبة للمماليك ، فقد أشرت الى ان كفتهم كانت راجحة في هـــذه العمليات العسكرية بالرغم من إيقاع المغول الخراب فى المدن والاطراف الشامية التي وصلوا اليها ، ذلك ان المماليك كانوا يستندون فى عملياتهم العسكرية على جهاز من الاستخبارات المنتشرة فى جميع البلاد الاسلامية التي تخضع للحكم المغولي ، وخاصة المجاورة منها لحدودهم مثل عانة وسنجار وغيرها ، بحكم تعاطف الرأي العام الاسلامي مع المماليك ، وحتى عواصم الايلخانيين لم تكن تخلو من عيونهم ، يشير الى ذلك ما ورد في جواب الناصر محمد على رسالة غازان قوله : « ولم يعلم أنه لو تقلب في مضجعه من جانب الى جانب ، او خرج من منزله راجلا او راكباً ، كان عندنا علم من ذلك في الوقت القريب » (١) .

لذلك كان المماليك على بينة من اكثر تحركات الجيوش المغولية المتوجهة نحو بلادهم ، فكانوا يستعدون لها قبل وصولها ويلحقون بها الخسائر الكبيرة ، وكانوا من ناحيتهم ، يوالون الأطراف المغولية بالهجمات المستمرة ويتوغلون في اعماق البلاد حتى أصبحت ، كما ذكر الناصر فى جوابه لغازان قوله : « أصبحت بلادكم لغارتنا مُقام ، ولجيوشنا قرار » (٢) .

---

(١) انظر ملحق رسائل غازان ـ الناصر . انظر أيضاً ما أورده العيني ـ الورقة ٣٥٩ ـ ٣٦١ في حوادث سنة ٧٢٣ هـ عندما حاول السلطان المملوكي ارسال فدائي مع وكيله التاجر مجد الدين السلامي ، وامتناع السلامي عن أخذه ، فأمره السلطان أن يوصله فقط الى فلان المقيم بتبريز ، وكان مباطناً للسلطان لكي يزود القصاد بأخبار البلاط الايلخاني .

(٢) نفس الملحق السابق .

لكن المماليك لم يكونوا قادرين على فعل ما يفعله المغول ببلادهم من تخريب وقتل بالجملة ، بل كانوا يتلقطون المغول فقط ومن يشايعهم من اهل البلاد وخاصة النصارى ، حتى أصبحت المدن المسيحية فى ارمينيا الصغرى وملاطيا وانطاكيا المنتشرة في شمال الشام هدفاً مستمراً لغزوات المماليك السنوية ، حتى اضطرت مملكة ارمينيا الى الاعتراف بسيادة السلطان المملوكي عليها في كثير من السنين بالاضافة الى ولائها للمغول .

وامتدت هجمات المماليك في فترة الانقسام المغولي في أعقاب وفاة اباقا حتى بلغت الموصل وإربل ، فكانوا يختصون النصارى في أغلب الأحيان بهجماتهم ، فيقتلون رجالهم ويستحيون نساءهم ويعودون محملين بالغنائم والسبايا (١) .

وامتدت هجماتهم من ناحية اخرى حتى وصلت أطراف الأنبار (٢) على الفرات كما حدث ذلك سنة ٦٧٢ هـ عندما أزمع اباقا على الزحف نحو الشام .

واستطاع المماليك خلال هذا الصراع الطويل انتزاع بعض القلاع التي كان المغول قد استولوا عليها فيما مضى ، من ذلك قلاع قطيبا والكيختا التي استرجعها المنصور قلاون فى ربيع ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م وحولها الى حصون قوية لحماية الحدود

---

(١) ابن عبد الظاهر ـ تشريف الأيام والعصور ص ١٣٤ ـ ١٣٦ . الحوادث الجامعة ص ٤٤٧ ، تاريخ نصارى العراق ص ١١٢ .

Howorth . 3 . P . 317 - 318 . ' 327 .

(٢) إحدى عواصم العباسيين الاولى قبل بغداد ولا تبعد آثارها الآن عن بغداد اكثر من خمسين كم .

بعد أن شحنها بالرجال والسلاح (١) .

ولا يجب أن نغفل في هذا المجال اخيراً أهمية موالاة العشائر للسياسة المملوكية ودورهم في حماية القصاد ، ونقل الاخبار ومهاجمة مؤخرة العدو مما كان له اكبر الأثر في انجاح سياستهم وترجيح كفتهم ، مما دفع المغول الى تكرار عرضهم الصلح على المماليك للاحتفاظ بما في أيديهم من البلاد .

محاولات الصلح : وبدأت المساعي له منذ عهد اباقا الذي كان قد ورث عن ابيه تركة مثقلة من الحروب مع البلاد المجاورة ، فبالاضافة الى حروبه مع المماليك كانت المعارك تنتظره مع بني عمه مغول القبچاق ، فضلا عن أن حدوده الشرقية التي كان يتولى شؤونها في حياة ابيه فقد تركها مضطربة أمام اطماع بني عمه مغول ماوراء النهر . لذلك سعى اباقا بعد توليه العرش ، سعى لاستمالة المماليك ودعوتهم للصلح لكي يأمن جانبهم من ناحية ويضعف من تعاونهم السياسي الذي كان قد بدأ بينهم وبين مغول القبچاق قبل أن يتحول الى تعاون عسكري عليه ، فأسرع بعد جلوسه الى ارسال الرسل الى السلطان المملوكي يحملون اليه الهدايا ويدعونه للصلح (٢) .

وكرر اباقا الدعوة ثانية وثالثة ، لكنه لم يلق لسؤاله جواباً (٣) .

---

(١) ابن عبدالظاهر . تشريف الايام والعصور ص ٢٧ - ٣٠ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٧١٤ - ٧١٦ .

Howorth . 3 . P . 310 . D'*ohsson . 3 .* P . *615 - 616 .*

(٢) المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٥٥٣ ، سعيد عاشور - العصر المماليكي ص ٤٣ .

(٣) كانت الثانية سنة ٦٦٧ هـ ، انظر اليونيني ج ٢ ص ٤٠٧ ، سرور دولة الظاهر بيبرس ص ٩٦ ، وكانت الثالثة سنة ٦٧٠ - ٦٧١ هـ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٦٠١ ، ٦٠٤ ، المقري الفيومي - الورقة ١٣٨ .

وليس من شك ، بأن الصلح كان مفيداً للسلطان المملوكي الذي سيتفرغ بعده لمواجهة الجبهة الثانية التي كانت لا تزال تعشعش في بلاده ، اعني بها العدو الصليبي المتمثل ببقايا امارات الساحل ، بالاضافة الى خطر ارمينيا الصغرى التي كانت ردءاً للمغول وحلقة الوصل بينهم وبين الصليبيين ، ولكن بيبرس لم يفعل ، لأن الشروط التي عرضها المغول كما يبدو لم تكن واضحة اومطمئنة للسلطان بالرغم من ان اليونيني(١) نقل لنا جانباً مما دار في آخر هذه المفاوضات قول رسول الايلخان « وأقرب ما في هذا ان يبقى كل واحد منا على ما في يده » .

وكذلك كان من اسباب الرفض ايضاً ان عقلية الحاكم المغولي ونظرته للسلطان المملوكي كانت عقلية متعجرفة متعالية ، إذ ان الايلخان بالرغم من كونه صاحب الدعوة ، وصاحب الحاجة في تحقيقها ، تصور انه يمن على المماليك ، فكان في موقفه أقرب ما يكون الى فرض الشروط وليس عرضها ، بالاضافة الى محاولته التجريح من مكانتهم .

وجاءت المحاولات الحقيقية للصلح من جانب احمد تكودار الذي كانت تدفعه الى ذلك بالاضافة الى تأمين الاستقرار والرخاء ، ومانشأ عن ذلك ايضاً من تفرغه لمطاردة خصومه من بني أبيه الذين نافسوه على العرش ، يدفعه الى ذلك ايضاً اسلامه الذي اهتدى بهديه ، ورغب في العمل على اقامة منارة .

وتعطينا الرسائل المتبادلة بين الايلخان والسلطان(٢) صورة لروح الاسلام التي

---

(١) ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٤٧١ .

(٢) انظر ملحق رسائل تكودار وقلاون ، وقد حمل رسالة الايلخان الاولى –

كانت تطل على احاديث الجانبين في الدعوة الى المحبة والاخوة ، لكن تخوف أمراء المغول من قيام هذا الصلح وما ينشأ عن ذلك من سيادة احكام الاسلام وتعاليمه التي سوف تحرمهم من كثير من الامتيازات ، دفعهم الى التحالف عليه واتخاذ ابن اخيه ارغون الذي كان يزاحمه على العرش ، اتخاذه ستاراً للقضاء على الايلخان والتخلص من دعوته فكان أول ايلخان مغولي سقط شهيد اسلامه ، كما كان ذلك قاضياً على فكرة الصلح .

وجاءت الدعوة الثالثة على لسان غازان الذي لم يمنعه اسلامه من المبادءة بالعداوة والحرب أولا ، ثم بعد احساسه بالعجز عن تحقيق الغلبة ، فتح باب المفاوضة للصلح والدعوة الى حقن الدماء ، ولم تخل رسالته التي حملها رسوله الى القاهرة في ذي الحجة ٧٠٠ هـ ، من شيء من الغرور والتعالي مما لا يتفق وتواضع المسلم ، فكان جواب الناصر اليه من نفس نوعه ، الأمر الذي اغضب غازان وجعله يحتجز الرسل الذين

ـ المؤرخة في اواسط جمادى الاولى ٦٨١ هـ وفد مكون من قطب الدين الشيرازي والأتابك بهاء الدين ، وشمس الدين بن الصاحب ، وحمل نفس الوفد جواب قلاون الذي كتب في شهر رمضان ٦٨١ هـ على الاكثر ، وحمل رسالة الايلخان الثانية وفد مكون من الشيخ عبدالرحمن وابن الصاحب وصمداغو وكانت مؤرخة اواسط ربيع الاول ٦٨٢ هـ انظر في ذلك تشريف الايام والعصور ص ٦ ـ ١٠ ، ١٠ ـ ١٦ ، ٦٩ ـ ٧١ . وقد سبق أن أشرت الى محاولة ابن عبد الظاهر التشكيك في ديانة الشيخ عبدالرحمن وبالتالي في اسلام الايلخان ، وان ما يتظاهر به من تقوى ليس إلا خديعة لكي يأمن الايلخان جانب السلطان ، فيتفرغ بذلك للقضاء على بني اخيه ، انظر تشريف الايام ص ٤٨ .

حملوا اليه الجواب لكي يباشر بالعدوان ثانية (١) .

وكان اول عمل قام به اولجايتو ، فتحه باب المودة مع السلطان ، حيث أطلق سراح رسله المحتجزين ، وأوفد معهم رسلا من عنده هما علاء الدين علي والقاضي صدر الدين سليمان الذين وصلوا في ذي القعدة ٧٠٤ هـ يحملون دعوته التي يخاطب فيها السلطان بالأخوة ويدعوه الى عقد الصلح لمدة خمسين عاماً ، ولا يرضى بأقل من عشرة سنوات لكي تعمر البلاد ، ولكن الاتفاق مع ذلك لم يتم بالرغم من استمرار المراسلة بينهما (٢) . لكن الهدوء والاستقرار ساد حدود البلدين حتى كانت حادثة لجوء امراء المماليك الى الايلخان فاشتعلت نار الحرب ثانية .

وفرض الصلح نفسه على الجانبين في عهد أبي سعيد الذي لم يكن قد جاوز سن البلوغ عند توليه العرش ، فناب عنه في الحكم وصيه چوبان متعاوناً مع الوزير عليشاه ولذلك فقد تغيرت كلياً سياسة المغول نحو المماليك ، فبالرغم من ان ابا سعيد لم يكن يفقه شيئاً فى امور السياسة ، فانه ايضاً ، نشأ منذ ولادته في بيئة اسلامية ،

---

(١) انظر ملحق رسائل غازان ـ الناصر . وقد حمل رسالة غازان وفد مكون من قاضي الموصل كمال الدين موسى بن محمد الشافعي ، ونصير الدين التبريزي ، وثالث تركي . ويشير وصاف م ٤ ص ٣٩٧ الى اشتراط غازان اقامة الخطبة له ، وتقديم الخراج السنوي ، بينما لا نجد اشارة الى ذلك في نص الرسالة ، ولا فى جواب السلطان المملوكي ، وحمل جواب الناصر وفد مكون من ازدمر المجيري والقاضي ابن السكري.

(٢) ابن ايبك جـ ٩ ص ١٢٧ ، ١٣٠ ، ابن ابي الفضائل جـ ٣ ص ٦١٠ - ٦١١ ، النويري جـ ٣٠ ق ١ الورقة ١٠٥ ، العيني الورقة ٣٣٥ ،

Howorth . 3 . P . 537 .

فلم يرث في تكوينه العقلي من أخلاق المغول عقدة السيطرة والانفة التي كانت قوية في عمه غازان ، والتي كانت تجد في اشعال الحرب والاستهانة بأرواح الخلق سبيلا للتعبير عن سلطانها .

وكان چوبان مغولياً ، ولكنه كان مسلماً حسن الاسلام ، فضلا عن انه سبق ان تلوع وقاسى الكثير من الحروب مع المماليك حتى انه ضرب بالعصا مرة من قبل غازان بسبب ذلك فلم يكن له مصلحة في ايقاد نار الحرب معهم ، بالاضافة الى ان الحرب لن تزيد من مجده وقد بلغ قمته .

وأهم من هـــذا كله ان الحكم الايلخاني الجديد ، كان في حالة من التفكك والانقسام بين امرائه بحيث لا يستطيع مواجهة المماليك عسكرياً ، فضلا عن عودة أطماع مغول ما وراء النهر ومغول القبچاق في البلاد بسبب صغر الايلخان (١) .

لذلك كان چوبان أول من سعى لعقد الصلح ، وبفضل مساعيه تحقق ، اشار الى ذلك ابن ايبك بقوله (٢) : « وكان سبب هذا الصلح المبارك جوبان فانه كان مسلماً صحيحاً » على اننا لا يجب أن نغفل دور الوزير عليشاه في ذات ايضاً .

وبدأت اولى مساعي الصلح في سنة ٧١٧ هـ / ١٣١٧م أي بعدجلوس ابي سعيد مباشرة ، حيث أرسل مجد الدين اسماعيل السلامي (٣) رسالة يخبر فيها السلطان برغبة ابي سعيد وچوبان والوزيرين رشيد الدين وعليشاه بعقد الصلح ، وأرسل كذلك

(١) اشار الى هذا المعنى ايضاً علي ابراهيم - مصر في العصور الوسطى ص ٢٨٥.

(٢) كنز الدرر جـ ٩ ص ٣١٢ .

(٣) التاجر السفار كانت اكثر اقامته في عاصمة الايلخانيين وكان اشبه بالممثل التجاري للسلطان .

هدية من جهة رشيد الدين (١) .

وتوقفت المراسلات قليلا حتى سنة ٧٢٠ هـ بسبب الضائقة الاقتصادية الشديدة التي أصابت البلاد ، ثم اشتدت بعدها الدعوة الى الصلح حتى اصبح الرسل يتنقلون بين البلدين اكثر من مرة في السنة الواحدة (٢) .

وتنوعت خلال انتقال هؤلاء الدعاة ، تنوعت مطاليب الايلخانيين من المماليك بالاضافة الى تأكيدهم على الدعوة الأساسية ، فقد طلبوا مرة ارسال سنجق سلطاني ليستظل به موكب الحج العراقي ، والتمسوا ثانية ارسال ملاكين من الديار المصرية ثم كان من هذه المطاليب ايضاً الرغبة في اصهار الايلخان وتزوجه من ابنة السلطان ، وفي خلال ذلك كانت الهدايا الكثيرة تنقل مع غدو الرسل ورواحها الأمر الذي ساعد على توثيق اواصر المحبة بين الطرفين وإضعاف عوامل النفرة والجفاء بينهما (٣) .

ومن العوامل الاخرى التي دفعت المغول الى التعجيل بعقد الصلح خوفهم من اعمال الفدائيين الذين كان السلطان يرسلهم باستمرار لاغتيال خصومه من امراء المماليك ، إذ اعتقد ابو سعيد وغيره من زعماء المغول انهم المقصودون بذلك ، وكان من جملة ما اشترطوه من الشروط ، ايقاف ارسالهم .

---

(١) المقريزي ج ٢ ق ١ ص ١٧٥ .

(٢) احصى ابو الفداء هذه المراسلات في ج ٤ ص ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ - ٩٦.
Howorth . 3 . P . 60I .

(٣) ابن ايبك ج ٩ ص ٣٠٨ ، النويري ج ٣١ ق ١ الورقة ٣ ب في حوادث سنة ٧٢١ هـ ، العيني الورقة ٢١٠ - ٢١٩ في حوادث سنة ٧٢٠ ، ٧٢٢ هـ ، المقريزي ج ٢ ق ١ ص ٢٠٩ ، ٢٢٧ .

اما بالنسبة للسياسة المملوكية فقد كان الصلح مفيداً لهم ايضاً ، فبالاضافة الى تأمين الاستقرار للبلاد الذي بدوره يوفر الرخاء الاقتصادي ويؤدي الى اعمار البلاد ، فان شعار تحرير العراق وإعادة الخلافة الى دار السلام ، قد ضعف تأثيره على الناس بعد اعتناق المغول الاسلام وتلفظهم بالشهادتين ، فلم يعد ممكناً تحريك الجماهير باسمه ودفعهم الى بذل الاموال او التطوع لتحقيقه . بالاضافة الى ان وقوع الصلح قد يفيد في تحقيق بعض الأغراض السياسية والشخصية للسلطنة في السيطرة على العشائر التي كانت تجد في اختلاف السياستين رحمة لها .

وتحقق الصلح في عام ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣م بعد أن تمهدت قواعده وشروطه خلال هذه الاتصالات التي استغرقت اكثر من ثلاث سنوات ، ففي محرم ٧٢٣ هـ توجه رسول السلطان وهو الامير ايتمش المحمدي الى تبريز ليستمع الى قسم الايلخان ونائبه ووزيره على الشروط التي اتفق عليها ، ولكي يحمل نسخة من هذا القسم الى سيده .

كما وصل بعد عودة ايتمش الى القاهرة ؛ وصول رسول ابي سعيد في جمادى الآخرة لكي يستحلف السلطان على الصلح وشروطه ، والذي اصبح نافذاً بعد توقيعه من قبل الفريقين ، والذي كانت مدته عشر سنوات وعشرة ايام (١) .

وتحققت أغراض السلطان في هذا الصلح ، حيث تقرر توحيد سياسة البلدين نحو العشائر التي اضطر شيوخها بعد ذلك الى الدخول في طاعة السلطان .

اما بالنسبة لحقده على خصمه قرة سنقر ، فلم ينته بعقد الصلح لأن الايلخان

---

(١) ابن ايبك ج ٩ ص ٣١٢ ، النويري ج ٣١ ق ١ الورقة ٤٤ ب - ٤٥ م في حوادث سنة ٧٢٣ هـ ، المقريزي ج ٢ ق ١ ص ٢٤١ - ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، العيني الورقة ٣٥٤ - ٣٥٧ ، ٣٦٥ - ٣٧٢ .

لم يفرط فيه الأمر الذي دفع السلطان بعد ذلك الى خيانة قسمه وإرسال الفدائية لاغتياله فلم يفوزوا بطائل .

وتضمن عقد الصلح الشروط التالية (١) :

١ ـ توحيد سياسة البلدين نحو المشاغر بما يؤدي الى اخضاعها .

٢ ـ الاعتراف بحق اللجوء السياسي ، وعدم المطالبة باعادة اللاجئين او ارسال الفدائية وراءهم .

٣ ـ تقوية التجارة بين البلدين وتشجيع انتقال التجار وحسن معاملتهم .

٤ ـ احتماء موكب الحج العراقي بالسنجق السلطاني ، وتحديد مكانته في موسم الحج بأن يكون تالياً لموكب السلطان .

أهمية الصلح : وتحققت اهداف الصلح الرئيسية في تأمين الاستقرار والسلام بين البلدين فلم تتعرض حدود السلطنة المملوكية لاعتداءات المغول لفترة تزيد على السبعين سنة حتى ظهور تيمور لنك .

وبالرغم من أن المصاهرة (٢) لم تتحقق بين الحاكمين ، إلا أن العلاقة الحسنة بقيت تربطهما ، وبقي الرسل يتنقلون بالرسائل والهدايا بين البلدين بكثرة .

واستفاد ابو سعيد من هذا الصلح ، فتخلص من بعض خصومه الذين احتموا بالسلطان خلافاً لما حصل الاتفاق عليه ، إذ قبل الناصر محمد على الغدر بضيفه تيمورتاس

(١) المقريزي ج ٢ ق ١ ص ٢٠٩ ، العيني الورقة ٢١٩ ـ ٢٢١ .

Howorth . 3 . P . 600 .

(٢) ابو الفداء ج ٤ ص ١٠٣ ، تاريخ سلاطين المماليك ص ١٨٠ ، المقريزي ج ٢ ق ١ ص ٢٥٧ ، ٢٧٢ ، ٣١١ .

ابن چوبان سنة ٧٢٨ هـ إرضاءاً منه لأبي سعيد (١) ، كما قام السلطان سنة ٧٣٤ هـ بالتدبير على أحد أمراء المغول وهو « يساور » خلال موسم الحج في مكة لخشية ابي سعيد من منافسته له على العرش ، ثم قبل الناصر بعد ذلك ايضاً شفاعة ابي سعيد وأمراء المغول في صاحب ارمينيا الصغرى الذي كان قد تعرض لبعض رسله ، فعفا عنه وأوقف سير الجيوش الى بلاده (٢) .

وسنحت الفرصة أخيراً للسلطان المملوكي لتحرير العراق وضمه الى مملكته وذلك بعد وفاة ابي سعيد وانقسام امراء المغول على انفسهم ، وقيام بعضهم بدعوته الى البلاد والخطبة له فيها ، وكان كل ما يحتاجه ، حركة عسكرية بسيطة لدعم هؤلاء الأمراء ، فيريح بذلك العراق مما كان ينتظره من فوضى وإراقة دماء على أيدي الأمراء الذين تولوا مقاليده بعد ذلك ولكنه لم يفعل ، غفر الله له ذلك .

***

(١) ابو الفداء جـ ٤ ص ١٠١ – ١٠٢ ، تاريخ الجزري م ١ الورقة ٩٧ – ١٠٦ في حوادث سنة ٧٢٨ هـ ، موير – تاريخ دولة المماليك ص ٨١ – ٨٢ وهو يشير الى المساومة التي طالب بها الناصر قرة سنقر وما أعقب ذلك من وفاته في نفس العام مما يشير الى احتمال مواطأة ابي سعيد على تدبير وفاته ، ابن خلدون جـ ٥ – العبر ص ٥٥٠–٥٥١.

(٢) ابن ايبك جـ ٩ ص ٣٩٨ – ٣٩٩ ، المقريزي جـ ٢ ق ٢ ص ٣٦٧ – ٣٦٨ ، العيني – الورقة ١٢٤ – ٤٢٥ في شفاعة چوبان لصاحب ملطية .

Howorth . 3 · P . 617 .

ثانيا : علاقة الايلخانية مع اوربا والباباوات والملوك :

ورث الايلخانيون هذه العلاقة عن الدولة المغولية الأم ، فساروا على نفس تخطيطها وعملوا على تحقيق اهدافها .

فقد كنا أشرنا ان المغول عندما انطلقوا في توسعهم ، توجهت بعض حملاتهم عبر الدربند وقفقاسيا الى روسيا ومنها الى وسط اوربا فأوقعوا فيها الخراب والدمار مثلما فعلوا في بقية البلاد التي وصلوا اليها .

واستيقظت اوربا على دوي تخريبهم ، فتحرك البابا جريجوري التاسع يحث الأمراء والملوك على تلافي هذا الخطر القوي ، ويدعوهم الى التكاتف والاستعداد لدفعه(١) ولكن هؤلاء الأمراء عندما علموا باستقرار هذه الأقوام في روسيا ، وانتهاء تعرضها لبلادهم ، أحسوا بامكانية استغلال هذه القوة الجديدة في تحقيق أغراضهم القديمة في استعادة بيت المقدس التي كان الأمل باستعادتها قد ضعف ، وبدأت كنيسة روما وهي القوة الموجهة لأمراء اوربا في هذه الفترة ، بدأت تخطط لتحقيق هدفين رئيسين هما :

١ ـ كسب هذه القوة الجديدة لخدمة الكنيسة ودعوتها لاعتناق المسيحية خاصة وان الاخبار التي وصلت اوربا تفيد ان المسيحية منتشرة بينهم .

٢ ـ استغلالها اوالتحالف معها لضرب القوة الاسلامية واسترجاع البيت المقدس

---

(١) براون ج ٢ ـ تاريخ الأدب في ايران ص ٥٧٣ ، الصياد ـ المغول في التاريخ ص ١٢١ .

Loewe . The Mongols . C . M . H . Vol . 4 . PP . 638 - 640 .

قررت اوربا ذلك في الاجتماع الذي عقده البابا اينوسنت الرابع في ليون سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م . ثم تفرغ لتنفيذه وإرسال الرسل لذلك (١) .

ولم تكن المسيحية غريبة على المغول ، فقد كان المبشرون النساطرة خاصة قد وصلوا بلادهم منذ زمن سابق ، ونجحوا في نشر تعاليمها بينهم حتى قيل ان بعض قبائلهم كانت على المسيحية مثل قبيلة كرايت ، كما ان سياسة جنكيز وأبنائه من بعده بالرغم من انها قامت على أساس من التسامح الديني مع الطوائف المختلفة التي خضعت لهم ، إلا أن المسيحية كانت موضع عطف ورعاية خاصة منهم لأسباب سياسية اكثر منها شخصية او عاطفية ، لذلك لقي رسول البابا اينوسنت الرابع المدعو كاربيني الذي وصل في سنة ٦٤٤ هـ/١٢٤٦ م حيث كان القوريلتاي المغولي منعقداً لاختيار كيوك للخانية ، لقي ترحيباً خاصاً من الخان الجديد الذي عرف بالعطف الشديد على المسيحية (٢) .

على أن الترتيب والاحترام الذي لقيه رسول البابا في بلاط كيوك لم يؤد الى

---

(١) مغول ايران ص ٦٢ .

Sykes . 2 . P . 92 .

ويضيف

Atiya : The Crusade in The Later Middle ages . P . 233.

هدفاً ثالثاً وهو ابعاد خطر المغول عن اوربا ، وهو ما أراه خلاصة لما سبق .

(٢) براون جـ٢ تاريخ الأدب في ايران ص ٥٧٤ ، المغول في التاريخ ص ١٢٦ . كيرك ـ موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ٧٦ ، الدولة الخوارزمية ص ٢٤٥ - ٢٤٦ . وكان اسم الرسول جون دي بلانو كاربيني .

تحقيق أهداف زيارته ، ذلك أن منطق التعامل الذي حمله هذا الرسول والرسل الذين أتوا من بعده (١) ، لم يكن مما يتفق وعقلية المغول فى هذه الفترة التي لا تقبل من الآخرين سوى الطاعة والتبعية .

وكذلك كان الجواب الذي حصل عليه رسول ملك فرنسا لويس التاسع (٢)

---

(١) ارسل البابا بعد خروج سفيره الاول سفارة ثانية ضمت عدداً من الرهبان برئاسة اسليني ، ويظهر انها لم تجاوز منطقة اذربيجان حيث استوقفهم القائد المغولي بايجو وأعادهم بجواب على لسان جنكيز بوجوب حضور البابا بنفسه لتقديم الطاعة . على ان البابا بعدها لم يقطع الامل في استمرار المراسلات . انظر

Atiya . PP · 237 - 241 · Sykes . 2 · P . 92 - 93 ·

(٢) كان لويس التاسع قد وصل قبرص سنة ٦٤٦ ﻫ / ١٢٤٨ م على رأس حملة صليبية جديدة ، وانخدع بالاخبار التي حملها اليه بعض الرهبان عن اعتناق بعض خانات التتار المسيحية واستعدادهم للتحالف معه ، فأرسل رسوله الاول اندرو الذي فشل في مساعيه بسبب وفاة كيوك قبيل وصوله .

ولكنه بعد هزيمته في المنصورة سنة ٦٤٨ ﻫ / ١٢٥٠ م احتاج الى ارسال سفارة ثانية تولاها وليم الرويريكي لعله يعوض بنجاحه ما فقده في الحرب . نظر مذكرات جوانفيل عن حياة القديس لويس ص ٨٤ ـ ٨٥ في الاشارة الى اول اتصال بين التتار ولويس ، انظر ايضاً الحاشية رقم (٣) في التلخيص الذي قدمه مترجم الكتاب استاذنا حسن حبشي حول هذه العلاقة .

انظر ايضاً في تتمة العلاقة ص ٢١٧ ـ ٢١٩ من الكتاب المذكور والاشارة الى ندم لويس على قيامه بهذا الاتصال معهم .

المدعو وليم الرويريكي الذي حظي بمقابلة منكوخان سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م (١) .

لكن هيثون ملك ارمينيا الصغرى الذي كانت بلاده واقعة بين شقي الرحى ، وجد من مصلحته مخاطبة المغول بلسانهم فيقدم لهم الطاعة ويكسب بها حمايتهم وتحالفهم . فتوجه بنفسه سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م بعد ان كان أخوه سمباد قد سبقه الى ذلك ومهد له الطريق ، توجه لتقديم الطاعة الى منكوخان الذي رحب به ووعده بحماية بلاده ما دام قد اعترف بتبعيته لهم (٢) .

وعلى العكس مما يراه بعض المؤرخين (٣) الذين اعتبروا هذا التحالف بين هيثون ومنكوخان العامل الرئيسي في إقناع منكوخان بتجهيز وإرسال حملة بغداد ، فانني أرى ان وجود الجيش الارميني برفقة هولاكو عند زحفه نحو بغداد كان أمراً طبيعياً شأنه شأن الجيش الجورجي وغيره من جيوش الأمراء التابعين للمغول ، وان دور

---

(١) جوانفيل ـ حياة القديس لويس ص ٢١٧ ـ ٢١٩ ، الدعوة الى الاسلام ص ٢٥٣ ، كيرك ـ موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ٧٦ ، عاشور ـ الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٩٩ ـ ١١٠١ ، المغول في التاريخ ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

Conder : Thelatin Kingdom of Jerusalem . P . 370 - 374 .

(٢) كان هيثون قد اعترف بتبعيته للمغول قبل هذا الوقت عندما وصل الزحف المغولي الى آسيا الصغرى وأراحه من تهديد سلاجقة الروم ، وكان قد أرسل أخاه سمباد لحضور احتفال جلوس كيوك قبل ذلك . انظر

Macler . Armenia . C . M . H . Vol . 4 . P . 175 .
Conder . P . 376 _ 377 .

(٣) اشار الى ذلك خاصة ارنولد ـ الدعوة الى الاسلام ص ٢٥٢ الصياد ـ المغول في التاريخ ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

هيثون وغيره في حملة بغداد لم يكن إلا لتنفيذ السياسة التي خطط لها المغول في زمن سابق على ذلك ، وإذا كان من فائدة لوجود الجيوش المسيحية في هذه الحملة بالاضافة الى دورهم العسكري في المعركة ، فانه كان زيادة في تأمين الحماية للنصارى في بغداد خاصة ، وفي تقوية الوجود المسيحى كعامل مساعد لتنفيذ السياسة المغولية الامر الذي يستوجب من المغول زيادة الاهتمام به ورعايته .

وسار هولاكو بعد استقرار أمره ، على هدى هذه السياسة ، فاستعان بأمراء المسيحيين في الزحف الى الشام ، حتى انه عندما استدعى هيثون وجيوشه ، تواعد معه بأن يذهب الى بيت المقدس ويخلص الاراضي المقدسة من أيدي المسلمين ويسلمها للمسيحيين (١) .

ولعب مسيحيو الشام نفس دور اخوانهم في العراق فى إضعاف معنويات الناس وإغرائهم بالاستسلام والترحيب بالفاتحين ، فحفظت لهم حياتهم وأبقيت عليهم كنائسهم وُمكنوا من المسلمين وُسلطوا عليهم حتى أصبح المسلم غريباً في الشام خلال احتلالهم وفي الوقت الذي نجحت فيه السياسة الايلخانية في استغلال مسيحي الشرق على اختلاف طوائفهم كالنساطرة واليعاقبة والارمن ، للتعاون معهم فأصبحوا مادة لجيوشهم ، ودعاة لسياستهم ، تعذر على هولاكو جر الامارات الصليبية الكاثوليكية في الشام للتعاون معه بالرغم من حاجة هذه الامارات الى هذا التعاون للخلاص من آخر القوى الاسلامية الباقية ، يستثنى من هذه الامارات ، انطاكيا وطرابلس التى كان صاحبها الملك بوهيمند قد قبل هذا التعاون بحكم مصاهرته وارتباطه العائلي مع ملك ارمينيا

---

(١) عاشور ـ الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٢٣ .

ونال نتيجة لتعاونه ، نصيبه من غنائم هولاكو الذي أقطعه بعض البلاد المجاورة لامارته مثل قلاع دير كوش ، وبلميس وشقيف وحارم (١) .

وليس من سبب يبرر هذا الموقف الانعزالي لهذه الامارات الصليبية التي رفضت التعاون بالرغم من معارضة ذلك لسياسة الكنيسة في روما صاحبة السيادة الاسمية عليهم ليس من مبرر لذلك إلا استطابة هؤلاء لحياة الاستقلال التي أصبحوا يتمتعون بها في إماراتهم الصغيرة بعيدين عن تدخل الكنيسة في شؤونهم ، وركونهم الى المعاهدات المحلية التي كانوا قد عقدوها مع الامارات الاسلامية المجاورة لهم ، وغلبت المنازعات الداخلية عليهم والتي قد تعود اكثر أسبابها الى المنافسة التجارية بينهم (٢) على انهم أضاعوا بهذا الاهمال فرصة لم يجد الزمان بها ثانية .

وفرضت الاحداث السياسية على هولاكو الاكتفاء بتحالفه مع الامارات المسيحية الشرقية مثل ارمينيا وجورجيا ، والعمل على تقوية هذا التحالف بدلا من القيام بعمل إيجابي ضد الامارات الصليبية التي لم يكفها ان المغول لم يتحرشوا بحدودها خلال استيلائهم على الشام ، بل تجرأت على الاعتداء على بعض الكتائب المغولية ، وساعدت بشكل غير مباشر على هزيمة المغول في عين جالوت عندما سمحت

---

(١) ابن الشحنة ابو الفضل : الدر المنتخب في تاريخ حلب ص ١٦٧ ، الخربوطلي مصر العربية الاسلامية ص ٢٨٩ ، الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١١٢٩ ،

Jacob de Haas . Hist . ofpalestine . P . 286 .

(٢) أورد بعض هذه الأسباب . عاشور ـ الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١١٢٩ ـ ١١٣٠ .

لجيوش أعدائهم بالمرور في أراضيها (١) ، فكشفت بذلك عن قصر نظرها وجهلها بحقيقة الأوضاع السياسية واختلال موازين القوى التي استجدت في هذه المنطقة من العالم ، كما كشفت عن سوء تقديرها لمستقبل وجودها فيها .

وإذا كان هـذا هو موقف الامارات الصليبية من المغول ، فان بابوات روما وأمراء اوربا لم يفقدوا الأمل في امكانية كسب المغول والتعاون معهم لتحقيق مايرجون من أهداف ، فقد أرسل البابا اسكندر الرابع اكثر من رسالة الى هولاكو كانت احداها مؤرخة سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م يشكره فيها على حسن رعايته للمسيحيين ويعلن له فرحته لما سمعه عن قرب اعتناقه المسيحية ، ثم يحببها له ويشرح له أهمية اعتناقها ويرجو أن يقوم بتعميده بنفسه (٢) .

ولكن هولاكو كما يبدو لم يكن قادراً على الاعتماد على هذه الرسائل لتحقيق سياسته التي فرضتها عليه ظروفه الموضوعية ، وبالرغم من عدم وجود ما يدل على انه رفض هذا النوع من التعامل السياسي ، إلا أنه في هذه الفترة كان اكثر تطلعاً الى كسب دولة مسيحية اخرى تحقق صداقتها له الكثير من أهدافه السياسية الآنية ، تلك هي الدولة البيزنطينية التي جعل هولاكو من خطبته لابنة ملكها سبيلا لجرها الى فلكه السياسي فيضعف بذلك من الطوق الذي كان أعداؤه من المماليك قد أقاموه حوله

---

(١) Howorth . 3 . P . 201 - 202 . D'ohsson . 3 . P . 394 - 395 .
الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١١٣٢ - ١١٣٣ وهو يشير الى حماقات أمراء صيدا وعكا مع المغول .

(٢) مغول ايران ص ٧ ،

D'ohsson . 3 . P . 410 , Sykes . 2 . P . 99 .

بتعاونهم مع بني عمه وخصمه بركة خان ، وكانت القسطنطينية محطة انتقال لرسل الفريقين المتحالفين وحلقة الوصل بينهما .

وورث اباقا هذه السياسة ، فتزوج من خطيبة ابيه التي توفي قبل وصولها الى بلاطه ، ولكنه لم يستطع تحقيق أمنيته لان الامبراطور البيزنطي لم يكن قادراً على الانضمام الى جانب المغول في هذه التكتلات السياسية والعسكرية ، لاسباب سياسية تتعلق بطبيعة كيانه السياسي ، فاكتفى بعرض صداقته البريئة ، مفضلا حياد بلاده وفتحها أمام رسل الفريقين المتنازعين (١) .

وفرضت الضغوط السياسية والاخطار العسكرية التي كانت تهدد اباقا ، فرضت عليه أن يلتوي في سياسته ويظهر خلاف ما يبطن ، فقد كان في سياسته الداخلية شديد العطف على المسيحية حتى اتهم باعتناقها ، لكنه كان في نفس الوقت معتدلا في موقفه من المسلمين ، لا يشجع على ايصال الاذى اليهم ، وفي الوقت الذي دعا فيه المماليك الى الصلح ليتفرغ عسكرياً لمواجهة بني عمه (٢) ، كان رسله يطرقون

(١) لم يكن الامبراطور البيزنطي قادراً على الارتباط كلياً بالمغول بسبب خوفه من المماليك وحلفائهم مغول القبجاق من ناحية ، ولأن هولاكو كان يسعى للتحالف مع أعدائه الصليبيين المخالفين له بالمذهب والذين كانوا يحتلون بلاده الى وقت قريب ، فاكتفى لذلك بموقف الحياديين المعسكرين ، على انه كان يميل الى احدهما كلما أحس بقوته وخطره عليه .

(٢) المقصود هنا ببني عمه مغول القبجاق اصحاب بركة خان حلفاء المماليك الذين كانوا يهاجمونهم من جهة الدربند في الشمال . ومغول ما وراء النهر من أبناء جغتاي واوكداي الذين كانوا يهاجمونه من جهة الشرق ـ خراسان .

أبواب اوربا يدعونهم للتعاون معه على المماليك .

وحفلت سياسة اباقا في هذا المجال بالعديد من الرسائل والرسل مع باباوات اوربا وملوكها لاحياء أهداف الكنيسة القديمة في استعادة بيت المقدس التى أخذت الآمال باستعادتها تضعف بسبب إهمال وتهاوي الامارات الصليبية أمام ضربات المماليك .

وبدأ اتصاله مع البابا كلمنت الرابع الذي كتب اليه رسالة بتاريخ ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م . وعندما تولى البابوية جريجوري العاشر عقد مجمع ليون ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤م لتقرير سياسة الكنيسة ، أرسل اباقا مندوبين عنه للمشاركة في هذا المؤتمر ، وبعد أن عمدا حسب التعاليم الكاثوليكية ، عرضا على المجتمعين دعوة الايلخان واستعداده للتعاون في حملة صليبية ، ولكن المجمع أنهى أعماله قبل أن يستطيع اتخاذ قرار بذلك.

ويبدو أن نيقولا الثالث الذي تولى كرسي البابوية سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م كان اكثر نشاطاً لتحقيق فكرة التعاون من سلفه ، فقد أجاب على سفارة اباقا بسفارة مكونة من خمسة من الرهبان سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م حملوا اليه تقدير البابا لاخلاصه ورغبته في إنقاذ البيت المقدس ووعده بالاهتمام بارسال هذه الحملة (١) .

وفي الوقت الذي كان اباقا يعالج تردد الباباوات ويغريهم باستعداداته ، كان دعاته يحملون أيضاً رسائله الى ملوك اوربا وأمرائها يشجعهم فيها على قيادة الحملات الصليبية بأنفسهم ويتعهد لهم بتقديم جميع المساعدات اللازمة لانجاح حملاتهم ، من

---

(١) مغول ايران ص ٧ ، ٦٣ ، سرور ـ الظاهر بيبرس ص ٩٥ ، الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١١٦٢ ، بارتولد ـ ترجمة المعارف الاسلامية م ١ ـ اباقا .

Howorth . 3 . P . 278 - 281 . *Browne* . 2 . P . 19 .

ذلك رسائله الى فيليب الثالث ملك فرنسا وأدورد الاول ملك انكلترا وغيرهم ، على أن الملاحظ عن هؤلاء الملوك انهم لا يصدرون إلا عن أمر البابا .

وكان اباقا قد استغل وصول أدورد الاول الى قبرص على رأس حملة صليبية جديدة سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م قبل اعتلائه العرش ، فبادله الرسائل واتفق معه على الزحف سوية ، ومن المحتمل أن محاولة الزحف التي لم تتم والتي سعى اباقا للقيام بها سنة ٦٧٢ هـ عند وصوله بغداد وتوجهه نحو ضفاف الفرات (١) ، كانت تنفيذاً لهذا الاتفاق الذي انتظره أدورد في قبرص والذي بعد أن يئس من تحقيقه ، عاد أدراجه الى انكلترا حيث تولى عرشها (٢) ، وكان جوابه على رسالة اباقا التي حملها « الاخ دافيد » الى بلاطه سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م ان شكر الايلخان على حماسه لانقاذ البلاد المقدسة ورجاه تحقيق إنقاذها ووعده بالوصول على رأس الجيش متى ما قرر البابا ذلك (٣) .

وكرر اباقا دعوته وألح فيها خلال معركة الابلستين وفي اعقابها ، فوصل رسله

---

(١) مر علينا عند بحث الحملات الصغيرة ، وصول اباقا بغداد سنة ٦٧٢ هـ وعزمه على الزحف نحو الشام وقيام السلطان المملوكي بارسال امير العرب عيسى بن مهنا الذي وصل في توغله حتى الانبار وهاجم بعض الكتائب المغولية التي هربت أمامه ، فاعتقد المغول ان السلطان المملوكي وراء الحملة ، فعاد اباقا ادراجه .

(٢) الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٥٨ .

(٣) الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٦٢ ، مغول ايران ص ٦٤ وهو ينقل لنا نص الرسالة ، انظر ايضاً .

Howorth . 3 . p . 280 , Sykes . 2 . p . 100 .

الى اوربا للطواف على المسؤولين فيها يحملون نداءه ، وصرخات ملك ارمينيا ، فاستقبلهم ملك فرنسا ثم ملك انكلترا واستجابوا لدعواتهم بوعود كثيرة وآمال عريضة حملوها معهم عند عودتهم بخفي حنين (١) .

ولم يكن اباقا حريصاً على استعادة البلاد المقدسة ولكنه كان يرمي ان يكون هذا الحماس الذي يظهره في رسائله الى البابا وملوك اوربا ، عامل إغراء وإثارة لهم لارسال الحملات التي سيؤدي وصولها حتما الى اشغال المماليك فترة من الزمن فيخف ضغطهم العسكري عنه وعن حلفائه في الشام وآسيا الصغرى الذين أخذت قلاعهم تنقص يوماً بعد يوم أمامهم ، ولكنه عندما أحس ان وعودهم له ليست إلا قبضة من الريح وان البلاد أخذت تضيق عليه ، أمر جيوشه وجيوش حلفائه من الأرمن والجورجيين وغيرهم ، فتوزعوا اطراف الشام للقيام بمحاولة انتحارية للانتقام من المماليك وتأديبهم ولكن جموعه تحطمت على اطراف حمص سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م فكانت القاضية عليه .

على انه يمكن القول ان جهود اباقا لايقاظ اوربا وإثارة غيرتها الدينية لم تذهب جميعاً هباءاً ، فقد وجدت صداها في قلوب بعض المسيحيين الذين سعوا الوصول الى البلاد المقدسة للمشاركة في تحريرها ، او انتهاب خيراتها ، من ذلك ما اشار اليه المقريزي في سنة ٦٦٨ هـ من اتفاق بعض فرنج الساحل مع المغول للقيام ببعض الأعمال العسكرية التي لم تحقق نجاحاً في منطقة الساجور ، إذ تفرقت حالما سمعت بخروج المماليك اليها ، وكذلك ما أشار اليه من مراسلة بعض الفرنج للايلخان وخروجهم

---

(١) مغول ايران ص ٦٥ .

Macler . Armenia . C . M . H . Vol . 4 . p . 176 .

للتعاون معه ، ولكن سفنهم لقيت نهايتها في اعماق البحر قبل وصولها الى الساحل(١).

كما سعى الملك جيمس الثاني ملك ارغونة لتحقيق دعوة الايلخان ، فواعده على تنفيذها وأعد لذلك حملة صليبية جديدة ولكن الرياح والعواصف لم تسمح لها بمواصلة السير فحطمت بعض سفنها وأرغمت الأخرى على العودة من حيث أتت (٢) .

وفي عهد تكودار توقفت هذه المراسلات وانقلبت سياسة المغول رأساً على عقب ، فقد دعا الايلخان الجديد بدافع من إسلامه ، دعا المماليك الى التسامح وإقامة الصلح والتعاون على أعداء الاسلام ، الأمر الذي أثار عليه ثائرة المغول الذين استعانوا بالمسيحيين للقيام عليه ، فكتب المؤرخ الارميني المعاصر هيثون رسالة الى الخاقان قوبيلاي يشرح له اسلام احمد تكودار وجهوده للقضاء على الديانة المغولية ، ويحذره من السكوت عليه ، فكان من نتيجة ذلك صدور التعليمات من الخاقان التي أدت فيما بعد الى القضاء على الايلخان بيد بني عمه (٣) .

وأعاد ارغون السياسة المغولية الى الطريق الذي سار عليه أبوه وجده من قبل ولكنه اختلف عنهم حينما أفرغ حقده على المسلمين في الداخل ، فحرم عليهم اشغال وظائف الدولة وأخذهم بالشك والتهمة ، لتشفع له هذه القسوة ، وينعكس صداها الى اوربا فتسرع للتعاون معه لتحقيق أهدافهما المشتركة ، وسارع بعد أن أعاد

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٨٥ ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٦١ .

(٢) مغول ايران ص ٦٥ ، ٧٣ .

Howorth . 3 . P . 279 - 280.

(٣) نقل ذلك عن المؤرخ الارميني .

Howorth . 3 . P . 310 .

إعمار الكنائس التي أصابها الاهمال او الخراب في عهد سلفه ، سارع الى فتح باب الاتصال كرة اخرى مع اوربا لاحياء آمالها من جديد وليذكرها بالخدمات التي قدمها المغول لهم . وحفظت لنا دار الوثائق البابوية رسالته الاولى التي وجهها الى البابا هنوريوس الرابع والمؤرخة في ١٨ مايو ١٢٨٥ م أي بعد أقل من سنة من توليه (١) يعرض فيها شعوره وعواطفه نحو المسيحية ، ويعدد خدمات ابيه وجده لها ، ويعتذر عن انقطاع المراسلة بسبب مروق الايلخان السابق ، ثم يتعهد لهم اخيراً باستعداده للتعاون معهم على تحقيق أهداف الكنيسة في إنقاذ البلاد المقدسة (٢) .

وتكررت رسائل ارغون وسفاراته الى البابا وملوك اوربا ، وخاصة بعد تولي نيقولا الرابع كرسي البابوية سنة ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م حتى أصبحت سنوية تقريباً ، كما تعددت أجوبة هؤلاء اليه ولكنها جميعاً لم تزد على مجرد وعود لم تحقق شيئاً من رغبات الايلخان .

ونلحظ في رسائل الايلخان انه كان حريصاً على إغراء وإقناع هؤلاء لتجنيد الجيوش ، وانه سعى لسد الطريق على كافة الحجج التي كان البابوات والملوك يعتذرون بها لتبرير تقاعسهم ، وساعد رسل الايلخان الكثيرون على تضخيم الاخبار التي كان الايلخان يرغب في إذاعتها على مسامع الاوربيين ، حتى تحولت مملكة الايلخان في نظر هؤلاء المستمعين الى جنة عامرة بالمسيحية والمسيحيين .

فقد أذاع الايلخان في رسائله عن تشجيعه للمسيحية بين قومه ، ان اثنتين

---

(١) تولى ارغون العرش في جمادى الاولى ٦٨٣ هـ / اغسطس ١٢٨٤ م .

(٢) *Howorth . 3 . P . 348 .*

من زوجاته مسيحيات وان امه كانت مسيحية ، وان احد ابنائه اعتنق المسيحية ، وان الخاقان الكبير لا يعارض المسيحية ، وان عدداً كبيراً من رجال جيشه اعتنقوا المسيحية ، ولكنه لا يستطيع اعتناقها الآن لوجود عدد من المسلمين في جيشه مما يؤثر عليه ويمنعه .

وأشار في رسائله ايضاً الى أنه قد أتم الاستعداد لتحرير البلاد المقدسة ، وانه ينتظر وصول الجيوش المسيحية لتساهم معه في التحرير ، ولكي تتولى بعد ذلك مسؤولية الحكم فى البلاد المقدسة .

ولكي يسهل على هذه الجيوش مهمة الانتقال فقد أعلن استعداده لتقديم جميع التجهيزات التي يحتاجها عند وصوله ، كالخيول والماشية والحبوب ، حتى أنه أعد عشرين الف رأس من الخيل سوف يضعها تحت تصرف هذه الجيوش بسعر زهيد ، او اعتبارها هدية ان اقتضى الأمر .

ثم أعلن استعداده أخيراً لاعتناق المسيحية ، ولكن ذلك يتم في البيت المقدس بعد تحريره حيث تجري بعدها مراسيم تعميده (١) .

ولكن نداءات الايلخان وصرخاته ان كانت قد وجدت لها أذناً صاغية ، لكنها لم تجد عزماً صادقاً لتنفيذها وانجازها ، فقد كان قادة اوربا مشغولين بمشاغلهم الخاصة عن الاستجابة والتحرك . فالبابا نيقولا الرابع لم يكن يملك من السلطان إلا اسمه فقط ، شأنه في ذلك شأن خلفاء بني العباس أيام سيطرة الدخلاء عليهم ، فهو

(١) مويل ص ٥٨ ، مغول ايران ص ٦٦ ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٦٩ .
Howorth . 3 . P . 348 - 352 . ، *D'ohsson . 4 . P . 74 - 76 .*

يصدر الأوامر ، ولكن تنفيذها كان يتوقف على مصلحة الملوك في تنفيذ ماينفعهم ، لذلك توجه البابا بجزء من جهوده نحو الايلخان نفسه ، ولكن لغة البابا كانت بالرغم من رقتها هي نفسها التي تعامل بها البابوات السابقون مع الايلخانات السابقين ، لذلك لا غرابة إذا جاءت النتيجة واحدة بالرغم من مضي الزمن وتطور الأحداث .

ففي الرسائل الكثيرة التي وجهها البابا الى الايلخان وأفراد اسرته وأمراء دولته كان البابا يلف حول نقطة واحدة هي دعوة الايلخان الى اعتناق المسيحية أولا ، ثم للتدليل على صحة إيمانه ، ينبغي عليه ان يسعى بنفسه لتحرير البلاد المقدسة باعتباره اقدر من غيره على تحقيق ذلك .

على ان البابا خلال ذلك كان يؤكد ان رسله يطوفون اوربا لاستنهاض هممها وإثارة حميتها ، وانه حول رسائله الى الملوك الذين سيعبرون البحر قريباً للوصول اليه (١) .

اما ملوك اوربا ، فكانت رسائل الايلخان اليهم واحدة ، يواصلهم بالهدايا ويحدثهم عما أعد لهم من اسباب النصر ، ويذكرهم بوعودهم السابقة ويلح عليهم ان يقودوا بأنفسهم الجيوش حتى يضمن تحقيق النصر ، لكن هؤلاء الملوك كانوا بالرغم من حسن استقبالهم لرسله كانوا مشغولين عنه بشؤونهم الخاصة ، ذلك ان الحروب الاسكتلندية أشغلت ملك انكلترا عن الوفاء بالوعود التي قطعها على نفسه للايلخان بالرغم من رغبته الشديدة لمعاودة الكرة والزحف لتحرير البلاد المقدسة .

اما فيليب الرابع ملك فرنسا فكان يناور في وعوده ويضيع الوقت في مبادلة

---

(١) Howorth 3.P.943 ' 353 - 354 · D'ohsson . 4 .P.66-69 ' 77-81·
Conder · Thelatin Kingdom of · Jerusalem · P · 377 378 ·

الرسل للاتفاق على خطة موحدة للعمل ، فى الوقت الذي كان يستغل ذلك في الداخل لجمع الأموال بحجة الاستعداد للحرب المقدسة ، حتى اضطر الايلخان لكي يضع حداً للوقت المضاع معه ، أن يحدد تاريخ يناير ١٢٩١ م موعـداً لبدء الزحف المقدس بحيث يكون لقاء الجيشين على اسوار دمشق يوم ٢٠ فبراير (١) .

ولم يتحقق التعاون العسكري بين الايلخان واوربا ، ذلك ان الحماس الديني لاسترجاع البلاد المقدسة كان آخذاً بالضعف يوماً بعد يوم في نفوس الاوربيين ، كلما وصلتهم أنباء سقوط قلاع الصليبية وحصونها بيد المسلمين ، فضلا عن الانقسامات الداخلية بين ملوك اوربا وأمرائها التي تحولت الى سلسلة من الحروب بينهم على الزعامة والسلطة ، بالاضافة الى غلبة الروح التجارية على المدن الايطالية التي كانت تسيطر على طرق المواصلات البحرية ، والتي كانت قد أقامت لها علاقات تجارية حتى مع المماليك أعداء اوربا .

كل هذه الأسباب كانت تمنع اتفاق الاوربيين وتحد من قدرتهم على القيام بعمل عسكري موحد يتفق مع الموعد الذي ضربه الايلخان لتحقيق الأهداف المشتركة .

وجاءت أخيراً أنباء سقوط عكا آخر الحصون القوية للصليبيين في الشرق على يد السلطان الأشرف خليل ، لتقضي على كل أمل باستعادة البلاد المقدسة .

ووصلت آخر أجوبة البابا على رسالة الايلخان الأخيرة ، في الوقت الذي كان فيه ارغون قد فارق الحياة ، وبالرغم من استمرار المراسلات بعد ذلك إلا أن

---

(١) مغول ايران ص ٦٥ - ٦٦ ، ٦٨ - ٧٠ .

Howorth . 3 . P . 350 - 352 .

كيخاتو وبايدو لم يكونا بنفس الحماس الذي كان عليه ارغون لاحياء هذه العلاقات ، وذلك بسبب الفوضى التي خلفها الايلخان وراءه ، والتي لم تنته حتى زمن غازان .

وكرر غازان محاولات أبيه لاقناع اوربا بالتعاون معه ، وباشر ذلك بعد استقرار أمره في الحكم حيث تفرغ لمواجهة أعداء المغول التقليديين الذين لم يحل اسلامه دون تغيير نظرته اليهم ، ودون استعانته بأعداء دينه على اخوته في الدين .

ويلاحظ انه في خلال انشغال غازان بمشاكله الداخلية التي سبقت اتصاله ، تولى ملك ارمينيا مهمة الاستنجاد بأوربا وإثارة حميتها الدينية لانقاذه من هجمات الأشرف خليل الذي فرض عليه فيما بعد التنازل عن بعض القلاع والثغور ثمناً للسلام(١).

وغلب اليأس على اوربا بعد سقوط عكا وخروج الصليبيين من الشرق ، فلم تعد صرخات البابا نيقولا الرابع كافية لاعادة الحماس اليهم ورفع معنوياتهم ، الأمر الذي دفعه الى مطالبة الدول الاوربية بفرض المقاطعة الاقتصادية على المماليك ومنع التعامل التجاري معهم ، ما داموا غير قادرين على تجنيد الجيوش للقضاء عليهم (٢) .

ويبدو أن غازان أحس بهذا العجز واليأس ، فلم يعد ينتظر حتى إجاباتهم على رسائله او رسله فكيف بنجداتهم ؟ عندما قرر الزحف بنفسه على المماليك سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م مكتفياً بالاعتماد على اعوانه مسيحيي الشرق كالأرمن والجورجيين بالاضافة الى بقايا الفرسان الصليبيين الذين كانوا قد لجأوا الى الجزر القريبة وخاصة قبرص ،

---

(١) وهي قلاع بهسنا ومرعش وتل حمدون . انظر المقريزي ج ١ ق ٣ ص ٧٨٤ سرور ـ دولة بني قلاون ص ٢٢٥ .

Howorth . 3 . P . 402 .

(٢) الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠٣ .

والذين التحقوا بجيوشه وشاركوا في المعركة التي استولى فيها على الشام (١) .

وحاول غازان أن يدعم سلطانه على الشام بإيجاد قاعدة شعبية له فيها مرتبطة به فاستدعى ملك ارمينيا وأخبره بأنه يوافق على قيام الفرسان الصليبيين باقامة قلاع لهم في الشام على أن يأتوا لسكناها ، وانه أمر نائبه قطلوشاه بأن يقدم لهم كافة التجهيزات لبنائها (٢) .

واستيقظ ملوك اوربا على صوت النصر الذي أحرزه غازان ، واستبشروا به وأسرعوا لقطف ثماره ، فقد أسرع جيمس الثاني ملك ارغونة برسالة يعلن فيها فرحته بهذا النصر ، واستعداده لتقديم مساعداته من سفن وجيوش وخيول لتحقيق النصر الأكبر ، ولكنه يشترط على الايلخان اعطاءه خمس البلاد المقدسة ، وما يفتتح من البلاد بعد ذلك .

اما ادورد الأول ملك انكلترا فلم يقطع الأمل بالمشاركة في الحملة الكبرى ، ولكنه احتج بالحروب الداخلية التي أخذت عليه وقته ، ثم علق أمله اخيراً على موافقة البابا بونيفاس الثامن وقيامه بتكليف الملوك بهذا الزحف (٣) .

وعاود غازان الحملة على الشام في مطلع سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠١م ليكون زحفه ثانية محفزاً لملوك اوربا على سرعة الالتحاق به ، وكان قد استدعى أعوانه من مسيحيي

---

(١) يوسف الديس - تاريخ سورية ج ٦ ص ٣١٤-٣١٦ في الاشارة الى انضمام بقايا الصليبيين الى جيوشه .

(٢) نقل ذلك عن المؤرخ الارميني .

Howorth . 3 . P . 446 .

(٣) مغول ايران ص ٦٧ - ٦٩ ، موير ص ٧١ حاشية (١) .

الشرق ومن لحق بهم من الصليبيين للمشاركة معه ، ولكنه اضطر الى العودة عن الشام بسبب رداءة الأحوال الجوية .

وكان غازان حتى هذه الفترة يعتقد بأن جهوده في مهاجمة المماليك وإضعافهم سوف تلقى التقدير من ملوك اوربا الذين سيهبون لمعاونته على ذلك ، ولكنه أصيب باليأس وخيبة الأمل عندما وصلته رسالة الملك ادورد الاول السالفة الذكر والمؤرخة فى سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م والتي يعلق فيها المشاركة على رغبة البابا ، بالاضافة الى وضعه العراقيل أمام تحقيقها ، فاضطر حينئذ الى تبديل سياسته مع المماليك وعول على إقامة الصلح معهم ، وان كان لم يحسن الطريق الى فتح بابه عندما أرسل اليهم عنجهية المغول وغطرستهم في رسالته التي اتي جوابها من جنس نوعها (١) .

واقتفى اولجايتو سياسة جده اباقا فى المناورة والمراوغة ، عندما أرسل يهادن المماليك ويدعوهم الى اخوة الاسلام في الوقت الذي أرسل فيه سفراءه الى اوربا يستعديها عليهم ويغريهم بأنه قد أعد لهم من الامدادات الشيء الكثير ، وهو يأمل من وراء ذلك قطف جهود اخيه التي بذلها معهم لتحقيق التعاون العسكري ، فان الرسائل التي وجهها اليهم كانت مؤرخة في محرم ٧٠٤ هـ / ١٣٠٥ م .

واتبع اولجايتو في هذه السفارات كل وسائل الاغراء او الخداع التي سبق لأبيه ان لجأ اليها لانجاح اغراضه ، فقد اشار الى انه قد اعد من الامدادات لاستقبال

(١) موير ص ٧١ ، علي ابراهيم - دراســـات في تاريخ المماليك البحرية ص ١٥٥ - ١٥٦ .

Howorth. 3. P. 454-456, Macler, Armenia. C. M. H. 4. p. 177-178.

الجيش الصليبي ، من الخيل مائتي الف ، ومثلها من حمول الذرة لاعاشته ، وأعـد من جيشه مائة الف جندي على قدم الاستعداد .

ولم يتردد رسوله توماس الدوشي من القول بأن الايلخان كان قد اعتنق المسيحية وجرى تعميده وفق الطقوس المسيحية (١) .

وأكد الايلخان في رسائله على ان الوحدة بين الأسر المغولية الحاكمة قد تحققت وهو ينصح ملوك اوربا وأمراءها ان يتحدوا مثلهم ويتعاونوا لانجاح الأهداف المقدسة (٢) .

على ان هذه المناورات لم تفد في تحريك اوربا نحو الشرق ، إذ ان الأجوبة التي كتبها كل من فيليب الرابع وادورد الثاني لم تتعد الشكر على العواطف التي اظهرها الايلخان لهم وعلى العروض والخدمات التي وعد بتقديمها لجيوش المسيحية ، وتعهد ادورد الثاني بالعمل على تحقيق رغبة الايلخان في إنجاز المشروع ، ثم توقع النهاية

---

(١) علي ابراهيم : دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ١٦٠ .

Atiya . pp. 256 - 257. D'ohsson . 4 . p . 587 - 597 .

Howorth . 3 . p . 575 - 577 .

ويعتقد دوسون ان اشــــاعة مسيحية الايلخان ربما كانت دسيسة من الكنيسة الشرقية وخاصة الأرمن الذين كانوا يرغبون في مجيء حملة صليبية لتنتقم لهم من المماليك.

(٢) وردت هذه الاشارة في الرسالة الموجهة الى فليب الرابع ملك فرنسا المحفوظة في دار المحفوظات الفرنسية ، وعلق بارتولد عليها بأنها الوثيقة المغولية الوحيدة التي تشير الى قيام هذا الاتحاد . انظر في ذلك الترك في آسيا الوسطى ص ٢٠٢ ، موير ص ٨١ حاشية ٢ .

Howorth . 3 . P . 573 - 575.

للمسلمين وكتابهم الذي سيختفي عند وصول جيش الصليب ، ووعـد ايضاً في آخر رسالته بأنه سيرسل بعض رجال الدين النشيطين للقيام بتحويل رعية الايلخان الى الـكثلكة .

ولم تزد رسالة البابا كلمنت الخامس المؤرخة في ٧٠٧ هـ / ١٣٠٨ م عما جاء في اجوبة الملوك ، وأضاف ان دعوة الايلخان وتعهداته قد امدت الكنيسة بقوة روحية وبعثت فيها الامل مما يدل على انها نوع من الرعاية الربانية ، على انه بقي يتشكك في صحة مسيحية الايلخان وان كان أخذ يشرح له الاجر والثواب الذي سوف يربحه ان حقق تحرير البلاد المقدسة (١) .

واذا كان الايلخان لم يقبض من هذه الاجوبة سوى الوعود ، فانه كما يبدو لم يقنط من امكانية تحقيق ماقات ' لذلك فقد بقي يرعى المسيحية في بلاده ، ويواصل الباباوات برســـائله حتى انه وافق في اواخر ايامه على منح البابا حق فتح اسقفية كاثوليكية في السلطانية لكنه لم ينتظر وصول الاسقف الجديد الذي صدر الامر البابوي بتعيينه في ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م (٢) .

وبوفاة اولجايتو انتهت آخر محاولات الايلخانية للتعاون مع اوربا على المماليك فقد انعكست الحالة في عهد ابي سعيد الذي سلك منذ توليه وبفضل المشرفين على توجيهه ، سلك سياسة اسلامية تهدف الى إزالة روح العداء والجفاء مع جيرانه المماليك المسلمين ، وانقطعت السياسة الايلخانية في عهده عن الاتصال بأوربا وباباواتها في هذا الشأن الامر الذي جعل البابا جون الثاني والعشرين يلاحقه بالرسائل

(١) *Howorth* . 3 . P . 575 - 577 . *Sykes* . 2 . P . 114 - 115.

(٢) *Howorth* . 3 . P . 603 .

ويذكره بصلات آبائه وأجداده معهم ويوصيه بحسن معاملة المسيحيين ثم يدعوه اخيراً الى اعتناق المسيحية ويحببها اليه (١) .

ثالثا : علاقة الايلخانية بالمغول :

كان طبيعياً أن لا تدوم وحـدة الدولة المغولية التي أسسها جنكيزخان طويلا بعد خروج المغول من الصحراء ، وذلك بسبب تغير البيئة المناخية والحضارية عليهم فضلا عن سعة هذه الدولة التي اصبحت عليها في اواخر ايامه مما يصعب معه اخضاعها لادارة مركزية .

ويبدو ان جنكيز توقع خضوع المغول لهذه المؤثرات او احس بها ، لذلك وزع البلاد بين ابنائه وهو على قيد الحياة بحيث اصبح كل منهم مسؤولا عن نصيبه منها ، يباشره بنفسه او يوفد اليه من يتولى أمره بينما يقيم هو بجانب زعيم الاسرة الذي يتولى السلطان ، ويشير بارتولد « الى انه بالرغم من التقسيم الذي احدثه جنكيز في مملكته ، فانها ظلت بعد وفاته تعتبر مملكة واحدة كما كان الحال اثناء حياته ووفقاً لفهم القبائل الرحل لقانون التملك ، كانت الدولة تعتبر ملكاً لاسرة الحاكم بأسرها ، وكان اعضاؤها يعطون اجزاءاً منها للقيام بأودهم » (٢) .

وبدأت مظاهر الانقسام في اعقاب وفاة اوكتاي خان حيث لم يكن خليفته كيوك على وفاق مع بعض بني عمه ، فضلا عن الشك الذي ساد بينهم في شرعية خانيته.

---

(١) D'ohsson . 4. P. 660 - 663 . Howorth . 3 . P . 612 .

(٢) بارتولد ـ ترجمة المعارف الاسلامية م ٣ ـ باتو ـ م ٧ ـ جغتاي .

ابن فضل الله العمري ج ٢ ق ٢ ـ مسالك الأبصار الورقة ٢٢٥ .

وبالرغم من قيام خانية منكو على دماء بعض بني عمه الذين تآمروا عليه ، إلا ان سيادته الاسمية على الاقل كانت شاملة لجميع البلاد المغولية التي سرعان ما تمزقت وحدتها بعد وفاته مباشرة بسبب تنازع اخوته على الخانية ، وتحزب ابناء الاسرة بعضهم لبعض ، الامر الذي ادى الى انفصال وخروج الامراء المغلوبين عن طاعة الخان المنتصر قبلاي ، لذلك يمكن القول ان سلطان قبلاي خان لم يكن يشمل جميع البلاد التي امتد اليها الاحتلال المغولي وانما اقتصر على بعض الاجزاء دون غيرها ، ومنها الحكومة الايلخانية (١) .

١ ـ موقف الايلخانية من الخاقان المغولي :

كما اشرنا في الحديث عن قيام الايلخانية ، ان هولاكو كان في اول امره مجرد قائد مغولي انفذه اخوه الخاقان منكو لقيادة الحملة الغربية التي قررها القوريلتاي على انه بعد انتهائه من العمليات العسكرية التي قضت على الخلافة ، توج من قبل اخيه الخاقان ليكون حاكماً على البلاد التي حددت له ، ومُنح لقب الايلخان تعبيراً عن نيابته لاخيه الخاقان في حكم هذه البلاد التي عرفت بالايلخانية .

وبالرغم من ان هولاكو كان مستقلا في حكمها ، إلا أنه من الناحية النظرية

(١) تنافس اخوة منكو وهم قبلاي واريقبوقا على الخانية بعد وفاته ، وقد انحاز هولاكو الى جانب اخيه قبلاي بينما انحاز بركة بن جوجي الى جانب اريقبوقا ، اما ابناء اوكتاي وجغتاي فكانوا يحقدون على الاثنين معاً ولكنهم انحازوا اول الامر الى جانب اريقبوقا حتى رجحت كفته ثم انقلبوا عليه لمصلحتهم فخدموا بذلك قبلاي الذي استرجع قوته وانتصر على اخيه .

كان مجرد نائب عن اخيه الخاقان صاحب السيادة على جميع البلاد المغولية .

على ان قيام النزاع على الخانية بعد وفاة منكو ووقوف هولاكو بجانب اخيه الكبير قبلاي ضد الاصغر اريقبوقا ودوره في ترجيح كفته ، عزز من مكانة هولاكو وحقوقه في الحكم وحدد علاقته وأبناءه من بعده مع الخاقان الجديد .

ويمكن تلخيص هذه العلاقة بالنقاط التالية :

اعتراف الايلخانية بسيادة الخاقان قبلاي على البلاد ، يدل على ذلك ان اباقا قبيل توليه أجاب على إلحاح الامراء عليه بأن سيد البلاد هو قبلاي قا آن .

وكذلك كان رد الامير بوقا عند تولية ارغون حيث قال : إن الخاقان هو صاحب السيادة المطلقة على الجميع وهو سيد اسرة جنكيز (١) .

وعلى ضوء هذا الاعتراف بالسيادة بالرغم من كونها اسمية ، فان تولي الايلخانات لمناصبهم كان لا يعتبر شرعياً ما لم يصل الفرمان الخاقاني به ، من ذلك ما فعله الخاقان قبلاي بالنسبة لاخيه هولاكو فانه كان قد أصدر بعد انتصاره على منافسه واستقرار أمره ، أصدر يرليغا باسم اخيه هولاكو يثبته في حكمه ويعطيه السيادة على البلاد التى سبق ان تولى أمرها منذ زمن اخيه منكو ، كذلك كان شأن الايلخانات الآخرين ، فان اباقا رفض ان يرتقي العرش ما لم تأت موافقة عمه الخاقان اما ارغون فانه انتظر وصول رسول الخاقان الذي حمله اليه فرمان جلوسه مع لقب

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٠ ، ١١٧ - ١١٨ .

Howorth . 3 . P . 306 .

الخان الذي منحه له (١) .

ومن مظاهر هذا الاعتراف ايضاً ضرب اسم الخاقان على السكة المتداولة في البلاد ، وقد مر علينا الاشارة الى ذلك فيما سبق ، وان الايلخان غازان عندما تبرأ من تبعية الطاعة حذف اسم الخاقان من على السكة (٢) .

وكان للخاقان نصيب في واردات الايلخانية ، او فيما يفتحه جيشها ، فكان هولاكو يرسل عادة سهمين من كل خمسة اسهم جرت العادة ان يقدمها منذ قيام حكمه وفقاً لتعليمات الخاقان ، اشار الى ذلك ما نقله الصاحب عز الدين بن شداد عن علاء الدين علي البغدادي الذي كان قد أسر في وقعة بغداد وعاش بين المغول فترة من الزمن (٣) .

ويبدو ان هذا النصيب اصبح يقدم من واردات الدولة بعد انتهاء الفتوح ، على شكل هدايا سنوية تشمل مختلف منتجات البلاد وحيواناتها حتى بعد ان انتهت

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١١ ، ٥٥ ، ١٣٥ ، الشبنكاري - مجمع الانساب الورقة ٣١٠ .

Howorth . 3 . P . 199 . *Sykes* . 2 . P . 100 .

(٢) انظر ملحق لوحات النقود المرفقة . نظر ايضاً كنموذج آخر ، موقف بركة خان الذي اعترف بخانية منكو كما تدل على ذلك السكة ، ثم تمرده على قبلاي واعترافه بخانية اريقبوقا . انظر في ذلك بارتولد - ترجمة المعارف الاسلامية م ٣ بركة خان .

Howorth . 3 . P . 111 - 112 .

(٣) نقل ذلك اليونيني ج ١ ص ٤٩٧ - ٤٩٨ . ابن ابي الفضائل ج ١ ص ١٠٢ .

علاقات التبعية بين الخاقان والايلخان وتحولت الى نوع من الصداقة والمودة التي تربط بين أبناء الاسرة الواحدة ، يشير الى ذلك ما نقله « هورث » من ان ابا سعيد يرسل كل سنة من الحيوانات الحية ، النمور والجمال والصقور ، ومقداراً كبيراً من الجواهر الى الخاقان (١) .

ومقابل ذلك كان للايلخانية نصيب في بعض منتجات الخانية وخاصة في انتاجها من حرير الصين ، ويبدو ان الايلخانية لم تستلم نصيبها منذ زمن هولاكو ، لذلك فان من جملة الامور التي بحثها فخر الدين احمد رسول غازان الذي توجه الى الخاقان تيمور (٢) سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م حاملا هدايا الايلخان ، بحث امر هذا النصيب حتى حصل عليه (٣) .

وكان للخاقان ممثل دائم يقيم في بلاط الايلخان وله منزلة كبيرة بينهم حيث كان يستشار في كثير من الامور ، من ذلك ان كيخاتو عندما قرر إصدار عمله الجاو استشار ممثل الخاقان في بلاطه المدعو بولاد شنكسانك ، وان رشيد الدين عندما أمره غازان بتأليف تاريخه عن المغول استعان بهذا الممثل او السفير « فكان رشيد الدين يجاس

---

(١) نقل ذلك

Howorth . 3 . p . 630 .

عن مذكرات اسقف السلطانية التي سجلها سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م .

(٢) تيمور بن شنجكين بن قبلاي ويلقب بالجايتو ، وقد تولى الخانية بعد وفاة جده قبلاي سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م حتى توفى سنة ٧٠٦ هـ ، وخلفه ابن عمه خايسان .

(٣) وصاف م ٤ ص ٥٠٥ - ٥٠٦ ،

D'ohsson . 4 . p . 320 - 321 . Howorth . 3 . p . 439 , 487 .

أمام السفير جلوس الشيخ مع المريد ، وكان السفير يحكي ورشيد الدين يدون » (١) .
على ان مكانته ضعفت في البلاط بعد انقطاع صلة التبعية ، حيث تحول بعدها الى مجرد ممثل لصاحبه في البلاط شأنه شأن غيره من رسل الملوك الآخرين .

وبالاضافة الى وجود ممثل للخاقان في البلاط فان الايلخان وأمراء الاسرة كان يلجأون الى الخاقان مباشرة يحتكمون اليه فيما يدب من خلاف او نزاع بينهم ، فيرفعون اليه الشكوى ويتخذون من أوامره وتعليماته حجة لتبرير ما يقومون به من اعمال ضد بعضهم .

فعندما نافس ارغون عمه تكودار ، والتف حوله الامراء رفعوا الشكوى عليه بأنه قد اعتنق الاسلام ، وكتبوا اليه تقريراً يخوفونه على الديانة المغولية من ذلك ، فأرسل الخاقان يهدد الايلخان ويدعوه الى ترك ما اعتقده ، ثم بارك بعدئذ جلوس ارغون على أشلاء عمه . وكذلك فعل عندما وصلته شكوى بايدو على ابن عمه كيخاتو (٢) .

وكان الخاقان بدوره يلاحظ مراكز القوى في الايلخانية ويعمل على التقرب اليها وكسب صداقتها ليستغل ذلك في استمرار الطاعة له بفضلها ، من ذلك انه ساهم في تكريم الامير بوقا الذي لعب الدور الاكبر في إزاحة الايلخان احمد تكودار

(١) انظر المقدمة التي كتبها يحيى الخشاب للترجمة العربية لجامع التواريخ م ٢ ج ١ ص «س ع» انظر ايضاً حاشية (٢) من ص ٢١٤ – ٢١٥ في التعريف بهذا السفير
Howorth . 3 . P . 208 ‘ 370 ‘ Malcnlm . 1 . p . 270 .
(٢) نقل ذلك عن المؤرخ الارميني ، وعن متمم ابن العبري .
Howorth . 3 . P . 297 ‘ 310 ‘ 373 .

وتنصيب ارغون ، فقد أمر بمنحه لقب چينكسانك ـ أي أمير الأمراء .

Chingsang .

الذي يعطيه كثيراً من الامتيازات على أقرانه .

وكذلك فانه عندما أحس بالمكانة الكبيرة التي أشغلها الامير چوبان في توجيه دولة أبي سعيد ، تقرب اليه بالهدايا والرسائل ليحافظ بذلك على بقية الصلات بين الحكومتين ، فقد استغل وصوله الى هرات في احدى حملاته العسكرية فأرسل اليه أحد رسله يحمله رسالة مليئة بالثناء والشكر على حسن إدارته ، كما حمل اليه رداء الشرف ولقب امير الامراء (١) .

ولم يهن على الخاقان تمرد بني عمه الايلخانيين على طاعته التي فعلها غازان بحكم اسلامه والذي جعل من نفسه صاحب السيادة الحقيقية على البلاد ، ومن المحتمل ان الثورات التي قام بها بعض أبناء الاسرة على غازان كانت بتحريض من الخاقان نفسه كما فعل بالنسبة لسابقه تكودار . كما ان خراسان تعرضت نتيجة لذلك لغزو مغول ما وراء النهر .

ولكن الخاقان كما يبدو لم يقنط بالرغم من فشل هذه المحاولات ، فقد استغل الحالة النفسية التي اصبح عليها غازان بعد فشل حملته الأخيرة على الشام والتي انقطع بعدها للتعبد وخدمة الفقراء والدراويش ، فدبر محاولة لخلعه وإحلال الفرنك بن كيخاتو محله . ولكن الوزير سعد الدين الساوجي كشف المؤامرة وقبض على سفير

(١) ابرو ـ ذيل جامع التواريخ ص ١٢١ ـ ١٢٣ ، رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٣٥ ،

Howorth . 3 . P . 320 ، 606 .

الخاقان في تبريز المدعو ناصر الدين وبقية اعوانه ، فأسقط في يد الخاقان (١) .

على ان الخاقان بعد وفاة غازان سعى للتوفيق بين أبناء الاسرة الجنكيزية ليستعيد بذلك مكانته عليها ، فدعا زعماءها الى المصالحة وإقامة علاقات المودة بينهم ونجح في جمع كثير منهم وخاصة أبناء اوكتاي وجغتاي ، ثم أرسل وفداً يضم ممثلي أبناء الاسرة الى اولجايتو الذي استقبلهم في جمادى الاولى ٧٠٥ هـ في مراغة واحتفل بوصولهم احتفالا كبيراً وأجاب الى دعوة المحبة والمصالحة بمثلها وتعاهدوا جميعاً على ذلك وأرسل رسله بالهدايا الى الخاقان ، فاستقرت البلاد فترة من الزمن وانتقلت التجارة بينهم (٢) .

ثانيا : علاقة الايلخانية مع مغول القبجاق :

ويسمون ايضاً بمغول القبيلة الذهبية نسبة الى لون خيامهم الذهبي ، وهي الدولة التي أسسها باتو بن چوجى بن جنكيز خان المتوفى سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م . والذي كان يمثل رأس الرمح في التوسع المغولي نحو روسيا وشرقي اوربا ، والذي استقر بعد وفاة اوكتاي خان ، على ضفاف نهر الفولغا السفلى حيث أقام عاصمته سراي عليها ، وكانت دولته تشمل جميع البلاد التي أمر بها جنكيز لابنه چوچي وما تمتد اليه جيوشهم

---

(١) علي ابراهيم ـ دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .
Howorth • 3 • P • 480 ‘ 486 • *Malcolm* . 1 • P . 276 .

(٢) وصاف م ٤ ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦ ، بارتولد ـ الترك في آسيا الوسطى ص ٢٠٢
Howorth . 3 . *P* . 536 . *Browne* • 3 ‘ p . 49 •
Minorsky • *Maracha* • *En* . *Isl* •

نحو الغرب ، وكانت في اول أمرها تدين بالطاعة للخاقان المقيم في قراقورم (١) .

ولعب باتو دوراً كبيراً في تقرير السياسة المغولية بعد وفاة عمه اوكتاي خان سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م باعتباره اكبر أحفاد جنكيز خان ، وكان له الفضل المباشر في نقل الخانية من بيت اوكتاي خان الى بيت عمه تولي وتولية ابنه منكو الخانية سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م .

وكانت علاقة الايلخانية بهذه الدولة حسنة بحكم خضوعهما في اول الأمر الى توجيه سياسي واحد ، وتعاونهما في عمل عسكري واحد ، ولكن الخلافات بينهما بدأت بعد وفاة منكوخان مباشرة إذ اختلفت سياسة كل منهما في تفضيل وتأييد احد الأخوين المتنافسين ، حتى تطور الخلاف بعدها الى صدام عسكري بينهما سقط فيه الكثير من المغول .

وتعددت أسباب النزاع بين الدولتين ، فعزاها البعض الى الخلاف الديني الذي فرق بين بركة خان المسلم (٢) وهولاكو الوثني واستنكار الاول لما فعله الثاني بالمسلمين

(١) وقد شملت هذه الدولة ، البلاد غرب نهر ارتش حتى اقصى ما وصلت اليه جيوش باتو ، وكان منها الأراضي الزراعية المجاورة لخوارزم والاقاليم الفارسية المحيطة بالشاطي الجنوبي لبحر قزوين وغيرها . انظر التاريخ الغازاني م٤ الورقة ٦٦٤-٦٦٥، ٦٨٥ ، الترك في آسيا الوسطى ص ١٦٦ ، موسوعة تاريخ العالم ج ٢ ـ ترجمة زيادة ص ٦٦٩ ، ٧١٥ ، بارتولد ـ ترجمة المعارف الاسلامية م ٣ « باتو » .

(٢) بركة خان بن جوجي بن جنكيز تولى حكم القبيلة الذهبية بعد وفاة أخيه باتو وابنه سرتاق الذي كان في بلاط منكو عند وفاة ابيه فاستصدر له من الخاقان مرسوماً بتعيينه بعد ابيه باتو ، لكنه توفي في نفس السنة في طريق عودته . وكان بركة اول امير مغولي يعتنق الاسلام .

عند استيلائه على بغداد وقتله للخليفة والمسلمين .

وقديكون لهذا السبب بعض الاعتبار في هذا النزاع خاصة إذا علمنا ان بركة خان كان حديث عهد بالاسلام ، وان تعلقه به كان حقيقة (١) ، ولكنني أعتقد ان العامل السياسي كان هو الأهم في ذلك ، فبينما ساند هولاكو أخاه الأكبر قبلاي في معركة العرش ، ساند بركة خان الاخ الاصغر اريقبوقا واعترف بخانيته وضرب اسمه على نقوده (٢) ، ولابد أن لبركة أسباباً دفعته للمغامرة على الحصان الاصغر فقد يكون منها خوفه من طغيان شخصية قبلاي القوية على المكانة التي كان قد حصل عليها في الدولة المغولية منذ عهد سلفه منكو خان بسبب الدور الذي لعبه في اجلاسه ، وقد يكون منها ايضاً اعتبار هولاكو بلاد اذربيجان واران جزءاً من ايلخانيته في الوقت الذي يطالب بها بركة خان باعتبارها من البلاد الداخلة في نصيب ابيه جوجي.

وقديكون من هذه الاسباب ايضاً امتناع هولاكو عن تقديم خمس الغنائم التي يحصل عليها والتي كان جنكيز قد قررها لاسرة جوجي (٣) .

---

(١) لم تكن لبركة مصلحة في اعتناق الاسلام سوى قناعته بصحة تعاليمه ، وقام هو بنشره بين أصحابه وتحمل من اجل ذلك غضب اخيه باتو و كراهته لرؤية السفراء المسلمين في معسكره مما دفع بركة الى نقل معسكره الى الجانب الآخر من النهر .

(٢) *Howorth . 3 . p. II3.*

وهو يشير الى ان قبلاي بعد انتصاره لم يعترف بخانية بركة لذلك حذف اسمه من قائمة خانات القبيلة الذهبية المحفوظة في بلاطه .

(٣) وصاف م ٤ ص ٣٩٨ ، اليونيني ج ١ ص ٤٩٧ - ٤٩٨ ، ج ٢ ص ٣٦٤-

وأشغلت الحرب التي قامت بين الدولتين في السنين الاخيرة من حياة هولاكو حتى أنها منعته من الانتقام لهزيمة جيوشه في عين جالوت ، واضطرته بعدها الى التفتيش عن اعوان يستعين بهم أمام تحالف خصمه مع الظاهر بيبرس عدوه الآخر .

وكانت الحرب سجالا بينهما ، انتصر هولاكو في أولها على بعض جيوش بركة خان ، فغره ذلك على ارسال ابنه اباقا لملاحقة خصمه والقضاء عليه ، فدارت الدائرة على اباقا الذي وقع في مصيدة بركة خان ، ولم يستطع سوى النجاة بقلة من أصحابه بينما سقط الآخرون طعمة لسيوف بركة او غرقاً في نهر ترك الذي انهار جليده تحت أقدامهم من شدة هروبهم . ولم يتحمل هولاكو قسوة الهزيمة التي أثرت على معنوياته وجملته يفرغ حقده في قتل جميع تجار عدوه الذين كانوا في بلده (١) .

وورث اباقا هذا النزاع الذي اضطره الى اتباع سياسة دفاعية مع المماليك لكي يستعد له . وانتهز بركة خان وفاة هولاكو فأرسل جيوشه بقيادة نوغاي الذي عبر الدربند وتوغل في اذربيجان في صفر ٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م ، لكنه تراجع جريحاً أمام جيوش اباقا التي قادها أخوه يشموت ، ثم توسعت دائرة الحرب بعد ذلك عندما

-ابن ابي الفضائل جـ١ ص ١٠١ - ١٠٤ ، ابن خلدون جـ ٥ ص ٥٣٧ ، الرمزي م ١ تلفيق الأخبار ص ٤١٤ . انظر ايضاً تعليق زيادة في حاشية المقريزي جـ ١ ق ٢ ص ٤٧٣ - ٤٧٤ . بارتولد - ترجمة المعارف الاسلامية م ٣ - بركة خان .

(١) رشيد الدين م ٢ جـ١ ص ٣٣٢-٣٣٥ ، بارتولد - ترجمة المعارف الاسلامية م ٣ - بركة خان .

Bretschnider . 2 . P . 116 ' Howorth . 3 . P. 115 - 116 . ' Sykes . 2 . P . 101 .

زحف كل من اباقا وبركة نحو الآخر حتى حجز بينهما نهر « كُر » عدة ايام ، ثم لم ينقذهما من الاشتباك بعدها سوى مرض بركة وانسحابه ووفاته في طريق عودته سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م (١) .

وتحسنت علاقات اباقا مع منكوتيمور(٢) الذي خلف بركة على العرش والذي أحس بعجزه عن مواصلة سياسة الحرب مع جيرانه ، فساد السلام والاستقرار حدود البلدين ، حتى أن منكو تيمور أرسل رسوله الى اباقا سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م حاملا انواع التحف والهدايا للايلخان مع التهنئة بانتصاره على مغول ما وراء النهر (٣) .

ويبدو أن الاحداث العسكرية بدأت ثانية فى اواخر أيام اباقا ، ذلك ان منكو تيمور لم يكن قد قطع صلاته مع المماليك الذين يبادلونه الرسل ويحرضونه على الايلخان ، فضلا عن استمرار انتشار الاسلام بين رعيته وتأثير ذلك في ترجيح الميل الى المسلمين مما أدى الى هذه الاحداث التى ورد بأخبارها القصاد على الملك قلاون سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م والتى أفادوا بأن « أولاد أخي بركة خان طلعوا على التتر وأخذوا بيوتهم وكسروهم مرتين وانهم معهم فى أنحس الاحوال (٤) .

وفي عهد ارغون بقيت حوادث الحدود تعكر من صفو العلاقات بين الدولتين ،

---

(١) رشيد الدين م ٢ جـ ٢ ص ١٣ - ١٤ ، خواندمير م ٣ جـ ١ ص ٦٢ .

(٢) منكو تيمور بن طغان بن باتو خلف عمه بركة وحكم من سنة ٦٦٥-٦٨١هـ.

(٣) رشيد الدين م ٢ جـ ٢ ص ٥٦ .

(٤) اليونيني جـ ٢ ص ٤٧٢ ، المقريزي جـ ١ ق ٢ ص ٥٩٠ ، المقري الفيومي ق ٢ - نثر الجمان - الورقة ١٣٨ ، ٢٢٣ .

في الثاني ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م تعرضت منطقة الدربند الى هجمات بعض قواد القبجاق الذين نهبوا القوافل التجارية ثم ارتدوا عندما علموا بتوجه ارغون بنفسه اليهم ، ولكنهم كرروا ذلك في سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م . عندما زحف خان القبجاق (١) بنفسه لمهاجمة الحدود في الوقت الذي عبر فيه قواده الدربند وتوغلوا داخل البلاد ، فتصدى لهم ارغون واشتبكت جيوشه مع المغيرين فأوقعت بهم الهزيمة فولوا مدبرين (٢) .

وظهرت بوادر الصلح بين البلدين في عهد كيخاتو الذي استقبل في ربيع الثاني ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م رسل توقتا خان القبجاق الجديد الذين قدموا للصلح والوفاق (٣).

وبالرغم من خلو عهد غازان من الحوادث التي تعكر السلام بين الدولتين ، إلا أن الاستقرار كان مهدداً في كل لحظة بسبب أطماع توقتا ومطالبته بحقوق آبائه في بلاد الايلخانية إذ وصلت رسله غازان في جمادى الاولى سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣ م وهو في العراق ، يطالبه باعادة مملكة اران واذربيجان ويهدده بالحرب ، ولما كان الايلخان يستعد للحرب مع المماليك فقد ألان في جوابه للرسل وأظهر لهم الاحترام

(١) كان الخان في هذه الفترة هو تلابغا بن منكو تيمور الذي تولى العرش عند تنازل أخيه تدان منكو الذي حكم بين سنة ٦٨١ - ٦٨٦ هـ . وقد قتل تلابغا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م بسبب اختلافه مع قائد الجيش نوغاي الذي اختار مكانة أخاه توقتا الذي حكم بين ٦٩٠ - ٧١٢ هـ .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٣٨ ، ١٥٤ - ١٥٥ .

Howorth • 3 • P • 320 - 322 ، 335 .

(٣) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٨٠ .

وحملهم رسالة رقيقة الى توقتا دعاه فيها الى المسالمة والصفح وتناسي الاحقاد وإحلال الصفاء بين الدولتين (١) .

وتكررت المطالبة في عهد اولجايتو الذى استقبل الرسل في سنة ٧٠٤ هـ/١٣٠٤م وتكرر التهديد بالحرب ، ولكن توقتا لم يغز بطائل (٢) .

وتوفرت أسباب الصلح بين الدولتين عندما تولى ازبك خان (٣) عرش القبيلة الذهبية في سنة ٧١٢ هـ الذي بدأ عهده بمراسلة الملوك المجاورين ومهاداتهم ، إذ يشير حافظ ابرو الى وصول كيخاتو رسول الملك ازبك الى السلطانية سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣م حاملا معه الهدايا (٤) .

ومن المحتمل ان المراسلات استمرت بعد ذلك ، إذ أن اولجايتو استجاب

---

(١) وصاف م ٤ ص ٣٩٨ .

D'ohsson · 4 . P · 317 – 319 ·

(٢) Howorth · 3 · P · 537 ·

وكان توقتا قد أرسل في نفس الوقت رسله الى المماليك يدعوهم للتعاون في حملة عسكرية وقد وصلت رسله بعد دعوة اولجايتو للصلح ، ثم كرر الدعوة ثانية فأجيب بأنه لايصح نقض الصلح ، النويري جـ ٣٠ ق ١ الورقة ١٠٥ ، ١٥٤ ، ابن ايبك جـ ٩ ص ١٢٨ ، المقريزي جـ ٢ ق ١ ص ٧ ، ١٢٧ .

(٣) ازبك خان بن طغرل بن منكوتيمور حكم بعد وفاة عمه توقتا من سنة ٧١٢ – ٧٤١ هـ .

(٤) ذيل جامع التواريخ ص ٥٥ . ويشير المقريزي جـ ٢ ق ١ ص ١٢٢ الى وصول رسل ازبك الى السلطان الناصر في نفس التاريخ ٧١٣ هـ .

لشكوى ازبك خان من اعتداءات بابا بهادر أحد قواده على منطقة خوارزم سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م فأمر بقتله هو وابنه (١) .

على أن وفاة اولجايتو وصغر خلفه أبي سعيد كان مشجعاً لامراء المغول على انتهاز الفرصة واحتلال بعض بلاده ، فقد توغلت جيوش ازبك خان عبر الدربند حتى وصلت منطقة موغان وهاجمت جيوش الايلخانية التي هربت أمامها لولا ان ابا سعيد تصدي بنفسه لها ثم لحق به چوبان فاستطاعا دحرها وملاحقتها حتى الحدود (٢) .

وكان قيام الصلح مع المماليك سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م إنقاذاً لأبي سعيد من محاولات ازبك العديدة للتحالف مع المماليك عليه (٣) وعلى العكس من ذلك فقد استغل ابو سعيد هذا الصلح للقيام بتأديب بني عمه حيث اوعز الى چوبان بمهاجمة ديارهم سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م الذي اخترق الدربند حتى وصل نهر ترك ، الامر الذي أدى بعدها الى قيام مفاوضات الصلح بين الفريقين فاستقرت البلاد وساد السلام (٤) .

---

(١) مينورسكي ـ ترجمة المعارف الاسلامية م ٥ ـ تغاتيمور .

(٢) ابن خلدون جـ ٥ ص ٥٤٩ ، خواندمير م ٣ جـ ١ ص ١١٧ ، العيني ـ الورقة ١٨٢ ـ ١٨٣ في حوادث سنة ٧١٩ هـ .

Price . 2 . p . 654 . D' Herbelot . p . 29 .

(٣) كانت المراسلات بين الناصر وازبك مستمرة حتى أن الناصر تزوج من احدى قريبات ازبك ليقوي التعاون بينهما على الايلخانية .

(٤) تاريخ كزيدة ص ٦٠٧ ، ابرو ص ١١٧ ، العيني الورقة ٣٦١ ـ ٣٦٢ في حوادث سنة ٧٢٣ هـ ، حسن ابراهيم ـ مصر في العصور الوسطى ص ٢٨٧ .

ولكن حبل السلام لم يطل كثيراً بأبي سعيد ، إذ أن الانباء وصلت في اواخر ايامه باعتداءات جيوش ازبك خان على بلاده فعزم على قيادة الجيش بنفسه ، وبينما كان يستعد لذلك إذ أصابه المرض الذي أودى به فترك البلاد من بعده نهباً لكل طالع (١) .

ثالثاً ـ علاقة الايلخانية مع مغول ما وراء النهر :

ويسمى الكيان السياسي الذي أنشأه المغول فيما وراء نهر جيحون عادة بمملكة الجغتاي نسبة الى جغتاي الابن الثاني لجنكيز ، الذي كانت أراضيه تمتد من حدود بلاد الايغور حتى سمرقند وبخارى (٢) .

على أن هذا الكيان لم يقتصر على أبناء الجغتاي فحسب وانما شمل ابناء اوكتاي ايضاً .

وبدأت علاقة الايلخانية بهم بعد استعادة وجودهم ثانية (٣) في اعقاب الصراع على السلطة بين الأخوين قبلاي واريقبوقا ، فقد استغل براق (٤) حفيد جغتاي ثقة

---

(١) ابرو ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ، ميرخوند جـ ٥ ص ١٧٨ ، الشبنكاري ـ مجمع الأنساب الورقة ٣٤٣ .

Howorth · 3 · p · 623 .

(٢) بارتولد ـ الترك في آسيا الوسطى ص ١٨٤ .

(٣) كان أبناء البيتين قد تفرقوا وشردوا في اعقاب تآمرهم على بيعة منكوخان سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م .

(٤) تعدد الامراء الذين اختارهم قبلاي لزعامة بيت الجغتاي الذين كان يحاول استغلالهم في صراعه مع اخيه اريقبوقا من ناحية ، وليقفوا ضد اطماع قايدو حفيد ـ

الخاقان الجديد قبلاي فمكن لنفسه في البلاد وتحالف مع قايدو حفيد اوكتاي الذي كان يطمع في استعادة حقوق بيته في الخانية ، على الخاقان الجديد وعلى ابن اخيه اباقا .

وبالرغم من تطور العلاقة بين الحليفين المتنافسين على زعامة المنطقة ، فقد اتفقا بعد سلسلة من الحروب على وضع حد للنزاع بينهما ، وإعادة توزيع البلاد بينهما وتوحيد قوانهما لمصلحة البيتين ، وتقرر في الاجتماع الذي ضم زعماء البيتين سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م على إعادة تقسيم بلاد ما وراء النهر بينهما واقتطاع جزء من البلاد الايلخانية لمصلحتهما (١) .

وغلبت الحروب على علاقات الايلخانية بمغول الجغتاي حتى أصبحوا مصدر خطر دائم يهدد الايلخانات ويمنعهم من إنجاح خططهم العسكرية مع خصومهم الآخرين ، بالاضافة الى احداثهم الخراب في منطقة خراسان ومازندران المجاورة لهم .

وكان اول اتصال بين البلدين في سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م عندما وصل بلاط اباقا

ـ او كتاي في الخانية ، فقد اختار أولاً ابيشكا بن يوري ، ثم اختار الغا الذي كان قد انشق على اريقبوقا ، ثم بعد وفاته سنة ٦٦٢ هـ اختار مبارك شاه الذي كان قد اعتنق الاسلام فنقم عليه قبلاي ودس عليه براق الذي استطاع انتزاع الامارة منه لنفسه وأصبح حليفاً للخاقان . انظر فامبري ـ تاريخ بخارى ص ١٩٠ ـ ١٩٢ ، بارتولد ـ ترجمة المعارف الاسلامية م ٣ ـ براق .

(١) فامبري ـ تاريخ بخارى ص ١٩٣ ، بارتولد ـ ترجمة المعارف الاسلامية م ٣ ـ براق .

Sykes . 2 . 101 .

الأمير مسعود (١) موفداً من قبل براق في مهمة ظاهرها المطالبة بتقديم حسابات املاكه الخاصة ، وباطنها التجسس لمعرفة قوة اباقا وطرق المواصلات في بلاده ، وانكشفت حقيقة مسعود بعد سفره بأيام عندما وصلت أنباء حشودهم على حدود خراسان .

ولم تفد محاولات اباقا لاقناع براق بالصلح مقابل حصوله على مقاطعات غزنة وكرمان ، ذلك ان براق اعتقد انه قادر على هزيمة الايلخان بفضل الجيش الكبير الذي كان قد تجمع حوله ، ولكن ، وبفضل الحيلة التي لجأ اليها اباقا ، سقط براق في شر اعماله عندما وجد نفسه محاطاً بجيوش الايلخانية ، وجيوشه تهرب من حوله ، فلم يجد غير الهزيمة سبيلا للنجاة ، ثم لم يطل به الأجل بعد ذلك إذ أصيب بمرض أقعده عن الحركة وتفرق اصحابه عنه (٢) .

وعزم اباقا بعد انتصاره الساحق على خصمه ، القيام بمهاجمة بلاده وتأديب اعوانه لكيلا يعاودوا الهجوم ثانية ، فأرسل جيوشه سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٣ م التي

---

(١) الأمير مسعود بن محمود يلواج الخوارزمي الحاكم الاداري لبلاد ما وراء النهر منذ زمن اوكتاي خان ، وكانت له مثل ابيه مكانة كبيرة بين زعماء المغول ، وهو الذي تولى اعمار البلاد واصلاحها ، وقد توارث ابناؤه مكانته من بعده .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٨ ـ ٤٥ ، تاريخ كزيدة ص ٥٨٢ ، تاريخ بخارى ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ، ويشير بارتولد ـ ترجمة المعارف الاسلامية م ٣ ـ براق ـ إلا ان قايدو هو الذي شجع براق على هذه الحملة لكي يخلص من وجوده معه .

Howorth . 3 • P • 228-238. D'*Herbelot . P • 2 •*

عبرت نهر جيحون وهاجت بخارى وتركتها خراباً (١) .

وساد الهدوء حدود البلدين فترة طويلة من الزمن ، إلا من بعض احداث محلية بسيطة كانت تعكر السلام ، من ذلك توغل بعض جيوش قايدو حتى نواحي بلخ ومرو في سنة ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م ثم انسحابهم بعد تخريبهم البلاد (٢) .

وعلى أثر الفوضى التي سادت البلاد الايلخانية عند انكشاف محاولة الأمير بوقا التخلص من الايلخان ارغون سنة ٦٨٧ هـ واتهام عدد من الأمراء بمشاركته ، خاف الأمير نوروز على نفسه وهرب الى مغول ما وراء النهر ، فرحب به قايدو واستغله في إرسال بعض الجيوش التي هاجت خراسان سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م وأرغمت الأمير غازان الذي كان يتولى مسؤولية خراسان ، أرغمته على التراجع والاستنجاد بأبيه (٣).

وفي عهد غازان ، استمرت حوادث الحدود مقلقة للايلخانيين ومؤثرة على خطط غازان السياسية والعسكرية ، فقد اضطر مثلا سنة ٦٩٩ هـ الى ترك دمشق قبل أن يستتب سلطانه عليها ويعود بسبب تعرض بلاد خراسان لهجوم جيوش الجغتاي الذين كان هدفهم النهب والسلب ، وقد توغلوا في البلاد حتى وصلوا ضواحي شيراز

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٥٨ ، تاريخ بخارى ص ١٩٦ ، بارتولد - ترجمة المعارف الاسلامية م ٣ - بخارى .

Sykes . 2 . P . 102.

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٢٧ .

(٣) نفس المرجع ص ١٤٩ .

Howorth . 3 . P . 338 - 339.

وخوزستان ثم عادوا تاركين وراءهم الكثير مما غنموه بسبب كثرته وعجزهم عن حمله(١).

وصد اولجايتو خلال توليه مسؤولية خراسان سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣ م هجوماً قامت به بعض هذه الجيوش وألحق الهزيمة بها (٢) .

وتمت أول مصالحة بين الايلخانيين ومغول ما وراء النهر في عهد اولجايتو الذي استقبل في بلاطه في جمادى الاولى سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥م رسل بني عمه چابار ودوا (٣). بالاضافة الى رسول الخاقان تيمور الذين دعوه الى إحلال المحبة والصفاء بين أبناء أسرة جنكيز فرحب اولجايتو بدعوتهم وحملهم بالهدايا والرسل لتأكيد ذلك (٤) .

على أن دعاة السلام لم ينتظروا جفاف مداده ، إذ تنازعوا فيما بينهم وأشهروا السلاح على بعضهم ، ثم استغل بعضهم توجه اولجايتو نحو الشام فعاثوا فى خراسان فساداً وتركوا فيها الخراب ، الأمر الذي دفع الايلخان الى التعجيل بالعودة عن الرحبة سنة ٧١٢ هـ لملافاة خطر هؤلاء الغزاة ، وقرر تأديبهم والانتقام منهم فتوجه

---

(١) علي ابراهيم ـ دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ١٥٥ .
Howorth . 3 . P . 446 . *Sykes* . 2 . P . 111 - 112 .

(٢) التاريخ الغازاني م ٣ ـ الورقة ٥٣٤ ـ ٥٣٥ .

(٣) كان يتزعم اسرة اوكتاي في هـــذه الفترة چابار بن قايدو ، اما اسرة جغتاي فيرأسها دوا بن براق . ويشير بارتولد ـ الترك في آسيا الوسطى ص ٢٠٢ . إلا ان الخاقان الجغتاي دوا هو صاحب فكرة المصالحة بين ابناء الاسرة وهو الذي فاتح بها الخاقان تيمور .

(٤) وصاف م ٤ ص ٤٧٥ ، الترك في آسيا الوسطى ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ،
Howorth . 3 . P . 536 .

بنفسه الى خراسان وأرسل جيوشه عبر جيحون لتقابل التخريب بالتخريب ، ثم رأى قبيل عودته عنها اختيار ابنه ابا سعيد لمسؤوليتها بعد أن أحاطه بالحاشية المدبرة ، ليكون وجوده فيها أماناً لأهلها ورادعاً لأعداء البلاد (١) .

ورحب اولجايتو بالنزاع الذي قام بين خصومه وشجع عليه عندما قبل لجوء الأمير يساور في بلاده وأقطعه المنطقة الممتدة من نهر جيحون حتى حدود مازندران ثم أمده بجيش ليرد به على ملاحقة ابن عمه كبك بن دوا (٢) الذي كان قد عبر جيحون وراءه ، والذي فر عائداً الى بلاده بعد ذلك (٣) .

ويبدو أن اولجايتو استغل لجوء يساور ، فلم يكتف بالحاق الهزيمة بأعدائه بل أرسله على رأس الجيش سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م الى داخل البلاد حتى وصل بخارى وأجبر سكانها على الهجرة منها وتركها خراباً (٤) .

ولكن الأمير اللاجىء لم يرع جميل اولجايتو وحمايته له عندما طمع بالاستقلال ببلاد خراسان بعد وفاة الايلخان ، مستغلا صغر ابنه ابي سعيد ، وبالرغم من نجاحه في استمالة بعض أمراء خراسان وفرض سلطانه على معظم أقسامها مدعياً بأنه يعمل لمصلحة الايلخان الصغير ، إلا أنه اضطر الى التراجع والاعتذار عندما وصلت جيوش

---

(١) وصاف م ٥ ص ٦١٠–٦١١ ، تاريخ كزيدة ص ٥٩٨ ، ابرو ص٥٣–٦١.

(٢) كبك بن دوا بن براق ، تولى رئاسة الاسرة بعد اخيه ايسن بوقا من سنة ٧١٨ – ٧٢٦ هـ .

(٣) وصاف م ٥ ص ٦١٣ ، ابرو ص ٦١ – ٦٥ .

Price . 2 . P . *640 - 641* .

(٤) بارتولد – ترجمة المعارف الاسلامية م ٣ – بخارى .

أبي سعيد خراسان لتقضي على فتنته .

على انه سرعان ما عاود الكرة ، مستغلا انقسام الامراء وتآمرهم على الأمير چوبان الذي كان قد تولى الوصاية على الايلخان القاصر ، فقام بفرض طاعته عليها وملاحقة معارضيه فيها ، ثم أرغم ثانية على الهرب أمام الجيوش التي زحفت للقضاء عليه والتي تعاونت مع جيوش الأمير الجغتاي كبك الذي تصدى له من ناحية بلاده فسقط بين الجيشين قتيلا في سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م (١) .

ولم يؤد التعاون بين الجيشين في المعركة الأخيرة الى التوفيق والمصالحة بين الدولتين ، فقد طمع الامير كبك بالاستيلاء على بلاد خراسان سنة ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢ م مغتنما فرصة تخلصه من عدوه يساور ، ولكن چوبان لم يسمح له بذلك عندما جعل معسكره الدائم فيها .

وكرر ترماشين (٢) أخو كبك محاولة أخيه بعد وفاته سنة ٧٢٦ هـ فهاجم غزنة وكابل ، لكنه تراجع هارباً أمام الجيوش التي قادها حسن بن چوبان (٣) .

وتكررت محاولات الاعتداء على خراسان بعد ذلك حيث استغل الغزاة حالة

---

(١) وصاف م ٥ ص ٦٢٠ - ٦٢٣ ، ابرو ص ٧١ ، ٧٤ - ٨٤ ، ٨٧ - ٩٦ ، ١٠٤ - ١١٣ ، ميرخوند ج ٥ ص ١٦٣ - ١٦٥ .

(٢) ترماشين بن دوا بن براق خلف اخاه كبك في زعامة الجغتاي سنة ٧٢٦ - ٧٣٥ هـ .

(٣) العيني - الورقة ٣٤٢ - ٣٤٣ في حوادث سنة ٧٢٢ هـ ، الترك في آسيا الوسطى ٢٠٩ .

Howorth . 3. p . 606. Price . p . 662 .

الفوضى التي عمت البلاد بعد مقتل چوبان ، فكانوا يهاجمون البلاد ويسلبونها ثم يعودون قبل أن يشعر بهم أمراء البلاد ، ولم تخلص الايلخانية من هذه الاعتداءات إلا سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م عندما قتل الأمير ترماشين ، واشتبك خلفاؤه مع بعضهم في نزاع شغلهم عن البلاد الأخرى (١) .

(١) المقريزي جـ ٢ ق ٢ ص ٢٨٩ .

Howorth . 3 . p . 618 .

الباب الخامس

زوال الايلخانية

١ – العوامل غير المباشرة

٢ – العوامل المباشرة

الباب الخامس

نهاية الحكم الايلخاني بالعراق

لم يطل الزمن بالكيان الايلخاني كثيراً ، إذ انهار ولما يبلغ قرناً من العمر ، وكان ممكناً أن ينهار قبل ذلك لو وجدت الدولة القوية أمامه ، او لو استمرت الدولة المملوكية على قوتها التي اتصفت بها حتى نهاية عهد قلاون الأب .

وليس غريباً انهياره بهذه السرعة ، فتلك ظاهرة طبيعية تتصف بها الكيانات البدوية التي لا تملك من اسباب وجودها سوى القوة والبطش ، إذ ان هذه العوامل بقيت تطبع اعمالها حتى زوالها ، وبعد ان كانت موجهة نحو اخضاع الشعوب الاخرى عند قيام الحكم المغولي ؛ تحول استخدامها نحو المغول انفسهم بعد استقرار هذا الحكم واستسلام المحكومين لهم . ويمكن تمييز نوعين من العوامل أدت الى زوال هـذا الكيان وهي : —

اولا ـ العوامل غير المباشرة :

لم يكن سقوط هذا الكيان فجائياً بعد وفاة ابي سعيد بلا خلف ، وانما كانت عوامل الضعف قد بدأت مبكرة تنخر في كيانه ، ولم يكن يمنع من سقوطه قبل هذا

الوقت إلا ضعف القوى السياسية المجاورة له وانقسامها على نفسها من جهة (١) ، وظهور شخصية غازان القوية الذي استطاع إعادة الشباب الموقت الى الدولة فمد من عمرها حفنة من السنين ثم لم يلبث ان اسرع الهرم اليها بعد وفاته .

ويمكن اعتبار وفاة اباقا سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م بداية لفعالية عوامل الضعف ، إذ أن الصراع على السلطة الذي وقع بين ابناء الاسرة من بعده ، كان اول معول هدم في هذا الكيان ، على ان ذلك لم يكن الوحيد ، اذ تضافرت عوامل اخرى نشأت عنه وساعدت على الاسراع في هدمه ، ويمكن تلخيص ذلك بالملاحظات التالية :

١ ـ عدم وجود قانون لتنظيم وراثة العرش : وكان فقدان المغول لمثل هذا القانون سبباً لكثير من المشاكل التي أثرت على كيانهم ، فقد تعارف المغول منذ أن كانوا في صحرائهم على مجموعة من العادات والتقاليد التي أملتها عليهم الحاجة لتنظيم حياتهم ، فنمت مع نموهم وتطورت مع تطورهم ، وكان من هذه التقاليد مسؤولية زعامة الاسرة او القبيلة التي كانت تناط عادة بالأقوى من الرجال سناً ورأياً وشجاعة ، ليستطيع اثبات وجودها وقت الشدائد وحماية كيانها من الأخطار وكان جنكيز قد قام بعد إخضاعه هذه القبائل وتوحيدها بتنظيم وتطوير هذه العادات والتقاليد بما يتلاءم وحاجة الكيان السياسي الجديد حيث نسبت صورتها الجديدة اليه وعرفت باسم

(١) وأقصد بها الدول المجاورة وخاصة المملوكية ، اذ الملاحظ ان قلاون الأب تفرغ بعد وفاة اباقا سنة ٦٨٠ هـ وانقسام الايلخانيين الداخلي ، تفرغ لتصفية الشام من بقايا الجيوب الصليبية ، وكان محتملاً ان يتوجه نحو العراق لو طال به الزمن ، ولكن وفاته سنة ٦٨٩ هـ وانقسام الامراء من بعده على ابنائه ، كان حماية للنظام الايلخاني الذي كان في غاية الضعف والانقسام .

قوانين جنكيز خان او « الياسا » وبقيت هذه الياسا قوانين عرفية غير مدونة ، معرضة للاضافة والتطوير تبعاً لاحساس منظمها جنكيز ، باعتباره مفكراً ومشرعاً ' بحاجة المجتمع الجديد الى هذه الاضافة والتطوير ، ولكنه عند وفاته جمدت هذه القوانين على الصورة التي بلغتها ' فحرص أبناؤه من بعده على التمسك بها والاهتداء بتطبيق تعاليمها ' وحال قرب المغول من عهد جنكيز وسيطرة شخصيته القوية على المجتمعين في القوريلتاي الذي انعقد إثر وفاته ، حال دون اعتراضهم على تخطي جنكيز أبناءه الكبار ' فاحترموا رغبته في تقرير شرعية توليه ثالث أبنائه من بعده مع وجود اخيه الأكبر جغتاي ، وأخوة جنكيز انفسهم بين المجتمعين ، بالرغم من اعتذار المرشح عن قبول الترشيح وتأكيده على افضلية اخيه او احد اعمامه عليه (١) ، ونتيجة لذلك فقد أصبحت مسؤولية الزعامة وفق هذه القوانين العرفية يتوارثها ارشد أبناء الزعيم او الخان المتوفى باعتباره كفوءاً لها ، إلا اذا نص على واحد من الابناء بعينه ' حينئذ ، كان المفروض أن تؤخذ هذه التوصية بنظر الاعتبار عند اجتماع ابناء الاسرة الباقين ومن يجب ان يضمهم مجلس القوريلتاي الذي يجب أن يجتمع بهذه المناسبة لاجراء احتفالات الجلوس ولاضفاء صفة الشرعية على الايلخان الجديد .

وورث الايلخانيون هذه القوانين ' وكانوا بعيدين عن الروح التي رافقت تطويرها فأصبحوا مقلدين فى تطبيق احكامها الامر الذي قادهم الي الاختلاف في تفسير تعاليمها ' ثم وسعت المصالح والرغبات الخاصة هذا الاختلاف حتى تحول الى نزاع بين

---

(١) الجويني ـ جهانكشاي ج ١ ص ١٤٣ ـ ١٤٧ ، التاريخ الغازاني م ٣ ـ الورقة ٥٢٠ ـ ٥٢١ .

اصحابه ، وكل منهم يدعي الحرص على التمسك بتعاليمها ويتهم الآخرين بالخروج عليها فكانت الفتنة التي أصبحت أساساً لكل فتنة بعدها .

فقد تولى اباقا العرش بعد ابيه باعتباره اكبر الحاضرين من أبناء الاسرة سناً وان أباه استخلفه من بعده بوصية سمعها الامراء منه ، فلم يقم خلاف بين الامراء على شرعية جلوسه ، ولكنه عند وفاته ، اختلف الامراء ، فالاخبار لا تشير الى انه اختار وريثه ، فاتفقت اكثرية الامراء على اختيار اخيه تكودار باعتباره ارشد ابناء هولاكو الاحياء ، معتمدين في ذلك على المفهوم العام لهذه القوانين وعلى سابقة دستورية من هذا النوع عند ترشيح باتو للخانية بعد وفاة كيوك (١) ، بينما تمسكت أقلية منهم بحق ارغون بوراثة العرش باعتباره اكبر ابناء اباقا ، ولم تنجح احكام الياسا في فرض احترامها على المجتمعين لتقرير ايلخانية تكودار إلا لان ارغون لم يستطع استمالة القوة الى جانبه ، ولكنه استطاع ذلك بعد سقوط عمه قتيلا أمام اطماع الامراء في العرش ، إذ انقسم الامراء ثانيـة على انفسهم الى ثلاث مجموعات ، وبالرغم من وجود ابن ثالث لهولاكو على قيد الحياة هو هولاجو الذي كان اكبر الحاضرين ، إلا ان القوة التي لعبت دورها خلال الاجتماعات ، استطاعت فرض تفسير الياسا بما يتفق وشرعية جلوس اضعف الثلاثة حجة وهو ارغون .

وأصبح العرش بعد ذلك ، ولفترة طويلة من الزمن ، من نصيب كل طامع

(١) كان القرار الذي اتخذه المجتمعون آنذاك الممثلون لجميع بيوت جنكيز هو « لما كان باتو اكبر الأبناء سناً وانه اصلح الجميع وأكفأهم فهو لذلك يجب ان يتولى الخانيـة » انظر الجويني جـ ٣ ص ٧ ـ ٨ ، التاريخ الغازاني م ٤ الورقة ٨١٤ ، الجوزجاني : سياسة الأمصار وتجربة الاعصار « در تاريخ آل جنكيز » ص ٦١، ٦٣ .

فيه من ابناء الاسرة يستطيع امتلاك القوة التي تفرض التفسير الملائم لاحكام الياسا لتبرير استيلائه عليه ، تمثل ذلك في جلوس كيخاتو إثر وفاة أخيه ارغون باعتباره وارثاً له بالرغم من وجود ابن عمه بايدو الذي رشح للعرش قبله ، ثم في ارتقاء بايدو للعرش على جثة كيخاتو الذي انقلبت عليه القوة التي سبق لها أن رفعته مبررة عملها بخروجه على تعاليم الياسا وعدم احترامه لها ، ثم كان أخيراً سقوط بايدو بنفس الايدي التي آزرته لمصلحة غازان الذي برر خروجه عليه بأحقيته بالعرش باعتباره وارثاً لابيه وعمه ، وبرر قتله للايلخان بأنه انتقام منه لقتله كيخاتو .

وصفا العرش لغازان ثم لاخيه من بعده بعد اختفاء المنافسين لهم الطامعين فيه حتى إذا جاء الدور الى ابي سعيد الطفل القاصر ، لم يكن هناك من ذرية هولاكو من بلغ مبلغ الرجولة لينافسه عليه فتولاه طبقاً لاحكام الياسا باعتباره وارثاً له عن ابيه ، وباعتباره ارشد ابناء الاسرة .

نستخلص من ذلك ان الحكم الايلخاني لم يخضع لقاعدة معينة في تنظيم ولاية العرش ، فلا هو آخذ بنظام الوراثة الذي لم يتول العرش بموجبه إلا ايلخانان هما اباقا وابو سعيد ، ولا هو آخذ بالنظام القبلي الذي يعتمد على الكبر والكفاءة والذي نلمح بعضه في تولي تكودار واولجايتو الى حد ما . اما الباقون من الايلخانات فقد فرضت شريعة الغاب وجودهم على العرش الذي اريقت للوصول اليه الكثير من الدماء .

٢ ـ ونشأ من جراء هذه الفوضى انتشار روح البغضاء والعداوة بين ابناء الاسرة وجرأة بعضهم على بعض وذلك بسبب حرص الايلخانات على عروشهم من ناحية ومزاحمة اخوتهم وبني عمهم لهم وطمعهم في الحلول محلهم من ناحية اخرى . وبدأ

ذلك في عهد تكودار الذي تعرض لمنافسة ابن اخيه له ثم غدر اخوته به ومؤازرتهم لابن اخيه وشكواهم عليه عند الخاقان الذي أرسل يهدده بترك ما اعتنق من الاسلام ولم يكتفوا بذلك بل تآمر أخوه كنغرتاي مع اثنين من الحرس للقبض عليه خلال احد الاحتفالات ، فاضطر تكودار حينئذ الى قتله (١) فكان اول امير ايلخاني يلقى حتفه على يد أخيه بسبب الصراع على العرش .

وفتح تكودار بذلك الباب لابن اخيه ارغون الذي اقتدى به للتخلص من ابناء الاسرة الذين قد ينافسونه على العرش بعد ان اعتلى جثة عمه للوصول اليه ، وبدأ ذلك بعد انكشاف محاولة نائبه بوقا للغدر به فان ارغون لم يكتف بما ازهقه من ارواح زعماء المغول الذين حامت الشبهات حولهم بمؤازرة بوقا ، بل توجه بشكه نحو بني عمه من امراء الاسرة الذين سبق لهم ان وقفوا معه ضد عمه الايلخان السابق ، والذين كشفوا له هذه المحاولة ، فلم يترك احداً منهم قد يطمع بمنافسته على العرش مستقبلا حتى ان عدد الامراء الذين لقوا حتفهم نتيجة لهذا الشك بلغ ثلاثة عشر اميراً كان على رأسهم عمه هولاجو وابن عمه جوشكاب الذين كانوا قد نافسوه على العرش فيما مضى (٢) .

وتقطعت اواصر الرحمة والقرابة بهذه المجزرة التي ارتكبها ارغون في بني عمه حفاظاً على عرشه ، واصبح ابناء الاسرة بعدها يحذرون على انفسهم من الوقوع في

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٩٣ .

Howorth . 3 . p . 298 . *Malcolm . 1 . P . 267 .*

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٤٨ – ١٤٩ .

Browne . Lit . Hist . of . Pers . 3 . P . 34 .

طائلة الشك ويتربصون ببني عمهم الدوائر ، فلم يتردد بايدو وقد نجا من قبضة ابن عمه كيخاتو أن يتربص به ويتحالف عليه ثم يرتقي العرش على جثته ، ولكنه لم يلبث إلا قليلا حتى هوى من فوقه قتيلا بيد غازان .

وبرهن غازان بعد اعتلائه العرش على انه ليس اقل جرأة من ابيه على سفك دم بني عمه الذين تجاوزوا سن الطفولة خلال المرحلة التي مضت منذ مجزرة ابيه فيهم وأصبحوا الآن خطراً على عرشه .

ومما يلاحظ على امراء الاسرة في عهده انهم لم يكونوا مؤتفلين عليه ، وانما كانوا مفرقي الكلمة لا يتردد احـــدهم بالوشاية على اخيه لديه لكي يتقربوا منه ، ويضمنوا بذلك أمنهم وسلامتهم ، وان كان الخوف يجمعهم جميعاً منه ، فعندما تحالف كل من سوكاي بن يشموت وايسنتمور بن كنغرتاي للاطاحة بغازان واعوانه ووضعوا الخطة لذلك ، قرروا مفاتحة ابن عمهم الثالث تايجو بن منكوتيمور ايشاركهم في الانتقام من الايلخان ، ولكن تايجو تظاهر بتأييدهم ثم وشى بهم لدى نوروز ناسياً أن عمه جوشكاب كان قد كشف مؤامرة بوقا فيما مضى لكنه لم يخلص من تهمة المشاركة ، وكان من نتيجة وشايته هذه حصاد خمسة من الامراء (١) سقطوا صرعى تحت عرش غازان الذي لم تروه دماؤهم بل دفعه الشك الى مراقبة الباقين من بني عمه الذين أحسوا بالريبة تحوم من حولهم ففضلوا الابتعاد عن بلاطه والامتناع عن حضور دعوانه وانتهاز الفرصة للقيام عليه قبل أن يسقطوا بين يديه ، فعل ذلك الامير بالتو ابن تيمين الذي احتمى بمعسكره البعيد ببلاد الروم عن بلاط الايلخان والاعتذار

(١) خواندمير م ٣ ج ١ ص ٨٥ - ٨٧ ، ميرخوند ج ٥ ص ١٣١ - ١٣٤ .

مرات ومرات عن إجابة دعواته ، ثم استغل غدر الايلخان بأعوانه من زعماء المغول وخاصة نوروز ، وخلو بلاد الروم منهم بعد مقتل طغاجار ثويان ، فأعلن ثورته وانفصاله عن طاعة الايلخان الذي وجه اليه ابن عمه الآخر سلامش ليضرب به وهو يرمي الى التخلص من أحدهما ، فسقط بالتو أولا ، ثم اعقبه سلامش نفسه الذي لم تحمه بعد ثورته وانفصاله جيوش السلطان المملوكي التي قدمت لنجدته (١) .

ويبدو أن غازان عند وفاته لم يكن قدترك احداً من ابناء الاسرة يزاحم اخاه اولجايتو على العرش سوى الصبي الفرتك بن عمه كيخاتو الذي عفا عنه بالرغم من احتماء بعض المتآمرين من اعوان الخاقان المغولي وراء اسمه ، وقد تركه تحت رقابة اخيه في خراسان .

وثقل بقاء هذا الصبي حياً على اولجايتو الذي أجهز عليه عندما وصله نعي اخيه قبل ان يطول به العمر فينافسه على ملكه ثم غادر خراسان مطمئناً (٢) .

ويحدثنا رشيدالدين في تمهيده لجلوس اولجايتو ومقارنة ذلك بجلوس الايلخانات الذين سبقوه ، عن الصراع الذي دار حول العرش والدماء التي اريقت في سبيله بقوله (٣) : ـ « وإذا كان بعض هذه الاقاليم قد آل الى اصحابه عن طريق الارث ،

(١) وصاف م ٣ ص ٣٤٥ ، ابو الفداء ج ٤ ص ٣٩ ، المقريزي ج ١ ق ٣ ص ٨٧٤ – ٨٧٨ .

Howorth . *3 . p . 404 - 405 ' 427 - 428* .
L'*ohsson . 4 . I55 - 156* .

(٢) وصاف م ٤ ص ٤٦١ ، ابرو ـ ذيل جامع التواريخ ص ٣ – ٦ .

(٣) مقدمة رشيد الدين لجامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ١٩٠ .

فانه لا يستقر في أيديهم دون منازع او مخاصم ، هذا ما لوحظ بوجه خاص في العصر المغولي ، فقد ثبت بالتجربة والمشاهدة للجميع مدى ما كان يحدث في كل انقلاب من اضطرابات وثورات ومبلغ ما اطاح به من الرؤوس التي كانت تطير في الهواء . . وقد استمرت الحال على هذا المنوال الى ان جلس السلطان « اولجايتو » على العرش، فقد ظلت قواعد ذلك الامر متزلزلة لمدة طويلة ، وفي كل يوم كانت تحدث حادثة موجبة للتشويش والتفرقة ، ولم تكن توجد حالة استقرار وهدوء ، فلما وصل دور السلطنة الى عهده المبارك وأيام دولته المديدة ' وجدت رقعة الممالك العريضة الواسعة إلا من جميع المخاوف والمهالك » على ان رشيد الدين لم يذكر أن خلو عهد اولجايتو من هذه المنافسات كان بسبب خلو البلاد من امراء الاسرة الذين عُدموا قبل توليه ، لذلك فقد وقعت الايلخانية عند وفاته في ازمة لعدم وجود المرشحين لها البالغين سن الرجولة ، إذ أن ولديه الكبيرين بسطام ويزيد كانا قد توفيا خلال حياته ، وكذلك ثالثهما طيفور ، فلم يترك اولجايتو خلفاً له سوى طفله القاصر ابا سعيد الذي اصبح المرشح الوحيد للايلخانية والذي تم تتويجه من قبل خواتين الاسرة وبناتها .

٣ ـ تدخل زعماء المغول في شؤون الايلخانية وأثره في إضعافها : —

لعب أمراء المغول دوراً كبيراً في احداث الفوضى التي رافقت تطور الايلخانية وكانت اطماعهم الشخصية سبباً مباشراً لقيام الفتنة في اواخر ايامها ومن ثم انهيارها .

وقد أشرت في حديثي عن منصب نائب الايلخانية الى بداية وتطور مكانة هؤلاء الامراء في كيان الايلخانية بحكم توليهم قيادة الجيش ثم النيابة عن الايلخان بعد ذلك .

وشجعهم انقسام امراء الاسرة وتنافسهم على العرش ، على التحزب لبعض الامراء على البعض الآخر ، وعلى التدخل في تقرير شؤون الايلخانية ، وكان اول مظهر لفعاليتهم هذه بعد وفاة اباقا واختلاف امراء الاسرة على اختيار خلف له من بينهم ، فقد تحزب بعض الامراء الذين كانوا من المقربين لأباقا ، تحزبوا لابنه ارغون وأعلنوا أفضليته للعرش على غيره (١) .

وبالرغم من عـدم نجاحهم للوهلة الاولى ، إلا أن دور بوقا « أبرز هؤلاء الزعماء » كان حاسماً في اسقاط تكودار بما أشاعه في صفوف امراء الاسرة وزعماء المغول عن عزم الايلخان للقضاء عليهم جميعاً ووضع نهاية لأسرة جنكيز خان بتأثير محبته للاسلام والمسلمين ، الأمر الذي جعل اخوه الايلخان ينفضون من حوله ويتحالفون عليه (٢) .

ورسخت مكانة هؤلاء الزعماء بين امراء الاسرة بعد هذا الانتصار ، وأصبحوا ملجأ يستعين بهم الامراء لتحقيق رغباتهم وأطماعهم في العرش ، فقد توزع امراء الاسرة هؤلاء الزعماء واتخذوا منهم دعاة لأنفسهم وقوة لارهاب منافسيهم ، واستطاع اعوان ارغون منهم فرضه على العرش بقوة السلاح الذي هـدد به بوقا وتحدى الآخرين .

وقدّر ارغون لهؤلاء الزعماء فضلهم في ايصاله الى العرش فمكنهم من الحكم ووزعهم على البلاد وسلمهم مقاليد الامور ، وجعم بوقا بفضل هذا التكريم من

(١) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٩١ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٣ - ١١٥ .

Howorth . 3 . P . 304 - 305 .

الايلخان ، جمع بين منصبي النيابة والوزارة لأول مرة ، وأصبح الحاكم الحقيقي للبلاد ، وكانت الامتيازات التي منحها الايلخان له ، والتي أكدها الخاقان قبلاي عندما منحه لقب امير الامراء ، قد جعلته بمنجاة من العقاب ، وجعلت يده فوق كل يد حتى أصبحت أوامر الايلخان لا تنفذ إلا بعد مرورها تحت ختمه الاحمر ، الأمر الذي بعث الغرور في نفسه والحقد في نفوس حاسديه من الزعماء الآخرين وامراء الاسرة ، وكان ذلك إيذاناً بسقوطه (١) . إذ صحا ارغون على نفسه وعزم على استعادة السلطة وممارستها بنفسه فتخلص من بوقا الذي كان يدبر عليه آنئذ وساق أبناءه واخوته واعوانه الى المقصلة ، حتى لم ينج من بطشه الصغار منهم ، إلا انه لم يأخذ العبرة من ذلك عندما اعاد تسليم السلطة ثانية الى الوزير اليهودي ، بينما أبعد الامراء الذين نجوا من شكه وريبته ، أبعدهم عن التدخل في شؤون الحكم .

وأحس هؤلاء الامراء بالعزلة وفقدان كثير من الامتيازات والنعم التي كانوا يحصلون عليها قبل ذلك ، أمام الاحتياطات التي اتخذها الوزير اليهودي لتجريدهم من السلطان ، فتحالفوا عليه وتربصوا به واستغلوا حالة الغيبوبة التي سقط فيها الايلخان قبيل وفاته فتخلصوا منه ومن اعوانه وجعلوا من انفسهم أشبه ما نسميه بمجلس الوصاية لمباشرة شؤون الحكم حتى توفي الايلخان او كما اشيع انهم عجلوا به(٢).

(١) المرجع السابق ص ١٤٠ - ١٤٢ .

Howorth . 3 . P . 322 - 323 .

(٢) كان من المسائل التي حاسب كيخاتو عليها الامراء بعد توليه ، هي رغبته في معرفة كيفية وفاة اخيه مما يدل على وجود شك في طبيعة وفاته . انظر رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ١٧٣ .

وأصبح هؤلاء الامراء هم الحكام الحقيقيون للبلاد طيلة الفترة التي اعقبت ذلك وحتى تسنم غازان العرش ، فهم الذين اختاروا كيخاتو بعد اخيه ، وهم الذين سلموه لابن عمه بايدو ، ثم لم يلبثوا أن مالوا عن بايدو وسلموه لغازان عندما أحسوا بقوة حزبه بينهم وخطر معارضته .

وحتى غازان ، فقد قضى السنتين الاوليتين من حكمه تحت وصاية هؤلاء الامراء الذين اصبح يتزعمهم نوروز ، ولكن غازان كان قوي الهمة بعيد النظر ، فانه ما ان تخلص بهم من الأخطار التي هددت عرشه بسبب منافسة بني عمه له ومن شايعهم من امراء المغول الآخرين الذين قتل منهم قرابة اربعين اميراً (١) ، حتى انقلب على امرائه فتحجج عليهم وقبل فيهم الوشاية ثم قضى عليهم جميعاً متعظاً بذلك ببعض عبر الحياة (٢).

وصفا الحكم لغازان بعد ذلك من مضايقة او معارضة زعماء المغول الذين بلغ من سطوته عليهم انه امر بجلدهم وإلباسهم ثياب النساء بسبب هزيمتهم أمام المماليك عام ٧٠٢ هـ دون أن ينبسوا ببنت شفه سوى الاعتذار والتماس عفوه (٣) .

---

(١) خواندمير م ٣ ج ١ ص ٨٥ – ٨٧ .

Howorth . 3 . p . 41 .

(٢) فقد حكى بعضهم عن نزاع قام بين اثنين من المتنافسين على العرش فلما انتصر احدهم واستقر في العرش امر بقتل الامير الذي آواه عند هروبه معللًا ذلك بأنه لم يكن مخلصاً لسيده ، فهو لن يخلص ايضاً .

Howorth . 3 . P . 404 – 405 .

(٣) وصاف م ٤ ص ٤١٢ – ٤١٤ .

Howorth . 3 . P . 475 .

وبالرغم من التفاوت الكبير بين سطوة غازان وسماحة اخيه اولجايتو، فان هؤلاء الامراء لم يستعيدوا مكانتهم السابقة في توجيه شؤون الحكم إلا في عهد طفله ابي سعيد الذي تأخر توليه العرش عدة اشهر بسبب تنافسهم على اقتسام مراكز السلطة في الوضع الجديد .

وتولى جوبان مقاليد الحكم نيابة عن الايلخان الصغير اكثر من عشر سنوات، انفرد خلالها بتصريف شؤونه حتى أنه حجز على الايلخان عندما شب عن الطوق وأشغله برحلات الصيد في المواسم ومجالس الطرب والنساء في اوقات اخرى . ولكنه لم يسلم ايضاً من حسد ونقمة زملائه الامراء الآخرين الذين ساءهم أن يتنعم بالسلطان والجاه وحده ويحرمون ، فتحالفوا عليه وأوشكوا أن يحققوا بغيتهم فيه لولا أن وقف الايلخان مضطراً (١) بتأثير وزيره عليشاه الى جانبه ، فكانت حصيلة ذلك مقتل اكثر من ثلاثين اميراً منهم .

وبالرغم من تخلص ابي سعيد بعد ذلك من جوبان ، إلا انه لم يخلص من استصغار الامراء له واستهانتهم به ، فقد سلم مقاليد الامور بيد وزيره غياث الدين محمد بن الرشيد الذي أدار دفة الحكم بكفاءة ابيه الأمر الذي أدى الى حرمان بقية الامراء الذين ساهموا في القضاء على جوبان من احتلال منزلته ، فنقموا على الوزير وسعوا للخلاص من سيطرته ، وبلغ من جرأتهم مرة على الايلخان انهم حاصروا قصره للقبض على احد اعوانه المحتمين به فأوشك الايلخان الاستسلام لمطاليبهم خوفاً على

---

(١) تاريخ كزيدة ص ٦٠٤ - ٦٠٥ ، ابرو ص ٩٦ - ١٠٤ ، النويري - نهاية الارب جـ ٣٠ ق ٣ الورقة ٤٢٤ - ٤٢٩ .

حياته لولا أن وصلته نجدة في الوقت المناسب (١) .

ولعب هؤلاء الامراء دوراً فى تمزيق الايلخانية بعد وفاة ابي سعيد واستئثارهم ببعض اجزائها مما سوف نتحدث عنه فى فصل قادم ان شاء الله .

٤ ـ التأثير الحضاري على المغول وأثر ذلك في تحلل الايلخانات وانصرافهم الى اللهو وتركهم شؤون الحكم بيد المتنفذين .

ورث الايلخانات بعد استقرار أمرهم ، الكثير من العادات والتقاليد التي اقتبسها المغول عند احتكاكهم بالحضارات التي خضعت شعوبها لهم .

فقد أشرت الى أن المغول كانوا شعباً بدائياً فقيراً في ارزاقه ضعيفاً فى تكوينه الحضاري ، فلما رفعته القوة التي تكونت لديه فجأة ، الى مكان السيطرة على شعوب هذه الحضارات المتقدمة كثيراً بالنسبة لتصوره ، لم يتمالكوا انفسهم في تسخير طاقاتها واستغلالها لرفع مستواهم الحضاري ، وانما اندفعوا بعواطفهم المحرومة نحو استنزاف ما فيها من خيرات مادية ، بينما تركوا أهم ما فيها من تراث علمي وقيم روحية ، بأيدي ابنائها معتمدين على امكانية استغلالهم لهم .

ونشأ من جراء ذلك ان ارتفع المستوى المادي للمغول عامة ، بينما بقي تكوينهم الحضاري على ضعفه لم يرتفع إلا قليلا ، وبقيت شريعة الصحراء التي لا تعرف غير النهب والتخريب وسفك الدماء تتحكم في علاقاتهم مع بعضهم بالرغم من مضي الزمن ، كما تتحكم فى علاقاتهم مع الآخرين .

---

(١) مقدمة جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٦١ ـ ٦٤ ، الشواربي ـ حافظ الشيرازي ص ٦١ ـ ٦٣ ، ٦٤ .

ونشأ من جراء ذلك ايضاً انه لم ينبغ من بين المغول طيلة فترة تسلطهم على هذه البلاد عالم واحد في اي علم من العلوم سوى الحرب ، إذ أنهم بقوا عالة على ابناء البلاد في كل ما يمتع اسماعهم ويرضي غرورهم .

واقتصر اقتباسهم من هذه الحضارات على اسباب المتعة فقط بحكم تيسرها لهم وقربها من نفوسهم ، فانصرفوا اليها وانغمسوا في تذوق افانينها ومغرياتها ، ساعدهم على ذلك تحول بيأتهم من حياة الشظف والحرمان الى حالة الافراط في الرخاء ، وانتقالهم من حياة الجد والنشاط الى حياة الكسل والفراغ حتى اصبح الكأس والجنس رفيقاً لهم في حلهم وترحالهم ، تمثل ذلك في ابناء جنكيز أولا ، حتى اصبح احدهم لا يكاد يصحو على نفسه إلا ليعاود الشراب ثانية ، وحتى اضطر جغتاي « الابن الثاني لجنكيز » مثلا الى تعيين شحنة على اخيه الخاقان اوكتاي ليقلل من شربه الخمر فلم يقدر حتى توفي من كثرته (١) .

اما الايلخانات فلم يكونوا بأحسن حال من سابقيهم ، فقد توفي اباقا بمرض هذيان السكارى ، وكان من الأسباب الرئيسية لمقتل كيخاتو أنه كان اباحياً لايتورع عن الاعتداء على نساء وبنات وابناء اقرب الناس اليه ، حتى اضطر زعماء المغول الى ابعاد هؤلاء عن البلاط خوفاً من رؤية الايلخان لهم .

اما اولجايتو فقـد بنى داراً في عاصمته الجديدة سماها الفردوس ووضع فيها اربعين بنتاً من البنات الحسناوات ومثلهن من الغلمان لكي يقضي بينهم وطره .

(١) التاريـخ الغازاني ق ٣ ـ الورقة ٥٩٥ ـ ٥٩٨ ، تاريـخ كزيدة ص ٥٧٥ ، فاميري ـ تاريـخ بخارى ص ١٨٤ ، ١٨٩ .

Sykes . 2 . P . 98 .

اما ابو سعيد ، فلم يكفه العشرات من النساء اللواتي كان يتمتع بهن حتى زاحم احد اقربائه من امرائه على زوجته بغداد خاتون واكرهه على طلاقها بحكم تعاليم الياسا التي تبيح للايلخان انتهاك أعراض رعيته (١) .

ونشأ من جراء اسراف الا يلخانات في هذه المباذل وإفراطهم فيها (٢) ان تأثرت صحتهم نتيجة لذلك ، فلم يكن أحدهم يشفى من المرض إلا ليعاود التمهيد له بافراطه في مباشرة النساء .

وبان هذا التأثير في قصر أعمار الايلخانات عامة ، فقد توفي جدهم جنكيز مثلا وقد جاوز السبعين من العمر ، لكن أحداً من ابنائه لم يبلغ هذا السن ابداً ، اما أحفاده الايلخانات فكانوا دون ذلك بكثير .

ويبدو كأن نسبة الانخفاض في أعمارهم تنازلية كلما توغلوا بعداً عن تأثير الحياة في الصحراء ، وانغماراً في هذا النمط من الحياة الجديدة التي اختاروها لأنفسهم، فقد بلغ اولهم هولاكو الثامنة والأربعين من العمر ، وكذلك كان شأن ابنه اباقا ، اما آخرهم ابو سعيد فقد توفي ولم يكن قد جاوز الثانية والثلاثين من العمر ،

---

(١) وصاف م ٣ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ، م ٤ ص ٥٤١ - ٥٤٢ ، ميرخوند ج ٥ ص ١٢٥ - ١٢٦ ، العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٣٠٠ ، ٣٦٣ ، ٤٤٥ - ٤٤٦ .

(٢) يصف ابن العبري في تاريخ مختصر الدول ص ٢٨١ ، قبلاي خان بالاعتدال في هذه الناحية حيث يقول فيه : « وقيل عنه انه كان قليل المباشرة للنساء بل باعتدال ومتوسط التدبير بالشهوات والشراب واللذات واللهو خلاف باقي طوائف المغول » .

واختار بقية الايلخانات أعمارهم وسطاً بين هذين وان كان أغلبهم لم يجاوز الأربعين ، فأولجايتو بلغ السادسة والثلاثين ، وغازان الثالثة والثلاثين ' وبايدو الأربعين وكيخاتو الثلاثين .

على اني أرى ان حياة الميوعة والتحلل هذه ليست هي السبب الوحيد فقط لقصر أعمارهم ' وانما يضاف الى ذلك عجزهم عن تحمل مسؤوليات الحكم ومشاكله الكثيرة التي أرهقتهم ، فان حياة الترف التي نشأوا في احضانها منذ صغرهم لم تدع لهم فرصة الشعور بمشاق الحياة ومعاناة التفكير الطويل في حل مشاكلها ' وبالرغم من ان اغلبهم تولى كثيراً من مسؤوليات السلطة في صغره وقبل توليه العرش ' إلا أن ذلك في الحقيقة لم يكن ليعطيهم التدريب والاختيار اللازمين مع وجود الأتابك او الامراء الآخرين الذين يباشرون الحكم نيابة عنهم ، لذلك فوجئوا عند توليهم الحكم بحقيقة مشاكله وأحسوا بحياة الخوف والقلق التي تنتابهم عند تمرد احد الامراء او مهاجمة الآخرين ، وتعودوا على رؤية الدماء التي يجب أن يسفكوها ليحتفظوا بالعرش لأنفسهم ، كل هذه الأحداث كانت تؤثر فيهم وتؤرق مضجعهم وتمنع عنهم راحة الفكر ، حتى قيل ان من الاسباب المباشرة لوفاة هولاكو هو تأثير هزيمة جيوشه الساحقة عليه أمام ابن عمه بركة خان ، ثم غدر ربيبه جلال الدين بن الدويدار الصغير والتحاقه بالشام .

وكذلك القول في هزيمة جيوش اباقا التي قادها اخوه منكو تيمور ' وهزيمة جيوش غازان وتأثيرها المباشر على صحة الايلخانين المذكورين .

وكان من الطبيعي أن يعجز الايلخانات وهم بهذا المستوى من الادراك لمسؤولية الحكم ، على تفاوت ادراكهم وقدراتهم ، أن يعجزو عن التوفيق بين حياة اللهو

التي غلبت على تفكيرهم وبين تصريف شؤون الدولة ، لذلك لا غرابة إذا رأينا اغلبهم ممن سنحت لهم الفرصة ، مالوا الى امتاع انفسهم تاركين مقاليد الامور بأيدي اعوانهم يصرفونها بوحي من انفسهم وبوحي من التأثيرات الاخرى التي قد يكون لها شأن فى توجيه دفة الحكم .

على اننا نلاحظ نوعين من القوى او الاشخاص الذين أشرفوا على تصريف امور الايلخانية ، مر ذكر اولهما المتمثل في نواب الايلخانات الذين فرضوا انفسهم على الحكم بقوة نفوذهم وتطور الأحداث لصالحهم واستسلام او استعانة الايلخانات بهم قبل ذلك ، فجاوزوا الحد في استغلال السلطة وتسخير موارد البلاد لأنفسهم وذويهم ، ثم كانت نهايتهم على أسنة الرماح كما هو الحال بالنسبة لبوقا مع ارغون ، ونوروز مع غازان ، وجوبان مع ابي سعيد .

اما النوع الثاني منهم الوزراء ، وكانوا من أبناء الشعوب الخاضعة وخاصة الفرس ، الذين فرضتهم على الحكم كفاءتهم وخبرتهم في شؤون الادارة من ناحية ، وجهل الايلخانات وحاجتهم من ناحية اخرى .

واختلفت تأثيرات هؤلاء الوزراء على سياسة الايلخانية وخاصة في مجالها الداخلي وذلك بالنسبة لشخصية الوزراء والايلخانات فى وقت واحد .

فبالرغم مما عرف عن اباقا من حزم وقوة ، فان الوزير الجويني شمس الدين محمد استطاع التأثير على السياسة العامة للايلخانية فى عهده وخاصة من ناحية موقف المغول من المسلمين والاهتمام باعمار العراق .

وفى عهد ارغون ، تحكم الوزير اليهودي سعد الدولة في السياسة الداخلية للايلخانية حتى غلب في ذلك على الايلخان الذي استسلم له ومكنه من الحكم .

وحالت المشاركة في الوزارة بين رشيد الدين وسعد الدين الساوجي في عهد اولجايتو حالت دون طغيان الوزيرين على الايلخان الذي كان مستسلماً لهما بسبب تنافس الوزيرين مع بعضهما ومحاولة كل منهما الايقاع بالثاني .

وإذا كان الوزير عليشاه قد وجد مصلحته في التعاون مع چوبان الوصي على ابي سعيد فضمن بذلك شيئاً من السلطان لنفسه ، فان خلفه غياث الدين محمد بن الرشيد انفرد بالسلطان كله مستفيداً من تعاونه مع بغداد خاتون التي كانت مسيطرة على زوجها ابي سعيد ، حتى أصبح الموجه الحقيقي لشؤون الايلخانية طيلة عهد ابي سعيد ، ثم لعب بعد ذلك دوراً كبيراً في تقرير السياسة الايلخانية بعد وفاته .

وبالرغم من الفارق الكبير بين موقف هاتين المجموعتين ونظرتهم نحو الايلخان ، إلا أن نهايتهم كانت واحدة ايضاً ، فقد راح الوزراء ايضاً ضحية الحسد والوشاية والغدر فلم ينج من بين جميع الذين تولوا مسؤولية الوزارة الايلخانية سوى وزير واحد توفي حتف انفه هو عليشاه .

٥ ـ انعزال المغول عن الشعوب الخاضعة لهم وتكوينهم طبقة عسكرية حاكمة :

سيطر المغول على البلاد الاسلامية وأخضعوا شعوبها لسلطانهم ولكنهم طيلة فترة حكمهم لم يستطيعوا كسب ثقة المحكومين ليرضوا بهم ، بالرغم من استكانتهم لطاعتهم واستسلامهم لأوامرهم ، إذ بقيت الكراهة وروح العداء حاجزة بينهما .

وليست أسباب العجز هذه ناشئة عن رفض المسلمين فحسب ، وانما يعود بعضها الى المغول انفسهم ايضاً ، فالمسلمون لا شك رفضوا الخضوع والرضا بالحكم المغولي لسبب أساسي وهو وثنية الحاكمين التي لا تبيح للمسلمين موالاتهم فضلاً عن التفاوت الحضاري بين الطرفين .

اما المغول فقد منعهم من السعي لتحقيق ذلك سببان ، اولهما : العنجهية وعقدة الغرور التي سيطرت على تفكيرهم بعد انتصارهم الساحق على جميع الشعوب التي زحفوا نحوها ، والتي جعلتهم يعتقدون بأنهم يملكون من الطاقات والمزايا التي رفعتهم فوق مستوى الآخرين من البشر ، وقد عبروا عن ذلك في رسائلهم الى حكام البلاد التي يطالبونها بالخضوع لهم ، فوصفوا انفسهم بأنهم غضب الله ، وسوطه ، وعنايته وإرادته ...

وعزز من هذه العقدة في نفوسهم ما رأوه من تهالك بعض المتزعمين من ابناء البلاد الخاضعة لهم الذين صدقوا او تظاهروا بتصديق هذه الصفات فيهم ، وعملوا على نشرها وتأكيدها بين الناس مستغلين مكانتهم الاجتماعية او العلمية في ذلك ، وقد مر علينا ما فعله النصير الطوسي وأعوانه من تبرير لأعمال المغول وإيجاد مكان لها في تفسيرات خاصة لبعض ما ورد في الكتاب العزيز (١) .

وماحاوله الوزير اليهودي سعدالدولة في عهد ارغون من إغراء الايلخان باعلان نبوة جنكيز خان ودعوة الناس الى عبادته باعتباره من أبنائه (٢) .

وثانيهما التفاوت الحضاري الكبير بين بداوة الحاكمين ومدنية المحكومين وانعكاس ذلك على سلوك كل منهما في حياته وعلاقاته الأمر الذي كان يُشعر المغول

(١) انظر في ذلك مثلاً رسالته لأهل بغداد سنة ٦٦١ ﻫ التي أوردها ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ﺟ ٤ ق ٣ ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧ . انظر ايضاً ملحق الباب الثالث رسالة الطوسي الى اهل بغداد .

(٢) وصاف م ٢ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ٧٦ ـ ٧٧ .

Howorth, *3*. P. *340* - *341* .

بعجزهم عن مجاراة المحكومين فيما اذا اختلطوا بهم وتبادلوا معهم التعاون في الحياة ، فكانوا يحتمون وراء سيطرتهم وتعاليهم على الشعوب لمداراة هذا العجز وإبقاء عقدة التسلط حاجزة بينهم مرهبة لأتباعهم .

ونشأ نتيجة لذلك أن بقي المغول يمثلون طبقة عسكرية حاكمة منعزلة في كل بيئة تعيش فيها عن المحكومين الذين لا يهمها منهم سوى الطاعة ودفع الضريبة .

ولم يكن هذا التمايز الطبقي الذي ظهر به المغول طارئاً عليهم ، قُصد به ارهاب المحكومين وإخافتهم ليسهل إخضاعهم ، وانما كان سائداً بينهم قبل خروجهم من الصحراء ، إذ أن جنكيز عندما أقام كيانه السياسي ، أقامه على أساس طبقي ايضاً ، فقد جعل لأفراد اسرته في مجتمعه المغولي ليس حق السيادة عليهم فقط ، بل حق الاستعباد لهم بحكم الوسيلة التي أخضعهم فيها لطاعته ، على أن علاقة العبودية هذه أخذت في الضعف بعد قيام الايلخانية وازدياد احتكاك المغول بالشعوب الاخرى وخاصة بعد انقسام امراء الاسرة على انفسهم وحاجة كل منهم الى تأييد ومؤازرة زعماء المغول الآخرين .

ونلمس بقية علاقات العبودية كنموذج على ذلك في المحاورة التي دارت بين اعوان الأمير الجغتاي براق خلال صراعه مع اباقا ، وسأكتفي بنقل وجهة نظر امراء الاسرة نحو بقية المغول كما جاءت على لسان أحدهم المدعو قبجاق الذي كان يرد على أحد كبار قواد المغول المدعو جلايرتاي :

قال قبجاق : من أنت حتى تتدخل بيننا نحن افراد الاسرة الواحدة .

وقال ايضاً : متى كان لأقاق أن يناقش أسرة جنكيز حتى يكون لك ايها الكلب

أن تخاطبني بغير أدب (١) .

ومع ذلك فان المغول كانوا يظهرون أمام الشعوب الخاضعة لهم كأنهم طبقة واحدة ليفرضوا سطوتهم عليهم ، وبقيت معاملتهم لهذة الشعوب قائمة على هـذا الأساس بالرغم من ارتباط عدد من أبناء هذه الشعوب بهم في مجالات الخدمة ، وحتى اولئك الذين قدموا خدمات شخصية للايلخانات ، بقوا في نظرهم مجرد ايرانيين غرباء عن المغول ، يدل على ذلك المركز الكبير الذي حصل عليه مجد الملك اليزدي عندما أصدر اباقا فرماناً بتعيينه مشرفاً على جميع البلاد ورقيباً على الوزير شمس الدين الجويني ، فقد كان تعليق الخواتين وأمراء الاسرة وزعماء المغول على هذا الفرمان عند قراءته أمامهم « بأنه لم يسبق مطلقاً لملوك المغول أن أعطوا ايرانياً مثل هذا الفرمان » (٢) .

ولم يؤد إسلام المغول ايضاً الى إزالة هذه النظرة وإذابة الفوارق بين الحاكين والمحكومين وان كان قد أضعف منها كثيراً وخاصة في عهد اولجايتو الذي كان بلاطه اوسع باباً من بلاط اخيه غازان بفضل حالة الاستقرار النسبي التى سادت البلاد في عهده من ناحية ، وتقلبه المذهبى وحاجته الى الاستئناس بشروح علماء المذهب الجديد من ناحية اخرى .

---

(١) انظر تفصيل المحاورة في رشيدالدين م ٢ ج ٢ ص ٢٧ ، انظر ايضاً ص ٣١ في التعبير عن وجهة نظر احد القواد نحو أفراد الأسرة كما وردت على لسان القائد تازيك قوله : « إن جبات أمير وأنا من الرعية فكيف يكون لي أن أحاربه » .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ٢ ص ٨٠ .

على أن زعماء المغول لم يهن عليهم هذا الاختلاط مع المحكومين بالرغم من اعتناقهم الاسلام لأن ذلك قد يؤدي بهم الى فقدان كثير من الامتيازات التي يحصلون عليها باعتبارهم حاكمين، يدل على ذلك الحديث الذي دار بين الأمير جوبان وايرنجين حول تمكن الوزير عليشاه من اولجايتو وسهولة وصوله اليه ، قال ايرنجين : كان اذا اراد احد الفرس أن يتقدم برجاء الى السلطان في عهد هولاكو واباقا لم يجرأ على تقديمه إلا إذا كان قد كلم فيه عدداً من الامراء اما اليوم فقد انقلب الامر رأساً على عقب حتى أصبح في وسع احد الفرس أن يذهب الى السلطان في منتصف الليل ويطلب منه مقابلة سرية ليهدم في لحظة واحدة كل ما فعلناه او قلناه (١) .

ونشأ من جراء هذه العزلة بين المغول والشعوب الخاضعة لهم ، ان بقيت نظرة المحكومين نحوهم نظرة عدم رضى او ارتياح ، فلم يشاركوهم في نشاطاتهم وخططهم المختلفة السياسية منها خاصة ، بل وقفوا من ذلك موقف اللا مبـالاة إن لم يكن موقف الشامت .

وانعكس تأثير ذلك على المغول فكان سبباً لفشلهم في تحقيق كثير من اهدافهم السياسية من ذلك في المجال الخارجي مثلا وقفت هذه الشعوب وخاصة في العراق من نزاعهم مع المماليك موقف المعادي لسياستهم المؤازرة لأعدائهم ، فلم يكفهم انهم لم يساهموا بشرياً في حملاتهم على الشام ، بل جعلوا من انفسهم رقباء على تحركات الجيوش المغولية ينقلون أخبارها الى المماليك ، فضلا عن حمايتهم لاعوانهم ورسلهم .

وأدى هذا الانعزال بالمغول ايضاً الى اعتمادهم على انفسهم في تجييش الجيوش

(١) مقدمة رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٤٤ .

للقيام بالمهام العسكرية الخارجية منها والداخلية التي كانت تستهلك عدداً منهم في كل مهمة مما أدى الى تناقص اعدادهم يوماً بعد يوم ، ولولا ان الامارات المسيحية التابعة لهم كانت تمدهم بجيوشها في حملاتهم على الشام ، لعجزوا عن القيام بكثير من هذه الحملات او لضعفت قدراتهم فيها .

وجاء انقسامهم على انفسهم وما نشأ عنهم من نزاع دموي بينهم ليزيد من تناقص أعدادهم يوماً بعد يوم ، ويكفي أن نأخذ دليلا على ذلك اسرة الايلخانات انفسهم التي لم يبق من رجالها احد يتولى العرش الشاغر بعد وفاة ابي سعيد فاضطروا الى الاستعانة بالنساء للقيام بذلك ، وقد ينطبق هذا القول على كثير من الاسر المغولية التي كانت تباد عن بكرة ابيها خلال هذه الانقسامات .

كل هذه العوامل ساعدت على إضعاف وجودهم في البلاد ، وسهلت على الطامعين من زعمائهم للقيام بعمليات الانفصال بعد ذلك .

ثانيا : العوامل المباشرة لزوال الايلخانية :

ونشأ من جراء الاحداث السالفة الذكر التي أكل الايلخانيون خلالها بعضهم بعضاً حتى تناقصت اعدادهم فلم يبق ظاهراً من ابناء الاسرة غير ابو سعيد الذي كان دون البلوغ عندتوليه العرش والذي أصيب بالعقم بعد رجولته (١) ، فلم يخلف وراءه

(١) اشار البعض الى ان زوجته دلشاد خاتون بنت دمشق خواجا بن چوبان كانت حاملاً منه عند هروبها الى علي بادشاه ثم لم يظهر لحملها أثر ، وقيل ايضاً انها ولدت بنتاً . وقد سبق ان اشرت الى احتمال تدخل الدوافع السياسية لعلي بادشاه وراء افتعال هذا الحمل الذي ليس له نصيب من الصحة خاصة اذا علمنا ان ابا سعيد عاشر عدداً من النساء غير من تزوجهن فلم يترك في إحداهن أثراً لحيويته مما يدل على عقمه .

من يحمل أسمه ، لذلك كانت وفاته نهاية حقيقية للحكم الايلخاني .

وظهرت ازمة السقوط بعد وفاته الفجائية وهو يستعد لحرب اوزبك خان القبجاق إذ لم يكن هناك من المرشحين رسمياً لولاية العهد احد من ابناء الاسرة ، فضلا عن أن وفاته لم تكن متوقعة وهو في مثل هذا السن ، الامر الذي ادى الى تسابق المتنفذين لاستغلال الفرصة في تثبيت سلطانهم وامتيازاتهم وذلك بالاختفاء وراء بعض المرشحين للعرش من بقايا ابناء الاسرة الايلخانية الذين كان آباؤهم قد اختفوا في اوساط الناس خوفاً من بطش الايلخانات بهم ، فنشأ ابناؤهم مغمورين بين العامة لا تُعرف انسابهم لئلا يُنم عليهم ، قد امتهنوا مهناً مختلفة يكسبون بها ارزاقهم بعد أن حرموا انفسهم من حق الانتساب للأسرة الحاكمة (١) .

ايلخانية اربا خان : وبدأ ذلك بقيام الوزير غياث الدين محمد باسناد العرش

(١) يشكك ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار جـ٢ ق٢ الورقة ٢٢٧-٢٢٨ في صحة انساب هؤلاء بقوله : وسألت ابن الحكيم والشريف محمد بن حيدرة الشيرازي عما يعلمانه ممن بقي من اولاد هولاكو ، فقال كل منهما ، لم يبق احد محقق النسب إلا ما قيل عن محمد المنسوب الى عنبرچي على كثرة اختلاف فيه .

وقال لي نظام الدين الحكيم : ان اهل هـذا البيت تفانوا بعضهم على يد بعض لخوف القايم منهم على ملكه حتى ان كثيراً من ابناء ملوكهم كانوا يتخوفون من الملك القايم ، حتى ان بعضهم كان يخلد الى الحرف والمهانات لتسقط همته فيترك ، ويجعل هذا سبيله للخلاص وطلباً للسلامة ، حتى ان بعضهم كان قد عمل نساجاً وبعضهم عمل في الادم وبعضهم باع الشعير علافاً ، ومن هذا قال ويقال في انساب كل منتسب منهم لكثرة التخليط من الامهات ومخالطة آبائهم للعوام حتى خفت انسابهم فجهلت احوالهم.

الى اربا خان(١) في اليوم التالي لوفاة ابي سعيد بحكم سيطرته على توجيه دولة ابي سعيد معللا ذلك بأن الايلخان كان قد زكاه للعرش قبيل وفاته باعتباره من احفاد اسرة جنكيز خان وانه يصلح للعرش (٢) .

وحاول الوزير ومن يحيط به من الامراء أن يعطوا لعملية تتويج المرشح الجديد نفس المظاهر والاهتمامات المتبعة سابقاً في مثل هذه المناسبة ليضمنوا بذلك صفة الشرعية لجلوسه وطاعة الامراء الآخرين المتنفذين له ، فدعوا الى اجتماع القوريلتاي لتقرير ذلك ، ولما لم يكن قد بقي احد من ابناء الاسرة على قيد الحياة فقد تولت الخواتين وبنات الاسرة والاصهار مهمة التمثيل في القوريلتاي بالاضافة الى الوزير وزعماء المغول المتعاونين معه ، « وقاموا باجلاس المرشح على سرير الملك في مواجهة الشمس ووضعوا على رأسه القلنسوة المرصعة » (٣) .

وأشار المؤرخون الى قيامه بحضور صلاة الجمعة وخطبته في الناس ودعوتهم الى تأييده ووعدهم بالخير ، ثم تلقب بلقب معز الدنيا والدين ، ولكن النقود التي وجدت له على قلتها تشير الى انه حمل لقب السلطان الاعظم (٤) .

وبالرغم من هذه المظاهر التي احاط بها الوزير عملية التتويج ، إلا أن سلطان

---

(١) اورد ابرو ص ١٤٥ نسبه بأنه من احفاد اريقبوقا بن تولي بن جنكيز وقد توج في اليوم التالي لوفاة ابي سعيد في ١٣ ربيع الثاني ٧٣٦ هـ .

(٢) ابرو ص ١٤٥ - ١٤٦ ، ميرخوند جـ ٥ ص ١٧٩ .

(٣) ابرو ص ١٤٥ - ١٤٦ ، خواندمير م ٣ جـ ١ ص ١٢٦ .

(٤) وجاء اللقب فيها السلطان الاعظم اربا خان انظر

Lane - Poole . 10 . P . 114 . N . 279 K .

الايلخان الجديد لم يعد جميع بلاد الايلخانية فضلا عن تلكؤ عدد من الامراء بتقديم الطاعة له ، على اننا نستطيع القول ايضاً ان هذا القوريلتاي كان آخر قوريلتاي عقد لاتمام عمليات التتويج .

ويبدو أن احساس الحكم الجديد بالعجز عن إجراء التنظيمات الادارية بين المسؤولين عن الحكم في اطراف البلاد ، جعل الايلخان يصرح باقتدائه بسياسة سلفه واحتفاظه بجميع موظفيه في مناطق عملهم ، إلا انه لم يستطع السيطرة على نساء سلفه اللواتي أعلن استخفافهن بايلخانيته فهربت الاولى دلشاد خاتون بينما سيقت عمتها بغداد خاتون الى الموت بتهم اختلف المؤرخون في نسيجها (١) .

وكان أول عمل ينتظره بعد انتهائه من مظاهر الاحتفالات ، هو الخروج الى العدو الذي كان يهدد البلاد من جهة الشمال ، وخدمت الظروف الايلخان الجديد فحصل على نصر عسكري سريع على العدو الذي تفرقت كلمته قبل لقائه فانسحب الى بلاده قبل وقوعه في الكمين الذي كان قد أعد له (٢) .

وعزز هذا النصر من مكانة الايلخان الذي تزوج بعد عودته من اخت سلفه المسماة ساتي بيك (٣) أرملة چوبان لكي يجمع بها بقية الامراء المتعلقين بأسرة

---

(١) هربت دلشاد خاتون الى دياربكر محتمية بخال زوجها علي بادشاه بينما اتهمت بغداد خاتون بأنها تسببت في قتل زوجها ، كما اتهمت بمراسلتها لازبك خان .

(٢) ابرو ص ١٤٦ - ١٤٧ ، مجمل فصيحي حوادث سنة ٧٣٦ هـ .

(٣) ساتي بيك بنت اولجايتو وكان قد تزوجها الامير چوبان في ايام سلطانه على اخيها ابي سعيد ولها منه ولد هو سيورغان .

هولاكو حوله (١) .

على أن الغرور والحرص ركبه بعد ذلك لحماية عرشه من منافسة المنافسين فسلك نفس سياسة الايلخانات فى التخلص ممن يشك فيهم بأنهم من ابناء الاسرة الايلخانية ، وملاحقة زعماء المغول الذين كانت لهم مكانة كبيرة في البلاد بالرغم من تقديمهم الطاعة له ، خوفاً من انقلابهم عليه بعد ذلك ' فأمر بقتل الامير توكال قنلغ من احفاد اوكتاي خان مع ولديه ، وكان قد لجأ يطلب الحماية خوفاً من بني عمه مغول ما وراء النهر ' وقتل ايضاً بعض المنتسبين الى اسرة هولاكو ومعهم الأمير محمود شاه اينجو أحد كبار الأغنياء بدعوى أنه يحميهم اينافسوه على العرش فيما بعد (٢) .

وقد أثار عمله الريبة في قلوب الامراء الذين أحسوا بما يبغيه من وراء ذلك فهرب بعضهم الى اطراف البلاد يشجعون امراءها للقيام عليه ، بينما بات آخرون على حذر يترقبون ساعة التخلص منه ' على أن الايلخان كان مستمراً في تنفيذ سياسته بالرغم من معارضة وزيره غياث الدين محمد لذلك .

وفتح علي بادشاه (٣) خال ابي سعيد باب المنافسة على العرش مستغلا انضمام بعض هؤلاء الامراء اليه ، فادعى بأن اخته والدة ابي سعيد أكرهت على البيعة ،

---

(١) ميرخوند جـ ٥ ص ١٧٩ .

Price . 2 . P . 674 - 675 .

(٢) ابرو ص ١٤٧ .

Howorth . 3 . P . 635 .

(٣) وكان يتولى الحكم على ولايات العراق العربي ودياربكر منذ عهد ابن اخته ابي سعيد .

كما اعلن ان زوجة الايلخان دلشاد خاتون حامل منه ، وان الوليد المنتظر هو صاحب الحق الشرعي بالعرش ، وخلص البادشاه من ذلك الى عـــدم الاعتراف بايلخانية الايلخان القائم ، وانه رشح لها احد ابناء هولاكو وهو موسى بن علي بن بايدو .

وكشف البادشاه عن حقيقة دوافعه من وراء هذه الاعمال ، بأن الجديد لم يعطه المكانة التي يستحقها كقريب للايلخان المتوفى ، وذلك عندما ساوم على منصب أمير الامراء ليرجع عن معارضته ويقدم طاعته للايلخان ، وهنا جانب التوفيق سياسة الوزير غياث الدين محمد الذي كانت بيده مقاليد السلام عندما رفض العرض وأصر على إخضاع الامير الثائر بالحرب ، فزحفت الجيوش على الجيوش في منتصف رمضان سنة ٧٣٦ هـ ، وانتهز الامراء الناقمون المترقبون الفرصة فمالوا عن الايلخان ووزيره الى جانب عدوه ، فلم يمكث الايلخان حينئذ في الميدان إلا قليلا أطلق ساقيه بعدها للريح مفضلا النجاة برأسـه بينما سقط الوزير أسيراً بيد اعدائه الذين لم يبقوا عليه بالرغم من محاولات علي بادشاه الحفاظ على حياته للاستفادة من خبرته ومكانته ، ولم يُنج الهرب الايلخان من الموت إذ سقط بيد مطارديه بعد اسبوع من مقتل وزيره وحوكم على قتله للأمراء ثم أعدم في اول شوال ٧٣٦ هـ بعد أن حكم مدة تقل عن ستة شهور (١) لم تسمح له الاضطرابات والمطامع خلالها من القيام بمباشرة أي نوع من الاصلاح .

---

(١) ابرو ص ١٤٨ ـ ١٥١ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ١٢٧ ، ابن حجر ج ١ الدرر الكامنة ص ٣٤٨ ، المقريزي ج ٢ ق ٢ ص ٤٠٦ .

Browne . 3 . P . 59. Price . 2 . P . 675 - 677 .

ايلخانية موسى خان : وصفت السلطة لعلي بادشاه الذي كان قد اتخذ من موسى صنيعة له على العرش واختار له نجم الدين محمود بن تاج الدين علي الشيرواني وزيراً وضرب اسمه على النقود (١) ، ولكن الاستقرار لم يتوفر للبلاد إلا لفترة قصيرة جـداً بالرغم من محاولات الوزير ذلك ، إذ أن الفتنة التي اوقد نارها علي بادشاه لا زالت مشتعلة ، يزيد منها استبداد البادشاه نفسه الذي كان كما يبدو بدوياً غليظ الطباع وقد سلط أتباعه من قبيلة الاويرات المغولية على شؤون الحكم ومصائر الامراء ، بالاضافة الى استمرار اطماع الامراء الآخرين الذين كانت قد استحكمت في نفوسهم الرغبة بالاستقلال بما في أيديهم من البلاد التي أصبحت ملكيتها تخضع لشريعة القوة (٢) .

وتوجهت انظار الامراء نحو الشيخ حسن حاكم بلاد الروم الذي كان قد انضم اليه بعض الامراء الهاربين من اربا خان ، وانضم اليهم الآن الذين نقموا على البادشاه انفراده بالسلطان دونهم ، وكان على رأسهم طغاي بن سوتاي صاحب ديار بكر ، فأغروه بمنافسة علي بادشاه وبأحقيته الزعامة الايلخانية باعتباره من عظم الايلخان من جهة النساء (٣) .

(١) عثر له على بعض القطع النحاسية التي جاء لقبه عليها « السلطان الاعظم » انظر

Lane - Poole . 10 . P . 115 . N . 179 qq . bb .

(٢) ابرو ص١٥٢-١٥٣ ، ميرخوند ج٥ ص ١٨٠ ، العزاوي ج ١ ص ٥٣٠ .

Price - 2 . P . 677 .

(٣) كان والده حسين كوركان بن اقبوغا بن ايلكانويان الجلايري قد تزوج من ابنة الايلخان ارغون فهو لذلك ابن عمة ابي سعيد ، وأفاده هذا النسب عندما اتهم —

ولم يكن الشيخ حسن زاهداً بالحكم ، لكنه كان ينتظر الفرصة التي جاءت بانضمام هؤلاء الامراء اليه فخرج بهم وأعلن عن معارضته لايلخانية موسى وتسلط البادشاه ، واستدعى احد المنتسبين للأسرة الايلخانية وهو محمد (١) فجعل منه ايلخاناً تحدى به غريمه البادشاه وصنيعته ، واتخذ له وزيراً من ابناء اسرة رشيدالدين وهو شمس الدين محمد بن زكريا (٢) ، ثم زحف بجمعه نحو تبريز لفرض إرادته وتحقيق أغراضه .

وحاول البادشاه قبل اللقاء الذي تم في ذي الحجة ٧٣٦ هـ ، حاول الاتفاق على حل لمنع إراقة الدماء بين المسلمين ودعاه الى ترك الصنيعتين يقتتلان ، وطاعة المنتصر منهما ، وكاد الشيخ حسن يضيع الجهود التي بذلها بسبب موافقته على هذا الحل الذي رجح كفة غريمه ، لو لم يلجأ الى الخديعة والغدر فيهاجم اعداءه على حين غفلة ويقضي على البادشاه بينما هرب موسى من المعركة ناجياً بنفسه (٣) .

وفقد موسى نعيم الايلخانية الذي تمتع به قرابة ثلاثة اشهر بعد مقتل علي بادشاه وأصبح ينتقل هارباً من مكان الى آخر مع بقية أنصار سيده يفتش له عن انصار آخرين ، بينما استقر غريمه محمد في الايلخانية متخذاً لنفسه ألقاباً عديدة جم

ـ بمراسلة زوجته بغداد خاتون التي كان ابو سعيد قد اكرهه على طلاقها ليتزوج منها ، فلم يأمر بقتله بل اكتفى بنفيه ثم ارسله حاكماً على بلاد الروم بعد ذلك .

(١) وهو محمد يولقتلغ بن انبارجي بن منكوتيمور بن هولاكو .

(٢) وهو ابن بنت رشيد الدين وزوج ابنة خاله الوزير غياث الدين .

(٣) ابرو ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .
Howorth . 3 . P . 637 - 638 .

فيها بين العادل والعالم الأعظم (١) .

وأعاد الشيخ حسن تنظيم الوزارة فجعلها مشاركة بين متوليها السابق ومسعود ابن محمود شاه اينجو ، ثم استقر بتبريز وتزوج من دلشاد خاتون أرملة ابي سعيد رداً على ما كان الايلخان قد فعله به من قبل (٢) .

وتحرك الامراء ثانية حسداً منهم للشيخ حسن الذي استقرت البلاد تحت طاعته وانفرد بالسلطان دون منافس ، إذ وجدوا في الحزم والاستقرار الذي اتصف به الحكم الجديد خطراً على مصالحهم ومكانتهم ، فتفرقوا عنه وتوزعوا في البلاد وتوجه بعضهم نحو خراسان للالتحاق بأميرها طغاي تيمور الذي كان يعتبر من امراء الاسرة (٣) . وأغروه بأحقيته بالزعامة والسلطنة فخرج بهم للمنافسة عليها ، وازدادت قوته عندما التحق به الايلخان الهارب موسى بعد اتفاقه معه على تقسيم البلاد ، وتوجها سوية نحو السلطانية في شعبان ٧٣٧ هـ حيث تصدى لهم الشيخ حسن من تبريز بعد أن وثق

---

(١) وجاءت ألقابه : السلطان العالم ، السلطان العادل ، السلطان الاعظم. انظر مسكوكات قديمة اسلامية قتالوغي ق ٣ ص ١٥٥ رقم ٣٠٢ ، مجلة المجمع العلمي المصري م ٣٤ سنة ١٩٥١ - ١٩٥٢ ص ١٠٠ - ١٠١ .

Lane - Poole . 4 · P · 94 · N · 280 , 281 .

Burn** : Coins of The* ***Ilkhanis *of Pers .P· 842 · Jras · 1933 .*

(٢) ابرو ص ١٥٣ - ١٥٤ ميرخوند جـ ٥ ص ١٨١ ، الشواربي - حافظ الشيرازي ص ١٠٢ .

Price *· 2 · p . 679 - 680 .*

(٣) اذ يعود نسبه الى احد اخوة جنكيز .

صلاته بالأميرة ساتي بيك أرملة جوبان واربا خان واستمالها الى جانبه لمصاحة ابنها صيورغان بن چوبان .

وفي خلال المعركة التي دارت قرب مراغة في ذي القعدة ٧٣٧ هـ / يونيو ١٣٣٧م تخلى طغاي تيمور عن حليفه عائداً الى خراسـان بينما سقط موسى أسيراً حيث قتل بعدها في ذي الحجة (١) . وأصبح الشيخ حسن وصنيعته محمـد بعد هذا الانتصار أبرز الممثلين للحكم الايلخاني والناطقين باسمه بعد اختفاء الكثير من الطامعين فيه ، ولكن الاستقرار مع ذلك لم يتوفر للبلاد ، إذ كانت الأقدار تخبيء للشيخ حسن منافساً عنيداً آخر امتاز بالمكر والخديعة اكثر من القوة ذلك هوحسن بن تيمورتاش ابن چوبان (٢) الذي اصبح خلال الصراع يعرف بالصغير تميزاً له عن الشيخ حسن الذي اصبح يعرف خلال ذلك بالكبير .

آمن الصغير بشعار الغاية تبرر الواسطة ، واتبع لتحقيق ذلك كل الوسـائل والاساليب التي تحقق له الوصول الى السلطة ، فقد تاجر باسم ابيه تيمورتاش عندما ادعى بأنه لا زال على قيد الحياة (٣) ، وعمد لتبرير ذلك الى احد العبيد المدعو

(١) ابرو ص ١٥٤ - ١٥٦ ، خواندمير م ٣ ج ١ ص ١٢٨ ، الصفدي ج ٧ ق ٢ أعيان العصر - الورقة ٢١٢ ، مينورسكي ترجمـــة المعارف الاسلامية م ٥ - تغاي تيمور .

D'ohsson . *4* . *p* . *723 - 727* .

(٢) كان حسن الصغير قد اختفى منذ اكثر من عشرسنوات خوفاً من ملاحقة ابي سعيد الذي كان يبطش بأبناء الاسرة الچوبانية بعد قتله لچوبان .

(٣) كان تيمورتاش بن چوبان قد لجأ الى السلطان المملوكي الناصرمحمد خوفاً -

قراچر الذي كان قريب الشبه من ابيه فادعى أنه هو ، واستعان بأحد رجال ابيه على تأكيد صحة ذلك أمام الناس ، ولكي يقطع الشك عليهم فقد زوجه من أمه ووقف في خدمته موقف الابن المطيع فكسب بذلك انضمام أبناء الچوبانية وكثير من أنصارها حوله ، حتى أن الاميرة ساتي بيك تخلت عن تأييدها للشيخ حسن متأثرة بهذه الدعايات (١) .

وأقلق ظهور الصغير الشيخ الكبير الذي بدأ يحس بتسرب الامراء من حوله للالتحاق بالغريم الجديد الذي زحف لفرض وجوده على الحكم ، وتلاقى الحسنان في ذي الحجة ٧٣٨ هـ/١٣٣٨ م حيث دارت المعركة بينهما ولكن الكبير منهما ترك الميدان ناجياً بنفسه بعد أن شك في ولاء بعض قواده له والذين انضم بعضهم الى خصمه خلال المعركة ، تاركاً صنيعته الايلخان محمد ياقي مصرعه فيها (٢) .

وخلت البلاد بعد هذه المعركة من ايلخان قائم ، إذ أن الشيخ حسن كان قد التجأ الى تبريز ليسترد انفاسه من المعركة ، بينما هرب غريمه الصغير جريحاً ليحتمي بالاميرة ساتي بيك بعد أن انقلب عليه ابوه المزيف وحاول اغتياله لكي ينفرد وحده

ـ من ابي سعيد الذي كان قد قتل اباه واخوته ، ولكن الناصر غدر به وقتله تقرباً الى ابي سعيد .

(١) ابرو ص ١٥٦ ، ميرخوند جـ ٥ ص ١٨٢ ، مورغان ـ ترجمة المعارف الاسلامية م ٧ ـ « حسن الصغير » .

Howorth . 3 . *p* . 640 - 641 .

(٢) ابرو ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ، خواندمير م ٣ جـ ١ ص ١٢٩ .

D'*ohsson* . 4 . *p* . 727 _ 728 .

بالسلطنة ، ولكي يزحف بعد ذلك نحو تبريز كي يتخذها قاعدة له ولكنه لقي الهزيمة على يد الشيخ حسن الذي كان اصحابه قد تجمعوا حوله فاستعاد بهم شيئاً من قوته .

ايلخانية ساتي بيك : والتف الصغير ومعه عدد من افراد الأسرة الجوبانية حول الاميرة ساتي بيك وأعلنوا تتويجها ايلخانة على البلاد ما دام لم يبق رجل من ذرية هولاكو وخطبوا لها على المنابر وجعلوا وزارتها مشاركة بين ركن الدين شيخي الرشيدي وغياث الدين محمد عليشاهي وذلك سنة ٧٣٩ هـ (١) . وجاءت ألقابها على النقود « السلطانة العادلة » (٢) .

ولم يكن ظهور حسن الصغير بأبيه المزيف مقلقاً للشيخ الكبير فحسب ، بل كان مفزعاً للسلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون ايضاً ، الذي صدق لدعوى بقاء تيمور تاش حياً ، وأحس ' ان صحت هذه الدعوة ' بخطرها على مستقبل السياسة المملوكية مع المغول ، الأمر الذي دفعه الى اتخاذ مواقف اكثر جدية مما كانت قبل ذلك ، ودخول المماليك بعدها كقوة سياسية ثالثة ، كادت تتحول الى قوة عسكرية في احداث الصراع الدائر بين انقاض الايلخانية .

موقف السلطنة المملوكية من الأحداث : فقد كان موقف المماليك قبل ذلك من هذه الأحداث التي بدأت بعد وفاة ابي سعيد مباشرة ، موقف المتفرج الذي يتظاهر بالحرص على استمرار العلاقة الحسنة مع القوة السياسية التي بيدها مقاليد الحكم

(١) ابرو ص ١٥٨ - ١٥٩ ، ميرخوند جـ ٥ ص ١٨٢ - ١٨٣ .
Howorth . 3 . P . 643 . Price . 2 . p . 683 - 684 .

(٢) مسكوكات قديمة اسلامية فتالوغي ق ٣ ص ١٦٥ ، رقم ٣١٦ .
Lane - Poole . 4 . p . 103 ' N . 301 .

في البلاد لا يضيرها أن تتغير هذه القوة كل يوم لكي يغير من موقفه منها ايضاً ، ولو ملكت السياسة المملوكية شيئاً من الجرأة والذكاء خلال احـداث الصراع هذه لكان من المحتمل جداً أن تنجح في إحداث تغير في التقسيمات السياسية للبلاد وبالتالي في تحرير العراق من السيطرة المغولية وإلحاقه بالركب المملوكي .

وتشير الأخبار المتواترة التي ضمتها المراجع العربية المعاصرة الى اطلاع المماليك على التفصيلات الدقيقة لأحداث هذا الصراع الذي كانت تصلهم أخباره بسرعة فائقة بعد وقوعه بفضل الأعوان الكثيرين المنتشرين في البلاد الايلخانية ، وكان هـــذا الاطلاع كفيلا بانجاح أغراض السياسـة المملوكية لاستغلاله لو تحركت قليلا في هذا المجال .

وعلى ضوء ما اورده ابن الجزري (١) ، فان السياسة المملوكية حددت موقفها المعادي لاربا خان عندما اعتقلت رسوله الذي وصل دمشق قبل شهر رمضان ٧٣٦ هـ ، وقام نائب السلطنة بالشام خلال ذلك باعلان النفير العسكري واستدعاء شيوخ العشائر نظراً لقرب توجه الركاب السلطاني الى الشام بجميع الجيوش .

ويبدو أن هذا الاستعداد بطل عندما وصلت أخبار مقتل اربا خان ووزيره التي حملها اليهم احد عيون المماليك المدعو عمر الكردي الذي وصل دمشق في شوال ، وأكد من صحتها وصول اول رسول للحاكم المنتصر علي بادشاه وصنيعته موسى الى دمشق في ٢٤ منه (٢) .

(١) تاريخ ابن الجزري م ٣ الورقة ٤٥٩ .

(٢) تاريخ ابن الجزري م ٣ الورقة ٤٦١ ، زيترستين ـ ص ١٩٢ .

ولم يكن قدوم هذا الرسول لحمل بشرى انتصار مرسله واستيلائه على الحكم فحسب ، وانما جاء يعرض على السلطان المملوكي تعاوناً عسكرياً بين المملكتين ضد بعض امراء المغول الذين رفضوا الخضوع لطاعته وهم اولاد سوتاي (١) صاحب ديار بكر » ويعده مقابل ذلك أن يسلم اليه بغداد ويكون نائباً عنه بها » ففرح السلطان بذلك ، على أنه سرعان ما اتخذ لنفسه موقف الحرباء عندما وصلته رسالة الشيخ حسن « يرغبه في نصرته على بادشاه ويمت اليه بقرابته من أمه » ولابد أنه وعده بما رجح مكانته على غيره ، فاكتفى السلطان باجراء بعض التنقلات في قطعاته العسكرية في الشام وسوق بعضها لمهاجمة ارمينيا الصغرى التي كان صاحبها قد انقطع عن تقديم الطاعة ، وهو يوهم الفريقين المتنازعين انه مع كل منهما على الآخر (٢) .

ولم يكف السلطان بعد ذلك عن هذه السياسة بالرغم من علمه بمقتل البادشاه وهروب موسى واستيلاء الشيخ حسن وصنيعته محمد ، فقد بقي يستقبل رسل الفريقين ويتظاهر بتأييد كليهما حتى أنه في منتصف ربيع الاول ٧٣٧ هـ استقبل رسول محمد خان ثم استقبل في نهايته رسول موسى قبل أن يغادر الرسول الاول القاهرة (٣) .

كما استقبل في مطلع سنة ٧٣٨ هـ اعوان موسى الذين لجأوا الى الشام بعد مقتله وعلى رأسهم وزيره نجم الدين محمود وبقية موظفي ديوانه (٤) .

(١) مر علينا أنه طغاي ، وسوف يتردد ذكره كثيراً .

(٢) المقريزي ج ٢ ق ٢ ص ٣٩٧ - ٣٩٨ ، ٤١٧ - ٤١٨ .

(٣) المقريزي ج ٢ ق ٢ ص ٤١٠ ، زيترستين - تاريخ سلاطين المماليك ص ١٩٣

(٤) تاريخ الجزري م ٣ الورقة ٥٨١ ، زيترستين ص ١٩٥ - ١٩٧ ، المقريزي ج ٢ ق ٢ ص ٤٢٧ - ٤٢٨ ، مجهول المؤلف - تاريخ الانبياء وملوك الاسلام - الورقة ١٢٦ .

ويبدو أن الشيخ حسن لم ينفذ وعده للسلطان بعد انفراده بالحكم واختفاء المنافسين له ، لذلك غضب عليه واستدعى المجد السلامي التاجر السفار وممثله في البلاط الايلخاني منذ زمن ابي سعيد ، ويشير المقريزي الى أن الشيخ حسن استعان به لكي يقوم بالصلح بينه وبين السلطان وجهزمعه هديةجليلة وذلك في سنة ٧٣٨ هـ (١).

ولكن هذا الموقف الذي يتصف باللا مبالاة والتمتع من جانب السلطان بشأن احداث الصراع المار الذكر بين زعماء المغول انقلب رأساً على عقب عند ظهور حسن الصغير الجوباني وأبيه المزعوم ، فقد أسرع السلطان فزعاً يتأكد من صحة الخبر بعد أن توفي جميع الذين عاصروا اعدامه في القاهرة ، فأرسل رسوله احمد الناصري الى صاحب ديار بكر طغاي بن سوتاي يستفتيه بصحة الاشاعة ويعرض عليه تحالفاً يكون ضمانه زواج ابنته من ابنه ، وكرر السلطان الطلب ثانية بالرغم من جواب طغاي الذي نفى صحة الأب المزعوم واعتذر عن الزواج لعدم ملاءمة الوقت ، ثم أخبر عن تحالفه مع الشيخ حسن الكبير للوقوف في وجه الصغير ، والتمس في آخر اعتذاره من السلطان ارسال بعض كتائبه الى حلب لكي تساعده عند الضرورة (٢) .

وفي الوقت الذي قرر فيه السلطان التدخل في الشؤون الداخلية للايلخانية كطرف ثالث ، دفعاً منه لخطر مرتقب ، متخذاً من صاحب ديار بكر ركيزة له ، ساعياً لتجميع ودعم القوى للوقوف في وجه حسن الصغير الذي اصبح بالرغم من انكشاف زيف دعواه يمثل خطراً على مستقبل السياسة المملوكية فيما لو نجح في تثبيت سلطانه

---

(١) السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٤٦ .

(٢) زيترستين ص ١٩٨ .

Howorth . 3 . p . 641 - 642.

على البلاد الايلخانية ، كان الشيخ حسن الكبير متوجهاً خلال ذلك بكايته نحو مصارعة الصغير الذي انتصر عليه في الجولة الاولى ، وكان قد استعاد بعض قوته ونجح في دفع الأب المزيف عن تبريز ، ثم خرج بعد ذلك ليهاجم التحالف الذي أقامه الصغير مع الأميرة ساتي بيك والذي جعل منها ايلخانه على البلاد ، ويبدو أن الأميرة الايلخانة استطاعت التأثير على الشيخ الكبير الذي استجاب لمساعي الصلح والاعتراف بشرعية زعامتها على البلاد ومصالحة غريمه الصغير .

وقرر الحسنان بعد ذلك التعاون على إحياء الايلخانية في شخص الأميرة وذلك بالدعوة الى عقد اجتماع للقوريلتاي في الربيع القادم ليكون توليها شرعياً ، وافترقا على ذلك (١) .

ولكن القلوب لم تكن خالصة النية بهذا الاتفاق ، إذ أن الكبير لم يكن يثق بوعود الصغير فضلا عن أن الوضع الجديد الذي اتفقا عليه يعطي المكان الأكبر للصغير بحكم علاقته الشديدة بالايلخانة المنتظرة ، مما قد يؤدي الى القضاء عليه بعد استقرار الحكم ، لذلك فضل الشيخ حسن التفتيش عن دمية اخرى يرتكز عليها للتحلل من هذا الاتفاق ، ووجد ذلك في شخص طغاي تيمور الذي كان مستقلا بحكم خراسان ومازندران والذي سبق له أن نافس على الايلخانية متحالفاً مع موسى ثم فشل في الحصول عليها بعد هزيمته أمامه . وطرق الشيخ حسن باب طغاي تيمور بما في نفسه ودعاه للقدوم الى السلطانية لتحقيق أمنيته القديمة ، فأسرع اليها في سنة ٧٣٩ هـ .

(١) ابرو ص ١٥٩ ، ميرخوند جـ ٥ ص ١٨٣ .

Howorth . 3 . p . 643 .

ولكن الشيخ حسن سرعان ما ندم على سوء اختياره ، إذ وجد فيه العوبة بيد وزيره علاء الدين لا يحرك ساكناً ، ومع ذلك فقد قرر أن يقاتل به ريثما تتغير الظروف . وأحس الصغير بما يدبره له الكبير ، فعمد الى الخديعة ليفرق بينهما ، ولم يتردد بالمتاجرة بأرملة جده الايلخانة المرتقبة ، وابنة عمه لتحقيق أغراضه كما تاجر بسمعة أبيه وأمه من قبل ، ففتح باب الاتصال خفية مع طغاي تيمور مظهراً له الاحترام العميق ، ومذكراً إياه بالعلاقة بين جده چوبان وأبيه ، محذراً له من مخادعة حسن الكبير ، مؤكداً له بأنه أصلح من يتولى الايلخانية في هذا الظرف ، ثم أسال لعابه عندما أعلن له أن أبناء الأسرة الچوبانية لا يمانعون من زواجه من أرملة جـــدهم ساتي بيك ، وابنة عمهم دلشاد خاتون بعد القضاء على زوجها حسن الكبير ، لتحقيق وحدة البيت الجنكيزي .

وضرب حسن الصغير ضربته عندما أرسل الى غريمه الكبير الوثيقة التي أملاها ووقعها بنفسه حليفه طغاي تيمور للقضاء عليه (١) .

ولما انكشفت الخدعة التي جازت على الاثنين ، لم يتمالك طغاي تيمور نفسه خجلا مما فعل ، إلا الانسحاب في نفس الليلة عائداً الى خراسان ، بينما تراجع الشيخ الكبير الى بغداد ليفتش عن صنيعة اخرى يدافع بها عن نفسه ، فوجدها في شخص جيهانتيمور بن الفرنك بن كيخاتو فولاه الايلخانية وجعل من وزيره محمدخان السابق

---

(١) خواندمير م ٣ ج ١ ص ١٣٠ ، مورتان ـ ترجمة المعارف الاسلامية م ٧ حسن الكبير .

Howorth . 3 · p · 643 - 645 ‘ price . 2 · p · 684 - 686 .

شمس الدين زكريا وزيراً له وضرب النقود باسمه (١) .

وبادر الصغير الى الاقتداء به حيث اعلن عن تتويج سليمان خان (٢) في اوجان في اواخر سنة ٧٣٩ هـ بعد أن زوجه من ساتي بيك بدعوى انها لا تستطيع وحدها إدارة الايلخانية ، وجاءت نقوده تحمل لقب السلطان العادل (٣) .

وتجدد الصراع بين الحسنين ثانية ، كل يتستر وراء صنيعة له من ابناء الأسرة الايلخانية ، وقرر الكبير منهما أن يتوجه ثانية الى السلطان المملوكي يلتمس منه تجديد تحالفه السابق معه ، وكان كما يبدو على علم بالمساعي التي بذلها السلطان لاضعاف جبهة غريمه (٤) فطلب منه أولا التوفيق بينه وبين طغاي صاحب ديار بكر لكي تتوحد صفوفهما أمام العدو ، ثم إرسال جيش يتسلم بغداد والموصل والبلاد الاخرى لكي يخطب له فيها (٥) .

---

(١) وجاء لقبه عليها « السلطان الاعظم » مسكوكات قديمة اسلامية قتالوغي ق ٣ ص ١٦٣ رقم ٣١٥ .

(٢) وهو سليمان بن محمد سانكا بن يشموت بن هولاكو .

(٣) مسكوكات قديمة اسلامية قتالوغي ق ٣ ص ١٧١ رقم ٣٢٨ .

Lane – Poole . 4 • p • 107 •

(٤) كان السلطان المملوكي بالاضافة الى تقوية علاقته بصاحب ديار بكر قد استطاع سحب حافظ الدين أخو علي بادشاه الى جانبه بعد أن كان متعلقاً بالاسرة الچوبانية ، انظر : زيترستين ص ١٩٨ ، ٢٠٢ .

Howorth . 3 • P • 642 •

(٥) المقريزي جـ٢ ق ٢ ص ٤٨٩ ، وقد أرسل السلطان المملوكي رسوله احمد الناصري الى ديار بكر حيث نجح في إزالة اسباب الخلاف بين طغاي والشيخ حسن انظر ص ٤٩١ منه .

ثم رأى الشيخ حسن خلال ذلك أن يجرب قوته ثانية مع خصمه الصغير ، فزحف بجيشه نحو اذربيجان مصطحباً معه ايلخانة جيهانتيمور ، ولكنه فشل كرة اخرى وعاد مهزوماً الى بغداد في اواخر ذي الحجة ٧٤٠ هـ حيث قرر إنهاء الايلخانية التي أقامها وخلع الايلخان الدمية واعلان استقلاله بالبلاد التي شملها سلطانه وهي العراق العربي وخوزستان وديار بكر (١) .

وبالرغم من أن هذا الاستقلال يعني بداية لتأسيس الحكم الجديد للأسرة الجلائرية التي اصبح الشيخ حسن الحاكم الحقيقي والرسمي له ، إلا أن الشيخ المذكور كان كما يبدو ، يفضل أن ينقل ولاءه الى السلطان المملوكي في سبيل الحصول على تأييده للقضاء على خصمه العنيد ، لذلك نراه يلحف بالسؤال من السلطان لانجاز العروض المقترحة ، وتنقل رسله عدة مرات خلال فترة قصيرة من الزمن بين القاهرة وبغداد لتحقيق وحدة البلدين تحت التاج المملوكي (٢) ، ولكن السلطان كان لا يريد أن يخدع ثانية من هذه الوعود ، لذلك فهو يضن بأبنائه وجيوشه التي يقترح الشيخ الكبير إرسالها ، يضن بها أن تتعرض للخديعة والغدر ، قبل أن يأخذ الحذر لذلك .

فاعتذر بصغر ابنائه عن قيادة الجيوش ، وانه هو نفسه مستعد لقيادتها والزحف بها نحو العراق وتبريز ، ولكن بعد تقديم الضمانات اللازمة التي يدل تنفيذها على صدق النية بالتعاون .

---

(١) ميرخوند جـ ٥ ص ١٨٣ - ١٨٤ ، الشواربي - حافظ الشيرازي ص ٧٥ .

D'*ohsson* . *4* · *p* · *732* - *733* ‘ *Price* · *2* . *P* · *686* *688* .

(٢) زيترستين ص ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

Howorth · *3* · *P* · *646* ·

وكانت الشروط التي وضعها السلطان هي القسم على الولاء والطاعة من قبل زعماء البلاد وأعيانها وعلى رأسهم الشيخ حسن وطغاي بن سوتاي وحافظ الدين أخو علي بادشاه ، ثم تقديم رهائن من ابنائهم يقيموا عند السلطان بالاضافة الى الخطبة والسكة (١) .

ونفذ الشيخ حسن واصحابه شروط السلطان ، فقد وصل القاهرة في يوم الثلاثاء ٥ ذي الحجة ٧٤١ هـ ، ويوم الاربعاء ٦ منه ' وصل كل من ابراهيم شاه ابن اخي الشيخ حسن ' وبرهشين بن طغاي وبرفقتهم قاضي بغداد ، وقاضي الموصل ، وقاضي ديار بكر وعدد من الفرسان ، وقد أحضروا بعد صلاة الجمعة ٨ منه بين يدي السلطان فقدموا له نسخة إيمانهما وإيمان عامة اهل بلادهم من الأمراء والأجناد وأرباب المعايش بالطاعة ، وانهم من جندة ومقاتلة من عاداه ، وقدموا صورة الخطبة التي خُطب له بها في البلاد والدراهم التي ضربت ببغداد وعليها اسمه ، فخلع السلطان عليهم جميعاً وأعلمهم بأنه قد أمر بتجهيز الجند (٢) .

وجرب الشيخ حسن ثالثة منازلة خصمه بعد أن أرسل رهائنه الى السلطان ، فزحف في ربيع ٧٤١ هـ بجيوش من العرب والترك نحو اذربيجان حيث وصلها في ذي الحجة . ولكن عقدة الفشل المتكرر أمام خصمه كانت قد سيطرت على تفكيره ،

---

(١) المقريزي ج ٢ ق ٢ ص ٥١٧ ' زيترستين ص ٢٢٢ ' العيني الورقة ٣٤ في حوادث سنة ٧٣٩ هـ .

Howorth . 3 . p . 646 .

(٢) المقريزي ج ٢ ق ٢ ص ٥١٩ - ٥٢٠ ' زيترستين ص ٢٢١ - ٢٢٢ ' العيني الورقة ٤٢ في حوادث سنة ٧٤١ هـ .

فلم يعد يتصور أنه قادر على تحقيق الانتصار بمفرده ، لذلك فحالما ظهرت آثار غبار كثيف بالقرب من معسكره حتى توهم أنه سينجلي عن جيوش عدوه الكثيرة ، فلم يتمالك أمره حتى قرر التراجع قبل اللقاء لئلا تتكرر هزيمته (١) .

ولم يصل السلطان العراق ، كما لم تصل جيوشه التي قررها بالرغم من أنه كان قد جند اربعة آلاف من الفرسان واختار قوادهم ، وكتب بتجهيز عساكر حلب ودمشق وأمراء التركمان والعربان للخروج معه في حملة تبريز (٢) ، ذلك ان صاحب ماردين (٣) وهو احد الموالين له سراً أرسل يخبره بوقوع الصلح بين الحسنين واتفاقهم على العبور الى بلاد الشام ، فتوقف السلطان وأرسل يستوضح الأخبار بالرغم من طعن الرهائن بصاحب ماردين (٤) .

وبالرغم من أن المراجع العربية أخذت بصحة هذا الخبر معتمدة في ذلك على

---

(١) وكانت هذه الجيوش لأحد امراء الاسرة الجوبانية الذي كان مفارقاً لسليمان خان ، بينما كان حسن الصغير غائباً في خراسان حيث كان يهاجم طغاي تيمور انظر : خواندمير م ٣ ج ١ ص ١٣٠ - ١٣١ .

Price . 2 · p . 687 - 688 .

(٢) المقريزي ج ٢ ق ٢ ص ٥١٨ - ٥١٩ ، زيترستين ص ٢٢٢ .

(٣) كان صاحب ماردين في هذه الفترة هو الملك الصالح شمس الدين بن المنصور غازي ، وقد تولى العرش بعد وفاة ابيه واخيه علي في ربيع ٧١٢ هـ وحكم اربعة وخمسين سنة وقد توفى سنة ٧٦٦ هـ ، ابوالفداء ج ٤ ص ٦٩ ، الذيل لابن العراقي - الورقة ٦٠ - ٦١ في وفيات سنة ٧٦٦ هـ .

(٤) المقريزي ج ٢ ق ٢ ص ٥٢١ .

ولاء صاحب ماردين ، وان تواتره قد أزعج السلطان الناصر فأصابه باسهال دموي أدى الى وفاته في ثاني يوم عيد الاضحى ١١ ذي الحجة ٧٤١ ه (١) ، إلا ان وقائع الأحداث تنفي وقوع الصلح وتؤكد استمرار الحرب ، خاصة وان الشيخ حسن كان خلال هذه الفترة قد رجع مهزوماً من محاولته الثالثة للصدام مع غريمه الصغير .

وقد شجع فشل التعاون العسكري بين الشيخ حسن والسلطان المملوكي بسبب وشاية صاحب ماردين (٢) ووفاة السلطان ، شجع حسن الصغير الذي عاد من حملته على خراسان ، على مهاجمة اعدائه ، فقاد بنفسه الجيش لمهاجمة ديار بكر التي هرب صاحبها طغاي الى مدينة موش في ارمينيا محتمياً بصاحبها ابراهيم أخو علي بادشاه الذي غدر به وقتله سنة ٧٤٣ ه . في الوقت الذي عاث فيه الصغير فساداً في بلاد ديار بكر وموش في وقت واحد ، حتى عسكر في ماردين التي كان صاحبها قد أعلن الدخول في طاعته ، ثم زحف منها نحو غريمه الكبير فلقي الهزيمة أمام جيوشه التي قادها قائداه قرة حسين وعلي جعفر ، فقفل راجعاً الى بلاد الروم يفرغ فيها نار هزيمته قتلا وتخريباً حتى لم تسلم المساجد من نهبه وتخريبه (٣) .

(١) المرجع السابق ص ٥٢٢ .

(٢) وعلى ضوء التناقض بين وشاية صاحب ماردين وواقع الأحداث يمكن القول ان الملك الصالح كان يعمل لحساب حسن الصغير خوفاً منه مثلما كان يعمل لحساب السلطان المملوكي ، وان قيامه بهذه الاخبار الكاذبة قد يكون مدبراً مع حسن الصغير لتحقيق منافع فشله كما قد حصل .

(٣) الشواربي - حافظ الشيرازي ص ٧٦ .

Howorth . 3 . P . 647.

على ان الوضع لم يستقم بعد ذلك للصغير الذي اختلف مع اخيه الأشرف وعمه ياغي باستي اللذين احتميا بالشيخ حسن ثم انسحبا عنه خوفاً من مكر الصغير وحيله ، كما اختلف الصغير ايضاً مع بعض قواده بسبب فشلهم في بعض الحملات على بلاد الروم الأمر الذي ادى بهؤلاء الى الاتفاق على التخلص منه بالتعاون مع زوجته عزت ملك وذلك في رجب ٧٤٤ هـ ، فكان مقتله إيذاناً بانتهاء الايلخانية نفسها بعد ان عجز صنيعته سليمان من الاستمرار بها بعده أمام مطامع ابناء الاسرة الجوبانية الذين نازعوه الحكم وقد اختفى بعده بقليل خلال هروبه الى ديار بكر حيث لم يعثر له على خبر بعد ذلك (١) .

اما الشيخ حسن فقد استقر ببغداد وقطع الخطبة للناصر بعد وفاته ، وجاء انتصار قائديه وإلحاقهم الهزيمة بغريمه الصغير سنة ٧٤٣ هـ معززاً لمكانته في البلاد التي رسخت كذلك بفضل انقسام امراء الاسرة الجوبانية على انفسهم وانشغالهم ببعضهم عن مهاجمة العراق الذي اصبح منذ وفاة السلطان الناصر محمد يحكم من قبل الأسرة الجلائرية التي اصبح الشيخ حسن مؤسساً لها والتي ظهرت اهميتها في الميدان الأدبي اكثر منه في المجال السياسي (٢) .

تم بعون الله وحمده

(١) ميرخوند جـ ٥ ص ١٨٥ ، الشواربي ـ حافظ الشيرازي ص ٧٧ ـ ٧٨ .

Howorth. 3. P. 647 - 649.

(٢) *Browne. 3. p. 59 - 60.*

ملخص الملاحق

ملاحق الباب الأول :

رسالة الطوسي في فتح بغداد

ملاحق الباب الثاني :

رسالة هولاكو الى الناصر الأيوبي صاحب الشام

ملاحق الباب الثالث :

١ ـ رسالة احمد تكودار الى اهل بغداد

٢ ـ رسالة احمد تكودار الى السلطان قلاون

٣ ـ جواب السلطان قلاون

٤ ـ رسالة تكودار الثانية الى قلاون

ملاحق الباب الرابع :

١ ـ رسالة هولاكو الى الناصر الايوبي صاحب الشام

٢ ـ رسالة غازان الى الناصر محمد بن قلاون

٣ ـ جواب الناصر محمد على رسالة غازان

٤ ـ رسالة الناصر محمد الثانية الى غازان بعد انتصاره عليه في مرج الصفر

٥ ـ صورة امان وجهها غازان الى اهل دمشق

٦ ـ مرسوم غازان في تعيين الامير قبجق المنصوري لولاية الشام

ملحق الباب الأول :

رسالة نصير الدين الطوسي

في فتح المغول لبغداد

قال العلامة نصير الدين الطوسي رحمه الله :

ولما عزم السلطان (هولاكو خان) على ان يلج بلاد الملاحدة (الباطنية) سير من قبله مندوباً الى الخليفة (١) لطلب النجدة منه حتى يستأصل بذلك شأفتهم ويمحو سطوتهم فبلغ الرسول الخليفة فحوى السفارة بقوله يقول السلطان : « إننا بعاداتنا البدوية وأسسنا القومية نستنجد بموالينا على اعدائنا وبالنظر الى الحب والولاء القائم بيني وبينك ارجو معونتنا بخيلك وامدادنا برجالك حتى ندرأ شر هذه الفئة الباغية التي أريقت بكيدها الدماء وأرهقت بغدرها ارواح الأبرياء » فاختلى الخليفة بحاشيته وائتمر مع اصحابه فأجابه الجم من الجنود والامراء بأن «هولاكو» يريد بهذه الحيلة إخلاء بغداد من العدد والعدة لتصبح فى وجهه مفتحة الأبواب خالية من الخيل والركاب فيستولي آنئذ على المدينة بلا توجس خوف وارتياب ونحن على ما فعلنا نادمين فانصاع الخليفة لرأي الجلساء وتوانى في إمداد السلطان ورجع الرسول الى سيده بخفي حنين ولما ان فرغ السلطان من فتح بلاد الملاحدة عاتب الخليفة عتاباً مراً وأنذره إنذاراً أليما فارتأي الخليفة أن يستشير وزيره ـ العلقمي ـ فأشار عليه هذا أن يحمل ما في دار الخلافة من فاخر الأثاث وزخرف الرياش على البغال المسرج والخيل الملجمة ويقدمها هدية للسلطان وينجو بهذه الواسطة فمايوشك أن يحدث في ملكه من التدمير والهوان فقبل الخليفة ما أشار الوزير اليه وأمر بتسجيل ما يلزم انتقاؤه من الاشياء وعين لايصالها نفراً من اركان دولته لعرض المعذرة عند تقديم الهدية فاجتمع

(١) وكان الخليفة حينئذ المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين ببغداد .

احد الأمراء المدعو (الدوان دار الصغير) مع عدة من صحبه وقال لهم : إن هـذه مكيدة اراد بها الوزير قتل اعواننا ونهب اموالنا فاذا جيء بالأموال الى ظاهر البلد نقض عليها برمتنا ونستنفذها لتكون ذخراً ليوم شـدتنا فنحن الخبر الى الخليفة واضطر على إبدال الكثير بالقليل والوافر بالنذر فاغتاظ السلطان لذلك وأرسل اليه أن يحضر بنفسه او يبعث اليه احد الذوات الثلاثة اي الوزير او الكاتب او سليمان شـاه فتوانى الخليفة في انجاز ما اراده الملك ايضاً فتهيجت من اجله سورة غضب السلطان وعقد النية على فتح بغداد فأرسل الخليفة الازبكي غير مرة وابن الجوزي بن محيي الدين مرة فارتدا خائبين لان السيل قد بلغ الزبى وحان الوقت الذي لا ينفع فيه الندم .

ففي شهر شوال من سنة ٦٥٥ هـ نهض السلطان ـ هولاكو ـ من همدان مولياً وجهه شطر قاعدة الخلافة العباسية على ان الامير (صوغنجاق) والسردار (تايجو نئين) كانا قد ذهبا مع مقدمة الجيش الأيمن على الميمنة مما يلي اربيل عن طريق جبال (شهرزور) كما ان القائد (دقوق) وزميليه (كبديوقائين) و (انكتانوئين) كانوا على الجناح الأيسر في الميسرة التي زحفت الى تكريت وبيان وكان فياق القلب من الجند السلطاني تحت امرته الشخصية يسير من كرمانشاه وحلوان الى بغداد . هذا وقد سار (الدوان دار) من بغداد بجيش الخليفة واتى الى بعقوبة فتحيم بجوارها اما السلطان فكان قد اوعز الى احد قواده المدعو (تايجورا) ان يعبر دجلة ويدخل بغداد من جانبها الغربي وقد تخلى هو عن رحله وسرادقه عندما وصل حلوان وخرج منها بتجريده عن جيشه واول حادثة حدثت هي ان طلايع الجيش الملكي اسرت طليعة من جند الخلافة ولما مثلوا بين يدي السلطان اقسموا الأيمان المغلظة على ان يخلصوا الخدمة من يومهم للملك ويؤدوا ما يجب عليهم من الصدق والأمانة وولاء وكان في جملتهم امير من بقايا الملوك الخوارزمشاهية فأرسل هذا كتاباً من قبله الى المعسكر العباسي مخاطباً به (قراسنقور) احد امراء جيش الخلافة بالعبارة التالية : « انني

وإياكم من جنسية واحدة أديت الطاعة واتصلت بالخدمة فصرت من المكرمين فأذا اردتم ان تبروا انفسكم وتشفقوا على ارواحكم فاعتصموا بحبل الطاعة وتمسكوا بذيل العبودية لاني لكم من الناصحين » .

وبعدما قرأ (قراسنقور) الكتاب اجاب الامير المذكور بما يلي :

« متى صارت لهولاكو تلك المكانة التي يتمكن بواسطتها بلوغ هذه الغايات ولعمري ان هذه الدولة (العباسية) قد شاهدت كثيراً من امثاله واقرانه هذا وان مجيئه بهذه الصورة الي بلاد الخليفة وتدميرها بهـــذه الصفة لدليل على انه يريد في الارض علواً او فساداً وان اراد غفران ذنوبه وقبول اعذاره فليرجع الى همدان حتى استشفع له بواسطة (الدوان دار) لدى الخليفة ويعفو له عما سلف . وبعدما وقف السلطان على فحوى رسالة (قراسنقور) ضحك ضحكة التهكم وقال : « نعم ان الأمر بيد الله وانه فعال لما يشاء » وبعدما عبر القائدان (صوغنجاق) و (تايجونوئين) دجلة ظن البغداديون ان هذه الجيوش والعساكر ما قطعت النهر إلا تحت قيادة هولاكوخان الخاصة ونمى الخبر الي (الدوان دار) فقفل راجعاً من بعقوبة الى بغداد وعبر دجلة فالتقى (بصوغنجاق) الذي كان في مقدمة الجيش المغولي ووقعت بينهما معركة انكسرت فيها عساكر (صوغنجاق) والتجأ بالأخير الى الفرار .

ولكن الذي حصل لعسكر (الدوان دار) عند اشتباكه بالحرب مع (تايجو نوئين) القائد الثاني دعا لضياع النتيجة وتضايقت عليه الأحوال فآب (الدوان دار) راجعاً بجمعه المتفرق الى بغداد .

اما السلطان فامتطى جواده وعبر (ديالى) مع جمع من عسكره الى ان بلغ ظاهر بغداد في منتصف شهر محرم سنة ستمائة وست وخمسين وأرسل (بوقا تيمور) مع جيشه ليحيط بغداد في جانبها الغربي وأمر أن يقيم الجند حائطاً يحتضن المدينة من كل الجهات ثم نصبت عليه المجانيق وهيئت المؤن والمعدات اللازمة للحرب والقتال .

ولما احس الخليفة بذلك اجتمع بأصحابه ليتشاوروا في الخطب فقال بعضهم : اذا اردنا ان نقدم لهم الهدايا الفاخرة نفتدي المدينة بالدرهم والدينار فعسى ان يحملوا فعلتنا هذه دليلا على الخوف والهوان والأصلح ايفاد الوزير و (صاحب الديوان) مع (ابن الدربوس) بقليل من التحف والرياش فاستحسن الجميع قوله فلم احضر صاحب الديوان وزميلاه الى السلطان قال : لماذا لم يحضر عندنا (سليمان شاه) و(الدوان دار) فأجيب بأن السلطان كان قد كتب للخليفة ان يبعث واحداً من هؤلاء الثلاثة فأرسل الخليفة الوزير الذي هو اكبرهم فقال السلطان : نعم ولكني اردت ذلك في همدان وها اناذا في بغداد هذا وبعد اخذ ورد ظهرت بوادر القتال ظهوراً تدريجياً وابتدأت العساكر المغولية بالحرب في ٢٢ من شهر محرم وحمل السلطان بنفسه على بغـداد من جانبها الشرقي تجاه برج العجم وحاربت عساكر (كبه بوق) بالسهم والنشاب وكان القائدان (بلغاي) و (سناي) يتقاتلان في الجانب الأيمن للمدينة واما بوقا تيمور « فانه انهال بجيشه على بغـداد من الجانب الغربي في ارض كانت تعرف حينذاك بـ (روضة النقل) اما (تايجو نوئين) و (صوغنجاق) فقد احتوشا المدينة وزحفا عليها مما يلي المارستان العضدي ودام القتال الشديد لمدة ستة ايام بلياليها وامر السلطان ان ترسل ستة رسائل بواسطة النشاب لجماعة السادة والعلماء والأركان والمشايخ وغيرهم ليفهموهم بأن الجيش المغولي لايتحرش بهم ان ألقوا سلاحهم وكانوا فى حياد .

وما بزغت شمس يوم الثامن والعشرين من شهر محرم إلا وتمكن العسكر المغولي من الاستيلاء على برج العجم وقبيل صلاة الظهر فى ذلك اليوم تم النصر للمغول بانحدار البغداديين انحداراً عظيما ووقوع المدينة في قبضة التتر وكان قد ارسـل السلطان بوحدات من جيشه للحراسة على دجلة من اعلاها الى ادناها وللقبض على الذين يريدون الفرار واتفق ان صادفوا ثلاث سفن تحمل اثاث (الدوان دار) وشيئاً كثيراً من امواله وسلاحه وغير واحد من رجاله وصحبه من جملتهم نقيب العلويين فأوقفوها من

السير برشاشات النفط النارية التي كانت تلقى عليهم من المجانيق فهلك من فيها من الناس حتى النقيب العلوي وصودرت جميع ما فيها من المحمولات . هذا وقد أمر السلطان اهل بغداد على ان يشتركوا جميعهم بهدم السور الذي يحيط بالبلد وبعدها اعلن السلطان العفو العام استأذن الخليفة السلطان للخروج من بغداد لانه تحقق من نفسه وجيشه الضعف الكامل وانه باء بالفشل المبين والخلاصة ان الخليفة قابل الملك في (باب كلواذ) بجم غفير من السادة والأئمـة والمشايخ والأركان وهذه المقابلة التي كانت تعد آخر يوم من ايام الخلافة العباسية .

ثم صدرت أوامر السلطان في أن يبادر الجند بنهب المدينة وغزو ما فيها من الاموال وفى يوم الاحد الموافق الرابع شهر صفر سنة ٦٥٦ هـ دخل السلطان المدينة وولج القصر العباسي ثم دخل الغرفة التي كانت معدة لجلوس الخليفة عندما يريد القراءة والمطالعة وكان الخليفة حاضراً هناك مع نفر غير قليل من العلماء والاشراف فتقابل السلطان معهم وتكلم بعـد ذلك مع الخليفة وقال له : اين الهدايا التي يجب تقديمها (للدركاه) ؟ فأحضرت له الهدايا وقسمها السلطان بين رؤساء الجند وقادة الجيش ووضع السلطان طبقاً ملؤه الذهب الابريز أمام الخليفة وقال له : تقدم وكله لسد جوعك فقال الخليفة : ليس هذا مما يتمكن الانسان من اكله فقال السلطان : اذن ماضرك لو تكن تقسمه على اعوانك وجيشك ليكون وسيلة لقوة أمرك وداعياً لنصرك ولم لم تخلع هذه الحدايد التي غلفت بها هذه الابواب ليصنعوا فيها سهاماً تمنع عبور اعدائك في الجيحون (دجلة) ؟ فأجاب الخليفة كل ذلك كائن بتقدير الله فقـال له السلطان : نعم وان الذي سيجري عليك يكون بتقديره ايضاً ثم امر السلطان ان تدخل النساء اللواتي باشرهن الخليفة او ولده بقصر دار الخلافة وأذن بدخول الوصائف والخدم ايضاً وأحصيت فكانت (٧٠٠) امرأة و (١٣٠٠) وصيف وخادمة وبعد اسبوع اعلن الأمن العام وجمعت الغنائم والأسلاب .

وفي اليوم الرابع عشر من صفر خرج السلطان من المدينة وأمر باحضار الخليفة بظاهرها وأحضر مع ابنه الأوسط وخمس اوست من خدمه الخصوصيين فوقعت الواقعة وصار ما صار وانتهت آخر ايام عمر الخليفة العباسي في ذلك اليوم وفي اليوم التالي قتل نجل الخليفة الأكبر وشتت بعد ذلك شمل الحرم والنساء فتفرقوا ايادي سبا ثم أمر السلطان بعد ذلك بتعمير بغداد ودفن اجساد البشر والحيوانات التي كانت مطروحة في الطرقات بعدما نصب الوزير ـ العلقمي ـ للوزارة وصاحب الديوان لديوانه اعطى امارة الجيش لابن الدربوس وسلم ادارة الشرطة في بغداد لرجل آخر يدعى (استوبها) وبعد ذلك رحل من بغداد الى حيث يريد محفوفاً بما له من النصر . وكان السلطان قبل رحلته من بغداد وقد سير (بوقا تيمور) بحملة اخرى لاخضاع الحلة والواسط فخضعتا له وتوجه (بوقا تيمور) بعـــد ذلك نحو مدينة (تستر الأهواز) بقصد الاستيلاء عليها ورافقه شرف الدين بن الجوزي الى هنالك (١) .

واما الكوفة والبصرة فانهما اظهرتا الخضوع والطاعة بلا ادنى حرب او مقاومة.

***

ملحق الباب الثاني :

رسائل هولاكو

رسالة هولاكو الى السلطان الناصر صاحب الشام

« يعلم الملك الناصر اننا نزلنا بغـداد في سنة ست وخمسين وستمائه وفتحناها بسيف الله تعالى وأحضرنا مالكها وسألناه مسألتين فلم يجب لسؤالنا فلذلك استوجب منا العذاب كما قال في قرآنكم : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

(١) مجلة المرشد البغدادية مجلد الرابع الجزء الاول سنة ١٩٢٩ ترجمها محمد صادق الحسيني عن الاصل الفارسي الذي قام بتحقيقه رسول النخشبي ونشره في مجلة التقدم الفارسية الصادرة بطهران في عددها السابع سنة ١٩٢٨ م .

وصان المال فآل الدهر به الى ما آل واستبدل النفوس النفيسة بنقوش معدنية خسيسة وكان ذلك ظاهر قوله تعالى : وجدوا ماعملوا حاضراً . لاننا قدبلغنا بقوة الله الارادة ونحن بمعونة الله تعالى في الزيادة ولاشك أن نحن عندالله في ارضه خلقنا وسلطنا على من حل عليه غضبه فليكن لكم في ما مضى معتبر وبما ذكرناه وقلناه مزدجر فالحصون بين ايدينا لا تمنع والعساكر للقائنا لا تضر ولا تنفع ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا يسمع فاتعظوا بغيركم وسلموا الينا اموركم قبل أن ينكشف الغطاء ويحل عليكم الخطأ فنحن لا نرحم من شكا ولا ندق لمن بكى . لقد أخربنا البلاد وأضنينا البلاد وأيتمنا الأولاد وتركنا في الارض الفساد ، فعليكم بالهروب وعلينا بالطلب فما لكم من سيوفنا الخلاص ، ولامن سيوفنا مناص ، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وعقولنا كالجبال وعددنا كالرمال ، فمن طلب منا الأمان سلم ومن طلب الحرب ندم فان انتم اطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا وان انتم خالفتم أمرنا في غيكم تماديتم فلا تلومونا بل لوموا انفسكم فالله عليكم ياظالمين فهيئوا للبلايا جلبابا وللرزايا اترابا فقد اعذر من انذر وأنصف من حـــذر لانكم اكلتم الحرام وختم بالايمان واظهرتم البدع واستعنتم الفسق بالصبيان فابشروا بالذل والهوان ، فاليوم تجدون ما كنتم تعملون ، وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون . فقد ثبت عندكم اننا كفرة وثبت عندنا انكم فجرة وسلطنا عليكم من بيده الامور مقدرة ، والاحكام مدبرة فعزيزكم عندنا ذليل وغنيكم لدينا فقير ونحن مالكون الارض شرقاً وغرباً . واصحاب الاموال نهباً وسلباً وأخذنا كل سفينة غصباً فميزوا بعقولكم طرق الصواب قبل ان تضرم نارها وترمي بشرارها فلا تبقى منكم باقية ، وتبقى الارض منكم خالية فقد ايقظناكم فسارعوا الينا برد الجواب بته . قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وانتم تعلمون .

ابن العبري ـ تاريخ مختصر الدول

ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨

رسالة تكودار الى أهل بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . وإنا جلسنا على كرسي الملك ، ونحن مسلمون . فيتلقون اهل بغداد هذه البشرى ، ويعتمدون في المدارس والوقوف وجميع وجوه ما كان يعتمد في ايام الخلفاء العباسيين ، ويرجع كل ذي حق الى حقه في اوقاف المساجد والمدارس ، ولا يخرجون عن القواعد الاسلامية وانتم يا اهل بغداد مسلمون . وسمعنا عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : لا تبرح هذه العصابة الاسلامية مستظهرة الى يوم القيامة . وقد عرفنا ان هذا الخبر خبرصحيح ورسول صحيح ، ورب واحد ، أحد فرد صمد فتطيبون قلوبكم وتكتبون الى البلاد جميعها .

انظر ابن عبد الظاهر

تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور

ص ٥

***

رسالة تكودار الى السلطان قلاون

بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى ، باقبال قا ان ، فرمان احمد الى سلطان مصر : امابعد ، فان الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته قد كان ارشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة ، الى الاقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة بمحمد عليه افضل الصلوات والسلام ، بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد في اوليائه الصالحين من عباده فى بريته . « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام » فلم نزل نميل الى املاء كلمة الدين ، وإصلاح امور الاسلام والمسلمين ، الى ان أفضى بعد أبينا الجيد وأخينا الكبير نوبة الملك الينا ، فأفاض من جلابيب الطافه ولطائفه ،

ماحقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه ، وجلا هذي المملكة علينا . وأهدى عقيلتها الينا . فاجتمع عندنا في قوريلتالي المبارك - وهو المجمع الذي تنقدح فيه الآراء - جميع الاخوان والأولاد والامراء الكبار ومقدمو العساكر وزعماء البلاد . واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير ، في انقاذ الجم الغفير من عساكرنا التي ضاقت الارض برحبها من كثرتها ، وامتلأت الارض رعباً لعظيم صولتها ، وشديد بطشتهم الى تلك الجبهة ، بهمة تخضع لها شم الاطواد وعزمة تلين لها صم الصلاد . ففكرنا فيما تمخضت زبدة عزائمهم عنه . واجتمعت اهواؤهم وآراؤهم عليه . فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام ، الذي هو عبارة عن تقوية شعار الاسلام وألا يصدر عن اوامرنا - ما امكننا - إلا ما يوجب حقن الدماء ، وتسكين الدهماء ، وتجزى به في الاقطار وخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون في سائر الامصار في مهاد الشفقة والاحسان ، تعظيما لأمر الله ، ومنته على خاق الله ، ألهمنا الله تعالى - اطفاء تلك النائرة ، وتسكين الفتن الثائرة واعلام من اشار بذلك الرأي بما أرشدنا اليه : من تقديم ما يرجى به شفاء مزاج العالم من الادواء وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، واننا لا نحب المسارعة الى هذا النضال للنضال ، إلا بعد ايضاح المحجة ، ولا نأذن لها إلا بعد تبين الحق وتركيب الحجة وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح . وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح . اذ كان شيخ الاسلام قدوة العارفين كمال الدين ، عبدالرحمن الذي هو نعم العون لنا في امور الدين فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه . ونقمة على من اعرض عنه وعصاه وانفذنا اقضى القضاء قطب الملة والدين ، والأتابك بهاء الدين اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ليعرفاهم طريقتنا .

ويتحقق عندهم ما تنطوي عليه لعموم المسلمين جميلة نيتنا . ويبينا لهم أننا من الله على بصيرة ، وان الاسلام يجب ماقبله ، وانه تعالى القى في قلبنا ان نتبع الحق واهله

ويشاهدون عظيم نعمة الله على الكافة بما دعانا اليه : من تقديم اسباب الاحسان ، ولا يحرموها بالنظر الى سالف الاحوال فكل يوم هو في شأن . فان تطلعت نفوسهم الى دليل تستحكم بسببه دواعي الاعتماد ، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد ، فينظروا الى ما ظهر من مآثرنا ، مما اشتهر خبرة ، وعم أثره فاننا ابتدأنا ـ بتوفيق الله تعالى ـ باعلاء اعلام الدين وإظهاره ، في ايراد كل أمر وإصداره تقديماً ، وإقامة نواميس الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي إجلالا وتعظيما . وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور وعفونا عن كل من اجترح سيئة او اقترف ، وقابلناه بالصفح وقلنا عفا الله عما سلف وتقدمنا باصلاح امور اوقاف المسلمين من المساجد والمدارس ، وعمارة بقاع البر والربط الدوارس ، وإيصال معالمها بموجب عوائدها القديمة الى مستحقيها لشروط واقفيها ومنعنا أن يلتمس شيء مما استحدث عليها ، وألا يغير أحد مما قرر أولا فيها . وأمرنا بتعظيم أمر الحاج وتجهيز وفدها ، وتأمين سبلها وتسيير قوافلها . وأنا أطلقنا سبيل التجار المترددين الى تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على احسن قواعدهم ، وحرمنا على العساكر والقراغول والشحاني في الاطراف التعرض بهم في مصادرهم ومواردهم ، وقد كان صادف قراغولنا جاسوساً في زي الفقراء كان سبيل مثله أن يهلك ، فلم يهرق دمه لحرمة ما حرمه الله تعالى ، وأعدناه اليهم ولا يخفى عنهم ما كان في انفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين ، فان عساكرنا طالما رأوهم فى زي الفقراء والنساك وأهل الصلاح فساءت ظنونهم في تلك الطوائف ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وفعلوا بهم ما فعلوا ، وارتفعت الحاجة بحمد الله تعالى الى ذلك بما صدر أذنا به من فتح الطريق وتردد التجار وغيرهم فاذا أمعنوا الفكر في هذه الامور وأمثالها لا يخفى عنهم انها اخلاق جبلية طبيعية وعن شوائب التكلف والتصنع عرية وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي الحضرة التي كانت موجبة المخالفة ، فانها كانت بطريق الدين ، والذب عن حوزة المسلمين : فقد ظهر بفضل الله تعالى في

دولتنا النور المبين وان كانت لما سبق من الأسباب فمن تحرى الآن طريق الصواب ، فان له عندنا الزلفى وحسن مآب . وقد رفعنا الحجاب ، وأتينا بفصل الخطاب وعرفناهم ما عزمنا عليه بنية خالصة لله تعالى على استئنافها ، وحرمنا على جميع عساكرنا العمل بخلافها ، لنرضي بها الله والرسول ، وتلوح على صفحاتها آثار الاقبال والقبول . وتستريح من اختلاف الكلمة هـذه الامة ، وتنجلي بنور الائتلاف ظلمة الاختلاف والغمة . فتسكن في سابغ ظلها البوادي والحواضر ، وتقر القلوب التي بلغت من الجهد الحناجر ، وبعض عن سالف الهنات والجرائر ، فان رفق الله سلطان مصر لاختيار ما فيه صلاح العالم ، وانتظام امور بني آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى ، وسلوك الطريقة المثلى بفتح ابواب الطاعة والاتحاد ، وبذل الاخلاص بحيث تعمر تلك الممالك والبلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة ، وتضمد السيوف الباترة ، وتحمل الكانة ارض الهوينى وروضى الهدون وتخلص رقاب المسلمين من اغلال الذل والهون وان غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة ، ومنع عن معرفة قدر هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا وابلى عـذرنا ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، والله الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيمن على البلاد والعباد ، وحسبنا الله وحده .

تشريف الأيام والعصور

ص ٦ ـ ١٠

* * *

جواب قلاون إلى تكودار

بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى باقبال دولة السلطان الملك المنصور : كلام قلاون الى السلطان احمد :

اما بعد حمـد الله الذي اوضح بنا ولنا للحق منهاجا ، وجاء بنا فجاء نصر الله

والفتح ودخل الناس في دين الله افواجا ، والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذي فضله الله على كل نبي ، فجيء به امته ، وعلى كل نبي ناجي ، صلاة تنير ما دجا وتنير من داجي . وفقد وصل الكتاب الكريم المتلقى بالتكريم ، المشتمل على النبأ العظيم ، من دخوله في الدين ، وخروجه عمن خلف من العشيرة والاقربين . ولما فتح هذا الكتاب فاح بهذا الخبر للمعلم المعلم . والحديث الذي صحح اهل الاسلام اسلامه ، وأصح الحديث ما روي عن مسلم . وتوجهت الوجوه بالدعاء الى الله سبحانه في ان يثبته على ذلك بالقول الثابت ، وان ينبت حب هـــذا الدين في قلبه كما انبت احسن النبت من اخشن المنابت .

وحصل التأمل للفصل المبتدأ بذكره من حديث اخلاصه النية في اول العمر ، وعنفوان الصبا الى الاقرار بالوحدانية ، ودخوله في الملة المحمدية ، بالقول والعمل والنية ، فالحمد لله على أن شرح صدره للاسلام ، وألهمه شريف هذا الالهام ، كحمدنا لله على أن جعلنا من السابقين الاولين الى هذا المقال والمقام ، وثبت أقدامنا في كل موقف اجتهاد وجهاد تتزلزل دونه الأقدام ، واما افضاء النوبة في الملك وميراثه بعد والده وأخيه الكبير اليه ، وافاضة جلابيب هذه المواهب العظيمة عليه ، وتوقله الاسرة التي طهرها إيمانه وأظهرها سلطانه فلقد اورثها الله من اصطفاه من عباده ، وصدق المبشرات له من كرامة أولياء الله وعباده ، واما حكاية اجتماع الاخوان والأولاد والأمراء الكبار ومقدمي العساكر وزعماء البلاد في مجمع قوريلتاي الذي تتقدم فيه زبدة الآراء ، وان كلمتهم قد اتفقت على ما سبقت به كلمة اخيه الـكبير في انفاذ العساكر الى هذا الجانب ، وانه فكر فيما اجتمعت عليه آراؤهم ، وانتهت اليه اهواؤهم فوجده مخالفاً لما فى ضميره ، إذ قصده الصلاح ورأيه الاصلاح ، وانه أطفأ تلك النائرة وسكن تلك الثائرة فهذا فعل الملك المتقي ، المشفق من قومه على من بقي ، المفكر في العواقب ، بالرأي الثاقب ، وإلا فلو تركوا وآراءهم حتى تحملهم العزة ، لكانت

تكون هذه الكرة هي الكرة ، لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، ولم يوافق قول من خبل ولا فعل من غوى . واما القول منه : انه لا يحب المسارعة الى المقارعة إلا بعد ايضاح المحجة ، وتركيب الحجة ، فبانتظامه في سلك الايمان صارت حجتنا وحجته المتركبة . على من غدت طواعيته عن سلوك هذه المحجة متنكبة فان الله تعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا انما هو لنصرة هـــذه الملة وجهادنا واجتهادنا انما هو على الحقيقة لله . وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذحول . وبارتفاع المنافرة تحصل المضافرة ، فالايمان كالبنيان يشد بعضه ببعض ومن اقام منارة ملة اهل بأهله في كل مكان وجيران بجيران في كل ارض ، واما ما ترتب هذه القواعد الجمة على اذكار شيخ الاسلام ، قدوة العارفين كمال الدين عبدالرحمن - اعاد الله من بركاته - فلم تزل ولي قبله كرامة كهذه الكرامة والرجاء ببركته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار للاسلام دار اقامة ، حتى تتم شرائط الايمان ، ويعود شمل الاسلام مجتمعاً كأحسن مما كان . ولا ينكر لمن الكرامته ابتداء هذا التمكن في الوجود . ان كل حق ببركته الى نصابه يعود .

واما نفاذ اقضى القضاة قطب الملة والدين والأتابك بهاء الدين الموثوق بنقاهما في ابلاغ رسائل هذه البلاغة ، فقد حضرا واعادا كل قول حسنٍ من حوالي احواله وخطرات خاطرة ومنتظرات ناظرة . ومن كل ما يشكر ويحمد ، ويضمن حديثهما فيه عن مسند احمد .

واما الاشارة الى النفوس ان كانت لها تطلع الى اقامـة دليل ، تستحكم بسببه دواعي الود الجميل فلينظر الى ما ظهر من مآثره ، في موارد الأمر ومصادره ، ومن العدل والاحسان بالقلب واللسان ، والتقدم . باصلاح الأوقاف والمساجد والربط وتسبيل السبل للحج الى غير ذلك . فهذه صفات من يريد للملكه الدوام . فلما ملك عدل ولم يمل الى لؤم من عدا ولا لوم من عذل . على انها وان كانت من الافعال الحسنة

والمثوبات التي تستنطق بالدعاء الألسنة فهي واجبات تؤدى ، وقربات يمثلها يبدى ، وهو اكبر من أنه باجراء أجر غيره يفتخروا عليه يقتصر ، او له يدخر . بل اذا تفخر الملوك الأكابر برد ممالك على ملوكها ونظمها على ما كانت عليه في سلوكها . وقد كان والده فعل شيئاً مع الملوك السلجوقية وغيرهم وما كان احد منهم يدينه بدين ، ولا دخل معه فى دين . وأقرهم فى ملكهم وما زحزحهم عن ملكهم ويجب عليه ألا يرى حقاً مغتصباً ويأبى إلا رده ، ولا باغاً ممتداً بالظلم ويرضى إلا صده . حتى ان اسباب ملكه تقوى ، وأيامه تتزين بامثال التقوى .

واما تحريعه على العساكر والقراغولات والشحاني بالأطراف التعرض الى أحد بالأذى واصفاً موارد الواردين والصادرين من شوائب القذى فمن حين بلغنا تقدمه بمثل ذلك تقدمنا ايضاً بمثله الى سائر نوابنا بالرحبة والبيرة وعينتاب والى مقدمي العساكر بأطراف تلك الممالك واذا اتحد الايمان وانعقدت الايمان تحتم هذا الأحكام وترتب عليه جميع الاحكام .

واما الجاسوس الفقير الذي أمسك وأطلق وان بسبب من تزيا من الجواسيس بزي الفقراء قتل جماعة من الفقراء الصلحاء رجماً بالظن فهذا باب من تلقاء ذلك الجانب كان فتحه ، وزند من ذلك الطرف كان قدحه ، وكم من قذى بفقير من ذلك الجانب سيره والى الاطلاع على الامور سوده . وأظفر الله منهم بجماعة كبيرة فرفع عنهم السيف ، ولم يكشف ماغطوه بخرقة الفقر بلم ولا كيف . واما الاشارة الى ان باتفاق الكلمة تنجلي ظلم الاختلاف ، وتريها من الخيرات الاخلاف ، ويكون بها صلاح العالم ، وانتظام شمل بني آدم ، فلا راد لمن فتح أبواب الاتحاد وجنح الى السلم وما جاد ولا حاد ومن ثنى عنانه عن المكافحة كان كمن مد يد المصالحة . والصلح وان كان سيد الأحكام فلابد من امور تبنى عليه قواعده ، ويعلم من مدلوله فوائده . فالامور المسطورة في كتابه هي كليات لازمة يعمر بها كل مغن ومعلم ، ان تهيأ

صلح او لم . وثم امور لابد وان تحكم ، وفي سلكها عقود العهود تنظم . قد تحملها بلسان المشافهة التي اذا أوردت أقبلت إن شاء الله عليها النفوس ، وأحرزتها صدور الرسائل كأحسن ما تحرزه سطور الطروس . واما الاشارة الى الاستشهاد بقوله تعالى: « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » فما على هذا النسق من الود تنسج ولا على هذا السبيل ينهج بل لفضل المتقدم في الدين ونصرة عهود ترعى وافادات تستدعى . ولما برح الفضل للأولوية وان تناهى العدد للواحد الأول ، ولو تأمل مورد هـذه الآية في غير مكانها لتروى وتؤول .

وعندما انتهينا الى جواب ما لعله يجب عنه الجواب من فصول الكتاب ، سمعنا المشافهة التي على لسان اقضى القضاء قطب الدين فكان منها ما يناسب ما في هـذا الكتاب من دخوله في الدين ، وانتظام عقده بسلك المؤمنين وما بسطه من معدله وإحسان مشكوره بلسان كل انسان فالمنة لله عليه في ذلك فلا يبثها منه بامتنان وقد انزل الله على رسوله في حق من امتن باسلامه « قل لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان » .

ومن المشافهة ان الله قد اعطاه من العطاء ، ما اغناه عن امتداد الطرف الى ما في يد غيره من ارض وماء ، فان حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمر حاصل . فالجواب ان ثم اموراً متى حصلت عليها الموافقة ، ابتنى على ذلك حكم المصاحبة والمصادقة ورأى الله والناس كيف يكون تصافينا ، وإذلال عدونا وإعزاز مصافينا فكم من صاحب وجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة ، وما تم أمر هذا الدين واستحكم في صدر الاسلام إلا بمضافرة الصحابة . فان كانت له رغبة معروفة الى الاتحاد وحسن الوداد ، وجميل الاعتضاد ، وكبت الاعداء والأضداد والاستناد الى من يشتد الأمر به عند الاستناد فالرأي اليه في ذلك .

ومن المشافهة انه ان كانت الرغبة ممتدة الأمل الى ما في يده من ارض وماء

فلا حاجة الى انفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود . فالجواب عن ذلك أنه اذا كف العدوان وترك المسلمين وما لهم من ممالك سكنت الدهماء وحقنت الدماء وما أحقه بأن لا ينهى عن خلق ويأتي فعله ، ولا يأمر ببر وينسى فعله ، وقد نفر لحاي بالروم ، وهي بلاد في ايديكم ، وخراجها يجبى اليكم ، وقد سفك فيها وقتل وسبى وهتك وباع الأحرار ، وأبى إلا التمادي على الاضرار والاصرار .

ومن المشافهة انه حصل التصميم على أن لا تبطل هذه الغارات ولا تفتر عن هذه الاثارات ، فيعين مكاناً يكون فيه اللقاء ، ويعطي الله النصر لمن يشاء ، فالجواب عن ذلك ان الأماكن التي اتفق فيها ملتقى الجمعين مرة ومرة قد عان موارد‌ها من سلم من اولئك القوم ، وخاف ان يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم . فوقت اللقاء علمه عند الله فلا يقدر وما النصر إلا من عند الله لمن اقدر لا لمن قدر ولا نحن ممن ينتظر فلتة ، ولا ممن له الى غير ذلك لفتة وأمر ساعة النصر إلا كالساعة لا تأتي إلا بغتة . والله الموفق لما فيه صلاح هذه الامة والقادر على اتمام كل خير ونعمة .

تشريف الأيام والعصور

ص ١٠ ـ ١٦

***

رسالة تكودار الثانية الى قلاون

بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى باقبال :

قا آن . فرمان احمد . الى سلطان مصر . اما بعد فالذي يجب على العاقل بذل الجهد وترك الاهمال والتواني ، واستنفاد الوسع في اقتناء الذكر الباقي هو العمر الثاني وقد انحصر الثناء الجميل والثواب الجزيل في التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، واستعمال العدل والنصفة المندوب اليها . وأي عدل ونصفة اعظم قدراً ، وأعلى ذكرا في سائر الاصقاع والممالك من إنقاذ الأنفس بجريعة الذقن من المهالك وإطفاء نائرة

اكباد حرى ، وقلوب جرحى . ومن أحياها فكأنما أحيا ولم لم يكن لنا بفضل الله العظيم ، وإحسانه الجسيم ، افتقار ولا بقية ، ولم يبق في ضميرنا إرادة ولا منية ، سوى رفاهية العالم ، وطمأنينة بني آدم خصوصاً الطائفة الاسلامية ، واهل الملة الحنفية انفذنا الابلجية الى اخواننا ، نوقاي اقا وتودامنكو وغيرهما ، ونبهناهم على ان الملك العقيم الذي ادخره لنا جدنا جنكيزخان وآباؤنا الكرام بعد الصبر على المشقة في تحصيله والمقاساة وتحمل أعباء الشدائد والمعاناة ، بمجرد النزاع والخصام وخلاف الوفاق واختلاف الكلام قد أشرف على شحوب بهجته وبهائه ، وتكدير رونق صفاء مائه . والآن آن ان نستبدل وحشة النزاع بأنس الصلح ونتعرض عن غيهب ليلة النفار والنقار تباشير الصبح وتغمد السيوف البواتر التي استلت من الأغماد ' وبعض أثر الهرج والمرج وتمرض عن الاعراض والاحقاد ويتفق الجميع على القيام بواجب كوقان وخدمته ، والالتزام بواجب طاعته والاشتمال على ما ينوط بمصلحته وحيث تأملوا ذلك بعين البصيرة ، ورأى من حنكة دوران الفلك والتجربة تبين لهم ان هذا الرأي محض شور لا يشوبه غش ولامداهنة ، وخالص تنبيه لايغادره ، سوى زبدة المناصحة فقالوا : ان الذي وقع من الخلاف كان بين من قضى نحبه من الآباء والاسلاف ولم تجر بيننا مخاشنة ، ولا وقع خلف ولا مشاحنة فعدنا الى ما كان عليه آباؤنا القدماء الكرام ' من الاتفاق والائتلاف وحفظ العهد والذمام والتزمنا أن لا ينحل عقد هذا النظام . والله الموفق للرشاد ، والهادي الى السداد ، ولما يفرغ البال من اصلاح ذات البين ، واستحكمت مرائر الائتلاف بين الجهتين ، انفذنا الابلجية بعد النية الخالصة لله وللرسول تسكناً للفتن الثائرة وإطفاء للهيب تلك النائرة ، وحقناً لدماء المسلمين ، وسداً لثلمة الدين . فكانت خلاصة جوابه وزبدة خطابه عند وقوفه على ما كتب به اليه انه لو انفذ ابونا شيخ الاسلام قدوة العارفين كمال الدين عبدالرحمن لكنت اسكن الى امانته واخلد الى ديانته واسمع منه ما لم يحتمل ايداعه الكتب واشافهه بما عندي

من المصالح واخاطبه بما ينطوي عليه ضميري للمسلمين من النصائح . هذا وغير خاف انه يعز علينا إبعاده ، ويوحشنا بينه وفراقه . وربما اتصل به ما نستفيده من حسن معاشرته ، وجميل مصاحبته اسعافاً لمقترحه ، وجعلناه في اتخاذ العهد واليمين ، بدلا عن شمالنا واليمين ، ولم يكن بين كلامنا وكلامه بون ، اذ هو لنا في امور الدين عم العرين والتزمنا بكل ما عساه يسنده الينا ، وبما يرى ثقة بأنه الناصح الذي لا ينطق عن الهوى وربما شرذمة من الجهال (من الجهتين) من اهل الشقاق والنفاق ، لا تجتمع كلمتهم على الوفاق ، تنافي طباعهم الصلح والاتفاق ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ، لاختلاف ملتهم وطمعاً في ادراك بغيتهم . فالواجب ألا تسمع اقوالهم وتترك افعالهم . اولئك الذين حبطت اعمالهم ، ومن المعلوم ان كل أمر يمكن اعتماده على الوجه الجميل ، بحيث تنحسم فيه مواد القال والقيل ، لا ينبغي أن تكون الحال فيه بالضد ، خصوصاً في الخطب الألد والأمر الجد .

« الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله » وكتب في اوائل ربيع الاول سنة اثنين وثمانين وستمائة بمقام تبريز .

والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

تشريف الايام والعصور

ص ٦٩ ـ ٧١

* * *

رسالة غازان إلى الناصر

بسم الله الرحمن الرحيم

وننهي بعد السلام اليه ان الله عز وجل جعلنا وإياكم اهل ملة واحدة وشرفنا بدين الاسلام وأيدنا ، وندبنا لاقامة مناره وسددنا ، وكان بيننا وبينكم ما كان بقضاء

الله وقدره ، وما كان ذلك إلا بما كسبت ايديكم ، وما الله بظلام للعبيد ! وسبب ذلك ان بعض عساكركم اغاروا على ماردين وبلادها في شهر رمضان المعظم قدره ، الذي لم تزل الامم يعظمونه في سائر الاقطار وفيه تغل الشياطين وتغلق ابواب النيران فطرقوا البلاد على حين غفلة من اهلها وقتلوا وسبوا وفسقوا وهتكوا محارم الله بسرعة في غير مهلة ، وأكلوا الحرام وارتكبوا الآثام وفعلوا ما لم تفعله عباد الأصنام ، فأتونا أهل ماردين صارخين مسارعين ملهوفين مستغيثين بالأطفال والحريم ، وقد استولى عليهم الشقاء بعد النعيم ، فلاذوا بجنابنا وتعلقوا بأسبابنا ، ووقفوا موقف المستجير الخائف ببابنا ، فهزتنا نخوه الكرام ، وحركتنا حمية الاسلام ، فركبنا على الفور بمن كان معنا ولم يسعنا بعد هذا المقام ، ودخلنا البلاد وقدمنا النية ، وعاهدنا الله تعالى على ما يرضيه عند بلوغ الامنية ، وعلمنا ان الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر بأن يسعوا فى الارض فساداً « والله لا يحب الفساد » وانه يغضب لهتك الحريم وسبي الأولاد فما كان إلا ان لقيناكم بنية صادقة ، وقلوب على الحمية للدين موافقة ، فمزقناكم كل ممزق ، والذي ساقنا اليكم ، هوالذي نصرنا عليكم ، وما كان مثلكم إلا كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة ، الآية . فوليتم الأدبار ، واعتصمتم من سيوفنا بالفرار ، فعفونا عنكم بعد اقتدار ، ودفعنا عنكم حكم السيف البتار وتقدمنا الى جيوشنا ألا يسعوا في الارض كما سعيتم وان ينشروا من العفو والعفاف ماطويتم ولوقدرتم ماعفوتم ولاعففتم ولم نقلدكم منة بذلك ، بل حكم الاسلام في قتال البغاة كذلك ، وكان جميع ما جرى في سالف القدم ، ومن قبل كونه جرى به في اللوح القلم ، ثم لما رأينا الرعية تضرروا بمقامنا في الشام لمشاركتنا لهم فى الشراب والطعام ، وما حصل في قلوب الرعية من الرعب ، عند معاينة جيوشنا التي هي كمطبقات السحب ، فأردنا ان نسكن تخوفهم بعودتنا من ارضهم بالنصر والتأييد ، والعلو والمزيد ، فتركنا عندهم بعض جيوشنا بحيث تتوانس بهم ، وتعود في أمرها اليهم ، ويحرسونهم من تعدي بعضهم على بعض ، بحيث انكم

ضاقت بكم الارض ، الى ان يستقر جأشكم ، وتبصروا رشدكم ، وتسيروا الى الشام من يحفظه من اعدائكم المتقدمين واكرادكم المتمردين ، وتقدمنا الى مقدمي طوامين جيوشنا انهم متى سمعوا بقدوم أحد منكم الى الشام ان يعودوا الينا بسلام ، فعادوا الينا بالنصر المبين ، والحمد لله رب العالمين . والآن فأنا وإياكم لم نزل على كلمة الاسلام مجتمعين ، وما بيننا ما يفرق كلمتنا إلا ما كان من فعلكم بأهل ماردين ، وقد أخذنا منكم القصاص ، وهو جزاء كل عاص ، فنرجع الآن فى اصلاح الرعايا ، ونجتهد نحن وإياكم على العدل في سائر القضايا فقد انضرت بيننا وبينكم حال البلاد وسكانها ، ومنعها الخوف من القرار في اوطانها ، وتعذر سفر التجار ، وتوقف حال المعايش لانقطاع البضائع والاسفار ، ونحن نعلم أننا نسأل عن ذلك ونحاسب عليه وان الله عز وجل لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء ، وان جميع ما كان وما يكون في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وانت تعلم ايها الملك الجليل انني وانت مطالبون بالحقير والجليل واننا مسؤولون عما جناه ، أقل من وليناه ، وان مصيرنا الى الله وانا معتقدون الاسلام قولا وعملا « ونية ، عاملون بفروضه في كل وصية » وقد حملنا قاضي القضاة علامة الوقت حجة الاسلام بقية السلف كمال الدين موسى بن محمد ابا عبدالله ، أعزه الله تعالى ، مشافهة يعيدها على سمع الملك والعمدة عليها ، فاذا عاد من الملك الجواب فليسير لنا هدية الديار المصرية ، لنعلم بارسالها أن قد حصل منكم في اجابتنا للصلح صدق النية ، ونهدي اليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه اليكم .

والسلام الطيب منا عليكم . ان شاء الله تعالى .

النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٣٦ ـ ١٣٩

***

جواب الناصر على رسالة غازان

بسم الله الرحمن الرحيم :

علمنا ما اشار الملك اليه ، وعول فى قوله (وفعله) عليه ، فأما قول الملك : قد جمعتنا واياكم كلمة الاسلام ، وانه لم يطرق بلادنا ولا قصدها إلا لما سبق به القضاء المحتوم ، فهذا الأمر غير مجهول (بل) هو عندنا معلوم ، وان السبب في ذلك غارة بعض جيوشنا على ماردين ، وانهم قتلوا وسبوا وهتكوا الحرم وفعلوا فعل من لا له دين ، فالملك يعلم ان غارتنا ما برحت في بلادكم ، مستمرة من عهد آبائكم واجدادكم وان من فعل ما فعل من الفساد لم يكن برأينا ولا من امرائنا ولا الأجناد ، بل من الاطراف الطامعة ممن لا يؤبه اليه ، ويعول فى فعل ولا قول عليه ، وان معظم جيشنا كان في تلك الغارة اذا لم يجدوا ما يشترونه للقوت صاموا لئلا يأكلوا ما فيه شبهة او حرام ، وانهم اكثر ليلهم سجد ونهارهم صيام .

وأما قول الملك ابن الملك الذي هو من اعظم القان فيقول قولا يقع عليه الرد من قريب ، ويزعم ان جميع ماهو عليه من علمنا ساعة واحدة يغيب ، ولو يعلم انه لو تقلب في مضجعه من جانب الى جانب ، او خرج من منزله راجلا او راكباً ، كان عندنا علم من ذلك في الوقت القريب ، « ويتحقق أن اقرب بطائنه اليه ، هو العين لنا عليه ، وان كثر ذلك لديه » ونحن تحققنا ان الملك بقى عامين يجمع الجموع ، وينتصر بالتابع والمتبوع ، وحشد وجمع من كل بلد واعتضد بالنصارى والكرج والأرمن ، واستنجد بكل من ركب فرساً من فصيح والكن ، وطلب من المسومات خيولا وركاب ، وكثر سواداً وعدد طلاب ، ثم انه لما رأى انه ليس له بجيشنا قبل في المجال ، عاد الي قول الزور والمحال ، والخديعة والاحتيال ، وتظاهر بدين الاسلام ، واشتهر به في الخاص والعام ، والباطن بخلاف ذلك ، حتى ظن جيوشنا وابطالنا ان

الأمر كذلك ، فلما (التقينا معه) كان معظم جيشنا يمتنع من قتاله ، ويبعد عن نزاله ويقول : لا يجوز لنا قتال المسلمين ، ولا يحل قتل من يتظاهر بهذا الدين ، فلهذا حصل منهم الفشل ، وبتأخرهم عن قتالكم حصل ما حصل ، وانت تعلم ان الدائرة كانت عليك . وليس يرى من اصحابك إلا من هو نادم او باكي ، او فاقد عزيز عنده او شاكي ، والحرب سجال يوم لك ، ويوم عليك ، وليس ذلك مما تعاب به الجيوش ولا تقهر ، وهذا بقضاء الله وقدره المقدر .

واما قول الملك انه لما التقى بجيشنا مزقهم كل ممزق ، فمثل هذا القول ما كان يليق بالملك ان يقوله ، ويتكلم به ، وهو يعلم وان كان ما رأى بل يسأل كبراء دولته وأمراء عساكره عن وقائع جيوشنا ومراتع سيوفنا في رقاب آبائه وأجداده وهي الى الآن تقطر من دمائهم ، وان كنت نصرت مرة فقد كسرت آباؤك مراراً ، وان كان جيشك قد داس ارضنا مرة فبلادكم لغارتنا مقام ولجيوشنا قرار وكما تدين تدان .

وما قول الملك : انه ومن معه اعتقدوا الاسلام قولا وفعلا وعملا ونية ، فهذا الذي فعلته ما فعله من هو متوجه الى هذه البنية ، اعني الكعبة المضية فان الذي جرى بظاهر دمشق وجبل الصالحية ليس بخفي عنك ولا مكتوم ، وليس هذا هو فعل المسلمين ولا من هو متمسك بهذا الدين ، فأين وكيف وما الحجة ، وحرم البيت المقدس تشرب فيه الخمور ، وتهتك الستور ، وتفتض البكور ، ويقتل فيه المجاورون ، ويتأسر خطباؤه (والمؤذنون) ثم على رأس خليل الرحمن ، تعلق الصلبان ، وتهتك النسوان ، ويدخل فيه الكافر سكران ، فان كان هذا عن علمك ورضاك ، فوا خيبتك في دنياك وآخراك ويا ويلك في مبدئك ومعادك ، وعن قليل يؤذن بخراب عمرك وبلادك ، وهلاك جيشك وأجنادك ، وان كنت لم تعلم بذلك فقد اعلمناك فاستدرك ما فات فليس مطلوباً من سواك ، وان كنت كما زعمت انك على دين الاسلام وانت في قولك صادق في الكلام ، وفي عقدك صحيح النظام ، فاقتل الطوامين الذين فعلوا هذه الفعالي ،

وأوقع بهم أعظم النكال ، لنعلم انك على بيضاء المحجة ، وكان فعلك وقولك أبلغ حجة ، ولما وصلت جيوشنا الى القاهرة المحروسة وتحققوا انكم تظاهرتم بكلمة الاخلاص وخدعتم باليمين والايمان ، وانتصرتم على قتالهم بعبدة الصلبان ، اجتمعوا وتأهبوا وخرجوا بعزمات محمدية وقلوب بدرية ، وهمم علية ، عند الله مرضية ، وحدوا السير في البلاد ، يتشفوا منكم غليل الصدور والأكباد ، فما وسع جيشكم إلا الفرار وما كان لهم على اللقاء صبر ولا قرار ، فاندفعت عساكرنا المنصورة مثل امواج البحر الزخار الى الشام ، يقصدون دخول بلادكم ليظفروا بنيل المرام ، فخشينا على رعيتكم تهلك ، وانتم تهربون ولا تجدون الى النجاة مسلك ، فأمرناهم بالمقام ولزوم الأهبة والاهتمام ، ليقضي الله أمراً كان مفعولا .

واما ما تحمله قاضي القضاة من المشافهة ، فانا سمعناه ووعيناه وتحققنا تضمنته مشافهة ونحن نعلم علمه ونسكه ودينه وفضله المشهور ، وزهده في دار الغرور ، ولكن قاضي القضاة غريب عنكم بعيد منكم ، لم يطلع على بواطن قضاياكم واموركم ، ولا يكاد يظهر له خفي مستوركم ، فان كنتم تريدون الصلح والاصلاح وبواطنكم كظواهركم متتابعة في الصلاح ، وانت أيها الملك طالب الصلح على التحقيق وليس في قولك مين ولا يشوبه تنميق ، فنحن نقلدك (سيف) البغي ، ومن سل سيف البغي قتل به ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فيرسل الينا من خواص دولتك رجل يكون منكم ممن اذا قطع بأمر وقفتم عنه ، او فصل حكماً انتهيتم اليه او جزم أمراً عولتم عليه ، يكون له في اول دولتكم حكم وتمكين ، وهو فيما يعول عليه ثقة امين لنتكلم معه فيما فيه الصلاح لذات البين ، وان لم يكن كذلك عاد بخفي حنين .

واما ما طلبه الملك من الهدية من الديار المصرية فليس نبخل عليه ومقداره عندنا أجل مقدار وجميع ما يهدى اليه دون قدره ، وانما الواجب أن يهدى أولا من استهدى ، لتقابل هديته بأضعافها ، ونتحقق صدق نيته واخلاص سريرته ، ونفعل

ما يكون فيه رضا الله عز وجل ورضا رسوله في الدنيا والآخرة ولعل صفقتنا رابحة في معادنا غير خاسرة والله تعالى الموفق للصواب . انتهى .

ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٢ ـ ١٤٦

***

رسالة الناصر الثانية الى غازان في أعقاب هزيمته في مرج الصفر

الحمد لله على ما جدد لنا من النعمة التامة وسمح به من الكرامة العامة ، حين اعاد البدر الى كماله والسرور الى أتم احواله وبعد ، فليعلم الملك الجليل محمود ، جامع الجيوش وحاشد الجنود ، انه تظاهر بدين الاسلام واشتهر ذلك بين الأنام وتظاهر بالباطل وللحق ستر ، ثم فعل ما قدره الله عز وجل وما حكم به القدر فحملنا ذلك على انه من ربنا تقدير وأن ليس لأحد مما أراد الله نذير ، فما لبث الملك إلا ايسر مدة ، ثم ارسل رسله الينا مجدة يطلب الصلح ويحض عليه ، ويذكر الاسلام ويندب اليه ، ويزعم انه ليس يختار الفساد في الارض وان الواجب علينا وعليه اصلاح ذات البين ، وان ذلك فرض ، فعلمنا مقصوده في مقاله ، ويستره منا بستر صلح يلوح لنا وجه البدر من خلاله ، فأكرمنا رسله اكراماً يليق بجميل فعالنا ، وسمعنا رسالتهم وجاوبناهم على مقتضى حالهم لا على حالنا وأعدناهم اليه ، وقلدناه ما كان مضمراً عليه فعاد رسوله يطلب منا رسولا يسمع كلامه ولم يخف عنه مقصده ولاحرامه ، فأرسلنا اليه ما طلب فما كان إلا عند وصول رسلنا اليه ، جهز عسكره وأظهر من القدر ما كان مضمراً عليه ، وحرضهم بما عاد وباله عليهم ربما رأوه حاضر لديهم ، ثم تعدوا وعدى بهم الفرات وجهزهم ورجع وما علم ان السلامة من ورائه فما كان إلا أن دخلوا البلاد وعملوا ما أمرهم به من الفساد ، وتفرقت جيوشهم في الأوساط والاطراف وقطعوا ايدي الاشجار وأرجل الزرع من خلاف ، ونزلوا بالغرب من حلب وشنوا من الغارات

وجدوا في الطلب ، وجيوشنا الشامية له بالمرصاد ، وقد اخلصوا لله عز وجل وقدموا نية الجهاد ، ونحن نتقدم اليوم في كل وقت وأوان أن يظهروا لهم الضعف والتأخير ليتوسطوا البلاد ويقع هناك التدبير فأعاد منهم طومانين الى القريتين ، فتجهز من جيشنا اليهم الفان ، فوجدوهم قد اخذوا غنائم التركمان ، فوافوهم بالقرب من عرض فكانوا كفرسي رهان ، فمالبثوا الباغين إلا ساعة من النهار وعجل الله بأرواحهم الى النار وبقيت أجسامهم ملقاة بأرض عرض الى يوم العرض ... واخذوا منهم اسارى ، ارمن وكرج ونصارى ثم ساروا وهم طالبين الغوطة ولم يعلموا ان من حولها رماحاً مركوزة وجياداً مربوطة . . فلما عاينوا دمشق ظنوا انهم يدخلون يأسرون . . . فعبدوا عليها وطلعوا على جبل يعرف بالمانع وتأملوا جيوشنا فأخذهم الرعب في قلوبهم بالجامع .... فلم تغب الشمس حتى فرشنا بهم اديم الارض والوعر والسهل ، والتجأ من بقي منهم الى جبل ليعصمهم من القتل .. ونادى لسان حالهم ، وقد قصرت آمالهم ، اعتقنا ايها الملك الرحيم ، واعف عنا في هذا الشهر العظيم ، فانا جميعاً مسلمون ... فأمرنا جيوشنا ان يفتحوا لهم باباً ليذهبوا .... ففروا فر الشاة من الأسد ولم يلتفت منهم والد على ولد ، فلو رأيت ايها الملك ذلك اليوم لبقيت زماناً مرعوباً في النوم ولم تلق من اصحابك إلا قتيلا وأسيراً ...

فبادر أيها الملك الى حمد الله تعالى الذي لم تر بعينك الخطب الجسيم .. وقد نصحتك أيها الملك فما ارعويت .... فمن أجل ذلك صار كل حي من جيشك ميت . فبدل الميل بالايمان ودع ما سول لك الشيطان ... وانت تزعم أن الاسلام معك وبه تدين ، نقف نحن وانت على الكتاب المبين ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، ونخرج نحن وانت من بغداد والعراق ، ونعيدها الى خليفة رسول الله بالاطلاق ، ونتبع نحن وأنت اوامره ... ومن يفعل غير ذلك فعليه اللعنة الى يوم الدين ، وان سولت لك نفسك خلاف ذلك ، فأنت لا محالة هالك ، وعن قريب يخلو منك العراق والعجم ،

وتبدل وجودك بالعدم ، فقد أوضحنا لك الحق فلا تميل ، وهديناك الى اقدم السبيل ثم نتقدم بارسال رسلنا المسيرة اليك في أتم الكرامة وتسير معهم من يوصلهم الى الشام في أتم السلامة وترحل فيمن بقي من جيشك الى خراسان ، ودع ما سول لك الشيطان فقد بلغنا ان خيلك ورجالك تعبر الديار المصرية ، فقد صدقوا في القول لكن غلطوا في القضية ، اما الخيل فقـد عبرت مجنونة ، وأما الرجال ففي رقابهم طبول وبأيديهم السناجق مقلوبة ، فاختر لنفسك ، اما الدخول الى خراسان سريعاً واما الخروج عن الروم والعراق جميعاً ، وعن قريب تأتيك بجيوشنا تميل بجنبي الارض وتزحف ، وتروى مايهولك ولوعلى قعود تزحف ، وقد أعذر من أعذر ، والسلام على من اتبع الهدى ،

تاريخ سلاطين المماليك ص ١١٨ ـ ١٢١

***

كتاب الامان الذي أعطاه غازان لاهل الشام

بقوة الله تعالى ليعلم امراء التومان والالوف والمائة وعموم عساكرنا المنصورة ان الله لما نور قلوبنا بنور الاسلام ، وهدانا الى ملة النبي عليه افضل الصلاة والسلام « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله اولئك في ضلال مبين » .

ولما أن سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحكام الاسلام ، ناقضون لعهودهم حالفون بالأيمان الفاجرة ليس لديهم وفاء ولا ذمام ولا لأمورهم التئام ولا انتظام وكان احـدهم اذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . وشاع من شعارهم الحيف على الرعية ومد الأيدي العادية الى حريمهم وأموالهم ، والتخطي عن جادة العـــدل والانصاف وارتكابهم الجور والاعساف ، حملتنا الحمية الدينية والحفيظة الاسلامية على أن توجهنا الى تلك البلاد لازالة هذا العدوان واماطة هذا الطغيان ، مستصحبين الجم الغفير من

العساكر ، ونذرنا على أنفسنا ان وفقنا الله تعالى بفتح تلك البلاد ، أزلنا العدوان والفساد وبسطنا العدل والاحسان في كافة العباد ممتثلا للأمر الالهي « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى واليتامى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » وإجابة لما ندب اليه الرسول صلى الله عليه وسلم : ان المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماولوا.

وحيث كانت طويتنا متمثلة على هذه المقاصد الحميدة والنذور الأكيدة ، من الله علينا بتبلج تباشير النصر المبين والفتح المستبين وأتم علينا نعمته وأنزل علينا سكينته فقهرنا العدو الطاغية والجيوش الباغية وفرقناهم أيدي سبا ، ومزقناهم كل ممزق حتى جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا فازدادت صدورنا انشراحاً للاسلام ، وقويت نفوسنا بحقيقة الأحكام منخرطين في زمرة من حبب اليهم الايمان وزينه في قلوبهم وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان ، اولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة. فوجب علينا رعاية تلك العهود الموثقة والنذور المؤكدة فصدرت مراسيمنا العالية ألا يتعرض احد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها لدمشق واعمالها وسائر البلاد الشامية الاسلامية وان يكفوا اظهار التعدي عن انفسهم واموالهم وحريمهم ولا يحوموا حول حماهم بوجه من الوجوه حتى يشتغلوا بصدور مشروحة وآمال مفسوحة بعمارة البلاد وبما هو كل واحد بصدده من تجارة وزراعة وغير ذلك . وكان هـذا الهرج العظيم وكثرة العساكر فتعرض بعض نفر يسير من السلاحية وغيرهم الى نهب بعض الرعايا واسرهم ، فقتلناهم ليعتبر الباقون ويقطعوا أطماعهم عن النهب والأسر وغير ذلك من الفساد ، وليعلموا انا لا نسامح بعد هذا الأمر البليغ البتة ولا يتعرضوا لأحد من اهل الأديان على اختلاف أديانهم من اليهود والنصارى والصابئة ، فانهم انما يبذلون الجزية عنهم من الوظائف الشرعية ، لقول علي عليه السلام : انما يبذلون الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا ، والسلاطين موصون على اهل الذمة المطيعين كما هم موصون

على المسلمين ، فانهم من جملة الرعايا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الامام الذي على الناس راع عليهم وكل راع مسؤول عن رعيته . فسبيل القضاة والخطباء والمشايخ والعلماء والشرفاء والأكابر والمشاهير وعامة الرعايا الاستبشار بهذا النصر الهني والفتح السني وأخذ الحظ الوافر من السرور والنصيب الأكبر من البهجة والحبور مقبلين على الدعاء لهذه الدولة والمملكة الطاهرة آناء الليل وأطراف النهار .

نقلا عن سرور ـ دولة بني قلاوون ص ١٧٩ ـ ١٨١

***

مرسوم غازان بولاية قبجق على الشام

بقوة الله تعالى وميثاق الملة المحمدية فرمان السلطان محمود غازان . الحمد لله الذي أيدنا بالنصر العزيز الفتح المبين ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنظمنا في سلك المخلصين . ونشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وعلى آله صلاة تصله الى يوم الدين .

أما بعد فان الله تعالى لما ملكنا البلاد وفوض الينا النظر في امور العباد ووجب علينا أن ننظر في مصالحهم وأن نهتم بمصالحهم ، وأن نقيم عليهم نائباً يتخلق بأخلاقنا في كرم السجايا ويبلغنا الاغراض في مصالح الرعايا فأجلنا الفكر فيمن نقلده الامور وأنعمنا النظر فيمن نفوض اليه مصالح الجمهور واخترنا لها من يحفظ نظامها المستقيم يقول فيسمع مقاله ويفعل فتقتفى أفعاله يكون أمره من أمرنا وحكمه من حكمنا وطاعته من طاعتنا ومحبته من الطريق الى محبتنا ، فرأينا أن الجناب العالي الأوحدي المؤيدي العضدي النصيري العالمي العادلي الذخري الكفيلي السيفي سيف الدين ملك الامراء في العالمين ظهير الملوك والسلاطين قبجق هذا المخصوص بهذه الصفات الجميلة والمحتوي على هذه السمات الجليلة وله حرمة المهاجرة الى ابوابنا ووسيلة القصد الى ركابنا ، فعرفنا له هذه

الحرمة وقابلناه بهذه النعمة ورأينا انه لهذا المنصب حفيظ قمين قوي أمين وانه يبلغنا الغرض من حفظ الرعايا، فأقمناه مقامنا في العدل والقضايا، فلذلك رسمنا أن نفوض اليه نيابة السلطان الشريفة بالممالك الدمشقية والبعلبكية والحمصية والساحلية والجبلية والعجلونية والرحبية من العريش الى سلمية ، نيابة تامة عامة كاملة شاملة ، يؤتمر فيها بأمره ويزدجر فيها بزجره ويطاع في أوامره ونواهيه ولا يخرج احد عن حكمه ولا يعصيه له الامر التام والنظر العام وحسن التدبير وجميل التأثير الاحسان الشامل لأهل البلاد واستجلاب الغزاة والقواد وتأمين من يطلب الأمان والطاعة والامتنان متفقاً في الاستخدام والتأمين مع ملك الامراء ناصر الدين . فان اجتماع الآراء بركة والهمم تؤثر اذا كانت مشتركة وكل من أمناه فانه أمامنا اجريناه على قلمهما ولسانهما وقد أنعمنا عليه بالسيف والسنجق الشريف والكوس والبايزة الذهب برأس السبع ورسمنا له بألف فارس من المغل يركبون لركوبه وينزلون لنزوله وليكونوا تحت حكمه ، رفعة لقدره وتنويهاً باسمه .

وسبيل الأمراء والمقدمين وأمراء العربان والتركمان والأكراد والدواوين والصدور والأعيان والجمهور أن يتحققوا انه نائبنا في السلطنة الشريفة وأن له المنزلة المنيفة وليطيعوه طاعة تزلفهم لديه تقويهم اليه ، ويحصل لهم بها رضاه عنهم وإقباله عليهم ، وقربهم منه ، وليلزموا عنده الأدب في الخدمة كما يجب وليكونوا معه فى الطاعـة الموافقة على ما يجب وعلى ملك الأمراء سيف الدين بتقوى الله في احكامه وخشيته في نقضه وإبرامه وتعظيم الشرع وحكامه وتنفيذ أقضية كل قاض على قول إمامه وليعتمد الجلوس للعدل والانصاف وأخذ حق المشروف من الاشراف وليقيم الحدود والقصاص على كل من وجبت عليه وليكف الكف العادية عن كل من يتعدى اليه .

نقلا عن سرور ـ دولة بني قلاون ص ١٨٢ ـ ١٨٣

الخاقانات العظام

١ ـ جنكيزخان (تموجين)	٦٠٣ ـ ٦٢٤	
٢ ـ اوكتاي بن جنكيز	٦٢٤ ـ ٦٣٩	
٣ ـ كيوك بن اوكتاي	٦٤٤ ـ ٦٤٦	بعد وصاية امه للفترة السابقة
٤ ـ منكو بن تولي بن جنكيز	٦٤٨ ـ ٦٥٨	بعدفترةانقسام واختلاف على الترشيح
٥ ـ قبلاي بن تولي بن جنكيز	٦٥٩ ـ ٦٩٣	
٦ ـ اولجايتو بن جينغكين بن قبلاي	٦٩٣ ـ ٧٠٦	
٧ ـ كولوك	٧٠٦ ـ ٧١٠	
٨ ـ بويانتو	٧١٠ ـ ٧٢٠	
٩ ـ كه كن	٧٢٠ ـ ٧٢٣	
١٠ ـ يسون تيمور	٧٢٣	
١١ ـ راجي بقا	٧٢٣ ـ ٧٢٩	
١٢ ـ كوشالا	٧٢٩	
١٣ ـ كياغاتو	٧٢٩ ـ ٧٣٢	
١٤ ـ رينجين بال	٧٣٢	
١٥ ـ طوغان تيمور	٧٣٢	

زامباور ـ معجم الانساب والأسرات الحاكمة
ج ٢ ص ٣٦٠

***

الوزراء الايلخانيون

وزراء هولاكو: ١ ـ سيف الدين البيتكجي — قتله هولاكو سنة ٦٦١ هـ
٢ ـ شمس الدين محمد الجويني

وزراء اباقا :	١ ـ شمس الدين محمد الجويني	
وزراء تكودار :	١ ـ شمس الدين محمد الجويني	قتله ارغون سنة ٦٨٤ هـ
وزراء ارغون :	١ ـ الأمير بوقاجمع بين النيابة والوزارة	قتله ارغون سنة ٦٨٧ هـ
	٢ ـ سعد الدولة اليهودي	قتله الأمراء سنة ٦٩٠ هـ
وزراء كيخاتو :	١ ـ صدر الدين احمد الخالدي الزنجاني الملقب بصدر جهان	
وزراء بايدو :	١ ـ جمال الدين الدستجرداني	
وزراء غازان :	١ ـ صدر الدين الخالدي الوزارة الثانية	
	٢ ـ جمال الدين الدستجرداني » »	قتله غازان سنة ٦٩٦ هـ
	٣ ـ صدر الدين الخالدي الوزارة الثالثه	قتله غازان سنة ٦٩٧ هـ
	٤ ـ رشيد الدين الهمداني	مشاركة مع
	٥ ـ سعد الدين الساوجي	
وزراء اولجايتو :	١ ـ رشيد الدين الهمداني	مشاركة مع
	٢ ـ سعد الدين الساوجي	قتله اولجايتو سنة ٧١١ هـ
وزراء ابوسعيد :	١ ـ رشيد الدين الهمداني مشاركة مع	قتله ابوسعيد سنة ٧١٨ هـ
	٢ ـ عليشاه التبريزي	توفى حتف انفه سنة ٧٢٤ هـ
	٣ ـ ركن الدين صائن	قتله چوبان سنة ٧٢٧ هـ
	٤ ـ دمشق خواجا	قتله ابوسعيد سنة ٧٢٧ هـ
	٥ ـ غياث الدين محمد بن رشيد الدين	
وزراء أربا خان :	غياث الدين محمد بن الرشيد	قتل في الحرب مع علي بادشاه
	موسى خان جمال الدين محمود بن علي الشيرواني	
	لجأ الى الديار المصرية وتولى الوزارة فيها	

محمد خان

		١ـ شمس الدين محمد بن زكريا	مشاركة مع
		٢ـ مسعود بن محمود شاه اينجو	
ساتي بيك	:	١ـ ركن الدين شيخي	مشاركة مع
		٢ـ غياث الدين محمد المليشاهي	
جيهان تيمور	:	شمس الدين محمد بن زكريا	الوزارة الثامنة
سليمان خان	:		

***

ايلخانات فارس

١ ـ هولاكو بن تولي بن جنكيز خان	٦٥٦ هـ ـ ٦٦٣ هـ
٢ ـ اباقا بن هولاكو	٦٦٣ ـ ٦٨٠
٣ ـ احمد تكودار بن هولاكو	٦٨٠ ـ ٦٨٣
٤ ـ ارغون ابن اباقا	٦٨٣ ـ ٦٩٠
٥ ـ كيخاتو ايرنجين تورجي بن اباقا	٦٩٠ ـ ٦٩٣
٦ ـ بايدو بن طرغاي بن هولاكو	٦٩٣ ـ ٦٩٤
٧ ـ غازان بن ارغون	٦٩٤ ـ ٧٠٣
٨ ـ اولجايتو خدا بندا	٧٠٣ ـ ٦١٧
٩ ـ ابو سعيد بن اولجايتو	٧١٧ ـ ٧٣٦

الايلخانات الدمى :

١٠ ـ اربا خان من احفاد اريقبوقا بن تولي بن جنكيز

نصبه الوزير غياث الدين محمد بن رشيد الدين في سنة ٧٣٦ ـ ٧٣٦ هـ

١١ ـ موسى خان بن علي بن بايدو نصبه الامير علي بادشاه ٧٣٦ ـ ٧٣٧ هـ

١٢ ـ محمدخان بن يول قتلغ بن ايصنتيمور بن انبارجي بن منكوتيمور بن هولاكو

٧٣٩ ـ ٧٣٨ هـ وقد نصبه الشيخ حسن الكبير الجلائري

١٣ ـ ساتي بيك بنت اولجايتو ٧٣٨ وقد نصبها الشيخ حسن الصغير بن تيمورتاش بن چوبان

١٤ ـ جهانتيمور بن الفرنك بن كيخاتو ٧٣٩ ـ ٧٣٩ هـ وقد نصبه الشيخ حسن الكبير

١٥ ـ سليمان بن محمد بن سانكا بن يشموت بن هولاكو ٧٣٩ ـ ٧٤٤ وقد نصبه الشيخ حسن الصغير وزوجه من ساتي بيك

زامباور ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة

ج ٢ ص٣٦٢ ـ ٣٦٣

لين بول ـ الأسر المحمدية ص ٢٢٠

فهرست موضوعات البحث

ملاحق البحث ص ٥١١ ـ ٥٤٤

فهارس الأعلام والشعوب

فهارس الأمكنة والبلدان

مصادر البحث

جدول الخطأ والصواب

لوحات النقود

خارطة الدولة الايلخانية

فهرست الاعلام والشعوب

فهرست الاماكن والبلدان

مصادر البحث مرتبة حسب أحرف الهجاء لأسماء المؤلفين :

أولاً : المصادر الفارسية والتركية :

ابرو ـ حافظ عبدالله بن لطف الله بن عبدالرشيد .

١ ـ ذيل جامع التواريخ ، وقد اعتمدت في اغلبه على ترجمة خاصة للدكتور فؤاد الصياد . طهران ١٣١٧

البدليسي ـ شرف خان .

٢ ـ الشرفنامة ـ تعريب الملا جميل بندي الروزبياني بغداد ١٩٥٣

الجوزجاني : ابوعمر منهاج الدين بن عثمان بن سراج الدين.

٣ ـ سياسة الامصار في تجربة الاعصار (درتاريخ آل جنگيز) تحقيق محمد ميرزا محمد .

٤ ـ طبقات ناصري ، استعارة خاصة مما استنسخه لنفسه الدكتور فؤاد الصياد .

الجويني : علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد ت ٢٨١ هـ .

٥ ـ تاريخ جهانكشاي الأول والثاني تحقيق محمد عبدالوهاب القزويني . ليدن ١٢/١٩١٦

٦ ـ تاريخ جهانكشاي الثالث تحقيق دنس روز . لندن ١٩٣١

خوندمير : غياث الدين محمد بن همام الدين .

٧ ـ حبيب السير في اخبار افراد البشر . بمبي ١٢٧٣ هـ

دولتشاه : امير دولتشاه بن علاء الدولة بختشاه غازي السمرقندي .

٨ ـ تذكرة الشعراء تصحيح وتعليق محمد اقبال . لاهور ١٩٢٤ م

الفراوندي : محمد بن علي بن سليمان .

٩ ـ راحة الصدور وآية السرور، تعريب الشواربي وحسنين والصياد . القاهرة ١٩٦٠

رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة ابي الخير ت ٧١٨ هـ .

١٠ ـ جامع التواريخ المجلد الثاني تعريب نشأت . هنداوي والصياد . القاهرة ١٩٦٠

الشبنكاري : محمد بن علي بن محمد .

١١ ـ مجمع الأنساب استعارة خاصة مما استنسخه لنفسه الدكتور فؤاد الصياد عن مخطوطة نفيسي .

خواني : مصيحي ت ٨٤٥ هـ .

١٢ ـ مجمل فصيحي ـ ألفه على السنين استعارة خاصة مما استنسخه لنفسه الدكتور فؤاد الصياد .

القزويني حمد الله بن ابي بكر المتوفى ٧٥٠ هـ :

١٣ ـ تاريخ كزيدة تحقيق ونشر براون . لندن ١٣٢٨ هـ

١٤ ـ نزهة القلوب تحقيق ونشر ليسترنج ليدن ١٣٣١ هـ

ميرخوند : حميد الدين محمد بن خداوند شاه بن محمود ت ٩٠٣ هـ .

١٥ ـ روضة الصفا سبعة اجزاء في ثلاث مجلدات . لكنهو ١٣٠٨ هـ

نصير الدين الطوسي محمد بن محمد بن الحسن ٦٧٢ هـ .

١٦ ـ رسالة في فتح بغداد ترجمة محمد صادق الحسيني .

وصاف الحضرة اديب شرف الدين عبدالله بن فضل الله الشيرازي .

١٧ ـ تاريخ وصاف المسمى تجربة الامصار وتزجية الاعصار . بمبي ١٢٦٩ هـ

ابو الغازي بهادر خان بن عرب بن محمد خان ت ١٠٧٤ .

١٨ ـ شجرة تورك طبع في استانبول .

منجم باشي ـ درويش احمد ترجم الى التركية .

١٩ ـ صحائف الاخبار لمؤلفه نديم احمد . استانبول ١٢٨٥ هـ

ثانياً : المراجع العربية المخطوطة :

ابن الجزري الدمشقي ، شمس الدين ابو عبدالله محمد بن ابي اسحاق ابراهيم . ٧٣٩ هـ

٢٠ ـ تاريخ ابن الجزري .

ابن حبيب الشافعي نور الدين الحسن بن عمر . ٧٧٩ هـ

٢١ ـ درة الاسلاك في دولة الأتراك .

ابن حجر . شيخ الاسلام احمد بن علي بن محمد . ٨٥٢ هـ

٢٢ ـ اتحاف اخوان الصفا بنبذ من اخبار الخلفا .

ابن دقماق . ابراهيم بن محمد بن اميرمر . ٨٠٩ هـ

٢٣ ـ نزهة الأنام في تاريخ الاسلام .

٢٤ ـ الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين .

الدواداري . ركن الدين بيبرس المنصوري . ٧٢٥ هـ

٢٥ ـ زبدة الفكرة وتاريخ الهجرة .

الذهبي : شمس الدين ابو عبدالله . ٧٤٨ هـ

٢٦ ـ تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام .

رشيد الدين ، فضل الله بن عماد الدولة ابي الخير . ٧١٨ هـ

٢٧ ـ التاريخ الغازاني .

الزركشي : بدر الدين . ٧٩٤ هـ

٢٨ ـ عقود الجمان . ذيل على وفيات الأعيان .

ابن شاكر الكلبي . فخر الدين محمد بن احمد . ٧٦٤ هـ

٢٩ ـ عيون التواريخ .

الصفدي ، الشيخ ابو الصفا صلاح الدين خليل بن ايبك . ٧٦٤ هـ

٣٠ ـ الوافي بالوفيات .

٣١ ـ اعيان العصر واعوان النصر .

الطيب ابو محمد بن عبدالله بن احمد بن ابي مخزمة .

٣٢ ـ قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر .

ابن العراقي : ولي الدين احمد ابو زرعة بن عبد الرحيم . ٨٢٦ هـ

٣٣ ـ الذيل على ذيل تاريخ الاسلام .

العيني : بدر الدين محمود بن احمد بن موسى . ٧٥٥ هـ

٣٤ ـ عقد الجمان في تاريخ اهل الأزمان .

الغياثي : عبدالله بن فتح الله البغدادي .

٣٥ ـ التاريخ الغياثي .

ابن الفرات : محمد بن عبدالرحيم . ٨٠٧ هـ

٣٦ ـ تاريخ الدول والملوك .

ابن فضل الله العمري : شهاب الدين احمد بن يحيى . ٧٤٢ هـ

٣٧ ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار .

ابن قاضي شهبة : ابو بكر احمد بن محمد . ٨٥١ هـ

٣٨ ـ الاعلام بتاريخ اهل الاسلام .

ابو المحاسن : جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي . ٨٧٤ هـ

٣٩ ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي .

المقري الفيومي : احمد بن محمد بن علي . ٧٧٠ هـ

٤٠ ـ نثر الجمان في تراجم الأعيان .

المؤمني بن بهادر محمد بن محمد .

٤١ ـ فتوح النصر في تاريخ مصر .

النويري : شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب . ٧٣٢ هـ

٤٢ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب .

ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم .
٤٣ ـ تاريخ الواصلين او مفرج الكروب .
وصيف شاه ـ ابراهيم .
٤٤ ـ جواهر البحور ووقايع الامور وعجايب الدهور .
٤٥ ـ مجهول المؤلف : تاريخ الأنبياء وملوك الاسلام .
٤٦ ـ مجهول المؤلف : انسان العيون في مشاهير سادس القرون .
٤٧ ـ بدر : مصطفى طه ابران في عهد غازان رسالة دكتوراه .
٤٨ ـ القزاز ـ محمد صالح داود ـ الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير . رسالة ماجستير .

المراجع العربية المطبوعة :

ابن الأثير : علي بن احمد بن ابي الكرم ت ٦٣٠ ه .
٤٩ ـ الكامل في التاريخ ٩ اجزاء مطبعة الاستقامة بالقاهرة .
٥٠ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية. تحقيق عبدالقادر طليمات ، القاهرة ١٩٦٣م
ابن ابي الفضائل . المفضل ت ٦٧٢ ه .
٥١ ـ النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد نشر بلوشيد ، باريس ١٩١٢ م
ابن اياس : ابو البركات محمد بن احمد ت ٩٣٠ه .
٥٢ ـ تاريخ مصر المعروف ببدائع الزهور في وقائع الدهور. القاهرة ١٣١٢ه
الاصطخري : ابو اسحاق ابراهيم بن محمـــد الفارسي المعروف بالكوفي .
٥٣ ـ المسالك والممالك تحقيق محمد جابر و مراجعة شفيق غربال. القاهرة ١٩٦١م
ابن بحتر : صالح بن يحيى بن صالح من علماء القرن التاسع الهجري.
٥٤ ـ تاريخ بيروت واخبار الأمراء البحتريين من بني المغرب تحقيق لويس شيخو . بيروت ١٩٢٦م

ابن بطوطة : ابوعبدالله محمد بن عبدالله الطنجي ت ٧٧٩ هـ .
٥٥ ـ رحلته المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار القاهرة ١٩٦٤م
وعجائب الأسفار جزءان .
بنيامين : ابن بونة التطيلي الأندلسي .
٥٦ ـ رحلة بنيامين تعريب عزرا حداد . بغداد ١٩٤٥ م
بيشوف :
٥٧ ـ تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء . بيروت ١٨٨٠ م
ابن جبير : محمد بن احمد الأندلسي ت ٦١٤ هـ .
٥٨ ـ رحلة ابن جبير تحقيق حسين نصار . القاهرة ١٩٥٥ م
جوانفيل :
٥٩ ـ القديس لويس ترجمة وتعليق حسن حبشي . القاهرة ١٩٦٨ م
ابن الجوزي : ابو الفرج عبدالرحمن .
٦٠ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم من الجزء الخامس للعاشر حيدرآباد ١٣٥٨هـ
ابن حجر : شيخ الاسلام احمد بن علي بن محمد ت ٨٥٢ هـ .
٦١ ـ الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ٤ اجزاء . حيدرآباد ١٣٤٨هـ
تحقيق سالم الكرنكوي .
الخطيب البغدادي : ابو بكر احمد بن علي ت ٤٦٣ هـ .
٦٢ ـ تاريخ بغداد ١٤ جزء . القاهرة
ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد بن محمد ت ٨٠٨ هـ .
٦٣ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ اجزاء . بولاق ١٢٨٤ هـ
خليل : سليمان بن خليل بن بطرس .
٦٤ ـ التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية . بيروت ١٨٧٣ م
ابن ايبك الدوادار : ابو بكر عبدالله بن ايبك كان حياً سنة ٧٣٥ هـ .

٦٥ ـ الدرر الفاخرة في سيرة الملك الناصر وهو الجزء التاسع القاهرة ٦٠
من كنز الدرر تحقيق هانس .
الدياربكري : حسين بن محمد بن الحسن سنة ٩٦٦ هـ .
٦٦ ـ الخميس في احوال انفس نفيس . القاهرة ١٢٨٣ هـ
الذهبي : شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد بن عثمان ت ٧٤٦ هـ .
٦٧ ـ دول الاسلام في التاريخ جزءان . حيدرآباد ١٣٣٧ هـ
٦٨ ـ تذيل دول الاسلام ملحق به ومطبوع معه .
الرازي : محمد بن ابي بكر بن عبدالقادر .
٦٩ ـ مختار الصحاح : تبويب محمود خاطر . القاهرة ١٩٢٢ م
ابن رجب البغدادي ـ عبدالرحمن بن احمد الحنبلي ت ٧٩٥ هـ .
٧٠ ـ الذيل على طبقات الحنابلة . القاهرة ١٣٧٣ هـ
الرمزي ٠م٠م ٠
٧١ ـ تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار . اورنبورع١٩٠٨م
زيترسنين ـ حقق ونشر .
٧٢ ـ تاريخ سلاطين المماليك . ليدن ١٩١٩ م
ابن الساعي : علي بن انجب ت ٦٧٤ هـ .
٧٣ ـ الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير وهو الجزء
التاسع فقط حققه مصطفى جواد بغداد ١٩٣٤ م .
سبط ابن الجوزي : شمس الدين ابو المظفر يوسف ت ٦٥٤ هـ . بغداد ١٩٣٤ م
٧٤ ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان الجزء الثامن فقط . حيدرآباد ١٣٧٠هـ
السبكي : تاج الدين ابو نصر عبدالوهاب بن علي ت ٧٧١ هـ .
٧٥ ـ طبقات الشافعية ٦ اجزاء . القاهرة ١٣٢٤ هـ
السخاوي :

٧٦ ـ الاعلان بالتوبيخ عن ذم التاريخ نشر القدسي ١٣٤٩ هـ

السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن ت ٩١١ هـ .

٧٧ ـ تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين . القاهرة ١٩٦٤ م

٧٨ ـ حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة جزءان . القاهرة ١٣٢٧ هـ

٧٩ ـ نظم العقيان في اعيان الأعيان تحقيق فيليب حتى . نيويورك ١٩٢٧م

السلامي : محمد بن رافع ت ٧٧٤ هـ .

٨٠ ـ تاريخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار تحقيق بغداد ١٩٣٨ م
عباس العزاوي .

ابن شاكر الكتبي : فخر الدين محمد بن احمد ت ٨٦٤ م .

٨١ ـ فوات الوفيات . جزءان تحقيق محيي الدين عبدالحميد . القاهرة ١٩٥١م

ابوشامة شهاب الدين ابو محمد عبدالرحمن بن اسماعيل ت ٦٦٥ هـ .

٨٢ ـ الروضتين في اخبار الدولتين جزءان . القاهرة ١٢٨٧ هـ

٨٣ ـ ذيل الروضتين تحقيق محمد زاهر الكوثري . القاهرة ١٣٦٦ هـ

ابن شداد : بهاء الدين ت ٦٣٢ هـ .

٨٤ ـ المحاسن اليوسفية او سيرة صلاح الدين . القاهرة ١٣١٧ هـ

ابن شداد ـ عز الدين ابو عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم الحلبي ت ٦٨٤ هـ .

٨٥ ـ الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة تحقيق دمشق ١٩٦٢ م
سامي الدهان .

ابن الشحنة ابو الفضل محمد ت ٨٧٧ هـ .

٨٦ ـ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب . بيروت ١٩٠٩ م

الشوكاني : علي بن محمد ت ١٢٥٠ هـ .

٨٧ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . القاهرة ١٣٤٨هـ

الصابوني : جمال الدين ابو حامد محمد بن علي ت ٦٨٠ هـ .

٨٨ ـ تكملة اكمال الاكمال تحقيق مصطفى جواد . ط بغداد ١٩٥٧ م

الصفدي : الشيخ ابوالصفاء صلاح الدين خليل بن ايبك ت ٧٢٤ هـ .

٨٩ ـ الوافي بالوفيات طبع منه ثلاثة اجزاء فقط . استانبول ودمشق ١٩٣١/٥٣

٩٠ ـ نكث الهميان في نكت العميان . القاهرة

صفي الدين : عبدالمؤمن بن عبدالحق ت ٧٣٩ هـ .

٩١ ـ مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع تحقيق جوينول. ليدن ١٨٥٤م

ضيا احمد .

٩٢ ـ مسكوكات اسلامية توقويمي . القسطنطينية ١٣٢٨هـ

الطنجي : محمد بن تاويت .

٩٣ ـ التعريف بابن خلدون . القاهرة ١٩٥١ م

ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا ألفه سنة ٧٠١ هـ .

٩٤ ـ الفخري في الآداب السلطانية . القاهرة ١٣١٧ هـ

الظاهري : خليل بن شاهين ت ٨٧٢ هـ .

٩٥ ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . باريس ١٨٩١ م

ابن العبري : ابو الفرج غريغورس بن هرون ت ٦٨٤ هـ .

٩٦ ـ تاريخ مختصر الدول . بيروت ١٩٥٨ م

ابن العماد الحنبلي : ابو الفلاح عبدالحي ت ١٠٨٩ هـ .

٩٧ ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب ٨ اجزاء . القاهرة ١٣٥١ هـ

ابن عبدالظاهر محيي الدين عبدالله ت ٦٩٢هـ .

٩٨ ـ تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور تحقيق مراد كامل . القاهرة ١٩٦١م

٩٩ ـ الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية تحقيق اكسلي موبرج . ط ١٩٠٢م

ابن عنبة : محمد بن علي بن الحسيني ت ٨٢٨ هـ .

١٠٠ ـ عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب . بمبي ١٣١٨ هـ

ابو الفداء : اسماعيل بن علي ت ٧٣٢ .

١٠١ ـ المختصر في اخبار البشر اربعة اجزاء . القسطنطينية ١٢٨٦هـ

١٠٢ ـ تقويم البلدان : تحقيق رينود وديسلان . باريس ١٨١٥ م

ابن الفرات : محمد بن عبدالرحيم ت ٨٠٧ هـ .

١٠٣ ـ تاريخ الدول والملوك : حقق قسطنطين زريق بيروت ٣٦ / ١٩٤٢ م
بعض اجزائه .

ابن فضلان : احمد بن فضلان بن العباس قام برحلته سنة ٣٠٩ هـ .

١٠٤ ـ رسالة ابن فضلان في وصف رحلته الى بلاد الترك دمشق ١٩٥٩ م
والخزر تحقيق سامي الدهان .

ابن فضل الله العمري : شهاب الدين ابو العباس احمد بن يحيى ت ٧٤٢ .

١٠٥ ـ التعريف بالمصطلح الشريف . القاهرة ١٣١٢ هـ

ابن الفوطي : عبدالرازق بن احمد ت ٧٢٣ هـ .

١٠٦ ـ تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب حقق دمشق ٦٢ : ١٩٦٥ م
مصطفى جواد الجزء الرابع فقط .

١٠٧ ـ الحوادث الجامعة في المائة السابعة تحقيق مصطفى جواد . بغداد ١٣٥١هـ

القرماني : ابو العباس احمد بن يوسف ت ١٠١٩ هـ .

١٠٨ ـ تاج التراجم في طبقات الحنفية تحقيق هرمان بروخي . لايبزك ١٨٦٢م

القلقشندي : شهاب الدين ابو العباس احمد بن علي بن احمد ت ٨٢١ هـ .

١٠٩ ـ نهـــاية الأرب في معرفة انساب العرب تحقيق القاهرة ١٩٥٩ م
ابراهيم الابياري .

١١٠ ـ قلائد الجمان في التعريف بقبـائل عرب الزمان القاهرة ١٩٦٣ م
تحقيق الابياري .

ابن الكازروني : ظهير الدين ت ٦٩٧ هـ .

١١١ ـ مقامة في قواعــد بغداد في الدولة العباسية تحقيق بغداد ١٩٦٢ م
كوركيس وميخائيل عواد .

ابن كثير : عماد الدين اسماعيل بن عمر ت ٧٧٤ هـ .

١١٢ ـ البداية والنهاية . القاهرة ١٣٥٦ هـ

مبارك : محمد .

١١٣ ـ مسكوكات قديمة اسلامية قتالوغي القسم الثالث . القسطنطينية ١٣١٨ هـ

ابو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ت ٨٧٤ هـ .

١١٤ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . القاهرة ١٩٢٥ م

١١٥ ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي حقق بعض اجزائه القاهرة ١٩٥٦ م
يوسف نجاتي .

المخزومي : محمد بن سراج الدين ت ٨٨٥ هـ .

١١٦ ـ الصحاح الأخبار في نسب السادة الفاطمية الأخيار. القاهرة ١٣٠٦ هـ

المقريزي : تقي الدين احمد بن علي ت ٨٤٥ هـ .

١١٧ ـ السلوك في معرفة دول الملوك تحقيق مصطفى زيادة . القاهرة ١٩٣٤ م

١١٨ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . القاهرة ١٢٧٠ هـ

النسوي : محمد بن احمد بن علي المنشيء انتهى من تأليفه سنة ٦٣٩ هـ .

١١٩ ـ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي تحقيق حافظ حمدي القاهرة ١٩٥٣ م

ابن الوردي عمر بن مظفر الدين ت ٧٤٩ هـ .

١٢٠ ـ تتمة المختصر في اخبار البشر جزءان . القاهرة ١٩٣٩ م

١٢١ ـ خريدة العجائب: طبع ضمن مجموعة جمعها محمد مبارك . القاهرة ١٣١٦ هـ

اليافعي : ابو عبدالله محمد بن اسعد بن علي ت ٧٦٨ هـ .

١٢٢ ـ مرآة الجنان ٤ اجزاء . حيدرآباد ١٣٣٧ هـ

ياقوت : شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت الرومي ت ٦٢٦ ه .
١٢٣ ـ معجم البلدان ٦ اجزاء : طهران ١٩٦٥ م
اليونيني : قطب الدين موسى بن محمد بن احمد ت ٧٢٦ ه .
١٢٤ ـ ذيل مرآة الزمان . حيدرآباد ١٣٧٤ ه

المراجع العربية الحديثة :

ارنولد توماس .
١٢٥ ـ الدعوة الى الاسلام ترجمة حسن ابراهيم وعبدالمجيد عابدين واسماعيل النحراوي . القاهرة ١٩٥٧م
بارتولد .
١٢٦ ـ تاريخ الترك في آسيا الوسطى تعريب احمد السيد سلمان الباشا حسن الباشا محمود . القاهرة ١٩٥٨م
١٢٧ ـ الألقاب الاسلامية . القاهرة ١٣٧٧ ه
بدر : مصطفى طه .
١٢٨ ـ محنة الاسلام الكبرى اوزوال الخلافة العباسية في بغداد. القاهرة ١٩٤٦م
١٢٩ ـ مغول ايران بين المسيحية والاسلام : القاهرة
بابو اسحاق : رفائيل .
١٣٠ ـ تاريخ نصارى العراق . بغداد ١٩٤٨ م
براون ـ ادورد .
١٣١ ـ تاريخ الأدب في ايران من المعز دوسي الى السعدي ترجمة الشواربي . القاهرة ١٩٥٤ م
حتي : فيليب وآخرون .
١٣٢ ـ تاريخ العرب المطول . بيروت ١٩٥٠ م
١٣٣ ـ لبنان في التاريخ ترجمة ومراجعة فريحة ونقولا زيادة. بيروت ١٩٥٩ م

حسن علي ابراهيم .

١٣٤ ـ دراسات في تاريخ المماليك البحرية . القاهرة ١٩٤٤ م

١٣٥ ـ مصر في العصور الوسطى . القاهرة ١٩٤٩ م

حسنين : عبدالنعيم محمد .

١٣٦ ـ سلاجقة ايران والعراق . القاهرة ١٩٥٩ م

الحسني : محمد باقر كاظم .

١٣٧ ـ العملة الاسلامية في العهد الأتابكي . بغداد ١٩٦٦ م

حمدي : حافظ احمد .

١٣٨ ـ الدولة الخوارزمية والمغول . القاهرة ١٩٤٩ م

١٣٩ ـ الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي . القاهرة ١٩٥٠ م

الخربوطلي : علي حسن .

١٤٠ ـ مصر العربية الاسلامية . القاهرة ١٩٦٣ م

الدبس : يوسف الياس .

١٤١ ـ تاريخ سورية ٧ اجزاء . بيروت ١٩٠٢ م

الدوري : عبدالعزيز .

١٤٢ ـ النظم الاسلامية . بغداد ١٩٥٠ م

زامباور :

١٤٣ ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي .

عربه زكي محمد حسن .

وحسن احمد محمود . القاهرة ١٩٥١ م

١٤٤ ـ تاريخ آداب اللغة العربية ٤ اجزاء . القاهرة ١٩٣١ م

سرور : محمد جمال الدين .

١٤٥ ـ دولة الظاهر بيبرس في مصر . القاهرة ١٩٦٠ م

١٤٦ ـ دولة بني قلاون في مصر . القاهرة ١٩٤٧ م
الشبيبي : محمد رضا .
١٤٧ ـ مؤرخ العراق ابن الفوطي صدر منه جزءان . بغداد ١٩٥٨ م
الشواربي : ابراهيم امين .
١٤٨ ـ حافظ الشيرازي . القاهرة ١٩٤٤ م
الشيال : محمد جال الدين .
١٤٩ ـ تاريخ مصر الاسلامية الجزء الثاني العصران الأيوبي والمملوكي . القاهرة ١٩٦٧ م
الصدفي : رزق الله منقريوس .
١٥٠ ـ تاريخ دول الاسلام ٣ اجزاء . القاهرة ١٩٠٧ م
الصياد : فؤاد عبدالمعطي .
١٥١ ـ المغول في التاريخ . القاهرة ١٩٦٠ م
١٥٢ ـ مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل‌الله الهمداني . القاهرة ١٩٦٧ م
الصائغ : القس سليمان .
١٥٣ ـ تاريخ الموصل . جزءان . بيروت ١٩٢٨ م
عاشور : سعيد عبدالفتاح .
١٥٤ ـ الحركة الصليبية . الجزء الثاني . القاهرة ١٩٦٣ م
١٥٥ ـ العصر المماليكي في مصر والشام . القاهرة ١٩٦٥ م
العاملي : محسن الأمين الحسيني .
١٥٦ ـ اعيان الشيعة ٣٦ مجلد . دمشق ١٩٣٩ م
عبدالباقي : محمد فؤاد .
١٥٧ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . القاهرة ١٣٧٨ هـ
العزاوي : عباس .

١٥٨ ـ تأريخ العراق بين احتلالين . الجزء الأول . بغـداد ١٩٣٥ م

١٥٩ ـ التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان . بغـداد ١٩٥٧ م

غنيمة : يوسف رزق الله .

١٦٠ ـ نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق . بغـداد ١٩٢٤ م

فامبري : ارمينيوس .

١٦١ ـ تاريخ بخارى تعريب حمد محمود الساداتي . القاهرة ١٩٦٥ م

كيرك : جورج .

١٦٢ ـ موجز تاريخ الشرق الأوسط تعريب عمر السكندري . القاهرة ١٩٥٧م

لسترنج :

١٦٣ ـ بلدان الخلافة الشرقية تعريب بشير فرنسيس بغـداد ١٩٥٤م وكوركيس عواد .

١٦٤ ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية : بشير فرنسيس . ١٩٣٦ م

الماربيني : نابليون بن ميخائيل بن يوسف .

١٦٥ ـ تنزه العباد في مدينة بغداد . بيروت ١٨٨٧ م

مويير : وليم .

١٦٦ ـ تاريخ دولة المماليك تعريب محمود عابدين وسليم حسن . القاهرة ١٩٢٤م

١٦٧ ـ مورد اللطافة : ابوالمحاسن تغري بردي الأتابكي .

بحوث ومقالات عربية أو معربة :

خصباك : جعفر حسين .

١ ـ الادارة الايلخانية في العراق بجلة كلية الآداب بغـداد م ١ يونيو / حزيران ١٥٩٩ .

٢ ـ احوال العراق الاقتصادية في عهد الايلخانيين المغول بجلة كلية الآداب بغداد م ٤ اغسطس ١٩٦١ م .

الچلبي : داود .
٣ ـ ألفاظ مغولية في اللغة العربيـة . مجلة المجمع العلمي العراقي ج ١ بغداد ١٩٥٠ .
حسن : حسن ابراهيم .
٤ ـ الفرق بين كلمة تتر ومغول مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة م٧ ١٩٤٤ .
الشواربي : ابراهيم امين .
٥ ـ مصادر فارسية في التاريخ الاسلامي . مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة م٧ ١٩٤٤ م .
ظاهر : سليمان .
٦ ـ نصير الدين الطوسي مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (المجمع العلمي سابقاً) م٣٦ ١٩٦١ م .
البيطار : محمد بهجت .
٧ ـ شيخ الاسلام ابن تيمية : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق م٢٧ ١٩٥٢م .
الكاشف : سيد اسماعيل .
٨ ـ دراسات في النقود الاسلامية . مجلة التاريخ المصرية م١٢ ١٩٦٤/١٩٦٥
لطفي مهاب درويش .
٩ ـ الألقاب على المسكوكات الايلخانية مجلة سومر م ٢١ بغداد ١٩٦٥ م .
١٠ ـ العملة الاسلامية في العهد الايلخاني « م٢٢ « ١٩٦٦ م .
آل ياسين : محمد حسن .
١١ ـ المشهد الكاظمي من بدء الاحتلال المغولي مجلة سومر م ١٩ بغداد ١٩٦٣م .
وليم لانجر .
١٢ ـ موسوعة تاريخ العالم الاسلامي ترجمة محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٦٢ ديورانت .

١٣ ـ قصة الحضارة ترجمة محمد بدران . القاهرة ١٩٥٠
هامرتن .
١٤ ـ تاريخ العالم : ترجم باشراف وزارة التعليم العالي . القاهرة

مقالات عربت عن دائرة المعارف الاسلامية :

١٥ ـ بارتولد : اباقا م ١ .
١٦ ـ بارتولد : ابو سعيد م ١ .
١٧ ـ بارتولد : ارغون م ١ .
١٨ ـ بارتولد : الايلخانية م ٣ .
١٩ ـ بارتولد : باتو م ٣ .
٢٠ ـ بارتولد : بايدو خان م ٣ .
٢١ ـ بارتولد : بخارى م ٣ .
٢٢ ـ بارتولد : براق خان م ٣ .
٢٣ ـ بارتولد : بركة خان م ٣ .
٢٤ ـ بارتولد : بيش بالق م ٤ .
٢٥ ـ بارتولد : احمد تكودار م ٥ .
٢٦ ـ جغتاي م ٧ .
٣٧ ـ بارتولد : جلاير م ٧ .
٢٨ ـ بارتولد : جنگيزخان م ٧ .
٢٩ ـ بارتولد : آل الجويني شمس الدين وعلاء الدين م ٧ .
٣٠ ـ بلرلمتز : رشيد الدين م ١٠ .
٣١ ـ كرامرز : الجايتو خدابنده م ٢ .
٣٢ ـ مينورسكي : تبريز م ٤ .
٣٣ ـ مينورسكي : تغاتيمور م ٥ .

٣٤ ـ مورتمان : شيخ حسن الكبير م ٧ .
٣٥ ـ مورتمان : شيخ حسن الصغير م ٧ .
٣٦ ـ هارتمان : بلخ م ٤ .
٣٧ ـ هيوار : بغداد م ٤ .

Foreign Sources :

1 — ADLER : Museum Cufium Brogianum Velitris . 2 , Vols .

2 — ATIYA , A , S : Crusade , in The Later Middle Ages , London 1938 .

3 — BARTHOLD : Turkestan Down To The Mongol Invasion , London 1928 ,

4 — BRETSCHNEIDER : - Mediaval Researches From Eastern Asiatic Sources . London 1910 .

5 — BROWNE . E . G : Aliterary History of Persia Vol . 3 . Cambridge . 1928 .

6 — BROWNE . E . G : Abridged in English , The Tarikhi — Guzida Of Hamdullah Mustawfi Qazwini . Leyden 1913 .

7 — COMBE : Repertoirf Chronologique D'epigraphie Arabe . Le . Caire .

8 — CONDER . C . R : The Latin Kingdom of Jerusalem . London 1897 .

9 — COKE — RICHARD : Bachdad The City of Peace . London . 1935 .

10 — DOZY . A : Supplement Aux Dictionnaires Arabes . Paris . 1927 .

11 — ELLIOT . H . M : Bibliographical Index to The Historians

Of Muhammedan — India .

Colcutta . 1849 .

12 —AL -- FEEL . M . R : The Historical Geography of Iraq Between The Mongolian And Ottoman Conguest . Nejaf . 1965 .

13 — HAAS . JACOB DE : History of Palestine . New York . 1934 .

14 — D'HERBELOT : Bibloitheque . Oriental . Amestricht . 1776 .

15 — HOWORTH . H . H : Histry of The . Mongols . Part . 3 . London . 1888 .

16 — LANE — POOLE . S : Catalogue of Oriental Coins In The British Museum , The Coins of The Mongols . Vol . 6 , 10 . London . 1881 , 1890 .

17 — LANE — POOLE . S : The Mohammedan Dynasties . Paris . 1925 .

18 — LANE — POOLE . S : History of Egypt In The Middle Ages . London . 1901 .

19 — LE STRANGE . G : Translated To English The Nuzhat -- AL -- Qulub of Hamdallah . Leyden . 1919 .

20 — MALCOLM . J : The History of Persia . Two Vols . London . 1829 .

21 — MARCO — POLO : Travels . Translated To English By Alodo Ricci . London . 1931 .

22 — MAX VAN BERCHEM : Materiaux Pour Un Corpus Inscript-
- ionm Arabicarum . Le Caire . 1917 .

23 — MILES . G . C : The Numismatic Histoy of Rafy New York 1937 .

24 — MUIR . W : The Caliphate , Its Rise , Decline , And Fall . EdinBurgh . 1924 .

25 — D'OHSSON . M : Histoire Des Mongols Depuis Tchinguis Khan Jusq'a Timour Bay ou Tamerlan 4 . Vols Lahaye . 1834 — 1838 .

26 — OSBORN . R . D : Islam Under The Khalif of Baghdad . London . 1877 .

27 — PEARSON . J . O : Index Islamicus . Cambridge . 1958 .

28 — PEARSON . J . O : Index Islamicus Supplement . Cambridge 1962 .

29 — PRICE . D : Mohommedan History , Chronological Retrospect Or Memoiries On The Principal Event of Mahommedan History 3 . Vols . London . 1811 .

30 — STEINGASS . F : Persian -- English Dictionary London .

31 — SYKES . P : A History of Persia -- 2 . Vol Second Addition . London . 1921 .

ESSAYS FROM ENCYCLOPAEDIN OF ISLAM

32 — BARTHOLD : -- Hulagu . Enc . Isl .

33 — BARTHOLD : -- Ghazan . Enc . Isl .

34 — HONIGMANN : -- Mosul . Enc Isl .

35 — MINORSKY : -- MARAGHA . Enc . Isl .

36 — TAESCHNER : -- AL -- Nasir Enc . Isl .

37 — ZETTERSTEEN : -- AL -- Mustansir . Enc . Isl .

ESSAYS . FROM ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA .

38 — AVERY . P . W : Hulagu Enc . Br .

39 — BAXTON . D : Mongolia . Enc . Br .

40 — DOUGAS . R . K : Mongols . Enc . Br .

41 — FRANK . H : Kublai . Enc . Br .

42 — HART . L : Mongol . Enc . Br .

43 — LATTIMORE . O : Genghis Enc . Br .

44 — LATTIMORE . O : Ogodai . Enc . Br .

ESSAYS FROM CAMBRIDGE MEDIAEVAL HISTORY VOL .4

45 — LOEWE . H : The Mongols . C . M . H . Vol . 4 .

46 — MACLER . F : Armenia . C . M . H . Vol . 4 .

ESSAYS FROM THE JEURNAL OF THE ROYAL ASIATIC SOCIETY . " JRAS "

47 — BURN . R : Coins of The Elkhanis of Persia . Jras . 1933 .

48 — FISCHEL . W . J : On The Iranian Paper Currency " AL -- -- CHAW " of The Mongol Period . Jras . 1933 .

49 — KURDIAN . H : An Important Armenian . . MS . From A . D . 1330 . Jras . 1939 .

50 — ARNOLD . T . H . W : Muslim Civilization During The Abbasid Period . C . M . H . Vol . 1v .

51 — LAVOIX . M . H : Catalogue Des Mennaies Musulmanes . Paris . 1887 .

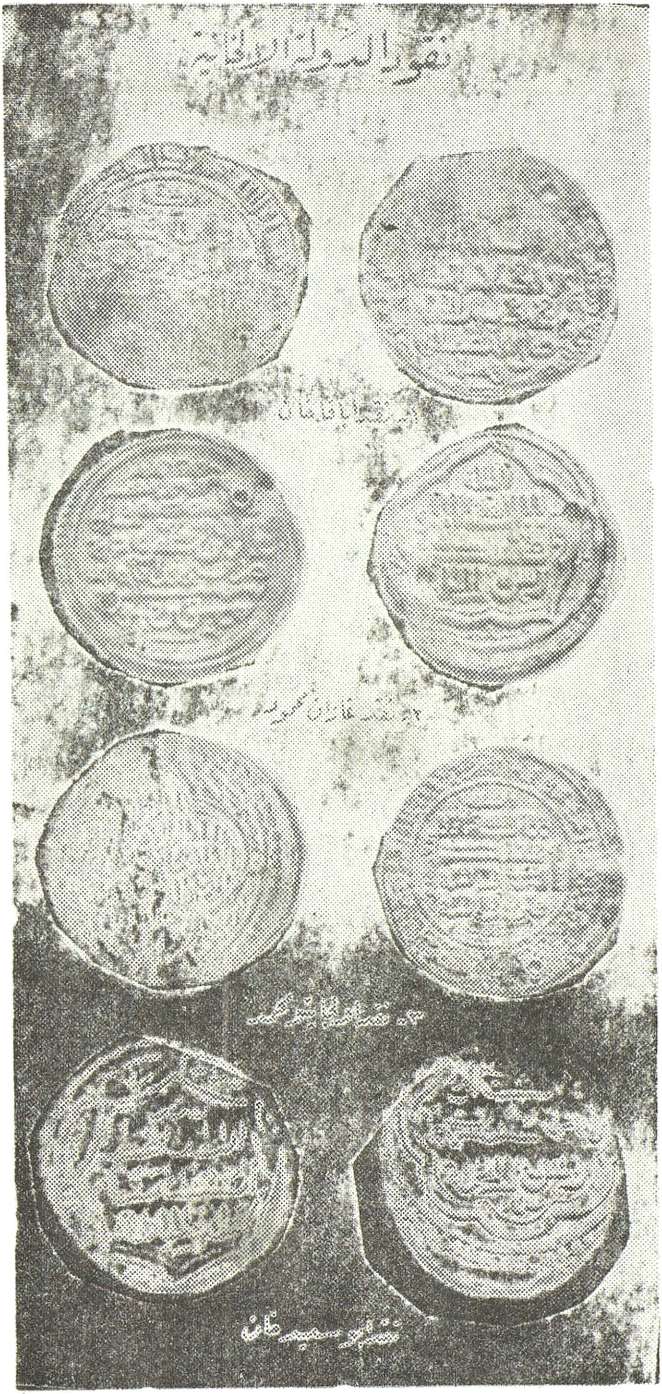
ص	السطر	الخطأ	الصواب
٢	٢	اراضيه السلبية التي كانت خطأ	اراضيه السلبية من ايدي الصليبية التي كانت
٥		ورد الرقم ٢٨٦ في الحاشية ٣ خطأ فيرجى حذفه .	
١١		الحاشية . Powe خطأ والصواب	Lowe . op . cit . P . 633 .
—		ووردت op . cit . في كثير من الحواشي بصورة مختلطة مع بعضها كأنها كلمة واحدة فضلا عن استبدال حرف P. بحرف F . فيرجى الانتباه لذلك .	
١٢	٨	بأبنائه	بأنبائه
١٥	١	اوما معناه	تحذف هذه الجملة
٢٧	٤	ماأشار ابن الاثير	ما اشار اليه ابن الاثير
٣٥	١٧	ابن	ابنه
٣٩	١	سوء	وسوء
٤٢	٢، ٧	الخانين	الخانية
٤٩	٨	عيسى الدين	عيسى
٤٩	١٤	الظاهر بالله	الظاهر بأمر الله
٦٩	١٥	عبر	عن
٧٥	الاخير	Encyafgclam	Enc. Isl.

ص	السطر	الخطأ	الصواب
٨٣	٣	قونين	قونية
٩١	٤	مصان	مصاف
٩٢	٧	سيئة	سنية
٩٤	٢٠	Rsteen	Zettersteen
١٠١	١٣	Thealiphate	والصواب The caliphate.
١٠٤	٤	التحلف	التخلص
١٠٥	٨	التحريف	التحريض
١٠٧	٢	هؤلاء	هولاكو
١١٩	١٥	تتخلف	تتخلص
١٢١	٢	العباسي	السياسي
١٢٨	١١	٥٦٧	٦٥٧
١٢٩	٣	العلامة	العلاقة
١٢٩	١٩	جانق	جانب
١٣٢	٥	٣٦٣ هـ	٦٦٣ هـ
١٤١	٤	النقود	النقوش
١٤٤	٣	وحتى	وهي
١٥٣	٨	يشحوت	يشموت
١٦٠	١٥	ضمن	خمن
١٦١	١٠	حكم بها	قام بها
١٦١	١٥	عمولتها	عملتها
١٦٥	٧	نوايا	نوابه

جدول الخطأ والصواب

ص	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٥	٨	داموق	داقوق
١٦٦	٣	عوتهم	عودتهم
١٦٦	١٢	اعتقد	اعتقل
١٦٦	١٤	كانت يد	كانت له يد
١٧١	٢٠	ذالك عند	ذلك كان عند
١٨٩	١٢	كالمغول	فالمغول
١٩٩	٨	اصر	امر
٢٠٠	٧	ارغون	بوقا
٢٠٣	٢	بكلاء بيكي	بكلربيكي
٢٠٥	٣	ابي سعيد	ابو سعيد
٢٠٧	١٩	هنا	هذه
٢١٠	١٣	صباين	صاين
٢١٣	٥	من كان	مما كان
٢١٦	٣	للتحسن	للنحس
٢١٧	١١، ١٢	ولقـد هولاكو والصواب	ولقد كان هولاكو
٢٣٤	١٢	على جيبان	على كليبان
٢٢٧	١٢	تنجل	تبخل
٢٥١	٧	يفتح	يقنع
٢٥٦	١٨، ١٩	المتحول	المتمول
٢٧١	١٠	ابن	ابنه
٢٧٩	٢	واستلم	واستسلام
٢٩٠	٣	سعدولة	سعد الدولة
٢٩٢	٧	عد في	غدا
٣٠٣	٥	يترفون	يعترفون
٣٠٦	٥	ففعل	فيفعل
٣٠٩	١٢	عليه عهد	عليه في عهد
٣١٢	١١	ونحى	دنحا
٣٢٤	٩	اما	امام
٣٣٦	٦	بالبريد	بالبرية
٣٤٠	٧	ضجت	ضمت
٣٤٦	١٤	بفعل	بعمل
٢٦٦	١٠	اخرج	اخرج
٣٨١	٤	يعتبر هذا	يعتبر في هذا
٣٩٠	١	حتى	حي
٣٩٤	١١	او قدموا	اوفدوا
٤٠٤	٦	امسوا	احسوا
٤٠٥	١	فقصور	فتصور
٤٠٦	٣	سلجية	سلمية
٤٠٧	٤	عقوبة	عفوية

مراجع لوحات النقود الايلخانية :

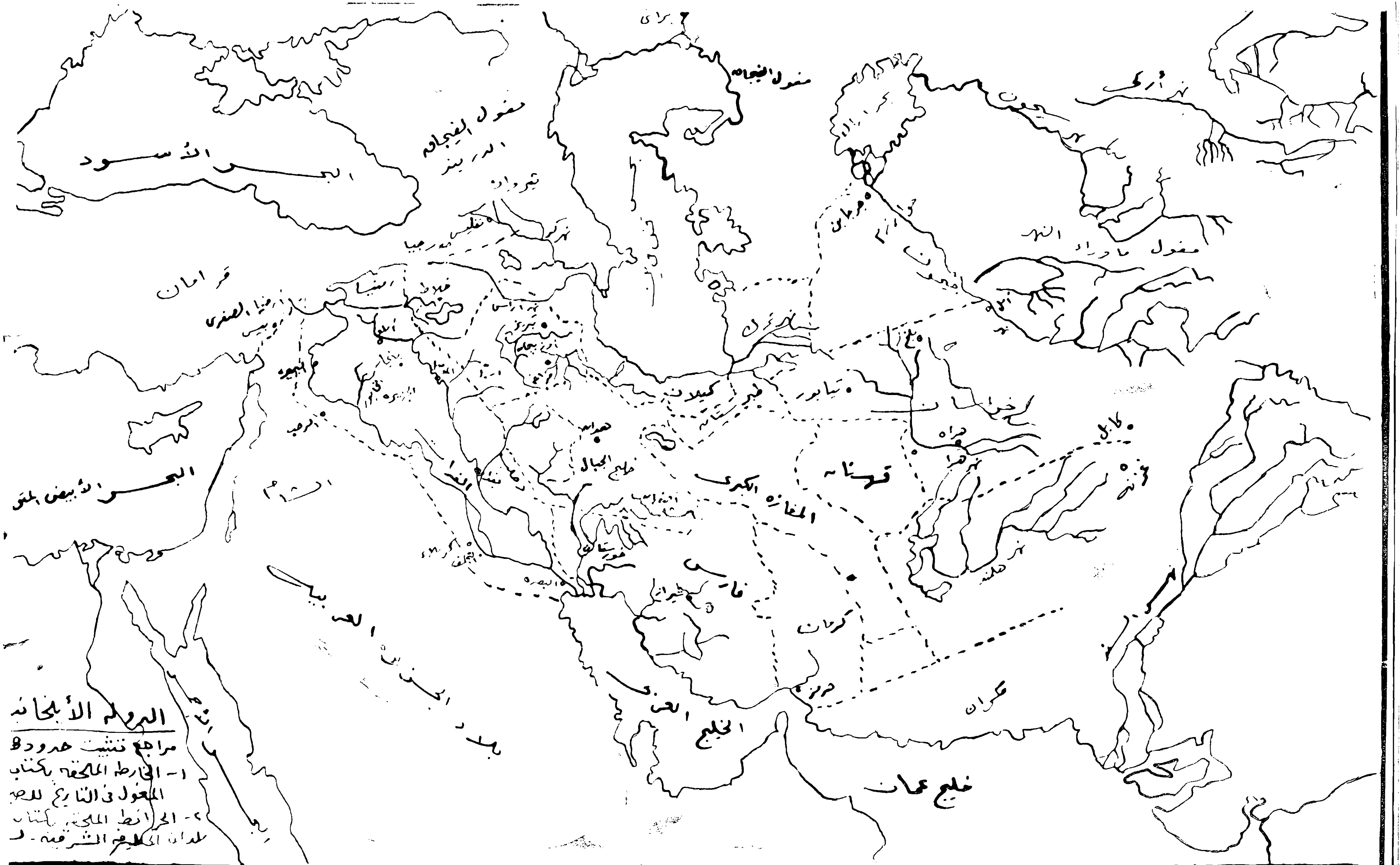


١ ـ نقود اباقا ـ منكوخان
سجل المتحف الاسلامي بالقاهرة
رقم ١٧٢٤٥ خ ٣ / ٣٨

٢ ـ نقود غازان محمود
سجل المتحف الاسلامي بالقاهرة
رقم ١٧٢٤٧ خ ٣ / ٣٨

٣ ـ نقود اولجايتو محمد خدابنده
سجل المتحف الاسلامي بالقاهرة
رقم ١٧٢٤٦ خ ٣ / ٣٨

٤ ـ نقود أبي سعيد
سجل المتحف الاسلامي بالقاهرة
رقم ٣ / ١٧٢٦٠ خ ٣ / ٣٩



الدولة الأيلخانية
مراجع تثبيت حدودها
١- الخارطة الملحقة بكتاب
المغول في التاريخ للص
٢- الخرائط الملحقة بكتاب
بلدان الخلافة الشرقية - ل
البحر الأسود
مغول القفجاق
مغول القفجاق
الدربند
شروان
تفليس
كرجيا
قرامان
أرمينيا الصغرى
البحر الأبيض المتو
الشام
بلاد العرب
الخليج العربي
خليج عمان
مكران
كرمان
فارس
شيراز
هرمز
قهستان
المفازة الكبرى
خراسان
هراة
نيسابور
كيلان
طبرستان
الجبال
خوزستان
البصرة
جرجان
مغول ما وراء النهر
كابل
غزنة

POLITICAL LIFE IN IRAG

DURING THE MONGOL DOMINATION

Arabic Text . By

M . S . D . AL . KAZZAZ .

College . of . Art

University of Baghdad .

AL KATHA . PRESS .

NAJAF .

1970

السعر ـــ دينار ونصف

وافقت وزارة الاعلام على طبعه

الاثنين ٢٦/١٠/١٩٧٠

١٤/ ١٠٠٠